

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الجزائري
(1219 - 1282 هـ / 1804 - 1871 م)

(دراسة مقارنة)

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد المجيد قدور

إعداد الطالب:

عبد الرزاق قشوان

الصفة	الجامعة الأصلية	لجنة المناقشة
رئيسا	جامعة الامير عبدالقادر (قسنطينة)	أ.د. أحمد صاري
مشرفا ومقررا	جامعة الامير عبدالقادر (قسنطينة)	أ.د. عبدالمجيد قدور
عضوا مناقشا	جامعة حمى لخضر (وادي سوف)	أ.د. علي غنابزية
عضوا مناقشا	جامعة محمد بوضياف (المسيلة)	أ.د. محمد السعيد قاصري
عضوا مناقشا	جامعة محمد لمين دباغين (سطيف)	د. فارس كعوان

السنة الجامعية: 1438-1439 هـ الموافق 2017-2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأمير

الإهداء:

إلى رُوحِ أبي ورُوحِ أمِّي الخالِدَتَيْنِ في أعْمَاقِ ذَاكِرَتِي
وَوِجْدَانِي، إلى الزَّوْجَةِ الكَرِيمَةِ، وإلى أَبْنَائِي وَبَنَاتِي
وَإِخْتِي وَأَخَوَاتِي ...
أُهْدِي هَذَا العَمَلَ المِتَوَاضِعَ

القادر للعلوم الإسلامية

كلمة شكر

الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلِّ الْحَمْدِ وَبَعْدُ، أَتَقَدَّمُ بِخَالِصِ شُكْرِي إِلَى الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْمَجِيدِ قُدُورِ

الَّذِي تَحَمَّلَ مَعِيَ أَنْعَابَ هَذَا الْعَمَلِ مِنْ خِلَالِ:

إِشْرَافِهِ عَلَى الْمَوْضُوعِ، وَ مُتَابَعَةِ خُطُواتِ الْبَحْثِ

وَ تَصْحِيحِ بَعْضِ الْمَفَاهِيمِ، وَتَقْدِيمِ الْعَدِيدِ مِنَ النَّصَائِحِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْأَكَادِيمِيَّةِ

أَشْكُرُهُ لِمَا أَتَّاحَ لِي مِنْ فُرْصَةٍ لِإِبْدَاءِ رَأْيِي بِشَكْلِ حُرِّ، كَمَا سَأَجِدُّ تَقْدِيرِي وَامْتِنَانِي لِمَنْحِي الْأَوْلَوِيَّةِ

وَالْأَفْضَلِيَّةِ مِنْ وَفْتِهِ وَانْشِغَالَاتِهِ؛ وَبِالْجَمَلَةِ؛ مَا كَانَ لِهَذَا الْعَمَلِ أَنْ يَرَى النُّورَ لَوْلَا مَسَاعِي الْأُسْتَاذِ

الْمُشْرِفِ وَجُهُودِهِ، لِذَا فَإِنَّ عِبَارَاتِ الشُّكْرِ تُقَرُّ بِالْعَجْزِ مِنْ إِنْصَافِهِ.

الشُّكْرُ مَوْصُولٌ أَيْضًا لِكُلِّ مَنْ سَاهَمَ بِمُسَاعَدَتِي لِإِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ، أَخْصُ بِالذِّكْرِ الدُّكْتُورَ فَيَصِلُ مَبْرُكُ

وَالدُّكْتُورَ زَرْقُوقَ مُحَمَّدَ، وَالدُّكْتُورَ فَرْقَانِي مُحَمَّدَ الَّذِي فَتَحَ لِي ذِرَاعِيهِ لِلتَّسْجِيلِ فِي هَذِهِ الْجَامِعَةِ

وَالدُّكْتُورَ عَبْدِ اللَّهِ بُوخَلْحَالِ، وَالشُّكْرُ لِكُلِّ هَيْئَةِ الْأَسَاتِذَةِ وَهَيْئَةِ الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ، وَهَيْئَةِ الْإِدَارَةِ بِجَامِعَةِ

الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ - قَسَنْطِينَةَ، وَلِكُلِّ مَنْ تَوَاصَلَ مَعِي فِي هَذَا الشَّانِ.

قائمة المختصرات والتوضيحات

- ط: رقم الطبعة

- ج: الجزء

- د.ت: دون ذكر لتاريخ الطبع

- *R.A :Revue Africaine*
- *P: Page*
- *PP: N° de pages*
- *Vol: Volume*
- *M.G : Ministere de la guerre.*
- *ANP : Archives Nationales de Paris.*
- *ACHM : Archives de la chambre de commerce de Marseille.*
- *AOMA :Archives d'outre-Mer en Provence.*

مقدمة

جامعة الأمير
القادر للعلوم الإسلامية

التعريف بالموضوع وأهميته:

البحث الأكاديمي التاريخي في الجانب الاقتصادي و الاجتماعي مؤشر وبيان للتطورات السياسية، ومنطقة الشرق الجزائري جديرة بالدراسة والبحث في هذا المجال، نظرا لأهمية المنطقة، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية عبر مختلف المراحل التاريخية ، سيما نهاية العهد العثماني و المرحلة الأولى من الإحتلال الفرنسي، اردت في هذا الاطار تسليط الضوء على هذه المنطقة. بدراسة مقارنة بين نظامين سياسيين متباينين في تاريخ الجزائر في العصر الحديث، هما: نهاية الحكم العثماني و مرحلة الاحتلال الفرنسي للشرق الجزائري. وهي الفترة الممتدة بين 1804-1871م.

دواعي اختيار الموضوع :

الرغبة في معرفة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي جرت في الشرق الجزائري في المرحلة الانتقال من الإدارة البايلككية الى الادارة الاستعمارية الفرنسية وبالضبط في الفترة الممتدة بين 1804 - 1871م. و في هذه المحطة كرس على الشعب الجزائري كل انواع الاستغلال الاقتصادي، الذي اضفى على الحياة الاجتماعية مظاهر الجهل والحرمان وتدني الحياة في كل مستوياتها.

غير أن هذه التغيرات التي كانت يومية في حياة الاجتماعية والاقتصادية، لم تشد انتباه المعاصرين، وعبر عنها الناس آنذاك بمستواهم الذهني البسيط كنهاية عالمهم الذي نشؤوا فيه وتشكلت في خضمه تنشئتهم الاجتماعية والثقافية، وقد يكون بعضهم قد هاجر الى خارج الشرق الجزائري كتعبير عن حالة من الاغتراب. في الفترة العثمانية او الفترة الفرنسية.

ذلك ان المجاهدة السياسية من ثورات وتمردات التي شدتها منطقة الشرق الجزائري؛ نهاية الفترة العثمانية والمرحلة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، سرعان ما فسحت المجال الى المجاهدة الحضارية التي كان مجتمع الشرق الجزائري مسرحا لها، فقد تعدت التغيرات على مستوى الهيئات الادارية الحاكمة، لتطال التراتب الاجتماعي والعادات والتقاليد ونمط المعيشة. بيد أن الدراسات التاريخية السابقة لم تغوص في أعماق هذه التغيرات إلا في حالات العثور على أشعار أو رحلات أو كتابات شبيهة بما فعل محمد الصالح العنترى، او بما ورد عرضا كما في دفاتر المحاكم الشرعية. هذا التغير في إطار استمرارية المجتمع الشرق الجزائري غائبة في الدراسات الأكاديمية المعاصرة لأنها انشغلت ببحث كل فترة على حدة.

إشكالية البحث :

عرف الشرق الجزائري مكانة مرموقة عبر مراحل التاريخ، وكانت قاعدة انطلقت منها عدة حركات سياسية ومذهبية أثمرت عن تأسيس الدولة الجزائرية بداية من سنة 1518م. التي تفاعلت مع المجتمع الجزائري اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

كانت منطقة الشرق الجزائري مقصد المثقفين من العلماء والرحالة القاصدين والمتجولين، واهتم بها المؤرخون في تدوين تطورات أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية و أصبحت تلك الكتابات مصدرا مهما للتأريخ الاجتماعي.

وفي الوقت الذي استسلمت فيه دار السلطان وطلب الداى حسين الأمان وحذى حذوه كل من بايليك الغرب بزعامة الباى حسن وبايليك التيطري بزعامة مصطفى بومزراق، تميز بايليك الشرق بزعامة الحاج أحمد باي الذي انفرد بالمقاومة الشرسة والدفاع المستميت في كل شارع وعن كل بيت، حتى سقطت قسنطينة سنة 1837م في يد الاحتلال الفرنسي.

وفي الفترة الحديثة أفردت أبحاثا عديدة للشرق الجزائري وكتبت مؤلفات كثيرة، ولاسيما في أواخر العهد البايليكى وبداية الفترة الاستعمارية، غير أن تلك الكتابات لم تهتم بدراسة وملاحظة التغيرات الاقتصادية والأحوال الاجتماعية بين المرحلين اي بين نهاية الفترة العثمانية و المرحلة الاولى للاحتلال الفرنسي للشرق الجزائري بشكل خاص اي بين سنتي 1804-1871م.

و الإشكالية التي بنيت عليها هذا البحث تتمثل في طبيعة النشاط الاقتصادي و الحياة الاجتماعية التي ميزت الفترة الاخيرة من الحكم العثماني هل ساهمت هذه الاوضاع في انهيار السلطة العثمانية ؟ و هل التطورات الاقتصادية و الاجتماعية في الفترة الاولى للاحتلال الفرنسي هي الي فجرت ثورة المقراني ؟ و أي العناصر والفئات الاجتماعية التي استفادت او التي خسرت من انتقال السلطة والسيادة على الشرق الجزائري؟ وقد تفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الإشكاليات وهي كالاتي:

- 1- ما هي الامكانيات الطبيعية و البشرية لمنطقة الشرق الجزائري ؟
- 2- ماهي الآليات المتحكمة في اقتصاد الشرق الجزائري في الفترة العثمانية ؟
- 3- ماهي التطورات التي طرأت على الناحية الاقتصادية في الفترة الاحتلال الفرنسي ؟
- 4- فيما تتمثل نقاط التقارب والتقاطع بين السياسة العثمانية والسياسة الفرنسية في المجال

الاجتماعي؟

5- ما أثر الواقع الاقتصادي والاجتماعي في تأزم الوضع السياسي في ثورة محمد ابن الأحرش
وثورة محمد بن أحمد المقراني؟

حدود الدراسة :

لقد حددت الإطار الزمني لهذه الدراسة ما بين حدثين هامين ثورة محمد بن الأحرش في الفترة العثمانية ، ونهاية الحكم العسكري وبداية الحكم المدني الفرنسي (1804 - 1871م) . ، وتمثل ثورة بن الأحرش هزة عنيفة ليس على المستوى المحلي (البايليك) بل على مستوى إيالة الجزائر كلها وهي مؤشر لتردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لان التمردات والانفضاضات ضد السلطة العثمانية استمرت في جيوب البايليك حتى سقوط عاصمة البايليك قسنطينة سنة 1837 م ، و انتقال الشرق الجزائري الى سلطة مغايرة في نظامها وأهدافها وطبيعتها وأسس مقوماتها والمتمثلة في سلطة الإستيطان الفرنسي، بينما حددت نهاية هذا البحث بسنة 1871م، وهي السنة التي شهد فيها الشرق الجزائري ثورة اجتاحت المنطقة بل تعدتها وكان لها صدى واسع، وهي ثورة الشيخ محمد المقراني.

لقد حصرت المجال الجغرافي للبحث في منطقة الشرق الجزائري وهو ما يعرف في العهد العثماني ببايليك الشرق، الناتج عن تقسيمات الإدارة العثمانية لسنة 975هـ/1565م، والتي أبقت إدارة الاحتلال الفرنسي عليها وفق مرسوم 1834م.

المنهج المتبع في البحث :

لقد كانت خصوصية هذا البحث تفرض على الباحث التقيد بالمنهج العلمي التاريخي في كل مراحل البحث، منذ اختيار الموضوع حتى إخراجته في شكله النهائي، وقد اعتمدت على جمع المصادر و المراجع، وابتعت الأسلوب الوصفي، و إستقصاء المادّة الخبيرة المتناثرة في مختلف الوثائق والمخطوطات والمواد الأرشيفية المستخدمة، وأيضاً اعتمدت على جداول احصائية، لتوضيح التطورات الانتاجية من أجل الوصول إلى مقارنة اجتماعية اقتصادية وسياسية لحقيقة بايلك الشرق الجزائري ، وتقديمها حسب معطيات فكرية منطقية، محولاً في ذلك الوصول إلى إجابات لمختلف الإشكالات والتساؤلات التي طرحتها في الموضوع.

الدراسات السابقة:

حضني الشرق الجزائري في فترة العثمانية والفترة الفرنسية بدراسات تاريخية وأكاديمية كثيرة، حيث اهتم ناصر الدين سعيدوني بدراسات مستفيضة عن الجزائر في الفترة العثمانية واهمها النظام الضريبي في الجزائر آواخر الفترة العثمانية وأما محمد العربي الزبيري تناول في دراسته التجارة في الشرق الجزائر لما لها من أهمية اقتصادية في

أواخر الفترة العثمانية، واهتم صالح فركوس في دراسته الموسومة بالتشريعات الفرنسية، كما اهتم عبد الجليل التميمي بدراسة بايلك قسنطينة والحاج أحمد باي 1830-1837م، واهتمت فلة قشاعي الموساوي في دراستها للوضع الصحي في الريف القسنطيني وأواخر الفترة العثمانية ودرستها عن الوضع الصحي في الجزائر. أما الأستاذة فاطمة الزهراء قشي فكانت دراستها تتمحور حول قسنطينة المدينة والمجتمع في عهد صالح باي البايات، وقد ركزت في دراستها عن قسنطينة عن مختلف المهن والحرف والحرفيين في المدينة، ولقد اهتمت بالتطورات الحاصلة أواخر الفترة العثمانية وركزت على الطابع الاستغلالي والامتصاص الضريبي والحملات العسكرية التي كان يشنها بايات قسنطينة لجباية الضرائب والصراع بين السلطة والقبائل واستفحال ظاهرة الامتيازات لصالح طبقة الاجواد وشيوخ الطرق الصوفية وزعماء القبائل كما ارتكزت بعض الدراسات على اهم الأنظمة التي كانت تتحكم في دوايب المعاملات الاقتصادية والتجارية والدراسات التي اهتمت بالمحاكم الشرعية وما يرافقها من دراسات أرشيفية وكل هذه الدراسات لها أهميتها العلمية والتاريخية أنارت سبيل بحثي ومطية استرشادي.

أما الدراسات الأكاديمية التي تناولت الفترة الاستعمارية منهم أحمد سيساوي في دراسته التي تناول فيها البعد البايليكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي الى نابليون الثالث 1838 - 1871، ودراسة أمحيدة عميرواي السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في المنطقة سكيكدة 1838-1858، وبو عزة بوضرساية ودراسته لمقاومة احمد باي، واندرى نوشي في دراسته الموسومة بـ:

Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en 1919.

تميزت هذه الدراسات في إبراز الفترة البايليكية كمرحلة استغلال وامتصاص ضريبي واستبداد سياسي وصراعات قبلية ومجاعات دورية وأزمات سياسية، مرسية، وارني، اسماعيل عربان، مورينيو، ارنت مارسييه. إن هذه الدراسات وغيرها لم تفض الى التطورات الناتجة بين المرحلة الانتقالية بين النظام البايليكي العثماني والنظام الإسطاني الفرنسي في الجانب الاقتصادي والاجتماعي بل انصب اهتمامها إما على الفترة البايليكية او الفترة الاستعمارية، ولم تتببع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الحاصلة التي وقعت بعد فرض السيادة الفرنسية على الشرق الجزائري.

أما الفرنسيون فقد اهتموا بالدراسات في الفترة البايليكية والفترة الفرنسية، إلا ان أبحاثهم ودراساتهم كانت ذات رؤية خاصة تخدم مصالحهم وهدافهم الاستعمارية. و يمكن الاستفادة منها كثيرا ، لان اهم المصادر الارشيفية هي تحت تصرفهم التي نهبوها عند عملية الاحتلال .

مصادر البحث ومراجعته:

اعتمدت في بحثي على جملة من المصادر التي كانت هامة ولا يمكن الاستغناء عليها لأهميتها التاريخية والتي تمثل ركائز ودعائم البحث ومنها مذكرات احمد باي ومجاعات قسنطينة لمحمد الصالح العنترىوفريدة منسية في حال دخول الترك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، لنفس المؤلف والمرآة لحمدان بن عثمان خوجة، وإتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء لنفس المؤلف، ومنشور الهدايا في حال فيمن الدعي العلم والولاية لعبد الكريم الفكون، وتاريخ حاضرة قسنطينة، الحاج أحمد بن المبارك.

أما المصادر الفرنسية فهي دراسات مستفيضة وعديدة ومتنوعة مثل تاريخ قسنطينة تحت حكم البايات الأتراك حتى عملية الاحتلال 1535-1837 لفايسات. وتاريخ مدن بايليك قسنطينة لشارل فيرووصحراء قسنطينة وتاريخ جيغل لنفس المؤلف، وتاريخ قسنطينة لارنست مرسيي، والطاعون في الجزائر ل قيون (Guyon).

- العهد والأمان المعطى لمحلة الشرق، وثيقة رقم 43، ملف رقم 01، مجموعة 3206، المكتبة الوطنية الجزائر. ولويس رين في كتابه انتفاضة 1871 في الجزائر. الا ان هذه المؤلفات اشتملت على الطابع الوصفي ولم تلج الى الجانب الاقتصادي والاجتماعي في الفترتين البايلكية والفرنسية .

المحاور الكبرى التي اشتملت عليها الدراسة:

بنيت بحثي هذا بمجموعة من الفصول التي تفرعت الى عدة مباحث و مقدمة وانتهت بحثي بخاتمة لقد تناولت في المقدمة التعريف بالموضوع وأهميته وطرحت الاشكالية التي تتفرع منها جملة من التساؤلات وحددت الموضوع باطار زماني ومكاني ثم عرضت أهم الدراسات الأكاديمية التي تناولت المنطقة وذكرت أهم المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع أو كانت لها علاقة بذلك من المصادر العربية والفرنسية وأتميت ذلك بعرض خطة البحث وفهارس.

الفصل الأول: وعنوانه ب: لمحة عامة عن الشرق الجزائري بين 1804-1871 : وتناولت فيه ثلاثة مباحث، من أجل التعريف بمنطقة الشرق الجزائري من ناحية الموقع والجغرافية، أما المبحث الثاني فمن أجل التعريف بالنظام الإداري العثماني في هذه المنطقة، أما المبحث الثالث فتطرقنا فيه للإنتفاضات والثورات الشعبية في بايلك الشرق خلال الفترة الأخيرة من الوجود العثماني.

اما الفصل الثاني فعنوانه ب: الوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري (الفترة العثمانية) 1804-1836م وتناولت فيه أربعة مباحث، في المبحث الأول تكلمنا عن المقومات الاقتصادية للشرق الجزائري في الفترة العثمانية، مبرزين المؤهلات هذا البايك وكذا الإمكانيات الهائلة التي يزخر بها، بينما المبحث الثاني؛ فقد أشرنا

إلى الأسواق والمرافق التجارية في مدينة قسنطينة، أما المبحث الثالث؛ فكان بعنوان: السياسة الضريبية مظهر للتسلط نهاية الفترة العثمانية في الشرق الجزائري، وتكلمنا عن أنواع الضرائب وقيمتها وارتفاعه وانخفاض هذه المبالغ، أما المبحث الرابع؛ فكان بعنوان: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، وتكلمنا فيه عن الصادرات والواردات والجهات التي يتم التبادل معها.

أما الفصل الثالث فعنوانه: **التطورات الاقتصادية في الشرق الجزائري 1837 - 1871م**، وقدمته في خمسة مباحث: تناولت فيه المواضيع التالية: التشريعات الفرنسية للملكية العقارية في الشرق الجزائري، و المبحث الثاني الموسوم ب أساليب اغتصاب الأراضي لبناء الاقتصاد الكولونيالي في الشرق الجزائري، اما المبحث الثالث فعنوانه ب تطور الزراعة الكولونيالية على حساب الزراعة التقليدية، اما المبحث الرابع فعنوانه ب تطورات جباية الضرائب وتنظيمها في العهد الفرنسي في الشرق الجزائري. اما المبحث الخامس فكان عنوانه مقارنة تطورات الوضع الاقتصادي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية.

أما الفصل الرابع فعنوانه ب: **الوضع الاجتماعي في الفترة العثمانية 1804-1837م** وقدمته في ثلاث مباحث، المبحث الأول الموسوم بالبنية الاجتماعية في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية، أما المبحث الثاني فعنوانه بالواقع الاجتماعي في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية أما المبحث الثالث فهو بعنوان التفاعل بين الفئات الاجتماعية في الشرق الجزائري.

والفصل الخامس: جاء بعنوان ب: **التطورات الاجتماعية خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1837-**

1871 وتناولته في خمس مباحث، فالمبحث الأول جاء بعنوان تغير البنية الاجتماعية للمدن في الشرق الجزائري. اما المبحث الثاني الموسوم ب تراجع الحياة الاجتماعية في الريف وانقسام بنية القبيلة. ناقشنا تغير البنية الاجتماعية للمدن في الشرق الجزائري متسائلين في الأسباب والنتائج، اما المبحث الثالث جاء بعنوان الأقلية الأوربية وأثرها على الحياة الاجتماعية . اما المبحث الرابع الموسوم بذروة الانفجار الاجتماعي في الشرق الجزائري. و أنهت هذا الفصل بمبحث بعنوان مقارنة تطورات الوضع الاجتماعي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية ، وفي الأخير أنهت البحث بخاتمة وهي جملة من الاستنتاجات والرؤى التي ظهرت لي من خلال البحث.

صعوبات البحث:

أول الصّعوبات التي واجهتني في إنجاز هذه الدّراسة هي أنّ معظم المصادر والمراجع التي تناولت هذه الفترة من الدّراسة هي كتب نادرة والحصول عليها يعد -وحدّه- إنجازاً، كما أن التّعامل مع بعض المراجع والوثائق يعدّ صعباً من حيث التّصفح واستخراج المادة الخبرية والمعرفية ووضعها في سياقها حسب ما يخدم البحث، إضافة إلى عدم تمكّني من الحصول على بعض المصادر والمراجع المهمّة لهذه الدّراسة، رغم الجهد الذي بذلته في سبيل الحصول عليها، بالإضافة إلى قلة الوثائق والتّقارير والرّسائل التي تبرز هذه العلاقات التي يوجد غالبها في الأرشيف العثماني بتركيا.

وفي الأخير أرجو ان أكون قد أفدت قارئاً ومتصفح هذه الصفحات، كما أطلب منه أن يدعو لي بخير الدعاء، وأن يُشهرَ ما فيها من خير، وَيَكُفَّ عما فيها من نقص، والله الدوام.

الفصل الأول

لمحة عامة عن الشرق الجزائري بين 1804 – 1871

المبحث الأول: موقع و الجغرافية الشرق الجزائري

المبحث الثاني: النظام الإداري في الفترة العثمانية

المبحث الثالث: الثورات والانتفاضات والمقاومات الشعبية 1804-

1871 م

المبحث الأول: موقع والجغرافية الشرق الجزائري

أضحى الشرق الجزائري من أهم المناطق التي تستدعي للدراسة. فالبحث في المجال الاقتصادي والاجتماعي من أهم المجالات الحيوية، التي تنمي الفكر وتعلل وتفسر الأحداث السياسية، ولا يمكن فهم التطورات السياسية إلا بالتنقيب على حيثياتها في النشاط الحيوي للسكان وآليات النظام الذي يسيرها، فعامل القوة والضعف وتحالف وتضامن الفئات الاجتماعية مرده للحصانة التي تجمعها وتجعله قوة للبناء أو قوة للدفاع المشترك لتصنع منه المصير والتاريخ المشترك.

لقد حظي الشرق الجزائري بمجموعة من الإمكانيات الاقتصادية والاجتماعية. فرغم قوة هذه الامكانيات في الانتشار والتنوع أوقع المنطقة في أزمت اجتماعية واقتصادية وسياسية بارزة. أستوقفت الباحثين والمؤرخين، وأرقت السياسيين، فما هي إمكانيات الشرق الجزائري في نهاية الفترة العثمانية؟

ان لجانب الجغرافي والفضاء الذي تمتد فيه دراسة البحث، وذلك ليتسنى للقارئ لمعرفة الإمكانيات الطبيعية التي تحضى بها منطقة الشرق الجزائري والتي على أساسها تبنى الحياة الاجتماعية وتمارس فيها الانشطة الاقتصادية، وأهم سؤال يمكننا طرحه في هذا الإطار هو: ما هي الحدود الجغرافية للشرق الجزائري؟ والسؤال الثاني هو: ما هي الإمكانيات الطبيعية المساهمة في النشاط الاقتصادي والمحددة للحياة الاجتماعية لسكان المنطقة؟

الامتداد الجغرافي:

يمتد الشرق الجزائري والذي عرف في الفترة العثمانية ب: بايليك الشرق أو إقليم الشرق والذي اتخذ من قسنطينة⁽¹⁾ عاصمة لمقر السلطة العثمانية فهو متباين في تضاريسه متنوع بأقاليمه، والذي يمتد من حدود أيلة تونسفي القالة إلى واد الصومام قرب بجاية غربا، أي إلى الحدود الغربية لبايليك التيطري، وهي الواجهة البحرية المطللة على البحر الأبيض المتوسط من الجهة الشمالية، وهوفضاء الاتصال مع العالم الخارجي وخاصة أوربا، ويكتسي أهمية بالغة في المعاملات والمبادلات بين الشرق الجزائري وبقية دول العالم العربي والإسلامي، ودار السلطان مقر السلطة المركزية لإيالة الجزائر، ويمتاز بتنوع التضاريس وكثافة الغابات وكثرة الجبال وتوفر السهول أين توجد مجموعة من المدن الهامة منها عنابة وسكيكدة وبجاية وجيجل، أما الحدود بين الشرق

(1) تقع مدينة قسنطينة فلكيا على خط 36. 23 درجة شمالا، وخط 7. 35 درجة شرقا، وتتوسط إقليم شرق الجزائر، حيث تبعد مسافة 245 كلم عن الحدود الشرقية الجزائرية التونسية وحوالي 431 كلم عن الجزائر العاصمة غربا و235 كلم عن مدينة بسكرة جنوبا و80 كلم عن مدينة سكيكدة شمالا، وترتبع مدينة قسنطينة فوق الصخرة العتيقة على جانبي وادي الرمال تحف بما العواقر والانحدارات الشديدة من كل الجهات.

الجزائري ودار السلطان وبايليك التيطري فهو واد الصومام الذي يصب غرب بجاية ويمتد نحو الجنوب، وهذا الوادي "السمار" يأخذ مجراه من أعالي برج حمزة، ومن روافده أودية كثيرة من جرجرة، وتختلف تسميته حسب الجهات التي يمر بها، ويدعى في أعالي قرية بني منصور بوادي بني منصور، ثم يغير اسمه إلى وادي بني عباس قرب أقبو وبني وغليس وتازمالت، وفي الأخير يحمل اسم وادي الصومام⁽¹⁾، ويصب هذا الوادي في البحر بالقرب من بجاية، ويدخل ضمن إقليم قسنطينة.

وبرج حمزة يدخل ضمن بايليك الشرق وذلك لكون القائد المتصرف فيه كان يعين من طرف باي قسنطينة، حتى جبال البيان⁽²⁾ (بيان الحديد) ومنها جنوبا حتى المسيلة ومنطقة الحضنة، ويعتبر واد الصومام الفاصل الطبيعي من الناحية الغربية لبابليك قسنطينة.

وأما من الناحية الجنوبية يتوغل بايليك الشرق نحو الصحراء وتعتبر ورقلة وتقرت 1884 من أهم الحواضر الصحراوية التي تلحق إداريا للبايليك الشرق أثناء حكم صالح باي⁽³⁾ للإقليم إلى تقرت لإخضاعها ولكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها لانعدام الأوقات والمؤن⁽⁴⁾. أما من جهة الشرق فيحد البايليك أيلة تونس.

الخصائص الطبيعية ذات البعد الاقتصادي:

الشرق الجزائري متباين في تضاريسه ومتنوع في مظاهر سطحه وهذا ما جعله متميز عن غيره من أقاليم الجزائر مما أكسبه طابع اقتصادي واجتماعي متميز، والسؤال الذي نريد طرحه هو كالتالي: ما مدى أثر تنوع السطح على الجانب الاقتصادي والاجتماعي؟ وبشكل آخر هل تنوع النشاط الاقتصادي له علاقة بسطح الأرض وأشكال تضاريسها؟

(1) - السمار، وهو أحد نباتات المستنقعات الملحية الذي يتميز بقوة تحمل عالية للملوحة بالتربة، وتمتد رزوماته في باطن الأرض إلى مسافة 30. 50 سم. أفقيا إلى مسافات طويلة، ويتراوح طول ساق نبات السمار بين 90. 150 سم واسمه العلمي (جانكس أراييكس) .

(2) - منطقة المهير حاليا.

(3) - في عام 1788 قاد صالح باي حملة كبيرة إلى الجنوب الصحراوي القسنطيني لمعاقبة شيخ الذواودة محمد الذباح، وشيخ تقرت فرحات بن جلاب لرفضهما دفع الضرائب للبايليك وفي طريقه إلى تقرت مر على واحات طولقة وبوش قرون وليشانة الزعاطشة وسيدي خليل (سيدي خالد) بوادي جدي ودفع له سكانها الضرائب المطلوبة.

(4) - محمد صالح العنترى، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2005، ص78.

يمكننا تقسيم الشرق الجزائري، الى أربعة أقاليم تضاريسية متباينة وذلك حسب امتداد التضاريس التي تمثل أحزمة مترابطة متناسقة مع امتداد شواطئ البحر المتوسط، فالسواحل الشمالية بتركبتها من الجبال التلية والسهول الساحلية ثم مجال السهول العليا، والأطلس الصحراوي والصحراء بالإضافة الى كتلة الأوراس⁽¹⁾. فهي تمتد أفقيا من الشمال الغربي نحو الشمال الشرقي حسب دوائر العرض للكرة الأرضية، ويمكن أن نحدد المجال الجغرافي لدراستنا حسب التقسيم الإداري الذي أوجدته السلطة العثمانية في عهد حسن ابن خير الدين، الذي يرجع له الفضل في وضع أول تقسيم إداري للجزائر بعد الاستقرار الأوضاع في الشرق الجزائري ودخول العثمانيون قسنطينة التي كانت تابعة للدولة الحفصية، أسس بايليك الشرق سنة 974هـ / 1556 م واتخذ من قسنطينة عاصمة لمقر الحكم الجهوي التابع للسلطة المركزية في دار السلطان واعتبر لقب الباي منذ ذلك الوقت الحاكم على البايليك الشرق⁽²⁾.

-السهول الساحلية:

تعتبر من أخصب الأراضي الزراعية رغم قلة انتشارها وضيق اتساعها وكثيرا ما تكون داخلية بين الجبال، لكنها تتوفر على مقومات هامة للنشاط الاقتصادي منها خصوبة التربة الفيضية وتشققها مجاري مائية ولها الحظوة في كمية الأمطار الغزيرة والكافية لنمو الأشجار الغابية والنباتات المتنوعة، ومن هذه السهول الساحلية⁽³⁾، سهول عنابة وسطورة (سكيكدة) وبجاية وميلة التي تعتبر من أوسع السهول الساحلية، ومن مميزاتا إنها تحتوي على مدن قديمة ذات حضارات ومرافئ للصيد ترتبط بمسالك نحو الداخل بين الالتواءات الجبلية، أما السهول الداخلية فتقطنها قبائل متفرقة بين الجبال الأطلس التلي، أما العشائر القبلية القاطنة بنواحي جيجل والقل وأسطورة؛ فقد ظلت مستقلة ولم تعد تدفع ما عليها من الضرائب منذ عهد طويل.

(1) - محمد الهادي العروق، مدينة قسنطينة دراسة في جغرافيا العمران ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 78.

(2) - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق د/ محمد بن عبدالكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 36.

(3) - إن إقليم بايلك الشرق هو همزة وصل بين المغرب الأدنى والمغرب الأوسط وبين شمال الصحراء الكبرى الإفريقية والبحر الأبيض المتوسط ونقطة التقاء القوافل وركب الحجيج بين المغرب والشرق ومنطقة انتقالية بين حضارة الشواطئ وحضارة الصحراء وقسنطينة مركز ذلك.

وقد دفع عثمان باي حياته ثمنا لأحدى الحملات التي جردها على ساحل جيجل،⁽¹⁾ وغنى المنطقة بالثروة الغابية والسهول الخصبة وتوفر المياه جعل المنطقة الساحلية أكثر المناطق استقطاب وأهم هذه الثروة تتمثل في غابات الصنوبر والفلين، لكن المساحات تبقى محدودة تتقاسمها القبائل القاطنة فيها ذات التأثير الاقتصادي القليل ذو الاستهلاك المحلي إلا في بعض المنتجات مثل الأخشاب والشمع والعسل وبعض الخضروات وأشجار اللوز والتين والعناب والخوخ والتفاح.

جبال الأطلس التلي:

هو المجال الجغرافي الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط، ويشمل الجبال الأطلس التلي مثل جبال جرجرة وجبال البيان التي تمتد أفقيا من الشرق إلى الغرب وتتمثل في جبالالسهول الساحلية ومصببات الأنهار وأودية البحر الأبيض المتوسط وثروة الغابات، والثروة البحرية، ولما كان لهذا الامتداد دور في حالة السلم والحرب، لأن طبيعة المناخ والتساقط وطبيعة الغطاء النباتي والحيواني مميز عن غيره من الأقاليم المجاورة، لهذا نجد طبيعة المجتمع وبتكوينه ونمط حياته تختلف عما سواها، بالإضافة إلى الظروف التاريخية التي تحكمت في هذه المناطق مثل التهديد الخارجي البحري من طرف الأوربيين من أقدم العصور سيما التحرش الأيبيري بعد سقوط غرناطة و عمليات الاسترداد التي استهدفها الفونسو ملك اسبانيا و زوجته ايزابيلا⁽²⁾ في تلك الفترة، إضافة إلى الموانئ التي تزخر بها هذه الواجهة البحرية، بالإضافة إلى ثروة الغابات المتوفرة في تلك المنطقة وما أدت من دور اقتصادي واجتماعي، يضاف إلى تلك السهول الساحلية.

السهول الساحلية:

السهول الساحلية تتميز بالخصوبة مثل سهل عنابه وسهل سكيكدة وسهل قالمة وسهل بجاية والسهول الساحلية لوادي الصومام والسهول الداخلية الضيقة التي تنحصر بين جبال الأطلس التلي، إن هذا الإقليم بتضاريسه فرض على المجتمع حياة اقتصادية واجتماعية مخالفة عن غيره من الأقاليم الأخرى مثل تربية الأبقار

⁽¹⁾ عندما تولى خيضر باشا السلطة في عام 1589-1592 طلب من البايات في البياليك، أن يستعملوا نفوذهم لدى القبائل حتى تدفع ما عليها من ضرائب في اقرب وقت فقام الباي محمد بن فرحات بتذكير الشيوخ والقبائل والخلفاء، فامتثل البعض وامتنع البعض الآخر ومنهم زعماء أولاد مقران بمجانة الذين أعلنوا الحرب ضده فتصدى لمواجهتهم بدعم من الباشا في العاصمة الذي انجده وأرغمت قواتهما على دفع خسائر الحرب مع الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة.

⁽²⁾ كانت حرب غرناطة عبارة عن سلسلة من الحملات العسكرية بين عامي 1482-1892 اثناء عهد الملوك الكاثوليكيين ايزابيلا ملكة قشتالة و فرديناند الثاني ملك اراغون ضد امارة غرناطة التي كانت تحت حكم النصرانيين و التي انتهت بهزيمة غرناطة و الحاقها بمملكة قشتالة و بذلك انتهت القاعدة الاسلامية في الاندلس .

والأغنام والدواب،⁽¹⁾ في نفس الوقت تعاملت معه السلطة الجهوية معاملة تختلف عن الأقاليم الأخرى، مثل نوعية الحيوانات التي يعتمد عليها في معاشهم وخدمتهم ونشاط تجارتهم بالإضافة إلى الموانئ التي كانت تربط أهم الحواضر الساحلية على شواطئ البحر المتوسط⁽²⁾. يذكر ناصر الدين سعيدوني عن ابن حوقل في وصف مدينة عنابة حيث يقول: "ويغربها ماء سائح يسقي بساينها وأراضيها... وهناك بركة دورها نحو عشرة أميال وفيها سمك كثير جليل"⁽³⁾ إن غنى المنطقة بالموارد الأولية الطبيعية النباتية في الجبال الشمالية لبابلييك الشرق.

السهول العليا:

وهي المجال الحيوي للنشاط الاقتصادي للشرق الجزائري، وتمتاز باتساعها وخصوبة أراضيها وتعدد مجاريها المائية، وهي تمتد من برج زمورة غربا إلى جبال الأوراس شرقا، وتمتاز بتموج امتدادها وخصوبة تربتها تظهر فيها جبال وبحيرات مثل بحيرة عين زادة قرب برج بوعرييج، وتمتاز بمتوسط مداها الحراري وبرودتها شتاء وارتفاع درجة حرارتها صيفا تسقط فيها الثلوج في فصل الشتاء، وتجري فيها أودية موسمية وهي مجال النشاط الزراعي للفلاحين، تصلح للزراعة خاصة الحبوب مثل القمح والشعير والحمص والعدس، بالإضافة إلى تربية المواشي من الأغنام والماعز والأبقار والبغال والأحصنة وتعرف هذه السهول بالقبائل التي تحتل مزاربها أو المدن التي تظهر فيها، وتتركز الرعي في المناطق العليا القسنطينية مع زراعة معاشية بسيطة⁴ مثل سطيف والعلمة والمسيلة وقسنطينة وقالملة وتبسة وباتنة، وتستقر فيها مجموعة من القبائل مثل قبيلة أولاد المقراني و قبيلة أولاد عبد النور الموسمي و الرعي الموسمي بالنواحي الوسطى والجنوبية من البابلييك الشرق.⁽⁵⁾

(1) ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الاولى، سنة 2000، ص 504.

(2) المرجع السابق، ص 508.

(3) نفس المرجع السابق، ص 504.

(4) نصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، 54.

(5) قبيلة أولاد عبد النور، واحدة من أكبر المناطق مساحة بمقاطعة قسنطينة، وتقع بمنطقة التل، المعروفة باسم الهضاب العليا، إذ تحتل جانب من السهول التي تمتد بين قسنطينة وسطيف، وعين الكبش التي نأخذها نقطة مركزية للإقليم ترتفع من على سطح البحر بـ 900 متر. تبلغ مساحتها اليوم حوالي 200 ألف هكتار، وقد كانت أكبر من ذلك في العهد التركي، فخلال هذا العهد كانت القبيلة تنصب خيامها حول عين السلطان عند جبال أولاد بوعون أو أولاد سلام.

جبال الأطلس الصحراوي:

توجد سلسلة جبلية وهي امتداد من الجنوب الغربي للجزائر نحو الشمال الشرقي في منطقة الشرق الجزائري، وهي الامتداد الطبيعي الذي يفصل السهول العليا من الجهة الجنوبية عن الصحراء وتخومها،⁽¹⁾ إلا أننا نلاحظ هذا الامتداد يزول تدريجياً كلما اتجهنا نحو الشرق ليرتك فضاء بينه وبين كتلة الأوراس، ومن خصائصه انه السد المنيع أمام الزحف الرمال الصحراوية وقل الأقاليم سقوطاً للأمطار وقلّة الغطاء النباتي ومميزات نباتاته القصر وشوكية مقاومة للجفاف وتنمو في فصل الشتاء والخريف وتختفي في فصل الصيف، تكثر فيه الشطوط مثل شط ملغيغ وشط زاغر وشط الحضنة في نواحي المسيلة، يصلح للرعي وتحتله قبائل رعوية في معظمها متنقلة بين الشمال والجنوب مثل قبائل الحنانشة واهم القبائل التي تألف هذا الصنف من السكان قبائل النمامشة⁽²⁾، كذلك قبائل الحنانشة⁽³⁾، وبن قانة وأولاد جلاب وأولاد دراج وأولاد نايل، ومن أهم مدنها تقرت وبسكرة والوادي وبريكة.⁽⁴⁾

كتلة الاوراس:

جبال الاوراس هي جبال عالية القمم تقع شمال كل من الولايات باتنة وخنشلة وأم البواقي وتبسة وأعلى قمة بها هي قمة جبل شيليا التي تقع في بابوس بولاية خنشلة بارتفاع يقدر ب 2328م، تليها قمة بشينة

(1) محمد الهادي العروق، مدينة قسنطينة دراسة في جغرافيا العمران ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 79-85.

(2) ورد في مقالين منشورين في المجلة الأفريقية، للكاتبين العسكريين الفرنسيين (A. Vaissière و E. Masqueray)، أنّ قبيلة النمامشة المشهورة، والتي تعتبر أكبر قبيلة ناطقة بالأمازيغية في العالم في العصر الحديث، والموطنة في القسم الشرقي لجبل أوراس، هي خليط من هؤارة ووزناتة، ثمّ نزل عليهم أولاد رشاش بن وشاح الهلالي، من عرب بني هلال، واحتلّطوا بهم وتوسّبو فيهم. ولد بعة بن حناش، فهم قبيلة الحنانشة الشاوية الكبيرة، التي تعيش في نواحي سوق أهراس، على الحدود التونسية الجزائرية.

(3) قبائل الحنانشة: قال المؤرخ الفرنسي (Ernest Mercier) هؤارة الذين يتوزعون ما بين الهضاب الواقعة شمال شرقي أوراس إلى جنوب عتابة، بدؤوا يستعربون باحتكاكهم مع العرب ليأخذوا أسماء جديدة (الحنانشة، النمامشة، الحراكتة)، وقال في موضع آخر: «نذكر خصوصا في عمالة قسنطينة النمامشة، الحنانشة، الحراكتة، ثلاث قبائل تكوّنت من هؤارة وتسيطر على الهضاب الواقعة بين تبسة، قسنطينة وباجة»، وزاد في موضع آخر: «على الهضاب الشرقية، تنتشر قبائل بربرية مستعربة جديدة، وهي التي تكلمنا عنها: الحنانشة، النمامشة (المامشة)، الحراكتة، تكونت من نفاوة وهؤارة».

(4) حلّيمي عبد القادر، مرجع سابق، ص 149.

العابد بولاية باتنة التي يصل علوها إلى 2321 وجبل عالي الناس جنوب ولاية خنشلة كما تصنف جبال الأوراس من بين أكبر سلاسل الجبال في شمال إفريقيا.

محتويات جبال الأوراس تشكل القسم الشرقي من سلسلة الأطلس الصحراوي التي تفصل الهضاب العليا عن الصحراء الكبرى، وتعتبر أعلى نقطة في جبال الأوراس هي قمة شيليا التي تصل إلى 2328 متر التي تقع في حدود باتنة وتيسة، ثم قمة جبل الحمل البالغ ارتفاعه 2321م ثم قمة أشمول ارتفاعه 2100متر قمم أخرى في جبال الأوراس التابعة لباتنة، ثم تلي قمة أعالي الناس جنوب ولاية خنشلة بارتفاع يقدر بحوالي 2000متر.

أما منطقة الأوراس فتضم سلسلة من الجبال والسهول امتدادا بين الشرق الجزائري وامتداد اقل نحو أيلة تونس.

أهم الأودية التي تمر على جبال الأوراس هي الواد الأبيض: أغزر المنابع، ينبع من قمة شيليا وقمم أشمول وأريس يمر على إينوغيسن وأريس وغسيرة شرفات الغوفوبنيان ومشونش لينتهي إلى سد فم الغرزة بجبال بيسكرة. واد بو عكوس واد الناقص وواد بوايغسانواد متناوولاية تبسة وواد بني فضالة: المطل على مناطق القصور، معافة، عين التوتة ليصل إلى سهول بوزينة، واد تيجردة: والمعروف بواد شرشار. واد الطاقة: الذي يغذي سد كدية المدور ببلدية تيمقاد وادي العرب: بشبلة وخيران إلى الوجلة وخنقة سيدي ناجي جنوب خنشلة. واد عبيد: الذي ينبع من الحمل وجبال أولاد عبيد ويمر على ثنية العابد وشير والنوادر ومنعة وورقة وتيغراغار وامندان وبوحفص وبني سويك وينتهي إلى بيسكرة وبالضبط السعدة وينتهي إلى شط ملغيغ.

الغابات:

غابات منطقة بلزمة. وغابات بني أوجانا. وغابات بني أملول. وغابات أولاد يعقوب. وغابة بوعريف. وغابة لحاج. وغابة زاواي (تافرننت) باريس وغابة أومالو باشمول وغابة بكارية وغابة جبل أكس، وهي في جبل أكس بولاية تبسة قبائل الحراكتة⁽¹⁾.

⁽¹⁾ وتنقسم قبيلة الحراكتة جغرافيًا إلى ثلاثة أقسام، هي: حراكتة السبايخ، حراكتة المعذر والجرمة، وحراكتة جبل الثلاث، وتنتمي كل بطونها إلى أربعة من أبناء حركات، وهم: أولاد عيسى وأولاد الحاج وأولاد مخلوف وأولاد عدوان، فمن أولاد عيسى: أولاد عمارة وأولاد خنفر وأولاد سيوان، حول عين البيضاء وأم البواقي ومسكيانة، وهم حراكتة العواسي، وأحراكتة السباخ (الشطوط)، ومن العواسي أيضا: الحراكتة المعاذير الحراكتة الجرمنة، بجبل بوعريف والشميرة وقصر والجرمة والمعذر.

الموارد الطبيعية:

كما أن جبال الأوراس مليئة بالينابيع الحارة والباردة والتي تستغل في العلاج الحموي والسياحة وأشهرها حمام الصالحين في خنشلة وحمام المسخوطين في قلمة وحمام سيدي الحاج بمنبع الغزلانيين باتنة وبسكرة.

إقليم الشطوط والصحراء:

المجاري المائية: وادي مية ووادي أغرغار ووادي رينغ⁽¹⁾ ووادي الصومام، ووادي سرات ووادي مكرجانة

بالأوراس

محتويات الأوراس تضم سلسلة من الجبال والسهول امتدادا بين دولة الجزائر وجزء صغير من دولة تونس.

السهول:

سهل بلزمة بمروانة بوزينة في سهول جرمة وو حوض وادي الطاقة وسهل ثليجان سهل الشريعة وسهل قارت بين خنشلة وتبسة.

الجبال:

جبال النمامشة بمحمل تازوقاغت بولاية خنشلة وجبل شيليا (2328 م)، جبل الرفاعة (2178م) وجبل الجرف (1711 م) ولاية تبسة وجبل بوعريف بولاية باتنة وجبل اشمول وجبل اريس وجبل شناورة وجبل ايش ازيزا وجبل تاقطيوت ببسكرة جبل المحمل (2321 م) مقاطع من ولاية باتنة وجبل أولاد عائشة وجبل بن بوسليمان. جبل عالي الناس جنوب ولاية خنشلة وفي ولاية تبسة جبل قنتيس 1730 م. وجبل بسباس 1510 م وجبل سيار 1400 م جبل آنوال 1800 م وجبل ترويا 1444 م وجبل القعقاع 1160 م. وجبل الدكان 1900م، آذرار أمال (الجبل الأبيض) 2000م جبل تاغدا 1300 م جبل قابل بوجلال 1800م.

الأودية:

أهم الأودية التي تمر على جبال الأوراس هي: الواد الأبيض: أغزر املال الذي ينبع من قمة شيليا وقمم أشمول وأريس يمر على اينوغيسن وأريس وغسيرة شرفات الغوفيونيان ومشونش لينتهي إلى سد فم الغرزة بلحبال في بسكرة، واد بوعكوس وواد بوايغسان وواد منتانا وواد الناقيبولاية تبسة، واد بني فضالة: المطل على مناطق القصور، معافة، عين التوتة ليصل إلى سهول بوزينة وواد تبيجردة: والمعروف بواد شرشار، وادي الطاقة: الذي يغذي سد كدية المدوربلدية تيمقاد، وادي العرب: بشبلة وخيران إلى الوجلة وخنقة سيدي ناجي جنوب

(1) ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 522.

خنشلة، وادي عبدي: الذي ينبع من الحمل وجبال أولاد عبدي ويمر على ثنية العابد وشير والنوادر ومنعة وورقة وتيغراغار وامندان وبوحفص وبني سويك وينتهي إلى بسكرة وبالضبط السعدة وينتهي إلى شط ملغيغ⁽¹⁾.

الغابات:

غابات منطقة بلزمة. وغابات بني أوجانا. وغابات بني أملول وغابات أولاد يعقوب. وغابة بوعريف. وغابة لجاج. وغابة زاواي (تافرننت) باريس وغابة اومالو باشمول وغابة بكارية وغابة جبل أكس والواحات والقنطرة وواحة شبلة وواحة خيران وواحة الوجلة وواحة تبويجمتواجة خنقة سيدي ناجي وواحة سيار. ششار وواحات نيقرين وواحات فركان.

كما أن جبال الأوراس مليئة بالينابيع الحارة والباردة والتي تستغل في العلاج الحموي والسياحة وأشهرها حمام الصالحين بخنشلة وحمام المسخوطين بولاية قالمة وحمام سيدي الحاج بمنبع الغزلان بين باتنة وبسكرة،

الأقاليم المناخية للشرق الجزائري:

نظرا للامتداد الكبير لإقليم الشرق الجزائري من الشمال إلى الجنوب وامتداد التضاريس (الجبال، سهول، هضاب، أودية)⁽²⁾. من الغرب نحو الشرق بميل طفيف نحو الشمال في الناحية الشرقية، نجد تباين في أقاليم مناخية، من الناحية المناخية المتنوعة بين المتداد من الشمال إلى الجنوب أي من المنطقة الساحلية البحرية إلى الهضاب العليا والمنطقة الصحراوية تتباين مظاهر الفصول الأربعة، وكميات التساقط التي تتحكم في نمو النبات وارتباطها بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والتي تتراوح بين 500مم في الجنوب و1200م في المناطق الساحلية وهذا ما يساعد على التوطن البشري في الشمال وترحالهم في الناحية الجنوبية⁽³⁾.

ويرجع ذلك أساسا لضيق الفضاء البحري للبحر الأبيض المتوسط وارتفاع الجبال كحواجز أمام المؤثرات البحرية لذلك نلاحظ ثلاث أقاليم مناخية متباينة تتخللها أقاليم محلية ضيقة المجال مثل جبال جرجرة وجبال الأوراس والأحواض الداخلية لقالمة وميلة وأهم هذه الأقاليم هي:

(1) - احمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، دار البصائر، الجزائر 2008، ص 66.

(2) - حول دراسة إقليم قسنطينة، راجع Marc coté: Le relief de Constantine les hauts plaines .de Constantine

(3) - حلومي عبد القادر، جغرافية الجزائر (الطبيعية، البشرية، الاقتصادية)، مطبعة الإنشاء، ط2، دمشق، 1968، ص125.

الإقليم المناخي التلي:

يشمل المنطقة الشمالية والسهول الساحلية والجبال الأطلس التلي وهي أكثر انتعاشا ببخار الماء وأكثرها أمطارا تتراوح بين 1700 و1200 ملم في السنة وتتميز بأمطارها الشتوية الغزيرة وسقوط الثلوج على قمم الجبال وتكون خزاناً لبقية شهور السنة لتسقي السهول الداخلية والساحلية لذلك كان ثروتها المائية دور اقتصادي لكثير من المنتجات الزراعية وتنوع أشجار الفواكه وإنتاج الخضر

المناخ الإقليمي للسهول العليا:

تتميز بسقوط الثلوج ومداهما الحراري المتوسط وهي اقل نسبة في سقوط الأمطار لذلك اختصت بأنواع اقل من المزروعات والإنتاج الحبوب مثل القمح والشعير، وأما الجهة الجنوبية لهذا الحيز تنمو نباتات اقل طول تصلح للرعي وأنشطة زراعية ضيقة على ضفاف الأودية التي تشكل أحواض وشطوط نحو المناطق الداخلية في منطقة الأوراس وبسكرة وورقلة وتقرت، وهي ذات نشاط فلاحي هام للإنتاج الحبوب والأشجار اللوز.

-المناخ الإقليمي الصحراوي:

يمتد هذا الإقليم جنوب السهول العليا وتكثر فيه الشطوط مثل شط الحضنة وشط الجليد وشط ملغيغ وشط زاغر، وتكثر فيها الواحات النخيل وهي عبارة عن مجاري مائية باطنية ومناطق تقع عادة في منخفضات، تلفها جبال تتوفر فيها الينابيع والمجاري المائية حظيت بزراعة صحراوية معيشية، وأساسها النخيل والأشجار المثمرة مثل الاغواط وطولقة وبسكرة والمغير وبوسعادة⁽¹⁾.

الفوارق الحرارية في منطقة الأوراس واسعة جدا بين فصلي الشتاء والصيف، وبين الليل والنهار، وتتسع هذه الفوارق كلما زاد الارتفاع، فالثلوج تتساقط بكثافة على المرتفعات التي تزيد عن 1300م وخاصة بالسفح الشمالي، وهذا ما ساهم في تشكل غطاء نباتي مميز للمنطقة.

الغطاء النباتي:

أهم الأشجار في الأوراس هي أشجار البلوط المحلية وأشجار الصنوبر الحلبي وأشجار التنوب النوميدي وأشجار السنديان الأخضر وأشجار السدر الحلبي والأشجار المثمرة كالبرتقال والخوخ والتفاح والمشمش والتين والزيتون واللوز في كل من مرتفعات شيليا وأشمول وتتميز قمة الحمل بباتنة بوجود صنف نادر من الأشجار

(1) محمد الهادي العروق، مرجع سابق، ص ص 79-85.

على المستوى العالمي وهي أشجار الأرز الأطلسي، على الرغم من أن الأوراس يقع بعيدا عن البحر فإنه يبدو في شكله كتلة خضراء⁽¹⁾.

من هذا العرض للناحية الطبيعية يظهر لنا قوة التنوع الطبيعي في الشرق الجزائري ومنه يمكننا أن نتعرف عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للشرق الجزائري في نهاية الفترة العثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي للمنطقة، ولكي يكون للقارئ صورة واضحة من جهة ولكي يكون بحثنا يتسم بالمنهجية العلمية الطابع الأكاديمي المؤلف.

⁽¹⁾ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، 502.

المبحث الثاني: النظام الإداري في الفترة العثمانية

اعتمد العثمانيون في الجزائر على نظام إداري محكم مكثهم من البقاء لمدة ثلاثة قرون بأقل التكاليف وأكثر فائدة، نظرا لقلّة تعداد قوتهم العسكرية والإدارية التي كانت تشرف على تسيير شؤونهم والدفاع عن مصالحهم وحماية الجزائر من التهديدات الغربية (الأوربية المسيحية)، فالإشكال المطروح في هذا الصدد يتمثل في: هل فعلا كانت السلطة العثمانية قوية لدرجة أنها فرضت نفسها على الوضع الداخلي والخارجي لأمن واستقرار الوضع في الجزائر؟ لذلك ارتأينا في بحثنا الى إبراز مكونات السلطة المحلية في بايليك الشرق الجزائري من خلال النظام الإداري للشرق الجزائري في الفترة العثمانية¹.

الهيئة المحلية في الشرق الجزائري:

مقاطعة الشرق الذي نشأ عن التقسيم الإداري في عهد حسن بن خير الدين هو الذي بقي معمول به حتى نهاية الفترة والحكم العثماني في الجزائر، إلا انه بقي مرتبطا بالسلطة المركزية في الجزائر (دار السلطان) مقر السلطة المركزية لأيالة الجزائر، ولم ينفصل عنها أو حاول الانفصال عنها، رغم الاضطرابات والثورات التي شهدتها المنطقة من حين لآخر خاصة الفترة الأخيرة والتي يمكن أن نؤرخ لها بنهاية صالح باي 1792م، وقد ورد في كتاب تاريخ بايات قسنطينة من تحقيق حساني مختار لمؤلف مجهول فيقول " وإن ما تم التوصل إليه لم يعجب موظفي الباي صالح وهم خزنادار والجنحري وقائد المنصورة والمزوار فعزموا على قتل الباي الجديد وإعادة صالح باي ملكه. وإذا وقف الباشا ضدهم فإنهم سيعلمون استقلال بايليك الشرق على الجزائر"⁽²⁾، فما هو شكل الإدارة العثمانية في بايليك الشرق الجزائري؟ وما هي مستنداتها؟ وهياكلها الأساسية؟

النظام الإداري لبائليك قسنطينة:

لقد اتخذت الإدارة العثمانية في الشرق الجزائري تقريبا نفس الهياكل التي كانت في دار السلطان إلا في بعض الخصوصيات والمصالح الإدارية نظرا لطبيعة كل منها، وبقت بعض المناصب ثابتة غير متغيرة، فهل هذا الثبات وعدم التغيير في الهياكل الإدارية من أسس ضعف النظام العثماني في الجزائر ومنه في الشرق الجزائري؟ فهل ساهمت الإدارة في ضعف البائليك وكيف ذلك؟

الباي: يمثل السلطة العليا في البائليك وله السلطة المطلقة على إقليم الشرق الجزائري بما يعرف بـ "بائليك الشرق" يتم تعيينه من طرف الداوي، كما يتم عزله في أي وقت شاء، فهو موظف للسلطة المركزية

(1) - احمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق وتعليق احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص 43.

(2) - مؤلف مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر د. ت، ص 50.

لكن ما يظهر في نهاية الفترة العثمانية أن هؤلاء الموظفين كانوا غير مستقرين بمناصبهم فكثير ما كانوا يعتقلون أو يتم إعفائهم من مناصبهم خاصة بعد حكم صالح باي 1207هـ - 1241هـ الموافق 1824م - 1837م، حيث تناوب على هذا المنصب أكثر من ثمانية عشرون (18) بايا في فترة لا تتجاوز 32 سنة، أي بمعدل يقل عن سنتين لكل باي، وهذا دلالة الاضطرابات وسوء التصرف أو عدم الثقة بين الداي ومن يوظفهم في هذه المناصب بالإضافة إلى سوء الأحوال المعيشية التي أصبح الشرق الجزائري يعيشها في تلك الفترة، إلا أن ما يمكن التنويه به في هذا الإطار، هل كان بايات قسنطينة في مستوى التسيير والقدرة على توجيه السياسة العامة لسياسة أيلة الجزائر وبايليك قسنطينة؟

فالباي محمد مناني الذي عين بايا على قسنطينة سنة 1240هـ - 1824م جاء بوصفه وعدم قدرته على تسيير شؤون البلد على لسان فايسات فيقول "تولى أمر البايليك وهو عجوز هرم قليل القدرة، ضعيف الذكاء، وكان وقد تولى قبل ذلك وظائف، قائد جل الغنم، وقائد الشعير والخليفة، ولا يحسن العربية ولا يتحدث بها إلا بصعوبة رغم كونه عاش في قسنطينة سنوات طويلة ولم يظهر أي حيوية أو جدارة في إدارة البايليك" ⁽¹⁾، أما الباي مصطفى قارة الذي لم يدم حكمه في البايليك سوى شهرا ونصف فيقول محمد الصالح العنتري: «لم يدم في حكمه سوى شهر أوائل 1818م وكان البايات مباشرة يقرب إليه اليهود والنساء وجمعهم في قصره واخذ يتعاط معهم شرب الخمر، والدعارة تاركا أوضاع البايليك للإهمال» ⁽²⁾، أما فيما يخص الباي احمد شاوش الذي إستأثر بحكم بايليك قسنطينة بالقوة بالاستعانة ببعض الجنود فلم يدم حكمه سوى خمسة عشر يوما من سنة 1808م. ⁽³⁾

هذه المظاهر كفيلة على إبراز مظاهر الحكم العثماني في الشرق الجزائري أواخر تواجدهم فيها، إلا أن هذه المظاهر لم تكن عامة، بل ظهر بعض البايات بقوة وعزم وسداد رأي وحكمة وشكيمة، ومنهم الحاج أحمد باي الذي تم تعيينه سنة 2241هـ - 1826م، شهدت البلاد نوع من الاستقرار والهدوء جاء في كتاب تاريخ قسنطينة لمحمد الصالح العنتري عن احمد باي حيث يقول: «رجع الحاج أحمد باي في قسنطينة ومن بعد ترجيعه عين له باش أغا المتولي أمور العرب بالجزائر، وخرجوا معا يجسسون الوطن وينظرون في شأنه السبب في تخليطه وفساده فتراهم خرجوا من الجزائر بالأحمال، ونزلوا في وطن عقبه عمال، ثم رحلوا من هناك ونزلوا وطن

⁽¹⁾ - محمد الصالح بن العنتري، القحط والمسغبة في بلد قسنطينة، يوجد بالمكتبة الوطنية في الجزائر تحت رقم 2330 سابق،

ص 36.

⁽²⁾ - المصدر السابق، ص 99.

⁽³⁾ - المصدر السابق، ص 91.

يسمى ونوغة هو أول ابتداء وطن قسنطينة، أقاموا فيه أيام وعملوا نظرهم فيما يخصه واخذوا مطالب البايليك، ثم رحلوا ونزلوا في وطن سطيف وهو وطن عامر، عملوا نظرهم فيما يخصه واخذوا مطالب البايليك، ثم رحلوا الى وطن أولاد سلطان متوسط بين قسنطينة والصحراء، وهو جبل كثير الشعاب وأهله صعب فنزلوا عليه بالفتن واخذوا من ناسه شيء قليل على وجه الصلح، ثم رحلوا وقصدوا عنابة وأقاموا فيها أيام ونظروا فيما يخصه واستخلصوا مطالب البايليك»⁽¹⁾.

نلاحظ من هذا أن الحاج أحمد باي قبل نزوله في مقر حكمه طاف ببعض أوطان البايليك لاستقصاء الأحوال وتجميع الأقوال والأخذ منهم مطالب البايليك من الضرائب والمستحقات فكان يسأل الناس عن الفساد وجور الحكام وظلم الأتراك، فدخل إلى قسنطينة وكانت له رؤية واضحة عن أحوال البايليك فقام بقتل من أصحاب الظلم وأصحاب الشيطنة والفجور ورتب عشور القمح والشعير وهدأ الأوضاع في البايليك⁽²⁾.

مخزن البايليك:

يتم الباي بتعيين مجموعة من الموظفين وهم بمثابة حكومة البايليك يجتمع بهم ويفصلون في شؤون البايليك والمصالح التي يقومون بانجازها، فأحمد باي المملوك ألف مخزنه من الأعضاء ولمناصب كادت أن تكون قارة في شخصيات وعائلات متنفذة في مجتمع الشرق الجزائري⁽³⁾.

- أحمد بن الحملاوي: أغا الدايرة.

- أمين خوجة: خليفة.

- عبدالله بن زكري: باش سيار.

- علي بن الحاج رابح: باش سراج.

- الحاج عبد الرحمان بن نعمون: باش كاتب.

- مصطفى الابيض: قائد الدار.

- إبراهيم الكريتلي: قائد العواسي.

- فرحات بن سحنون: قائد الزمالة.

(1) - محمد الصالح العنتري، مصدر سابق، ص 105.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 238.

(3) - نفس المرجع، ص 242.

وبمساعدة مجموعة من الموظفين يشكلون حكومة الباي؛ لهم السلطة التنفيذية يساعدهم في ذلك قادة القبائل وشيوخ الطرق الصوفية ووجهاء مدينة قسنطينة من الأسر الفاعلة، ويكونون موالين لسلطة الباي وتسد لهم مهمة جباية الضرائب ويحضون بامتيازات، وتكمن رمزية وفائهم لباسهم للقفطان التولية⁽¹⁾. وتقوم سلطة الباي على الفرق الانكشارية، وعليه فان سلطة الباي مكتملة لسلطة السلطان الذي يقطن في دار السلطان، بينما يقطن الباي في مركز سلطة البايليك (قسنطينة)، كما أن سلطة الباي ليست وراثية لذلك لم يشكل البايات اسر وراثية في الجزائر خلافا لبعض المناصب الهامة في إدارة البايليك⁽²⁾.

وارتباط الباي بالداي ارتباط معنوي بالطاعة والولاء ومادي بالدنوش ونفس الارتباط بين الباي ومحيط رعيته على مستوى البايليك مثل رؤساء القبائل وشيوخ الزوايا ونقباء الحرف والأسر الفاعلة على مستوى البايليك. وعادة الدنوش ما هي إلا مظهر للولاء عند ظهور الباي للجزائر والاحتفال بقدم الباي والترتيبات التي تحضر لذلك الاحتفال البروتوكولي وإنما متحانا عسيرا للباي، فدنوش الخليفة (الدنوش الصغير) ودنوش الباي (الدنوش الكبير) يمثلان رمزا للوفاء والولاء لسلطة الداى في الجزائر.⁽³⁾ ومناصب الهيئة التنفيذية للباي اختصاصات محدودة يلتزم بها كل واحد في منصبه ومهامه المنوطة به في إطار محكم وتحت رعاية الباي وأهم الألقاب لهذه الهيئة ما يلي:

- 1 - الخليفة: كان يكلف بالإشراف على مردود الضرائب، ونقل ما يترتب على البايليك من العوائد إلى الجزائر كل ستة أشهر وكانت العادة تقتضي بأن يسند هذا المنصب إلى أحد أقارب الباي⁽⁴⁾. وهو النائب الباي، في رحيله إلى دار السلطان بالجزائر العاصمة، ويكلف بدفع الدنوش الصغير إلى عاصمة الجزائر.⁽⁵⁾
- 2- قائد الدار: أو قائد القصر وهو منصب هام في الإدارة العثمانية على مستوى البايليك وكان يتولى الإشراف على أملاك البايليك، وينوب الباي في تسيير الأمور عندما يكون الباي خارج المدينة، ويخضع قائد الباب لقائد الدار الذي كان يشرف بدوره بمراقبة عوائد ومدا خيل حقوق الكراء داخل المدينة

(1) - أحمد سيساوي، البعد البايلكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث 1838 -

1871 م، أطروحة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة 2، 2014، ص 32.

(2) - المرجع نفسه، ص 20.

(3) - المرجع نفسه، ص ص 20-21.

(4) - نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 150.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 246.

3- الأغا: وهو لقب تشريف يأتي بعد لقب "بولا كباشي"⁽¹⁾ يتكفل بقيادة الفرق العسكرية في إقليم البايليك،⁽²⁾ وله دور كبير في إدارة القبائل عن طريق تعيين شيوخها إذ بلغ عددهم 39 شيخ قبيلة يتلقى منهم حقوق التعيين ولهم إعلام خاصة وتبلغ محصلة حقوق التعيين إلى 10000 بوجو ويقرر عدد الفرسان الواجب تقديمها كلما استدعت الظروف لذلك⁽³⁾.

4- الباش كاتب: ويحمل لقب كاتب الصرة ويوكله الباي في حمل خاتمه (طابع)، ويكلف بمراجعة الرسائل الخاصة بالباي التي يكتبها الكتاب الآخرون ومختص بمراجعة البرقيات الواردة من دار السلطان ويختار الموظفين الكبار للبايليك، ويصدر الأوامر لجمع الضرائب وكانت تحت سلطته 22 قبيلة يتلقى من أعضائها حقوق التعيين لشيوخها إذ تبلغ قيمة حق التعيين ب 5000 بوجو⁽⁴⁾.

5- الباش سيار: المكلف بسعاة البريد، إذ يحمل الرسائل من الباي إلى الداى في دار السلطان أو بريد الداى إلى الباي في إقليم بايليك قسنطينة ويتلقى الردود المختلفة على تلك الرسائل ويرافق الباي عند انتقاله إلى دار السلطان إلى عاصمة الأيالة في موسم دفع الدنوش الكبير⁽⁵⁾.

6- الباش سايس: يتكلف بمراقبة فرق المكاحلية وحراسة وصيانة خيول البايليك.

7- باش سراج: يكلف بالإشراف على إسطبلات وتجهيز حصان الباي عندما يعتزم الباي امتطاءه عند الخروج نحو القبائل أو مهماته الخاصة.

8- قائد المقصورة: وهو الحاجب الخاص بالباي ويتكفل بحراسة بمسكن الباي والاعتناء به وتهيئته من متطلبات الخاصة⁶.

مجلس العشرة:

الباش آغا: رئيس هذا المجلس ويعتبر من أهم الشخصيات في الإدارة على مستوى بايليك قسنطينة وشخصية لها من النفوذ والسلطة ما يماثل نفوذ الباي وكانت له حاشية من 10 أفراد من الأتراك، تنحصر مهامهم مراقبة تصرفات الباي وسير إدارته، ويقدمون عرضا على ذلك للداى في عاصمة الأيالة في الجزائر،

(1) - محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص 38.

(2) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 222

(3) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 33.

(4) - المرجع نفسه، ص 34.

(5) - سعيدوني نصر الدين، المرجع السابق، ص 228.

(6) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 236.

وبهذا يكون للداي كل التصرفات وأحوال الأحداث التي تقع على مستوى البايليك، وتخضع لأوامره الحامية التركية المؤلفة من 500 رجل، وتعهد له مهمة تنصيب الباي في منصبه حين تعيينه من طرف الداوي الجزائري، أو تنحيته من منصبه حين يصدر فرمان بذلك، وتنفيذ حكم الإعدام إذا تقرر في حقه ذلك، وينوب الباي حين موت الباي بصفة مؤقتة إلى حين تعيين داي جديد⁽¹⁾.

أسس النظام التركي في الشرق الجزائري:

أ - القوة العسكرية:

1- فرق الإنكشارية:

النظام التركي يعتمد أساسا على الجيش الإنكشاري، وتتألف قوات البايليك من حوالي خمسة وأربعون ألف رجل يتكون من اثنان وعشرون ألف (22000) من المشاة وثلاثة وعشرون (23000) من الفرسان⁽²⁾، وبايليك الشرق الجزائري لا ينفرد عن ذلك، ويتكون الجيش الإنكشاري⁽³⁾ من العناصر الوافدة من خارج الجزائر دون الاعتماد على السكان، بل الاعتماد على هؤلاء (سكان الشرق الجزائري) في تنظيم آخر وذلك لأهمية هذا الجيش وخصائصه والمميزات التي يحظى بها من طرف السلطة والامتيازات التي يتمتع بها، يقول نصر الدين سعيدوني أصبح البايات يسلمون تحت الحاجة وعند الضرورة بحق ملكية بعض عشائر المخزن التامة للأراضي التي كانت تقيم عليها وتتكفل بجراستها واستغلالها، وإذا كانوا لا يتورعون في هذا الصدد من اصدار عقود تصبح بمقتضاها الأراضي الخاصة بافراد المخزن ملكا شخصيا لهؤلاء الافراد⁽⁴⁾.

هذا ما جعل هذه الفرق تثور عدة مرات لتحقيق مطالب وامتيازات أكثر وليس لها انتماء سياسي ولا ديني ولا عرقي سوى الذود لسلطة الحاكم في الشرق الجزائري والسلطة المركزية في دار السلطان المتمثلة في شخصية الداوي. يقول عبد الجليل التميمي: "أحمد باي تحت دائما تحت يده ما بين عشرة الاف (

(1) - المرجع نفسه، ص 151.

(2) - محمد الصالح العنتري، مصدر سابق، ص 34.

(3) - كلمة "إنكشارية" هي جمع لكلمة "إنكشاري"، وهي عبارة تركية تتكون من كلمتين: "بني" وتعني الجديد و"جيري"

ومعناها النظام، أي النظام الجديد "بني جيري Yeni çeri" وهو المصطلح الذي أطلق على نظام الجند الجديد الذي أحدثه "السلطان أورخان"، ثاني سلاطين آل عثمان، 1326-1362م، وكان ذلك بتوجيه من أخيه الأكبر، ووزيره الأول (الصدر الأعظم)، "علاء الدين" وقاضي العسكر "قرة خليل جندري"، الذي نصح السلطان العثماني بتكوين جيش نظامي اعتمادا على خمس غنائم الدولة من فتوحاتها بالبلاد الأوربية، لأن في ذلك ضمان لاستمرار قوة الدولة العثمانية وتوسعاتها،⁽⁴⁾ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص

10000) و اثني عشر الف (12000) جندي واثني عشر الف (12000) فارس وعند الحاجة يستعمل المدافع ويمكن مضاعفة العدد من الجندين من المتوفر لديه من العرب حيث 250 قبيلة وعرش منها 50 قبيلة تسكن المدن و 200 قبيلة تسكن الارياف، هذه القبائل توفر 98000 فارس و 427000 رجل من المشاة و يمكن ان يوفر 526000 من السكان الذين تحت سلطته (1).

والمعروف أن المحلة مؤسسة دائمة قديمة أعيد بعثها والتعامل معها بصفة محكمة، وقد اتخذت المحلة شكل السلطة المتنقلة في بحثها المتواصل عن الشرعية في محيط اجتماعي سمته البارزة والظاهرة هي القبيلة المتحركة. كان الجيش مجندا من تركيا وأوروبا باسم الوكالة التابعة لأوجاق الجزائر، وكان يضم أجناسا مختلفة، ويعتبر الجيش أداة أساسية في نظام الحكم في الجزائر والإدارة العثمانية تركز عليه في السلم والحرب يركز الجيش على مركزية السلطة ويضمنها، فهو حجر الزاوية بالإدارة العثمانية. فكان الجيش يحتل المناصب الأساسية في الإدارة العثمانية والمناصب القيادية فهو يشرف على تحصيل الضرائب وتوريدها لخزينة الأيالة (2).

ومن هذا كان ارتباط الجيش بالسلطة المركزية وفصل الأهالي عن السلطة المحلية في الشرق الجزائري أوجد متعاملين موالين للسلطة لهم صفة التعاون والتفاعل مع بقية المجتمع على مستوى المدينة أو على مستوى الأرياف المتمثل في القبائل.

مهمة الجيش:

- الحاميات:

هي فرق من الجيش الانكشاري المهدف منها تدعيم سلطة البايليك ومراقبة الإقليم والمحافظة علة الاستقرار ودرء التمردات وحماية المحلات أثناء جمع الضرائب وتدعيم القيادات الموالية للبايليك، وتأمين الطريق السلطاني وحماية الدنوش من القبائل المستقلة وضممان الولاء والطاعة للسلطة العثمانية ، يقول حمدان خوجة : " وقد جرت العادة ان يرسل الباشا لكل باي حامية في كل سنة مرة ...و بما ان مقاطعة التيطري فقراء وقليلو العدد، فان الحامية لا تبقى عندهم الا شهرين ثم ترجع الى مدينة الجزائر، وفي معسكر في الجزء الغربي تبقى

(1) - Abdeljelil Temimi ; Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837) ; publications de la revue d' histoire maghrbine-vol 1 ; imp sur les Presses de la societe Tunisienne des Arts graphique.1978 ;pp 240-241.

(2) - وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816 - 1824)،، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 42.

الحامية اربعة اشهر اما في قسنطينة التي تشكل شرق البلاد تبقى ستة اشهر⁽¹⁾، من هنا نتعرف على اهمية الشرق الجزائري من ناحية مكوث الحامية وعدد افرادها ويظهر ذلك من عدد النوبات وتوزعها على اقليم الشرق الجزائري. وأهم الحاميات التابعة لبايليك قسنطينة فهي:

النوبات التابعة لبايليك قسنطينة⁽²⁾

عدد أفرادها	عدد السفرات	موقع النوبة
75 رجلا	05 سفرات	حامية قسنطينة
72 رجلا	05 سفرات	حامية عنابة
20 رجلا	02 سفرات	حامية تبسة
73 رجلا	04 سفرات	حامية بسكرة
29 رجلا	02 سفرات	حامية جيجل
44 رجلا	02 سفرات	حامية بجاية
25 رجلا	01 سفرة	حامية حمزة
338 رجل	21 سفرة	المجموع

المصدر: محمد الصالح العنثري بتصريف من الباحث

من الملاحظ أن هذه الحملات كانت تأتي من دار السلطان لتأمين إقليم البايليك وتخضع القبائل الثائرة وتعزيز الحملات حينما تقع اضطرابات والتمرد على مستوى البايليك وكانت الحملات تخرج الى الأرياف لجمع الضرائب وكان لكل باي فرقة عسكرية اضافية وتقدر عدد افرادها خمس مائة (500) فرد لبايليك قسنطينة⁽³⁾، التي كانت تظهر من حين لآخر، وفي أواخر الفترة العثمانية ازدادت هذه الثورات لظروف طبيعية مثل الجفاف والقحط وانتشار أسراب الجراد، ومنها ما كان ضد تصرفات السلطة المحلية وسياسة الحكام، مثل

(1) - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة تقدم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيدي، ط، الثانية، ش.و.ن.ت الجزائر، 1982، ص 139.

(2) - محمد الصالح العنثري، تاريخ قسنطينة، مرجع سابق، ص 36.

(3) - أرزقي شويتم، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519-1830م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، ص 45.

ما وقع مع ابن الأحرش سنة 1804م الذي كاد أن يقضي على نظام الحكم في الفترة العثمانية في الشرق الجزائري، لولا الدعم الذي جاء من دار السلطان بالجزائر عاصمة الأيالة⁽¹⁾.

تأمين الدنوش: تعتبر محلة الباي⁽²⁾ التي تنتقل بمساعدة قبائل المخزن العمود الفقري لنظام البايليك إجبارا لقبائل الرعية على دفع الضرائب، ويشير عهد أمان محل الشرق الصادر سنة 1095هـ / 1684م إلى أنه: «عند دنوش⁽³⁾ المحلة لا بد أن رؤساء المحلة الذين هم ثمانية أشخاص من الدخول إلى الجزائر، وإذا امتنعوا من الدخول مع باي المحلة لا تعطى لهم خدمة عند الدولة أبدا، وعند دنوش محلة الشرق ووصولها إلى واد الزيتون، فهنالك ينقسم هنالك دوزان المحل»⁽⁴⁾، ويذكر مخطوط للطاهر النقاد تفاصيل هامة تخص المحلة في عهد صالح باي فيقول: «وكانت تأتيه من الجزائر محلة عظيمة بالأترك ستون خباء تجول معه الوطن أو مع خليفته فتخلص الوطن على كل عرش ستة أشهر ثم ترجع إلى الجزائر في دنوش الخليفة ومعه الدنوش فإذا بلغ الخليفة للجزائر دفع الدنوش على حسب عادة من قبله ويقوم الخليفة بالجزائر سبعة أيام ويخرج في اليوم الثامن ويأتي معه بخلعة فإذا وصل إلى البلد يخرج الباي صباحا ملاقاته ومعه أهل مملكته فإذا التقيا تجعل الخلعة على الباي يدخل بها البلد»⁽⁵⁾. وحين ينزل إلى دار الباي يلبسها الخليفة يقعد بها إلى داره ويلحق لهذا للخاصة والعامية وهذا دنوش الخريف وأما دنوش الربيع فيأتيه قفطان فإن كان في البلد فيلبسها وإن كان في البر فيلبسها

(1) ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لا يكاد مصدر وطني أو أجنبي إلا وتناول هذه العلاقة، فمؤرخ بايليك الشرق محمد الصالح العنزي يحدد هذا بموت صالح باي (1792م) فيقول: "وبالجملة أنه من حين مات الداوي الذي اسمه الداوي محمد، ومات صالح باي تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يوقر كبيرهم، وبدا النقص في ملكهم". محمد الصالح العنزي، فريدة مؤنسة، ص 39 أنظر أيضا :

Vayssettes: Histoire de Constantine sous les Bey depuis l'invasion turque jusqu' à l'occupation 1535-1837, Larnolet libraire, pp. 374-375, Paris, 1869, pp. 380, 384, 385.

(2) تعتبر إحدى مهام الجيش هي جباية الضرائب (الدنوش)، ولهذا الغرض تغادر في كل سنة طواوير من الجيش (المحلة) من العاصمة، نحو بايليك الشرق. إن كلمة محلة لا تعني معسكرات متحركة لجمع الضرائب فقط، بل لتغطية مهام عقابية للقبائل النائرة، وحتى في الحروب ضد الجيران.

(3) - الدنوش Donis بدال ونون خفيفتين، وهو اسم مشتق من الفعل " دونمك"، ويعني العودة، وبناء على ذلك يكون المصطلح هو عودة أو رجوع البايات كل ثلاث سنوات، خليفة حماش، المصدر السابق، ص 141.

(4) - العهد والأمان المعطى لمحلة الشرق، وثيقة رقم 43، ملف رقم 01، مجموعة 3206، المكتبة الوطنية الجزائرية.

(5) - محمد الطاهر بن أحمد النقاد ذكر طرف من ولاية المرحوم السيد صالح باي أميرا ببلد قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 263، ص 29 - 31.

عند اجتماع الحال ويبقى بالبلد محلة الشتاء تمكث الشتاء بوادي الرمل يجعل عليها خليفة يسافر بها إلى الصحراء ومعه شيخ العرب بحشوده فيخلصون الصحراء، وأول فصل الربيع تأتي المحلة ويصعدون معها العرب، وهي تخرج طائفة من الطاعة واستعملوا الأمور التي لا تليق تخرج إليهم المحلة المذكورة ومعها الخليفة وآغا الدائرة ويغروهم ردعا وزجرا لمن حاله الفساد وعدم الانقياد، يعاقبون بالغرم وتأويل الجند في أيامه عسكر وصبايحية وكل واحد من الثلاثة له آغة وشواش وسنحق وشيخ الحنانشة له شأن عظيم له سناجق وطبول وكذلك شيخ فرقة كانت سنحق وبلبس القفطان كشيخ العرب وشيخ الحنانشة⁽¹⁾.

ان سلطة الباي استمدت من القوة العسكرية التي يستمدتها من الانكشاريين والفيالق المساعدة من الملشيات التي يتزود بها من القبائل المخزنية التي حفظت استمرارية النظام وتدفع الموارد على خزينة البايليك، مما جعل بايليك الشرق من أقوى البايليك في النشاط الاقتصادي وأوفرها في التعاملات التجارية وذلك بتنوع مصادر منتجاته وحيوية نشاطاته، لما يتوفر عليه من عدد القبائل المخزنية من جهة وكثرة الاعزال على مستوى الاقليم. ولقد اقامت قبائل الزمول⁽²⁾ تجمعات لفرسان غير متجانسين ابعدو القبائل التي كانت متمردة على البايليك وبعدها اصبحت هذه المناطق تابعة لاراضي البايليك⁽³⁾.

قوات قبائل المخزن:

إذا تمعنا في عدد الجيش الانكشاري المخصص لبايليك قسنطينة والذي لا يتعدى في غالب الأحيان عن 300 انكشاري، فهل هذا العدد كان كافيا لمساحة تقدر ب 175900 كلم، وبمجموع عدد سكان يفوق 25000 ساكن وبتعداد لقبائله الذي يصل إلى 580 قبيلة؟

(1) – كانت مكانة قبيلة الحنانشة مكانة خاصة في الشرق الجزائري عن غيرها من القبائل الاخرى فكانت مشيخة العرب منهم حتى جاء احمد باي الذي نقل المشيخة من الحنانشة الى قبيلة بن قانة التي ينتمي اليها الحاج احمد باي الذي اشعل نار الفتنة بينه وبين قبيلة بن قانة والتي استمر الوضع كذلك حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر وعاصمة البايليك قسنطينة سنة 1837م.

(2) – النمول مفردها زمالة وهي تجمعات لفرسان غير متجانسة استحدثت في العهد العثماني ومنحت لهم امتيازات على الاراضي التي يوجدون فيها وتطورت لتصبح قوة يستعملها الباي ضد القبائل المتمردة وتدافع على السلطة على مستوى البايليك على ان تبقى الاراضي المتواجدة عليها تابعة لسلطة البايليك .

(3) – صالح عباد، مرجع سابق، 250.

إن قبائل المخزن وهي قبائل موالية للباي وخاضعة لطاعته ومنفذة لأوامره، إذ تعتبر الجهاز التنفيذي لكل ما يقره الباي، في العمق الجغرافي للشرق الجزائري.⁽¹⁾

ويمكن تعريف قبائل المخزن بأنها مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية لما تقوم به من أدوار وأعمال فهي ليس لها نسب ولا أصول مشتركة بين أفرادها بل هي تجمعات سكانية مصطنعة ومزيج من الأصول فمنها الزوج والعبيد والكراغلة وعرب الصحراء وسكان الهضاب وسكان الجبال كونتها السلطة العثمانية لتكون أداة لها وتعتبر حلقة وصل بين النظام البايليك والقبائل في الأرياف، بل أصبحت في أواخر الفترة العثمانية رابطة متينة بين السلطة والسكان في الأرياف⁽²⁾، ولم تكون حديثة النشأة عند العثمانيين بل كانت في عهد الموحدين والحفصيين والزبانيين ومن المهام المسندة إليهم استخلاص الضرائب ومعاينة المتمردين وتشارك في الحملات العسكرية على القبائل العاصية والممتنعة، وأوكلت لها أوامر تنفيذ لما يصدره الباي من قوانين.

أما المهام العسكرية المنوطة بهم فتتمثل في استخلاص الضرائب وإيقاع العقاب على القبائل الممتنعة والمعادية لسلطة البايليك⁽³⁾ ومراقبة القبائل الصحراوية والجبلية لاجتياحها على السهول الخصبة حيث توجد ملكيات قبائل الرعية وأراضي البايليك، أضف إلى ذلك حراسة الأبراج والخوانق والمسالك الهامة وحراسة الطواحين المائية والهوائية والأسواق الموسمية وحراسة مطامر البايليك وحراسة الجسور ومحطات الراحة للمسافرين، وأهم المجموعات المخزنية في الشرق الجزائري هي: الزواتنة وحرشاوة والعريب وهاشم والغرازلة ومخزن واد الذهب وبوصلاح والصحاروة ولعثمانية وميلة.

كانت قبائل المخزن تتلقى عدة امتيازات وتنال حقوقا مختلفة، فهي تتمتع بالأمن وتعفى من الضرائب المخزنية والضرائب الإضافية كاللزمة والغرامة والحكور والمعونة والاكتفاء ببعض المساهمات العينية الخفيفة لم تتجاوز السدس من المحصول وعدد من الخرفان، وتتلقى بعض التجهيزات من البايليك كالسلاح والمثونة ووسائل النقل.⁽⁴⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 231.

(2) - نصرالدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق 257.

(3) - نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 171.

(4) - نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 260.

إن قبائل المخزن عززت البداوة في الشرق الجزائري ولم تشجع القبائل على الاستقرار وممارسة الزراعة بل شجعتهم على الرعي والتنقل، وقد أصبحت قبائل المخزن نهاية الفترة العثمانية الحامي حمى البايليكوالقوة الساهرة على مصالح الحكام، وعلى هذه القوة أصبح الحكام يسيطرون على الشرق الجزائري بقوة وقهر دون مراعاة لشؤون السكان ولا ظروفهم، بل همهم استخلاص الضرائب وتأديب من خالف أوامرهم⁽¹⁾.

الأعيان:

اعتمد النظام العثماني في الشرق الجزائري في المدن على الأسر ذات النفوذ التي تتمتع بالمكانة والجاه والرفاهية والكسب، أي أعيان المدينة وهي أسر أرسطوقراطية أما في الريف فاعتمدت على شيوخ الزوايا والمرابطين وشيوخ القبائل، فكانت السلطة العثمانية منقسمة بين السلطة الباي وسلطة ذوي النفوذ (الأعيان)، وتعتبر الثروة هي العامل الذي يحرك التاريخ ويجعل التفاعل قائم بين الأطراف، لذلك كانت الامتيازات منقسمة بين سلطة الباي وسلطة ذوي النفوذ من الأعيان المدينة أما في الريف الممثلين في شيوخ القبائل. يقول حمدان خوجة: "كانت الحكومة التركية ترسل حامية تقي سكانها من كل هجوم، ويقود الحامية ضابط برتبة بولكباشي يساعده اوضاباشي وباش يولداش، هؤلاء الثلاثة يمثلون الديوان، ويعتبرون قادة عسكريين واداريين في نفس الوقت وعليهم ان يتفاهموا مع رؤساء المقاطعة لحماية المصالح المحلية والقيام بمهام الشرطة وتنفيذ القوانين والمحافظة على الفلاحة والتجارة، الخ.. و تغير الحامية كل سنة"⁽²⁾.

المبحث الثالث: الثورات والانتفاضات والمقاومات الشعبية 1804 - 1871م

لم تهدأ منطقة الشرق الجزائري من التمرد والثورات طيلة فترة الحكم العثماني، فترى الهدوء تارة والاضطرابات وخاصة عندما يحس سكان المنطقة بالظلم والجور الذي يمارس من طرف السلطة، فالفترة الاخيرة لم تسلم منطقة الا وظهرت فيها اضطرابات، ان الغلو في فرض الضرائب ومنح قبائل المخزن التفويض لفرضها واستخلاصها ومعاقبة المتمردين عن دفعها،⁽³⁾ من الأسباب الرئيسية لقيام الانتفاضات والتمردات تقضي على الاقتصاد وتشتت القوة الفاعلة في المجتمع الاقتصاد، لأنها كانت تشل السواعد المنتجة أو تقضي عليها كما تقضي على الزرع والضرع في طريقها وتضعف قوة الاستهلاك في البلاد، وعلى سبيل المثال سنذكر بعض

(1) نصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، صص 106-107.

(2) حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 131.

(3) نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 266.

الأحداث الهامة التي كان لها أثر كبير في الشرق الجزائري، فتلك الغارات التي كان يقوم بها البايليك في إطار ما يسمى حقوق البايليك من الضرائب، والتي تزيد تشنج بين السلطة والأهالي هي الحملات العسكرية ففي سنة 1804م أقام عثمان باي⁽¹⁾ بغزوة ضد النمامشة، والبراغة على الحدود التونسية، وصادر منهم حيوانات ضخمة لم يسبق لأي باي أن صادر مثلها من الجمال والأغنام والأبقار والأحصنة⁽²⁾، فإذا نظرنا الى هذه الحادثة فإننا نستنتج ان النظام العثماني كان يؤلب القبائل على نفسه ويجعل العداوة تزداد، وبهذا نرى توفر الأسباب التي تجعل سياسة نفور الاهالي وشيوخها عن السلطة العثمانية، ولذلك نورد بعض أهم الأحداث التي ظهرت في الفترة الاخيرة من الحكم العثماني في الشرق الجزائري. ولقد منحت لعشائر المخزن صلاحيات واسعة نظرا للولاء الذي كانت تكنه للسلطة، فوكلت اليها تطبيق اوامر البايليك لان عدد الجيش الانكشاري كان لا يتعدى اربعة الاف عنصر في وقت السلم ويصل الى اثني عشر الف في حالة الاضطرابات⁽³⁾ و نورد بعض الحوادث التي شهدها بايليك الشرق اواخر الفترة العثمانية.

حوادث عام 1792م:

يقول محمد العربي الزبيري: "ورد في إحدى مراسلات الشركة الملكية الإفريقية تحمل تاريخ 23 جوان سنة 1792⁽⁴⁾، أن الشرق الجزائري كان مسرحا لأحداث خطيرة لها تأثير كبير على شؤوننا التجارية، والسبب في هذه الأحداث هو أن صالح باي الذي ظل يحكم المقاطعة مدة 21 سنة⁽⁵⁾، تعرض في ذلك العام، إلى سخط

(1) عثمان باي: هو محمد بن عثمان الكبير باي وهران، خلف اباة على بايليك وهران لمدة خمس سنوات وفي سنة 1799م نفي الى البليدة، وفي سنة 1803 عين بايا على الشرق الجزائري، وكون مجلسه من الملياني خليفة وابن كوجك علي باش كاتب والحاج احمد الأبيض قائد الدار وبن شندرلي إبراهيم اغا الدايرة وأبناء زكري باش سيار وباش شاوش.

(2) محمد الصالح بن العنتري، مصدر سابق، ص 85.

(3) ناصر الدين سعيدوني، المهدي وعبدلي، مرجع سابق، ص 106.

(4) محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 25.

(5) تولى الحكم سنة 1175 هـ (1771م) على أثر موت أحمد باي، وكان رجلا شهما ومقداما فحسنت أيامه وبلغ ما لم يبلغه غيره، كما قام بإنجازات جبارة ولكن حاسديه تمكنوا من إقناع الدايا بأنه يسعى إلى استقلال عن الجزائر فعزله سنة

الداي وتم عزله لفائدة إبراهيم قائد زمالته سابقا، ولكن الباي الجديد لم يبيت في قصره إلا ثلاث ليال⁽¹⁾، ولما كانت اللية الرابعة هجم عليه خواص الباي المعزول فذبحوه وأعادوا صاحبهم إلى منصبه، وقد كان هذا التصرف غير مسؤول بداية لأيام رهيبية مرت بها قسنطينة وفحوصها، إذ أن الداي عين في الحين حسين باي⁽²⁾ وكان صهرا لأولاد مقران⁽³⁾ ولشيخ العرب⁽⁴⁾، فاجتمعوا حوله وزودوه بجيوش صغيرة سار بها إلى عاصمة الشرق، وهناك وقعت فتنة عظيمة وانحاز الأتراك إلى صالح باي⁽⁵⁾ ولم تنته المجازر إلا عندما تحايل الشيخ عبد الرحمن⁽⁶⁾ الفقون على صالح وسلمه إلى ديوان القصبية فخنقوه، ونزل حسين باي إلى المحلة ثم دخل قسنطينة وتم له الأمر.

حوادث الجنوب 1792م:

عندما توفي صالح باي سنة 1792؛ ترك جنوب الشرق الجزائري في فوضى لا مثيل لها نتيجة تطاحن بين أسرتي ابن قانه وبوعكاز وأنصارهما على الحكم من الجهة؛ وتصارع أسرتي ابن قانه وابن جلاب على ولاية توقرت من جهة أخرى⁽⁷⁾.

- (1) - محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة 2، 1985، ص 52
- (2) - هو ابن عجشي حسن بوحنك كان في قصر صالح باي ثم هرب إلى الجزائر ولما تولى إبراهيم طلب من الداي أن يعينه خليفة له ففعل، ثم أمره بأن يتخلف بعده ليأتي بالحرتم.
- (3) - أولاد مقران الذين كانوا يسيطرون على منطقة المجانة.
- (4) - الحاج ابن قانة شيخ عرب الجنوب وكان في نفس الوقت صهرا لخزناحي الايالة.
- (5) - الحاج أحمد المبارك، تاريخ حاضرة قسنطينة، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه نور الدين عبد القادر، الجزائر سنة 1952، ص 28
- (6) - كان إذ ذاك شيخا للمدينة فوعد صالح باي بأنه سيكاتب الداي في شأنه ليذهب معه إلى بيت الله الحرام، فلما وصل قرب الديوان سلمه إلى جلالديه فخنقوه، ويذكر الحاج بن مبارك أن صالح التفت إليه وقال: غدرت فأجابته: الغدر سبق منك (نفس المصدر)
- (7) - كان الشرق الجزائري مقسما بين خمس أسر هي: أسرة مقران في الغرب، وأسرة الأحرار في الشرق وأسر ابن قانه وبوعكاز وابن جلاب في الجنوب.

ولما كان خليفة الباي الراحلصهرا للأسرة الأولى، فإنه عمل على تدعيمها وتزويدها بالجيش للقضاء على منافسيها، وقد شهدت بسكرة ونواحيها معارك متعددة بين أنصار كل من عائلي بوعكاز وابن قانه، لم تنته إلا عندما جاء الحاج أحمد باي سنة 1826⁽¹⁾ فدبر مؤامرة ملفقة ضد أولاد زكري⁽²⁾ الذين كانوا يشكلون قوة "بوعكاز" وقتلهم عن آخرهم في قرية بني زياد (الروفاك سابقا)، وبذلك أحدث نوعا من الهدوء ولكنه هدوء مزوج بحقد دفين سيستمر إلى نهاية الحكم العثماني سنة 1830.

حوادث شمالي الأوراس 1798:

تسكن هذه المنطقة قبائل ثلاث الحنانشة والحراكتة والنمامشة، وكانت تعيش في صراع دائم وكان البايات يذبلون كل ما في وسعهم لإشعال نيران الفتنة بينها، وكلما فادتها إلى التفاهم واتحدوا، ولو لفترة وجيزة، توردوا

(1) - هو محمد بن أحمد القلي ووالد أحمد

باي.

(2) - Mercier Ernest ; Histoire de constantine ; Imprime avec le concours de la societe archeologique ; constantine 1903 ; p 372-373
 Mercier Ernest:dit El-Hadj-Ahmed, petit-fi ls du bey turc, Ahmed-El-Kolli, Mohammed était né àConstantine, et par conséquent Koulour'li. Son père -Chérif avait été khalifa, sous le bey Hassein, successeurde Salah, et il avait lui-même rempli cette charge, à l'époquede Braham-el-R'arbi et de M'hammed-el-Kolli.Le nouveau bey ne manquait pas d'amis à Constantine, etétait allié aux plus puissantes familles de la province.C'étaient d'abord les Ben-Gana qui devaient leur élévationà son aïeul, El-Kolli. Il était fi ls d'El-Hadja-Rokéïa, et par conséquent,neveu et cousin de Mohammed-bel-Hadj, chef de la famille Ben-Gana. Des liens aussi intimes l'unissaient à la famille Mokrani, de même que son aïeul, car il avait épousé sa cousine par alliance, Aïchouch, fi lle de Ben-Abd-Es-Selam.Il était l'ami intime et le parent de Bou-Rennane ben Derradjiben Achour, du Perdjioua, qui l'avait recueilli lors de sa fuite de Constantine et lui avait fourni des secours pécuniaires durantson exil à Blida; dans le Zouar'a, il s'appuyait sur Azz-Ed-Dine,son partisan dévoué, dont la puissance s'étendait de jour en jour.Enfi n, il avait eu des relations très intimes avec Rezgui et Zeïnben Younès, promoteurs de l'insurrection des Henanecha, et avaitpromis au bey, très irrité de la prolongation de cette révolte, d'y mettre fi n sans retard.

على الحكام، ورفضوا دفع الضرائب وتنفيذ الأوامر، فتنظم ضدهم الحملات ينتصرون عليها أحيانا وينهزمون أمامها عدة مرات، وفي جميع الحالات تراق الدماء وتزهق الأرواح وتنهب الثروات ويقضى على المواشي، وتعرض المحاصيل للفساد والضياع بالتالي تصاب ميادين الاقتصاد المختلفة بنوع من الشلل يصعب تقويمه فيما بعد، وإن كتب التاريخ لحافلة يمثل هذه الأحداث المؤسفة فنذكر مثلا أن النمامشة والحراكتة قد اتحدوا سنة 1798، وتمردوا على النظام المركزي، فسار الوزناجي⁽¹⁾ ضدهم وأحرز عليهم انتصارا باهرا وأرغمهم على الخضوع، ثم رجع إلى قسنطينة بغنائم وفيرة وبعد ذلك بعامين وقعت نفس العملية وتعرضت القبيلتان لنفس المصير⁽²⁾، وإن منطقة الشمال هذه شهدت في الفترة ما بين 1803 - 1805 تمردين؛ الأول قام به الحنانشة وقضى عليه انكليز باي⁽³⁾ وقام بالثاني النمامشة وأخمده عثمان باي⁽⁴⁾.

وفي سنة 1817 نظم شاكر باي حملة ضد النمامشة⁽⁵⁾ وعندما فرت أمامه، صب غضبه على أولاد سيدي عبيد، فأخذ كل ما لديهم من أنعام.⁽⁶⁾ ولما كانت سنة 1822، في عهد الباي إبراهيم بن علي⁽⁷⁾، تمرد النمامشة ورفضوا دفع الضرائب، فخرج ضدهم جيش صغير لهم أربعين ألف رأس من الغنم.⁽⁸⁾

تمرد الشريف بن الأحرش 1804:

⁽¹⁾ هو الباي مصطفى الوزناجي الذي كان حاكما للتيطري ثم عزل سنة 1792 بعد حكم دام عشرين سنة لكنه لم يقتل مثل صالح باي. ولما مات بوحناك، تدخل اليهوديان بوجناح وبكري لدى الداوي فعينه بايا على قسنطينة وذلك سنة 1794.

⁽²⁾ - Mercier (E), Histoire de Constantine , op Cit, P 303.

⁽³⁾ - هو مصطفى انكليز الذي عزل سنة 1803 نتيجة تصرفات ابنه الطائشة، وبدلا من أن يقصد الحجاز كما وعد بذلك استقر في تونس وظل فيها يناور لاسترجاع بايليك الشرق.

⁽⁴⁾ - هو ابن محمد الكبير الذي طرد الاسبانيين من وهران، وقد عين على رأس البايليك بعد مصطفى انكليز.

⁽⁵⁾ - Gramont (H). Histoire d'Alger sous la domination Turque, le Roux PARIS 1887, P 363.

⁽⁶⁾ - Mercier, histoire de Constantine, op Cit. P 346.

⁽⁷⁾ - هو إبراهيم الكرتلي الباي الثامن عشر بعد مقتل صالح باي. تولى الحكم في جويلية سنة 1822 ولم يبق فيه سوى خمسة أشهر، إذ ترك مكانه للباي محمد مناصبي في ديسمبر من نفس السنة.

⁽⁸⁾ - Vayssettes (E) "Les derniers Beys de " R. A, Constantine ; Janvier Mars 1893, P 115.

يعتبر هذا التمرد أخطر ما حدث في مقاطعة قسنطينة قبيل الاحتلال الفرنسي لأنه كاد أن يقضي على بايليك الشرق⁽¹⁾ ولأنه دام ثلاث سنوات متتالية، وقتل فيه باي⁽²⁾ واتهمت فيه دولة أجنبية بالتعاون مع المتمردين⁽³⁾.

أما الشريف؛ فإنه رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس، دخل وسط القبائل ووعدهم بأخذ قسنطينة⁽⁴⁾، وسبب مجيئه إلى الجزائر أنه كان يقود ركب الحجيج عندما وقعت الحملة الفرنسية ضد مصر، فتوقف بالقرب من الإسكندرية وشارك في القتال ضد جيوش بونابرت. وقد اشتهر في جميع المعارك التي خاضها بالشجاعة والإقدام والمقدرة على تسيير المحاربين. وبعد النصر تحالف مع إنكليز فأعادهم ومن معه على مدينة عنابة، ثم ذهب إلى قسنطينة ومنها التحق بالجبال واستقر بمدينة جيجل حيث بدأ بجمع الأنصار⁽⁵⁾.

ونحن إذا كنا لا نستبعد أن تكون بريطانيا قد شجعت الشريف على الثورة لأنها كانت تغبط فرنسا على الامتيازات التي تحظى بها في الشرق الجزائري، فإننا لا نعتقد أنه وقع تحالف حقيقي بين الطرفين، وإنما نرجح أن تكون هناك وعود بالمساعدة من بعض الضباط الإنكليز الذين لم يوفوا بوعودهم، لأن أنصار ابن الأحرش انهزموا لعدم توفر الأسلحة لديهم.

أصبح محمد ابن الأحرش الاسطوري يستعمل كل الوسائل لكسب أكبر عدد من القبائل والمحبين لافكاره ودعوتهم للثورة ضد النظام التركي ولقد استمال كل من كانت له ضغينة وكره للعثمانيين، فكان يدعي أنه معصوم من الموت، وعندما تحضر في معركة، فإن بارود الأعداء ينقلب ماء⁽⁶⁾، ثم اتصل بسي عبد الله الزبوشي الزبوشي مقدم إخوان سيدي عبد الرحمن الذي يتمركز في "رجاس" بناحية ميله⁽⁷⁾، وخططا للاستيلاء على مدينة قسنطينة، وكان عصمان باي حاكمها، إذ ذاك، في نواحي جبل البابور، فزحف الشريف على المدينة بجميع القبائل التي انضمت إليه في مرج السكر بين جيجل وسكيكدة، والتي يبلغ عدد أفرادها مائة ألفاً و

⁽¹⁾-Féraud,Ch. histoire de djjele, ALGER 1873, P 184.

⁽²⁾- المقتول هو عصمان باي كرغلي من اولاد قارة محمد من عائلة باي وهران من خصائصة ميله للعرب وابتعاده عن الاتراك وفي عهد ولايته على بايليك قسنطينة حدثت ثورة ابن الأحرش الذي التففت حوله القبائل واستطاع على تعبئتهم ضد السلطة التركية .

⁽³⁾-Mercier,E. Histoire de constantine ; op cit ; P 308-309..

⁽⁴⁾- الحاج أحمد المبارك مصدر سابق، ص 13.

⁽⁵⁾-Mercier,E. Histoire constantine ; op cit, P447.

⁽⁶⁾- الحاج مبارك، مصدر سابق، ص 13.

⁽⁷⁾- Mercier (E), Histoire de, Constantine,op cit. P 310.

يزيد⁽¹⁾، وعندما وصل المتمردون إلى المدينة، قاتلهم أهل البلد وأحقوا بهم هزيمة نكراء، يعزوها مارسي إلى إصابة الشريف بجروح وانفضاض القبائل من حوله⁽²⁾. و هو افتراض صحيح في نظرنا لأن تلك القبائل لم تنظم إلى الشريف إلا لأنها اعتقدت فعلا في عصمته وآمنت به لكونه من أولياء الله الصالحين. غير أن مارسي نسي أن يذكر بأن عدم توفر الأسلحة، أيضا كان من الأسباب الرئيسية في وقوع الهزيمة.

ولما علم الداوي بهذا الحادث كتب إلى عثمان يقول: «لقد عينتك بابا على المقاطعة التي ظهر فيها الشريف، فمن الواجب عليك أن تلاحقه بنفسك وتقضي عليه وإني لأضعك أمام أمرين لا ثالث لهما: رأسك أو رأسه»⁽³⁾.

في شهر أوت 1804، خرج الباي يطلب رأس الشريف في جيش بلغ عدده أربعة آلاف جندي⁽⁴⁾ ولما وصل إلى ناحية بوغدار، انهال عليه الزبوشي واحتدم القتال بين الطرفين فقتل الباي ولم ينج من جنده إلا من فر راجلا إلى قسنطينة⁽⁵⁾ يقول محمد الصالح العنتري: «فلما وصل الخبر إلى قسنطينة بوقوع تلك المصيبة العظيمة والداهية الشنيعة ارتفعت الأصوات بالبكاء والصراخ وضجت العباد بالنحيب والصياح وقد اجتمعوا مصيبتان: موت الأمير، وفناء العباد وخوفا من رجوع الشريف الى البلاد، فعند ذلك اجتمعوا أهل الرأي والمشورة وهم سيدي الشيخ، والعلماء، وديوان النوبة، وكتبوا الى الباشا بالجزائر وأخبروه بموت الباي وفناء العساكر وتشتيت الخزائن والأعمال، وخوفهم من رجوع الشريف الى البلاد في الحال، فلما وصل ذلك الجواب إلى الباشا بالجزائر، وتحقق بموت الباي، وفناء العساكر، تقلق وتحيير وخمم في عقله أنه يمضي إلى الشريف بنفسه، فأشاروا عليه بعض وزرائه ببطلان ذلك فتبع رأيهم وأصغى لكلامهم ثم إنه عين بايا آخر تركي وألزمه يمضي إلى الشريف بالعجل ومن غير مهلة ولا جل»⁽⁶⁾، وبعد هذه الهزيمة أمرت الجزائر الرئيس حميدو ذا الشهرة الشهرة العالمية، بالتوجه إلى جيجل للقضاء على ابن الأحرش، فحاصرو المدينة وأحرق سفنها ولكنه لم يظفر

⁽¹⁾ - الحاج أحمد مبارك، ص 13.

⁽²⁾ - Mercier (E), op ; cit, P 459.

⁽³⁾ - Féraud, histoire de Jigelli, ALGER 1873, P 199.

⁽⁴⁾ - الحاج أحمد المبارك، مصدر سابق، ص 14.

⁽⁵⁾ - Mercier, Histoire ,op ; cit ; P 460.

⁽⁶⁾ - محمد الصالح العنتري، مصدر سابق، ص 84-85.

بعده. ويقول فيرو في كتابه "تاريخ جيغل" أن الزبوش أرسل رأس عثمان إلى ابن الأحرش بينما دفنت الجثة هناك وكتب على القبر: هذا ضريح المرحوم السيد عثمان باي بن محمد الذي قتل بماته الأرض المسماة خناق عليهم سنة 1229 هـ¹ في سنتي 1806 – 1807 تواصلت المعارك ولما هاجم الشريف سهول بجاية تصدت له جيوش الباي وأجبرته

إلى الفرار والالتحاق بشيخ الدقاوة في بايليك الغرب، حيث "بقي في معيشة إلى أن دس له من قتله من أصحابه وكان ذلك سنة 1807"⁽²⁾.

تمرد أحمد الشاوش 1808:⁽³⁾

كان من الضباط الأتراك المتقاعدین، وتزوج في قسنطينة، وكانت العساكر تحبه وتأتيه إلى داره وعظم ذكره في البلد وشاع أنه يبحث على ولاية قسنطينة، فأظهر له علي باي⁽⁴⁾ العداوة فهرب إلى القبائل وبقي عندهم مدة⁽⁵⁾ ولكن مرسي يتهمه بأنه كان على اتصال بباي تونس⁽⁶⁾، وأن هذا الأخير أمده بالأموال وحرّضه على التمرد وقلب النظام ففعل "واستطاع أن يثير السكان والأجناد ويقتل عليا في شهر سبتمبر 1808"⁽⁷⁾، غير أن السيد مارسي لم يذكر لنا المصادر التي استقى منها المعلومات، ولذلك يجب أن نأخذها بكل تحفظ خاصة وأنها نرجح بأنها قد تكون من استنتاجاته التي توصل إليها عندما رأى الباي الجديد يبرم الصلح مع تونس ويعلن عن استعداده للسير ضد الجزائر، كما أننا نرجح بأن السكان إنما ناصروا الشاوش لأنه كان متزوجا منهم، ولأن المصاهرة في ذلك الحين كانت من أقوى أسباب النجاح.

لما علم الداوي بما حدث لمثله في الشرق، وخشي أن تقوى شوكة المعتصب بعد أن تصالح مع الأيالة المجاورة⁽⁸⁾، وإن ينجح في تنفيذ خطته الرامية إلى الاستيلاء على الحكم في الجزائر كتب أمرا إلى أحمد طوبال⁽⁹⁾

(1)- Feraud, ch ;HISTOIRE de djijel ;p 250.

(2)- الحاج أحمد المبارك، مصدر سابق ص 32.

(3) – Mercier Ernest ; Histoire de Constantine ;Ibid ;p333-334.

(4)- تولى الحكم سنة 1807 وقتل في شهر سبتمبر 1808، بأمر من أحمد الشاوش. انظر الحاج أحمد المبارك ص 31.

(5)- نفس المصدر السابق، ص 30.

(6)- هو حمودة باشا الذي تأمر على أيالة الجزائر سنة 1807 بعد أن كان يدين لها بالولاء ثم قام بهجوم على قسنطينة في نفس السنة، ولكن جيوشه انهزمت يوم 4 ماي 1807 بعد أن أسرجلها، ويقول الحاج أحمد المبارك ص 17 إن الأسرى أرسلوا إلى الجزائر ومنها جعلوا في مركب وبعثوا إلى تونس.

(7)-Mercier (E), Histoire de Constantine, op Cit, P 329.

(8)- هو الداوي علي خوجة غسال. ولي سنة 1808، وقتل شنقا 1809 بعد أن رفض السم.

طوبال⁽¹⁾ بالولاية على قسنطينة، وكان أحمد هذا مشهورا بالتقوى والشجاعة والصلاح، ولذلك مالت إليه قلوب الناس الذين انفضوا من حول الشاوش وتركوه في قبضة الأتراك الذين خنقوه بعد أن حكم خمسة عشر يوما⁽²⁾. يقول احمد الشريف الزهار: و لما بلغ الامير خبر موت عثمان باي، استقدم قائد الحشنة، وكانت تحته الدايجة بنت بن كانة، شيخ العرب قسنطينة، فلما حضر القائد عبد الله بين يديه، اولاه بايا على قسنطينة⁽³⁾. على الرغم من أن مدة الحادث كانت قصيرة جدا، فإن الاضطرابات التي تعرضت لها عاصمة الشرق قد أثرت تأثيرا بالغا على الحياة الاقتصادية في الناحية، وعلى التجارة بصفة خاصة، لأن قسنطينة هي أكبر سوق في المقاطعة، وما من شك إنها أغلقت أبوابها أثناء المعركة التي دارت في طرقاتها، وإن الجنود قد اغتتموا فرصة الفوضى للنهب والسرقة. وفر من سجن القصبه بعض المخازنية مثل مصطفى بن عاشور وقائد فرجية ومحمد بن قرية قائد عزب البقر، وكانت الاوضاع جد متدهورة في دار السلطان بسبب، فحيكت عليه مؤامرات ورجع الى قسنطينة فقتل وشنق وعلق على ابواب المدينة⁽⁴⁾.

حوادث مجانة 1813:

يقول محمد العربي الزبيري: " لم يحدث في هذه المنطقة سوى تمرد واحد يستحق الذكر، وقع في نهاية عام 1813. لم يقض عليه إلا في ربيع 1814 وتأتي أهميته من كونه تسبب في مقتل الباي نعمان⁽⁵⁾ الذي خلفه شاكر باي⁽⁶⁾ أثناء المعركة، وعلى الرغم من الجهود الحربية التي بذلها لم تأت عليه عسكريا وإنما استعمل سياسة التفرقة لإضعاف المتمردين وإرغامهم على قبول السلم والامتثال لشرطه، ومن الجدير بالذكر أن كثيرا

(1) - احمد طبال باي، 1808-1811 عرف بحسن السيرة ورجاحة العقل وحبه للرعية.

(2) - الحاج أحمد المبارك، مصدر سابق، ص 32.

(3) - الحاج الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق احمد توفيق المدني، ط 2، ش.و.ن.ت. الجزائر 1980، ص 86.

(4) - محمد الصالح العنتري، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص 93. انظر :

- Mercier Ernest, histoire de constantine ;p 331-332.

(5) - يقول محمد الصالح العنتري فيه: "كان محمد نعمان باي، خليفة لعبد الله بايو صهر الباي زرق عينوسلك سياسة سلفه

في البايليك ووطد الامن وطلب من الاوجاق الاذن له بان يضغط على تونس حتى ترسخ لدفع الضرائب المفروضة عليها وجاءت الفرصة عندما تمكن الرايس حميدو من اسر فرقاطة تونسية عليها 38 مدفعا وفادها الى ميناء الجزائر فعمل الداي في اعلان الحرب ضد تونس، غير ان رسولا عثمانيا حضر الى الجزائر لاصلاح ذات البين وهدد الجزائر باعتبارها عاصية اذ رفضت قبول الصلح سنة 1811.

(6) - هو شاكر باي، تولى الحكم سنة 1814 وقتل شنقا في القصبه في شهر جانفي سنة 1818. انظر محمد الصالح، العنتري

الصالح، العنتري ص 95

من السكان لقوا حتفهم في هذه الحملة، وتعرضت بجانة والمضاب العليا إلى قمع رهيب، وعاشت نتيجة لذلك، فترة من الزمن تهددها المجاعة والأوبئة⁽¹⁾.

تمرد ابن الاحرش 1804م

تعتبر اهم واحظر ثورة شهدها الشرق الجزائري لعدة اعتبارات، منها انها شهدت أكبر تعبئة شعبية و أكبر عدد من القبائل وفي ظرف شهد اضطراب في استقرار البايات والدايات على مستوى مراكز حكمهم. فعصمان باي لم يدم حكمه سوى سنة (1803-1804م) وعبدالله باي لم يدم حكمه سوى اقل من سنتين (1804-1806م) حسين باي ولد صالح باي لم يدم حكمه سوى اقل من سنة (1806-1807م) وعلي باي بن يوسف اقل من سنة (1807-1808م) و الباي احمد شاوش القبائلي سوى ايام (47 يوم)⁽²⁾ اما الدايات فكان حالهم انعكاسي لحالات البايات، فمن حكم الداوي مصطفى اشا الذي دام ازيد من ثماني سنوات من (1797-1805م) جاءت ولاية احمد باشا التي دامت حوالي ثلاث سنوات (1805-1808م) علي باشا الذي لم يدم سنة (1808م) والحاج علي باشا (1809-1814م) ومحمد باشا اقل من سنة (1814م) وعمر باشا (1814-1816م) وعلي باشا (1816-1818م)⁽³⁾.

والسؤال المطروح هنا ما سبب هذه الثورات والانتفاضات هل يعود سببها إلى سوء الأوضاع الاقتصادية، والتي أضفت على الجانب الاجتماعي ضغط أهلها على الظهور في أوقات متتالية من الحكم العثماني، أم إلى ضعف السلطة المركزية والمتمثلة في الباي وحاشيته ودورهم في عدم أهليتهم في المحافظة على السلم الاجتماعي، أو الظروف التي فرضتها هذه السلطة على السكان والمتمثلة أساسا في ارتفاع الرسوم والضرائب التي كانت تحتاجها لتعويضها، لما لم تحققه في الحملات العسكرية البحرية التي عرفت بها في سابق أيامها. يقول حمدان خوجة: "و اقام سكان الجزائر من حهتهم حاجزا بينهم وبين الاتراك. و ابدوا تحفظا شديدا ازاءهم بحيث لو طلب الاتراك من الجزائريين ابداء برائهم لما افصحوا لهم عما يدور في انفسهم"⁽⁴⁾.

إن الأوضاع التي مر بها الشرق الجزائري بداية من مطلع القرن التاسع عشر من ثورات وتمرد ضد السلطة الحاكمة؛ ينم على سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي أصبحت تعم المنطقة بكاملها، وهذا ما يفسر

(1) - محمد العربي الزبيري التجارة الخارجية، مرجع سابق، ص 28.

(2) - محمد الصالح العنتري، مصدر سابق، ص ص 83-91.

(3) - الحاج احمد الشريف الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص ص 71-132.

(4) - حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق، محمد العربي الزبيري، ط 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص 158.

تضمّر السكان على السلطة الحاكمة، إضافة إلى عدم الاستقرار مما أدى إلى ضعف الإنتاج الزراعي والحيواني، وفي مقابل ذلك لم تراعي السلطة المحلية هذه الأوضاع، بل استمرت في رفع الضرائب ومصادرة الثروة الحيوانية، مما جعل السكان يزدادون تضمرًا وهجرة لنشاطهم الفلاحي، إضافة إلى أن المقاومون كانوا هم الفاعلون في الإنتاج الفلاحي، إن ضعف السلطة وعدم استقرار الحكام في مناصبهم لم يؤهل المنطقة للاهتمام بمطالب السكان، إضافة إلى الطابع العقابي الذي تميزت به السلطة والمتمثلة في تسيير الحملات التأديبية على القبائل،⁽¹⁾ وإعطاء سلطة إضافية لجناب الضرائب للقيام بأعمالهم، وهي من الامتيازات التي كانت سائدة في ذلك الوقت وتلك المنطقة.⁽²⁾

إن الظروف الطبيعية من جفاف⁽³⁾ واجتياح أسراب الجراد وانتشار الأوبئة⁽⁴⁾ زاد في ضعف الإنتاج وعدم قدرة السكان على دفع ما يترتب عليهم من طلبات الباي وحاشيته، ولم تسلم حتى القبائل التي كانت تمثل القوة الاقتصادية للشرق الجزائري، وسياسة الامتيازات التي أصبحت القبائل تتمايز بها أمام السلطة الضعيفة والمتمثلة في سلطة على رأسهم الباي.⁽⁵⁾

التمرد والثورات الداخلية تنم عدم استقرار الأوضاع في الشرق الجزائري ويمكن إرجاع ذلك لضعف شخصية الحكام وجور المفوضين لتسيير شؤون البايليك، وسوء الأحوال المعيشية التي لصبح المجتمع يعيشها، وهنا يمكننا استنتاج أن النظام العثماني لم يجدد في هياكل هيئاته حيث ورثت بعض العائلات المناصب، آل

(1) - محمد الصالح العنزي، مصدر سابق، ص 95 . انظر ذلك .

- Mercier Ernest ; Histoire de Constantine ; 376 - 377.

(2) - بداية حكم الداوي حسين 1233هـ الموافق 1818. و فيها انعقد مؤتمر أكس لشبال ومناقشة القضية الجزائرية التي على شأنها بعث مبعوثين فرنسي و انجليبي لتقدم اهم المقترحات التي تحمل تهديد اوربي للجائر.

(3) - يقول محمد الصالح العنزي، مجامع قسنطينة : في اواخر العصر التركي يتوسع ويذكر ان هذه الازمة قد مهدت لها ثورة الشريف ابن الاحرش التي اندلعت في وادي الزهور ومن الاعمال التابعة لقسنطينة سنة 1803م ثم عقبها ازمة القحط والمجاعة الشديدة التي اصابت الناس . ص 13.

(4) - يقول نصر الدين سعيدوني : " ان وباء عامي 1817-1818 م قضى في مدينة الجزائر على اكثر من 14.000 نسمة وادى الى هلاك ثلثي سكان مدينة عنابة الذي لم يعد يتجاوز سكانها بسبب هذا الوباء 5.000 نسمة كما تضررت به اغلب الجهات الجبلية والصحراوية .

(5) - كانت ولاية علي الغسال تولى حكم الباشوية سنة 1223هـ الموافق 1808 م يصفه الشريف الزها بأنه رجلا وضيع الرتبة عديم الاخلاق، ولولا الفتنة العسكرية الدهماء ما كان يصل لرتبة الباشوية ولو لأمد قصير

مقران وآل الفقون وآل باش تارزي⁽¹⁾ وأصبحت تتوارثها بسبب عمق نفوذها في النظام والامتيازات التي اكتسبتها عبر الفترات الطويلة. يقول الشريف الزهار: "و لما بلغ الامير خبر موت عثمان باي، استقدم قائد الحشنة، وكانت تحته تحته الداخنة بنت بن قانة، شيخ العرب بقسنطينة، فلما حضر القائد عبد الله بين يديه، اولاده بايا على قسنطينة،... و امره بالذهاب حالا... فلما وصل الى قسنطينة رجع ابن الاحرش القهقري، و تفرقت عنه القبائل ثم كتب عبد الله اصهاره وجمع الرعية واستقام له الامر وساير كبراء العرب واجتمع له اهل المخزن، ثم جهز محلة وخرج في ظل ابن الاحرش، وضيق عليه البلاد واطفا نار الفتنة من الناحية الشرقية وكان جزاء هذا الباي ان قتله امراء الجزائر بعد وفاة الامير مصطفى باشا.⁽²⁾

ثورة درقاوة.

تزامنت ثورة محمد بن الاحرش (البودالي)⁽³⁾ مع مجموعة من الاحداث على المستوى الداخلي والمستوى الخارجي، فعلى المستوى الداخلي كانت ثورة درقاوة في وهران فجهز احمد باشا حملة كبيرة بقيادة احمد بوكابوس باي وهران، فاحضع درقاوة يقول احمد الشريف الزهار في مذكراته: "ثم ان الباي الجديد كتب للمخزن القديم وكتب لكبراء العرب، اخبرهم بقدمه، و بذل لهم الاموال ثم جهز محلة خيمت خارج البلد وبذل العطاء للصادر والوارد واجتمع الناس عليه وسافر بالمحلة ونادى مناديه ان من اتى براس (من الاعداء) ياخذ عشر سلطانين فوقعت قتالات بين الباي المقلج (المقلش) وبين الدرقاوي⁽⁴⁾، ومات من العرب عدد لا يحصى وكانت تجمع رؤوس بني ندم مثل الجبال"⁽⁵⁾.

الحرب مع أيلة تونس 1807م:

يذكر محمد الصالح العنترى فقرة مهمة نوجز منها: «قاد الجيش التونسي سليمان كاهية وتأخر الداوي على إرسال النجدة على وجه السرعة، لكونه كان منشغلا في القضاء على تمرد سكان فليسة بجبال جرجرة، وذلك عندما بلغه خبر حصار التونسيين لقسنطينة أسرع في إرسال النجدة التي تمكنت من الإيقاع بالجيش التونسي وإلحاق هزيمة ما حققه به، واستولت على كل ما لديه من المؤن والذخائر وقتلت الكثير، والتحق 600 جندي تونسي بالجيش الجزائري بأسلحتهم وكان عدد الجيش التونسي خمسين ألف رجل، ويقال بأن هذا الانتصار

(1) - توارثت عائلة الفقون شيخ البلد في قسنطينة وركب الحج طول الفترة العثمانية .

(2) - أحمد الشريف الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 86

(3) - Feraud (charle) L ; histoire de djidjel ; P 187.

(4) - Féraud, « Zebbouchi et Osmane-Bey » ; Revue Africaine, n32 p. 120.

(5) - المصدر السابق، ص 87.

حققه بايليك الشرق على أرض الجزائر ضد التونسيين، وبعد هذا الانتصار جاءت الأوامر من الجزائر بالزحف على تونس، فقاد الباي حسين أغا والباشا أغا 18000 رجل إلى تونس في شهر جويلية 1807م⁽¹⁾. أما احمد الشريف الزهار فيقول: "كان ملوك تونس يبعثون مركبا محملا بالزيت وبعض الهدايا الرفيعة كل سنة فقطعوها فكتب لهم على ذلك. فامتنعوا عن الاذعان ووقع كلام بينه وبين ملكها حمودة الى ان اشتعلت ر الفتنة... فاخذوا منهم ثلاثة مراكب"⁽²⁾.

من خلال هذا النص نتعرف على العلاقة الجزائرية التونسية أنها كانت متمشجة وحالة غير مستقرة من جهة، ومن جهة أخرى يظهر أن أوضاع الشرق الجزائري تسوده اضطرابات، هذا ما جعل الباي بنفسه يقود الحملة العسكرية للقضاء على التمرد الذي ظهر في منطقة فليسة في جبال جرجرة، هذه الأوضاع تؤثر سلبا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الجزائري⁽³⁾.

لم تكن الاوضاع مستقيمة ولا مستقرة في الجزائر ولا من حولها فكثرة الثورات الداخلية والتشنجات في العلاقات الخارجية والتكالب الاوربي على الدولة العثمانية وعلى ايالاتها زاد في تفاقم الوضع وجعل الاوضاع الداخلية سوء، وضعف الشخصيات التي كانت تسيير البلاد تزداد ضعفا، ويمكن القول ان الجزائر اصبحت مفلسة من الشخصيات القوية على المستوى المركزي في دار السلطان او على مستوى البياليك.

الأمراض والأوبئة التي انتشرت في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية:

تعرضت الجزائر إلى أمراض وأوبئة فتاكة مختلفة أصابت السكان في فترات دورية مرات وأحدثت خسائر تكاد تكون خيالية من كثرة هولها وارتفاع عدد الموتى⁽⁴⁾، ومن المعلوم انه لم تكن لهم من العلوم ما يحدد طبيعة المرض ولا نوعية الباء وجراثيم الأوبئة، فإن السكان والأطباء منهم كانوا ينسبون كل هذه الظواهر إلى مرض

(1) محمد الصالح بن العنتري، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص 45.

(2) احمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 96.

(3) محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 29.

(4) GUYON (M). « La peste en Algérie ; « Le Moniteur Algérien » ; n° 106-116 ; 1834. « Les principale pestes ont règne dans le nord de l'Afrique » ; Gazette médicales de PARIS ; 1838 ; PP. 8-14.

الطاعون الذي كانت السلطات المحلية عاجزة على اتخاذ أية تدابير وقائية لما كان من اختلاف بين رجال الدين بما يتعلق بمعالجة المصابين⁽¹⁾.

وإذا أردنا أن نعدد المرات التي ظهر فيها وباء الطاعون نذكر منها وباء عام 1793 ووباء 1799 ووباء 1816.

وباء 1786:

دخل هذا الوباء من ايلالة تونس وانتشر في الشرق الجزائري ومنه انتقل حت الجزائر العاصمة، و اشتهر باسم "حبوبة الامجاد" هلك الكثير من الخلق⁽²⁾.

وباء 1793:

ظهر الوباء في مدينة الجزائر ثم انتشر نحو الشرق وتأثرت به منطقة الشرق الجزائري، ولقد صرح مندوب الشركة الملكية الإفريقية في عناية السيد كيارو كتب يقول: "أن حوالي مائة شخص كانت تموت في قسنطينة في اليوم"⁽³⁾. بينما سلمت السواحل من هذا الوباء بفضل التدابير الاحترازية التي كانت تقوم بها السلطات حيال هذا الوباء، بحيث اتخذ حاكم القالة الفرنسي بإذن من الباي من إغلاق الموانئ ومنع القادمين إليها من الدخول وعدم الاتصال من البواخر الأجنبية المجهولة الأصل⁽⁴⁾.

وباء 1799:

كانت الجزائر في حرب مع فرنسا بسبب حملة بونابرت على مصر ونتيجة لذلك أغلقت المؤسسات الفرنسية والقي القبض على جميع الفرنسيين، وذكر هذا الوباء في جريدة المونيتور-EL MO NITEURE يذكر صاحب المقال: «أنه حل بمقاطعة قسنطينة وانتشر الوباء إلى الجنوب حيث صار الموت يحصد يوميا ما بين مائة ومائة وعشرون شخصا»⁽⁵⁾.

وباء 1816:

(1) حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق، محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978، ص 59.

(2) عبد الرحمان محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3 ط 6، دار الثقافة بيروت، ص 263.

(3) محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 51.

(4) محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 46.

(5) قشاعي فلة الموساوي، الوضع الصحي في الجزائر أواخر العهد العثماني، ص 86.

هو من أهم الأوبئة التي طال وجودها حيث قدر بعض المؤرخين بقاؤه بأربع سنوات ومنهم من يمدد الفترة إلى ستة سنوات. ف " قيون " Guyon يقول أن بداية الوباء ظهرت سنة 1817، وإن العدو جاءت من الإسكندرية عندما حلت سفينة الحجيج من الإسكندرية لميناء عنابة، مهما يكن الأمر فإن الوباء أصاب كل الشرق الجزائري وانتشر في كل أنحاءه، والحق أضرارا كبيرة وكان في مدينة قسنطينة يحصد يوميا ثلاثين شخصا، وجعل سكان مدينة عنابة وسكيكدة وبجاية يهربون إلى قمم الجبال⁽¹⁾.

الجدول يبين لنا بعض الإحصائيات حسب تقرير قيون⁽²⁾.

النسبة المئوية	عدد الموتى	عدد السكان	المدينة
30 %	600	200	جيجل
15 %	450	3000	بسكرة
80 %	28	35	سيدي خالد
12 %	180	1500	أولاد جلال
4.21 %	150	700	طولقة
12 %	60	500	فرفار
6.21 %	130	600	ليشانة

⁽¹⁾ - Guyon (Jean-Louis- Genevieve) docteur en medecine ;chirurgien Principal des armées ; officier dela legion dhonneur ; chevalier de l'ordre de charles 3 ;d'Espagne .

-Guyon. LA peste en Algérie Le Moniteur Algérienne ; n ° 106-116. .

periode	Affection	Inportance	Particularites
1831-1832	Varirole		Region d'Alger
1834	Cholera;varirole	Plus de3000cas	Se prolongea avec intensité jusqu'en 1837
1842	Typhus exanthématique		
1849-1853	cholera	Assez nobreux cas	
1868	Typhus exanthématique		
1893	cholera	Enveron 15.000cas et 6.000decés	

⁽²⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 54.

بوشقرون	200	30	15 %
الزعاطشة	200	25	5.12 %

وباء 1817م :

كانت بداية انتشار الوباء في مدينة الجزائر سنة 1816 م، وكان ذلك في ولاية الداوي عمر بن محمد، وفي السنة نفسها شهدت الجزائر الزحف البريطاني الهولندي على العاصمة (حملة أكس موث).⁽¹⁾ ثم انتقل إلى منطقة القبائل ليعم البلاد بأسرها، وسببهمجيء سفينة عثمانية حاملة للحجاج من الاسكندرية، دام الوباء ثلاث سنوات، حسب ما صرح به القنصل البريطاني، وانتشر الوباء في المدن والمناطق الجبلية، والحق اضرار كبيرة على مستوى بايليك قسنطينة وفي نفس الوقت اجتاحت اسراب الجراد وو الحق اضرار في الزرع والنبات وتضررت الحيوانات ونفقت وكان لها انعكاسات كبيرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية على مستوى بايليك قسنطينة.⁽²⁾

ويذكر محمد الصالح العنزي في كتابه سنين القحط والمسغبة في بلدة قسنطينة، أن عملية إسعاف المتضررين من أزمة القحط والمجاعة وخصوصا رجال البادية، كانوا يغادرون منازلهم وقراهم ويزحفون إلى المدينة "قسنطينة"، في حالة تعسة يستنجدون برجال المخزن وبعض الأعيان الميسورين، وقد وجدوا مساعدة من الأعيان وبعض إسعاف من رجال المخزن، وكان باي عبد الله يكتف رجال الأعراش، ويحثهم على حمل الحبوب إلى المدينة وإشراف الحكومة على عملية التوزيع الحبوب على المحتاجين.⁽³⁾

(1) - عبدالرحمان بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، 326.

(2) - BERBRUGGER; D'un mémoire sur la peste en Algeriedepuis 1552 jusqu'a 1819 Paris.imp.Royale. 1847. T11.P211-2,.

(3) - صالح بن محمد العنزي كان أبوه محمد كاتباً لدى الحاج احمد باي آخر بايات قسنطينة، وقد بعثه احمد باي ليفاوض الفرنسيين حينما هجموا على قسنطينة، وعسكروا بقالمة فاجتمع بهم محمد بن العنزي، بحمام المسخوطين، فاوض الفرنسيون في المهمة التي كلف بها ثم عاد إلى قسنطينة واخبر الباي بما رأى وبما سمع فنقم عليه أحمد باي واقمه بالخيانة ثم قتله. ولما احتل الفرنسيون قسنطينة، وأنشؤوا المكتب العربي اسندوا إليه منصب كاتب فيه، وقد ارتفع صيت الصالح العنزي في عهد الكايبتان " بواسوني " الذي كان مستشرقاً ذكياً يحسن اللغة العربية، ويطالع كتبها على اختلاف مواضعها، وكانت له معرفة ب " أحوال العرب " واشتهر الصالح العنزي بكتابين هامين في تاريخ قسنطينة، فالأول موسوم " الأخبار المبنية المذكورة في تاريخ قسنطينة سنة 1844 م وطبعه بإعانة من الكايبتان " بواسوني " سنة 1846 م. والكتاب الثاني عن قسنطينة والموسوم " مجاعات قسنطينة " وقد ألفه باقتراح من الكومندان " دولير " الذي كان يشغل المسؤول عن بيرو عرب سنة 1870 م. وأراد هذا الضابط إن يطلع على المجاعات التي ضربت قسنطينة ونواحيها فألف العنزي هذا الكتاب.

الحملات العسكرية التي خاضها بايات قسنطينة أواخر الفترة العثمانية:

لقد لجأ بايات قسنطينة إلى عدة حملات عسكرية اختلفت أسبابها بين التمرد عن دفع الضرائب أو إخماد الفتن التي كانت تظهر من حين لآخر ضد السلطة المحلية في بايليك قسنطينة والهدف منها استخلاص ما ترتب عليها من ضرائب، وقد قدرت مساحة الأراضي الممتنعة ما لا يقل عن 35000000 هكتار⁽¹⁾، وهذا العدد يمثل 5/6 من المساحة الكلية لمساحة الجزائر الشمالية لباليك الثلاثة (الغرب – التيطري – قسنطينة). والجدول التالي يبين لنا أهم هذه القبائل.

الحملات العسكرية التي خاضها بايات قسنطينة أواخر الفترة العثمانية⁽²⁾:

اسم الباي	فترة الحكم	الجهة أو المنطقة	أهم ما سلب من الحملة
الباي صالح بن مصطفى	1771-1791	وادي ريغ وبني جلاب بني عباس وأولاد نايل والمسيلة وبوسعادة ومنطقة ورقلة	300.000 ليال وعدد من العبيد والخيل قطع النخيل قتل 35 رجل ومجموعة من النساء والأطفال وشتت سكانها (210 خيمة) وتحصل على غنائم معتبرة ⁽³⁾
الباي مصطفى بن سليمان الأوزناجي	1795-1798	منطقة قالمة وزردازة ومنطقة الأوراس أولاد سيدي سعيد والأعشاش	تمكنت هذه القبائل بإلحاق الهزيمة بالباي ⁽⁴⁾
الباي الحاج مصطفى الإنجليزي	1803-1898	قبيلة الحنانشة	قتل فيها قائد الحنانشة ⁽⁵⁾
الباي عثمان بن محمد الكبير	1803-1804	ضد النمامشة ثم ضد الشمال القسنطيني	تم القضاء على الباي ومحلته
الباي أحمد طوبال	1808-	السقينية منطقة المسيلة	فرض عليها دفع الضرائب وغنائم من رؤوس

(1)- Rinn (A.): « Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey ». in R. A n° 41. Année 1897. p 125.

(2)- ناصر الدين سعيدوني، وريقات جزائرية، بتصرف .

(3)- Féraud (Ch.L.) ; Le Sahara de Constantine ; Note et Souveunire. Adolphe Jourdan ; Editeur. Alger ; 1887.

(4)- Vayssettes (E.) ; histoire des derniers beys de Constantine ; de 1793 jusqu'à la chute de hadj Ahmed Bey ; Constantine 1848.

(5)- Féraud (L. ch.) ; notes relatives a la révolte de Ben –sakhri ; in R. A. n° 57 1913.

الماشية	1811	
غنم منهم 60000 رأس من الأغنام	1811- 1814	إبراهيم القرنتلي باي النمامشة والعمامرة وبني وجانة بالاوراس
مصادرة الأراضي وسلب الغنائم قتل العديد من فرسان الحملات وتشريد السكان	1814- 1818	L.محمد تشاكر باي بلغ عدد الحملات 100 حملة شملت اغلب مناطق البايليك
غرامات مالية ورؤوس الماشية وتكبذت الحملة هزيمة أمام قبيلة العمامرة في الاوراس	1818- 1818	أحمد بن عبد الله المملوك باي بني جلاب وحملة وادي سوف والحنانشة والنمامشة والبايور
غنم 4000 رأس من الغنم	1822- 1824	إبراهيم القرنتلي الغربي باي منطقة النمامشة
تكبذت الحملات هزائم كبيرة من طرف السكان وتقلصت هيبة الباي	1824- 1826	محمد بن محمدي بن خان باي منطقة قالمة وسوق أهراس وأولاد دراج و أولاد نايل
مصادرة الأراضي وغنم رؤوس من الأبقار والماشية والخيول وأضرار في السكان ⁽¹⁾	1827- 1834	احمد بن محمد الشريف باي منطقة الدير بتبسة وأولاد عبد النور والسقينية والحنانشة وأولاد مسعود

من خلال الجدول يتبين لنا أن الحملات العسكرية في منطقة الشرق الجزائري لم تتوقف رغم تداول الحكام عليها ففي الفترة الممتدة بين 1804 – 1837، تداول عدد كبير من البايات إذ بلغ 19 بايا لم ما نجد سوى احمد باي آخر البايات الذي استقر في الحكم 10 سنوات، أما 18 الآخرين لم يدم حكمهم في المتوسط العام سنة ونصف، من جهة أخرى نرى كثرة الحملات التي مست كل ربوع الشرق، وإن التمرد وهو علامة الرفض بين الحاكم والمحكوم لم تكن في المستوى الذي يتمكن الطرفان على التعايش والانسجام، وتفسيرنا لذلك يرجع إلى عدة فرضيات منها:

(1)-abdeljelil Temimi ;Le Beylik de Constantine et hadj Ahmed Bey (1830-1837) ;
Publication de la Revue d'histoire Maghrébine ; vol1 ; Tunis1978.p 52 .

ضعف شخصية البايات الذين تداولوا على الحكم بسبب عدم وجود بدائل لنظام الحكم القائم إذ أصبح لا يتطلع لنظرة المحكومين من شيوخ قبائل وشيوخ الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية الذين كانت إلى حد كبير يشاطرون نظام البايليك في تسيير شؤون الناس والذين يخضعون لسلطتهم. يقول محمد الصالح العنزي في رسالة وجهها إلى سكان قسنطينة بعد مقتل عصمان باي: "وكان الباشا أرسل إلى عبد الله مدد وعساكر والمال لتكون له قوة، ويستقيم الحال، وباقي في الوطن يدور منذ عشرة من الشهور وعمل بكل الاجتهاد حتى نزلت العافية في الوطن في الوطن والبلاد. لكن بعد ذلك أنزل الله القحط على الخاص والعام حتى صاروا العباد يأكلون لحوم بعضهم من شدة الجوع وانقطاع الطعام واستمر ذلك مدة سنة كاملة".⁽¹⁾

يقول عبد الجليل التميمي: "قاد أحمد باي بنفسه بحملات ضد القبائل التي أعلنت العصيان عن دفع ما عليها من الضرائب. وفي 03 صفر 1827م قام بحملة ضد قبيلة العمامرة حيث قتل 16 فردا وغنم 15600 من الماشية و1660 بقرة و32 حصان و11 جمل وبعد يومين من الاستراحة قام بحملة ضد الحنانشة وكانت على قبيلة اولاد سيدي الشيخ واولاد مسعود وقتل 11 فرد وغنم 1260 بقرة و1310 من الاغنام وعدد من الخيول"⁽²⁾ يبرر أحمد للداي حسين ان هذه الحملات كانت بسبب تمرد هذه القبائل وعدم دفعها للمستحقات البايليك.

إن الأسلوب المتبع عند البايات كان يركز على القوة العسكرية المتمثل في الحملات التأديبية كمفهوم، لكن هذا الأسلوب كثيرا ما كان يصطدم بعدم رضي الرعية أو من ينوب عليهم.

إن الأوضاع التي سادت الشرق الجزائري في مطلع القرن غيرت من مفاهيم الحياة على مستوى الفئات السياسية والاجتماعية، وهذا ما يظهر في الحركات والثورات التي ظهرت في كامل الجزائر ومنها ثورة محمد بن الأحرش، والذي أوشك أن يحقق هدفه المتمثل في إسقاط نظام الحكم في الشرق الجزائري بعدما استقطب العديد من القبائل، ومن جهة أخرى الدعم الذي وصل من السلطة المركزية في دار السلطان، للقضاء على الثورة ومقتل باي قسنطينة،⁽³⁾ إن فكرة الثورة قد انتشرت عند الجزائريين وخاصة منطقة الشرق الجزائري ناهيك

(1) - محمد الصالح بن العنزي، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص 87.

(2) - abdeljelil Temimi ; le Beylek de Comstantine et Hadj AhmedBey (1830-1837). P-53.

(3) - عصمان باي (1803-1803)، هو ابن محمد بن عثمان الكبير باي وهران، خلفه على بايليك وهران خمس سنوات وفي عام 1799 معزل ونفي إلى مدينة البليدة لمدة عامين ثم أعفي عنه وعين على بايليك قسنطينة سنة 1803 وعين الملياني خليفة وبن كوجوك علي باش كاتب والحاج أحمد الأبيض قائد الدار وبن شاندرلي إبراهيم آغا الدائرة وبن زكري باش سيار وباش سايس.

عن القبائل الممتنعة والرافضة من البداية نظام الحكم العثماني في الجزائر، والتي ظلت متشبثة بأفكارها وتدافع عنها رغم خضوع الجزء منها في بعض الفترات الحكم لأنها لم تجد بدا لذلك. يقول ارزقي شويتام: " كانت علاقات الادارة بالاهاالي أكثر تعقيدا، نظرا الى التركيبية البشرية التي كان يتشكل منها البايليك، فالى جانب بعض الاسر القوية، امثال اولاد مقران وبوعكاز وبن عاشور وبن حبيلس وبن جلاب، و هناك قبائل ذات نفوذ واسع أمثال الحراكمة والنمامشة والحنانشة والقبائل الجبلية الاوراسية والبيبان والبابور، و مما زاد تعقيد التضاريسالبايليك الذي يغلب على ه الطابع الجبلي في الشمال، و الصحراوي في الجنوب وكذلك شساعة مساحته"⁽¹⁾. ويمكن ان نستنتج عدة نتائج من هذا الوضع منها:

- إن ظاهرة الحملات العسكرية أوقفت عجلة التنمية والإنتاج وجعلت الريف القسنطيني في موجة من عدم الاستقرار السياسي، ومنه لا يتحقق الإنتاج المتوخى من الأطراف الفاعلة فيه إضافة إلى ذلك تعرض القبائل لعمليات السلب والنهب والقتل من طرف السلطة الحاكمة، وهذا ما أصبحت الفكرة صائبة وصحيحة لعملية الرفض وقناعة راسخة بين الأفراد من السكان؛ وبين الموكلين عليهم من شيوخ الزوايا ورؤساء القبائل التي أصبحت تجد دعما للثورة والعصيان للسكان.
- إن الضرائب المفروضة كانت إلى حد كبير مقبولة بسبب تنوع مصادرها على مستوى البايليك، وساعد ذلك الاستقرار السياسي والنماء الاقتصادي والمعاملات التجارية وصفاء الجو من الاضطرابات المناخية والكوارث الطبيعية، لكن هذه الفترة ازدادت حدة وقسوة مثل نكبات الجفاف وأسراب الجراد والحروب المتتالية قلص من مداخيل البايليك. يقول حمدان خوجة: " و عندما تولى الحكم الحاج على باشا،⁽²⁾ كانت مقاطعة قسنطينة في بؤس شديد، وكانت الزراعة تكاد تكون معدمة،.⁽³⁾
- إن الحملات العسكرية زادت في نمو الأحقاد والرفض بسبب ما تخلفه من مآسي وضحايا في القبائل المستهدفة بسبب أعداد القتلى والتشرد ومصادرة الأراضي وغنم رؤوس الماشية وعمليات التشييت؛ التي تمس أطراف المجتمع الذي اصبحهش في حياته وكسبه.

(1) - ارزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 192.

(2) - اختنق ببخار الماء في الحمام بمؤامرة من وزرائه لانه اهين هؤلاء كما يقول حمدان خوجة في المرأة، ص 152.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، مصدر سابق، ص 171.

- أصبح مجتمع الشرق الجزائري يبحث عن بديل يمكنه من التخلص من فئة الافراد اصحاب الامتيازات في ظل نظام البايليك .
- إن الظروف التي أضرت بالسكان جعلتهم يهجرون أوطانهم نحو المدن لعل ذلك يقيهم شر الحياة في الريف، وهو ما زاد في تأزم المدن من الناحية الاقتصادية في قلة العيش وتقلص نشاطها الاقتصادي الذي كان الريف يمدها به، وبهذا أصبحت المدن تحمل أكثر من قوتها السكانية فساد الفساد وظهرت البطالة وانتشر الفقر، وكسدت السلع المحلية التي غزتها السلع الأوربية كل ذلك زاد في تضمر الأفراد وانتزعت الثقة بين الحاكم والمحكوم، واتسعت الهوة بين الفقراء والطبقة الغنية التي تكسب الامتيازات ولا تدفع مستحقاتها من الضرائب وهذه طبيعة الأنظمة في نهاية أيامها.⁽¹⁾

⁽¹⁾ - محمد العربي الزبيري، مقاومة احمد باي واستمرار الدولة الجزائرية، دار الحكمة، الطبعة الاولى، 2014، ص 96.

الفصل الثاني

الوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري (الفترة العثمانية)

1830-1804 م

المبحث الأول: المقومات الاقتصادية للشرق الجزائري في الفترة العثمانية

المبحث الثاني: الأسواق والمرافق التجارية في مدينة قسنطينة

المبحث الثالث: السياسة الضريبية مظهر للتسلط نهاية الفترة العثمانية في الشرق

الجزائري

المبحث الرابع: التجارة الخارجية في الشرق الجزائري (الصادرات والواردات)

المبحث الأول: المقومات الاقتصادية للشرق الجزائري في الفترة العثمانية

يعتبر الجانب الاقتصادي من أهم المظاهر التي تفسر لنا الأحداث التاريخية والتطورات الناتجة في المجتمع لما لها من ترابط بين الفئات الاجتماعية الفاعلة، ودور الجانب الاقتصادي في تنمية الحياة وازدهار المجتمع وتحسين مستوى المعيشة، بالإضافة الى مداخيل الدولة وبعث عمليات التعمير والتشغيل والتعليم والتجهيزات للحرب، فتكون الغلبة للدولة الأكثر استعدادا وقوة والظفر بالانتصار ويعم الرخاء والاستقرار، فتزيد الدولة أكثر تقدما وانبعث نحو التطور وتراكم الثروة، فالوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري نهاية الفترة العثمانية يحتاج الى إيضاح وتفسير وتحليل، والسؤال الذي يمكن طرحه في هذا المقام هو: ما هي الإمكانيات الاقتصادية التي تحضي بها منطقة الشرق الجزائري؟ هل فعلا ضعف السلطة هو الذي زاد من التطور الاقتصادي السلي في المنطقة؟

نلاحظ تفاقم الوضع بين السلطة والأهالي، وظهور اضطرابات وثورات متتالية في الشرق الجزائري زاد في تفاقم الوضع الاقتصادي وسوء الأحوال الاجتماعية، هل تفاعلت السلطة في الشرق الجزائري وفق تغير الأوضاع الاقتصادية أو هناك آلية الاقتصاد التي أصبحت في يد فئة قليلة زادت في تفاقم الوضع سوءا؟ وهل وافتقدت السلطة الثقة التي كانت بينها وبين الفئات الاجتماعية الأخرى؟ هل رعت السلطة في الشرق الجزائري الأوضاع التي قوضت الثقة بينها وبين الأهالي في الشرق الجزائري؟ هل موضوع الضرائب وسوء تسيير فرضها هو أساس كل ذلك؟

سوف نحاول الإجابة على هذه الإشكاليات من خلال مجموعة من المباحث نراها ضرورية لبحثنا ومن أهم الإشكالات المطروحة، الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة في الشرق الجزائري الذي تبنى عليها الأنشطة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية، بالإضافة الى طبيعة النظام الاقتصادي المهيكل لتلك الأنشطة من تنظيمات إدارية وتنظيمات الأسواق والمحلات والنقابات والأمناء المشرفون على ضبط الحركة الاقتصادية في الشرق الجزائري وأهم المدن التي لها القدرة على تنشيط المعاملات والمبادلات.

ملكية الأراضي الزراعية أواخر الفترة العثمانية في الشرق الجزائري

الأرض مصدر الثروة، والشرق الجزائري فسيح في مجاله الجغرافي متنوع في خصوبة تربته متباين في أقاليمه المناخية والنباتية، وغني بمجاربه المائية وثروته الحيوانية البرية والبحرية، إلا أننا نلاحظ أن توزيع ملكية الأراضي الزراعية لا يخدم مصالح الفئة الاجتماعية الواسعة، وبهذا ارتكزت الثروة في يد فئة قليلة من المجتمع ومن خلال استعراضنا لوضعية توزيع الأراضي الصالحة للزراع يتبين لنا ذلك.

ملكيات البايليك⁽¹⁾: تتكون عادة بالمناطق المحيطة بالمدن، وهي الأراضي الأكثر خصوبة، حيث توجد حاميات الجند، وتخضع ملكية هذه الأراضي مباشرة للباي، ويحق له التصرف فيها بصفته الوصي يفرض عليها النظام بالقوة لتحقيق قوة الإنتاج وكل ما له علاقة بالإنتاج⁽²⁾.

وقد أُلحقت بسجلات البايليك بطرق عدة منها: المصادرة مثلما هو الحال حين صادر الحاج أحمد باي أملاك أولاد عبد النور⁽³⁾، ومن خلال التركات التي تعود لبيت المال بسبب عدم وجود الورثة، وقد انتشرت على مساحة شاسعة حول المدن تقدر في مدينة قسنطينة لوحدها بـ (60) ألف هكتار تستغل منها 48000 من السكان في زراعة الحبوب و12000 لإنتاج الخضر والفواكه، وتعدّ أراضي البايليك أجود الأراضي من حيث الإنتاج، كما كان جزء منها للرعي بخيول الباي التي كانت تحت إشراف قائد الدار⁽⁴⁾، وقد اهتم البايليك بتوزيع هذا النوع على الأراضي كصالح باي وأحمد باي الذين تمكنوا من توسيع أراضي البايليك حول قسنطينة، كما اهتم بعضهم بامتلاك الأراضي له ولأسرته.

فالباي أحمد القلي (1756 – 1771م) الذي استولى على أراضي عائلة ابن باديس ويحدد أحمد الشريف الزّهار أسباب تولية الحاج أحمد باي واصفا حالة الإقليم بقوله: « وكل من تولى بايا يجمع مالا ويخفيه لعواقبه ولذريته، وإذا قرب وقت الدنوش يأخذ أموال الناس ظلما بالمصادرة والنهب والغزو على أموال العرب، وتوالت تسمية البايات وعزلهم والبايليك لا يزداد إلا نقصا وضعفا وهكذا اضطروا الحكام الأتراك اضطارا كبيرا لتولية الكر غلي أحمد بايا على قسنطينة»⁽⁵⁾.

(1) - البايليك: نظام سياسي، إداري، واجتماعي وإيديولوجي انتهجه العثمانيون في الجزائر بطريقة تتماشى مع الذهنية المحلية ومع النظام والعرف القبلي الإسلامي وكان على رأس كل بايليك بايا، ففي منشور الهداية للشيخ عبدالكريم الفقون استعمل كلمات منها: القائد ووالى البلدة، والأمير، دون ان يورد كلمة الباي أو البايليك وهذا يعني ان المصطلح ورد في الفترة الاخيرة من الحكم العثماني وكما استخدمت في الوثائق الرسمية الفرنسية في القرن التاسع عشر، ومنها أخذها الكتاب الجزائريون المعاصرون وانتشرت بين الباحثين المتخصصين في تاريخ الجزائر العثمانية.

(2) - عبد اللطيف بن أشنهو: تكوين التخلف في الجزائر، ترجمة: بإشراف: محمد يحي ربيع، د. ط. ش. و. ن. ت. الجزائر، 1979م، ص 27.

(3) - Vayssettes E : Histoire de Constantine, pp. 155-159.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 52.

(5) - احمد الشريف الزّهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 160.

والباي بوحنك (1792 - 1795 م) الذي استولى على أراضي عائلة بن جلول وإبراهيم الغربي (1819-1820) الذي صادر العديد من أراضي القبائل⁽¹⁾. من خلال هذا يظهر ان بايات قسنطينة كانت لهم السلطة على الإقليم، وانهم تسابقوا على امتلاك الاراضي الزراعية لأنها كانت المصدر الأساسي لتنمية ثروتهم وازدياد أموالهم والمضاعفة في توسيع ممتلكاتهم على حساب الاهالي والقبائل المتواجدة في الفضاء الجغرافي لسلطتهم، فمصادرة الاراضي كانت شائعة في الفترة العثمانية، وبما ان عدم استقرار الحكام في الشرق الجزائري كان لفترة غير طويلة؛ فان مصادرة الاملاك كانت دورية في تنصيب الحكام، ونعتبر ذلك سبب من أسباب عدم استقرار الأوضاع، الشأن الذي جعل الإنتاج غير كافي لتلبية حاجة السكان بما ان الاراضي الصالحة كانت من نصيب الحكام المستبدين على حساب السكان الأصليين، وهذا ما يدفعهم الى ترك أراضيهم مرغمين ومضطرين من الحملات التأديبية لمحلة الباي في فترة جمع الضرائب، أو فترات التمرد.

أراضي العزل⁽²⁾ (النظام الإقطاعي):

تبرز أهمية أراضي العزل في كونها تشتمل على أحسن وأخصب أراضي البايليك وتشمل الملكيات الكبيرة توجد على أراضي سهلية ذات أهمية اقتصادية، أين تتوفر المجاري المائية وسقوط الأمطار الكافية لنمو المحاصيل الزراعية وعلى رأسها الحبوب من القمح والشعير وأشجار الفواكه والخضر.⁽³⁾ أراضي العزل التي كانت هي عصب الاقتصاد في الفترة العثمانية، وإن معظم هذه الأراضي كانت تنتشر في السهول الخصبة، وكان من نصيب الأتراك والعساكر واعيان المخزن الذين ملكوا القطاعات الفردية التي تحصلوا عليها من مجموعات الرعايا،⁽⁴⁾ وكانت تقع على مقربة من المدن الكبرى مثل مدينة قسنطينة وعنابة وبجاية وسكيكدة وسطيف وبلاد الحضنة (المسيلة) ومناطق من بسكرة والاوراس، كما تنتشر في المناطق القريبة من مدن الإقليم.⁽⁵⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 104.

(2) - أراضي العزل مفهومه التنحي والتخلي عن طريق غياب مالكيها او التخلي عليها ومنها ان تركة المالك لم يترك من يرثهن لكن هذا كان في بداية الفترة العثمانية لكن وضعها تغير في نهاية الفترة بل نجد معظمها كان عبارة عن الاراضي التي تم مصادرتها بطريق او باخر مثل عدم دفع مستحقات البايليك .

(3) - قدرها واري في الفترة الفرنسية بمساحة قدرت ب 146693 هكتار بالنسبة لاعزال الايالة اما نصيب البايليك الشرق فقد قدرت ب 112351 هكتار وبهذا نلاحظ ان بايليك الشرق هو ذو طابع اقطاعي بامتياز .

(4) - احمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 189.

(5) - ففي عنابة توجد أراضي العزل ببحيرة فزازة المحيطة بمدينة عنابة تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب للمزيد ارجع الى:

لكن السؤال المطروح كيف أصبحت هذه الأراضي الخصبة والجيدة من حيث الموقع والإنتاج تابعة لسلطة البايليك؟ ولمن أوكلت لتسييرها والإشراف على استغلالها؟ تعود أصل الملكية للقبائل ثم انتقلت إلى البايليك عن طريق المصادرة عن طريق القوة العسكرية التي كانت تقوم بها السلطة العثمانية. أراضي البايليك، وتشمل الملكيات الكبيرة، توجد على أراضي سهلية ذات موقع استراتيجي، تتوفر على مصادر كبيرة من المياه فكانت المصدر الأساسي للحبوب للبايليك والوصاية من ذوي النفوذ في السلطة⁽¹⁾.

كان تعداد الأعزال في الشرق الجزائري تقدر ب 114 عزل، كانت أراضي العزل للشرق تحت إشراف قائد الدار، ومن الأعزال التي كانت تحت تصرف الجابري تقدر ب 104 عزل، هذا في عهد صالح باي الذي أوجد هذه المؤسسة. يقول ناصر الدين سعيدوني: "واسندت الى معاضدة بعض العائلات ذات النفوذ المعنوي والروحي مثل هذه العائلة المعروفة بأولاد سيدي بن بوزيد التي ورد ذكر أفرادها في نص الرسالتين⁽²⁾ فصالح باي الذي اشتهر بهذه السياسة تمكن بكسب وتأييد ومساندة الاسر الكبرى في الشرق الجزائري وكون بها اسر اقطاعية كبرى مثل عائلة بوعكاز وعائلة ال مقران وعائلة بن عاشور واحرار النمامشة واولاد قاسم في شرق البايليك⁽³⁾. صادر صالح باي ثلاثة أرباع من أراضي قبيلة عامر الشرقية وقدرت ب حوالي 600 هكتار ووزعها بين رجال المخزن والأعيان الموالين لسلطته حتى أصبحت تسمى بأراضي صالح باي، وقد وقع الأمر نفسه للعديد من قبائل سكيكدة التي صودرت مساحات من أراضيها ومنحت لقبيلة بني مهنة⁽⁴⁾ التي رفعت بذلك إلى قبيلة مخزنية. دأب البايات على منح أراضي العزل لكبار موظفي البايليك بصفة امتياز لكبار الموظفين، فكل موظف يمنح حق استغلال أقطاعات واسعة تضم عددا من القبائل تتناسب طردا مع رتبته

(1) -Féraud (Ch): Histoire de Philippeville, p. 52.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق ص 135

(3) - المرجع السابق، ص 136.

(4) -Feraud ;Charle; Histoire des villes de la Provence De Constantine; Alger 1876; P 141

- ويعرف شارل فيرو أصول قبيلة بني مهنة كما يلي :

-Beni Mehenna. L'origine de cette tribu est l'objet de traditions diverses. Celle que lui assignent les habitants du pays est la sui vante. Un certain Mehenna, natif des montagnes aux environs de Bougie, vint s'établir dans la région de Collo, qui porte encore le nom de Bled Beni Mehenna. Il eut quatre fils : Bechiri, El Khezeri, Naïmi at Masselaouï. ... elles combattaient avec succès les tribus environnantes ; et après avoir refoulé les Beni Toufout, les Beni Salah, les Beni Isahak et les Beni Oualhan, s'établirent solidement entre Collo, l'Oued Guebli, le djebel Bou Mejout, le Safsaf et la mer).

مقابل ضريبة سنوية. وهي نفس السياسة التي انتهجها الحاج احمد باي في منطقة الجنوب البايليك يقول ناصر الدين سعيدوني : " هذه السياسة التي انتهجها البايليك مع العائلات الاقطاعية، يمكن لنا ان نرجع بنجاح احمد باي في حكم مناطق واسعة من بايليك الشرق في وقت عمت فيه الفوضى واختفت فيه سلطة الحكومة المركزية بسقوط مدينة الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830 كما ان نفس هذه السياسة تلقي اضاءا جديدة على الدوافع التي جعلت احمد باي يفضل الالتجاء لمناطق الاوراس والزيان لمواصلة المقاومة بعد سقوط قسنطينة.⁽¹⁾

فالخليفة يدير تسع قبائل تدفع له حقوق المناسبة السعيدة أثناء تعيينه ويقبض من شيوخ تلك القبائل حقوق تعيين فشيخ بلزمة بالاوراس كان يدفع ثلاثة الاف بوجو (ريال فضة) مقابل تكليفه بجمع الضرائب لفائدة البايليك،⁽²⁾ وأحيانا تمنح للأسر المحلية والمرابطين، فعندما لا يستطيع البايات استغلال بعض المناطق التي تفلت من يد البايليك، وبخاصة المناطق الجبلية فدائما ما يمنحها إلى قسم تابع لتكوين حزام أمني حولت اقطاعات غنية في بايليك قسنطينة إلى نسل الفقون بصفتها حبوسا، سيطرت عائلة الفقون على مساحات واسعة حول المدينة خاصة بين سمنندو (زيغود يوسف حاليا) وقسنطينة، يدخل ضمن هذا الصنف أراضي أولاد جبارة ببني ولبانفي نواحي سكيكدة التي منحت للعائلة فاستولت عليها على سبيل التأييد وهي امتيازات زادت ربط هذه القبائل بالبايليك . ولقد اثرت سياسة البايات على استقرار السكان يقول وليم شالر : " ومتى وجد العرب ان استبداد الباي وطغيانه لا يطاق، يجلون الى منطقة ادارية اخرى او الى الصحراء، حيث لا تصل اليهم يد السلطة، وبهذه الطريقة خلت من سكانها كلية تقريبا، سهول عنابة بولاية قسنطينة⁽³⁾ يقول وليم شالر: " العرب تابعون للحكومة الجزائرية، لكنه فيما عدا دفع الضرائب لهذه الحكومة، وهم في حالة شبه مستقلين ويخضعون لسلطان شيوخهم، و قوانينهم الخاصة⁽⁴⁾

ولقد استغل البايات الشرق الجزائري (قسنطينة) موقع المرابطين من شيوخ الزوايا والطرق الصوفية في منحهم امتيازات تتمثل في منحهم أعزاز لربطهم بسلطة البايليك يقول حمدان بن عثمان خوجة : " انهم نصحوه بان يمنح المرابطين ثقة مطلقة لان ذلك يمنع الجميع من ان يقفوا موقفا معارضا خاصة وان هؤلاء

(1) - ناصرالدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 137.

(2) - مرجع سابق ص 134.

(3) - وليم شالر، مذكرات، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص 109

(4) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 108.

السكان لن يترددوا في قتل اصدقائهم وحتى اقاربهم اذ علموا انهم يحتقرون المرابطين،⁽¹⁾ وهي ترضيات أمام القبائل الممتنعة والمتمردة،⁽²⁾ مثل المرابط سي بلقاسم بو حجر والشيخ الزواوي والمرابط بغريش في القل، كانوا يتمتعون باستغلال أراضي العزل الممنوحة من البايات، هذا ما جعل نمو النشاط الاقتصادي وأصبحت ملكيات العزل تحاصر عاصمة البايليك والمدن الكبرى في الشرق الجزائري، وأصبحت الأعزال مناطق عبور من الريف الى المدينة حسب ما يتبين من قول اندري برنار حيث يقول: "تؤلف مساحة تابعة لقسنطينة تملكها حكومة الباي او الاغنياء من السكان الاتراك او الاندلسيين وبعيدا تقيم جماعات سكنية اخرى نصف حضرية وكان قسم كبير من الاراضي المجاورة لقسنطينة ينتمي الى القطاع العمومي حيث يستفيد منها نخبة من عمال الدولة وكان العرب يتقاضون في خدمتهم الفلاحية الخمس من الانتاج وهو يعتبر اجرا كافيا لهم حسب التربة الخصبة الصالحة للفلاحة " .⁽³⁾

ولقد استغل البايليك كل من أسرة بن قانة التي استفادت من أراضي العزل بالسقينة جنوب قسنطينة، وأسرة محمد العربي بن عيسى أخو علي بن عيسى الباش حمة منححت له أرض عزلية بعامر شرافة كانت هذه الأراضي بيد السلطة المركزية وذلك لتكوين قوة عسكرية نظامية مساعدة للجيش

النظامي وتكون قوة متحالفة مع البايليك وحلفائه مع قبائل الزمول والدواير، مثل شيخ بلزمة⁽⁴⁾ في منطقة الاوراس، الذي التزم مع بايات قسنطينة على جمع حقوق البايليك في المنطقة ويعفى من دفع الضرائب، ويلتزم وتطوع القبيلة بقوة من الفرسان تبلغ مائتي فارس.⁽⁵⁾

كما كانت للأسر الشريفية وأسر المرابطين امتيازات عزلية لتقوية نفوذها الاجتماعي والاقتصادي من جهة؛ وإنشاء قوة اجتماعية مدافعة على تواجد السلطة العثمانية في المنطقة وتكون عائلات قوية متحالفة مع العثمانيين.

(1) - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، مصدر سابق ن ص 110.

(2) - يقول وليم شالر والاتراك في حرب دائمة مع القسم الذي يشرف على الحر من ولاية قسنطينة الذي يقطنه القبائل وانهم سادة المنطقة التي تمتد حول خليج عنابة، ومن شدة عدوانهم للترك يعتبرون كل اجني يقع في ايديهم تركيا، و لا يكتفون بتجريدتهم من ممتلكاته بل يقتلونه .

(3) - اندري برنار، اندري نوشي، ايف لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص 189.

(4) - منطقة بلزمة تشكل الاوراس الغربي وتشمل منطقة باتنة وشرق الحضنة وشمال الزيبانو جنوب الهضاب العليا القسنطينية، وهي منطقة جبلية وعرة.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 135.

حسب احصاء تطبيق قانون "سيناتوس كونسلت" Senatus Consulte سنة 1863 م أكثر من 317000 هكتار تتركز حول قسنطينة وفي وادي السيبوس وحوض قالمة وسطيف ونجد حول قسنطينة وفي وادي زناقي الصالحة للحبوب والتي اشتهرت منذ العهد الروماني⁽¹⁾ تبين أن أراضي العزل تمثل 149993 هكتارا لبابليك قسنطينة⁽²⁾، فأراضي العزل هي الإقطاعيات التي تتواجد حول عاصمة البابليك والمناطق القريبة من المدن الإقليمية، كما تنتشر في المناطق القريبة من مدن الإقليم⁽³⁾.

لقد سخر البابليك أراضي العزل لتقوية وجوده في المناطق المحيطة بمركز السلطة، بحيث اقتطع مساحة تقدر ب 14064 هكتار منحها لقبائل الزمول وضمت أراضي بلزمة التي تقدر ب 12982 هكتار وأراضي عزل الزوايا التي تقدر 1082 هكتار لكي يكون قوة متحالفة ضد القبائل الصحراوية التي كانت تغير على عاصمة البابليك⁽⁴⁾، كما كانت هذه القبائل تقوم بتأمين الطرق المؤدية نحو باتنة وبسكرة وتبقى الطرق مفتوحة إمام الحاميات والمحلات في مواسم استخلاص الضرائب.

أما عائلة بن سديرة فعهدت لها مراقبة السفوح الشمالية لكتلة الأوراس، على أن تتكفل عائلة بن دايجة بمراقبة قبائل أولاد سلطان الجبلية⁽⁵⁾، وبذلك تكون القبائل القائمة على أراضي العزل حزام أمني واقتصادي وأمني من الناحية الجنوبية الشرقية.

ان اولاد مقران وفروعها كانت تملك 22830 هكتار وتكون 569 ضيعة فلاحية للحبوب واشجار الزيتون والتين و 39 بستانا للخضر والفواكه المسقية وثلاث رحي للحبوب وثلاث اسطبلات ومقهى وحمام ومسجدا⁽⁶⁾.

إن الأراضي البابليك كبيرة المساحة، وكانت السلطة المحلية تقوم باقتطاع أراضي لكبار الموظفين العموميين، حيث نجد عشرة أعزال مخصصة لمعاوني الباي الأكثر قربا وتعاوننا كراتب أو مكافأة، وفي هذا الإطار عشرة أعزال مخصصة منها خمسة لخليفة الباي واثنان مخصصة لكاتبه الثاني وأخرى يستفيد منها

(1) - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم الركي، الالمعية للنشر والتوزيع، 2013، ص 604

(2) - ففي غيابه توجد أراضي العزل ببحيرة فزازة المحيطة بمدينة عنابة تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب انظر المصدر:

-Féraud (Ch.): Histoire de Bône, R. A. , 1873, p. 9.

(4) - كانت أراضي العزل الموجودة بهذه المنطقة بيد الأتراك معفية من ضرائب. إن أعضاء حكومة الباي كانوا يسيطرون على معظم الأعزال وأراضي الدولة بساحل سكيكدة.

(5) - Luis Rin: Op. Cit. , RA, 1899, p. 132.

(6) - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي، ص 606.

المرابطون مثل شيخ البلد من عائلة الفقون، هذه الأعزال ليست قابلة للتحويل، غير إن إعفاء آخر البايات (أحمد باي) لبعض المستنفدين من كل ضريبة يوضح وجود تطور نحو الامتلاك الشخصي للأعزال.

إن قبائل الرعية التي كانت مسخرة ومجبرة على تحت سلطة الباي الذي يجعل من حاكم المدينة مسؤول في عملية جني المحصول تحت رقابة الجنود على شكل التوزيع⁽¹⁾

ولقد بلغت مساحة الأعزال في بايليك قسنطينة حسب إحصاء تطبيق قانون سيناتوس كونسلت لسنة 1863 أكثر من 317000 هكتار، تتركز حول قسنطينة وفي وادي السيبوس وحوض قلعة وسهول سطيف وحول وادي الزناتي بالقرب من قسنطينة، والجدول التالي يبين لنا توزيع أعزال قسنطينة حسب عملية إحصاء سيناتوس كونسلت:

جدول لتوزيع أراضي العزل حسب عملية إحصاء لمرسوم سيناتوس كونسلت⁽²⁾

منطقة تواجد العزل	المساحة / هكتار	منطقة تواجد العزل	المساحة / هكتار
عامر الشراقة	21558	السواحلية أولاد عطية	37980
أعزال عنابة	14430	منطقة سغنية	3903
أعزال قسنطينة (60)	55270	أولاد جبارة	11383
أولاد عبدالنور	18626	العلمة مسعدة	4593
الزواغة	9168	منطقة موية	4185
أعزال قسنطينة	29729	عامر الظهرة	8885
أعزال واد الزناتي	43188	البرانية	3340
///////	///////	المجموع	317390

المرجع : صالح عباد الجزائر خلال الحكم التركي

تميز الشرق الجزائري بكثرة الاراضي العزلية عن غيره من بقية الباياليك، إذ لا نجد في دار السلطان سوى عزل بني فاطم في مليانة (1650هـ) وعزل تاورغة في دلس (1125 هـ) وعزل بلاد معمورة في سور الغزلان⁽³⁾.

(1) - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي ، ص 604.

(2) - نفس المرجع، ص 605.

(3) - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي، دار الأملية، 2012، ص 605.

كما كانت تمثل قبيلة قرفة الحدود الفعلية والحزام الجغرافي من الناحية الشرقية، وهي قيادة مخزنية تشكل نهاية النطاق الإداري للبايليك، تدير دائرة مخزنية عدد فرسانها 200 فارس⁽¹⁾، وهي حزام أمني للبايليك من الخارج، كما ثبت البايليك بالناحية الشرقية دوائر الزناتية على أراضي عزلية اقتطعت من أراضي قرفة كانت مكلفة بالأمن ومراقبة المراكز المالية، فهي شريط حماية من الداخل، وعدد فرسان قبيلة هذه الدواير يقارب 1000 فارس⁽²⁾ وخصص أجزاء منها لتكون قبائل العزل وهي القبائل المصطنعة من طرف البايليك مقابل ذلك تقدم قبائل العزل جزء من الإنتاج للباي. وقد بلغت ستين ألف هكتار (60.000) وهي المساحات التي تحيط بمدينة قسنطينة، وكانت تضم 48.000 عنصر في زراعة الحبوب 12.000 عنصر في زراعة الخضر والفواكه والبقول وتربية المواشي، وحسب إحصاء واري(Warner) لسنة 1841م بمساحة قدرت ب 351.112 هكتار في الشرق الجزائري والتي وضعت الإدارة الاستعمارية يدها عليها، أما عند تطبيق قانون سيناتوس كونسلت (sénatus consulte) سنة 1867 م فقدرت ب 693.146 هكتار وأصبحت من ممتلكات الدومين⁽³⁾.

وقد ألحقت بسجلات البايليك بطرق عدة منها: المصادرة مثلما هو الحال حين صادر الحاج أحمد باي أملاك أولاد عبد النور⁽⁴⁾، ومن خلال التركات التي تعود لبيت المال بسبب عدم وجود الورثة، وقد انتشرت على مساحة شاسعة حول المدن تقدر في مدينة قسنطينة لوحدها ب (60) ألف هكتار تستغل منها 48000 من السكان في زراعة الحبوب و12000 لإنتاج الخضر والفواكه⁽⁵⁾، وتعدّ أراضي البايليك أجود الأراضي من حيث الإنتاج، كما كان جزء منها للرعي بخيول الباي التي كانت تحت إشراف قائد الدار⁽⁶⁾. وقد اهتم البايليك بتوزيع هذا النوع على الأراضي كصالح باي وأحمد باي اللذان تمكنا من توسيع أراضي البايليك حول قسنطينة، كما اهتم بعضهم بامتلاك الأراضي له ولأسرته، ومن هذا شراء الباي أحمد القلي(1756-1771م) الذي استولى على أراضي عائلة ابن باديس، ويحدد أحمد الشريف الزّهار أسباب تولية الحاج أحمد باي واصفا حالة الإقليم بقوله:

(1) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 548.

(2) - سعيدوني نصر الدين، المرجع السابق، ص 271.

(3) - نصر الدين سعيدوني والشيخ مهدي بو عبدلي، مرجع سابق ص 52.

(4) - Vayssettes: Histoire de Constantine, pp. 155-169.

(5) - Noushi (A): Enquête les niveaux de la vie , Op. Cit, P80.

(6) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 52.

«إن كل من تولى بايا يجمع مالا ويخفيه لعواقبه ولذريته، وإذا قرب وقت الدنوش يأخذ أموال الناس ظلما بالمصادرة والنهب والغزو على أموال العرب، وتوالت تسمية البايات وعزلهم والبايليك لا يزداد إلا نقصا وضعفا وهكذا اضطروا الحكام الأتراك اضطارا كبيرا لتولية الكرغلي أحمد بايا على قسنطينة»⁽¹⁾، والباي بوحنك (1792 - 1795م) الذي استولى على أراضي عائلة بن جلول وإبراهيم الغربي (1819 - 1820) الذي صادر العديد من أراضي القبائل.

إن هذا التطور التي شهدته مناطق عديدة وبالأخص الشرق الجزائري اوجد نظام إقطاعي بمواصفات مميزة، إن الصفة الإقطاعية التي تميزت بها فرسان المخزن بالجزائر وجماعات الصبايحية في الأقاليم العثمانية بالشرق نتجت عن تحول اقتصادي عميق عرفته كل من المنطقة العربية والأناضول، بفضل انتقال النشاط التجاري العالمي من البحر الأبيض المتوسط إلى موانئ المحيط الأطلسي واضطراب طريق الحرير بين الأناضول وبلاد الشام وبين وسط وشرق آسيا، واضمحلال طريق الذهب عبر الصحراء التي كانت تربط بين بلاد السودان وسواحل البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى تزايد قوة الدول الأوروبية حربيا واقتصاديا⁽²⁾.

لقد كانت مؤسسات المخزن والقيادة والعزل تمثل الأعمدة التي يرتكز عليها النظام العثماني؛ كبعد اقتصادي واجتماعي هام يؤمن للبايليك متطلباته الاقتصادية والمالية عن طريق جباية الضرائب، وفي نفس الوقت تأمين السلطة المركزية من القبائل الممتنعة والمعادية.

-الملكيات الخاصة:

تعد الملكييات الخاصة، وهي الأراضي التي ارتبطت بقدرته أصحابها على ممارسة الزراعة والتعهد لدفع الضرائب المتوجهة عليهم، ويتميز هذا النوع من الملكييات بكونه يخضع لأنشطة اقتصادية واجتماعية هامة كإنتاج المحاصيل الزراعية كالحبوب والخضر والفواكه والبيع والشراء ولأحكام الورثة والشفعة وغيرها، وعوامل تكوينها تاريخيا تعود إلى استصلاح الأراضي وحيازتها عن طريق الشراء. وقد حرص أصحابها على الاحتفاظ بعقود مسجلة تثبت ملكيتها وتعرف كل ملكية خاصة باسم العائلة التي تملكها، وغالبا ما يحصل أصحابها على الملكية من القضاة، بينما العائلات الكبرى منهم كانت تحضي برضا البايات، فتحصل على الفرمانات من البايات تقرّ بحقهم من الأراضي، وتنقسم الملكييات الخاصة إلى قسمين.

⁽¹⁾- Vayssettes. Op. cit; p. 210.

⁽²⁾- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص ص 504 - 505.

أحدهما ينتشر في فحوص المدينة، والجهات القريبة منها، خاصة الواقعة على وادي الرمال ووادي بومرزوق والحامة، حيث تمارس الزراعة المروية وتنتشر بساتين الأشجار المثمرة، أما النوع فيتركز بالمناطق الجبلية كبنى عباس وسهول عنابة وسكيكدة والأحواض السهلية في بجاية، أين تكثر المجاري المائية والينابيع الجبلية.⁽¹⁾ يقوم ملاك الأراضي باستغلالها وعند الحاجة إلى عمال إضافيين في موسمي الحرث أو الحصاد يستأجر صاحب الأراضي الفلاحين (الحماسين) مقابل خمس الإنتاج، أما إذا كانت مساحة الأرض صغيرة، فإن مالك الأرض وأفراد أسرته يقومون مباشرة بخدمة الأرض وبزراعة الخضر والفواكه، وهذا كان شائعا بفحوص المنصورة والحامة ووادي بومرزوق، وكان الكثير من الملاك يقطنون على بأراضيهم، حيث ضمنت المزارع وبساتين الخاصة والقريبة من قسنطينة ما لا يقل عن (2000) نسمة، فكانوا بذلك يغنمون أكبر ربح من إنتاج الأراضي أو مدخراتها الفلاحية بخدمة أحسن الأراضي إنتاجا⁽²⁾. وقد حددها نوشي ب (14810) هكتار، أغلبها حول واد بومرزوق وحول واد الرمال، ويملكها (70) مالك، من بينهم (35) يملكون أقل من (20) هكتار، والعائلات المالكة هي: ابن الفقون ابن جلول، ابن كوجك علي، وبشتارزي.

أراضي الأوقاف (الأحباس):

يعود تاريخ الأوقاف في الجزائر كمؤسسة اجتماعية دينية عريقة إلى الفترة الإسلامية التي سبقت مجيء العثمانيين للجزائر، واستمرت في الانتشار والتوسع طيلة فترة الحكم العثماني في الجزائر، واكتسبت أهمية كبيرة خاصة أواخر الفترة العثمانية وبداية الاستعمار الفرنسي، والذي استحوذت على نسبة كبيرة من الممتلكات داخل المدن وخارجها مشكلة بذلك نظاما مستقلا قائما بذاته ويرجع ذلك إلى طبيعة القوانين التي تتحكم في ضبطه وتسييره. والسؤال المطروح في هذا الصدد هو كالتالي:

ما هي الأسباب التي جعلت الأوقاف تتزايد في أعدادها وأنواعها ومساحة أراضيها في الفترة الأخيرة للحكم العثماني في الجزائر وبشكل خاص بالشرق الجزائري الذي هو فضاء دراستنا؟

(1) - فلة القشاعي: مرجع سابق، ص 109. المرجع نفسه، ص 101.

(2) - أندري برنار، أندري نوشي، الجزائر بين الماضي والحاضر، اسطنبولي رايح ومنصف عاشور، د. ط، ديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 164.

الوقف من أهم الدراسات التي شددت اهتمام المؤرخين والدارسين لما له من أهمية اجتماعية واقتصادية من جهة، ومن جهة أخرى أسباب التطورات الذي شهدته في الفترة العثمانية ومحاولة السلطة العثمانية في تحرير المؤسسة الوقفية، وتكاثرها ودور البنية الروحية التي تربط أفراد المجتمع⁽¹⁾.

إن العثمانيين رأوا في الرابطة الدينية الإسلامية التي كانت تميز سكان الجزائر، وما تعلق بها من أوقاف عاملا قويا لسيط نفوذهم وكسب تأييد السكان، فساهموا في ذلك بأموالهم الوقفية وأظهروا بذلك ورعهم وتقواهم، وتقربهم للمرابطين، وكسبوا تأييد رجال الدين من شيوخ الزوايا ورؤساء القبائل والأسر النافذة في المجتمع الجزائري. يقول عبدالرحمان بن محمد الجيلالي: "و في القرن الثامن عشر والتاسع عشر (م) حصلت نهضة جديدة عند اتباع الطريقتين: القادرية⁽²⁾ والشاذلية⁽³⁾، و احدثت طريقتان هما التيجانية والسوسية وكان القادرية هم احمس المبشرين بالدين الاسلامي من غرب افريقيا⁽⁴⁾. اما صالح عباد فيقول: "ازادت عددا هي الاخرى في العهد التركي فبعد القادرية والشاذلية اللتين راينهما في بداية القرن السادس عشر، ظهرت الشيخية والتيجانية والرحمانية والراشدية وغيرها كثير"⁽⁵⁾.

ولم تعرف أوقاف قسنطينة تنظيما محكما وإشرافا فعالا إلا في فترة متأخرة من التواجد العثماني فيها أي أوائل القرن القرن 18م⁽⁶⁾، وأهم وثيقة تبين لنا ذلك بمدينة قسنطينة والتي تتعرض للأوضاع المتردية لها، والتي جاءت على إثرها مبادرة صالح باي من أجل ضبط وترتيب وتنظيم الأوقاف في بايليك الشرق، وعليه اقر على تشكيل لجنة تتكون من ناظر بيت المال وشيخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي. والغرض من ذلك هو إحصاء دقيق وضبط محكم لأوقاف الشرق الجزائري وأنشأ سجلات أربعة يتعهد كل فرد من أفراد اللجنة على تدوين ما له علاقة بالمساجد النشيطة والأوقاف المساجد التي اندثرت، انظر الملحق النص الكامل لقرار صالح

(1) - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، الامعية، 2013، ص 322.

(2) - الطريقة القادرية اول طريقة صوفية منظمة ظهرت في الاسلام، وهي منسوبة الى الشيخ عبدالقادر الجيلالي بن ابي صالح موسى جنكي المولود بقرية جيلان- وراء طريستان سنة 470هـ الموافق ل 1166م وتوفي سنة 561هـ الموافق ل 1177م.

(3) - الطريقة الشاذلية فهي منسوبة الى الشيخ ابي الحسن علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي نسبة الى الشاذلة قرية قريبة من تونس بقبيلة غمارة قرب تبسة سنة 571هـ-الموافق 1175م وقيل 593هـ الموافق 1197م وتوفي بصحراء عيناب قاصدا للحج سنة 656هـ الموافق 1823م .

(4) - تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص 250.

(5) - صالح عباد، مرجع سابق، ص 556.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص

باي في تنظيم أوقاف مساجد مدينة قسنطينة⁽¹⁾. كذلك تستغل عدة مرافق وقفية مثل العيون الموقوفة او عمليات تزويد المدينة بالمياه لملء الاحواض المائية المتواجدة في مدينة قسنطينة⁽²⁾ و كانت عملية تزويد المدينة بالمياه عن طريق الدواب (الحمار) بشكل يومي ودوري يقول شارل فيرو⁽³⁾.

والأراضي التي حُبست على الأهل والأعمال الخيرية، وأوكل التصرف فيها إلى ناظر الأوقاف ومساعدين من الوكلاء والشواش، وقد تولّت الإشراف على أوقاف قسنطينة عائلات ذات نفوذ مثل عائلة الفقون، وقدرت مساحة هذا النوع من الأراضي بـ (946) هكتار من المزارع والبساتين، أغلبها يشرف على وادي الرمال وروافده⁽⁴⁾، ونظرا لأحكام الشرعية المتعلقة بها والمعاملات القانونية الخاضعة لها، فإنها لم تكن تخضع لأي ضريبة أو رسم⁽⁵⁾، ولم تكن تتعرض لأي مصادرة أو حجز من طرف البايات نظرا لمكانة العائلة والامتيازات التي كانت تحضي بها ومنها وظيفة شيخ الإسلام وأمير ركب الحج.

وليس للسلطة عليهم سوى دفع العشر⁽⁶⁾ والزكاة⁽⁷⁾، وتتصف بعدم الاستقرار لأنها تخضع للتقسيم الإرث إن هلك صاحبها وبصغر مساحتها وتخضع للبيع والشراء، وفي كثيرا من الأحيان تتعرض للمصادرة من طرف الحكام، وتشمل هذه الأراضي المناطق الواقعة قرب المجاري المائية والقريبة للمدن مثل قسنطينة وعنابة وسكيكدة ومنطقة القبائل والاوراس في معظمها تقع في المنطقة التلية ونظرا لضيق مساحتها فإن إنتاجها معاشي ومتنوع وقليل المردود⁽⁸⁾، وفي المناطق الصحراوية أين توجد واحات النخيل، وأصبحت عدة ملكيات

⁽¹⁾-FERAUD. CH L. LES ANCIEN Etablissements Religieuses Musumants de Constantine. in Revue Africaine n° 12 annee 1868. pp 121-133.

⁽²⁾- Feraud Ch Les Etablissement Religieuse a Constantine;R.A.V 12;pp 123-384-385.

⁽³⁾-Feraud ch.L. dit :« À Constantine, le *wakil awaqf el-âïoun* (Chargé des *waqfs* des fontaines) dépensait 500 francs pour le transport de l'eau aux sept bassins situés au centre de la ville, à raison de deux chargements par bassin et par jour, avec un coût de 0.25 Fr. pour un chargement d'âne . A Alger, les revenus du *waqf* ont contribué à la création de nombreuses fontaines dans la ville, environ cent au milieu du XVIII è siècle.

⁽⁴⁾ - فلة القشاعي: مرجع سابق، ص 109.

⁽⁵⁾ - انظر نص الملحق رقم (02).

⁽⁶⁾ - العشر: هي الضريبة الشرعية المباشرة التي تمس أراضي الملكية الخاصة الخاضعة لمراقبة البايليك الفعلية.

⁽⁷⁾ - الزكاة تؤخذ عادة من قطيع الحيوانات من المواشي وهي من الضرائب الشرعية وهي تندرج من بين الضرائب الإضافية مثل المعونات والعوائد المأخوذة من رؤوس الماشية. (للمزيد انظر ناصر الدين سعيدوني، الشيخ مهدي بوعبدلي، الجزائر في تاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 51).

⁽⁸⁾ - حنفي الهلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2008، ص 154.

خاصة تابعة للبايليك، فملكية صالح باي بالقرب من عين سيدي محمد الغراب كانت تابعة للخوادم فصادرها، ولقد استغلها المزارعون في فترة ضعف السلطة العثمانية وكانت لا تدفع الالتزامات الضريبية عليها⁽¹⁾.

ويذكر أن عائلة الفقون التي تملك أوسع الأراضي الفلاحية في الشرق الجزائري؛ قد تحصلت عليها منذ دخول العثمانيين إلى قسنطينة وذلك مكافأة لها على خدماتها للسلطة العثمانية⁽²⁾.

بعد الحديث عن أنواع الأراضي المنتشرة في فحوص المدن، نتطرق إلى التعرف على المنتج الزراعي التي كانت سائدة فيها، بالرغم من أنها تميزت بالتشابه، وذلك راجع إلى عدم حرية الفلاح، ويفسر ذلك بأثر التقليد والعادة وسلطة المالك، بالإضافة إلى حاجة المجتمع، وإن النظام كان يشجع المنتوجات التي كان لها رواج التصدير لأن الباي كان يحتكر التجارة الخارجية يقول محمد العربي البيري: "فإن الحكام على مختلف درجاتهم، يجدون في الهيئات التجارية مصدر للثروة يستعملونها في استتباب الأمن وشراء المناصب"⁽³⁾.

من خلال الجدول الحملات العسكرية⁽⁴⁾ يتبين لنا أن هذه الحملات العسكرية في منطقة الشرق الجزائري الجزائري لم تتوقف رغم تداول الحكام عليها ففي الفترة الممتدة بين 1804 - 1837 تداول عدد كبير من البايات إذ بلغ 16 بايا لم ما نجد سوى أحمد باي آخر البايات الذي استقر في الحكم 10 سنوات أما 15 الآخرين لم يدم حكمهم في المتوسط العام سنة ونصف.

من جهة أخرى نرى كثرة الحملات التي مست كل ربوع الشرق وأن التمرد وهو علامة الرفض بين الحاكم والمحكوم لم تكن في المستوى الذي يتمكن الطرفان على التعايش والانسجام. وتفسيرنا لذلك يرجع إلى عدة فرضيات منها:

1- ضعف شخصية البايات الذين تداولوا على الحكم بسبب عدم وجود بدائل لنظام الحكم القائم إذ أصبح لا يتطلع لنظرة المحكومين من شيوخ قبائل وشيوخ الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية الذين كانت إلى حد كبير يشاطرون نظام البايليك في تسيير شؤون الناس والذين يخضعون لسلطتهم.

(1) - سلطاني الشريف، أوضاع ملكية الأراضي بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، بحث تمهيدي، دائرة التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1977-1978، ص 22.

(2) - أحمد حسن سليمان، "نزع الملكية العقارية في الجزائر 1830-1871"، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، العدد 6، مارس 2002، ص 22.

(3) - محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 114.

(4) - انظر جدول الحملات العسكرية التي قام بها اواخر بايات قسنطينة الفصل الاول من هذا البحث.

2- إن الأسلوب المتبع عند البايات كان يركز على القوة العسكرية المتمثل في الحملات التأديبية كمفهوم، لكن هذا الأسلوب كثيرا ما كان يصطدم بعدم رضي الرعية أو من ينوب عليهم.

3- إن الأوضاع التي سادت الشرق الجزائري في مطلع القرن غير من مفاهيم الحياة على مستوى الفئات السياسية والاجتماعية وهذا ما يظهر في الحركات والثورات التي ظهرت في كامل الجزائر ومنها ثورة محمد بن الأحرش والذي أوشك إن يحقق هدفه المتمثل في إسقاط نظام الحكم في الشرق الجزائري بعدما تبنت أفكاره أعداد هامة من الجزائريين من جهة ومن جهة أخرى الدعم الذي وصل من السلطة المركزية في دار السلطان، لان باي قسنطينة كان ملزما بدفع لداي الجزائر ماقيمته 150.000 بياستر في كل سنة وهي قيمة كبيرة يعمل الباي كل ما بوسعه ان يوفرها لانه يعتبر التزام بينهما وهذا ما يبين ان المناصب كانت تقابلها قيم مالية على البايات.⁽¹⁾

إن فكرة الثورة قد انتشرت عند الجزائريين وخاصة منطقة الشرق الجزائري ناهيك عن القبائل الممتنعة والرافضة من البداية نظام الحكم العثماني في الجزائر والتي ظلت متشبثة بأفكارها وتدافع عنها رغم خضوع الجزء منها في بعض الفترات الحكم لأنها لم تجد بدا لذلك.

4- إن ظاهرة الحملات العسكرية أوقفت عجلة التنمية والإنتاج وجعلت الريف القسنطيني موجة من الاستقرار السياسي الداخلية من طرف القبائل ومن طرف أيااله تونس،⁽²⁾ التنافس بين إنجلترا وفرنسا على المرافئ الشرقي لايالة الجزائر⁽³⁾ كما حدث في عهد ومنه لا يظهر المنتج المتوخى من الأطراف الفاعلة فيه إضافة إلى ذلك تعرض القبائل لعمليات السلب والنهب والقتل من طرف السلطة الحاكمة وهذا ما أصبحت الفكرة صائبة وصحيحة لعملية الرفض وقناعة راسخة بين الأفراد من السكان ومن بين المؤكلين عليهم من شيوخ الزوايا ورؤساء القبائل التي أصبحت تجد دعما للثورة والعصيان في هؤلاء من السكان مثل ذلك آل مقران سنة 1814 ضد محمد شاكر الباي.⁽⁴⁾

(1) - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 114.

(2) - محمد الصالح العنزي، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص 103.

(3) - Feraud(ch) L ; Histoire des ville de la Provinces de constantine ; La Calle ;Alger 1877 ; p 595

(4) - DEGramont Henri- Delmas ; Histoire d'Alger Sous la domination Turque (1515-1830) ; Paris 1887 ; p 337.

5- إن الضرائب المفروضة كانت إلى حد كبير مقبولة بسبب تنوع مصادرها على مستوى البايليك ودار السلطان وساعد ذلك الاستقرار السياسي والنماء الاقتصادي والمعاملات التجارية وصفاء الجو من الاضطرابات المناخية والكوارث الطبيعية. هذه الفترة ازدادت حدة وقسوة مثل نكبات الجفاف وأسراب الجراد والحروب المتتالية التي لم تصبح موردا للغنائم بل أصبحت مغدقة لها. كذلك نرى ان الميزان التجاري الجزائري يشكو كل سنة من عجز مقداره 937000 دولار، وهو مبلغ ضخيم تدفعه للخارج، دولة ليس لها موارد نشيطة تذكر. (1)

6- إن الحملات العسكرية زادت في نمو الأحقاد والرفض فيما تخلفه من مآسي وضحايا في القبائل المستهدفة بسبب أعداد القتلى والتشرد ومصادرة الأراضي وغنم رؤوس الماشية وعمليات التشييت التي تمس أطراف المجتمع الهش في حياته وكسبه. (2)

7- أصبح مجتمع الشرق الجزائري يبحث عن بديل يمكنه من التخلص من عنفوان السلطة رغم الامتيازات التي كانت تحضي بها أعداد ليست كبيرة من الأفراد المتمثلة في الطبقة الإقطاعية التي نمت في ظل النظام العثماني في المجتمع الشرق الجزائري. (3)

إن الظروف التي أضرت بالسكان جعلتهم يهجرون أوطانهم نحو المدن لعل ذلك يقيهم شر الحياة في الريف، وهو ما زاد في تأزم المدن من الناحية الاقتصادية في قلة العيش وتقلص نشاطها الاقتصادي الذي كان الريف يمدّها من مواد أولية للنشاط التجاري والمواد الأولية للحرف والمواد الغذائية، وبهذا أصبحت المدن تحمل أكثر من قوتها السكانية.

وقد ارتأينا أن نتوقف عند أهم النشاطات الاقتصادية المشجعة على التبادل والتعامل اليومي للسكان، وذلك للكشف عن أهم موارد السلع والنقود المتبادلة في الأسواق، وللقوف على الواقع الاقتصادي لمنطقة الشرق الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي، من منطلق المعطيات التي توفرها لمصادر في مجالات شتى منها الصناعات والحرف، كذلك الزراعة والتجارة، فهذه الأنشطة هي التي تعطي للمنطقة القوة الاقتصادية المحركة للتبادل والتبادل، ومن هنا نجد أنفسنا أما السؤال التالي: هل ساهمت الأنشطة الاقتصادية في إعطاء القوة؟

(1) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 103.

(2) - انظر جدول الحملات العسكرية لاواخر بايات قسنطينة في الفصل الاول .

(3) - اندري برنار واندري نوشي وايف لاکوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 295..

وإن كان كذلك فلمن كانت هذه القوة ؟ ولا تكون الإجابة على هذا السؤال إلا بالتطرق إلى دراسة كل نشاط اقتصادي على حدة.

1- الثروة الزراعية:

اكتسبت الزراعة في أواخر الفترة العثمانية أهمية كبرى لما لها من تأثير على الأنشطة الاقتصادية لمنطقة الشرق الجزائري لارتباطها المباشر بالحياة اليومية وبقية الأنشطة الحيوية وبالمبادلات التجارية، فهي توفر أغلب المواد ذات الاستهلاك اليومي والتبادل من مواد غذائية ومواد أولية لتمويل الأسواق والصناعات، كما أنها تشكل أهم المواد المعدة للتصدير، وهذا ما جعلها تشكل أساس الحياة الاقتصادية، ولم تكن المنتجات الفلاحية موضوع الاهتمام، بل كانت الأرض كذلك محط أنظار السلطة والسكان، فالكمل يسعى لامتلاكها، ولهذا كان لزاما علينا أن نتطرق إلى الحديث أولا عن الملكيات السائدة في المنطقة.⁽¹⁾

2- المنتجات الزراعية:

إن الحاجة الاقتصادية التي ظهرت أواخر العهد العثماني بسبب تراجع القرصنة البحرية والاضطرابات الداخلية وضعف شخصية الحكام وعدم استقرارهم في مناصبهم، والاضطرابات التي كانت تلحق بهم وتسلب جباة الضرائب على المجالات الاقتصادية،⁽²⁾ والتنافس الاستعماري الغربي أضعف الإنتاج الزراعي بالإضافة إلى سياسة الباي الذي أوجد زراعة موجهة من أجل الحصول على منتج يمكن الباي وموظفيه من توفير الحد الأدنى للتبادل التجاري،⁽³⁾ خاصة بعد أن تدفقت السلع الأوروبية على أقاليم الجزائر وأقبل المجتمع على استهلاكها⁽⁴⁾، وأول منتج لقي الاهتمام هو الحبوب، فبعد أن استولى البايات على الأراضي الخصبة التي تنتشر حول المدن، حاولوا أن ينتجوا منها أكبر الكميات من الحبوب (القمح- الشعير- الشوفان)، والقمح الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان وأحد المواد المهمة للتصدير لما تدره من أموال وللطلبات المتزايدة عليه من طرف الدول الأوروبية.

فكانت لتجارة القمح مكانة مرموقة عند التجار اليهود بدعم من باي قسنطينة لما لهم من امتيازات التي تحصلوا عليها في منطقة الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية، فكلاهما يبحث عن الصفقات المهمة

(1) - صالح عباد، مرجع سابق ص 586.

(2) - DeGramont Henri- Delmas ; Histoire d'Alger Sous la domination Turque (1515-1830) ; P 364.

(3) - اندري برنار واخرون، مرجع سابق، ص 188

(4) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص 56.

الخاصة بالقمح، إلا أنّ مردود الهكتار يختلف من منطقة لأخرى، فالإنتاج يتأرجح بين قنطار واحد وعشرة قناطير في الهكتار، وذلك حسب خصوبة التربة وكمية الأمطار النازلة، وهذا يدل على أنّ كبار الفلاحين في البايليك لم يبذلوا جهداً لتحسين وسائل الزراعة وتطويرها، فالمهم بالنسبة إليهم توفير الإنتاج بأقل التكاليف وأقل الخسائر الممكنة، ومن الصعب تقدير إحصائيات مضبوطة لكمية الإنتاج المتحصل عليه، إلا بالنظر إلى ضريبة العشور في قسنطينة التي تصور حجم الإنتاج⁽¹⁾.

وإلى جانب ذلك، شكل القمح أحد الركيزة الأساسية في المعاملات والمبادلات، فكان يشكل أحد العناصر الأساسية في الإنتاج والتركة، وأحد أهم عناصر التبادل في الأسواق، وهذا ما نلاحظه في تركة الطاهر بن حمود بن عباد الذي خلف ثروة لا بأس بها قدرت بـ (900) ريال، وكان من ضمنها (23) صاع من القمح ركز كاتب العدل على ذكرها⁽²⁾. وقدرت المساحات المزروعة بـ 200000 إلى 250000 هكتار وعدد الزويجات المستغلة في عملية الإنتاج بحوالي 33000 زويجة منها 13000 زويجة لمناطق العزل، وبلغ مقدار العشور بـ 400000 فرنك ذهبي⁽³⁾.

ونظراً للأهمية التي تمتعت بها الحبوب في الأسواق، اتبع الباي سياسة احتكارية ليسيّط على هذا المنتج وتجارته، حيث كان يشتري الحبوب بأقل الأثمان من الفلاحين، ويعيد بيعها للتجار الأجانب بثمن أعلى، وكمثال على ذلك ما حدث في (1808م)⁽⁴⁾، حيث اشترى الباي القمح بسعر 8,80 قرش للصاع، وباعها للمحتكرين الأجانب بـ 26,30 قرشا⁽⁵⁾، وفي بعض الأحيان يلجأ البايات بعد هذه العملية للاستيراد من أجل تغطية العجز بأسعار مرتفعة من الخارج⁽⁶⁾.

(1) - نوشي وآخرون: مرجع سابق، ص 193.

(2) - السجل الرابعة، العقد المؤرخ في شعبان 1226 هـ، ص 603-604.

(3) - نوشي وأخرن، مرجع سابق، ص 195.

(4) - نهاية حكم الباي علي بن يوسف الذي قتل مباشرة بعد وصوله وو الذي كان ملتزماً بغزو تونس بأمر من داي الجزائر، نصبو مكانه احمد شاوش القبائلي سنة 1808 وحدثت في عهده فوضى في المدينة وتعرض الاهالي للمصادرات والنهب والسرقة وفر المساجين من سجن القصة وبعض المخازنة مثل مصطفى بن عاشور قائد فرجيوة ومحمد بن قرية قائد عزب البقر لكنه لم يكمل عامه حتى عين مكانه احمد بن طوبال الذي حكم حتى سنة 1811م. حسب ما جاء في تاريخ قسنطينة.

(5) - القرش هو: La piaster ويساوي ما يقارب 5 فرنك أو أربعين سنتيم. انظر: فلة قشاعي: مرجع سابق، ص 72.

(6) - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 56.

والحبوب من المواد الهامة والرئيسية للتبادل الداخلي والخارجي، فهي من المواد الهامة التي يتحكم البايليك فيها، ويسيطر على أراضيها، ويمكن أن نشير هنا إلى أنّ الشركة الإفريقية كانت تصدر سنويا من ميناء عنابة كميات ضخمة قدرت عام 1787م بحوالي (25000) قنطار من الحبوب⁽¹⁾، إلا أنّ إنتاج الحبوب في الجزائر تميّز في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وحتى 1815م، بإنتاج وفير مع تسجيل بعض التذبذب خلال سنوات الجفاف مثل (1803م) في قسنطينة، وهذا ما شجع التصدير في ذلك الوقت، بينما عرفت السنوات الأخيرة للتواجد العثماني من 1816 إلى 1837م بقلّة الإنتاج ورداءة المحصول الذي لم يتعدّ عشية الاحتلال سوى (7. 500. 000) قنطار⁽²⁾، وهذا راجع للتحوّلات الاقتصادية والسياسية التي تعيشها منطقة الشرق الجزائري في تلك الفترة.

أما الأشجار المثمرة، فقط ظهرت في عقود المعاملات بالأراضي القريبة من قسنطينة، حيث انتشرت زراعة أشجار التين والزيتون والرمان، وقد عرفت الأراضي باسم الجنة أو الجنان، وفي بعض الحالات يطلق عليها اسم الأشجار المزروعة، ومن ذلك وطن التفاح⁽³⁾.

وإذا أتينا إلى الحديث عن زراعة الخضر، فإنّها موجودة على ضفاف الأودية، وتحديدًا في فحوص الحامة، التي تنتج أجود أنواع الخضر التي كانت تسدّ حاجات المدينة وتوفر المعاش لما لا يقلّ عن (10.000) نسمة يشغلون في هذه الزراعة⁽⁴⁾، وتمثل هذه الخضر المزروعة في البصل والثوم واللفت والبطاطا إلى جانب الخضر البعلية⁽⁵⁾ الجافة التي تعتمد فقط على مياه الأمطار وتفلح في المنحدرات ومنها اللوبيا والعدس والحمص والحمص وتضاف إلى هذه المزروعات زراعة الكتان والخشخاش والنيلة التي تميزت بضآلة مردودها، وقد عرفت

(1) - Venturè de paradis: Alger au 17^{ème} siècle, P278.

(2) - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 58.

(3) - نفس المرجع، ص 62.

(4) - فلة القشاعي، مرجع سابق، ص 11.

(5) - الزراعة البعلية : هي الزراعات التي تعتمد على مياه الأمطار، ففي المواسم المطرية يكون إنتاجها وفير ويتأخر إلى الأيام الأولى لفصل الصيف وأما السنوات التي يكون فيها فينعدم بعض الأحيان الإنتاج. وخاصة العشرية الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي. وتشمل المناطق الهضاب العليا والمناطق الداخلية ومنطقة سفوح الجبال .

زراعتها بالساحل والمنطقة الجنوبية لقسنطينة⁽¹⁾. يقول اندري برنار وآخرون : "و الى جانب ذلك نذكر السهول العليا بقسنطينة مثل متيجة الذي تنتج القمح بغزارة."⁽²⁾

وكثيرا ما يجمع الفلاحون بين فلاحه الحبوب والخضر، كذلك الفواكه، خاصة في المناطق التي تتوفر فيها المياه مثل ضفاف الأودية المحيطة بالمدينة، إلا أنّ المردود يختلف حسب خصوبة التربة ووفرة المياه، ويشغل في هذه الزراعة عدد لا بأس به من سكان المدينة، وتقدم لهم دخلا معتبرا إلى جانب دخل الحبوب الذي يكون في الغالب مرتفعا نظرا لأهميته بالنسبة للإنسان والحيوان، وقد وجدنا في مجموعة الوثائق التي بين أيدينا محاصيل مختلفة نوضحها في الجدول التالي:

جدل يبين أهم المزروعات السائدة في المعاملات والمبادلات⁽³⁾

الترتيب	نوع المنتج	العقد المذكور فيه
1	القمح	عقود التركات والهبات كذلك الوصايا
2	الزيتون	عقود الهبات والاعترافات كذلك التركات
3	الشعير	عقود التركات
4	التين	عقود البيع الخاصة بالأراضي
5	الكروم	عقود البيع الخاصة بالأراضي

أنّ النشاط الزراعي للشرق الجزائري لم يعرف تطورا في مروده نظرا لعدة عوامل منها: استعمال الآلات البسيطة التي أصبحت منذ أواخر القرن (18م) لا تتعدى المحراث الخشبي الذي لم يتطور، والمكون من قطعتين قصيرتين ومجتمعتين والمزود بسكة حديدية في طرفه الأسفل، وقد حالت دون تعمقه في التربة، واقتصر أثره على ملامسة الأرض، بالإضافة إلى استعمال المنجل البسيط الذي يتلف السنابل أكثر مما يحسبها والاتجاه إلى رماد

(1) - فنديلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ت: أبو العيد دودو، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 182.

(2) - اندري برنار، اندري نوشي، ايف لاكوست، مرجع سابق، ص 145.

(3) - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLIS - SEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 247.

الأعشاب المحروقة، وفضلات الحيوانات لإخصاب التربة، وأحيانا يلجأ الفلاح إلى ترك الأرض بورا لمدة سنة أو أكثر لتستعيد خصوبتها⁽¹⁾.

إلى جانب الآفات الطبيعية المتمثلة في الجفاف، فترات الفيضانات، اجتياح الجراد وتراكم الثلوج، مما تسبب في بعض الأحيان في حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة وهلاك المزارعين، وهذا ما جعل الإنتاج يتذبذب من سنة لأخرى،⁽²⁾ بالإضافة إلى ذلك الظروف الصعبة التي يعيشها الفلاح في المنطقة والمتمثلة خاصة في تعرضه للحملات الجائرة من موظفي البايليك، مما دفع الكثير من الفلاحين إلى إهمال الزراعة والتحول إلى تربية الماشية، وبذلك تقلصت الملكيات الخاصة وزادت ملكيات البايليك، كما تحولت بعض الأراضي الصالحة للزراعة إلى مراعى موسمية جنوب قسنطينة، أمام الظروف الاجتماعية الصعبة التي يعيشها الفلاح في الشرق الجزائري من أمراض وجهله الوسائل الوقائية وسوء التغذية من تأثير سلبي على قدرته الإنتاجية⁽³⁾.

كما حالت الثورات الشعبية المتكررة ضد الحكم التركي دون زراعة الأرض ويذكر محمد امين ان تجارة الجزائر بين المدن الكبرى في الجزائر كانت شبه منعدمة مقارنة بين المدن الساحلية والمدن الاوربية الكبرى⁽⁴⁾، وهذه الظروف أدت إلى عدم استقرار الفلاح في أرضه وإهماله لها لسنوات، ونزوحه إلى المدينة، مما أثر سلبا على الإنتاج الزراعي في الشرق الجزائري⁽⁵⁾.

كان للتنظيمات الاقتصادية التي أدخلها صالح باي والتي جعلت الشرق الجزائري بصفة عامة، المنطقة الأولى في الإنتاج الزراعي، حيث استحدثت مزروعات جديدة كالأرز الذي زرع بسهول الحامة، والتي استخدم فيها الري كذلك، كما أنه أعطى أهمية لاستصلاح السهول التي تغلب عليها المستنقعات في الأحواض الشمالية لعاصمة البايليك نواحي سكيكدة وعنابة، بالإضافة إلى إنشاء شبكات من القنوات لصرف المياه الراكدة.⁽⁶⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 57.

(2) - احمد الشريف الزهار، مرجع سابق، ص 117.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص 258.

(4) - محمد امين، مرجع سابق، ص 47.

(5) - Berbrgger (A): Epoque de l'établissement des Turcs à Constantine, in R. A, N°12, 1856-1868, P232.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 67-68.

جدول يبين أهم القبائل المنتجة للحبوب في الشرق الجزائري⁽¹⁾

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد القيسات العشور من القمح والشعير	قيمة الحكور بالريال أو بوجو
قبيلة غمريان	800	1600	1067
قبيلة السقنية	800	1600	10700
قبيلة عامر القايبية	600	1200	8000
قبيلة أولاد عبد النور	600	1200	8000
قبيلة عامر الشراقة	500	1000	6700
قبيلة التلاغمة	400	800	5333
قبيلة صدراتة	300	600	4000
قبيلة المعاملة	300	600	4000
قبيلة جميلة	300	600	4000
قبيلة أولاد دهان	200	400	2667
قبيلة سلاوة	200	400	2667
قبائل العوالم	200	400	2667
العلمة زاوية القايبية	150	300	2000
قبيلة أولاد سي يحيى	150	300	2000
قبيلة أولاد كباب	120	240	1600

المراجع : نصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر . بتصرف

من خلال الجدول يتبين لنا المناطق الرئيسية لإنتاج أهم المنتجات الزراعية المنتجة في الشرق الجزائري، وبالرجوع الى ملكية الاراضي نلاحظ ان معظمها كان تحت تصرف البايليك قسنطينة او لاتباع الباي من المساعدين والموالين للباي منحت لهم كامتيازات وترضيات مقابل للخدمة التي يقدمونها لسلطة الباي، وسوف

(1) - نصر الدين سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص ص 337-342.

تكون من المناطق التي يتم مصادرتها من طرف السلطة الفرنسية، وتصبح من املاك الكولون في المستقبل، لأنها من أحصص الأراضي في الشرق الجزائري.

3- تربية المواشي:

كان السكان يقومون بتربية المواشي لسد حاجياتهم اليومية من الألبسة الصوفية والجلدية والزراعي والأغذية واللحوم، بالإضافة إلى ممارساتهم للزراعة.⁽¹⁾

وللتعرف على أهمية الثروة الحيوانية في قسنطينة نلاحظ من خلال ما سرده ناصر الدين سعيدوني فيقول: " ويزداد في مقدارها بالنسبة للعشائر المعادية للبايليك، مثل اولاد نايل الشراقة الذين كانوا يدفعون في شكل ضريبة العسة رسماً يقدر ب 3150 خروفا و 270 جرة زبدة غنم و 90 جملاً بالإضافة الى مبلغ من المال حدد ب 2700 ريال بسيطة"⁽²⁾. يمكن أن نثبت كثرة الثروة الحيوانية من مقارنة سعر الأبقار بسعر القمح، حيث كانت بقرة الواحدة تباع بـ 8 ريال، وصاع القمح بريال ونصف،⁽³⁾ وضالة الفارق بين السعيرين دليل قاطع على أنّ عدد الأبقار كان كبيراً، خاصة أننا نشهد اليوم أنّ سعر البقرة يساوي أكثر من عشرين مرة ثمن القنطار من القمح.⁽⁴⁾

إلا أن هذه الثروة عرفت تقلصاً خلال الفترة الأخيرة من التواجد العثماني بقسنطينة بفعل الجفاف وانتشار الأمراض التي قضت على المواشي، بالإضافة إلى النزاعات القائمة بين الأتراك وحركات التمرد، والمصادرات التي حدثت في الأراضي والمواشي، كل هذه الظروف حدثت من نمو الثروة الحيوانية، وجعلت الأرقام التي أوردتها مصادر الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي، وليست دقيقة.⁽⁵⁾

ومن هذه المشاكل التي تعرض لها مربو المواشي، يمكن أن نلخص وضعه في كونه يعيش حالة فرار هو وقطيعه نتيجة للاضطرابات والخوف الذي يعيشه الفلاح بعد صالح باي كثورة ابن الأحرش، وكذلك خوف الفلاح من الضرائب المرتفعة التي تفرض عليهم، بالإضافة إلى أنّ تنامي الثروة الحيوانية يتحكم فيه الاستقرار الأمني السياسي وقوة المعاملات والمبادلات والظاهرة الطبيعية كالأمطار الغزيرة، حيث توفر المراعي ووكلاء لقطعان الماشية، لذلك فالسنوات الممطرة كانت بالنسبة للفلاحين فترة رخاء، ولعل أبرز السنوات التي عرفت

(1) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 60.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 530.

(3) - الريال الاسباني يساوي 15 اسبر .

(4) - محمد العربي الزبيري، المرجع نفسه، ص 62.

(5) - فلة القشاعي، مرجع سابق، ص 16.

تأزما في المحاصيل الزراعية وكذلك قلة في الثروة الحيوانية هي السنوات الممتدة ما بين (1794م-1798م)، وهي الفترة التي وقعت فيها فرنسا في ضائقة مالية واقتصادية أثناء وقوع الثورة الفرنسية وبعدها واثناء معاداة الدول الأوروبية لفرنسا⁽¹⁾. حيث قلت الأوقات في كامل البايليك، وارتفعت الأسعار من جراء شدة الأوبئة والجاعات والكوارث الطبيعية التي عانى منها السكان، والتي أهلكت قطعان المواشي، وأدت بأصحابها إلى التخلص منها.⁽²⁾

أنّ الحيوانات كانت معدّة خصيصا للبيع، خاصة ما لا يستعمل للحليب، وغالبا ما تتم عملية بيعها في أسواق المدن بالمزيدة، وهذا ما يفسر قلة العقود الخاصة بالحيوانات، وذلك لأنها لا تسجل غالبا لوقوع العملية في الأسواق وعلى الملاء، وإلى جانب هذا، كانت الخيول تربي من أجل أن تكون هدايا للبايليك والأعيان، وللدلالة على الفروسية والثروة. واهم مناطق تربيتها هي الهضاب العليا القسنطينية وكانت تدخل من ضمن اهتمامات البايليك تفرض عليهم كغرائب وضرائب عند الحاجة .

النشاط الرعوي في الشرق الجزائري في أواخر الفترة العثمانية:

يشكل الرعي تربية المواشي من أهم المصادر الأساسية الاقتصادية لمناطق السهول العليا والمناطق المتاخمة للصحراء والمناطق غير قابلة للفلاحة مثل المناطق السهبية من السبخ والجهاز الجنوبية التي تشكل نشاطا اقتصاديا مستقلا بذاته وتمارس عشائر الهضاب العليا وقبائل المناطق المتاخمة للصحراء، بينما ظلت هذه المناطق تؤلف نشاطا مكتملا للزراعة في المناطق الشمالية وبطون الأودية الخصبة، حيث كان السكان يقومون بتربية المواشي ليس لسد حاجياتهم من الألبسة والأغطية مثل الزراي والأغطية والخيام واللحوم بالإضافة إلى قيامهم بمزاولة الزراعة مثل قبائل أولاد عبد النور وبني إبراهيم وعامر وأولاد جلاب وال مقران والنمامشة والذواودة والحراكنة واهم الضرائب⁽³⁾ التي تاخذ من المناطق الجبلية والشبه صحراوية الغرامة⁽⁴⁾ واللزمة والمعونة

(1) - محمد أمين، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث مطبعة انفو- برانت 12 فاس، المغرب 2011، ص 119

(2) - يؤكد فلبير بيشو - (PHILIBERT BUCHOT) مفوض الجمهورية للعلاقات الخارجية الفرنسي الى الداى

حسين في رسالة جاء فيها الصديق القدم وحليف الامة الفرنسية بتاريخ 28 اوت 1794.

(3) - تسمى هذه الضرائب في الغرب الجزائري بغرامة العسة .

(4) - الغرامة : تفرض على المناطق الخارجة عن السلطة الفعلية للباييك مثل المناطق الصحراوية والمناطق الجبلية مثل بلاد القبائل

والشمال القسنطيني وهي تسدد نقدا او عينا من المواشي والمواد الغذائية وتكون من صلاحية القائد بمعونة شيوخ الدواير

وتفرض حسب عدد الخيام لتقدم الى خليفة الباى على شكل خيول واغنام وجمال ومواد غذائية اوائل كل ربيع من كل سنة .

والخطية، وغيرها وإنما نشاط أساسي واسع النطاق الأهمية خاصة في الفترة العثمانية الاخيرة عندما أصبح السكان يهجرون زراعتهم حرفهم بعد اشتداد تسلط العثمانيين عليهم.

و للتعرف على أهمية الثروة الحيوانية، نلاحظ انه في أوائل الفترة للاحتلال الفرنسي، كان الشرق الجزائري يتوفر على إعداد هائلة من الحيوانات والجدول الآتي يبين لنا ذلك.

جدول يبين الثروة الحيوانية في الشرق الجزائر أواخر الفترة العثمانية⁽¹⁾

نوع	العدد
الأغنام	2310000 رأس
الماعز	311767 رأس
الأبقار	346000 رأس
الخيول	90636 رأس
البغال	76723 رأس
الإبل	269086 رأس
المجموع	3404212 رأس

وقد اشتهرت بعض القبائل بثروتها الحيوانية مثل قبائل النمامشة والحراكتة وهذه القبائل تزاول بجانب الزراعة تربية المواشي وهذا ما يظطرهم الى التنقل بحثا عن المناطق التي يتوفر فيها الكلاء،⁽²⁾ وزردازة وأولاد عطية وأولاد يحيى بن طالب وبني عمار وأولاد عبد النور والتلاغمة وعامر وكانت قيادة النمامشة تشتهر بكثرة خيامها وشجاعة فرسانها ووفرة قطعان مواشيتها والذي بلغ نهاية الفترة العثمانية ب 116000 راس غنم وكانت تضم 4500 خيمة وعدد حراسها يصل الى 3600 فارس هذه النمامشة الشرقية اما الجهة الغربية والتي تنتمي لنفس القيادة فتقدر ب 22500 خيمة وتتوفر على 1500 فارس و 2000 رجل قادر على

⁽¹⁾ - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 288.

⁽²⁾ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 487.

حمل السلاح. ⁽¹⁾ والجدول الآتي يبين لنا ذلك وبثبت ما كانت تمتلكه هذه القبائل من ثروة حيوانية حسب التقديرات نهاية الفترة العثمانية في الشرق الجزائري:

جدول يبين لنا اهم القبائل المهتمة بنشاط تربية الماشي ⁽²⁾

العدد / رأس	القبيلة
1160.00	النمامشة
930.00	الحراكتة
128.00	زردازة
900 .16	أولاد عطية
000 .20	أولاد يحيى بن طالب
580 .66	أولاد عبد النور والتلاغمة وعامر
320 .16	بني عمار

المرجع : نصرالدين سعيدوني، ورقات جزائرية بتصرف .

الجدول التالي لا يعبر في الحقيقة إلا نتيجة ما تبقى من الثروة الحيوانية في الشرق الجزائري، لأن هذه الثروة أصيبت بعدة مشاكل طبيعية وبشرية، منها الجفاف الأمراض التي انتشرت في أواخر الفترة العثمانية، وسياسة السلطة التي كانت تشن الحملات العسكرية فتقوم بسلب ما استطاعت منها التشريد السكان القائمين بها (انظر الجدول السالف الذكر للحملات التي قام بايات قسنطينة أواخر الفترة العثمانية). بالإضافة الى الأحداث التي شهدتها منطقة الشرق الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي من همجية عسكرية.

صيد المرجان :

يعتبر المرجان من اهم المواد التي كانت تشتهر بها السواحل الشرقية، فرغم استغلاله كان من احتكار الدول الخارجية التي منحت هذا الامتياز ⁽³⁾ و هو اول امتياز مكتوب حيث طلب السلطان العثماني سليمان الاول سنة 1628م حيث امر ديوان ايالة الجزائر بالاتفاق مع فرنسا على هذا الامتياز في عهد نابليون سامصون من الجانب الفرنسيو حسين باشا من الجانب الجزائري اصبح من الثروات التي اشدت عليها التنافس

⁽¹⁾ - نفس المرجع، ص 485.

⁽²⁾ - مرجع سابق، صص 176-177.

⁽³⁾ - هي الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون لمملكة فرنسا خلال القرن السادس عشر منذ عام 1529 حتى اواخر القرن (1597)، ولقد توسعت هذه الامتيازات خلال القرن السابع عشر في سنوات 1604، 1740، 1673.

بين فرنسا صاحبة الامتياز الاول وانجلترا التي صاحبة التجارة العالمية وان مردود هذه الثروة كانت ترجع الى الباي وحاشيته والداي في الجزائر، فان السكان كانوا ينتفعون من هذا النشاط ولو بالنزر القليل في الخدمات التي يقدمونها لاصحاب الشركة الملكية الافريقية،⁽¹⁾ وبعدها الشركة التجارية الانجليزية يقول وزير الداخلية الفرنسية الى الغرفة التجارية في مرسيليا في 30 ديسمبر 173-40 يقول: " من الواجب علينا ان نولي اهتماما بالغا بالساحل الشرقي من ايلة الجزائر، وان لم نفعّل فان الانجليز سيستولون على المؤسسات التجارية، وان في ذلك لضرر كبير على التجارة الفرنسية"² التي اصبحت وريثة فرنسا بعدما انقطعت العلاقات الجزائرية الفرنسية. و لقد تطورت هذه الثروة التي كان لها رواج في اسواق اوربا خاصة الليفورينيين. و الجدول الاتي يبين لنا أهمية هذه الثروة من خلال عدد السفن التي كانت مسخرة لذلك حيث من 62 سفينة الى 245 سفينة بين سنة 1832 الى سنة 1836 م .

صيد المرجان في السواحل الشرق الجزائري بين سنة 1832 الى سنة 1836⁽³⁾

السنوات	عدد السفن لصيد المرجان						
	الفرنسية	السردينية	النابوليتان ⁴	التوسكانية	الاسبانية	المجموع	القيمة المالية
1832	02	12	25	83	//	62	65.755.80
1833	02	25	49	83	//	99	109.954.80
1834	08	28	62	36	//	131	124.273.00
1835	08	17	82	43	//	150	157.983.00
1836	10	31	122	79	01	245	242.222.40

من خلال الجدول يتبين عدد الدول المهتمة بثروة اصطياد المرجان، ومن خلال هذا سعة العلاقات الجزائرية الاوربية واهمية المكانة الجزائرية الاقتصادية، واثر الاحتلال الفرنسي للجزائر، بحيث كان عدد السفن سنة 1832 لا يتعدى سفينتين فرنسيتين ام السفن التوسكانية يبلغ 38 سفينة في نفس السنة .

(1) - محمد العربي الزيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 193.

(2) - محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية، مرجع سابق، ص 197.

(3) - Tableau de la situation des Etablissement Français en Algerie ; 1838 ; P357

(4) - النابوليتان = نابولي مملكة تقع في الجنوب الغربي لايطاليا الحالية وفي تلك الفترة كانت مملكة مستقلة بعدما اصبحت مقاطعة من المقاطعات الايطالية بعد الوحدة سنة 1870م واشتهرت بالتجارة في حوض البحر الايض المتوسط خلال القرن الثامن والتاسع عشر الميلاديين .

المبحث الثاني: الأسواق والمرافق التجارية في مدينة قسنطينة

كانت مدينة قسنطينة تضم عدة أسواق متخصصة وعامة فقد جاء في مخطوط دفتر احباس مدينة قسنطينة، الموجود بالمكتبة الوطنية الحامة بقسم المخطوطات تحت رقم 3568 للشيخ محمد بن أبي عبد الله بن نعمون، فقد ذكر المخطوط تسعة وعشرون (29) سوق، موزعة في أرجاء المدينة، وتنقسم بين نوعين من الأسواق أسواق خاصة بالحرف وأسواق عامة، أما الأسواق العامة فتتنوع فيها السلع ويقصدها الباعة من كل الجهات مثل سوق التجار الذي يعد أكبر أسواق المدينة وسوق الخلق وسوق الغزل وسوق رحبة الصوف والسوق الكبير؛ أما الأسواق المتخصصة ويسرد لنا عبدالقادر دحدوح هذه الأسواق فيقول: "يظهر من خلال مدى تنوع الحرف والصنائع بالمدينة والتي كانت تشمل الصناعات المعدنية، والمتمثلة في الحدادين والصابغين والصفارين والخرازين والسكاجين والرقاقين، والصناعة النسيجية والمتمثلة في الشواشين والصبغين وغيرها، والصناعة الخشبية كالنجارين والخراطين، والصناعات الجلدية كالدباغين والسراجين والصناعات الفخارية والقلالين وغيرها من الحرف".⁽¹⁾

المهنة في مدينة قسنطينة أواخر الفترة العثمانية:

يعتبر الباي حسن زرق عينو (1754 – 1756 م) أول من أدخل إصلاحات على الإدارة في بابليك قسنطينة فحدد مهام كل وظيفة، وجمع الحرف في طوائف حرفية، ولكل حرفة أمين يراقب جودة المنتج ويفصل في النزاعات القائمة بين الحرفيين، كما يشرف على تحديد سعر السلع المنتجة ويكون واسطة بين الحرفيين والسلطة في مسألة الضرائب وكراء المحلات، وكانت المؤسسات الحرفية قليلة العدد في عمالها لا يتجاوز أكبرها العشرون (20) عاملا،⁽²⁾ وعلى رأسهم المعلم للحرفة. وتتكون الطوائف الحرفية في قسنطينة المدينة من 33 طائفة.⁽³⁾

إلا أن هذا التنظيم لم يرق إلى التجديد والعصرنة، بل كان ذا أهداف ضيقة لا تتعدى تنظيم جباية الضرائب وجمع رسوم الكراء والمكس وغيرها من مستحقات البايليك، فرغم كثرة الوظائف الحرفية التي كانت

⁽¹⁾ - عبد القادر دحدوح، تاريخ وأثار مدينة قسنطينة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2015، ص 361-362.

⁽²⁾ - جميلة معاش، الانكشارية والمجتمع ببالق قسنطينة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة متنوري، قسنطينة 2007-2008، ص 164.

⁽³⁾ - Féraud (ch.). Les corporation de Métier à Constantine avant la Conquête Française. traduit d'un Manuscrit Arabe. in R. A t. 16. 1872. p 451-454.

تملاً المدن وتنوع نشاطها وكثرة تخصصاتها إلا ان الطابع التقليدي الذي خيم على أذهان أصحاب الحرف والممارسين لها جعلهم منغلقيين على أنفسهم غير متطوعين لترقية نشاطهم. وقد يساهم هؤلاء الحرفيين في دعم السلطة بالمصنوعات او بالمواد الاولية التي يصنعونها¹ هي:

1-الصناعة الخشبية:

يصنعون الصناديق والأبواب والنوافذ وغيرها من الأدوات الخشبية، ويطلب المادة الأولية من الخشب من غابات الأوراس ومنطقة القبائل أما وسائل العمل فتستورد من الخارج وخاصة أوروبا. نظرا لتنوع المناخ والتضاريس في الشرق الجزائري واختلاف سقوط الأمطار وتنوع التربة، والاختلاف في ارتفاع الجبال، كل ذلك جعل من منطقة الشرق الجزائري خزاناً هاماً للمادة الخشبية من أصناف متنوعة ومتعددة، ولعل أشجار الصنوبر والسرو والفسق واللوب والوزون والجوز والتفاح والسنديان والأرز والبلوط؛ هذه الأنواع جعلت من صناعة الخشب تزدهر.

إن غابات الصنوبر التي تشتهر بها غابات القل وسكيكدة وبجاية وأشجار الجوز التي تنتشر في منطقة تبسة وأشجار التوبيا التي تشتهر بها منطقة الأوراس⁽²⁾ جعلت في الشرق الجزائري تكاملاً في طلبات أنواع الخشب، وهذا ما نشط الصناعة الخشبية في الشرق الجزائري، ومدينة قسنطينة كقيلة بأن تحتضن هذا النشاط الاقتصادي وتروج له لما له من دور اقتصادي واجتماعي هام.

إن الاستعمال الواسع لهذه المادة في البناء والأثاث المنزلي وصناعة السفن، اوجد فئة اجتماعية كبيرة تتمتع وتتوارث الحرفة، ولعل ما يعكس أهمية هذا النشاط وجود سوق النجارين بمدينة قسنطينة، وسوق آخر خاص بالخراطين وكلاهما يقع بجوار سوق التجار بين فندق الزيت ورحبة الصوف⁽³⁾.

لقد وردت هذه الحرفة في سجلات المحاكم الشرعية بقسنطينة بصيغ ثلاث: النجار، المناشري، وصانع الأبواب، ولقد كان المهنة المناشري أمين الحرفة ومن دون شك إن النجارين وصانع الأبواب لهم نفس الأمر، هذا يجعلنا نقول أن المادة الأولية والحاجة والطلب شجع هذا النشاط وفي دراسة إحصائية لأسماء الحرفيين

(1) - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر، مرجع سابق، ص 106.

(2) - شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار

الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007-2008، ص 143-144

(3) - Mercier, E. Constantine Avant la Conquête Française, op- Cit, P 88-89.

والصناع الذين كانوا في مدينة قسنطينة يشتغلون في حرفة النجارة من خلال المجلد الأول والثاني من سجلات المحكمة الشرعية بتاريخ 1790-1795 تم استخراج الأسماء التالية:

قائمة أسماء الحرفيين في الصناعة الخشبية بقسنطينة⁽¹⁾

اسم الحرفي	الرتبة	المصدر
الحاج محمد بن عيسى	النجار	ج1/225. ج2/463
المسعود بن علي بن عمار	النجار	ج1/225
محمد الصالح بن الحاج عباس	النجار	ج1/226. ج2/414
سي محمد بن الحاج رايح	النجار	ج1/164/242.
رايح النجار	النجار	ج1/164./ ج2/395
احمد بن ميزان	النجار	ج1/246
محمد الغمراني	النجار	ج1/171
محمد بن رجب	النجار	ج1/241
محمد بن سي احمد الضر سوني	النجار	ج1/267
علي بن صالح	النجار	ج2/281/659/662/450/
عبدا لقادر بن محمد	النجار	ج2/604
محمد بن إبراهيم	النجار	ج2/604
سي عبدا لرحمان بن ميزان	النجار	ج2/469
الطاهر بن محمد	النجار	ج2/416/454
علي بن المسعود	النجار	ج2/427
بلقا سم بن الحاج محمد	النجار	ج2/560
عبدا لكريم بن سي عمر	النجار	ج2/386
محمد الصالح بن الحاج عباس	النجار	ج2/475

(1) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، ص ص 664-665-666.

475/2ج	النجار	احمد بن سي احمد الحلبي
468/2ج	النجار	بلقا سم بن سعد
632/2ج	النجار	علي بن خلفه
660/2ج	النجار	شعبان بن عب
191/1ج	الخراط	قدور بن رجب
162/1ج	صانع الأبواب	بوجمعة
212/1ج	أمين المنشارين	سي احمد
575/2ج	المناشري	الحاج مسعود بن كورات
619/2ج	المناشري	الحاج محمد بن كورات
647/2ج	المناشري	احمد بن زايد
584/2ج	المناشري	احمد بن صالح
	30	المجموع

إن عدد كبير من المرتبطين بهذه الحرفة، مثل النقش على الخشب وتسقيف العمائر والمنازل وصناعة منابر المساجد والمحراب والأبواب والنوافذ والدرايز وشرفات المنازل، وقصر الباي أتمودج لتلك الزخارف، ولم تكن هذه الحرفة بالشكل الكاف في التطور فبقيت يدوية تقليدية بسبب ضعف الطلب عليها، وارتفاع أثمانها وطول الانجاز. فلم نجد عمارة ثابتة في الفن الخشبي إلا بعض المنشآت الرسمية كقصر الباي، أو شرفات المنازل لشخصيات معروفة أو تأثيث مساجد هذا في المدن أما في الأرياف فكان ذلك لا يستدعي الى هذا الطلب. لم تكن الصناعة في مستوى التطلع والتقدم والعصرنة وهي الصناعة المعدنية، فكانت على نفس الحالة التي كانت عليها الصناعة الخشبية.⁽¹⁾

2- أهم الصناعات المعدنية في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية:

لم تكن في القوة والازدهار الذي كانت تعيشه أوربا، وإنما كان بالطرق التقليدية البسيطة لدرجة انه لا يتعدى الأفران الصغيرة، والصناعة المعدنية لها الطابع التقليدي ولا يتعدى الاحتياجات المحلية التي بقيت في

⁽¹⁾ ان هذه الصناعة كانت تنتشر في المدن الكبرى خاصة قسنطينة ولكنها كانت ضعيفة الانتشار لان المؤسسات الكبرى

كانت محصورة في القصور والمساجد والقصور او بيوت العائلات الكبيرة

مستوى الاهتمام التي كانت السلطة تفكر به،⁽¹⁾ وهو عدم التجديد في وسائل الإنتاج التي أصبحت تنافسها عند الأوروبيين، ولأن المجتمع؛ ومن أمامه السلطة كانت عاجزة أو قل غير مهتمة بالتجديد والعصرنة الذي انبثق في العالم ويكتفون بالشيء الجاهز والمألوف، رغم ان وليم شالر يؤكد ان السكان يستغلون الامكانيات المتاحة حيث يقول: " لاو مع ذلك فان القبائل شعب نشيط وذكي وهم يجنون من زراعة اراضيهم وتربية مواشيهم كل ما يحتاجونه اليه لمعيشتهم ".⁽²⁾ وعدم الاستثمار في المنشآت الاقتصادية المعاصرة، ويرجع ذلك لعدم وجود مشروع وطني ومخطط لتجديد الهياكل القاعدية للصناعة أو للصناعة الزراعية التي عهدوا بها، وتبقى الصناعة بالنمط التقليدي الذي لا يحتاج لرؤوس أموال كبيرة ولا ليد عاملة متعلمة ولا لقوة علمية متفتحة عن الأوضاع التي أصبحت من حولهم، رغم الغزو الاقتصادي الأوربي الذي أصبح يهدد كيانهم الاقتصادي والتجاري أهم هذه الصناعات هي:

الصناعة البرونزية: وهو خليط من النحاس والقصدير، سهلة الصهر وصلبة ومتماسكة.

الصناعة الحديدية: كان معدن الحديد متوفر في إقليم قسنطينة حيث يذكر البكري إن بلاد كتامة كانت تتوفر على معدن النحاس والحديد، كما يذكر الإدريسي بان معدن الحديد كان بمدينة بونه (عنابة) وبجاية بالإضافة إلى منجم كاف الطبول في قلمة⁽³⁾. بالإضافة لتواجد المعدن الحديد إلا انه يعتبر من المواد المستوردة⁽⁴⁾.

وما يشهد عن وفرة المواد المعدنية هو تعدد الورشات والصناع، الذين كانوا يشتغلون وينشطون هذا المجال الحيوي في الاقتصاد لمنطقة الشرق الجزائري، وتركزت على صناعة العربات وخوذات الأحصنة والبغال، كما اشتهرت بعض القبائل في الريف القسنطيني بصناعة الأسلحة والذخيرة الحربية ومنها ما قام به رجب باي سنة 1079 هـ / 1668م، بناء رحي للبارود بالحامة وكان يصنع البارود بدار محمود بن شاكر باي قرب القصبه وكان يشغل هذا المعمل عشرون (20) عاملا⁽⁵⁾. أما في الأرياف فكانت القبائل العربية تقوم بصناعة الأسلحة والبارود وفي هذا الصدد يقول صولسي دو فيليسيان (Saulcy de Félicien): « رأينا عندهم

(1) - اندري برنار واندري نوشي وايف لاکوست، مرجع سابق ص 203.

(2) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 115.

(3) - شريفة طيان، مرجع سابق، ص 225.

(4) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، 102.

(5) - جميلة معاش، مرجع سابق، ص 67.

مدافع عتيقة لم نعرف كيف صنعوا بها الى هذا العلو ولم يكن احدهم يدري بذلك أيضا. قالوا لنا: لو كان لدينا ما يكفينا من البارود لما استطاع احد ان يؤذينا»⁽¹⁾.

إن وجود سوق للأسلحة بقلب المدينة يعرف بسوق العصر، قرب شارع اليهود بين باب القنطرة والقصبة، جعل قسنطينة لا تحتاج لمن يزودها من الخارج بل كانت هذه المصانع كافية لتزويد المدافع والبنادق التي تحتاجها. ولم تكن هذه الاسلحة في المستوى التي وصلت اليها تلك التي اصح يتمتع بها ما وراء الحر لان الصناعة الحديثة التي غزت الاسواق الاوربية ومعظم قطع الاسلحة كانت تأتي من الدول الاوربية.⁽²⁾

وفي هذا الصدد صولسي دو فيليسيان(Saulcy de Félicien) يقول: «ورأينا عندهم بنادق من صنعهم لا تختلف من حيث إتقانها عن تلك التي توجد بالجزائر. وعندما أردت رؤية الأدوات التي يستعملونها لاحظت إنها أدوات رديئة، ومما زاد في دهشتي براعتهم رغم رداءة وسائلهم، وعندما لفت انتباه أبي ذلك قائلا: آه، لو كانت لديهم المعرفة والأدوات الملائمة لصنعوا أشياء عجيبة»⁽³⁾، وبالرجوع الى سجل المحاكم الشرعية لمدينة قسنطينة بين سنتي 1790-1795 م نجد قائمة بأسماء الحرفيين الذين كانوا يشتغلون في حرفة الحدادة بمدينة قسنطينة، مثل ما يبينه الجدول التالي:

جدول يبين أسماء الحرفيين في الحدادة في مدينة قسنطينة⁽⁴⁾

اسم الحرفي	الرتبة	المصدر
عبدالله بن الخضار	امين الحدادين	ج 277/1
بلقاسم بن الحاج محمد الفرجاني	الحداد	ج 222/1./ ج 669/395/573/2
شعبان بن محمد بن الخليفة	الحداد	ج 155/150/1
محمد بن دادة	الحداد	ج 280/1
علي بالحاج بلقاسم بن العلوي	الحداد	ج 229/1. ج 572/2

⁽¹⁾ - صولسي دو فيليسيان، ذكريات رحلة من مدينة الجزائر الى قسنطينة عبر المناطق الجبلية، تقديم وترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2015، ص 27.

⁽²⁾ - نفس المرجع السابق، ص 68. انظر، علي خلاصي، التنظيمات والمنشات العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص 373.

⁽³⁾ - صولسي فيليسيان دو، مصدر سابق، 2015، ص 26.

⁽⁴⁾ - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، ص ص 671-670-672.

ج 271/1	الحداد	قدور بن محمد
ج 264/1. ج 623/329/2	الحداد	محمد بن صالح
ج 262/1. ج 637/308/2	الحداد	محمد بن عمارة (عمر)
ج 255/1	الحداد	داده بن الدراجي
ج 271/243/192/1	الحداد	أحمد بن حامد
ج 242/1	الحداد	علي بن محمد بن صالح
ج 202/1	الحداد	الحاج علي بن مخلوف
ج 211/1	الحداد	الحاج علي بن ابراهيم العنابي
ج 66/13/1	الحداد	عمارة بن الصيفي العنابي
ج 192/1	الحداد	عمارة بن احمد
ج 622/2	الحداد	علي بن صالح
ج 320/316/2	الحداد	بلقاسم بن الحاج محمد المعوش
ج 504/500/491/432/2	الحداد	محمد الصالح بن الحاج علي
ج 498/2	الحداد	شعبان بن خلف بن طريوات
ج 504/482/2	الحداد	عيسى بن احمد
ج 484/2	الحداد	احمد بن علي
ج 296/2	الحداد	عمر بن معافي
ج 418/493/2	الحداد	عمر بن عمار
ج 590/2	الحداد	محمد بن سعد
ج 605/2	الحداد	احمد بن مبارك
ج 652/630/2	الحداد	بلقاسم بن حمودة
ج 565/2	الحداد	بلقاسم بن عبد الرحمان
ج 611/2	الحداد	الحاج عبد الله
	29	المجموع

يعد استعمال المعادن في قسنطينة قليلا إذا ما قورن بالنشطة الاقتصادية الأخرى، رغم الحاجة الملحة لهذه المهنة التي انتشرت بشكل واسع في أوروبا في نفس الفترة، فمازالت صناعة المعادن ضعيفة لا تتعدى الإقفال والشبائيك للتوافذ والمسامير وما يدل على ذلك قصر احمد باي وزاوية حنصالة⁽¹⁾.

طائفة الصغارين:

الصناعة النحاسية: وتمثل صناعة الأدوات النحاسية، من اهم الصناعات التي تشتهر بها المدن الجزائرية وكانت شوارع كاملة متخصصة، ويقع سوق على حسب ما جاء في كتاب عبدالقادر دحدوح نقلا عن دفتر الاحباس بالقرب من سوق العطارين والجامع الكبير والحمام الصغير² و تسمى زنقة الصغارين او زنقة الصغارين نسبة للون النحاس الاصفر، وهي على نوعين حسب نوعية النحاس الأحمر والنحاس الأصفر ويتميز هذا المعدن بليونته يسهل طرقه وهو معدن مطاوع، ويستعمل في الصناعة النحاسية والأواني المنزلية وأدوات التزيين، ويبقى ذا استهلاك محلي مثل مقابض الأسلحة الخفيفة من السيوف كالأباريق والصينيات وقبور الطبخ. يقول محمد العربي الزييري: و قد كانت مدينة قسنطينة هي اهم مدينة صناعية في الجزائر، تشمل وحدها على 33 معملا لدباغة الجلود و75 معملا للسروج و168 معملا للاحذية تستوعب اكثر من 15 من المائة من اليد العاملة⁽³⁾.

وهناك طوائف أخرى نذكر منها على سبيل المثال:

طائفة التشاكالجية، (حاكمالجية) المختصين في إصلاح الأسلحة وصناعة منصات المدافع.

طائفة السرايين: يصنعون المقابض السيوف والأجزاء الخشبية للبنادق واغمده السيوف.

طائفة السمارين: هم الذين يصنعون المعادن التي توضع في أسفل قوائم الأحصنة والخوذة ويقومون بتطبيب الأحصنة والبغال عند حوافرها عن طريق التنظيف والكي بالنار.

طائفة السراجين: حرفة الجلود وما يرافقها من صناعة السيور والسروج والجبيرة (أكياس الذخيرة) وأكياس النقود والحقائب وأحزمة الفارس والجنود وأحذية الفرسان والتماق وتستغل جلود الأبقار والأغنام والإبل والشرق الجزائري غني بالمادة الأولية.

(1) - شريفة طيان، مرجع سابق، ص 107 - 110.

(2) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، ص 405.

(3) محمد العربي الزييري، مرجع سابق، ص 62.

طائفة البرادعية: البردعة وهي ما يوضع على ظهر البغال والحمير ثم يوضع عليها أكياس المتاع والمأونة. ويقع بالقرب من سوق الغرابلية ويحتل الطريق الفرعي ليرتبط بالشارع الرئيسي قرب فندق الزيت. (1)

طائفة الخرازين: (البشماقجية) وهي صناعة جلدية منها صناعة الأحذية للرجال والنساء، طائفة الحواكة: صناعة النسيجية مثل الحايك والقشابة والبرنوس والألبسة الشتوية الصوفية والمادة الأولية متوفرة من عمليات جز الصوف الأغنام ووبر الإبل وشعر الماعز، طائفة الخياطين: ومهمتهم خياطة ألبسة الرجال والنساء من مواد جلدية وصوفية وقطنية وحرير وكتان وقطن وهي من اختصاص اليهود. ويقع بالقرب من مسجد سيدي الفوال ومسجد سيدي عبدالرحمان قرب سوق العطارين. (2)

طائفة الحفافين: يمارسون الحلاقة والحجامة ويقلعون الأسنان.

طائفة الخراطين: يصنعون أدوات النسيج الوقافة والخشب والنيار وشرفاة المنازل والنوافذ.

طائفة الغرابلية: الغرابل من الأدوات المنزلية يستعمل لتصفية الطحين من قشور الحب بعد الطين وتستعمل المادة الأولية في صناعتها سعف النخيل ونبات السمار وجلود الحيوانات وتصنع على أساسها الكسكسي. (3)

طائفة الدباغين: الدباغة مهنة مشهورة في المدن الجزائرية وتختص بدباغة الجلود الحيوانات من بقر وماعز وغنم وجمال أما مادة الدباغة فهي قشور الأشجار خاصة الصنوبر يأتون بها من منطقة الأوراس وبلاد القبائل. وتقع مرسي بتحديد مكان الدبغ التي تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من مدينة قسنطينة. (4)

طائفة الرقاقين: يختصون في صناعة الجلدية لنقل المياه (القرية) ون جلود الماعز خاصة.

طائفة البنائين: محترفون مهنة البناء وأغلبيتهم من منطقة القبائل.

طائفة البياضة: والبياضة نوع من أنواع التربة البيضاء الرقيقة ومواد الجبس والجير وهي من اختصاص السود وتبييض الجدران في المناسبات والأعياد.

طائفة القلالين: هم صناع القل (الجرار) ومادتها الأولية المادة الطينية وهي من اختصاص سكان القبائل. تحفظ فيها المواد الأولية من عسل وزيت وتوابل ومواد غذائية وبعض من الحبوب.

(1) - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 403.

(2) - نفس المرجع السابق، ص 401.

(3) - محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 63.

(4) - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 405.

طائفة الكواشين: يختصون في صناعة الخبز الموجه للانكشاريين وهي من اختصاص سكان جيغل ومدينة قسنطينة كثيرة الأفران والكوشات وتكون تحت رقابة السلطة وتعمل الكوشة بواسطة الحطب الذي يوفره قبائل شطابة كضريبة والجدول التالي يبين لنا أهم الكوشات في مدينة قسنطينة مع العلم إن هذه الكوشات كان دورها يختصر على تحضير الخبز للانكشارية أما الكوشات العامة فلم تكن موجودة وتبقى لكل عائلة لها حرية التصرف في تحضير ما يخصها من رغيف. (انظر جدول أهم الكوشات في مدينة قسنطينة في نهاية هذا العنوان).

الكوشات مدينة قسنطينة أواخر الفترة العثمانية⁽¹⁾

قائمة الكوشات		قائمة الكوشات	
كوشة النصارى	09	كوشة ابن الأبخق	01
كوشة الدبيبة	10	كوشة ابن دوراك	02
كوشة في جزء القايد يلس	11	كوشة ابن القنفذ الخطيب	03
كوشة قريبة من مسجد ابن هجام	12	كوشة أسفل زقاق البلاط	04
فرن رحبة الصوف	13	كوشة رحبة الجمال	05
فرن المراكشي بسوقة بن ثعلب	14	كوشة أة رحبة الصوف	06
فرن قريب من مسجد بني هجام	15	كوشة محلة غدير أبي الغارات	07
///////	16	كوشة قرب ديار بني مزديو	08

طائفة الجزارين: يختصون بعملية الذبح الحيوانات وبيع اللحوم وتموين الأسواق بمادة اللحم في المواسم والأعياد خاصة عيد الأضحى وهي حرفة مربحة.

طائفة الصوابنية: يختصون في صناعة الصابون من الزيت الزيتون ويمارسها سكان الارياف.

طائفة الدخاخنية: بيع التبغ وهي مهنة مربحة تستهلك من طرف الانكشاريين وهي من المواد التي تمون المحلة.

طائفة الطباخين: وهي من حرف بني مزاب يطهون الطعام لبيعه في المحلات الخاصة.

(1) - مرجع سابق، ص 214.

طائفة الفطائرية: يحضرون الفطائر لبيعها للمارة والنازلين في المدينة وهي من اختصاص التونسيين⁽¹⁾

طائفة الحلواجية: صناع الحلويات من العسل واللوز والسكر وهي من اختصاص التونسيين.⁽²⁾

طائفة المقاوسية: صناعة حلي النساء باستعمال قرون الثيران وصناعة غليون التدخين.

طائفة الزواقين: صناع الأثاث المنزلي وتزيينه بالألوان المختلفة.⁽³⁾

طائفة الدالين: يمارسون عمليات بيع السلع والأشياء الجديدة والقديمة.⁽⁴⁾

طائفة الكانفين: هي من اختصاص اليهود وتمثل الحرفة في تنظيف المجاري المياه المستعملة والمراحيض وكانت من اختصاص اليهود.⁽⁵⁾

طائفة الصياغة: صناعة المعادن الثمينة من ذهب وفضة وتصنع أساور النساء والخواتم والمجوهرات وتزين الأسلحة والتحف وكانت من اختصاص اليهود.

طائفة القزادرية: صناع القصدير وهو معدن يتكون من خليط من الزنك والنحاس.⁽⁶⁾

إن هذه الطوائف التي شملت جل مناحي الحياة الحيوية في مدينة قسنطينة تظهر قدرة السلطة على قوة التحكم في كيان اقتصاد المدينة، فلذلك يرجع إلى قوة النظام وقوة التسيير وقوة الاقتصاد الذي كان ولا بد من هذا التنظيم؟ أو لهدف السيطرة على ضبط الموارد المالية للسلطة على مستوى المدينة؟ هل أمناء الطوائف كانوا في مستوى تنشيط اقتصاد المدينة أم كان هدفهم تحقيق امتيازات في نشاطهم الحرفي؟ هل نشاط الحرف كان يزداد عددا في أعداد الحرفيين وازدياد إرباحهم وازدياد توسع نشاطهم أم كان في تقلص مستمر؟ ما مدى مواجهة هذه الحرف الأزمات التي كانت تقع بين الفينة والأخرى على الشرق الجزائري؟ ما قوة هذه النقابات في مواجهة السلطة على تماديها في زيادة الضرائب؟ هل كان أمناء الطوائف الحرفية في خدمة السلطة العثمانية أو في خدمة المهنة (الاقتصاد) أو في خدمة المجتمع القسنطيني.

(1) - مرجع سابق، 401..

(2) - مرجع سابق، 402.

(3) - مرجع سابق، 404.

(4) - مرجع سابق، 405.

(5) - المصدر السابق، 406.

(6) - جميلة معاش، الإنكشارية والمجتمع ببابلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008 ص 167.

أسواق مدينة قسنطينة نهاية الفترة العثمانية:

وقد كانت هذه الأسواق في عمومها مصطفة تفتح على الشارع، وحيث ورد في المخطوط أسماء حوالي 78 خانوتا مع ذكر ملاكها، وفي بعض الأحيان كانت تذكر الحرف التي تمارسها في الخوانيت كما هو الحال بالنسبة لصناعة الفخار.

قائمة الأسواق العامة المذكورة في المخطوط لمدينة قسنطينة⁽¹⁾.

الأسواق العامة		الأسواق العامة	
سوق الموقف	09	سوق باب الواد	01
سوق الغدير أبي الغارات	10	سوق البركة	02
سوق الغزل	11	سوق بني عاتي محمد	03
سويقة باب القنطرة	12	سوق التجار	04
سويقة باب القصبة	13	سوق الخلق	05
سويقة بن ثعلب	14	سوق رحبة الصوف	06
سويقة هواره	15	سوق زقاق البلاط	07
//////	16	السوق الكبير	08

هذه الأسواق في مدينة قسنطينة تجعل من نشاطها الحيوي اليومي مصدر لأموال دائمة السيولة لخزينة البايليك، وتستقطب القائل للتسوق في المدينة وبذلك تجعل منه سوق لتبادل السلع ولتبادل الأخبار وما يجري في عاصمة البايليك، ولم تكن مقصد القبائل القريبة بل حتى القوافل التي تتجه منها نحو أباله تونس أو نحو دار السلطان أو الجنوب نحو الاوراس وتقرت ومنها نحو جنوب الصحراء. وهي أمثودجا لمدينة حديثة ولا يخرج هذا النشاط عن الطابع التقليدي لا يحقق الصانع فيه الا مصاريف يومه² ومازالت بعض هذه الانشطة ليومنا الحالي والجدول التالي يبين لنا أهم اسواق مدينة قسنطينة.

قائمة الأسواق الحرفية في مدينة قسنطينة⁽³⁾.

الأسواق المتخصصة	الأسواق المتخصصة	الأسواق المتخصصة
------------------	------------------	------------------

(1) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق 216 .

(2) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية، مرجع سابق، ص 62.

(3) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق 397.

سوق القصاصين	21	سوق الكمادين	11	سوق البرادعيين	01
سوق القشاشين	22	سوق المتوسين	12	سوق الخطابين	02
سوق السراجين	23	سوق النجارين	13	سوق الحلفائيين	03
سوق السردانيين	24	سوق الصباغين	14	سوق الخرازين	04
سوق السكاجين	25	سوق الصباغين	15	سوق الخراطين	05
سوق السمادين	26	سوق الصفارين	16	سوق الخضارين	06
سوق الشكازين	27	سوق العطارين	17	سوق الدباغين	07
سوق الشواشين	28	سوق القطاعين	18	سوق الدهانين	08
سوق الحدادين	29	سوق القباطين	19	سوق الرقاقين	09
//////////		سوق القلالين	20	سوق الزيتين	10

إن هذه الأسواق تنم على قوة التفاعل الاقتصادي والاجتماعي في المدينة، وهذا مرده لتنوع الإنتاج وقوة المدينة في استقطاب الفئات الاجتماعية والحرفية التي تتميز بها مدينة قسنطينة، إلا أن نستنتج قيمة المداخل عن طريق المكس التي توفرها لخزينة البايليك، واستقرار الأوضاع في مركز السلطة جعلها أكثر نشاطا من غيرها من المناطق الأخرى نظرا لاستتباب الأمن وتوفر الباعة والقاصدين للمدينة لما تتوفر عليه من مرافق كمالية للتجار والزوار مثل الفنادق والمساجد والالتفاف حول علماء الدين وكبرائها من العائلات ذات الصيت والحل والعقد في المسائل الاجتماعية والعلمية والفقهية وهذا ما زاد في حركية ونشاط التجارة والمبادلات بين عاصمة البايليك وأقاليمها رغم الطابع البدائي للنشاط الصناعي الذي ضرب على الصناعات والانغلاق على عمليات التجديد.⁽¹⁾

فنادق قسنطينة:

كانت أسواق مدينة قسنطينة تضم عدد كبير من الفنادق ورد ذكرها في المخطوط والمتمثلة في كل من فندق أولاد بن بلقاسم، فندق بن جلول، فندق بن سباع، فندق البونيين، فندق الروم، فندق الصباغين، فندق الفواكه، فندق في التزام بن جفال النجار، إلا أن هذه الفنادق ومع نهاية الحكم العثماني لم يعد لها ذكر حيث لا نجد لها ضمن إحصائيات مرسية ولا ضمن المخطوطات التي رجعنا إليها، مثل سجلات المحكمة الشرعية أو

(1) - محمد العربي الزيري، المرجع السابق، ص 64.

سجل الوفيات أو دفتر أوقاف صالح باي، حيث ورد في هذه المصادر أسماء فنادق أخرى مما يعني أن فنادق القرنين 10-11هـ/ 16-17 م، إما زالت وشيدت في مكانها، أو في غيرها من المواضع في المدينة فنادق أخرى، أو أن أسمائها تغيرت مع الزمن، وفيما يلي نورد قائمة الفنادق التي ذكرتها النصوص والمصادر خلال أواخر العهد العثماني:

أهم الفنادق في مدينة قسنطينة أواخر الفترة العثمانية⁽¹⁾

الرقم	اسم الفندق	المصدر أو المرجع
01	فندق صالح باي	دفتر أوقاف صالح باي
02	فندق سوق الخرازين	
03	فندق بن نعمون	
04	فندق بني مزاب	سجل الوفيات
05	فندق بن نويرة	قائمة مرسية
06	فندق الزيت	
07	فندق قيساري	

هذه الفنادق تنم على أهمية المدينة من حيث النشاط الخدماتي، ودور المدينة في استقطاب الزوار والوافدين لقضاء حاجاتهم الاقتصادية أو السياحية أو العلمية والثقافية، والفنادق مظهر حضاري ينم على قوة وأهمية المدينة وأثرها الاجتماعي والاقتصادي، وإلى جانب الفنادق التي عرفت مدينة قسنطينة التريعات، والتي يقصد بها حوش مربع تحيط به حواصل وحوانيت أو دورات مياه ذات ميضات، فقيل: «تريعة بما حوانيت متجاورة ومتقابلة يمنة ويسرة».

الكوشات والأفران:

ومن بين المرافق التجارية الكوشات والأفران، وهي التي كان للحسبة دور كبير في التحكم في توزيعها داخل أحياء المدينة، حيث كانت فقد كان المحتسب يحرص على توزيع الفرانين أو الخبازين "على الدروب والمحال وأطراف البلد لما فيها من المرافق وعظم حاجة الناس إليها"⁽²⁾، وقد صارت قسنطينة على هذا النهج

(1) - عبد القادر دحدوج، مرجع سابق ص 366.

(2) - عبد الرحمن بن نصر الشيزري، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام 14 بنشره السيد الباز العربي، باشراف محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التكليف والترجمة والنشر القاهرة، 1946، ص 24.

حيث كانت بها عدة كوشات بلغ عددها 22 كوشة وفرننا، حسب المخطوط المذكور سابقا. (انظر جدول سابق: أهم الكوشات في مدينة قسنطينة أواخر الفترة العثمانية).

من خلال عدد الكوشات يتبين لنا أن الحياة الاقتصادية كانت في ازدهار هام نظرا لتعداد السكان القاطنين فيها والنشاط الذي تحتله المدينة في توفير الرغيف للسكان القاطنين في المدينة ومنها الجيش الانكشاري أو السلطة المحلية أو للزوار الوافدين إليها، إما للاستقرار أو لقضاء حاجاتهم اليومية كالبيع والشراء أو أمور شتى ويزر لنا قوة الحركة الاقتصادية لمدينة قسنطينة.¹

الحمامات والأسبلة:

لقد ذكر من الحمامات والأسبلة بدفتر الأحباس 08 حمامات، 06 منها استمرت إلى غاية الحكم العثماني، جاء ذكرها ضمن إحصائيات مرسيي (MERCIER) وفي سجلات المحكمة الشرعية وهي تشمل كلا من حمام بن نعمان، وحمام بالقرب من مسجد الباب، وحمام الصغير، وحمام السلطان، وحمام دقوج، وأمام الهوى، في حين لم نجد ذكرا لحمام الجديد وحمام الحتاشين في النصوص اللاحقة، وفي هذه المصادر تم ذكر 12 حمام، منها لم يسبق ذكرها في دفتر الأحباس تتمثل في: حمام بجومة أقواش بن نجدة⁽²⁾، حمام ابي بعاية، وحمام قاع العطارين، وحمام بن الشريف، وحمام بن جلول، وحمام سوق الغزل⁽³⁾.

أما الأسبلة فهي من المعالم التي وردت في المخطوط المذكور آنفا، حيث ذكرت كل من سبالة الموقف وسبالة سوق الحدادين، وسبالة رحبة الصوف وسبالة أسفل العطارين، وسبالة باب الوادي، وذكرت سبالات أخرى مثل سبالة باب الجابية وسبالة سيدي يعيد الصفروي⁽⁴⁾، وقد قدر عدد الأسبلة بالمدينة عند دخول الاستعمار الفرنسي للمدينة ب 07 سبالات، كانت في شكل خزانات مقاساتها 3 م² وعمقها واحد متر، وهي تتوزع على مختلف أحياء المدينة⁽⁵⁾.

وربما يرجع وجود هذه الأسبلة إلى غياب منابع الماء بالمدينة، حيث جاء في رسالة حول قسنطينة كتبها القائد إبراهيم بأن المدينة لا يوجد فيها أي منبع للماء، وينبغي البحث عنه في الجانب العلوي أو في أسفلها

(1) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، 372.

(2) - سجلات المحكمة الشرعية، المصدر السابق، ج 2، ص 444.

(3) - MERCIER. E, CONSTANTINE AVANT LA CONQUETE, OP.CIT, P72-73.

(4) - سجلات المحكمة الشرعية، المصدر السابق، ج 1، ص 264.

(5) - NOUSCHI. A, CONSTANTINE A LA VEILLE DE LA CONQUETE FRANCAISE, IN: LES CAHIER DE TUNISIE, TUNIS, 1955, P 373.

بالوادي⁽¹⁾، وهو نفس الأمر الذي يذكره ريميزات (REMUZAT)⁽²⁾، كما تذكره وزارة الحرب الفرنسية في جدول المؤسسات الفرنسية لسنة 1838م، بأن منابع الماء في مدينة قسنطينة منعدمة وأنه كان بها خزانات مائية، وكان الناس يستسقون من الوادي عبر طريق محمي⁽³⁾.

المبحث الثالث: السياسة الضريبية مظهر للتسلط نهاية الفترة العثمانية في الشرق الجزائري

اعتمدت السلطة العثمانية في الشرق الجزائري على عدة مصادر مالية لتغذية خزينة الباي، باعتباره الحاكم المطلق على مستوى البايليك، وحاجة الباي الى أموال، كغيره من الحكام، ومادام هو الوصي أمام الداوي، فداي الجزائر لديه مستحقات فصلية وسنوية، يتعهد الباي على تحقيقها والالتزام بها، بالإضافة الى أموال يسير بها شؤون البايليك، ليحقق الأمن والاستقرار على مستو الفضاء الجغرافي للشرق الجزائري الواسع. الإشكال المطروح: هل كانت مداخيل البايليك تلي حاجة الباي في الإنفاق والتسيير؟ الإشكال الثاني هل نظام جباية الضرائب كان في مستوى التنظيم يراعي حق السلطة والرعية؟ هل كثرة التمردات والثورات نهاية الفترة العثمانية كان سببها النظام الضريبي؟ هل كان توزيع فرض الضرائب كان متكافئ؟

ان القيمة الاجمالية لما يستوجب على البايليك من مستلزمات الضرائب اتجاه داي الجزائر والتي كانت تدفع مرتين في السنة فكانت تقدر بما قيمته 340.000 ريال⁽⁴⁾. بالإضافة الى هذه المغارم يقدم الباي هدايا وتدخل في العوائد التي الف البايات تقديمها للدايات وتتمثل في عهد احمد باي ب 1500 بقرة و 6000 خروف و 17 فرس وحصان اصيل و 100 بغلة و 70 برنوسا من النوع التونسي الرفيع و 50 غطاء تونسي و 50 حائك تونسي و 40 دزينة من الطاقيات ذات اللون الاحمر و 32 سبحة من العنبر والمرجان و 14 اوقية من عطر الورد و 03 اوقيات من عطر الياسمين و 16 كيسا معدا لحفظ الساعات و 30 من جلد النمر او الاسد ومن 8 الى 10 نمور و 700 قفة من التمور و 150 سلة من الزيتون الاخضر وحمولتا بغال من القماش المستعمل لتبطين السروج و 20 جمولة من الزبدة و 20 حمولة من الكسكسي⁽⁵⁾.

(1)-EMERIT. M, OP, CIT, P 254.

(2)- IBID, P 256.

(3)- الحسن ابن محمد الوزان الزباني، وصف افريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005، ص 59.

(4) - كانت قيمة الريال تقدر ب 0.93 فرنك

(5) - ناصر الدين سعيدوني، ابحاث ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 330-331.

الإجابة على هذه الأسئلة سوف يقودنا الى البحث في واقع العلاقة بين نظام الحكم في الشرق الجزائري وعلاقته بالقبائل، و هيئة الباي ومعاونه وعلاقتهم بنظام الضرائب وهو من أهداف بحثنا هذا، فوضع الشرق الجزائري مجموعة من قبائل موزعة على الأساس الجغرافي الآتي، أهمها:

في الشرق كل من قبائل عامر شراقة وأولاد زناتي، أولاد يحيى بن طالب ويحمل شيخهم لقب شيخ الدير، وإضافة إلى القبائل المذكورة كان هناك الحنانشة والشيابنة وأولاد علي وتيفاش والناماشة والعمامرة والمعط الله، يجد البايليك صعوبة في تحصيل الضرائب من هذه القبائل نظرا لصعوبة المنطق وموقعها البعيد على مركز السلطة في قسنطينة، أما في غرب البايليك مثل مجانة وسطيف. جل القبائل كانت تدفع الضرائب بصفة منتظمة تبعا للمقادير المحددة من قبل قائد العشور، يوجد بالغرب التلاغمة، أولاد عبد النور، وعامر الغرابة ثم مجانة المسكونة من طرف الحشم وعياض وأولاد خلوف⁽¹⁾.

أما في شمال الشرق الجزائري لا تدفع القبائل الساكنة بالساحل (بين المنصورية وبجاية) الحكور ولا العشور عدا المناطق القريبة من الميلة والأراضي المزروعة عموما، نستطيع تحديد هذه الأراضي المزروعة بمحاذاة الطريق الرابط بين ميلة وسكيكدة، فلا تجمع الضرائب في غياب القوة العسكرية. والساحل من عنابة إلى بجاية (تعرف مناطقه جهاته وأقسامه) على التوالي:

ساحل عنابة، ساحل سكيكدة، ساحل القل، ساحل جيجل، ساحل بجاية، ولم تكن أي جهة من هذه الجهات الجبلية منتظمة في دفع الضرائب، أما القبائل الساحلية الكبيرة فهي القريبة من الإمارة. زواغة وفرجيوة والساحليين وجبال الباور وبني يعلى⁽²⁾.

أما في الجنوب فهناك الزمول السفينية، الحراكتة، جبال الاوراس، وبلاد بلزمة، أولاد سلام، أولاد سلطان، أولاد سحنون، كلها قبائل جبلية، وأخيرا إلى الصحراء بالجنوب التي تضم الزيبان، هي مجموعة من المدن الصغيرة شيدت داخل واحات وعلى مسافة صغيرة من بسكرة، وبلاد سيدي عقبة وبلاد سوف وتقرت. وفيما

⁽¹⁾ -Abdeljalili Temimi: Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837), Publication de la revue d'histoire maghrébine, vol 8, Tunis, 1978, p. 50.

⁽²⁾ -AMG H 228: Rapport sans auteur rédigé en 1840.

عدا الزمول والسقنية القريبتين من قسنطينة فإن القبائل الواقعة إلى الجنوب لا تدفع الضرائب إلا إذا استخدم ضدها قوة عسكرية⁽¹⁾.

من خلال هذا نستشف أن سلطة الباي لم تكن فعلية على كل إقليم الشرق الجزائري، بل كانت اسمية في كثير من المناطق، والدليل على ذلك هو الالتزام بدفع الضرائب كمظهر من مظاهر التبعية للسلطة في قسنطينة،⁽²⁾ ولذلك نرى تسيير حملات عسكرية في كثير ما تلحق أضرار بشرية جسيمة في أوساط السكان والمناطق التي تقصدها هذه الحملات، وفي كثير من الأحيان يتهرب سكان القبائل من قراهم تحاشيا لتسلط القادة العسكريين والمكلفين بجباية الضرائب وفي كثير من الرسائل التي كان يبعث بها الباي للداي في الجزائر، ويشير بأنه قام بحملة تأديبية ضد القبيلة المعنية، إضافة إلى ذلك في كثير من الأحيان تجرد القبيلة من كل متاعها وأغنامها وحيواناتها في هذه الحملات المغرضة لإضعاف السكان، وهذا ما زاد في اتساع الهوة بين السلطة العثمانية في الشرق الجزائري خاصة الأرياف منها.

محلة السلب والنهب وجباية الضرائب:

تصل إلى قسنطينة كل سنة فرقة تتكون من 1550 جندي تركي لضمان تحصيل الضرائب، وهو ما يطلق عليه عمل المحلة، يأخذ شيخ العرب جزء منهم إلى الصحراء وفي فصل الخريف يصل 1250 تركي إلى الجزائر، يبقى البقية في قسنطينة وعددهم 250 جندي تركي يقضون فصل الشتاء في قسنطينة أما في القصبة أو في واد الرمال مشكلين ما يسمى فرقة المشتى (الشتاء) ويدوم بقاءها تسعة أشهر لمحلة قسنطينة. وتعتبر إحدى مهام الجيش هي جباية الضرائب (بالدنوش) وليس مهامها جباية الضرائب فقط وإنما يكون دورها تأديبي للقبائل المتمردة أو الممتنعة وتقوم بالتدخل في إخماد الحروب مع الجيران

أولا: ضرائب ورسوم المناطق الريفية في الشرق الجزائري

إن ملكية الأراضي في الريف هو الذي يحدد طبيعة الضرائب في الشرق الجزائري، بالإضافة إلى ذلك علاقة القبائل بسلطة البايليك، وهما المؤشران الذي ابني عليهما بحثنا هذا، بسبب اختلاف في ملكية الأراضي كظاهرة اقتصادية واجتماعي من شأنها ان تبرز لنا الوضع العام للفضاء الجغرافي في الشرق الجزائري، أما بالنسبة

(1) - انظر جدول الحملات التأديبية على القبائل التي قام بها بايات قسنطينة اواخر الفترة العثمانية صفحة 113 من هذا البحث.

لعلاقة القبائل بسلطة البايليك فهي ظاهرة بارزة في الشرق الجزائري وهنا اختلفت طبيعة الرسوم والضرائب من وضعية لأخرى.

1- ضرائب أراضي الملكيات الخاصة:

تخضع عادة لضرائب العشور⁽¹⁾ و الزكاة⁽²⁾ والخراج والجزية وهي من الضرائب الشرعية تنص عليها أحكام الشريعة الإسلامية، وترتبط بإنتاج الأراضي الزراعية. وهي مساحات شاسعة، فثلث ملكيات بايليك الشرق الجزائري كانت ملكيات خاصة تخضع لنظام جبائي ضريبي، توفر لمخازن البايليك كل سنة ما يقدر ب 20762 قيسة من القمح والشعير، كما إن مداخيل أراضي العشور سنويا، ويتم الحصول عليها في الشرق الجزائري بتنظيمات محكمة منذ حكم صالح باي حتى نهاية الفترة العثمانية، حيث قسم البايليك إلى قسمين قسم شرقي وقسم غربي يفصل بين القسمين واد الحمام⁽³⁾، وكان كل قطاع يشرف عليه قائد يسمى ب قائد الجبيري الشرقي وقائد الجبيري الغربي اللذان يخضعان لإشراف قائد الدار.⁽⁴⁾

وكان قائد الدار يقوم بجولتين في إقليم مقاطعته مصطحبا قائد القبيلة وشيخ الدوار والخماس الذي تمنح له النتائج المسجلة في مذكرة عليه في المرة الأولى ليرفعها الى الباي وبعد اتخاذ الإجراءات المسجلة عليه ترد له المذكرة النهائية الواجب تطبيقها وتسلم للقائد المذكرة النهائية التي يتم على أساسها استخلاص الضرائب المفروضة عليه⁽⁵⁾.

(1) - العشور: ضريبة شرعية لأراضي الخواص الخاضعة للبايليك، والعشور كما يفهم من لفضها، اخذ العشر 10/1 من المنتوج لكن في الفترة العثمانية اخضع لمعيار ما يمكن رثة عن كل جابدة التي تتكون من ثورين، وتطبق ليست بالتساوي ولكن عن طبيعة كل أرض من حيث الخصوبة وتساقط الأمطار.

(2) - الزكاة اصطلاحاً الزكاة في الاصطلاح الفقهي: هي حصّة مُقدّرة من المال، فرضها الله عزّ وجلّ لمستحقيها، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كما فصلتهم السُّنة النبوية المطهّرة، الزكاة: تأخذ من الماشية من الغنم وبقية الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، لكن في الفترة العثمانية لم تخضع هذه الضريبة لهذا المعيار بل كانت وفق أغراض معينة من طرف السلطة، ففي الحملات التأديبية كانت عمليات الزكاة عبارة عن غنائم حرب، يمكن ان تجرد القبيلة من كل حيواناتها والأمثلة كثيرة على ذلك.

(3) - واد الحمام: معروف بهذا الاسم ليومنا هذا وينبع من شمال قالمة ويصب في البحر بالقرب من رأس الحديد (الواد الغربي الكبير).

(4) - مصطفى بن الابيض قائد الدار في مجلس كل من الباي احمد المملوك والباي محمد مناني اما في عهد الباي إبراهيم كريتلي فتولى قائد الدار صهره سي إبراهيم بن قارة علي.

(5) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر، مرجع سابق، ص 90.

2- ضرائب أراضي البايليك:

فهي تستغل من طرف مالكيها، أو يعهد إلى العمل بها لأشخاص آخرون عن طريق الكراء ويعرف في هذه الحالة بالعزل. وينال مالك الأرض في حالة استئجارها أربعة أخماس $5/4$ ويترك الخمس لإقاي للمستأجر الذي يعرف بالخماس، شريطة أن يساهم صاحب الأرض بالبذور (الزريعة) والمحراث والثيران والبغال الخ، ويتقاسم صاحب الأرض مع المستثمر عمليات الحصاد والدرس وتهيئة الأرض⁽¹⁾ عن طريق نظام الخماسة، أما المشرف على أراضي العزل في البايليك الشرق فهو، قائد الدار، يسهر على حسن استغلالها ويسدد مصاريف القائمين عليها ويراقب جميع المحاصيل والأقوات في المخازن البايليك، ويشرف على بيع الفائض منها. فهي غير خاضعة للرسوم مادامت ملك للباي، الذي أصبح يملك سنة 1830 بعد سقوط العاصمة وأصبح أحمد باي غير مطالب بضريبة نحو الداوي فأصبح يملك 3000 بغل و600 حصان و5000 جمل و14000 صاع من القمح والشعير، وفي سنة 1839 وضعت الاعزال في المزاد العلني فارتفعت قيمتها إلى 250000 فرنك مع أن عوائد بايليك قسنطينة لنفس السنة لم تتجاوز 183938 فرنك⁽²⁾.

لقد قوض نظام البايليك بأملكه الواسعة التي تحصل عليها بطرق تعسفية باستعمال القوة العسكرية، فكثير ما انتقل الفلاح من صاحب الأرض إلى عامل بالخمسة الشيء الذي أوجد فئة اجتماعية مميزة في نشاطها وحياتها الاجتماعية لصالح البايليك، فشح الأرض والجفاف والجراد التي منيت به منطقة الشرق الجزائري لم يمنع الجباة من تعديل فرض الضرائب الشيء الذي زاد في قوة البايليك التسلطية⁽³⁾.

هذا ما استدعى في البايليك من تأجير الأراضي للفلاحين بأسعار يتفق عليها، وكانت معظم الأراضي تابعة لشخصيات لها نفوذ في السلطة وتحظى بامتيازات ومعظم تلك الشخصيات كانت من سكان المدن فوجدت تفاعل بين سكان الريف والمدينة ولقد استغلت السلطة القبائل وشيوخ الزوايا في استمالتهم لدفع الضرائب عن طريق ترضيات وامتيازات، خاصة المناطق البعيدة عن مراكز السلطة التي في كثير من الأحيان كانت متمردة أو ممتنعة على دفع المستحقات.

(1) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، م. و. ك، الجزائر، 1984، ص 334.

(2) - مرجع نفسه، ص 335.

(3) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 93.

ونفس المستحقات التي كانت تفرض على منطقة تقرت وورقلة والاعواط،⁽¹⁾ فقد تناوبت الحملات على هذه المناطق بين بايليك الغرب وبايليك الشرق، ففي سنة 1785 قام الباي محمد الكبير بحملة على مدينة تقرت وحملة الباي حسان باي بايليك الغرب وحملة الباي احمد المملوك سنة 1818 على تقرت حيث قام بقطع نخيلها وإتلاف وطمس منابع مياهها وتمكن من قطع 200 نخلة من أشجارها. وتعتبر هذه الحملات الانتقامية التخريبية تحت عنوان جباية مستحقات السلطة على هذه المناطق⁽²⁾.

3- ضرائب أملاك الوقف والأحباس: هي الأملاك الموقوفة التي خصصت لبيوت الله من مساجد وزوايا، من طرف أشخاص أتقياء وكانت غير معنية بدفع الضرائب وهي أملاك غير قابلة للحيازة بمجرد تدوينها في سجل الأوقاف، واعتمد البعض أن لا تدخل في إطار الأملاك المحبوسة عمليا إلا بعد انقضاء نسل العائلة.⁽³⁾ إن هذه الأراضي فهي فسيحة المجال قوية الإنتاج كافية السكان لكن ما يلاحظ أن معظم المساحات الصالحة للزراعة كانت بحوزة البايليك وقد تحصل عليها بطرق تعسفية عن طريق المصادرة أما لسبب تمرد وعدم انصياع القبيلة لسلطة البايليك أو للضرائب التي كانت تفرض بشكل عشوائي لا تراعي حقوق أهلها ولا نصيب الساكن عليها ولا المشتغل بها.

4- ضرائب أراضي العرش:

و هي أراضي القبائل المستعصية أو المتمردة عن نفوذ البايليك وتختص من القبائل الصحراوية والجبيلية الوعرة والمناطق الحدودية ومناطق لأوراس مثل قائل الحنانشة وأولاد سيدي يحيى بن طالب والناماشة فكانت الحملات العسكرية التي يقودها الباي على نطاق واسع يتعقبون أثناءها العشائر الممتنعة لتنتهي هذه الحملات بغنائم كبيرة وثروات طائلة مثل تلك التي قام بها حملة مصطفى الوزناجي عام 1797 على عشائر الحراكتة والتي انتهت إلى إخضاعهم والحصول منهم على غنائم كبيرة، ولم يكتفي بذلك بل أعاد الكرة مرة ثانية واستحوذ على غنائم ضخمة، مما اضطرهم إلى إعلان العصيان والقيام بثورات عديدة مثل ثورات الأوراس بين سنة 1818 إلى 1823م وجعل ذلك سببا في إضعاف السلطة في منطقة الأوراس وحملة الباي شاعر سنة

(1) - للتذكير ان منطقة الاعواط تارة تابعة لبايليك الشرق وتارة اخرى تابعة الغرب وفي بعض الاحيان يقوم الداى بتسيير حملاته عليها لانها كانت في معظم الحالات متمردة لا تدفع المستحقات .

(2) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 231.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر الفترة العثمانية، م. و. ك. الجزائر 1985، ص 87.

1817، على قبيلة النمامشة وقبيلة سيدي عبيد مما اضطر هذه القبائل على تغيير مضارباها⁽¹⁾ وحملة إبراهيم باي سنة 1822م على قبائل النمامشة واستطاع أن يستحوذ على أربعين ألف رأس من الغنم⁽²⁾، تجردها السلطة لجلب المغارم منها واتخذت السلطة كذلك الأسواق كمراكز تفرض عليهم المغارم بالإضافة لحقوق التنقل من منطقة لأخرى لسبب البحث عن الكلاً لأغنامها وماشيتها أو مناطق تصريف البضاعة عبر الموانئ⁽³⁾.

والجدول التالي بين لنا عدد الحملات العسكرية التي شنها بايات القسنطينة على قبائل الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية، ويظهر فترة حكم بعض البايات في الشرق الجزائري.

جدول بين عدد الحملات العسكرية التأديبية في الشرق الجزائري التي قم بها بايات البايليك⁽⁴⁾

فترة حكم البايات	احمد باي القلي	صالح باي	شاكر باي	احمد المملوك باي	الحاج احمد باي
1756 الى 1771	1771 الى 1792	1814 الى 1818	1818 الى 1822	1818	1826 الى 1837
04	30	100	11	19	

من خلال الجدول نلاحظ أن عدد الحملات العسكرية كانت مرتفعة وان لاحظنا في الجدول ان في عهد احمد باي القلي كانت اخف وقليلة إذا ما قورنت بأسلافه الذين جاؤوا من بعده وهذه الحملات دلالة أما ضعف شخصية الحكام أو لسياسة القبائل التي لا ترى نفعا لدفعها الضرائب لان سياسة الحكام لم تقدم ما يعوضونه للأموال أو للمؤن أو للحيوانات التي يقدمونها كضرائب وهناك تفسير آخر يمكننا إضافته ارتفاع الضرائب المفروضة اصبحت القبائل تعلن العصيان والتمرد عن السلطة.

هذه هي بعض مظاهر سياسة البايات في الشرق في عملية استخلاص الضرائب وتعتبر السلطة من حقها إخضاع المناطق التي لها القدرة على إخضاعها وسلبها ما يمكن سلبه منها، وهذه السياسة زادت من تنافر القبائل نظرا لضخامة وقوة السلب وترى السلطة أن ذلك من حقوقها، وهذا ما أشعل نار الثورة والتمرد على

(1) - نصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، مرجع سابق، ص 96.

(2) - المرجع نفسه، ص 275.

(3) - المرجع نفسه، ص 276.

(4) - مرجع نفسه، ص 568.

السلطة أواخر الفترة العثمانية في الجزائر. ونقدم جدولاً نبرز فيه عدد القبائل وعدد الجابدات لكل قبيلة وكميات الحبوب من القمح والشعير والقيمة المالية التي تشترك فيها قبائل الشرق الجزائري كضرائب لبيت مال البايليك⁽¹⁾ وهي ضرائب العشور والحكور (كراء أراضي البايليك)⁽²⁾.

جدول يبين قيمة الضرائب التي تدفعها قبائل الشرق الجزائري للبايليك⁽³⁾

الناحية الشرقية	اسم عدد القبائل	عدد الجابدات	عدد - قياسات العشور		الحكور الريال - بوجو
			القمح	الشعير	
المجموع	151	10381	10381	10381	547.137

الجدول التالي يبين لنا عدد القبائل التي كانت تخضع لجباية الضرائب لصالح البايليك، وهو عدد معتبر بحيث يمثل أكبر الباياليك عدداً في القبائل، ومن خلال الجدول يظهر لنا عدد الجابدات المسخرة للعمل الفلاحي، والقيمة العينية التي يجلبها جباة الضرائب من قيمة العشور، وهي ضريبة شرعية أقامت عليها السلطة العثمانية مستحقاتها على النشاط الفلاحي، بالإضافة إلى قيمة شغل الأراضي في الشرق الجزائري (الحكور)، من خلال هذا نستنتج قوة الاقتصاد الفلاحي في الشرق الجزائري وقوة المنطقة في المساهمة في خزينة البايليك وخزينة الأيالة.

يظهر لنا من الجدول إن عدد القبائل هائل، إذ بلغ 151 قبيلة معنية بدفع الضرائب أواخر الفترة العثمانية بمنطقة الشرق الجزائري سنة 1836م،⁽⁴⁾ وأن عدد الجابدات الهام الذي بلغ 10381 جابدة وعدد القياسات المتساوية في بين منتوج القمح والشعير، وأن ضريبة الحكور قد بلغ 137.547 ريال. لكن لم تراعى الأوضاع الاقتصادية للفتنة النشيطة في المجال الاقتصادي، وضعيتهم الاجتماعية؟

ارتباط التنظيمات الضرائبية بالإنتاج الزراعي.

(1) الحكور: تأجير الأراضي وكرائها من طرف البايليك لخدمتها وإقامة الزراعة فيها.

(2) A. M. G. H227. Notice sur La province de Constantine: postérieure à 1836

(3) - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم العثماني، مرجع سابق، ص 538 - 542.

(4) - ارزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519 - 1830) دكتوراه دولة قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006، ص 246.

وفرت مختلف أنواع الأراضي لخزينة البايليك كميات معتبرة من المحاصيل الزراعية والمالية حتى أصبحت تشكل المصدر الأساسي لدخل البايليك الشرق الجزائري وأصبحت الدعامة الأساسية التي يقوم عليها النشاط الاقتصادي بالمدن والمصدر الرئيسي لتلبية مطالب ديوان الجزائر التي ازدادت مع تناقص غنائم الجهاد البحري،⁽¹⁾ ولهذا اضطر بايليك قسنطينة أن يغطي جزءا مهما من العجز من مردود الضرائب التي يرسلها للجزائر في شكل الدنوش الفصلي أو الدنوش السنوي.⁽²⁾ يقول ناصر الدين سعيدوني: "وما دام الامر كذلك فان عودة الخليفة بقفطان الشرف كان يعبر مناسبة فرح وابتهاج يهلل لها قصر الباي، ويبعث اثناءها الباي للجزائر بهدية قيمتها 1000 سلطاني ذهبي كاعتراف بجميل الداى عليه... يضاف اليها مساهمة تقدر ب 1400 قيسة من القمح و7000 صاع⁽³⁾ من الشعير، كان البايليك يدفعها الى الجزائر عن طريق عنابة وذلك بعد ان اصبحت العادة جارية بها منذ عهد انجليز باي⁽⁴⁾. اما مساحة الأراضي المستغلة في زراعة الحبوب وعدد الجابدات الموظفة فيها ومقدار ما يؤخذ عنها لفائدة خزينة البايليك يبينها الجدول التالي.

المساحة الزراعية وعدد الجابدات ومقدار ما يؤخذ منها من رسوم للبايليك⁽⁵⁾

نوعية الأراضي	عدد الجابدات	المساحة الإجمالية بالهكتار	مقدار ما يؤخذ عليها بالقنطار
أراضي البايليك	512.13	120.135	400.702.2
أراضي العرش	515.2	150.25	000.503
أراضي الملك	500.1	000.15	000.300

فحسب هذا الجدول أن أغلب الإنتاج الزراعي وما يوفر من ضرائب يرتبط بأراضي البايليك، ويعود ذلك إلى طريقة الاستغلال لأراضي البايليك التي كانت تخضع للأسلوب المباشر، وذلك بتسخير الفلاحين عن

(1) - نفس المرجع، ص 537

(2) - نفس المرجع، ص 529

(3) - الصاع: يساوي ثلاث كيلات يساوي ثماي (08) كيلات والكيلة حجم متساوي الاضلاع، قاعدته 0.320 م³ على 0.2990 م ارتفاعه 0.047 م وسمكه 0.0173 م وحجمه 18.64 ل وبهذا يكون الصاع يساوي 149.12 ل.

(4) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص 176.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، بتصرف. صص 167-172.

طريق "نظام الخماسة"⁽¹⁾، والنظام التطوعي "التوزيع"، أو طريق إقرار قبائل تعمل لفائدة البايليك في أراضي العزل مقابل حمايتها من منافسيها من القبائل الأخرى، ومثالنا على ذلك قبيلة القرفية التي اضطرتها القبائل الأوراس إلى الالتجاء لخدمة أراضي البايليك، مقابل سد حاجاتها من الغذاء وهذا ما وفر مدا خيل زائدة للبايليك، ففي أراضي العزل كان مردود الجابدة (الزويجة)⁽²⁾ الواحدة لا تقل عن 90 فرنك سنويا، وهي قيمة صاع من القمح (35 ف) وصاع من الشعير (15 ف) وحمولة تبن (15 ف) وبعض المطالب الأخرى المقدرة ب (35 ف)، وهذا ما يجعل المردود الإجمالي لعزل البايليك يصل إلى حوالي 1.173.600 ف إذا علمنا إن هذا العزل يصل إلى ما يقل عن 13.512 جابدة⁽³⁾.

يلاحظ محمد الصالح العنزي أن أسعار الحبوب قد ارتفعت أثناء الأزمة الحادة التي أصابت الشرق الجزائري (قسنطينة وأعمالها)، بسبب قلة العرض وكثرة الطلب على الحبوب ثم أخذت تنخفض شيئا فشيئا بعد ذلك حتى عادت إلى مستواها الطبيعي سنة 1808م، وأن أسعار الغلال قد استمرت على رخصتها، وأن العناية بالفلاحة في الفترة التركية كانت ضعيفة جدا، لذلك لم يكن رصيد كاف من الحبوب لمواجهة الأحداث الطارئة.

ثم عقد مقارنة طفيفة بين العصر التركي والعصر الفرنسي فيما يخص ارتفاع الأسعار، ومدى القوة الشرائية للنقود فذكر أن الإنسان الذي لم يدرك العصر التركي، ولم يشاهد نشاطه الاقتصادي وما يتصل به من

(1) نظام الخماسة: نظام عرف منذ القدم لكنه انتشر في الجزائر وزاد انتشاره في الفترة الأخيرة للحكم العثماني في الجزائر نظرا لظهور طبقة من ملاك الأرض عن طريق الامتيازات وخاصة ذوي النفوذ ويرتبط بطابع استغلالي لفئة السكان المعوزين والذين ليس لهم أراضي يفلحونها، وهو قائم على ان صاحب الأرض يمنح البذور ويساهم في الحرث واما العمل فيقوم به الخماس الذي يكون نصيبه الخمس من الانتاج المحصل بالإضافة الى نزع مصاريف الانتاج الذي يكون على الخماس مثل عملية نقل المنتج الى صاحب الأرض.

(2) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي في أواخر العهد العثماني، ص 119، ان الزويجة تقدر بالجزائر الوسطى ب 12 هكتار في السهل و 07 هكتارات في الساحل و 05 هكتارات في الجبل كما ان الجابدة في بايليك الشرق تقدر ب 15 هكتار حسب تقديرات فايسات.

(3) - سعيد بوخاوش، الاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، دار تفتيل طباعة ونشر واتصال، الجزائر 2013، ص

أمور المعاش والكسوة والكسب ورخاء الأسعار، وسمع ما روى عنها في ذلك، ويتسرب إليه الشك ويسارع إلى الطلب مع إن ذلك حقيقة واقعة يشهد لها بالصحة رواها الكثيرون⁽¹⁾.

وقد استشهد على ذلك براتب الرجل العسكري في تلك الفترة، وقارنه بما كان عليه الأمر في الفترة الفرنسية فقال: «إن الرجل العسكري في الفترة التركية كان له راتب سنوي يأخذه من باشا الجزائر، وقدره مائة (100) ريال جزائري وكان يكفيه لشراء ما يلزمه من قمح وسمن وخليع وزيت وكسوة وكراء مسكن وغير ذلك، وربما ادخر من ذلك شيئاً إن كان يحسن الاقتصاد». وكان الرجل الموظف في الفترة التركية يقضي حاجات كثيرة بعدد قليل من النقود كمائة (100) ريال مثلاً. فقد ارتفعت الأسعار كثيراً، وصارت القوة الشرائية لمائة ريال تركية لا تعادلها مائة فرنك فرنسية، وإنما يعادلها ألف فرنك، وفي هذا دليل على ارتفاع الأسعار وغلائها في زماننا هذا يعني سنة 1805 وبصورة مفرطة في سائر الأشياء ولم تعود إلى مكانها إلا في سنة 1808⁽²⁾.

ثانياً: ضرائب ورسوم الحواضر في الشرق الجزائري

تعتبر مدينة قسنطينة النموذج في تنظيم المدن في الفترة العثمانية، لما شهدته من هياكل تنظيمية ومؤسسات حيوية في النشاط الاقتصادي الصناعي وفي المبادلات والمعاملات التجارية، هل ذلك راجع لأنها مقر سلطة الباي في الشرق الجزائري؟ أو لظروف اقتصادية واجتماعية أهلتها لذلك؟ وتعتبر المدينة مثال لضغط مؤسسة الضرائب فيها، وقوة هذه المؤسسة (مؤسسة الضرائب) تكمن في تلك التنظيمات للفئات النشيطة فيها. نظراً للامتيازات التي يحضى بها من يتولى هذه الوظيفة، وان العملية وان كانت مضبوطة من الناحية النظرية ولكن من الناحية التطبيقية كانت تخضع للاهواء في كثير من الحالات⁽³⁾.

لقد كانت فئات النشاط في مستوى رفيع من التنظيم، حيث نجد كل مهنة مهيكلة في شكل نقابة ولكل منها مسؤول (نقيب) أمام الباي عليها، هذا النظام المحكم جعل المدينة في منأى عن الاضطرابات والثورات بالرغم من عدم تجانس الفئات الاجتماعية المشكلة للنسيج البشري فيها. فالسؤال المطروح هو: ما هي مداخيل بيت مال الباي من المدينة؟ وما هي أهم الضرائب المفروضة على سكانها وأنشطتهم الحرفية والتجارية؟

رسوم النقابات المهنية والدكاكين التجارية:

(1) - محمد الصالح العنتري، مجامع قسنطينة، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1984، ص 13.

(2) - نفس المرجع السابق، ص 14.

(3) - محمد امين، مرجع سابق، ص 102.

تم تنظيم المهن في الشرق الجزائري في شكل نقابات وهذا ليس في الشرق الجزائري، ولكن معمول به في كل مدن الأيالة، خاصة في عواصم الباياليك، إن لكل مهنة نقابتها وعلى رأس كل نقابة رئيس يدعى بنقيب الحرفة، التي يتولى الإشراف عليها ويكون من أهل الاختصاص في الحرفة⁽¹⁾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) - مرجع سابق 207.

المبحث الرابع: التجارة الخارجية في الشرق الجزائري (الصادرات والواردات)

من الأسس التي تعتمد عليها التجارة هي السلع، بالإضافة إلى ذلك وسائل النقل بشتى أنواعها، وفي الأخير الأسواق التي تسوق لها البضائع، فهل توفرت هذه المعايير في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية؟ والشرق الجزائري له اراث تاريخي في التجارة الخارجية منذ الفترات القديمة، وأساس ذلك الطرق الأساسية التي تربط المغرب العربي بالشرق، وهي الطرق الأفقية التي تمر في الفضاء الجغرافي للشرق الجزائري، بالإضافة إلى الطرق العمودية التي تربط شمال البايليك بجنوبه ومنه إلى الصحراء الكبرى وإفريقيا الوسطى، ولقد أشرنا لذلك في موضوع المسالك في الشرق الجزائري.⁽¹⁾

أما السواحل البحر المتوسط فهي واسعة من الحدود أيلة تونس إلى بجاية غربا، ولقد وجدت فيها موانئ ومرافئ قديمة النشاط ومعروفة لدى البحارة والتجار، إن مرافئ القالة وموانئ عنابة واسطورة (سكيكدة) وجيجل وبجاية ومرافئ أخرى؛ دلالة على قدم النشاط البحري للشرق الجزائري. وإن الاتساع في المجال الجغرافي للشرق الجزائري جعله يستقطب أهمية بالغة في التجارة الخارجية؛ نظرا لقربه من أوروبا عبر البحر وللمشرق العربي برا وبحرا وإلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

لقد كان للتطور الذي شهدته أوروبا نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر اثرا بارزا في تطور التجارة في الشرق الجزائري والبحر المتوسط، وذلك بظهور شركات عالمية مثل الشركة الملكية الإفريقية، وظهور شركة بكري وبوجناح التي انتقل نشاطها أثناء الثورة الفرنسية⁽²⁾، وذلك لتلبية طلبات الدول الأوروبية من الحبوب التي كانت تسوق من الشرق الجزائري⁽³⁾، لم يتمكن الجزائريون من تكوين أسطول تجاري بحري على

(1) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق ص 167.

(2) - أنشئت هذه الشركة بأمر ملك الفرنسي الذي صدر يوم 1741 - 8 - 25 و توقفت عندما خلقتها الوكالة الإفريقية يوم 7 - 2 - 1794، واستغلت فرنسا هذه الوكالة من سنة 1794 إلى سنة 1799 عندما وقعت الحملة على مصر، وأعلنت ابالات المغرب الحرب ضدها وبعد وقوع السلم اتخذ قناصلة الجمهورية قرارا يقضي بحل الوكالة، وظلت التجارة في فوضى إلى أن أعطيت الامتيازات انكلترا سنة 1807، وفي سنة 1817 استرجعت فرنسا الامتيازات وأنشأت وكالة مؤقتة تحت إشراف السيد Faurrat عامل عمالة مصب الرن، دامت من سنة 1818 إلى سنة 1822 بعدها جاءت مؤسسات باري فظلت قائمة رسميا إلى أن وقع الاحتلال الفرنسي للجزائر.

(3) - EMERIT (Marcel), "la situation Economique de la régence d'Alger en 1830", information historique N° 5, P 171.

النمط الأوربي، رغم كساد سلعهم في الفترات التي كانت تعقب سوء العلاقات الجزائرية الفرنسية، إلا أن التجارة في هذه الفترة كانت محتكرة من طرف اليهود الأوربيين ويهود الجزائر⁽¹⁾.

لقد حظي يهود الجزائر بمكانة هامة لدى الداي⁽²⁾ الجزائري، نظرا للنشاط التجاري الذي يحضون به، بسبب الضغوط عليه أن يطلب من السلطات الفرنسية ان تمنح لهم حق فتح محلات تجارية في الموانئ الفرنسية⁽³⁾، الشيء الذي منح اليهود حرية واحتكار التجارة في أيالة الجزائر والشرق الجزائري، وهذا ما أدى إلى انخفاض الأسعار للمواد المصدرة، وارتفاع أسعار المواد المستوردة في الشرق الجزائري.

لقد حظت بعض المواد الأساسية بالرواج في الأسواق الأوربية نظرا لجودتها ونوعيتها وانخفاض أسعارها، ومنها الحبوب بشتى أنواعها وعلى رأسها القمح والشعير والبقول الجافة والمرجان والعسل والزيت والشمع والجلود والصوف فكانت مركز هام لتموين أوروبا⁽⁴⁾.

أما واردات الشرق الجزائري؛ فكانت تتمثل في الملابس والأقمشة القطنية والحريية والتوابل، ويقوم بهذه العملية يهود من الليفوريين، وللجزائريين ممثلون في الموانئ الأوربية يتمتعون بحماية من الباي في قسنطينة وداي الجزائر⁽⁵⁾، يتقنون اللغة العربية ويعرفون عادات وتقاليد السكان في الشرق الجزائري⁽⁶⁾، وسوف نتطرق الى المعاملات التجارية التي كانت بين الشرق الجزائري وأهم المراكز الأوربية والعربية والإفريقية.

العلاقات التجارية مع الدول الإفريقية:

إن العلاقات الاقتصادية بين الشرق الجزائري والدول العربية، كانت قائمة منذ عهود غابرة، ارتبطت بشأن المصلحة المتبادلة ونشأت على أثرها روابط أصبحت تقليدية نظرا لظروف وعوامل مشتركة، من بينها التاريخ

⁽¹⁾ - ورد في محفوظات ايكس (S/S3 Bn° 1044) نوع من التعاقد حول عمليات النقل بين السيدين بكري وكبير هذا نصه: "يتعهد وكيل بكري في مرسيليا بأن موكله يحمل 222 كافي من القمح على متن باخرى سويدية، إذا ما حدثت كارثة يسأل عنها وإلا فإنه يحصل على مبلغ الكراء".

⁽²⁾ - EMERIT (Marcel), "Essai d'une marine, marchande barbaresque", cahier de Tunisie, N° 11, 1955, P 369.

⁽³⁾ - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 90.

⁽⁴⁾ - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم العثماني، الامعية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر 2013، ص 524.

⁽⁵⁾ - Elisabeth, "les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque 1516 1830" R. A. T 96, P 274.

⁽⁶⁾ - EMERIT marcel ; "la situation économique . P 171.

المشترك والحوار والامتداد الطبيعي، الذي سهل عملية التلاحم والتواصل والتبادل، والمصلحة اقتضت أن تكون علاقات اقتصادية متبادلة، فتعتبر تونس التي أراضيها متاخمة للجزائر أهم شريك اقتصادي خاصة المبادلات والمعاملات التجارية، والسوق الشرق الجزائري هو امتداد للأسواق التونسية والمصرية والسودان، وحتى منطقة الحجاز التي تعتبر ركيزة الأسواق الإسلامية وخاصة في موسم الحج.

العلاقات التجارية مع تونس:

تشارك تونس في حدودها مع الشرق الجزائري عن طريق البر والبحر، وهذا ما مكن تنقل التجارة بين الإقليمين، فتوجد مراكز تجارية هامة تنطلق منها القوافل من الشرق الجزائري نحو تونس، ونعتبرها الحواضر الكبرى للشرق الجزائري، وتتمثل في سوق مدينة قسنطينة وسوق مدينة الوادي وسوق مدينة تقرت وسوق مدينة ورقلة، فكل سوق مدينة في الشرق الجزائري مرتبط بسوق مدينة في تونس، نظرا لتحكم الطرق الرئيسية في ذلك، نلاحظ أربعة طرق أفقية تنطلق من الشرق الجزائر لترتبط بالمدن المقابلة لها في تونس، وأهم هذه الطرق هي:

أولا: طريق قسنطينة الخروب ثم واد الزناتي وسوق أهراس ليصل إلى مدينة الكاف ومنها إلى تونس العاصمة، فكانت تنطلق القافلة من قسنطينة لتصل بعد خمسة وعشرين يوما حاملة الصوف والتمر والجلود والشواشي، لترجع محملة بالمنتجات الأوربية مثل التوابل والقهوة والسكر والأقمشة الحريرية وبعض حاجيات الحرف المهنية، وقدرت القافلة في كل شهر تتجه نحو تونس ب 300 بغل وكانت أرباحها مرتفعة تفوق رأسمالها وتقدر فوائدها ب 500000 فرنك شهريا⁽¹⁾.

ثانيا: طريق الوادي نحو قفصه⁽²⁾ ونفطه⁽³⁾، وهو طريق قريب تتوفر فيه المياه، ولا يستلزم سوى خمسة أيام إلى قفصه وثلاثة أيام إلى نفطه، ويعتبر سوق مدينة الوادي من أكبر الأسواق، لأنه يربط واحات النخيل والمنتجة للتمور من الأنواع الممتازة وصناعة المضلات من جريد النخيل، وصناعة المنتجات الصوفية، ومنتوج التبغ، وتعتبر تونس وأسواقها أقرب إلى مدينة وادي سوف من تعاملها مع مدينة قسنطينة، لان السلع الأوربية نهاية الفترة العثمانية تدفقت على تونس بسبب الاستقرار الأمني فيها وانفتاحها نحو التجارة الأوربية، هذا ما

(1) - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 155.

(2) - قفصة: مدينة تقع جنوب غرب تونس لها ارتباط اقتصادي واجتماعي مع المدن الشرقية الجزائرية خاصة الاوراسية وكانت القوافل تنتقل باستمرار بين المدن السهول العليا في الجزائر وخاصة ركب الحج الذي يمر في هذا الخط الذي يربط مدن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومنها نحو مصر.

(3) - نفطة: وهي مدينة تونسية تقع الى الجنوب الشرقي لمدينة قفصة ولها دور في التبادل الاقتصادي والحياة الاجتماعية.

عبر عليه لويس رين وكاريت ومارسيه أما أم المنتجات المسوقة إلى تونس، فهي ذات إنتاج محلي مثل الصوف والتبغ والتمر ويستوردون العطور والقهوة والتوابل والمصنوعات الأوربية الحرفية.

ثالثا: طريق تقرت نحو بسكرة إلى غدامس. وهو طريق قصير المسافة، وتستغرق الرحلة خمسة أيام لنفطه، وتعتبر تقرت أهم الأسواق منطقة الجريد، ومدينة رينغ لها من المكانة في تجميع ثمانية وثلاثون قرية، وهي تربط بين ورقلة ووادي سوف وبسكرة، وأهم صادراتها التمر والأقمشة الصوفية، ويجلبون من الأسواق التونسية العطور والتوابل والأقمشة القطنية المستوردة من أوروبا.

رابعا: طريق ورقلة نحو غدامس طريق صعب المنال رغم قصره يقطع في عشرة أيام في وسط الرمال، في غدامس يلتقي تجار الشرق الجزائري وتجار تونس وخدامس (لبيا) والسودان، وأهم مبادلاتهم هي التمور والأقمشة القطنية والحريرية والزيت والأسلحة، وتستبدلها بالتبر والعبيد وريش النعام والعاج والبخور والتوابل، ولكي تكون الصورة أوضح ندرج جدولاً يبين المعاملات بين تونس والشرق الجزائري.

جدول المبادلات بين الشرق الجزائري وأيالة تونس⁽¹⁾

الأسواق	المقصد	المواد المصدرة	المواد المستوردة
قسنطينة	تونس	الصوف، الجلود المدبوغة، التمور	المصنوعات الأوربية، العطور، التوابل، القهوة، الأقمشة القطنية والحريرية
الوادي	قفصه نفطه	التبغ، التمور	مواد بزازة، عطور، الأقمشة الحريرية، الأسلحة، الكبريت
توقرت	نفطه غدامس	الأقمشة الصوفية والعادية، المضلات، المواد العطرية، التمور، الحبوب، الزيوت،	الأقمشة القطنية، العطور، المصنوعات الأوربية، التبر، العبيد، ريش النعام، البخور السوداني
ورقلة	نفطه غدامس	الأقمشة الحريرية والقطنية، التمور، الحبوب، الزيوت، الأسلحة وأواع من العملة	التبر، العبيد، العاج، البخور السوداني منتجات افريقية

المرجع : محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري مرجع سابق، بتصرف

(1) — محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري مرجع سابق

من خلال الجدول يتبين لنا أن المبادلات بين الشرق الجزائري وأيالة تونس؛ كان تجار قسنطينة يتوجهون إلى تونس حيث يبيعون التمر والصوف والجلود المفتوحة والمدبوغة وريش النعام والتبر، ويجلبون منها الأقمشة المطرزة، وتقدر هذه التجارة شهريا بحوالي خمسمائة ألف (500000) فرنك⁽¹⁾، وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن التجارة التونسية الجزائرية تستعمل سنويا رأسمال يقدر بحوالي ستة ملايين فرنك، وهو مبلغ لا يقل أهمية عن رأسمال المؤسسات الفرنسية، التي يعتقد مؤرخوها أنها كانت تحتكر جميع أنواع التجارة الخارجية في الجزائر⁽²⁾، وارتكزت في صادراتها على المبادلات ذات الإنتاج الزراعي المحلي، مثل التمور والجلود والتبغ والمنتجات الصوفية وغيرها من المواد القليلة الأخرى، أما واردات تونس نحو الشرق الجزائري، ارتكزت على العطور والتوابل والأقمشة الحريرية والقطنية ذات الإنتاج الأوربي، وهنا يمكننا أن نستنتج ما يلي:

- أن تونس كانت أكثر انفتاح على الأسواق الأوربية من الشرق الجزائري.
- إن أهم المنتجات التي تصدر هي ذات طابع فلاحي ليس هناك مواد مصنعة.
- أن المدن الصحراوية بفضل قربها لتونس ولمدتها كانت لا تحتاج إلى شمال البايليك وهذا بين لنا العلاقة بين السلطة في الشرق الجزائري كانت غائبة أو منعدمة في منطقة الجنوب. فلا تستفيد من نشاط هذه المنطقة لذلك كانت تسير لها حملات تأديبية عقابية من طرف سلطة الباي.

أما النوع الثاني من التجارة الخارجية فهو ذلك الذي يقوم به الأهالي عن طريق البر إلى تونس والمغرب وبلاد السودان، وأيالة طرابلس والحجاز، ويتم بواسطة قوافل تسيرها وتحميها قبائل مختصة في هذا الميدان أشهرها في جنوب قسنطينة الطوارق الشعابنة والخنافسة⁽³⁾، والمواد المتداولة خليط من الضروريات والكماليات، فتصدر الجزائر إلى هذه البلدان الحبوب والأغنام والشحوم والخضر اليابسة والزيوت والتمر والأقمشة الصوفية والمظلات والمرجان، وكذلك بعض المواد الأوروبية والمشرقية. وبالمقابل تستورد العبيد والتبر والحناء وحجر الشب وملح البارود والبخور الأسود والحمير المصرية، والزعفران والورق والحرير والعطور وتبغ المشرق، وشواشي تونس وجلود المغرب وبعض المواد الأوروبية.

⁽¹⁾ - Mauroy (M) Du commerce de l'Afrique septentrionale, P 163.

⁽²⁾ - EMERIT (Marcel), "la situation Economique de la régence d'Alger en 1830", information historique N° 5, P 172.

يقول المؤلف: للجزائر إمكانات كبيرة، لكنها لم تستغلها لأنها لم تكن تملك زمام تجارتها الخارجية.

⁽³⁾ - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 58.

التجارة مع السودان: أما عن العلاقات التجارية مع السودان، فإن أغلبية القوافل التي تأتي من داخل إفريقيا إلى قسنطينة؛ لم تكن فروع عن التي تتوجه إلى تونس وطرابلس⁽¹⁾، ولكن موروا Mauroy يؤكد بأن واحة توات الواقعة في الغرب الجزائري هي أهم مركز تجاري لجميع دول المغرب والسودان⁽²⁾.

وأخيرا، وفيما يخص تجارة قسنطينة مع المغرب؛ كان تجار بني ميزاب وورقلة وبسكرة وقسنطينة يمدون نشاطهم إلى فأس ومكناس وتطوران وفجيج، حيث يحملون الحرير المنسوج والفضة والخردوات وأدوات الزينة، ويجلبون منها ومن سجلماسة القديمة المواد الجلدية والخيول والجلود⁽³⁾.

أما الطرق التي تتبعها القوافل في نقلها مختلف البضائع من وإلى هذه البلدان الأربعة فكثيرة، بعضها ثابت والبعض الآخر يتغير بتغير الطبيعة، ووفقا لتنقلات القبائل المسيرة. ونحن إذا تأملنا في حركة التجارة الدائبة، وجدنا أن المسالك المتبعة نوعان: أحدهما أفقي من الشرق إلى الغرب والعكس، والثاني رأسي يأتي من أعماق السودان إلى الشمال، ومن أسواق المدن التي تقع في المنطقة التلية إلى غاط⁽⁴⁾ وتومبكنو⁽⁵⁾ وأغادس⁽⁶⁾ وكانو⁽⁷⁾.

الصادرات بين موانئ الشرق الجزائري وفرنسا:

تعتبر فرنسا أهم شريك تجاري مع موانئ الشرق الجزائري، ويرجع ذلك لظروف تاريخية، بحيث تعتبر أول دولة حققت على امتياز اقتصادي واجتماعي من السلطان العثماني سليمان القانوني، وتطورت العلاقات

(1)- EMERIT (Marcel), LE TRAFIC SAHARIEN DANS LA RÉGENCE D'ALGER, travaux de l'institut de recherches saharienne, TKI, 1^{er} TR. 1954. P 38.

(2)- محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 112.

يقول المؤلف: "التوات هي المركز التجاري لجميع دول المغرب، يجتمع فيها جميع القادمين من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب والمتجهين إلى السودان".

(3)-Carotte (E), exploration scientifique de l'Algérie pendant les année 1840-41-42 PARIS, imprimerie royale, 1842, P 96.

(4)- مركز تجاري هام، كانت عاصمة من عواصم التوارق وهي الآن مدينة في صحراء ليبيا.

(5)- كانت مركزا تجاريا هاما على نهر النيجر، وتقع الآن في جمهورية مالي

(6)- مدينة كبيرة تقع الآن في بلاد النيجر حاليا، وقد كانت عاصمة أخرى من عواصم التوارق ويقول كاريت أنه لا يمكن للقافلة أن تتوجه إلى كانو إلا إذا دخلت أغداس تدفع الضريبة للسلطان.

(7)- مدينة كبيرة في بلاد السودان (نيجيريا حاليا) ومركز تجاري هام، تفصلها عن أغداس مسافة شهر.

الجزائرية العثمانية الاقتصادية بين التعامل والانقطاع، وذلك وفق العلاقات السياسية والاتفاقيات التي كانت تربط بين الدولتين، إلا أننا نجد هذه العلاقات أصابها فترات من التوتر والسلم، فأوجدت لذلك مؤسسات احتكرت العلاقات التجارية ومتعاملين متنوا علاقاتهم مع حكام الواجهة الشرقية لإيالة الجزائر، وراجت تجارة المواد الإستراتيجية وعلى رأسها الحبوب والصفوف والجلود والشمع وغيرها من المنتجات ذات الطابع الاستهلاكي لأوروبا، خاصة الموانئ الشمالية لفرنسا وسواحل إيطاليا.

صادرات الحبوب:

والمقصود بالحبوب هنا القمح والشعير والبقول والحمص، أي كل المواد الضرورية للغذاء اليومي، التي تسعى جميع الدول لتوفيرها في بلدانها لأنها تعتبر عنوان الخير والرفاهية، ويعد الشرق الجزائري قبيل الاحتلال من أكبر المناطق إنتاجا للحبوب⁽¹⁾، إذ يصدر منه كميات ضخمة إلى مختلف المقاطعات في جنوب أوروبا وخاصة مناطق الوسط الفرنسي التي لولا تدفق القمح الجزائري عليها، أثناء حروب الثورة الفرنسية، هلكت من الجماعة⁽²⁾.

وإذا كانت حركة البيع والشراء، في مادة الحبوب، تخضع إلى وضع المحاصيل المختلفة، فإن الشركة الملكية الإفريقية هي التي كانت تحظى، في مقاطعة قسنطينة بجميع الامتيازات في ميدان التسويق، حتى أنها صارت تعتبر تجارة موانئ الشرق الجزائري من اختصاصها وحدها، ولا يحق لأية هيئة أخرى أن تتعاط فيها هذا النوع من النشاط⁽³⁾. ولقد سمح لها هذا الوضع الممتاز بأن تتحكم في أسعار الصادرات الجزائرية، وأن توجه الحبوب إلى الموانئ الأوروبية التي تختارها هي وفقا لمصالحها الخاصة⁽⁴⁾.

ولكن سلطات الجزائر تفتنت سنة 1792، وصارت تسمح للتجار الاسبانيين والانكليز واليهود وغيرهم بشراء القمح والشعير من عنابة والقالة، وفي هذا الصدد تقول إحدى الوثائق: «لقد علمنا أن الاسبانيين قدموا إلى عنابة وحصلوا على إذن لشراء الحبوب، وأنهم يتابعون مع الباي مباشرة، وأن بواجرهم

(1) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق 426.

(2) - محمد العربي الزبير، مرجع سابق، ص 111.

(3) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 513.

(4) - ANP F 80 1670, renseignements généraux réunis en vue de l'expédition.

تقول الوثيقة: «إن كل هذه القمح التي تشتريها الشركة لا ترسل إلى فرنسا وحدها وإنما تزود بها التجار الجنوبيين والكاتالين وجزر البايار».

المتعددة تحمل ما يباع إليهم، ونتيجة لذلك لم نحصل على المقدار المنصوص عليه في الاتفاق المبرم في الجزائر»⁽¹⁾.

إذا كان الباي قد فضل التعامل مع تجار آخرين بعد أن آلف ممثلي الشركة فلأنه قد لاحظ، بدون شك، أن الأسعار تختلف كثيرا، ولأن مصلحة الأهالي المنتجين تكمن في خلق التنافس بين الشركات التجارية المختلفة. ولذلك، فعندما احتجت الشركة الملكية الإفريقية وطالبت بإبقاء الاحتكار أجاب باي قسنطينة بأن "الحبوب ملك لنا ونحن نبيعها لمن نريد"⁽²⁾.

وعندما أيقنت إدارة الشركة بأنها لم تعد قادرة على مواصلة استغلال ثروات المقاطعة أذعنت للأمر الواقع، وأبرمت في الثامن والعشرين من جويلية سنة 1792 معاهدة مع الباي⁽³⁾، تشتري، سنويا، بمقتضاها 4000 كافي⁽⁴⁾ من القمح على سعر 32 بياستر للكافي الواحد⁽⁵⁾.

يعتبر هذا الموقف تنازلا كبيرا من جانب الشركة إذا علمنا أنها كانت ترسل سنويا، إلى مرسيليا وحدها "ما يزيد عن 80 ألف حمولة"⁽⁶⁾ من القمح، و20 ألف حمولة من الشعير⁽⁷⁾. وإذا قرأنا أن احتكارها للحبوب للحبوب كان يدر عليها أرباحا طائلة تقدر في بعض الأحيان بثمانية أضعاف ثمن الشراء⁽⁸⁾. وهي الآن مضطرة إلى أن تتفاوض مع باي قسنطينة لتحديد الكمية، ولضبط الأسعار على أساس ما يدفعه الغير، وكذلك للتنافس مع الاسبانيين واليهود والايطاليين على الرغم من الهدايا التي تقدم للباي وللباي وغيرهما من الأعيان⁽⁹⁾.

هكذا صارت الشركة، ومن بعدها الوكالة الإفريقية، تتصارع مع الهيئات التجارية الأجنبية الأخرى لتحصل على مقدار معين من الحبوب ترسله إلى مرسيليا توزعه على عمالات الوسط الفرنسي، ولم يكف هذا

(1) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 86.

(2) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 88.

(3) - Féraud (Ch.), histoire de la calle, Alger 1874, P 444.

(4) - الكافي يساوي 350 كلغ على حسب ما ذكره السيد طيوال في كتابه: مرسيليا والجزائر.

(5) - البياستر يساوي 5 فرنكات في ذلك الوقت.

(6) - الحمولة = قطار و20 كلغ حسب نفس المصدر.

(7) - نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 514.

(8) - ANP. AE B3 301, lettre N° 17 écrite par Mr Piéron, agent principal des concession à l'agence de Marseille, le 18 fructidor An 5.

(9) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 116.

الوضع الذي آلت إليه هذه المؤسسات الفرنسية، وإنما تكاثرت عليها المشاكل: فرفض البحارة المساهمة في الأسفار، وتماطلت الحكومة في إرسال الأموال الضرورية للقيام بعملياتها التجارية، لأن خزينة الدولة لم تعد قادرة على تحمل النفقات، وانعدام الأمن نتيجة رد فعل المهاجرين الفرنسيين وتحالف الاسبانيين والانكليز ضد فرنسا⁽¹⁾، كل ذلك بالإضافة إلى ما تقدم حد من نشاط الوكالة، حتى أنها عجزت عن المقاومة وأينها سنة 1796 تترك عملياً، مكانها لشركة بكري وبوجناح ترسل الحبوب إلى فرنسا وتمون جيوش بونايرت في إيطاليا⁽²⁾.

لئن كانت الوكالة قد استسلمت رسمياً لليهود، سنة 1796⁽³⁾، وصارت تلجأ إليهم في القيام بسائر أنواع أنواع نشاطها، فيكثرون لها السفن الأجنبية، ويرافقون الشحنات إلى مقاصدها لكي لا تتعرض لحجز الاسبانيين والانكليز والمهاجرين، فإن ظهورهم الفعلي على مسرح تجارة الحبوب يرجع إلى سنة 1792، عندما قرر الباي أن يسمح لهم ولغيرهم من التجار بمنافسة المؤسسات الفرنسية كما أشرنا إلى ذلك.

تذكر بعض المصادر أن بكري وبوجناح قد أرسلوا إلى فرنسا، من سنة 1793 إلى سنة 1798، كمية من الحبوب يقدر ثمنها بحوالي 15 مليون فرنك⁽⁴⁾، وإذا علمنا أن سعر القنطار من القمح كان يتراوح ما بين 20 و30 فرنكاً⁽⁵⁾، عرفنا أن اليهود كانوا يصدرون سنوياً إلى فرنسا، في هذه الفترة، كمية تتراوح ما بين 100 و130 ألف قنطار من القمح. وهذا بالإضافة إلى ما كان يصدر باسم الوكالة الإفريقية، وهي كميات كبيرة جدا إذ أن الحبوب التي وصلت إلى مرسيليا من هذه المؤسسات في سنة 1793، وحدها يتراوح ما بين مائة وعشرين ومائة وثلاثين ألف قنطار.

هكذا فإن مجرد عملية حسابية تبين لنا معدل ما استوردته مرسيليا سنوياً من موانئ الشرق الجزائري، في الفترة المذكورة، يتراوح ما بين 230000 و260000 قنطار من القمح. ولكن الممثل الرئيسي للوكالة يذكر في أحد التقارير التي كتبها؛ ضرورة استعادة الوكالة بعد أن توقف نشاطها على أثر الحملة الفرنسية ضد مصر، وأن المؤسسات الفرنسية في الشرق الجزائري ترسل إلى فرنسا، في كل سنة ثلاثمائة ألف قنطار من القمح

(1) - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 119.

(2) - Masson (Paul), Marseille depuis 1789 , P 538.

(3) - IBDEM, 54.

(4) - محمد العربي الزبير، مرجع سابق ص 102.

(5) - ANP. AE B3 301, Mémoire sur la cie royale d'Afrique, lettre de Mr Duval consul général de France à Alger, le 29. 08. 1815.

وأربعين ألف قنطار من الشعير والبقول والحمص⁽¹⁾ وزيادة على ذلك، فإن الوثائق المعاصرة تثبت أن أربعين في المائة (40%) على الأقل، من الحبوب التي تدخل إلى مرسيليا في السنوات العادية تستورد من الشرق الجزائري⁽²⁾.

لقد ظلت الوكالة الإفريقية قائمة إلى سنة 1799، وهو تاريخ الحملة ضد مصر وبعد الصلح، أعادت الأيالة جميع الامتيازات إلى فرنسا، واستأنف التجار نشاطهم بين مرسيليا وموانئ قسنطينة. ولكن تماطل السلطات الفرنسية في دفع ما عليها من ديون جعل الجزائر تلغي، سنة 1806، جميع المعاهدات التي كانت أبرمتها مع فرنسا فيما يخص شراء الحبوب، ثم سلمت المؤسسات، بعد ذلك ببضعة أشهر إلى انكلترا مقابل أحد عشر ألف (11000) جنيه إسترليني⁽³⁾، وأخصت شركة بكري وبوجناح باستغلال موانئ القل وجيجل وبجاية. وبذلك صارت فرنسا مضطرة إلى شراء قمح قسنطينة، التي هي في حاجة أكيدة إليها، عن طريق اليهود الليفرونيين.

في سنة 1817 أعيدت المؤسسات، مرة أخرى، إلى فرنسا⁽⁴⁾، واستأنفت الحبوب طريقها مباشرة إلى مرسيليا ولكن بكل صعوبة نتيجة تكاثر المنافسين وعزم السلطات الجزائرية على منح حق التجارة في موانئها لكل من يريد ذلك من الأجانب، ثم أصيبت المنطقة بالأوبئة تحتاحها من حين لآخر من سنة 1817 إلى سنة 1822⁽⁵⁾، فزهدت السكان في الحياة وأضعفت عددهم⁽⁶⁾، فضعفت الفلاحة من جراء ذلك وانخفض إنتاج الحبوب، وبالتالي قل بيعها إلى الخارج. لكي لا تتحمل الحكومة الفرنسية مصاريف الوكالة، تركت

⁽¹⁾ - Masson(Paul), Marseille depuis. op Cit, P 513.

⁽²⁾ - صالح عباد، مرجع سابق، ص 263.

⁽³⁾ - ANP. AE B3 287, Entrées des blés a Marseille 1781. 1791, LETTRE A MR PEIRON écrite en 1792.

⁽⁴⁾ - Achm, FIX (dossier Algérie avant 1830, rapport sur les concessions d'Afrique.

⁽⁵⁾ - انظر تفاصيل هذا الحادث في الفصل الخاص بالهينات الأجنبية.

⁽⁶⁾ - Guyau (M) , histoire de la peste en Algérie, le moniteur algérien 1834, N° 106-116. Valensi (Lucette) le Maghreb avant la prise d'Alger, Flammarion, 1969, P 22.

يذكر المؤلف أن الطاعون اجتاح الجزائر مدة أربع سنوات متتالية وأنه لوحظ في مدينة عنابة سنة 1818 أن ثلثي المنازل صار مغلقا.

استغلال المؤسسات إلى أحد الخواص على أن يدفع للجزائر الإتاوات المتفق عليها⁽¹⁾، وستظل تجارة الحبوب مضطربة على هذا النحو إلى أن يقضي عليها نهائيا عندما تعلن فرنسا، سنة 1827، حصارها على الموانئ الجزائرية ومن جعلتها موانئ قسنطينة.

الجلود:

لقد كان الشرق الجزائري يشتمل على كثير من الأراضي الخصبة الشاسعة والمراعي التي تكثر فيها أنواع المواشي، وخاصة منها البقر الذي كان يزيد عن الكفاية فيصدر منه إلى الخارج.⁽²⁾ هناك دليل على ازدهار الثروة الحيوانية في هذه الناحية، نستخرجه من القانون المحلي الذي تخضع إليه القبائل في حياتها اليومية⁽³⁾، وينص هذا القانون في كثير من مواده، على أن الذي يعتدي على جيرانه أو يتشاجر مع غيره، أو يتعصب لجماعة ظالمة حتى ولو كانت من أقاربه، أو يتعدى على امرأة آمنة، تعاقبه القبيلة، فتذبح عددا من أبقاره يتناسب مع الجريمة المرتكبة، ومن الواضح أن شعبا يختار البقر كمادة للنقد، هو شعب تكثر لديه هذه الحيوانات.

تذبح الأبقار والأغنام، أيضا، في الأعياد والمواسم وفي المناسبات الكبيرة، وبما أن الجزائر لم تكن لها مدايح لصنع كل ما لديها من جلود، فإن سكان شرق الأيالة كانوا يبيعونها إلى الأجانب. كانت هذه الجلود، قبل نهاية القرن الثامن عشر، تشكل عنصرا من أهم عناصر التجارة التي تتعاطاها الشركة الملكية الإفريقية ووريتها الوكالة من بعدها.

لقد كانت هذه الجلود، قبل نهاية القرن الثامن عشر، تشكل عنصرا من أهم العناصر التجارية التي تتعاطاها الشركة الملكية الإفريقية ووريتها الوكالة من بعدها. وتعتبر مدينة القل أكبر الأسواق فيما يخص هذه المادة، إذ تدفع وحدها إلى مرسيليا أكثر من جميع الأسواق الأخرى مجتمعة⁽⁴⁾، إذا كانت التقارير⁽¹⁾ تذكر بأن

⁽¹⁾- Féraud (Charles) "destructions des établissements français de la calle en 1827 d'après des documents indigènes" revue Africaine, Tome XVII, 1873, P 96.

⁽²⁾-ANP, AE B3 304 "compagnie et agence d'Afrique" rapport de M thédenat.

ونجد تأكيدا لهذه المعلومات في مقالة السيد ماتياكس: ص 322 حيث يقول بأن مرسيليا استوردت من موانئ الشرق الجزائري، في سنتي 1804 و 1805 عددا من البقر يتراوح ما بين ستمائة وسبعمئة رأس، وعشرة أضعاف هذا العدد سنة 1811.

⁽³⁾-Féraud, histoire de Jijel, p 52-53-54 et 58.

⁽⁴⁾ - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 82.

بأن الشركة الملكية الإفريقية كانت قبل الفترة التي ندرسها، تستخرج سنويا من مقاطعة قسنطينة، ستا وعشرين ألف جلد فقط فإن الممثل الرئيسي للوكالة يؤكد في تقريره الشهري إلى السيد دييوا تانفيل بأن هذه الكمية انتقلت، في نهاية القرن المذكور، إلى أكثر من ثلاثة أضعاف الأولى بحيث أن "المؤسسات الإفريقية صارت تدفع إلى مرسيليا ثمانية ألف جلد كل سنة تصنع في مدايغها الكثيرة"⁽²⁾.

أما عن طريقة البيع والشراء، فإن أعوان الشركة لا يستطيعون الخروج إلى القبائل وحدهم، بل كانوا يلزمون محلاتهم، وكان بعض الأفراد الجزائريين ممن يحسنون كلمات فرنسية هم الذين يقومون بالعملية، ويجمعون الجلود التي لا تسلم إلى الشركة إلا عندما تأتي المراكب ويحدد يوم الإبحار⁽³⁾. ومن الممكن أن هذا السلوك المقصود، لأنه يشتمل على نوع من الاحتياط ومنع البضائع من التعرض لمختلف الأخطار كالفساد أو الضياع، غير أن المؤسسات الفرنسية قد فقدت ميزة الاحتكار في هذه المادة، كذلك سنة 1793 عندما قرر بايليك قسنطينة بناء مدايغ في عناية لتلبية حاجات الأهالي، ولتزويد تونس بجوالي 12 ألف جلد سنويا⁽⁴⁾، واحتجت الشركة كالعادة، وكالعادة أيضا قاومت السلطات المحلية.

وفي الفترة ما بين 1807 و1817، وهي الفترة التي سلمت فيها المؤسسات إلى الإنكليز⁽⁵⁾ استحوذ الأهالي واليهود على تجارة الجلود، يصدرها الأولون إلى تونس ويرسلها والباقي إلى ليفرونا ومرسيليا، فتستعمل لتغذية المدايغ الإيطالية ومدايغ اللانكدوك والبروفنس في فرنسا، وهي معامل تشغل عددا كبيرا من اليد العاملة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾-ANP, Ae B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817, P 20.

⁽²⁾-idem, P 6.

⁽³⁾- محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 83.

⁽⁴⁾-ANP, Ae B3 301, "mémoire et documents sur les concession françaises en Afrique du nord, 1793-1830. P 5.

⁽⁵⁾- وقد ورد في هذه الوثيقة أن: «الوكالة تشتكي من كون الباي لم يمنع هذه المواد من الانتقال إلى تونس على الرغم من الامتيازات التي تنص عليها الاتفاقيات».

⁽⁶⁾-ANP. AE B3 301, Rapport de l'agent principal à Mr Dubois thainville le 30 fructidor An 8 de la Rep P 3.

في سنة 1817، عندما أعيدت إلى فرنسا، وجدت الوكالة المؤقتة أن تجارة الجلود موزعة على هيئات مختلفة، وأن من الصعب جدا إعادة احتكارها. وهكذا ستظل إلى أن يعلن الحصار الفرنسي على الموانئ الجزائرية، سنة 1827، فتموت بالنسبة لهاته الأسواق، كما ماتت تجارة الحبوب.

الصوف:

كتب الباي أحمد في مذكراته: «إن كل ثروتنا تتمثل في القمح والأصواف التي نبيعها في ميناء عنابة»⁽¹⁾، لقد كانت الصوف مصدر ربح كبير⁽²⁾ بالنسبة للشركة الملكية الإفريقية التي يذكر السيد فورة أنها تساهم في جلب أكثر من ثمن الملكية التي تستوردها مرسيليا من آسيا والمشرق والتي تقدر سنويا بحوالي أربعين ألف (40000) بالة⁽³⁾، وتشغل عددا كبيرا من المصانع في مختلف أنحاء فرنسا. ثم تطورت صناعة هذه المادة، فارتفعت كميات الاستهلاك، وما كاد القرن الثامن عشر ينتهي حتى أصبحت موانئ الشرق الجزائري تصدر إلى مرسيليا 28 ألف قنطار في كل سنة.

لكن الوضع تغير في مستهل القرن التاسع عشر عندما شرعت السلطات الفرنسية في الاعتناء بتربية الماشية وبالأغنام على وجه الخصوص، وقد وجدت هذه السلطات عاملا محفزا في إقدام الجزائر على حرمان الوكالة من الامتيازات التي كانت تحظى بها، ونقل المؤسسات إلى الانكليز سنة 1807. وبالفعل، فإن مجهود الفرنسيين قد كللت بالنجاح وأصبحت لا يصدر لفرنسا سنة 1817 سوى نصف ما كانت تستورده من قبل، حتى أعلن الحصار على الجزائر فتوقفت تجارتها على النشاط.

المرجان:

المرجان منتج بحري حيواني ويوجد المرجان في أعماق تتراوح ما بين خمس وعشرين ومائتي متر، ويكبر بسرعة فيبلغ ارتفاعه في بعض الأحيان خمسين سنتيمترا، وفي الشرق الجزائري يصطاد في السواحل الممتدة ما بين عنابة والقالمة⁽⁴⁾، فقط ثم امتد هذا النشاط إلى ناحية بجاية في نهاية القرن الثامن عشر⁽¹⁾.

(1) - أحمد باي، مذكرات أحمد باي، المجلة الإفريقية، 1949، ص 85.

(2) - يذكر إمرت في العدد الخامس من مجلة. Hist. inf. ص 171 أن نسبة هذه الأرباح كثيرا ما تزيد عن 50%.

(3) - ANP, Ae B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817, P 21.

(4) - لشعاب المرجانية هي هياكل تتكون من كائنات حية موجودة في المياه الضحلة في المناطق المدارية التي تقل بها نسبة الغذاء أو تنعدم تماما. كثرة الغذاء بالماء في مناطق مثل مصبات مصارف الري بالمناطق الزراعية تضر الشعاب المرجانية وذلك نتيجة لتكون الطحالب عليها. من أماكن تواجد الشعاب المرجانية شواطئ الشرق الجزائري بالشعاب المرجانية: توجد في المياه

ويستعمل صائدو المرجان، لاستخراجه من قيعان البحار، آلة عجيبة. هي عبارة عن صليب خشبي مغطى بالحبال، شد إلى وسطه حجر يتراوح وزنه ما بين خمسين وستين رطلا، يساعد على إنزال الآلة إلى الأعماق. وفي كل جهة من جهات الصليب تثبت شبكة متينة لحمل المرجان⁽²⁾. ويركب سفينة الصيد سبعة أشخاص: رئيس، وربان وخمسة أعوان.

وكانت الشركة الملكية الإفريقية، الأنفة الذكر، هي التي تحتكر صيد المرجان على ساحل الشرق الجزائري، فكانت تستعمل من أربعين إلى خمسين مركبا⁽³⁾ وتستخرج سنويا ما بين مائة ومائة وعشرين صندوقا⁽⁴⁾، ترسلها إلى معامل مرسيليا التي كانت تدفع، في كل عام حوالي مائتي ألف فرنك أجورا لعمالها⁽⁵⁾ وتصنع المرجان الضروري لتجارة فرنسا مع الهند والصين.

وإذا علمنا أن الصندوق الواحد يتراوح وزنه ما بين مائة وخمسين ومائتي رطل حق لنا أن نقول بأن الجزائر كانت تنتج سنويا معدل خمسة وسبعين قنطارا من المرجان. أما من حيث الجودة، فإن الشركة نفسها تذكر بأنه "أجمل لونا من غيره، وإن لم يكن أكبر حجما، وهو مفضل على سائر أنواع المرجان في العالم"⁽⁶⁾، وعندما يتم الصيد ويسلم المرجان إلى أصحابه، فإنه يقسم إلى أصناف متعددة أهمها:

المرجان المختار: وهو الذي يتكون من أكبر العصون، ويباع بأثمان تتراوح ما بين أربع وخمسمائة فرنك للكيلوغرام، عندما تكون أغصانه قليلة الاوجاج أما المرجان الصناديق، وهو الذي ينظف، ويشتمل على

الاستوائية التي يقل عمقها عن 50 م، وتكون نظيفة، وتكون درجة الحرارة بين 25 درجة مئوية إلى 35 درجة مئوية، وهي مكونة من كربونات الكالسيوم يتغذى على الكربوهيدرات ويحتاج إلى الأكسجين ويكون حوله هياكل مرجانية من كربونات الكالسيوم.

⁽¹⁾ - نفس المرجع، ص 19.

⁽²⁾ - Masson (Paul), histoire des EST et du commerce français, Paris 1909 P 511 et 512.

يذكر المؤلف أن نقل وصف الآلة عن عالم الطبيعة السيد ديفانتا ص 511-512.

⁽³⁾ - ANP F 80 1670 "renseignements généraux réunis en vue de l'expédition" rapport sur les concessions d'Afrique, P 5.

⁽⁴⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 88.

⁽⁵⁾ - ANP. AE B3 301, Mémoire sur la cie royale d'Afrique, copie n° 4 Marseille le 7 juillet 1972.

⁽⁶⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 89.

أغصان مختلفة الأحجام، ويباع بسعر يتراوح ما بين خمسة وأربعين وسبعين فرنكا للكيلوغرام والمرجان الأسود، ويستعمل كحلى للحداد، وإذا كان من النوع الجيد فإن الكلغ منه يساوي ما بين 12 و 15 فرنك. المرجان الميت أو المتعفن، وهي الغصون المتصقة بالصخور والمغطاة بالحجارة وسعر الكيلو منه يتراوح ما بين 45 و 20 فرنكا.

وكانت الشركة الملكية، في بداية الأمر، تعتمد على صيد المرجان الذي كان يسد جميع مصاريفها القارة، بما في ذلك مصاريف الاعتناء والأجور والضرائب والهدايا وأرباح المساهمين، وتقدر هذه المصاريف سنويا بمائة وثمانين ألف فرنك⁽¹⁾، فكانت تكتري إذن الصيد للمراكب الأجنبية وللإيطاليين والاسبانيين على وجه الخصوص⁽²⁾، ثم تشتري منهم المنتوج وتوجه إلى مرسيليا لتشغيل مصانع المرجان هناك.

وعندما ألغت الثورة جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها مختلف الشركات، اغتتم الكورسيكيون الفرصة فراحوا يعملون لحسابهم الخاص، ثم أبرم نوابهم مع الشركة في سنة 1791، اتفاقا تقدم لهم بمقتضاه جميع المساعدات ويعطونها بالمقابل 135 رطل من المرجان، على مختلف درجاته عن كل مركب، ولكنهم لم يوفروا بعهدهم⁽³⁾، وفي سنة 1792 أبرم اتفاق آخر، لكن الحريات التي منحتها الثورة للمواطنين كانت أقوى من بنود المعاهدة، فلم يبال الصيادون بالأوامر التي وجهت إليهم لدفع الإتاوات، على الرغم من أنها خفضت إلى عشرين رطلا فقط عن كل مركب، وفي سنة 1793، ازدادت الفوضى وعمت الاضطرابات، فتخلت الشركة عن صيد المرجان الذي لم تعد تستفيد منه كليا، وصار الكورسيكيون والبروفانسيون والايطاليون يبيعون المرجان في مدينة ليفرنة حيث يجدون أسعار أعلى، الأمر إلي أدى إلى تدهور الصناعة الفرنسية في هذا الميدان.

واضطرت مؤسسات السيد ريمورة Remurat إلى غلق أبوابها⁽⁴⁾، وحاول عدد من المسؤولين الفرنسيين الفرنسيين أن يتداركو الوضع، ويعيدوا للشركة امتيازاتها القديمة، وخاصة وأن المرجان كان يدر على تلك الهيئة، وبالتالي على فرنسا أرباحا كثيرة. وقد كانوا يعلمون حق العلم بأنهم لو تمكنوا من إجبار الصيادين على عدم

(1)- ANP. AE B3 313, Mémoire sur les concession d'Afrique (S. D).

(2)- EMERIT Marcel ; la situation économique de la régence d'Alger en 1830, information historique NOV. DEC 1952, P 170.

(3)- محمد الصالح العنتري، مصدر سابق ص 112.

(4)- صالح عباد، مرجع سابق، ص 312.

بيع الإنتاج في عنابة والقالة وسردينيا وكرسكة وليفرنة وجنوة، لأعادوا المصانع، في مرسيليا، نشاطها وحيويتها⁽¹⁾.

ولكن الصيادين ظلوا في تمردهم، وكانوا يتهبون من وكلاء الشركة. ولتزويد أنفسهم بما يحتاجون إليه من المؤن، وتصليح سفنهم عند العطب، كانوا يتصلون بالأهالي رغم ما كان في ذلك من أخطار، إذ كثيرا ما كان يلقي عليهم القبض فيستعبدون أو يهبون ويقتلون⁽²⁾، ثم ألغيت الشركة سنة 1794، وخلفتها الوكالة الإفريقية، فلم يكن حظها أحسن من سابقتها، وبقيت تعاني تمرد الصيادين إلى أن توقف نشاطها عندما أمر السلطان سليمان الثالث إيالة الجزائر بإعلان الحرب ضد الجمهورية الفرنسية التي اعتدت على مصر، وذلك في شهر أكتوبر سنة 1798⁽³⁾.

وبعد الصلح، أعادت الجزائر إلى الوكالة جميع الامتيازات⁽⁴⁾. وتركت لها أجر عام تعويضا للخسائر المادية التي لحقت البنائات خلال المدة التي ظلت فيها مغلقة⁽⁵⁾، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المؤسسة لم تستأنف نشاطها إلا في شهر أوت من عام 1802.

وفي شهر ماي سنة 1803، قدمت إلى ساحل عنابة والقالة حوالي ثلاثمائة مركب لصيد المرجان، وأعطيت تعليمات إلى الوكيل المؤقت السيد ليون Leon ليأخذ حصة عن كل صياد، ولكن الصيادين امتنعوا⁽⁶⁾، وعاد الصراع إلى ما كان عليه. ثم انتزع الداي من فرنسا صيد المرجان وتجارة الجبوب سنة 1807، وأعطيت إلى انكلترا فسمحت لجميع الصيادين باستغلال ساحل الشرق الجزائري من عنابة إلى بجاية.

وحيثما استرجعت فرنسا امتيازات الصيد والتجارة على أثر معاهدة أبرمت يوم 15 مارس سنة 1817⁽⁷⁾، استعادت المؤسسات نشاطها، وقد ورد في محفوظات الوكالة الإفريقية أن هذه الهيئة "حققت في ظرف ثمانية أشهر من العام المذكور ربحا يزيد عن مائة وخمسين ألف فرنك، وذلك على الرغم من جميع العراقيل

(1)- ANP. AE B3 301, Mémoire sur les concession d'Afrique , lettre N° 17 écrite par Mr Piéron, agent principal des concession à l'agence de Marseille, le 18 février 1796 de la république.

(2)- محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 76.

(3)- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، الامعية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر 2013، ص 262.

(4)- صالح عباد، مرجع سابق، ص 263.

(5)- محمد الصالح العنتزي، نفس المصدر السابق، ص 85.

(6)-ANP. AE B3 301, Mémoire sur la cie royale d'Afrique, SD.

(7)- صالح عاد، مرجع سابق، ص 87.

والمصاعب"، وتشير الوثيقة أيضا إلى الربح كله تقريبا ناتج عن صيد المرجان أي عن الرسوم المفروضة على الصيادين⁽¹⁾.

غير أن المملكة الفرنسية أرادت أن تتخلص من المشاكل وما تتطلبه حلولها من أموال باهظة، فعينت لجانا لدراسة النظام الذي يجب إتباعه في استغلال المؤسسات الإفريقية انتهت سنة 1822 إلى التعاقد مع السيد باري (Paret) ليحظى بجميع الامتيازات ويقوم بالعمليات التجارية لمدة ثماني سنوات⁽²⁾.

ولكن تورد الصيادين، وحصار فرنسا الذي فرضته عام 1827 على الموانئ الجزائرية، جعلوا شركة السيد باري تصاب بخسائر فادحة، وكتب التاجر إلى وزارتي الداخلية والخارجية يشتكي من هذه التصرفات ويطلب بتعويض ما فقده نتيجة لذلك⁽³⁾. وظل يجدد المطالب ويرفع الاحتجاجات إلى أن أجابه السيد دو برمون كاتب الدولة المكلف بالشؤون الحربية ورئيس الحملة ضد الجزائر وأكد له بأنه سيستعمل جميع الوسائل لإنصافه وإصلاح الأضرار التي لحقت⁽⁴⁾.

وهكذا نرى أن صيد المرجان كان قد توقف نهائيا قبل وقوع الاحتلال بثلاث سنوات. وقد كان ذا فائدة جمة بالنسبة لجميع الهيئات التي قامت باستغلاله، وبالنسبة لكل من مرسيليا وليفرونا اللتين تعتمدان عليه في تشغيل مصانعها الخاصة بصقل هذه المادة الثمينة. أما الجزائر فإن نصيبها لم يكن يتجاوز الصندوقين اللذين يدفعان سنويا، إلى الداوي⁽⁵⁾، وبعض الأغصان التي تقدم كهدايا للباي ولمشايع وأعيان المنطقة⁽⁶⁾.

الشموع:

في فصل الربيع من كل سنة يقوم أهالي الشرق الجزائري بجني الشموع ثم يبيعونها إلى المؤسسات الفرنسية أو يصدرونها إلى تونس، وهنا أيضا، تذكر المصادر أن مدينة القل "هي أكبر منتج لهذه المادة، تبيع وحدها

⁽¹⁾ - اندري برنار، اندري نوشي، ايف لاکوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رايح، د. م. ج.، الجزائر 1984، ص 292.

⁽²⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، تقول الوثيقة أن العقد المذكور أبرم يوم 30 أكتوبر 1821 ولكن الشركة لم تشرع في العمل إلا في فاتح جانفي 1822.

⁽³⁾ - Registres des délibérations de la Chambre de commerce de Marseille, document n° 20 P: 14 daté du 3 juillet 1827.

يذكر السيد باري في هذه الوثيقة أن خسائره بلغت في يوم واحد 400,000 فرنك.

⁽⁴⁾ - أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق، أحمد التوفيق المدني، ط02، ش. و. ن. ت.، الجزائر 1980، ص 166.

⁽⁵⁾ - ANP. AE B3 301, Mémoire sur la Cie royale d'Afrique, SD.

⁽⁶⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 94.

حوالي أربعمئة قنطار سنويا للفرنسيين فقط"⁽¹⁾، ويعتبر التجار الفرنسيون أن "الشموع سهلة الترويج وكثيرة المنافع"⁽²⁾، ولكنهم يشتكون من كون المنتجين يصدرون أجودها إلى الأيالة التونسية⁽³⁾، وهي شكوه غير مقبولة لأن الشموع في فرنسا كانت تصنع في الكنائس والأديرة، وعندما جاءت ثورة 1789 خربت المؤسسات الدينية واضطهدت رجالها، فانخفض استهلاك هذه المادة، وبالتبعية انخفض استيرادها وتحتم على المنتجين أن يبحثوا عن أسواق أخرى، فكانت تونس هي أقربها، خاصة وأن أسعارها كانت أرفع بكثير من الأسعار الفرنسية، ومن الطبيعي أن المنتج يفضل صاحب الثمن الأعلى، زد على ذلك أن فرنسا صارت تستعمل المصاييح في ميدان الإنارة، وبذلك مالت إلى إهمال الشموع.

لكن التجار الفرنسيون كانوا يريدون احتكار تجارة هذه المادة ليصدروها بأنفسهم إلى الأسواق العالمية، وعندما رفض البابليك هذه الفكرة اغتاظوا وصاروا يشتكون. ومهما يكن، فإن الوثائق تثبت بأن المؤسسات الفرنسية ظلت تستورد من الشرق الجزائري سنويا، حوالي 880 قنطارا من الشموع، وأن هذه التجارة لم تتوقف إلا عندما أعلن الحصار على الساحل الجزائري.

واردات الشرق الجزائري من أوروبا:

إن العلاقات في المبادلات التجارية بين الدول الأوروبية والشرق الجزائري كانت غير متكافئة في الميزان التجاري، وما يستورده الشرق الجزائري من أوروبا فهو على ضالة حجمه، ثلاثة أصناف: المواد الأولية: وهي الرصاص والحديد اللذان يستعملان في الصناعة المحلية ولم تبلغ قيمة الواردات من هذا الصنف الأول سوى ثلاثمائة وسبعين بياستر في ظرف عشر سنوات، أي ما يعادل مائة وخمسة وثمانين فرنكا عن كل سنة⁽⁴⁾، وهو مبلغ زهيد جدا، لا يكاد يذكر، إذ لا يكفي حتى لشراء طن واحد من القمح.

2-المواد المصنوعة: وهي الأقمشة والكتان والحلي والخردوات، والورق وإن واردات الشرق الجزائري من هذه المواد، لم تبلغ قيمتها في ظرف عشر سنوات سوى 12,300 بياستر، أي ما يعادل 61,500 فرنك⁽⁵⁾.

(1) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص، 111.

(2) - ANP, AE. B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817, P 20.

(3) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 112.

(4) - نفس المرجع، ص 528.

(5) - نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 453.

المواد الغذائية: وتشتمل على السكر والقهوة والتوابل التي يستعملها السكان في حياتهم اليومية، وقد استورد الشرق الجزائري من أوروبا مباشرة، في هذا المجال، وفي نفس المدة، ما قيمته 6570 بياستر، أو ما يعادل 3285 فرنكا سنويا⁽¹⁾، وهو ثمن لا يكفي لشراء أكثر من خمسة عشر طنا من القمح. ومن خلال هذه المعلومات البسيطة، نتأكد، كما أشرنا إلى ذلك في السابق من أن ما تستورده موانئ قسنطينة من أوروبا قليل جدا، ولا يمكن اعتباره، خاصة وأن الوثائق تثبت بأن التجار الأهالي كانوا يفضلون اللجوء إلى تونس أو المغرب أو مدينة الجزائر، يشترون منها كل ما يحتاجونه من مواد أوروبية لتجارهم في داخل المنطقة أو لتسويقها في بلاد السودان⁽²⁾.

دور التجارة الأوربية الاقتصادي لمنطقة الشرق الجزائري:

كان سكان الأرياف الشرق الجزائري يعيشون من الإنتاج الزراعي، بينما يعتمد سكان المدن على منتوج صناعاتهم التقليدية، وعلى الوظائف الإدارية. وقد أورد الباي أحمد في مذكراته أن ثروة البايليككها تتمثل في القمح والأصواف التي كانت تباع في ميناء عنابة⁽³⁾. وأما التجارة الخارجية فإنها لا تحتل سوى درجة ثانوية لأنها لم تساهم إطلاقا في تطور الأوضاع الاقتصادية وذلك لسببين رئيسيين هما:

المبادلات مع أوروبا، كانت تتم بواسطة الأجانب الذين يستثمرون ما يحصلون عليه من أرباح طائلة، في بلدانهم أو في بلدان أخرى تشدهم إليها روابط الدم والعرق، أما المبالغ التي كانت تعود إلى الأيالة والأهالي، فإنها، بالإضافة إلى كونها زهيدة، لا تستعمل في غير الترف وشراء المناصب بالنسبة للمسؤولين وسد رمق العيش واكتساب القوات بالنسبة للسكان، وعليه ظل الاقتصاد راكدا، بعيدا عن كل تجديد، وفي تخلف مستمر بالنسبة لما يجري في أوروبا خاصة، ولقد كان الأوروبيون يدركون هذه الحقيقة، فعملوا كل ما في وسعهم على إبقاء التجار الجزائريين في عزلة للانفراد بهذا النوع من النشاط التجاري، وهذا الموقف التعصي من تجار أوروبا هو الذي يفسر لنا قوة البحرية الجزائرية في المجال الحربي وضعف الأسطول التجاري أو انعدامه تقريبا على الرغم من أنه لا يتطلب شروطا كثيرة مثل التي يجب أن تتوفر لقيام أسطول حربي، وعلى سبيل المثال نذكر

(1) - نفس المرجع، ص 523.

(2) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق 122.

(3) - ANP, AE B3 304 "compagnie et agence d'Afrique" rapport de M thédenat.

P 5 et ANP F 80 mesures adoptées pour la colonisation, rapport politique, militaire et ADMINISTRATIF SUR LA REGENCE d'Alger, 3 et 5 juin 1831. P 2.

نوعا من العراقل التي كان الفرنسيون وتجار مرسيليا على الخصوص يقيمونها في وجه الجزائريين. ويتمثل ذلك في أن الفرنسيين كانوا يلغون القبض على ربانة السفن الجزائرية بمجرد وصولهم إلى الميناء، ثم يحرقونهم أحياء، أو يسرقونهم بحجة أنهم من المرتدين⁽¹⁾، لأنهم كانوا يعتقدون بأن جميع بحارة الأيالة من أبناء أوروبا المسيحيين الذين أسلموا.

تأثيرها في الصناعة:

لم تكن هناك، في الشرق الجزائري، صناعة يأتى معنى الكلمة، وإنما كانت توجد صناعة تقليدية كما هو الشأن في كثير من كبريات مدن الجزائر، وكان أصحاب الحرف منظمين في هيئات يشرف على كل واحدة أمين، وتتولى كل هيئة صناعة نوع محدد من الأدوات والملابس التي يحتاج إليها السكان في حياتهم اليومية. وكان أصحاب الحرفة الواحدة يجمعون في سوق معينة تحمل اسم الصنعة الممارسة. وهكذا كنا نجد في قسنطينة أسواقا عديدة خاصة بالنجارين والحدادين والصباعين والدباغين والبلاغجية، والشواشين، إلى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الوقت.

الكثير من هؤلاء الصناع يحتاجون إلى كميات من المواد الخام والآلات الضرورية لإشغالهم والتي لا تتوفر في عين المكان، فتستورد من البلاد الأجنبية عن طريق التجارة الخارجية.⁽²⁾ ونذكر على سبيل المثال أن النجارين كانوا يستعملون آلات تستورد من فرنسا، وأن مهمة الشقماقجية هي صناعة الأسلحة، وتركيب المدافع تجلب من إيطاليا وإسبانيا، وانكلترا عن طريق تونس أو مدينة الجزائر كما أن السراجين يحتاجون في أعمالهم إلى الفلالي الذي يستورد من تافيلالت بالمملكة المغربية⁽³⁾.

لكن التجارة الخارجية لم تلعب الدور الذي كان عليها أن تقوم به لإحداث نوع من الثورة في هذا المجال، وذلك لأن الاتصالات مع أوروبا المصنعة كانت كلها تتم بواسطة الأجانب الذين لا يهمهم أن تتطور الصناعة في هذه المقاطعة، حتى يتمكنوا من مواصلة استنزاف خيراتها، ولذلك؛ فبدلا من أن ينشط هذا النوع من التجارة ويدخل مزايا الثورة الصناعية إلى بعض مناطق الشرق الجزائري، ظل في نقطة الصفر لا يسمح إلا بجلب بعض المواد الجاهزة التي تزيد الوضع تعفنا، إذ تعمل على قتل الصناعة المحلية لأنها تستورد بأثمان أرخص

⁽¹⁾-EMERIT (Marcel), "Essai d'une marine, marchande ", cahier de Tunisie, N° 11, 1955, P 363.

⁽²⁾ - ارجع الى الجدول من هذا البحث صفحة 98 للاطلاع على أهم الصناعات وأهم الحرف وتوزيعها في مدينة قسنطينة.

⁽³⁾-Féraud, "les corporations des métiers à CONSTANTINE avant la conquête française" R. A Tom XVI. 1872. P 170.

نتيجة ظهور الآلات الحديثة⁽¹⁾ ولو أن زمام التجارة الخارجية مع أوروبا كان بأيدي السكان أنفسهم؛ لاستطاعت المقاطعة أن تستغل إمكانياتها الكثيرة والمتنوعة للاستفادة من الثورة الصناعية.

أسواق المدن الداخلية في الشرق الجزائري:

كانت الأسواق الأسبوعية تقام في المدن، فكان لكل مدينة سوق مثل، سوق التلاغمة، سوق أولاد عبد النور، سوق الوادي، سوق السكينة، سوق الحراكتة، سوق تقرت سوق ورقلة، تتزود منه القبائل بما تحتاجه وتصرف السلع المعروضة فيه، الى جانب ذلك يعقد سوق سنوي تحت إشراف شيخ العرب⁽²⁾، تعرض السلع للقبائل الوافدة من كل الجهات، من البضائع المحلية والمستوردة، ومعظم هذه السلع هي زراعية أو ذات منتج حربي تقليدي، أما الصناعة مفهوم العصري فهي غائبة، وأهم المنتجات الصناعية على النمط العصري فتأتي من أوروبا عن طريق تجار تونس وتجار مدينة الجزائر، التي تأتي تلك المنتجات من أوروبا خاصة فرنسا، بالإضافة الى منتجات السودان ودول إفريقيا التي تأتي بقوافل عهدت تلك الأسواق السنوية⁽³⁾.

تفاعل السلطة والسكان مع النشاط التجاري في الشرق الجزائري:

كانت التجارة الداخلية أو الخارجية تلعب دور في تنشيط المبادلات والمعاملات وتنشط الاقتصاد المحلي، وهي مصدر تتغذى منه خزينة البايليك وهي تغطي مجموعة من النفقات، الداخلية وتحقق حاجة الأوربيين من المواد الغذائية المطلوبة، لأنها كانت الحرب تقلص من نشاطها. كما لعبت التجارة الخارجية في إبرام اتفاقيات ومعاهدات تنظم المبادلات التجارية، وتجعل تنافس بين الدول الأوربية لتحقيق امتيازات تجارية.

كما منحت لسكان المناطق البحرية والمدن الساحلية من تنشيط علاقاتها مع الدول البحر المتوسط فكانت لهم مأرب اقتصادية ويستفيد هؤلاء من الامتيازات والخدمات التي ترتبط بين التجار في عمليات الشحن والتفريغ وكانت الهيئات التجارية تمنح ترخيصات وأعطيات لحفظ الأمن والسلم من طرف البايليك ليضمنوا تصريف بضائعهم⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق ص 11، ويذكر المؤلف أن منتجات الصناعة التقليدية باهظة الأسعار نتيجة منافسة الواردات الأوروبية والتونسية والمغربية.

⁽²⁾ - Féraud ,OP CIT P 452.

⁽³⁾ - نصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 86.

⁽⁴⁾ - Masson (P) , histoire des établissement et du commerce français en Afrique du nord, P 455.

أما قبائل الجنوب فإنهم يفرضون على القائل المارة بأوطانهم رسوم ليضمنوا سلامة القوافل من قطاع الطرق والصوصية⁽¹⁾.

كانت السلطات تمارس التجارة عن طريق استغلال الهيئات المحلية في استقرار الأمن وتنظيم الحياة عن طريق تعيينهم بامتيازات وهو ما شيع عليهم بشراء المناصب⁽²⁾. فكان الباي يدفع 150 ألف بياستر لذلك انخرط في تجارة الحبوب والقمح كان يشتريه بين وكانت الشركة الملكية الإفريقية تدفع لبض القادة مقابل أمنها واستقرار الأوضاع في الموائئ تتكون حسب الجدول التالي:

جدول يبين حقوق الهيئات في استقرار الأمن للغرض التجاري

المنصب	القيمة / بياستر	القيمة / فرنك
شيخ العزل	1891 بياستر	9455 فرنكا
قبيلة النوادي	2167 بياستر	10835 / فرنكا
الحامية التركية	135 بياستر	675 فرنكا
شيخ بني مرداس	1000 بياستر	5000 فرنكا
مرابط المعزل	5 بياستر	25 فرنكا

المراجع : محمد العربي الزبيري بتصرف .

كان التجار الأوربيين والعرب يدفعون 5 % عن بضائعهم ويدفع اليهود نسبة 12.5 % المصدرة والمستوردة بالإضافة الى الرسوم الجمركية على المصدرين والموردين⁽³⁾.

أهم الأنشطة الاقتصادية للوكالة الإفريقية في الشرق الجزائري:

الوكالة الإفريقية ظهرت بمقتضى قرار 07 فيفري 1794 م، وتم تنظيمها النهائي بقرار 11 مارس 1794 م، قامت هذه المؤسسة على أنقاض الشركة الملكية الأفريقية عندما أصبح الحكم جمهوري في فرنسا،

يقول المؤلف: عندما يأتي العرب يجب أن يوزع عليهم الخبز والزيت والملح وغير ذلك مما يشتركون تقديمه بكل اعتزاز، إذا رفض لهم أدنى شيء فإنهم يهددون وينقذون تهديدهم في غالب الأحيان.

⁽¹⁾-ARB, C 2460, mémoire sur la compagnie royale d'Afrique.

تقول هذه الوثيقة أن الأموال التي يحصل عليها العرب من التجارة تسمح لهم بدفع الضرائب المختلفة التي تفرضها عليهم الأيالة.

⁽²⁾-Mauroy, du commerce des peuples de l'Afrique septentrionale, P 163.

يقول موروا: إن رؤساء القوافل يتفاهمون مع قادة القبائل فيعطونهم أدلاء وحراسا مقابل منح تختلف باختلاف أهمية الحمولة.
⁽³⁾- محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 114.

وحافظت على هياكلها ووكلائها ومسيرها في الشرق الجزائري. سعت لاسترجاع مكانتها في صيد المرجان لكن السلطات في الشرق الجزائري وبدعم من الداوي رفض محاولتها⁽¹⁾. إن حرمان الوكالة من صيد المرجان أضر بالاقتصاد الفرنسي التجاري والصناعي، لأن استثمارها في هذا المجال يدر عليها أرباحا يمكنها من التنمية التجارية في الشرق الجزائري⁽²⁾، هذا ما دعا الصيادين من توجيه إنتاجهم نحو مدينة ليفرونه⁽³⁾، حيث يحصلون على أسعار أرفع، الأمر الذي أدى إلى إغلاق المصانع المرجانية في مرسيليا وظهور البطالة وأصبحت تجارة فرنسا مع المتعاملين معها في الصين والهند بالركود لأنها كانت تعتمد كمادة أساسية في المبادلات⁽⁴⁾.

سعت الوكالة الإفريقية على تنمية نشاطها في مجال تجارة الحبوب والصوف والجلود والشمع، لكنها لم تبلغ مرادها، وخاصة عندما استقطب اليهود هذه التجارة، وجعلوها حكرا عليهم لأن منافسة التجارة نحو تونس ومدينة ليفرونه، التي أصبحت منافس كبير لمدينة مرسيليا الفرنسية، لذلك عملت على تعويض خسائرها في المرجان إلى احتكار أكبر كمية من تصدير الحبوب والصوف والجلود والشمع ويشيد القنصل الفرنسي فاليار بمجهودها حيث صرح بقوله: «ان مؤسسة الشرق الجزائري قد أنقذت البلاد من المجاعة القاتلة رغم الحن وقلة الإمكانيات»⁽⁵⁾.

شهدت الوكالة الإفريقية تطورا كبيرا نظرا لتحسن الظروف السياسية بين الجزائر وفرنسا، وان ممثل الوكالة بعث بتقرير إلى السيد دييوا تانفيل⁽⁶⁾، المكلف بشؤون الجمهورية وبعقد الصلح مع الداوي، جاء فيه: «إن هذه

⁽¹⁾-ANP; AE, B3 313, "documents officiel sur les concession d'Afrique".

⁽²⁾-Masson; histoire des Ets, et du commerce français en AFN, P 545-

⁽³⁾- مدينة ليفرونه: هي مدينة فرنسية، تقع إلى الغرب من فرنسا في وسط جبال البرينيه، على الحدود الفرنسية الاسبانية لها شهرة في المبادلات التجارية في البحر المتوسط في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع، سكانها لهم علاقة مع الاندلسيين النازحين بعد حرو الاسترداد الاسبانية.

⁽⁴⁾-ANP. AE B3 301, Mémoire sur la compagnie royale d'Afrique, copie N° 4, MARSEILLE, LE 7 JUILLET 1792.

⁽⁵⁾-ACHM, F IX, Dossier Algérie avant 1830, "lettre de Vallière à la chambre de commerce" en date du 19 juillet 1796.

⁽⁶⁾- في عام 1801 قام القنصل الفرنسي دييوا تانفيل (Dubois thainville) بإبرام معاهدة مع الديوان يوم 17 ديسمبر 1801، أعيدت بموجبها المؤسسة الإفريقية إلى العمل مع إعفائها من الضرائب لمدة عام كامل، تعويضا على خسارتها في سنوات الانقطاع، غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا إذ بعد إلحاح الديوان بمطالبة فرنسا بتمديد ديونها؛ بدأ نابليون بوناپرت استعمال لغة التهديد وهنا برزت إلى الوجود المشاريع الفرنسية لاحتلال الجزائر،

المؤسسات قد صبحت في فرنسا، وفي بحر العام السادس وحده⁽¹⁾: 300 ألف قنطار من القمح و40 ألف من الشعير والبقول والحمص، و28 ألف من الصوف، و880 من الشموع، و80 ألف جلد⁽²⁾، بينما نجد أن ماصون يذكر بأن مرسيليا لم تستورد، سنة 1794 من هذه المؤسسات سوى كمية تتراوح ما بين 60 و80 ألف حمولة من الحبوب، ÷ (أي حوالي 100 ألف قنطار موزعة بين القمح والشعير والبقول والحمص)⁽³⁾، وإذا أردنا أن نقيم هذه الزيادة التي حصلت في ظرف أربع سنوات وجدناها تتجاوز 250% وهي نسبة مرتفعة جدا.

اكتسب اليهوديان بكري وبوجناح ثقة الداي بابا أحسن، وهذا ما أدي بتوسيع قوة ونشاط الوكالة الافريقية في الجزائر وتفرض نفسها اقتصادي، رغم المعاهدات والاتفاقيات المبرمة فان الترضيات والهدايا والامتيازات، وساءت العلاقة بين الباي والوكالة بسبب بوجناح الذي ككان مقربا من الباي مصطفى الوزناحي، واكتشف مفتشوا الباي ان الوكالة لا تدفع مستحقاتها من الرسوم بالاضافة إلى تأمر السكان على الوكالة بإيعاز من بوجناح ودعما من الباي وفشلت الوكالة الافريقية من استرجاع نفوذها⁽⁴⁾.

فلم تستطع الوكالة شراء القادة المحليين ولم تستطع الصمود امام الاحتكارات والمنافسة الأجنبية، وتمكن اليهود من احتكار التجارة في الشرق الجزائري إلى جانب هذه العلاقات ذات الطابع العام، هناك اتصالات خاصة كانت موجودة بين الباي كتاجر وممثلي الوكالة الإفريقية في عنابة والقالة، وعلى الرغم من المضايقات التي أشرنا إليها، فإن الباي لم يقطع الصلة نهائيا مع المؤسسات الفرنسية، بل ظل يبيع لها من حين لآخر بعض منتجات المخزن، أما ما يشتريه بنفسه من الأهالي. وكان ذلك يسمح له بأن يستورد من أوروبا، عن طريق الوكالة، جميع المواد الضرورية له ولالأعيان المحيطين به. كما تمكنه من إبقاء الصلة بينه وبين القنصل الفرنسي، الذي قد يحتاج إليه عندما يذهب إلى مدينة الجزائر.

تمهيدا لمشاريعه قام نابليون بونابرت بإرسال بعثات استكشافية للجزائر بغرض جمع المعلومات حولها، وفي هذا الإطار قام بتكليف القنصل " جون سان أندري لإعداد مشروع لاحتلال الجزائر، فحسب رأيه يمكن احتلال الجزائر في ظرف ثمانية أيام.⁽¹⁾ - العام السادس للجمهورية يقابل سنة 1798.

(2)-ANP, AE B3 301, "Rapport de l'agent principal à M. DUBOIS thainville la calle, le 30 février 1795.

(3)- محمد العربي الزيري، مرجع سابق، 118.

(4)- جمال قنان، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1790-1830)، ديوان المطبوعات الجامية، الجزائر، 1984، ص 76.

يقول المؤلف: بالرغم من الهدايا التي تقدم للداي، فإن حسان قد سمح لليهود بشراء القمح من عنابة والقالة.

وأخيرا، فإن هذه التجارة تشمل نوعا من التوازن يكبح به أطماع التجار الأجانب ويحد به من جشع التجار اليهود، ويستعمله لخلق التنافس الضروري للمحافظة على الأسواق المحلية.

ويمكننا من خلال ما سبق في هذا الفصل أن نستنتج بأن الشرق الجزائري كان يقيم علاقات تجارية مع أوروبا بواسطة المؤسسات الفرنسية وغيرها من الهيئات الأجنبية الأخرى ومع إفريقيا والحجاز بواسطة الأهالي وعدد قليل من ليهود المستوطنين.

وقد كانت المبادلات تتم بطريقة بدائية لا تخطيط فيها ولا مراقبة للميزان التجاري، وإنما كان السكان يبيعون كل ما فاض من إنتاجهم نقدا إن أمكن، ومقايضة في غالب الأحيان وخاصة في العلاقات مع إفريقيا والمشرق، ويشتررون بالمقابل كميات من البضائع لاستهلاكهم الخاص أو للتجارة فيها مع الشعوب الأخرى.

وأما المواد المتداولة في هذا الميدان فخليط من الكماليات والضروريات: تصدر موانئ قسنطينة إلى أوروبا المرجان والحبوب والصوف والشموع والجلود وزيت الزيتون ونستورد منها عددا من مواد الخام (بكميات ضئيلة جدا) وبعض المصنوعات والمواد الغذائية. أما بالنسبة لإفريقيا والمشرق فإنها تصدر الحبوب وغيرها من المنتجات المحلية وبعض الأنعام مثل الإبل والأغنام، وتستورد التبر والعبيد ومواد أخرى من صنف الكماليات مثل البخور والحناء وكانت هذه العلاقات التجارية تتم عن طريقين:

1- طريق البحر وتستعمل فيه الأساطيل الأجنبية لأن التجار الأوروبيين كانوا سيدلون جميع المساعي لمنع الجزائريين من تكوين أسطولهم التجاري الخاص فكانوا، بشهادة المؤرخين الفرنسيين أنفسهم، يقاطعون البواخر المغربية ويجرضون السكان على تقتيل واسترقاق الرابنة بحجة أنهم من المسيحيين المرتدين.

2- طريق البر وتستعمل فيها القوافل المختلفة تقودها وتحميها قبائل من جنوب الشرق الجزائري نفسه. وإذا نظرنا مليا إلى سائر الميادين الاقتصادية في هذه المنطقة من البلاد وجدنا أن التجارة الخارجية لم تلعب الدور الذي كان عليها أن تقوم به، فلم تساعد على الاستفادة من الثورة الصناعية في أوروبا، كما أنها لم تعمل على جلب كميات وافرة من التبر والمعادن الثمينة التي تشكل مصدرا هاما من مصادر الثروة. وإذا بحثنا عن أسباب ذلك وجدناها متعددة يمكن حصرها في فئتين رئيسيتين:

- أسباب خارجية: وتتمثل في محاربة الأوروبيين لكل محاولة تهدف إلى تكوين أسطول جزائري، ومنع الأهالي من إنشاء محلات تجارية في الضفة المقابلة من البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي أدى إلى الانعزال التام وإلى استحواذ الأجانب، من مسيحيين ويهود، على هذا النوع من النشاط الاقتصادي.

أسباب داخلية: وتتحصر في عدم مقاومة الأهالي وانسحابهم من ميدان المنافسة تاركين حرية العمل فيه للأجانب، وفي عجز السلطات عن تعبئة الطاقة البشرية اللازمة لاستغلال الإمكانيات الهائلة التي كان الشرق الجزائري يتوفر عليها آنذاك.

لقد عرف سكان مرسيليا سواحل الشرق الجزائري منذ القرن الثالث عشر، عندما كانوا يأتون في جملة التجار الأوروبيين يتعاملون مع سكان البلاد، ويقومون بصيد المرجان. غير أن الامتيازات التي ظلت تتمتع بها فرنسا دون غيرها، مع انقطاع بسيطة، إلى غاية 1827، لم تحصل إلا سنة 1520 على يد خير الدين بربروس في عهد الملك فرانسوا الأول.

وقد بقيت تلقائية لا تعتمد على معاهدة رسمية إلى أن كان عام 1628 حينما تدخل الباب العالي وأمر الديوان في الجزائر بأن يتفاهم مع فرنسا وأن يبرم معها صلحا دائما. وقد جاء في هذه المعاهدة التي وقعها السيد نابليون سامصون عن الجانب الفرنسي: «إننا (الديوان) نمنح الحصن وعناية للفرنسيين مقابل أربعين ألف تدفع سنويا، نصفها بميشيليا ونصفها لحزينة القصبية، وجزء للخدمات التي قدمها سامصون للولاية⁽¹⁾، فإنه يكون قائدا للمؤسسات ولا يمكن تبديله. وعند الوفاة يستطيع ملك فرنسا أن يعين شخصا آخر مكانه. ومن جهة أخرى فإن السفن الفرنسية تستطيع التنقل على الساحل المذكور، تبيع وتشتري، دون أن يسمح لمراكب أجنبية مهما كان نوعها أن تدخل للموانئ بدون إذن خاص مكتوب سلمه لها السيد سامصون،⁽²⁾ ثم حددت هذه المعاهدة سنة 1694، وفي هذه المرة تقرر أن تدفع المملكة الفرنسية زيادة على المبلغ الوارد في المعاهدة السابقة، عشرين ألف فرنك لسلطات قسنطينة.

بعد ذلك وقع التجديد مرات عديدة، ولكن أهمها ذلك الذي تم سنة 1714، وأهميته ناتجة عن كونه الأول والخير الذي وقع عليه باي قسنطينة،⁽³⁾ المسؤول المباشر عن منطقة الامتيازات، وعن كونه جاء منظما في بنود لا تختلف كثيرا عن المعاهدات التي تبرم في وقتنا الحاضر، وأخيرا عن كونه سيظل النموذج التقني الذي لا بد من إبراز مواده الأساسية كلما تجدد العقد بين البلدين.

⁽¹⁾ - يذكر ماحون في كتابه: تاريخ المؤسسات، ص 50 أن هذه الخدمات كانت عبارة عن هدايا قدمها سامصون للأعيان.

⁽²⁾ - الكيبتان صامصون، مرسل من طرف ملك فرنسا الى ديوان الجزائر، وجاء في هذه الرسالة ما يلي: "نقول لكم الان بان ما مضى قد مضى واننا فهمنا مدلول هذه التوصيات وقررنا ان نعيش، منذ الان في سلم جيد وصدقة معكم، كما اننا راينا وسمعنا محتوى ما تتضمنه رسالتكم " جاء هذا في كتاب جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث.

⁽³⁾ - كان ذلك في عهد حكم الباي قليان حسين باي المدعو بوكمية، وجاء بعد الباي علي بن صالح باي واتصف بالعدل والحكمة وسيرته احسن حال كما يصفه محمد الصالح العنترزي في كتابه تاريخ قسنطينة .

وأهم نقطة تضمنها هذا التجديد بالنسبة للفرنسيين هو محتوى المادة الثامنة ما جاء في نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الذي سيكون روح جميع معاداتهم التجارية، وسلاحا يشهرونه كلما أراد البايليك التدخل للدفاع عن مصالح الرعايا. وينص هذا البند على: «أنه لا يسمح لأي مركب أجنبي، مهما كانت جنسيته، حتى ولو كان مسلما أن يشحن قمحا أو شعيرا أو فولاً أو غير ذلك، في عناية وفي سائر الموانئ التي تشملها الامتيازات».

وعلى الرغم من هذا التشريع المطمئن والتسهيلات غير محدودة، فإن الجهود الفرنسية ظلت فردية، أو تقوم بها شركات ضعيفة، فلم تسفر عن نتيجة إيجابية، ولا تريد هنا أن نتعرض إلى مختلف الشركات والمؤسسات التي تلاحقت منذ ظهور الامتيازات، وإلى الأسباب التي أدت إلى فشلها وزوالها، وإنما سنكتفي بالكلام عن الهيئات التي لها اتصال مباشر بالفترة التي ندرسها، وأول هذه الهيئات هي الشركة الملكية الإفريقية،⁽¹⁾ وأصبحت الحكومة هي التي تحل محل المساهمون، وإن الدولة هي التي لها الإشراف المباشر في تقديم الأموال اللازمة لمواصلة النشاط التجاري، وتصدر التعليمات والقرارات في التسيير والتوجيه.

لكن الوكالة وجدت صعوبات عند إنشائها ومن الصعوبة في تخفيف أعبائها وتخطي مشاكلها وأهم هذه الصعوبات الوضع القائم في فرنسا، الذي تميزت به سنة 1794م وهو عدم الاستقرار بسبب المطاردة التجار الكبار والأثرياء والإقطاعيون من طرف الثورة ومحامتهم وإعدامهم في كثير من الأحيان، وكان هذا الجو المفعم بالخطورة على هؤلاء، حتى دفع بالبعث إلى الهجرة تاركين سفنهم ووسائل النقل راسية في الموانئ لا يمكن إصلاحها إلا بأثمان باهظة.

وبمجرد ما تكونت الوكالة،⁽²⁾ وجدت نفسها أمام صعوبات وعراقيل لا يمكن النجاح بدون تذليلها والقضاء عليها. وازدادت حاجة الدولة إلى مواد تموين لتلبية حاجة المواطنين، فارتفعت الأسعار، وأصبح البحارة يطالبون برفع الأجور، ولذلك رأينا الحكومة ترفض اقتراحا تقدمت به إدارة الوكالة لشراء تسع سفن جنوبية تتسع لتسعمائة حمولة تبدأ بها نشاطها،⁽³⁾ ثم تتولى مضاعفة العدد بجهودها الخاصة وطلبت من مدير

(1) - عندما تكونت الشركة الملكية الإفريقية وسعت نشاطها إلى الميادين أخرى زيادة عن صيد المرجان اتخذت من التجارة في الحبوب واتخذت القالة مقراً رئيسياً لها وانتدبت لذلك واليا وائناً للعمال ومفتشاً تجارياً وراهباً ومشرحاً ومساعدين كما أنها

جاءت بعمال فرنسيين من مختلف الاصناف وطالت ان تنصب حامية من 50 جندياً بالرغم ان المعاهدة لا تنص على ذلك

(2) - تكونت هذه الوكالة بمقتضى قرار اصدرته لجنة السلامة العامة يوم 07 فيفري 1794 وهذه الهيئة لم تغير في هيكل

الشركة الملكية الإفريقية

(3) - محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، 214.

الوكالة أن يحاول انتقاء بعض القوارب التي يمكن استعمالها، أو أن يلجأ للتأجير ينقل البضائع والسلع عن طريقه، والبحارة يرفضون المساهمة في رحلات الوكالة التي لم تكن قادرة على لا على تزويدهم بالأغذية الضرورية لا دفع مرتباتهم بكيفية منتظمة.

إن هذه الأحداث لم تكن لصالح الوكالة الجديدة، بل تركتها تتخبط، لا تدري أي اتجاه تأخذ. فمن جهة كان يجب عليها أن تشرع حيناً في أعمالها لتزويد الشعب الفرنسي بالحبوب التي زاد احتياجه إليها بسبب الحروب. ولتزويد معامل الجنوب من الجلود والشموع الضرورية حتى لا تغلق أبوابها وترمي بمئات من أرباب الأسر إلى الشارع تضخم بها طوابير البطالة والجوع.⁽¹⁾ ومن جهة أخرى كان عليها أن تبحث عن مصدر غير خزينة الدولة الحاوية، يضع بين أيديها المبالغ اللازمة لاستئناف تجارتها. ومن البديهي أن الشروع في العمل يخضع كل الخضوع لهذه النقطة الأخيرة. وستبقى التجارة جامدة ما لم تتوفر الأموال. وما من شك أن فرنسا عندئذ كانت تقدر مدى أهمية الدور الذي تلعبه مؤسساتها في موانئ الشرق الجزائري ولكنها كانت عاجزة عن تلبية رغباتها لأن خزينة الدولة كانت خاوية.

وقد تنازلت الوكالة عن كثير من حقوقها لليهود الجزائريين مقابل مساعدات مالية وخدمات أخرى في مجالات النقل والتبليغ. وفي سنة 1799 عندما تتوقف الوكالة،⁽²⁾ يكون الشريكان بكري وبوجناح قد سيطرا فعليا على أكبر جزء من الميادين التي كانت وقفا على التجار الفرنسيين.

زيادة على العجز المالي وانعدام وسائل النقل، وتمرد العمال، فإن الوكالة قد اعترضها مشكل من نوع آخر يتمثل في الخوف من رد فعل المهاجرين المتجمعين في إيطاليا.⁽³⁾ وهناك أيضا، خطر آخر يمثل الانكليز والأسبان الذين كانوا يحجزون جميع السفن التي تتوجه إلى الموانئ الفرنسية، وذلك في نطاق الحصار الذي ابتداء سنة 1792 م وبالفعل،⁽⁴⁾ فإن هؤلاء لم يترددوا لحظة واحدة في القيام بما من شأنه أن يعرقل مجهود

(1) - كانت الثورة الفرنسية وعلى رأسها نابليون بونابرت قد خطت خطوة نحو خارج أوروبا في غزوها لمصر، وهو الشيء الذي جعل اهتمام الشركة الملكية الإفريقية واستعداد الدول الأوروبية على محاصرة فرنسا ودخولها في أزمة اقتصادية حادة يتطلب منها تسوية العلاقات الجزائرية الفرنسية .

(2) - كانت هذه الفترة في عهد الباي الحاج مصطفى انقليز باي واشتد تحكمه بالتسيير الناجح والهدوء في البلاد ونمو الاقتصاد والاستقرار الاجتماعي.

(3) - شهدت هجرة كبيرة من فرنسا نحو الفرنسيين نحو الشواطئ الجزائرية بس الثورة الفرنسية والتحاقهم بالشركة الملكية الإفريقية لتنشيط التجارة بين الشرق الجزائري والموانئ الفرنسية

(4) - هي السنة التي تم فيها تحرير وهران من طرف الباي محمد الكبير

الجمهوريين، كالاستيلاء على السفن، ومنع المؤن من الوصول إلى الفرنسيين، ولما رأت الوكالة أنها مستهدفة من كل جانب، صارت تستعمل أسماء الجزائريين من اليهود والمسلمين وتكتري الأشخاص أنفسهم ليصبحوا الشحنات إلى مقاصدها.⁽¹⁾

وبما أن هذه العملية تتطلب مهارة وخبرة بالإضافة إلى نفقات كبيرة، أنشأت الوكالة مؤسسة في جنوة كلفتها بمهمتين أساسيتين، تتلخص الأولى في اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتهديب السفن عن طريق المهاجمين على مختلف أنواعهم وتنحصر الثانية في استئجار اليهود الايطاليين واستعمالهم لمرافقة البضائع الصادرة والواردة.

وإذا كانت الدولة الفرنسية قد عجزت عن تمكين الوكالة من المبالغ التي تساعدتها على خلق نواة لأسطول تجاري يكون ملكا للأمة، وإذا كانت خزائنها غير مستعدة لصرف الأموال الضرورية للقيام بالعمليات التجارية، فإنها أعطت لإدارة الوكالة حرية مطلقة من حيث العمل على إيجاد ما تحتاج إليه. وهكذا تم تكليف ممثلي الهيئة الجديدة في عنابة والقالة بالاتصال بالباي في قسنطينة، ليقرضهم ما يمكنهم من أداء مهمتهم، وقد كان البايات في السابق لا يترددون في تمويل مؤسسات الشركة الملكية الإفريقية، غير أن الغش الذي اكتشف في المدة الأخيرة غير الأمور وجعل الأعيان والسلطات في المنطقة يحترسون كل الاحتراس من التجار الفرنسيين. ولذلك لم يجد السيد كيبان أية معونة خارج نطاق المعاهدات.⁽²⁾

لما كانت التجارة موقوفة على رؤوس الأموال، أصيبت الوكالة بضعف، وتعطل نشاطها لحساب التجار اليهود الذين استغلوا، بالإضافة إلى عجز الوكالة ماديا، معرفتهم للغة الأهالي واطلاعهم على العادات والتقاليد في البلاد، وسيطروا على معظم الأسواق التي كانت تحتكرها التجارة الفرنسية، وأصبحت الوكالة تلعب دورا ثانويا بالنسبة لما يقومون به.⁽³⁾

(1) - عندما خرج الاسبان من وهران تفاوضوا مع ايالة الجزائر وتمكنوا من الحصول على اذن يسمح لهم بانشاء شركة مماثلة للشركة الملكية الافريقية في عاصمة الغرب الجزائري تتولى التجارة وتحضر بنفس الامتيازات التي كانت تحضى به الشركة الفرنسية وهنا اصبح تنافس بين الدول الاوربية على السواحل الجزائرية .

(2) - محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 214.

(3) - اتصلت هيئة الشركة الملكية في كل من عنابة والقالة بالاتصال باي قسنطينة ليقرضهم ما يمكنهم من اداء مهمتهم وقد كان البايات في السابق لا يترددون في تمويل مؤسسات الشركة الملكية لكن الغش الذي اكتشف في المدة الاخيرة غير من الامور وجعل الاعيان والسلطات في المنطقة يحترسون كل الاحتراس من التجار الفرنسيين .

في الجزائر أيضا؛ اصطدمت الوكالة بموقف السكان المعادي لها، وعجز السلطات المحلية عن حمايتها، وإذا أردنا أن نحلل الدوافع التي جعلت الأهالي يحقدون على الفرنسيين المقيمين بسواحلهم، ويهجمون عليهم من حين لآخر يقتلونهم وينهبونهم، وجدناها دينية في أغلبها وقليل ما تكون نفعية أو سياسية. فالجزائريون مسلمون وبهذه الصفة كانوا يعتبرون أنفسهم في جهاد دائم ضد المسيحيين. وهناك وثائق كثيرة عن كراهية الأهالي لممثلي الهيئات التجارية الفرنسية في موانئ الشرق الجزائري. ثم أن قانون الدية القائم بين الطرفين يشجع كثيرا على تنظيم الغارات ضد مراكز الفرنسيين وينص هذا القانون على أنه: «إذا قتل مسلم مسيحيا تقدر الدية بمبلغ 300 بياستر، وعندما يقتل المسيحي مسلما حتى ولو كان ذلك دفاعا عن نفسه، فإن الهيئة التجارية تدفع 500 بياستر كاملة غير منقوصة».

نظرا لهذا الفارق بين الدولتين، ولأن الجزائريين يرفضون الدفع دائما حسب رأي ماصون، فإن الأهالي كانوا لا يباليون بالقتل، بل كانوا كثيرا ما يتحايلون على الفرنسيين فيتقاتلون فيما بينهم وينقلون الجثث إلى جوار مساكنهم، وبعد ذلك يرفضون الدية ويحصلون عليها. إلى جانب هذه المشاكل التي لم يكن لها اتصال مباشر بالتجارة، أوجد الأهالي صعوبات أخرى كان لها تأثير بالغ على سير أعمال الوكالة، ذلك أن سكان القل، وهو أكبر مركز مصدر للجلود، أصبحوا يفضلون التعامل مع اليهود أو التونسيين ويحملون إليهم بضائعهم لأن أسعارهم كانت أحسن من أسعار الفرنسيين، ولأنهم كانوا يشترون منهم جميع الأنواع بدون استثناء، على عكس الفرنسيين الذين كانوا يرفضون الجلود التي تحملها القبائل المجاورة بمناسبة الأعياد والمواسم تفتن تجار عنابة من الأرباح التي كانت تجني من طرف الفرنسيين في صناعة الجلود، فاعتمد هؤلاء إلى بناء مدايع في عنابة وذلك لتلبية حاجاتهم المحلية وتزويد السوق التونسية بما تحتاجه من هذه المادة الضرورية، وكانت الكمية التي تصدر لتونس تقدر ب 12000 جلد وأصبحت الوكالة بخسائر كبيرة من هذه المادة، ويمثل ربع ما كانت تسوقه إلى مرسيليا من طرف الشركة الملكية الإفريقية. لكن الحرب التي أعلنت بين الجزائر وفرنسا عملت هذه الحرب من تقليص نشاطها وهيمنتها التجارية على الشرق الجزائري، بحيث كانت هذه الهيئة التجارية من أقوى الهيئات الاستعمارية على موانئ الشرق الجزائري.

الفصل الثالث: التطورات الاقتصادية في الشرق الجزائري

1837-1871م

المبحث الأول: التشريعات الفرنسية للملكية العقارية في الشرق الجزائري.

المبحث الثاني: أساليب اغتصاب الاراضي لبناء الاقتصاد الكولونيالي في الشرق الجزائري.

المبحث الثالث: تطور الزراعة الكولونيالية على حساب الزراعة التقليدية

المبحث الرابع: تطورات جباية الضرائب وتنظيمها في العهد الفرنسي في الشرق الجزائري

المبحث الأول: التشريعات الفرنسية للملكية العقارية في الشرق الجزائري

نتج عن الاحتلال الفرنسي للجزائر وتوقيع معاهدة الاستسلام يوم 05 جويلية 1830م بين الداي حسين وقائد الحملة الفرنسية على الجزائر ديورمون، في عهد الملك شارل العاشر،⁽¹⁾ عدة تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية، إلا أن الجانب الاقتصادي يكتسي أهمية بالغة في الأهداف الفرنسية لغزو الجزائر. والإشكال المطروح في بحثنا هذا يندرج في أهداف فرنسا الاقتصادية في الجزائر وسياستها الاستيطانية، والأهداف التي كانت ترمي إلى الوصول إليها. ونتائجها على الاقتصاد الفرنسي وانعكاسات ذلك على المجتمع الجزائري.

إن النظرة الأولى لعملية الغزو الفرنسي للجزائر كانت اقتصادية بالدرجة الأولى، بحيث فقدت فرنسا لمستعمراتها في القارة الأمريكية أمام غريمتها إنجلترا سنة 1763م.⁽²⁾ أن هذا المصدر الاقتصادي دفع بالفرنسيين إلى البحث عن مناطق للاستثمار، ومن جهة أخرى، الثورة الفرنسية التي كانت تبحث عن تبرير لضعف النظام الملكي، بالإضافة إلى الثورة الصناعية التي أصبحت ترمي بضلال الاستعمار الحديث في البحث عن المواد الأولية، والأسواق لتصريف فائض السلع، ومن جهة أخرى محاولة تجديد قوتها أمام الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا التي برزت كأقوى قوة أوروبية لا تضاهيها دولة.

إلا أن جوهر الموضوع هو تلاشي الدولة العثمانية والتنافس الاستعماري عليها، هذا ما تبرزه قرارات مؤتمر فيينا 1815م، والحملات الأوروبية على الجزائر حملة اكس موث 1816⁽³⁾ وقرارات مؤتمر اكس لشبال

(1)- شارل العاشر هو أحد ملوك أسرة آل بربون التي طردها الثورة الفرنسية ومن بعدها نابليون بونابرت تولى حكم فرنسا بعد وفاة الملك لويس الثامن عشر عام 1824 الذي أعاد للأسرة مكانتها الأوروبية في مؤتمر فيينا. وقد كان الملك شارل العاشر مؤيدا للنظام الرجعي المتطرف مما أدى إلى ظهور معارضة قوية ضده داخل فرنسا خاصة من طرف الاتجاهات الليبرالية والاشتراكية وحتى البونابرتية. هذه المعارضة السياسية القوية دفعت الملك شارل العاشر إلى إعطاء المزيد من الامتيازات إلى الاكليروس وطبقة النبلاء.

(2) - كانت هذه السنة تصادف حكم احمد باي القلي وفي عهده وضعت اللائحة التنظيمية للشركة الملكية الافريقية. التي يصبح لها الدور الكبير في العلاقات التجارية الجزائرية الفرنسية.

(3)- كتب الاميرال ايكسموث على متن الملكية شارلوت في مرسى الجزائر يوم 28 اوت 1816 يقول ما يلي: " من كل احداث الحياة التي كرستها كاملة لخدمة بلادي ليس منها ما اوجد لدي الشعور بالسور والغبطة مثل الذي شعرت به نهار امس. و هذا الحادث سيبقى دائما مصدرا للمتعة والشعور بالسعادة بالنسبة للانسان بكونه كان واحدا من الادوات المتواضعة التي استخدمها القدر ليرد الى الصواب حكومة همجية ومن اجل التحطيم والى الابد نظام استعباد المسيحيين وفي غمرة هذا الشعور اقدم سيدي تماني الخالصة للنجاح الكامل الذي تكلفت به الجهود البطولية التي قام بها اسطول جلالة الملك في مدينة الجزائر والتائج السعيدة التي ادت اليها اليوم بتوقيع معاهدة الصلح...

1818،⁽¹⁾ كما أن الصراع الاقتصادي كان على أشده بين إنجلترا وفرنسا وأن العلاقات الجزائرية الفرنسية أصبحت أكثر تشنجا، وكانت أصول المشكل الذي أدى في النهاية إلى التدخل العسكري الفرنسي تعود إلى عهد حكومة الإدارة (سنة 1796م) عندما كان التاجران اليهوديان المنفذان، بكري وبوشناق، قد مونا فرنسا بالقمح، الذي كان معظمه يرجع إلى حكومة الداوي وليس إلى التجار ولم تدفع حكومة الإدارة الثمن⁽²⁾.

ولكن نابليون، بصفته قنصلا، اعترف سنة 1801 بالدين ورخص بالدفع. غير أن النقود لم تسلم إلى الجزائر. ولم يحصل شيء للتخفيف عن غضب الداوي إلا بعد عودة عائلة آل بوربون إلى الحكم وفي سنة 1818 صيغت ووقعت معاهدة - بين الجزائر وفرنسا - وقد قدر الدين فيها بسبعة ملايين فرنك⁽³⁾.

إن دخول فرنسا للجزائر كان لاستجابة اقتصادية ملحة، نظرا لما كانت تتخبط فيه من نقص في المواد الأولية الغذائية والمواد الأولية الصناعية، التي اثبتت عن التطور الصناعي الذي شهدته القارة الأوربية نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي⁽⁴⁾، ومن ناحية أخرى إلى تصريف فائض السلع والبحث عن مناطق استثمار جديدة، لما كانت تتطلبه الفترة بنمو الرأسمالية الأوربية، وضيق المجال الاستثماري في فرنسا بسبب التغيرات السياسية التي كانت تعيشها فرنسا، ونمو المعارضة في فرنسا، ومحاولة الحكم الملكي تحويل أنظار المعارضة نحو الجزائر كمجال جديد للاستثمار وإبراز قوة النظام الملكي وحسن تسييره وتطلعاته واهتماماته وتصحيح أخطائه أمام المناوئين له، وكل ذلك يدخل في إطار التنافس الاستعماري الأوربي الحديث⁽⁵⁾.

لقد تم الغزو الفرنسي للجزائر وتم توقيع معاهدة الاستسلام وتمت عملية احتلال السواحل الجزائرية وانتشرت فرنسا كالنار في الهشيم رغم المقاومة الوطنية التي لم تستطع إيقاف عمليات التوسع الفرنسي في الشرق أو الغرب بل عملت تلك المقاومة إلى تأخير عمليات الاحتلال إلى حين رغم الإيجابيات التي كانت من ورائها، والتي من

(1) - بعد انعقاد المؤتمر الاوربي للدول الخليفة في مدينة اكسلشبال سنة 1818 بعثت ممثلين للمؤتمر ممثل عن فرنسا وممثل عن إنجلترا جاء فيه: " ان الدول الاوربية التي اجتمعت السنة الماضية في اكسلشبال قد اوكلت لفرنسا وإنجلترا امر تقديم تحذيرات جديدة وخطيرة باسمها جميعا للامانة البربرية حول ضرورة وضع حد للنهب وللاعتداءات التي تقوم بها السفن المسلحة التابعة لهاته الايلات. اننا جئنا باسم جلالة الملك فرنسا ونافار وباسم جلالة ملك المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا كمبعوثينهما للتبليغكم موقف الدول الوردية " .

(2) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 213.

(3) - محمد العربي الربيري، مرجع سابق، ص 126.

(4) - مرجع سابق، ص 215.

(5) - رجيم ميحاوي، الاستيطان والتوطين الاستعماري الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين، مرجع سابق، ص 21.

أساسها رفض المجتمع الجزائري لعملية التواجد الفرنسي في الجزائر⁽¹⁾. لقد اصدرت السلطة الفرنسية جملة من المراسيم والقوانين لهدف تحقيق الطابع الاستيطاني عن طريق استقبال الوفود الفرنسية الوافدة من اوربا واقامة محمعات استيطانية التي بلغ عددها سنة 1845 حوالي 35 مستوطنة تشمل 18046 مستوطن⁽²⁾.

طبيعة التشريعات الفرنسية للملكية العقارية في الشرق الجزائري:

اعتبرت فرنسا نفسها إنها ورثة النظام العثماني في الجزائر، فكل ما كان ملك للسلطة العثمانية وحكامها وموظفيها والمتعاونين معها أو تابعين لمؤسساتها أصبح ملك للسلطة الفرنسية، لذلك سعت إلى تشريع ترسانة من القوانين والمراسيم والقرارات لتحقيق ذلك. والشرق الجزائري غير مستثنى من هذه العملية، رغم تأخر احتلال عاصمة البايليك قسنطينة في 1837م.

القوانين والقرارات الفرنسية وخصائصها الاستعمارية:

اتخذ كلوزيل في شهر سبتمبر 1830 قرار ينص على مصادرة الاملاك الدينية مهما كان نوعها عامة - وخاصة ووضعتها تحت تصرف مصلحة املاك الدولة الفرنسية (الدومين)، ويشمل ذلك أوقاف مكة والمدينة والمساجد وسبل الخيرات⁽³⁾، وكان القرار يحتوي على ثمان مواد أهمها:

- هذه المادة تعين أنواع الوقف المصادر وتصفه
- كل المنازل والدكاكين والبساتين والاراضي والمحلات وأية مؤسسة، مهما كانت لها ريع مهما كان عنوانه، موجهة الى مكة والمدينة، أو المساجد أو اية جهات محددة، ستكون مستقبلا تحت تصرف الدومين، وهو الذي يؤجرها، وهو الذي يحصل على المداخيل وتقدم عنها الحسابات الى من يهمه الامر.
- هذه المادة خاصة بمكافأة المخبرين والوشاة ضد المتسترين وعقوبة جزاء ذلك.
- المادة الرابعة جاء فيها، ان هذا القرار خلال ثلاثة أيام سيضع المفتون والقضاة والعلماء وغيرهم، وهم المقترحون الآن، لتسيير المؤسسات المذكورة، وسيضعون لدى ادارة الدومين الأسماء وعقود الملكية والأزمّة (جمع زمام) والسجلات والوثائق التي تم تسييرها، وكذلك قائمة اسمية بالمحلات، وعليهم أن يكتبوا عليها أيضا مبالغ الإيجار السنوي لها ومدة آخر دفع مستحق.

(1) - سعيد بوخاوش، الاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، دار تفتيلت، الجزائر 2013، ص 57.

(2) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، ص 38.

(3) - نفس المرجع، ص 39

تنص هذه المادة على تقديم الحسابات الخاصة بالإجراءات المنصوص عليها فيما يخص مصادرة الاملاك الوقفية، وجاء في المادة الرابعة أيضا؛ أن مسيري الاملاك الدينية العمومية ان يقدموا كل شهر عرضا أو كشفا الى مصلحة املاك الدولة، يتضمن مصاريف الصيانة والخدمات الخاصة بالمساجد وأعمال الإحسان وغيرها من المصاريف التي كانت العادة تؤخذ كمعونة من مداخيل هذه الاملاك⁽¹⁾.

- المادة السابعة تنص على ان كل شخص يكشف للحكومة عن وجود بناية غير مصرح بها سيكون له الحق في نصف الغرامة التي ستفرض على المستترين.

بهذا القرار أبعدت فرنسا كل الهيئات المسئولة على التعليم ونحوه من الحياة الاجتماعية والثقافية وجعلت املاك ذلك من المؤسسات الدينية والتربوية فارغة من أملاكها ومردودها المالي التي كانت تحضى به، بل جعلت القائمين عليه موظفين لا يتبعون الهيئة التي وجدوا من أجلها ولا التي كانوا محافظين عليها، فتقلصت الأعطيات التي كانت تمنح للفقراء والمساكين،⁽²⁾ وأصبح رجال الدين والمعلمين والموظفين في المساجد والمدارس الدينية والزوايا ونحوها، فلقد اختفى وكلاء هذه المؤسسات، وظهر متصرفون وإداريون مديون تابعين للسلطة الفرنسية. وأصبح من الوكلاء موظفين عند الإدارة الاستعمارية مثل الحاج مصطفى بوضرية⁽³⁾.

لقد وضع الوكلاء تحت الرقابة الإدارية، وأصبحوا مطالبين بتقديم الحسابات والحصول على الرخص في كل ما له علاقة بالصرف والتعاملات المالية بشأن المؤسسات التي كانوا قائمين عليها.

إن الإدارة الفرنسية لم تبق على المؤسسات الدينية وأملاكها من بنايات وعقارات وارضية بل راحت تتصرف فيها عن طريق البيع والتأجير والنشاط العسكري والمدني وحتى الهدم⁽⁴⁾.

قانون 1839 الفرنسي على أملاك الوقف:

قسم هذا القانون أملاك الدولة (الدومين) إلى ثلاثة أصناف هي:

- الدومين الوطني.
- الدومين الكولونيالي.
- والاملاك المصادرة.

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، دار البصائر، الجزائر 2009، ص 162-163.

(2) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، ص 53.

(3) - يحيى جلال، سياسة التسلط الاستعماري، والحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 218.

(4) - المرجع نفسه، ج 5، ص 166-167.

أدخل هذا القانون أملاك الوقف في القسم الثاني كما نص على تعويض للمستحقين من المستفيدين في حالة الهدم. أما ما عدا ذلك فيبقى ساري المفعول حسب قرار 07 ديسمبر 1830م السابق الذكر⁽¹⁾.

قرار 23 مارس 1843:

أصدر وزير الحربية الماريشال الدوق دالماتي (Dalmatie) قرار من ثمانية مواد،⁽²⁾ جاء فيها ما يلي:

- المادة الأولى: ان كل الموارد والمصاريف الناتجة عن المؤسسات (الدينية)، قد اصبحت ملحقة بالميزانية الاستعمارية (الكولونيلية).
- المادة الثانية: تنص على استمرار مصلحة املاك الدولة في تسيير المؤسسات الدينية حسب القرارات السابقة.
- المادة الثالثة: تنص ان البنائات المنجزة عن المؤسسات الوقفية والتي توقفت عن تبعيتها الدينية ستجمع فوراً الى تلك التي دخلت في المادة السابعة، ويكون تسييرها طبقاً لنفس الأحكام.
- المادة الرابعة: تنص على البنائات التابعة لمؤسسات ما تزال مخصصة للديانة (الإسلامية) فإنها تضم بالتدريج لمصلحة الدومين طبقاً لقرارات خاصة⁽³⁾.

قرار 3 أكتوبر 1848:

اصدر الحاكم العام شارون⁴ قرار من ثلاثة مواد هي كالتالي:

- المادة الأولى: ان كل المباني التابعة للمساجد والمرابطين (القباب والأضرحة) والزوايا، وبصفة عامة كل المباني الدينية الإسلامية، التي ما تزال بصفة استثنائية تحت ادارة الوكلاء قد اصبحت منذ الآن موضوعة تحت ادارة املاك الدولة.
- المادة الثانية: تنص على ان كل الوكلاء وضع ما بأيديهم من وثائق ومداحيل وأوجه من الصرف ومصاريف وقوائم املاك في يد مصالح املاك الدولة خلال عشرة أيام من أخطارهم رسمياً⁽⁵⁾.

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 5، ص 169.

(2) - MONITEUR Algerien ; n°321 ; du 9 janvier 1828 et n°404 de 26 octobre 1840

(3) - نفس المرجع، ص 168.

(4) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، ص 43.

(5) - هذا القرار أرخه ديفوس بتاريخ 3 أكتوبر 1848 وأرخه أوميرا 6 أكتوبر 1848، راجع أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس صفحة 169.

لقد سلكت فرنسا في تجسيد سيادتها على الأرض من اجل إضعاف المجتمع الجزائري وإضعاف البنية الاجتماعية التي تربط الجزائريون اقتصاديا، والأسباب التي كانت تتخذها لإقوانين أحادية الجانب، مركزة على سياسة إفراغ الأراضي من سكانها لكي يتسنى لها إقامة نظام اقتصادي كولونيالي يزود فرنسا وأوروبا بما تحتاجه من المواد الأولية وتحقيق استثمار يتمشى و رغباتها السياسية، ورغم تواصل المقاومة المسلحة التي لم تحقق زحف عملية الاحتلال، ورغم ظهور زعماء وطنيين يدافعون بشراسة على سياسة لم يتقبلوها، لقد استطاعت فرنسا بسياستها ان تشتري ضمائر من الجزائريين عن طرق الامتيازات التي تركتها في أيديهم، ولكن مكرها كان ذلك الى حين تمكنها من تجريدهم من مناصبهم وتقضي على الإرث التاريخي الذي ورثوه من أجدادهم، وهذا لم يتحقق في ظل السلطة العثمانية.

يلاحظ ان كل الهيئات لها حق اصدار القوانين والمراسيم وهي احادية الجانب لم يشارك الجزائريون في اخذ برئهم فهم مغيبون وعليهم تطبيق هذه الالترسانة والهدف واحد هو اذلال وتفجير المجتمع الجزائري من كل ما يجعله فاعلا حيث يصرح دو كفييل ويقول : " اننا جعلنا المجتمع الاسلامي (الجزائري) اكثر شقاء واكثر بربرية مما كانت عليه قبل وجودنا".⁽¹⁾

تشريعات عقابية أحادية الجانب:

شرعت فرنسا مجموعة من القوانين التي استطاعت بها حشد اكبر مساحة ممكنة من الأراضي بدءا بمرسومين 1844-1846، هذه القوانين صدرت في مجال الأرض التي صاغتها مختلف الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم في فرنسا بمختلف مشاربها الفكرية وتوجهاتها المذهبية، وقد استهدفت السكان لتجريدهم من أراضيهم بمختلف الوسائل والأساليب.

1- مرسوم 01 نوفمبر 1844:

وهدفه طمأنة الجزائريين بالأمان على قطعهم الأرضية وملكياتهم مستقبلا، وكذا تسهيل انتقال الأراضي الزراعية إلى الكولون،⁽²⁾ فالمرسوم الأول اثبت شرعية ما يملكه الكولون وصادق على العقود العقارية والقاضي انتزاع كل الأراضي غير المستغلة زراعيا.⁽³⁾

(1) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، ص 41.

(2) - بن داهة عدة، المرجع السابق، ص 133.

(3) - الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 196.

- مرسوم 21 جويلية 1946م: وأهم قراراته: أن السلطات الاستعمارية سوف تباشر إجراءات تحقيق عن عقود الملكية العقارية الريفية بتحديد مساحتها وفق قرارات خاصة تصدرها وزارة الحربية⁽¹⁾، وكل الأراضي غير مزروعة والتي لا يملك أصحابها وثائق تثبت حيازة (سندات ملكية)⁽²⁾، فإنها تتحول إلى ملكية الدولة ومس هذا المرسوم أراضي البور (يفترض بدون مالك) أي أن عدم زراعة الأراضي يكون سببا كافيا لانتزاع ملكيتها ووضعها تحت سلطة الاستعمار الفرنسي.

- مرسوم 31 جويلية 1845: مرسوم حكومي قاضي بالسماح للعسكريين بحجز الأراضي الزراعية في حالة حدوث أي نشاط عدائي للوجود الفرنسي بحيث نصت المادة 10 منه على مصادرة أملاك الجزائريين الذين: « اشتروا في أعمالا عدائية ضد الفرنسيين أو ضد القبائل الخاضعة، أو قدموا مساعدات مباشرة أو غير مباشرة للثارين ضد فرنسا أو قاموا باتصالات معهم وأهملوا أراضيهم والتحقوا بالمقاومة⁽³⁾. أو غادروا منازلهم لمدة تجاوزت ثلاثة أشهر دون إذن من السلطات الاستعمارية الفرنسية».

هذه الإجراءات حصلت في كل المقاومات الشعبية، واعتبرت فرنسا تلك الإجراءات كفيلا للحد من المقاومة والتخفيف من حدتها، وثورة وحمد بن أحمد المقراني 1871 وما أعقبها إلا مظهر ذلك، وهو ما استدعى السلطة الاستعمارية إلى الاستمرار في أعمالها العسكرية بهدف إسكات الجزائريين ولكن في نفس الوقت مضاعفة الاستيلاء على الأراضي لبناء اقتصادها وتجسيد الطابع الاستيطاني.

-مرسوم 19 سبتمبر 1848م: المبادئ الأولى لهذا المرسوم تقضي بمنح اعتماد مالي قدره 5 مليون فرنك لوزارة الحربية لتمكينها من تغطية تكاليف السنوات الأربعة 1848-1851 الخاصة بإنشاء المستعمرات الفلاحية في مناطق الجزائر وكذلك للخدمات ذات المنفعة، ونصت المادة الثالثة من هذا المرسوم على أن الكولون أو الراغبين في التحول إلى المزارعين سيستفيدون من الدولة قطعا أرضية زراعية بشكل مجاني تتراوح مساحتها من 02 إلى 10 هكتار للعائلة الواحدة.⁽⁴⁾

(1)- بن داهاة عدة، المرجع السابق، ص 316-317.

(2)- الطاهر بن خرف الله، المرجع السابق، ص 144.

(3)- سعيد بوخاوش، الاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، دار تفتيت، الجزائر 2013، ص 57.

(4)- سعيد بوخاوش مرجع سابق، ص 59.

- قانون 16 جوان 1851: هذا القانون أكد أن الملكية حق مضمون للجميع دون تمييز بين الملاك الجزائريون والملاك الفرنسيين أو غيرهم⁽¹⁾ وقد حصرت له لجنة ترأسها الجنرال دي لاموريسير أحد مؤيدي لفكرة ترحيل الجزائريين وحشدتهم في جهات معينة.

لقد زعزع هذا القانون توازن المجتمع بشكل خطير بدأت الأراضي المخصصة للفلاحة وللرعي والتي كانت واسعة كفاية قبل تطبيق هذا القانون، فشهدت تناقضا يعني ذلك اختناقا بنسبة للقبائل إلى أن السلطات الاستعمارية كانت تعي ذلك تماما، حيث كتب مستشار الدولة ليتب ودوا في أحد تقاريره يقول: «لا يمكن حصر هؤلاء الناس فجأة ضمن خطوط هندسية متراسة في حين أنهم يحتاجون الصحراء شتاء والسهول التل في الربيع والصيف والجبال والغابات في فترات الجفاف»⁽²⁾.

وعمقتضى هذا القانون الذي ضم الأراضي الغاية إلى أملاك الدولة فإن 200 ألف هكتار من أراضي الغابات و60 ألف هكتار من أراضي القبائل أعلنت تابعة للدولة⁽³⁾. كان هذا القانون قد ترك جانبا هاما هي كيفية حصول الفرنسيين على الأراضي الجزائريين الزراعية وسرعان ما بدأت الحكومة الفرنسية عملية حصر الأراضي التي تزرعها القبائل الجزائرية، ورسمت خطة الامتلاك الدولة لجزء هام منها وترك الباقي وغلته للمواطنين، استندت الحكومة الفرنسية إلى ادعاء يقول أن الوطنيين لا يزرعون كل أراضيهم، وأنهم ليس لديهم حجج رسمية تثبت ملكيتهم الشرعية لها، فتركت جزءا بسيطا من هذه الأراضي لهم، واستولت على الباقي وكان هذه القبائل تعمل في نظام اشتراكي في زراعته على أساس تقسيم المحصول بين رجالها، وسنرى أن الأراضي المتنوعة ستمر إلى كبار الممولين الفرنسيين الذين يتعهدون بزراعتها إلى من يرغبون⁽⁴⁾.

ومن خلال هذا جعل رجل القانون جودان (F. Godin) واصفا القانون 1851 بقوله: «إنها نظرية السلب والنهب»، فلقد استولت الدولة على أحسن الأراضي والباقي قسمته قطعاً صغيرة ما بين 08 و10 هكتارات لكل عائلة⁽⁵⁾. جاء في كتاب لويس رين قوله: «وهنا كما في كل الجهات، حرصنا منذ أن أصبحت لنا

(1) - بن داهة عدة، المرجع السابق، ص319-324.

(2) - مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 14.

(3) - عدى الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة، لبنان، 1983، ص63.

(4) - جلال يحيى، السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، ط1، مصر، 1959، ص 231-230.

(5) - محمد عيساوي، نبيل شريحي، الجرائم الفرنسية في الجزائر أثناء الحكم العسكري 1830-1871، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص136.

السيادة على هذا البلد، على اتخاذ أولئك الأسياد التقليديين موظفين بسطاء، ومنفذين طيعين، لمآربنا السياسية وأحيانا دون ذلك، فالذين خضعوا لنا بسهولة وقبلوا شروطنا كانوا أيضا من أولئك الذين انفصلت القبائل عن سلطتهم بصورة كاملة»⁽¹⁾.

-القرار المشيخي 22 أبريل 1863 (Sénatus – consult):

يعتبر هذا القرار منعرجا حاسما في تاريخ الملكية العقارية لما نتجت عنه من آثار بليغة الخطورة على مستقبل البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري⁽²⁾، فاستبدل حق استفادة القبائل الجزائرية من الأراضي العروش بملكيتها وفرض تقسيمها على الدواوير والأفراد لتفتيتها وتحويلها إلى ملكيات فردية، بغرض تحقيق الترقية الثقافية للجزائريين إلى جذبهم إلى الحضارة الفرنسية، وذلك من خلال تكثف المعاملات العقارية مع المستوطنين وتأثرهم بهم، بذلك انتقلت مساحات هائلة من الأراضي إلى السلطات الاستعمارية والكولون بلغت قرابة 6 ملايين هكتار سنة 1866، منها 508000 هكتار من الأراضي الزراعية للكولون، وتحوّل كثير من الجزائريين من ملاكين إلى خماسين في حقولهم لا يحصلون سوى ما يسد رمقهم، فاضطر الكثير ممن احتفظ ببعض الملكيات الصغيرة إلى الاستدانة لشراء البذور من الأوروبيين أو اليهود بفوائد بعضها 20% شهريا أي 240% سنويا⁽³⁾.

وهذا القرار حمل عنوان "قانون سلطاني في شأن أحوال أهل الوطن الجزائري وانتسابهم للدولة الفرنسية"، ويرمي إلى تكوين مناطق إيواء بالنسبة لرجال القبائل ويعترف لهم بحقهم في الملكية كما يسمح بجيازة السكان المحليين للأراضي التي يعيشون عليها تطبيقا لذلك قسمت الأراضي القبلية المشاعة إلى أراضي تستغل في الرعي وهي مراعي القبلية قدرت مساحتها بـ 2840531 هكتار، أو أراضي تخصص للفلاحة وهي أراضي الجماعة 2859505 هكتار وألحقت بها أرض العزل واعتبرت مبدئيا بأنها ذات وضع خاص بحيث لا يمكن تحويل ملكيتها إلا بعد أن تثبت الملكية الفردية عليها باقتسامها بين أفراد القبيلة⁽⁴⁾.

ولقد جاء في هذا القانون: «كان ممنوعا على أي شخص باستثناء الدولة⁵، أن يستلب حق الملكية أو حق التمتع بالأراضي التابعة للعشيرة، وعلى هذا الأساس أصبح من الممكن امتلاك أراضيها ولهذا أمر بفتح مجالات

(1) - لويس رين، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، دار الرائد للكتاب، ترجمة، مسعود حاج مسعود، الجزائر 2013، ص 750.

(2) - عدى الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة مرجع سابق، 1983، ص 63.

(3) - بشير بلاح، المرجع السابق، ص 159.

(4) - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وأفاق مقاربات لواقع الجزائر من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، عالم المعرفة، ط2،

الجزائر، 2009، ص 33.

(5) - عدى الهواري، مرجع سابق، ص 66.

واسعة للأوروبيين وشركاتهم كما أرسى هذا القانون تحويل الملكية الجماعية لأراضي القبائل إلى ملكية فردية، والتي طالب مناصروها أمام مجلس الشيوخ بقولهم "جميعنا متفقون أن الملكية الجماعية ستكون عقبة يصعب تجاوزها أن الملكية الفردية الحرة هي السبيل الأفضل نحو استعمار خصب"⁽¹⁾ وهو الأمر الذي ساهم في القضاء على وحدة القبيلة الجزائرية والنظام الجماعي لاستغلال هذه الأراضي⁽²⁾.

حيث تم نزع الملكية من الجزائريين تقدر ب 61000 هكتار من أحسن الأراضي ل 16 قبيلة أي ما يقارب 22% من ممتلكاتها وقد استفادة من السياسة إقامة المعمرين⁽³⁾، اكتسى الاستعمار الريفي خلال هذه الفترة أشكالا معتمدة منها الاستعمار صغير ببناء مراكز ريفية ما يقارب من 79 بين 1850-1870م⁽⁴⁾، وكان الحاكم العام راندون⁽⁵⁾ يفضل نظام الأراضي الكبيرة المتنازل عليها للرأسماليين، لقد كان هناك تنازلات لأفراد لأفراد 2672 هكتار إلى ثلاثة ملاكين قسنطينيين في ناحية سانت أرنو.

فكر الاستعمار الفرنسي بكل الوسائل الممكنة للاستحواذ على أكبر مساحة من الأراضي لتحقيق ذلك إذ التجأ إلى إصدار عدة قرارات ومراسيم قانونية لتحقيق أهدافه الاقتصادية الاستيطانية الاستعمارية.

إن مرسوم 1844 و 1846 نلمس فيهما إصرارا على تطبيق صفة أراضي العرش لأراضي الملك، حتى تصنف هذه الأخيرة في أملاك الدولة، وهكذا ضاعفت المكاتب العربية جباية الضرائب، انطلاقا من عام 1855، وتوصلت حتى إلى فرض قانون الإيجار الذي حددته ب 50 فرنكا لكل هكتار صالح للزراعة، و 250 لكل هكتار صالح للزراعة من المراعي بالسهول الداخلية، وبذلك نجد مجموعات كبرى من السكان أجبروا على

(1) - محمد عيساوي، نبيل شريخي، مرجع السابق، ص 136.

(2) - الطاهر بن خلف الله، المرجع السابق، ص 150.

(3) - Mahfoud Kaddache, l'Algérie des algériens de la prehistoric à 1945, Alger, 2000, p 643.

(4) - وارين warnier: ممثل الجزائر في الجمعية العامة نائب يمثل الكولون الجزائريين في البرلمان الفرنسي، بناء على اقتراحه تم التصويت على قانون تحويل الملكية الجماعية في الجزائر إلى ملكية خاصة.

(5) - راندون جاك لوي: كان وزيراً للحربية حتى أكتوبر 1851. وبالرغم من أنه لم يكن من مؤيدي انقلاب ديسمبر 1851،

فقد أيد في نهاية المطاف الإمبراطورية الفرنسية الثانية. وفي 1852 عين كونت خلفاً لعمله مار شال الذي فارق الحياة سنة 1851 عينه نابليون الثالث خليفة للجنرال ألفونس هنري دوتبو ليصبح لاحقا حاكما عاما، استطاع أن يقود عملية الغزو للجزائر مما جعل شهرته أكبر كحاكم عام للجزائر لا كوزير للحربية. عاصر المارشال راندون الكثير من الأحداث منها المقاومة الاغواط في الجنوب الجزائري والتي قادها ناصر بن شهرة بوشوشة. وصول راندون الى مدينة الجزائر العاصمة، سنة 1857 عاش مسارا حافلا بالنجاحات، وهو الذي قلّد بوسام اللغيف الشرفي في 24 ديسمبر 1853، ليرتقي إلى رتبة مارشال في 10 مارس 1856، وبعدها ب 3 سنوات تم تقليده رتبة جنرال الأركان جيش 1867. مات بجنيف سنة 1871م.

تأدية رسوم جديدة إضافة للقوانين السابقة، ومن جهة أخرى في بعض الحالات المزارعون لا يملكون من الأراضي إلا التي في حوزتهم بمساحات صغيرة، فالإدارة الفرنسية ستحوذت على مساحات كبرى⁽¹⁾.

تحويل الأوقاف الى مصادر للاقتصاد الفرنسي في الشرق الجزائري:

أراضي الوقف التي حبست على الأعمال الخيرية والمؤسسات الدينية وأوكلت التصرف فيها إلى ناظر الأوقاف ومساعدين من الوكلاء والشواش، فقد انتشرت الأوقاف أواخر العهد العثماني وتركزت بالقرب من المدن الكبرى حيث أصبحت تغطي حسب بعض التقارير ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة بالمناطق الخاضعة مباشرة للبايليك، ونظرا لإحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بها والمعاملات القانونية الخاضعة لها، فإنها لم تكن تخضع لأي ضريبة أو رسم، ولم تكن تتعرض لأي نوع من أنواع المصادرة أو الحجز من طرف الحكام⁽²⁾.

التشريعات والإجراءات الإدارية الاستعمارية في مجال الأوقاف والحبس:

1- قرار 08 سبتمبر 1830 م: تضمن بنود يمنح للسلطات العسكرية الفرنسية الحق في الاستحواذ على أملاك موظفي الإدارة التركية السابقة وبعض الأعيان من الكراغلة والحضر بالإضافة إلى بعض الأوقاف التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين.⁽³⁾

2- مرسوم 07 ديسمبر 1830 م: يخول للأوروبيين امتلاك الأوقاف ووضع الأملاك الوقفية تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الأملاك العامة مع إبقاء المشرفين عليها من الوكلاء.

3- قرار أكتوبر 1844 م: ينص هذا القرار أن الوقف لم يعد يتمتع بصفة الممانعة والحصانة بحيث أصبح يخضع لأحكام المعاملات المتعلقة بالأملاك العقارية.⁽⁴⁾

4- مرسوم 30 أكتوبر 1858 م: وسع هذا القرار من صلاحيات القرار السابق واخضع الأملاك الوقفية لقوانين الملكية العقارية المطبقة في فرنسا وسمح لليهود وبعض المسلمين لامتلاك وتوارث الأراضي الوقفية.

لقد عمدت فرنسا بسياستها الاستعمارية في الاستحواذ على أوقاف الجزائر بداية من يوم احتلالها لعاصمة الجزائر وبذلك نقضت أول عهودها لمعاهدة 05 جويلية 1830 م. والهدف هو الرغبة في دعم الخزينة الفرنسية عن طريق الاستحواذ على خزينة الدولة، ومنها الاستحواذ على أملاك البايليك وبعدها تجريد المؤسسات الدينية

⁽¹⁾ -Djilali sari, op-cit, pp 27-26.

⁽²⁾ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص 53.

⁽³⁾ - سعيد وخاوش، مرجع سابق، ص 39.

⁽⁴⁾ - ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 60.

والخيرية التي كانت تعتمد في مداخلها على الأوقاف، وهو مصدر تسييرها وتنمية الروح الدينية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وكانت ترمي من هذه السياسة إفقار المجتمع الجزائري وتحطيم بنيته الاجتماعية والاقتصادية، وبناء اقتصاد استعماري كولونيالي رأسمالي يتماشى وتطلعاتها وطموحاتها الاستعمارية والاستيطانية.

وكانت ترى سلطة الاحتلال أن مصادرة مصادر تمويل المؤسسات الدينية والمتمثلة في الأوقاف هو القضاء على المقاومة الشعبية التي كان يتبناها شيوخ الزوايا وشيوخ القبائل وشيوخ الطرق الصوفية، وهذا ما كان سببا في تهمته ابن العنابي المفتي الذي هم بجمع الأموال لتعبئة الشعب للجهاد في سبيل الله ضد الاحتلال الفرنسي، وهذا ما أكده الماريشال فيان وزير الحربية في الحكومة الفرنسية، حيث ذكر أن طريقة تسيير الوقف دون مراقبته تجعل من المشرفين عليه باستطاعتهم تهريب أمواله واستعماله في حرب ضد أعدائهم ويعتبره تعصب إن لم تشدد الرقابة على تلك الأموال الضخمة⁽¹⁾.

مصادرة أراضي الأوقاف:

كانت نظرة الاستعمار الفرنسي للوقف نظرة تحد من سياستها الاستعمارية وليس لها من سبيل في تطبيق بدائها الاستيطانية في الجزائر، لان معظم الأراضي في أواخر الفترة العثمانية أضحت تحت تصرف مؤسسة الأوقاف والتي كانت شبه مستقلة عن السلطة الحاكمة وفي هذا الصدد يصرح احد الفرنسيين بقوله: «بان الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتناقى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر»⁽²⁾.

والسؤال المطروح هو: كيف تعاملت السلطة الفرنسية مع الأوقاف في الجزائر؟ وما هو ردود فعل الأهالي من هذه الإجراءات؟ وما هي الانعكاسات المترتبة عن السياسة الفرنسية في الميدان الاقتصادي والاجتماعي؟

لقد أصدرت السلطات الاستعمارية جملة من القوانين والمراسيم ذات البعد الاستعماري والأهداف الاقتصادية والاجتماعية التي تحقق بها الطابع الاستعماري الاستيطاني في الجزائر، بحيث أصدرت قوانين ترمي إلى رفع الحصانة والممانعة عن الأملاك الوقفية وأراضي الحبوس، التي كانت تقف حجرة عثر أمام تجسيد سياستها، والمتمثلة في إضعاف القدرة الاقتصادية للمؤسسات الدينية التي كانت تشرف عليها وتعتمد عليها لتسيير شؤونها الاقتصادية والاجتماعية، والمتمثلة في التعليم وصيانة الأماكن المقدسة، وإعطاء للأوروبيين مجالا جغرافيا اقتصاديا لتجسيد

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، مرجع سابق، ص ص 187-188.

(2) - نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 165.

مشاريعهم الاستيطانية، ومن جهة أخرى تفكيك البنية الاجتماعية والرابطة الدينية التي كانت تجمع بين المجتمع الجزائري، وإضعاف المؤسسات الدينية التي كانت عامل ترابط بين أفراد المجتمع.⁽¹⁾

تكريس الاقتصاد الكولونيالي الإستطاني بمصادرة أراضي الجزائريين:

بنت فرنسا سياستها الاقتصادية في الجزائر على الإستيطان وجعلت من الجزائر المساحة التي تغذي بها حاجاتها من المواد الأولية، لذلك أوجدت مجموعة من الأدوات لتحقيق ذلك، ومنها العسكرية والتشريعية والإدارية. وكل تلك الوسائل لم تراعي فيها الشأن المحلي للسكان الذين أوجدتهم في الجزائر. فما هي سياستها في توفير الأراضي لمشروعها الإستطاني؟ وما هي مراحل تجسيده؟

لقد اتخذت من أسلوب المصادرة آلية واتخذت من القرارات والمراسيم والقوانين طريقا لذلك، فقامت سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر بصادر مساحات واسعة من الأراضي بداية من أراضي البايليك إلى أراضي الوقف إلى أراضي الخواص وأراضي الشيوخ للقبائل، واعتبرتها حق من حقوقها على حساب الجزائريين. قبل أن يشرع في جلب المهاجرين للاستفادة من الأراضي التي قام بمصادرتها، لهذا عملت الإدارة الاستعمارية على سياسة تشريع القوانين لاستخدامها كسلاح للنهب.

وتنفيذا لسياسة هذه الأخيرة أعلنت سلطة الاحتلال الفرنسي رغم تعهداتها باحترام ممتلكات الأهالي، وسعت في تكوين أملاك الدولة الفرنسية، تحت اسم الدومين (les domaines) وبذلك أصدرت عدة مراسيم⁽²⁾ وقرارات وقوانين⁽³⁾ تبيح لنفسها حق التصرف والتنفيذ والاستحواذ على الأراضي والممتلكات.

مصادرة ممتلكات البايليك:

استحوذت الإدارة الفرنسية بعد شهرين من اتفاقية 5 جويلية 1830⁽⁴⁾، بتطبيق المرسوم مؤرخ في 8 سبتمبر 1830م على بعض الممتلكات، خاصة منها ممتلكات الحبوب وذلك بقرار كلوزيل⁽⁵⁾ الذي أمر بحجز

(1) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 96.

(2) - المرسوم هو نص يُصدره رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء في مسائل تنظيمية لا تتعلق بالدولة ككل.

(3) - القانون: القانون هو نص يُقره المجلس النيابي ويُوقع عليه رئيس الجمهورية كي يُصبح نافذاً، وهو يُحدد المبادئ والقواعد الأساسية المنصوص عليها في دستور الدولة.

(4) - Mahfoud Kaddache, Djilali sari, l'Algérie Permute et résistance (1983-1962) offre des publications universitaires, Algérie, 2002, p 158.

(5) - عينتهحكومة الملك لويس فليب قائدا عاما بعد الكونت دي برمونت قائد الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر من 12 أوت 1830 إلى 21 فبراير 1831. رقي إلى رتبة مارشال في 27 جويلية 1831. توفي في 21 أبريل 1842 بسكوريو بمنطقة قارون العليا. وقد قدم كلوزيل إلى الجزائر شهر سبتمبر 1830، وبقي في منصبه ستة أشهر إلى غاية فبراير 1831 وهو صاحب

أملاك العثمانيين المتضمنة أملاك الأتراك وأملاك البايليك والأوقاف الإسلامية "الخبوس"، وبذلك تمكنت من خرق البند الخامس من معاهدة 05 جويلية 1830م، الذي نص على عدم التعرض للأوقاف الإسلامية، لكنه تراجع عن ذلك فحجز الأوقاف تحت ضغط احتياجات الجزائريين مؤقتا فأصبح لفرنسا أملاكها، كانت تابعة للعثمانيين لمصلحة أملاك الدولة، وذلك بعد إصدار قرار 7 ديسمبر 1830م، وهو مكمل للقرار السابق الذي نص على ضم كافة الأوقاف الإسلامية، التي شملت مكة والمدينة والمساجد والزوايا وسبل الخيرات وأوقاف الأندلسيين والطرق والمياه إلى قطاع أملاك الدولة⁽¹⁾.

كانت عملية مصادرة الأراضي لها نتائج كثيرة منها تدمير المحاصيل، وانخفاضها وتخريب الحدائق والمجاري المائية والروافد الضرورية للري، في هذه المرحلة الأولى من نزع الملكية بدأ الاستيطان يشق طريقه، حيث كانت سياسته من اخطر العوامل التي أثرت تأثيرا مباشرا على التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، والتي اعتمدت نواته الأولى على بناء القرى والمراكز الاستيطانية واستصلاح الأراضي من طرف العسكريين، ليشرع فيما بعد في عملية الهجرة المستوطنين من فرنسا وأوروبا إلى الجزائر بشكل مكثف، وإخضاعهم للعمل الجماعي بعد خمس سنوات يصبحون الملاك الحقيقيون للأراضي التي يشغلونها.

تضافرت جهود العسكريين والسياسيين ورجال الدين على حد سواء في عملية إرساء الاستيطان الفرنسي في الجزائر، وذلك لإنشاء مجتمع أوروبي مسيحي يرتبط بقوة شديدة بالأرض الزراعية، وبهذا كان العسكريون محور أساسي في عملية الاستيطان وأدائه الأكثر فعالية، فهم الذين قاموا بالدور الاقتصادي والعسكري في تحضير الأراضي الزراعية وتهيئتها للمهاجرين الذين كونوا فئة الكولون⁽²⁾.

سجل حافل بالجرائم البشعة في حق الشعب الجزائري، وكان من دعاة الاحتلال الشامل وأعيد تعيينه للمرة الثانية حاكما عاما على الجزائر ما بينأوت 1835 ويناير 1837 برتبة مارشال. أما عن سياسته في الجزائر، فيمكن إجمالها في النقاط التالية: انشأ فرقة مشاة من الجزائريين عرفت باسم الزواف في أكتوبر 1830. قام بتوزيع الأراضي على فرقه العسكرية أصدر قرارا يجعل أملاك الأوقاف وإحصائها وإدارتها وحساباتها ترجع إلى إدارته الجديدة. عزل من منصبه في 20 فبراير 1831 بعد اتهامه بالذاتية وعدم الدبلوماسية، عاد إلى الجزائر سنة 1835 خلفا لديزلون. فشل في معركة قسنطينة الأولى سنة 1836.

(1) - بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1889، ج1، دار المعرفة، الجزائر، ص158.

(2) - بن داهاة عدة، مرجع سابق، ص 43.

اعتبرت الجزائر قطعة من فرنسا لذلك شجعت الاستيطان عن طريق الهجرة عن طريق طمأنة المستوطنين على البقاء في الجزائر، وقد عمل كل من العقيد "دي لاموريسيار"⁽¹⁾ والعقيد "بيدو" على إنشاء مراكز استيطانية كبرى.

عرضت الإدارة الفرنسية في سنة 1837 أراضي للبيع بسعر يقارب 48 فرنك للهكتار الواحد، وسمحت ببيع الأراضي بالتراضي حيث حصل عن طريق هذا الأسلوب بعض المهاجرين على أكثر من 4500 هكتار خلال هذه السنة⁽²⁾.

فكر "دي لاموريسيار" في أن يطبق مشروعه وذلك بتوطين خمسة آلاف عائلة فلاحية توزع على 22 بلدية فوق أراضي تقدر مساحتها بـ 80000 هكتار، تسند فيها مهمة الاستيطان إلى رأسماليين يتحملون كل النفقات، باستثناء الطرقات والحصون والمرافق العمومية، ومن بين المهام الموكلة إليهم انتزاع الأراضي الزراعية من الفلاحين الجزائريين، عن طريق المقايضة أو عن طريق شرائها منهم بأسعار زهيدة، أو طردهم منها بطريقة لا تثير إحساسهم بالطرد، وبذلك طلب لاموريسيار من الحكومة الفرنسية قروضا مالية لا تقل عن 200000 فرنك لتثبيت 2332 عائلة أوروبية، ودعا الحكومة الى تهيئة المواقع وتحديد الطرق والمساحات العمومية وحفر الآبار وبناء الأحواض المائية والسدود لسقي الأراضي الزراعية⁽³⁾.

مصادرة ملكيات القبائل:

لم تتوانى الحكومة الفرنسية بضم أملاك العثمانيين وأراضيهم وأملاك الحبوس أقدمت على مصادرة أراضي القبائل وفرض الحراسة⁽⁴⁾. استنادا للقرار الصادر عام 1839 م الذي ينص على مصادرة أراضي الجزائريين الذين ساندوا المقاومة المسلحة وخاصة عند استئناف الأمير عبد القادر الجهاد في الناحية الغربية والوسطى والحاج أحمد

(1) - دو لاموريسيار: كريستوف ليون لويس جوشوا دو لاموريسيار (5 سبتمبر/ أيلول 1806 - 11 سبتمبر/ أيلول 1865) جنرالفرنسي.

(2) - رحيم محياوي، دراسة مستقبلية الاستيطان والتوطين الاستعماري الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، 2006، ص 24.

(3) - بن داهاة عدة، الاستيطان.. ج 1، المرجع السابق، ص 44، 45.

(4) - إبراهيم مياسي، مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962، دار هومة، ص 124.

بآي في الجهة الشرقية واعتبرت فرنسا تلك العملية الوسيلة اللائقة لوضع حد للمقاومة⁽¹⁾. هو تدمير المحاصيل ومصادرة الأراضي بعد انتهاك معاهدة التافنة 1837⁽²⁾.

طبق الجنرال بيجو⁽³⁾ سياسة متميزة تمثلت أساسا في الاحتلال الواسع حاملا شعار " تطوير الجزائر بالسيف والحراث، وعمل على إنشاء مخيمات فلاحية عسكرية يسكنها ويسيرها الجنود المتزوجين وكانت قناعته مؤسسة على رأي هو " أن قانون الأقوياء قائم على فلاحه الأرض بواسطة الجيش وعن طريق إخضاع الأهالي بقوة السلاح الحربي ". ولتطبيق أفكاره وضع جدولا زمنيا قسمه إلى ثلاث مراحل هي:

- المرحلة الأولى: تمتد من عام 1841 إلى 1843 يتم فيها تنظيم وتطبيق سياسة فلاحية واسعة بعد أن يتمكن الجيش الفرنسي من القضاء على المقاومة الوطنية الجزائرية، وأصدر قرار بتطبيق هذا العرض يوم 18 افريل 1841 يقضي بتوزيع الأراضي على المعمرين مجانا.

- المرحلة الثانية: وتمتد من عام 1844 إلى 1845 يتم فيها إعداد الظروف لاستقبال الهجرة الأوروبية التي قدرها بيجو ب 4000 عائلة سنويا تكون في مقاطعة قسنطينة وحدها.

- المرحلة الثالثة: وتمتد من عام 1846 إلى 1847 يتم فيها بناء مدن وقرى فلاحية على أراضي الجزائريين وبالفعل تم وضع وتنفيذ قرار 1846 الذي نزع 168000 هكتار من 2000 عائلة جزائرية وبهذا كان بيجو يريد تطبيق هذه السياسة بقوة السلاح من دون مراعاة أدنى حقوق الجزائريين⁽⁴⁾.

وفي 15 جانفي 1840 صرح بيجو في خطاب ألقاه أمام مجلس النواب قائلا: « في إفريقيا لا يوجد سوى قطاع واحد هو الزراعة، مع ذلك فإنه من الصعب النيل من هذا العصر من أي مكان آخر لأنه لا توجد لا قرية

(1) - بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، الجزء الأول، دار المعرفة، الجزائر (د.ت)، ص 158.

(2) - Djilali sari, Ladésposetion Des Fellah 1830-1962 ; Enag Editions ; Alger ; 2010, p 15.

(3) - بيجو توماس روبر / 1774-1849 / عسكري فرنسي برتبة جنرال، قائد مقاطعة وهران 1836، حاكما عاما فيفري 1841، وقع مع الأمير عبدالقادر معاهدة التافنة، توفي بالكوليرا 1849.

(4) - أمحيدة عميراي، السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في المنطقة سكيكدة 1838-1858، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص 20.

ولا مزارع، ومع ذلك فإنه يزرع ويحصد وتوجد مواشي أيضا...»، وأمام هذا الواقع أفصح بيجو عن السياسة الواجب إتباعها لإخضاع البلاد⁽¹⁾.

كرس مرسوم 31 أكتوبر 1845 في عهد بوجو الذي صادر أملاك الجزائريين العقارية والمنقولة للذين يقومون بنشاط عدائي ضد فرنسا والواقع أن مصادرة الأملاك كانت تخدم هدفين:

- قمع انتفاضات الجزائريين للتواجد الاستعماري الفرنسي والحصول على أراضي في يد فئة قليلة من المعمرين التي كانت الفلاحة هدف استراتيجي لسياسة الحكومة والدولة الفرنسية والتي اشتدت في عهد الجمهورية الثالثة مباشرة بعد تنصيبها سنة 1848م، التي عملت على تشجيع الاستيطان المدني وساندت المعمرين وقدمت مساعدات لهم على بناء مراكز وذلك بتوزيع أراضي لهم⁽²⁾.

- أما الحراسة الجماعية التي فرضت على الأراضي التي كانت ملك للأهالي والتي أصبحت دون استغلال بسبب هجرتهم لظروف أمنية التي كان الاستعمار الفرنسي يمارسه ضدهم وظهرت أوضاع لم يأمنوا منها من طرف الجيش الفرنسي والمستوطنون الجدد من الأوروبيين⁽³⁾.

ومؤسسة الحراسة الجماعية يعود إلى سنة 1845م حيث جاءت نتيجة مباشرة للوضع السياسي والعسكري في ذلك الوقت، الحراسة القضائية تطبق ضد القبائل التي تقاوم والتي تساند العدو، وأيضا تطبق على ممتلكات المهجورة والمتخلى عليها، وصادرت ممتلكات سكان الحدود الشرقية⁽⁴⁾، وكانت هذه المصادرات فعلية خلال السنوات الأولى، حيث اتسع نطاقها ومست العديد من القبائل، لاسيما في المناطق الحضرية ومن ثم زاد عدد الأوروبيين بشكل كثيف بحثا عن الربح وشرعوا بسرعة في استغلال الممتلكات الحضرية ثم في عملية امتلاك الأراضي، وبهذا تطورت سياسة المصادرة مما أدى إلى فقدان مساحات شاسعة في المرحلة الأولى من نزع الملكية

(1) - بن موسى حمادي، جوانب من السياسة الفرنسية في الجزائر واهتمامات الأعيان المسلمين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1850-1900م)، مذكرة ماجستير في التاريخ حديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003-2004، ص 48.

(2) - حنيفي هلايلي، منطقة سيدي بلعباس ومكائنها في سياسة فرنسا الاستعمارية 1842-1954م، المصادر، مجلة سداسية تصدر عن المراكز الوطنية للدراسات والبحث عن الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954، العدد 8، ص 165.

(3) - إبراهيم المياسي، مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962، دار هومة (د ت)، ص 124.

(4) - Djilali sari, op cit , p 14.

وذلك بعد نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ونجد بمقاطعة قسنطينة حوالي 200 حيازة استعمارية بلغ مجموعها 20000 هكتار وبعبارة نسجل منذ 1837 ملكيتين مساحتها أكثر من 1000 هكتار⁽¹⁾.

أمام سياسة الاستعمار لم يسلم هؤلاء المستوطنون من الأهالي بسهولة، بحيث كان الهجوم على أصحاب الأراضي الشرعيين دور كبير في القضاء على محاولات المستوطنين أو تعطيلها إلى حين، وكانت المقاومة المسلحة التي امتدت من 1832 إلى 1847م؛ قد شكلت عائقا كبيرا وأحدثت الاضطرابات في المناطق التي تمركز فيها المستوطنون، وأسهمت في تعطيل نمو الرأسمالية الفرنسية، الأمر الذي جعل الاستيطان في الريف بطيء مقارنة مع الاستيطان الحضري بسبب المقاومة الشديدة التي أبدتها الريفيون في وجه المستعمر⁽²⁾، وخلال المدة من 1840-1850 نشأ 132 مركزا استيطانيا جديدا منه 45 في عمالة وهران و62 في عمالة الجزائر و24 في عمالة قسنطينة⁽³⁾. وكان نصيب الشرق الجزائري كان اقل عددا من هذه المراكز نظرا لتأخر احتلال فرنسا لقسنطينة، وكذا عدم استقرار الأوضاع فيها، وقد تواصلت سياسة نزع الملكية حتى في ظل الإمبراطورية الثانية إذ فقد المزارعون 365000 هكتار، رغم زيارة نابليون التي قام بها من أجل الصلح.

المبحث الثاني: أساليب اغتصاب الأراضي لبناء الاقتصاد الكولونيالي في الشرق الجزائري

بقي الاستعمار يمتد أكثر فأكثر إلى مناطق جبلية جديدة أين يعيش غالبية سكان الأرياف، ففي يوم 26 ابريل 1851 صدر قانون يقضي بتنظيم عمليات تمليك الأراضي للأوروبيين، ويشترط فيمن تمنح له قطعة أرض من 20 إلى 150 هكتار أن يشارك بمبالغ مالية في استصلاحها، ولا تصبح ملكا لهم إلا بعد مضي ثلاث سنوات على استقراره بها، وبقي هذا القانون معمولا به حتى عام 1861، وذلك لإنجاح الاستيطان الريفي وإخراجه من الركود الذي يعاني منه -هذا من وجهة نظر فرنسا-، باعتباره العنصر الأساسي داخل السلسلة الاستيطانية لفرنسا من خلال تطبيق فكرة دو لامورسيير في الاستيطان الرأسمالي الكبير⁽⁴⁾.

(1) - عدى الهواري، مرجع سابق، ص 68.

(2) - بن خلف الله الطاهر، التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لريف الجزائري 1830-1962، الذاكرة المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر العدد الثاني 1999، ص 103.

(3) - بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، الجزء الأول، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين مناسبة الذكرى ال 45 لعيد الاستقلال 2008، ص 49.

(4) - بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، الجزء الأول، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين مناسبة الذكرى ال 45 لعيد الاستقلال 2008، ص 54.

وهذا القانون كان بحجة المنفعة العامة والمصلحة الاستيطان، كما صادقت الجمعية العامة في 21 سبتمبر 1851م على قانون جمركي يعفي بعض المواد الزراعية التي تحتاج إليها السوق الفرنسية، والصادرة من الجزائر من المرسوم الجمركية حيث شجع هذا القانون ربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي وجعل المستوطنون ينتجون ما تحتاجه الأسواق الفرنسية بدلا من حاجة السوق الجزائرية، في حين أصبح وضع الفلاحة تماما كما كان عليه في العهد التركي، أي فلاحه معاشيه هدفها الأول هو الاستهلاك المحلي⁽¹⁾.

ثم اتجهت الحكومة الفرنسية إلى تشجيع الاستيطان الرأسمالي الواسع عن طريق الشركات الرأسمالية التي عمدت إلى إنشاء قرى استيطانية كثيرة لعدد كبير من المهاجرين الأوروبيين، تتولى الحكومة الفرنسية إلى تهجيرهم من أوروبا مقابل حصولها على أراضي وأملاك عقارية واسعة⁽²⁾.

قانون الشيوخ والشفعة (مميزات أراضي العرش):

طبيعة ملكية أراضي القبائل عام لا يتجزأ ولا يمكن باي حال تقسيمه وتجزئته سواء بين العائلة أو بين الفرق المشكلة للقبيلة وبهذا يشعر أعضاء القبيلة أنهم مرتبطون ببعضهم البعض عن طريق المجال الجغرافي الذي يمثل الفضاء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لكل قبيلة. إن قطعة الأرض التي يرتبط بها عناصر القبيلة اقتصاديا والتي تفلحها وتزرعها وترعى فيها المواشي في إطار محدود (حق القبيلة على إقليمها)⁽³⁾.

بما أن المجتمع الريفي الجزائري قائم على النظام القبلي وإقليم قسنطينة الذي تحتل القبيلة عصب الحياة الاقتصادية فيه. هنا نطرح سؤال وهو موضوع الإشكال عن السياسة الاستعمارية الفرنسية في ريف الشرق الجزائري وطرق السيطرة والتحكم في الأراضي التي كانت تحت سلطة القبائل؟ وما هي الآليات التي استخدمها وجعلها ذرائع لتحقيق أهدافه؟

أدرك بيجو أن المجتمع القبلي يمثل عائقا في مواجهة سياسة الإستيطان في الريف، لأنه كان هدفه بناء اقتصاد إستيطاني استعماري، لذلك اعتمد على أسلوبين هامين تمثل الأول في إضعاف رؤساء القبائل الأرستوقراطيين التقليديين، وثانيهما تفكيك بنية القبائل من الناحية الاقتصادية والاجتماعية⁴.

(1) - رحيم محياوي، مرجع سابق، ص 29.

(2) - يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007-ص 16.

(3) - عبد اللطيف بن أشنهو، تكوين التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة دور التنمية الرأسمالية في الجزائر 1930-1960، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 28.

(4) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 67.

إضعاف رؤساء القبائل الأرسطوقراطيين التقليديين: قام بيجو بتقسيم الكنفدراليات القبلية الى قيادات متوسطة وغير متحدة، وقسم القبائل الى وحدات. ومنح لهذه القيادات من الأعيان الذين كان يرتكز عليهم النظام القبلي في الفترة العثمانية ووجد قيادات جديدة إضافة الى القيادات التقليدية، وسن تشريعات للإقالة والتعيين، وأطر هذه القيادات بقيادة عسكرية لمراقبتها، المتمثلة في المكاتب العربية، وعليه؛ أصبحت القيادات الجديدة تمثل فئة من الموظفين تابعين للسلطة الاستعمارية تحت وصاية المكاتب العربية.

بهذا الأسلوب لم يصبح لشيخ القبائل التقليديين سلطة فاعلة كما كانت في السابق، بل أصبحت هذه القيادات الجديدة تمثل الإطار الاستعماري الناشئ، وفئة جديدة منافسة لهم تريد تثبيت وجودها تحت سلطة الاستعمار، بل أصبحت أكثر موالاة لخدمة الاستعمار الفرنسي والانصياع لأوامره، ومطبقة لقوانينه وسياسته الاستعمارية⁽¹⁾.

كان بيجو يهدف من خلال هذا النظام إلى فتح الباب أمام المعمرين، وتأسيس الملكية الفردية بعد إضعاف وتفكيك القبيلة وتجريدها من السلاح المتمثل في الوحدة والارتباط عن طريق الملكية الجماعية للأراضي التي تحتلها القبيلة، والسلطة الروحية التي يحتلها شيخ القبيلة من الناحية السياسية والمعنوية، إلا أن المشكل الذي واجهه بعد تنظيم الكونفدراليات أنه لا يوجد داخل القبيلة مفهوم الملكية الخاصة.

لقد سعى بيجو الى تطبيق طريقة استعمارية وتتمثل في الحصول على أراضي يملكها لفئة الأوربيين الوافدين من أوروبا، وهو تحويل أراضي العرش الى أراضي ذات ملكية خاصة والقضاء على نظام العروشية في ملكية الأرض وتكوين الملكية الفردية داخل أراضي العرش.

لقد تعرض بيجو إلى الصعوبات التي تواجه القادة السياسيين في هذه المسألة الخطيرة؛ حيث يقول: «إنه في حقيقة الأمر، وفي أغلب الأحيان تجاهلنا الجانب الأهلي... وإنما ناقش الأمور وكأن العرب غير موجودين، لنقل بصراحة أن هذا الحماس للاستعماري ليس في محله، ولم نفكر في الشعب العربي والصعوبات التي نواجهها بسبب تقاليد القتالية»⁽²⁾، وهذا الإجراء فيه تخوف لدى السلطة الاستعمارية الفرنسية في الثورات التي كانت تقاوم السياسة الفرنسية لأنها كانت تمس الجزائريين في حياتهم الاقتصادية والمعيشية لأنهم لم يجدوا بديلا عن ذلك وهو الحياة الزراعية.

⁽¹⁾ - بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، الجزء الأول، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين مناسبة الذكرى ال 45 لعيد الاستقلال 2008 ص 115.

⁽²⁾ - Bugeaud ; Quelques considérations de notre l'établissement sur trois questions fondamentales en Algérie, p 6.

لقد باشر بيجو في إتباع ثلاث توجهات لتحقيق سياسته التي تهدف الى إبعاد سكان القبائل على أراضي العرش وتمثلت هذه السياسة الاستعمارية⁽¹⁾ في:

اغتصاب الأرض بسياسة الإبادة والترحيل:

اتبع بيجو سياسة تدريجية في تطبيق عمليات الترحيل للسكان، ورغم أنه كان يرى أن هذه العملية تشكل خطرا على التواجد الفرنسي في الجزائر، وتخوفه من ردود الفعل القوية للسكان عن طريق الثورة، لذلك كان يرفض الترحيل التدريجي، ولقد ندد بصراحة بهذه العملية، لكنه يعود ويصرح بضرورة لإتباع هذه السياسة ويصفها ببقعة الزيت التي تنتشر في انسيابية وليونة وهي المقولة الشهيرة له: «بقعة الزيت الشهيرة، حلم رجال ذوي اعتبار كبير»؛ والتي مفادها أن الاستعمار مثل بقعة الزيت يجب أن تمتد بتأني دافعةً العرباً مامها⁽²⁾. لكن هذه السياسة أوصلته الى إشكالية مفادها: الى أين يتجه هؤلاء المرشحين التي تدفعهم السياسة الفرنسية المتمثلة ببقعة الزيت التي مثلها بيجو؟

إنها تدفع المرشحين إلى القبائل المجاورة والمناطق التي لم تصل إليها يد فرنسا، وتكون نتائج ذلك نقل أخبار غير سارة، وتزيد في غيظ الجزائريين على حالتهم وسياسة فرنسا فيتقاسمون همومهم وشقائهم، ويوحد صفهم بعدما يفهم الجزائريون إن مصيرهم هو مصير من سبقهم من المرشحين، وهو المصير المحتوم عليهم هو الدفاع لبقائهم بحمل السلاح والمقاومة، وتبقى الحرب مستمرة إلى غاية إبادة الأهالي أو الغزاة⁽³⁾، وان هذا الأسلوب يكلف فرنسا الكثير من الموارد المالية والمادية والبشرية، وتطول عمليات الاستثمار والإستيضان التي كانوا يرغبون في تجسيدها بأقل التكاليف، وفي هذا الصدد يصرح بقوله: «فكيف يمكننا إجبارهم على مغادرة البلاد؟ وترحيل العرب دفعة واحدة إلى القفار واحتوائهم فيها عمل أكثر استحالة من الأولى»⁽⁴⁾.

أما الحل السريع الآخر؛ فهو الإبادة الكلية؛ فإن بيجو لم يكن يقبل بها، لأن ذلك يزيد الجزائريين تلاهما وتآزرا وتوحدا، وهذا لم ترض به فرنسا لأن سياستها التي نجحت فيها هي سياسة تعتمد على التفرقة والتشتيت وسياسة فرق تسد، وأنها ترغب في عدم إظهار للشعب الجزائري أن فرنسا لم تأتي إلى الجزائر إلا بصيانة كرامتهم ومساعدتهم وفي هذا الصدد يصرح بقوله: «نتكلم عن الإبادة فهي ضد تقاليدنا»⁽⁵⁾، وفي خصوص مشاركة

(1) - سيساوي أحمد، المرجع السابق، ص 216.

(2) - نفس المرجع، ص 225.

(3) - نفس المرجع، ص 258.

(4) - نفس المرجع، ص 259.

(5) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 259

الأهالي في الاستعمار؛ يقول بيجو: «نريد أن نستقر جنبا إلى جنب. استعمار العرب للأرض واستعمار الأوروبيين لها»؛ لأن هناك أهمية سياسية استعمارية لإدخال العرب في استعمار الأرض وإشراكهم في جميع ضمانات ومزايا مجتمعنا⁽¹⁾.

كانت هذه الأفكار التي صدرت عن بيجو مرة أو مرتين، بل طوال مراسلاته الرسمية مع الوزير أو مع شخصيات أخرى، كانت سياسة جيدة، ولكن كان يجب عليه أن يعمل على التخفيف من الحساسية والمخاوف التي تسببها بشكل، فيجب التخفيف من عدم رضا العرب؛ وذلك باستفادتهم من مزايا الحالة الاجتماعية والزراعة المتقدمة، وجزء من المبالغ المالية التي تم التصويت عليها في الميزانية من أجل الاستعمار كل هذا يجب أن يستغل لبناء قرى للعرب، أو على الأقل مساعدتهم في هذه البناءات، وكذا تنفيذ أعمال ذات منفعة عامة، وقد أكمل بيجو فكرته هذه بقوله: «سنضع في الخط الأول سقي الحقول والبساتين، والجسور والطرق والمسالك»⁽²⁾.

بهذه النظرة فإن بيجو أكد بصفة خاصة على تثبيت العرب، خصوصا في المناطق التي مسها الاستعمار الأوروبي؛ حيث يمكن تجريدهم من بعض أراضيهم، وهذا ما يؤدي إلى عدم الاستقرار باستمرارية، فالمزايا التكتيكية للتثبيت جلية تتضح في المقتبس التالي: «فالعشائر التي تتحرك غالبا تصبح مستقرة وتصبح تحت رحمة قواتنا على الأقل وفي أملاكها، ثم أنه بإمكاننا أن نتوقع فقداها مع مرور الزمن لعاداتها غير مستقرة لأنها في حركة متنقلة التي لا تخدم النظام بصفة خاصة، فيجب تحويلهم إلى ملاكين مستقرين وإعطائهم طعما للحياة المستقرة والزراعات المعنى بها، كما يجب مساعدتهم على البناء بالخشب والحديد مما يربطهم بالأرض، ويعطيهم فيها مصالح دائمة وثابتة تجعلهم أقل استعدادا للانتفاضات»⁽³⁾.

والإجراءات التي يمكن أن تفعل تتمحور على مستويين: بالنسبة للعشائر المنتصبة على أراضيها فيجب أن تعطى لها عقود الملكية⁽⁴⁾، ومساعدات لدفعهم إلى البناء⁽⁵⁾، أما بالنسبة للأهالي الذين سلبت منهم أراضيهم؛ فإن بيجو لرغبته الشديدة في الاستعمار وتثبيت العرب، ذهب إلى حد تثبيتهم على أراضي الدولة نفسها. وفي

(1) - نصرالدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 65.

(2) - Bugeaud , Op Cit, p. 78.

(3) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 301.

(4) - نفس المرجع، ص 304.

(5) - نفس المرجع، ص 312.

حالة عدم كفايتها على أراضي الملاك الكبار من أوروبيين وأهالي ينبغي حسب توزيع الأراضي على العائلات مع عقودها في انتظار العقود النهائية عندما تبنى بمساعدتنا مساكن بالحجر⁽¹⁾.

لكن سياسة الاستعمار وتثبيت العرب التي تتطلب مصاريف وربما تؤدي إلى التنازل عن أراضي الدولة؛ فالمسألة المطروحة هي أنه لم يكن له الدعم الضروري من الحكومة، كما أن مشاريعه للاستعمار أثارت معارضة قوية. والمشاريع التي قدمها بهدف الاستعمار العربي كانت لها كل الحظوظ كي لا تعرف التطبيق الفعلي. لذا يمكننا القول أن سياسة التضييق على الأهالي التي تنطلق في مشروع بيجو الاستعماري سوف تتحكم في السياسة العقارية للاستعمار سواء في عهد الجمهورية الثانية أو الإمبراطورية الثانية حتى سنة 1860، وبعدها تطرح سياسة مشاركة الأهالي في الاستعمار؛ وهي ما يطلق عليه بالمملكة العربية.

سياسة التضييق على الأهالي:

لقد أصبح هاجس الثورة يهدد سياسة بيجو لأنه تحقق بأن سياسة الإبادة غير مجدية، فهي توحد القبائل وتجعل لهم الفكر الجمعي لأوضاعهم وحياتهم المهددة، والتجأ إلى سياسة تذيب وتميع المجتمع الجزائري بإتباع سياسة التفرقة في هذا الصدد يقول: «أننا من جهة لا نستطيع ولا نريد ترحيل الأهالي ولا إبادتهم، ولكن من جهة أخرى نقرر تأسيس مستعمرات»، فقد كان يفكر في تطبيق سياسة تمتاز بالمرونة والتي يمكن أن تتماشى مع الواقع، وهو ما يظهره المقتبس التالي: «أظن أنني قد قلت لكم عدة مرات أن اعتقادي السياسي ليس ترحيلهم، وإنما إشراكهم في الاستعمار، وليس تجريدهم وطردهم إلى أرض أخرى، وإنما التضييق عليهم في الإقليم الذي يملكونه عندما يكون هذا الإقليم كبيرا لعدد سكان القبيلة»⁽²⁾.

هذه العبارات؛ إشراك في الاستعمار، والتضييق عليهم في الإقليم الذي يملكونه، حسب بيجو؛ يمكن أن تتراوح بين الثلث إلى سدس الأراضي لكل عشيرة، ولقد شهدت الفترة الواقعة بين 1841 و1846 إجراءات هامة في الميدان العقاري؛ وخاصة بعد صدور مراسيم 1844-1846، التي تمس أراضي العرش. فهذه المراسيم كانت ترمي إلى هدف أساسي يتمثل في زيادة مساحة الأراضي لفائدة الاستعمار على حساب الملكية الجماعية للقبيلة، وقد جاءت هذه المراسيم لتضفي صفة الشرعية على اغتصاب الأراضي؛ فأثيرت قضية إبراز عقود الملكية وقضية الأراضي غير المزروعة بدعوى أن عددا كبيرا من أراضي العرش هي من أراضي الدولة، بيد أن القبائل لم يكن لديها عقود تثبت بها الملكية، كما أن بعض القيادات القبلية ساهمت في ذلك والتي كانت موالية للسلطة

(1) - نفس المرجع، ص 318.

(2) - نفس المرجع، ص 322.

الفرنسية يقول لويس رين في كتابه تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر يقول: " في مستهل 1864¹ طلب منا ' محمد المقراني) تسوية بعض التفاصيل الجزئية التي لا يمكن مواجهتها بمفرده وبغرض تمكينه من القيام بمهامه على الوجه الاكمل مقترحا تقسيم قطاع قيادته الى اربع قيادات فرعية ومنحها لاشقائه والبعض من اقاربه بينما يحتفظ بسلطة الرقابة عليهم بالعمل السياسي فقط وعلى الفور قررنا قبول الموافقة على العرض".⁽²⁾ كما أن الأراضي التي لم تكن تزرع إما مخصصة لأراضي الرعي أو متروكة للراحة لمدة سنتين أو أكثر حسب النظام التقليدي الذي كان يتبعه الفلاحون.⁽³⁾ وكانت سياسة فرنسا تبني على التفرقة بين افراد المجتمع ولقد جاء في رسالة مؤرخة 13 مارس 1834 يقول " الجنرال فوارول " لاحد الحاقدين على احمد باي وهو فرحات بن سعيد يقول " كن مرتاح البال، فان الوقت قد حان ليصبح من ساعدنا هو الاقوى في هذه الارض وليدحر اعداؤه وتتحقق كل رغباته"⁽⁴⁾ إن مرسومي 1844- 1846 كانا قد أثارا قلق السكان سواء بالنسبة للقبائل التي لم تكن تملك عقد ملكية؛ وهي كل قبائل أراضي العرب والتي كانت تترك قطعاً من أراضيها للراحة لمدة معينة، أو بالنسبة للقبائل التي تركز حياتها على الخصوص لتربية المواشي طالما أن أراضي الرعي أصبحت طبقاً للمراسيم آنفة الذكر من أراضي " الدومين " "domaine". و تتمن الأراضي بالزويجة.⁽⁵⁾

الملفت للانتباه في بايليك قسنطينة هو المساحة الهامة للأراضي العزل (الإقطاع) بمعنى إن البايليك يقطع أرضاً من أراضي الدولة لشخص ما وكان هذا في الفترة العثمانية، وبما أن هذه الاعزال كانت تمنح لذوي الامتيازات والموالون لسلطة الباي، فإن هذه الاعزال أصبحت تابعة للسلطة الفرنسية، لأن القوانين الفرنسية رصدت ذلك. وإذا عرضنا وضعية الاعزال في الفترة العثمانية في الشرق الجزائري أثناء الفترة العثمانية نجدها ذات نوعين وهما:

(1) اندلعت انتفاضة اولاد سيد الشيخ في 17 من شهر فيفري 1864 و في اليوم نفسه جمع الاغا سي سليمان بن حمزة اتباعه وتوجه على راسهم ناحية جنو ميزاب وكان قبل ذلك وجه رسالة الى الحاكم العام يذكره فيها بما اسداه والده الخليفة سي حمزة وكذلك شقيقه الباشا اغا بوبكر من خدمات لفرنسا.

(2) - لويس رين تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، دار الرائد للكتاب ترجمة مسعود حاج مسعود، الجزائر 2013، ص 70.

(3) نفس المرجع، ص 231.

(4) - محمد العربي الزبيري، مقاومة الحاج احمد بايو استمرار الدولة الجزائرية، دارالحكمة، للنشر، الجزائر 2014، ص 149.

(5) - إذا علمنا أن الزويجة تساوي ما بين 10 و 15 هكتار فان مساحة أراضي الضيعات مجتمعة تساوي ما لا يتجاوز الثلاثة آلاف هكتار وهذه المساحة ضيقة بالمقارنة مع ما هو موجود من أراضي البايليك المستغلة عن نظام الخماسة أو غيرها في بايليك الشرق، لكن ما هو مهم هو تزايد عدد هذه المزارع.

1- عزل كراتب أو مكافأة لكبار المحظوظين أو الموظفين الكبار العموميين، وفي هذا الإطار نجد 10 أعزال مخصصة لأقرب معاوي باي قسنطينة (خمسة منها لخليفة الباي واثنان لكاتبه الثاني، وأعزال أخرى يستفيد منها مرابطون مثل شيخ البلد من العائلة المشهورة الفقون)، وهذه الأعزال ليست قابلة للتحويل وكان الاستثناء نادرا جدا، غير إن إعفاء آخر البايات، الباي احمد لبعض المستفيدين من كل ضريبة يوضح وجود تطور نحو الامتلاك الشخصي الأعزال⁽¹⁾.

عزل قدم لأشخاص قدموا خدمات للباي: الصنف الأول من الأعزال كان يحيط بقسنطينة ويشمل أجود الأراضي⁽²⁾. أما الصنف الثاني فكانت أراضيها اقل جودة حيث تقع هذه الأعزال بسفوح الجبال، وكان يستغل أحيانا في غرس الأشجار كما هو الحال في نواحي ميله، وهي أراضي كانت مشغولة من طرف فلاحين قدامى أو جماعات مستقرة عليها منذ عهد كما هو الحال بالنسبة لأولاد جبارة⁽³⁾.

بلغت المساحة الإجمالية الأعزال بايليك الشرق حسب إحصاء تطبيق سيناتوس كونسلت 1863؛ أكثر من 317 ألف هكتار، تتركز حول قسنطينة وفي وادي السيبوس وحوض قالمه وسطيف، ونجد حول قسنطينة مثلا أعزال وادي الزناقي الصالحة للحبوب والتي تشتهر بها منذ العهد الروماني ووزع إحصاء سيناتوس كونسلت المذكور أعزال بايليك الشرق كما يلي:

توزيع إحصاء سيناتوس كونسلت أعزال بايليك الشرق⁽⁴⁾

المساحة /هكتار	مناطق الأعزال في الشرق الجزائري
21558	أعزال عامر الشراقة

(1) - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي 1514-1830، دار هومة الجزائر 2012، 392.

(2) - في عنابة توجد أراضي العزل ببحيرة فزازة المحيطة بمدينة عنابة تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب.

Féraud (Ch.): Histoire de Bône, R. A. , 1873, p. 9.

(3) - أنظر العزل بالمناطق القريبة من المدن الإقليمية عزل القالة، أنظر.

Féraud (Ch.): Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, Alger, Association Borneurs, 1877, p. 43.

أما عزل عنابة الذي يوجد تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب، أنظر:

Féraud (Ch.): Document pour servir à l'histoire de Bône, R. A. , 1873.

وعن عزل سكيكدة، أنظر:

Féraud (Ch.): Documents pour servir à l'histoire de Philippeville, R. A. , 1875.

(4) - صالح عباد، مرجع سابق ص 605.

14430	أعزال عنابة ⁽¹⁾
55270	أعزال قسنطينة ⁽²⁾
18626	أعزال أولاد عبدا لنور
9168	أعزال الزواغة
29729	أعزال قسنطينة ⁽³⁾
43188	أعزال وادي الزناتي ⁽⁴⁾
37980	أعزال السواحيلية أولاد عطية
3903	أعزال منطقة سغينة
11383	أعزال أولاد جبارة
4593	أعزال العلمة مسعدة
4185	أعزال منطقة موية
8885	أعزال عامر الظهرة ⁵
3340	أعزال البرانية
317390	المجموع

كل هذه المساحة لأراضي العزل أصبحت تحت سلطة السلطة الفرنسية التي تم توزيعها على الكولون، لبناء النظام الاستيطاني، وذلك بتسيخ القوانين الاستعمارية والتي أخذت تبني شركات استثمارية كولونيلية.

نشأة الشركات الرأسمالية الاستيطانية الكولونيلية في الشرق الجزائري:

شركة جنيفواز السويسرية: تأسست عام 1853 من طرف سوتير دي بورقار⁽¹⁾ وتحصلت خلال عشر سنوات على 281 هكتار في سطيف فحاولت خلق عشرة مناطق من 200 هكتار لكل وحدة وهجرت إليها

(1) - سعيدوني نصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ص، 149-153.

(2) - LACROIX. N. les groupements indigènes de. la commune mixte de djendel au moment de l'établissement du sénatus-consulte de 1863 in revue Africanize n° 53 p 334.

(3) - Valensi lucette;le Maghreb avant la pries d'Alger. Flammarion. Paris1969. P49.

(4) - سعيدوني نصر الدين، مرجع سابق صص 147-148.

(5) - محمد العربي الزبيري مرجع سابق، ص 121.

956 مستوطنا أوربيا ثم تراجع على أعمالها وتخلت عن تعهداتها وطردت المستوطنين وعضتهم بمستخدمين ومستأجرين من الأهالي لخص أجورهم وسهولة السيطرة وكثرة أرباحهم.

الشركة العامة الجزائرية: حصلت عام 1865 على 100 ألف هكتار بإيجار فرنك واحد للهكتار، واغلبها في مقاطعة قسنطينة، وعندما أصابها الإفلاس حولت أملاكها إلى الشركة الجزائرية التي تنازلت الدولة مجانا على 70 ألف هكتار، وحصلت عام 1867 على 170 ألف هكتار أخرى من أجود الأراضي في منطقة وادي زناتي، وذلك تأميما للقرض المالي الذي قدمته السلطات الاستعمارية ومبلغه 100 مليون فرنك، مع حرية التصرف في الأراضي كما يحلو لها من إيجار وبيع أو استغلال، هذه الشركة لم تتقيد مثل شركة جنيف بالتزاماتها مما أدى إلى فشل محاولات لتجميع السكان.⁽²⁾

الشركة الفلاحية والصناعية لصحراء الجزائر: واهتمت بالزراعة الصحراوية وخاصة النخيل في المناطق بسكرة وطولقة التي تسيطر على 24000 نخلة في الجنوب.⁽³⁾

بنك الجزائر: أنشئ هذا البنك في أوت 1851 لكي يسهل حياة المستوطنين الأوروبيين وتقلل من مصاعبهم الاقتصادية تم إلغاء الحواجز الجمركية بين الجزائر وفرنسا.

بورصة الجزائر: وهي مؤسسة مالية اقتصادية أنشئت في أبريل 1852 شجعت زراعة القطن منذ عام 1850، ومزروعات أخرى كالتبغ والكروم والبطاطا والنباتات العطرية واهتمت بزراعة القمح والمواد الإستراتيجية بالنسبة لاستهلاك فرنسا، واهتمت الإدارة الاستعمارية بإنشاء شبكة من الطرق البرية وسكك الحديدية والجسور الكبرى منذ مطلع الخمسينات وخاصة ابتداء من 1857.⁽⁴⁾

أزمات الاقتصادية في الشرق الجزائري أثناء الفترة الفرنسية 1836-1871م:

لم تكن الفترة الفرنسية خالية من الأزمات الطبيعية التي تركت مجاعات وآثارا اقتصادية واجتماعية سيئة على سكان الشرق الجزائري، ومن أهم هذه الآثار التي خلفتها انتشار الأمراض الفتاكة والأوبئة القاتلة مثل التيفيس والكوليرا وضياع الثروات والمداخل وهجرة السكان وإهمال مناطق الإنتاج،⁵ وقلة مدخرات المنطقة، وبيعت العقارات والأراضي تحت ضغوط مختلفة، خاصة سلطة البايليك وسياسة جباة الضرائب وظروف أخرى قاهرة

(1) -Djilali sari, opcit, p 31.

(2) - يحي بوعزيز، سياسة التسلط، الاستعماري، مرجع السابق، ص 16.

(3) -Djilali sari, op-cit, pp 25-26.

(4) - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 17.

(5) - محمد العربي الزبيرى، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 62.

أحاطت بهم، منها الديون التي تراكمت عليهم من الضرائب العقارية غير المدفوعة، وفوائد القروض الربوية التي كانوا يلجؤون إلى أخذها من البنوك. ومن أهم هذه الأزمات نذكر منها:

أزمة 1838م: وفيها وقع قحط شديد أضر بسكان قسنطينة، وبأهل أعمالها خاصة الجهة الجنوبية وقد ذكر أن سبب هذه الأزمة تنحصر فيما يلي:

- حدوث جائحة في سنة 1838 م أصابت الزرع وأتلاف المحصول.
- عزوف الفلاحين عن حرث الأرض بسبب الفتن والأهوال باعتداء بعض الأعراش على بعضهم البعض نتيجة البلبلية التي تركها الاحتلال الفرنسي لعاصمة الشرق قسنطينة.
- كثرة الأمطار التي نزلت في هذه السنة، وكثرة الثلوج التي تساقطت على المنطقة طيلة فصل الشتاء، مما حال دون القيام بالفلاحة.

وقد نتج عن ذلك ارتفاع في أسعار الحبوب (القمح والشعير) وغلاء في المواد الاستهلاكية العامة مثل اللحم والسمن والتمر حتى بلغ سعر الصاع من البر برحبة البلد ما بين 80 و90 فرنك فرنسي. وضع السكان أملاكهم وعقاراتهم تحت تأثير الحاجة إلى النقود بما كانوا يقدمون عليه من إبرام عقود ربوية تحت أسماء مختلفة. أما سكان سكيكدة في سنة 1830 م هذه المناطق البحرية كانت تظم 450 إلى 500 ساكن يعيشون في فقر مدقع ليست لهم حراثة ولا تجارة ولا صناعة، يسكنون في بيوت طينية أو في أكواخ، الحقول أهملت والحدائق بدون زراعة⁽¹⁾ وازداد عدد المهاجرين من يوم إلى يوم، وكان هؤلاء الفقراء من الشعب ليس لهم من يحميهم من سكان الجبال من قبائل العشاش، الذين يأتون في وضح النهار يأخذون حيواناتهم ومنتجاتهم وحتى نساءهم، وحتى الخوف ملكهم من هذه القبائل وسكان القل.

وفي سنة 1859 أنشئت ملحقة "لفيليب فيل" التي كان البحارة يلتجئون إليها في فصل الشتاء ضد الأعاصير، ويصبح مقرا للدائرة الإدارية تحت قيادة العسكرية العليا ومع انتداب مجموعة من الجنود⁽²⁾.

ومدينة القل التي كان لها دور اقتصادي هام أصبحت مدينة شبه فرنسية لما دخلها من مظاهر أنشطة الحياة الأوروبية، فالشوارع رسمت كالخيوط، فكانت أحسن سكن بالنسبة للقيادة العليا وبعض المصالح العسكرية والإدارية، والمنبع المسمى "عين البرج" الواقعة إلى الجنوب من المدينة أعيد تهيئتها وأصبحت تغذي النافورات،

(1) - مصطفى الأشرف، الجزائر الامة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1883، ص 125.

(2) - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P.213

وأصبح عدد سكانها يقدر بـ 300 أوروبي و900 من سكان الأهالي. أما الصناعة المحلية فتركزت على استغلال الغابات الغنية بغابات الفلين في الجبال المحيطة، وخدمة الأرض وبعض النشطة التجارية مثل الزيت والجلود التي كانت من قبل في كل يوم جمعة من طرف القبائل، وفي الأخير تظهر صناعة مصبرات السردين وبعض الأسماك الطازجة، للسيد شوفان.⁽¹⁾

أزمة 1847م: في هذه السنة أجدبت قسنطينة ونواحيها بقحط شديد استمر ثلاث سنوات متتالية من سنة 1847 إلى سنة 1850م، بسبب اجتياح أسراب الجراد الذي أتى على الأخضر واليابس، فأتلف المزارع والأشجار المثمرة. ويعلق صالح العنزي على إن السلطات الفرنسية جلبت الحبوب من كل الجهات، وكانت توزعها على السكان المحتاجين عن طريق المكاتب العربية، وشكر السلطة الفرنسية على هذا العمل وقد ذكر بأن ذلك كان سبب في تحسين أحوال الناس ونزول أسعار السلع⁽²⁾.

أزمة 1866-1868م: وكان سبب هذه الأزمة هو حدوث جوائح التي نزلت بالزرع والنباتات وأتلفتها، وانتشار مرض "الرهمة"⁽³⁾ سنة 1867م، الذي اهلك المواشي بسبب قلة علفها في فصل الشتاء. والسبب الثالث اجتياح الجراد سنة 1868م وإتلاف الزرع والأشجار المثمرة ومن نتائج ذلك:

- انعدام الحبوب في الأسواق.
- موت المواشي.
- ارتفاع أسعار الحبوب ارتفاع فاحش في الأسواق طيلة ثلاث سنوات.
- انتشار وباء الكوليرا والتيفيس وغيرها من الأمراض الفتاكة.
- ضياع الأملاك من أصحابها والثروات وتركتهم فقراء.

اعتبرت ارضي العزل أهم الأراضي التي تجسدت فيها سياسة الاستيطان الفرنسي في منطقة الشرق الجزائري. وبدا ذلك قبل سقوط عاصمة الشرق الجزائري، حيث استولى الأوروبيون سنة 1835م على ضيعات البايليك وهي الضيعات القريبة من مدينة قلمة ومنطقة فرجوة ومدينة سكيكدة وما جاورها، وهذه المناطق كانت تابعة

(1) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 318.

(2) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 56.

(3) - مرض الرهمة: الهزال والضعف وتصبح الشاه تتمايل في السير من شدة الضعف (المعجم الوسيط) والرهمان في سير الإبل: تحامل وتمايل من ضعف أو هزال.

لقيادات وقبائل المخزن، وقد بادرت بعض القيادات العسكرية الفرنسية على تأسيس منشآت زراعية حول مدينة عنابة، اقتداءً بما قام به الجنرال كلوزيل في منطقة متيجة حينما كان حاكماً عاماً على الجزائر⁽¹⁾.

إن استقرار الأوربيين في الضواحي للمدن بعد صدور مراسيم 1844 و1846 أثر على عدد المزارع الخاصة بالأوربيين بين منطقة سكيكدة وقسنطينة 259 مزرعة إستطانية أوربية⁽²⁾، فمنذ 1846 بدأت حيازة أراضي العزل تنتقل إلى ملكية أوربية، ففي 06 أفريل 1846م تأسست قرية سانت شارل (SAINT CHARLES) بالقرب من مدينة سكيكدة، وخصصت لها 1400 هكتار كانت تابعة لقبيلة بن مهنة المخزنية، واستقرت عليها 15 عائلة أوربية⁽³⁾.

(1) - أحمد سيساوي، مرجع سابق ص 218.

(2) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 221.

(3) - Féraud) Ch). Histoire de Philippeville. OP ; CIT ; P112.

المبحث الثالث: تطور الزراعة الكولونيالية على حساب الزراعة التقليدية

قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بإنشاء مؤسسات جديدة لتنظيم الاقتصاد الكولونيالي الفرنسي ويمثل ذلك في المشاتل، وذلك للقيام بتجارب على النباتات التي تناسب كل منطقة من جهات الشرق الجزائري، وجهزت هذه المشاتل على هيئة مشرفة على ذلك من مختصين في الميدان الزراعي، إضافة إلى تجهيز البعض منها بمكتبة مختصة بذلك. ونعتبر هذا تطور ايجابي في الشرق الجزائري رغم انه يحمل طابع إستيطاني استعماري وأهم هذه المشاتل شملت كل المدن الساحلية ثم انتشرت في الشرق الجزائري حسب طبيعة كل منطقة⁽¹⁾.

مشاتل الشرق الجزائري:

اهتمت السلطة الفرنسية على إرساء نظام اقتصادي كولونيالي استيطاني وذلك بالاهتمام على إنشاء مؤسسات تهتم بتطبيق سياسة زراعية تكون مكملة للاقتصاد الفرنسي، ولذلك أنشأت مجموعة من المشاتل للتجارب، فأوجدت في كل مدينة مشتلها وهياتها ببيئة إدارية من المختصين ومكتبة خاصة على أساس إيجاد زراعة رأسمالية متطورة لخدمة الاقتصاد الفرنسي.

قامت فرنسا بإنشاء مجموعة من المشاتل في الشرق الجزائري وذلك لتحقيق زراعة حديثة ذات طابع رأسمالي، وليس ذلك بالسهولة بمكان أن تقوم السلطات الاستعمارية أن تقوم تجارب عن نباتات تراها إستراتيجية لنظام اقتصادها في الشرق الجزائري الذي تعتبره مكملًا لمقتضيات حاجاتها، وأخذت تنشأ في كل مدينة مشتلها تقوم بتجارب فيها عن النباتات التي يكون نموها ومضاعفة مردودها الإنتاجي، ولقد اختلفت أنواع الأشجار التي كانت تحضر في هذه المشاتل بين الأشجار التجميلية للمدن والأشجار الخاصة بتثبيت التربة على حواف الطرقات والمسالك، وأشجار أخرى لكسر هبوب الرياح في البساتين والضيعات الزراعية وأخرى للإنتاج الزراعي. ومن أهم هذه المشاتل نذكر منها ما يلي:

مشتل قسنطينة: وأنشئت سنة 1842 وتمتد الى طول 2500 متر تقع وسط المدينة على شارع باردو ويصل إلى طريق عنابة وتقدر مساحتها بحوالي 20 هكتار واهم المشاتل التي شرع في إنتاجها في هذه المشتل هي شجيرات الكروم لإعادة غرسها في الحقول التي تخصص لذلك، أنشئت داخل المشتل بيت لإيواء المدير المشرف

⁽¹⁾-MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 274.

على المشتلة ومكتبة مخصصة للمشتلة وخصص لها عشرة أفراد يقومون بالأشغال فيها، جرت فيها سنة 1844 حوالي 10900 نبتة معظمها جلبت من الخارج وجرت فيها ثلاث أنواع من القطن ومجموعة أنواع من التبغ⁽¹⁾.
مشتلة سطيف: وهي من أهم المشاتل وتقع إلى الغرب من مدينة سطيف تمتد على طول 1000 متر، ومساحتها تقدر ب 10 هكتار بدأت نشاطها سنة 1845، أنشئت في وسطها بيت لإقامة المدير المسير لها وللمجموعة من المساعدين له في شهر ماي 1845، كانت تشمل على 567.33 نبتة، وسطيف تقع في هضاب مجرة من غطاء نباتي يمكنها أن تغطي مساحات هائلة وتغير من طبيعة المظهر التضاريسي النشاط الحيوي⁽²⁾.
مشتلة قالمة: شرع في نشأتها سنة 1843 وتحتل مساحة 04 هكتارات وتقع إلى الجنوب الشرقي وتمتد على طول 800 متر من المركز العسكري، مصدر مياه ربيها من بحيرة المخزن يربطها مجرى مائي، أكل تسييرها إلى طبي منتدب من المعسكر الجيش في فصل الخريف من سنة 1844، كانت تحتوي على 250209 نبتة لتجميل المدن والطرق.

مشتله سكيكدة: أنشئت المشتلة سنة 1843 بالقرب من واد الزمامنة على طول 149 متر، على الطريق السلطاني وتحتل مساحة 11 هكتار، أكلت إلى مدير كان من تلاميذ حديقة الملك محيطة بخندق بعمق 02 متر في سنة 1844- و1844، المشتلة غمرت بمياه واد الزمامنة وكانت تحتوي على 54819 نبتة من النباتات التحميلية والأشجار⁽³⁾.

إنتاج الحبوب في الشرق الجزائري:

لم تكن أوضاع الفرنسيين في السنوات الأولى لاحتلال قسنطينة على خير حالة السبب في ذلك هو المقاومة وعدم استقرار السكان من شدة الهول الذي انتشر في الشرق الجزائري، وانعكاسات ذلك يتمثل في قلة الغذاء وعدم استقرار السكان لفلاحة الأرض والاهتمام النشاط الاقتصادي.

إنتاج القمح في الشرق الجزائري:

رغم شهرة الشرق الجزائري في إنتاج القمح بأنواعه، إلا أن إنتاجه أهمل وخرب وأصابه الإهمال فقل الإنتاج، وما سياسة المصادرة التي شرعت فرنسا على العقارات الواسعة إلا سبب في هذا التناقص في الإنتاج، وما كانت

(1) - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 276.

(2) - IBID., P343.

(3) - IBID, P. 406.

تنتظره السلطة الاستعمارية الفرنسية عكس ذلك، لأن ملاحقة الحاج احمد باي جعل المنطقة تعيش في غليان، وان الاستجابة لفرنسا لم يكن بالأمر الهين، رغم سياسة اللين التي اتخذتها مع بعض رؤساء القبائل والموالون لندائها، وإيهام المجتمع القسنطيني إنها فعلا جاءت لتخلصهم من السلطة العثمانية.⁽¹⁾

وقد جاء في كتاب نظرة على الإدارة الفرنسية في مقاطعة قسنطينة من طرف احد سكان قسنطينة أن حمودة بن شيخ الإسلام حاكم قسنطينة تربى في المسجد ولم يباشر أي نشاط أو خدمة عمومية حتى الدخول الفرنسي لقسنطينة، كان شابا صغيرا في هذه الفترة، ونظرا لأهمية مكانة عائلته؛ اختاره الماريشال فالي -لأنه كثر نبلا- كحاكم لمدينة قسنطينة، حمودة لا يتأخر بإعطاء حق لمن له ذلك هذا ما نحكم عليه، لكنه لم يستطع منع الجنود من أعمالهم في نهب لبيت أبيه، وكلف بجمع الغرامات المالية التي فرضت على سكان المدينة كتعويضات الحرب التي قدرت ب 200000 بوجو، فتهمة الشعب العربي في قسنطينة بالفساد والسرقة، لهذه الأسباب تنازل حمودة من منصبه سنة 1841، بعدما حكمت عليه المحكمة العربية بغرامة قدرها 15000 فرنك فرنسي التي قام باختلاسها! في نفس الفترة تم تشكيل لجنة تحقيق اتهمت حمودة انه استولى على عقارات تابعة للدولة.⁽²⁾

في شهر جويلية 1842 حمودة، يعيش كالبقية في قسنطينة، ولكنه بعد ذلك انظم إلى مقاومة في إحدى القبائل التي كان أخوه شيخا عليها، منح السلاح لسكان القبيلة لاستعمالها ضدنا، هذه إحدى الدلائل التي تدين حمودة أمام وزير الحرب الفرنسية والحاكم العام بالنفي الى الجزائر، ومنها اختار الإسكندرية لمنفاه التي أقام فيها مع عائلته وفي طريقه الى الإسكندرية تحصل على جواز السفر أمكنه الرجوع الى فرنسا التي استقر فيها.⁽³⁾

هذه القصة التي أوردتها أردت من خلالها ان أبين مكر وسياسة فرنسا، وللذين يكونون الحب لها أنها منفعية مستغلة لكل أنواع المكر والخداع ولا تعترف بالصدقة ولا بغيرها من فضائل البشر، لكن هذه السياسة سلكتها مع معظم القادة أو شيوخ القبائل وحتى من أعلن ولاءه وخدمته لفرنسا وقادتها مثل مصطفى باي، عنابة ومصطفى باي التيطري الباي بومزراق، والباي حسن باي وهران.

وأن قلة الإنتاج يرجع إلى عدم استقرار الأوضاع الأمنية في المنطقة بسبب استمرار المقاومة في الشرق الجزائري هذا ما حتم على السلطة الاستعمارية إلى تزويد القوة العسكرية بالحبوب من القمح والشعير من فرنسا عن طريق

(1) - محمد العربي الزبيري، التجارة في الشرق الجزائري، ص 65.

(2) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 321.

(3)-COUP D'ŒIL SUR L'ADMINISTRATION FRANCAISE DANS LA PROVINCE DE CONSTANTINE PAR UN CONSTANTINIEN. IMPRIMERIE DE H. FOURNIER ET C^{LE} 1843. P. 54-55.

ميناء سكيكدة، وهذا أدى إلى ارتفاع قيمة المواد الغذائية في الشرق الجزائري، هذا ليس على الجنود الفرنسيين بل على الجزائريين المقيمين في الشرق الجزائري، فالوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري كما يصفها احد الفرنسيين سنة 1842م.

جدول إنتاج القمح الصلب في الشرق الجزائري الأوربي والأهالي لموسم 1854-1855 م⁽¹⁾

المناطق	المساحة المزروعة/ هـ	مردود المتوسط /هكغ	الإنتاج الكلي
المنطقة المدنية			
ضواحي قسنطينة	500	5	500 .2
سبدو	160	7	120 .1
ضواحي سطيف	110	50 .11	256 .1
العناصر	250	00 .11	994 .2
خلفون	200	00 .9	920 .1
فرماتو	140	00 .9	844 .1
عين سفية	180	00 .11	128 .2
مسلوق	200	11	220 .2
ضواحي سكيكدة	35	80 .10	378
فالي	51	80 .10	20 .907
دامرميون	34	14	476
سانت انتوان	9	10	90
سانت شارل	35	9	225
كاستونفيل	//	//	//
روبرتفيل	16	10	160
الحروش	132	7	924

⁽¹⁾- MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P455.

504	9	56	المناطق المعزولة
96	8	12	دائرة بجاية
400 .2	8	375	ضواحي عنابة
634 .5	7	802	مقاطعة قالمة
56	8	30 .6	مقاطعة القل
132 .27	8	290 .3	مجموع إنتاج المنطقة المدنية
المناطق العسكرية			
000 .50	5	000 .10	دائرة قسنطينة
			دائرة سكيكدة
1260	6	210	جيماب
480	6	80	أحمد بن علي
60	6	10	سيدي ناصر
8800	20	440	دائرة باتنة
496	8	62	دائرة سطيف
			دائرة عنابة
544	8	68	نشمية
896	7	112	بنترثياف
			دائرة قالمة
6075	2	30	واد التوتة
124	2	26	مجاز أعمر
62800	560	11078	مجموع إنتاج المناطق العسكرية
27132		5290	إنتاج المناطق المدنية الأوربية

إنتاج الأهالي			
932.89	665	12900	إنتاج المناطق المدنية
8581300	535	220314	إنتاج المناطق العسكرية
118398400	//	233214	الإنتاج الكلي للأهالي
120979700	الإنتاج الكلي للشرق الجزائري		

الملاحظ من الجدول إن الزراعة الاستراتيجية للقمح في الشرق الجزائري لم تظهر بالقوة التي كان ينتظرها الاستعمار الفرنسي، بعد 24 سنة من الاحتلال الفرنسي لعاصمة الأيالة وبعد 18 سنة من الاحتلال الفرنسي لعاصمة الشرق الجزائري قسنطينة، بسبب الأوضاع الامنية غير مستقرة التي فرضتها المقاومة المسلحة في المنطقة، وهذا أدى إلى ارتفاع قيمة المواد الغذائية في الشرق الجزائري، هذا ليس على الجنود الفرنسيين بل على الجزائريين المقيمين في الشرق الجزائري، فالوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري كما يصفها احد الفرنسيين سنة 1842م.

يقول احد الفرنسيين سنة 1841م على الوضع الاقتصادي وخاصة التموين بالقمح أن الجنود يعيشون في قسنطينة خلال سنة 1841 بالقمح الفرنسي، هذا القمح يأخذ من سكيكدة بسعر متوسط يقدر ب 25 فرنك فرنسي للقنطار ونفس الوضع بالنسبة للشعير نفس للخمول بسعر يقدر ب 15 فرنك فرنسي للقنطار. إن استهلاك القمح في قسنطينة يقدر ب 15000 قنطار أما الشعير فيقدر ب 15000 قنطار. أما استهلاك سطيف فيقدر ب 6000 قنطار من القمح و4000 قنطار من الشعير، لكن نقل قنطار يكلف كما يبينه الجدول التالي:

نفقات نقل الحبوب من ميناء سكيكدة الى قسنطينة وسطيف⁽¹⁾

1841	1840	نقل الحبوب
13 ف. و 50 سنتيم	17 ف و 50 سنتيم	من سكيكدة إلى قسنطينة
17 ف.	20 ف.	من قسنطينة إلى سطيف

(1)- COUP D'ŒIL SUR L'ADMINISTRATION FRANCAISE DANS LA PROVINCE DE CONSTANTINE PAR UN CONSTANTINIEN. IMPRIMERIE DE H. FOURNIER ET C^{LE}, 1843. P. 40.

إن قيمة استهلاك الجنود الفرنسيين من القمح يكلف ميزانية الدولة الفرنسية ميزانية هائلة حيث بلغت 375000 فرنك فرنسي في قسنطينة، و300000 فرنك فرنسي في سطيف. ومقارنة بسنة 1840 حيث بلغت 150000 فرنك فرنسي في قسنطينة و60000 فرنك فرنسي وهي نفس الكميات ونفس المبالغ التي كانت تكلف الإدارة الاستعمارية في الشرق الجزائري⁽¹⁾.

- أما إنتاج القمح اللين فهو يعتبر من المنتجات غير منتشرة في الشرق الجزائري بالشكل الواسع لأنها من طبيعة الحبوب التي تحتاج إلى كمية كبيرة من الأمطار وأكثر نسبة الرطوبة فالجدول التالي يبين لنا كمية المنتجة في الشرق الجزائري حسب كل منطقة.

جدول إنتاج القمح اللين في الشرق الجزائري الأوربي والأهالي لموسم 1854-1855 م⁽²⁾

المناطق	المساحة المزروعة/ هـ	مردود المتوسط /هكغ	الإنتاج الكلي
المنطقة المدنية			
ضواحي قسنطينة	//	//	//
سبدو	//	//	//
ضواحي سطيف	//	//	//
العناصر	//	//	//
خلفون	//	//	//
فرماتو عين سفية	//	//	//
ضواحي سكيكدة	//	//	//
فالي	01 .0	15	50 .1
دامريمون	//	//	//
سانت انتوان	5	9	45
سانت شارل	//	//	//
كاستونفيل	72	12	864

⁽¹⁾ - القافلة من سكيكدة الى قسنطينة كانت تستغرق سبعة ايام ذهابا وايابا، مؤسسة النقل كانت تتم على الدواب، وكان تكلفة تقدر ب 2 فرنك فرنسي، اي كل دابة تبلغ تكاليفها ب 17 فرنك فرنسي، في الحالات العادية .

⁽²⁾ - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 406.

650	10	65	روبرتفيل
198	6	33	الحروش
232	8	29	المناطق المعزولة
//	//	//	دائرة بجاية
95	50.9	10	ضواحي عنابة
//	//	//	مقاطعة قلمة
5	7	70.0	مقاطعة القل
2229	72.9	215	مجموع الإنتاج
المناطق العسكرية			
//	//	//	دائرة قسنطينة
//	//	//	دائرة سكيكدة
//	//	//	دائرة باتنة
//	//	//	دائرة سطيف
//	//	//	دائرة قلمة
2229	72.9	215	مجموع إنتاج
إنتاج الأهالي			
500.1	8	188	المناطق المدنية
//	//	//	المناطق العسكرية
500.1	8	188	الإنتاج الكلي للأهالي
5229	1944	430	الإنتاج الكلي

من خلال الجدول نلاحظ إن معظم المناطق غير منتجة للقمح اللين، والسبب في ذلك هو عدم الاهتمام الفلاحين بهذا النوع من الإنتاج، وإن المنطقة لم تستقر بعد بسبب المقاومة المسلحة وإن السكان الجزائريون كانوا يهتمون بزراعة القمح الصلب، لأنه أكثر مردودية وعدم ملائمة المناخ لزراعة القمح اللين، لهذا كان الإنتاج في معظم الجهات منعدم لكن السلطات الفرنسية اهتمت به في المستقبل، لأن القوانين التي تسمح بنقل الملكية ومصادرة الاراضي للقبائل الثائرة، والاستحواذ على أراضي العزل تدخل حيز التطبيق وتقلب كفة الإنتاج لصالح الكولون الذين يستأثرون بالأراضي الزراعية.

إنتاج الشعير: وهو ثاني إنتاج يحظى بالاهتمام والمتابعة، فيستعمل في الفترة الفرنسية كعلف للحيوانات، وأن منطقة الشرق الجزائري كان أكبر المجالات الجغرافية للاستثمار فيه ومن خلال الجدول التالي يبين لنا أهمية الإنتاج وكمية المنتجة خلال الموسم 1854-1855م.

جدول إنتاج الشعير في الشرق الجزائري الأوربي والأهالي لموسم 1854-1855 م⁽¹⁾

المناطق	المساحة المزروعة/ هـ	مردود المتوسط/ هكغ	الإنتاج الكلي
المنطقة المدنية			
ضواحي قسنطينة	200	6	200 .1
سبدو	70	8	560
ضواحي سطيف	124	80 .12	586 .1
العناصر	190	80 .12	432 .2
خلفون	180	12	100 .2
فرماتو	125	80 .11	600 .1
عين سفية	160	80 .12	048 .2
مسلوق	240	80 .12	072 .3
ضواحي سكيكدة	40	80 .12	616
فالي	8	60 .15	134
دامرمون	13	80 .12	208
سانت انتوان	4	16	36
سانت شارل	5	9	24
كاستونفيل	4	8	36
روبرتفيل	6	9	54

⁽¹⁾-MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 443.

200	9	20	الحروش
110	10	11	المناطق المعزولة
24	10	2	دائرة بجاية
850 .2	12	190	ضواحي عنابة
220 .5	15	580	مقاطعة قالمة
27	9	3	مقاطعة القل
135 .24	9	169 .2	مجموع إنتاج المنطقة المدنية
المناطق العسكرية			
24000	10	000 .4	دائرة قسنطينة
774	10	40 .77	دائرة سكيكدة جيماب
250	10	25	أحمد بن علي
40	10	4	سيدي ناصر
500 .2	25	100	دائرة باتنة
120	12	10	دائرة سطيف
660	11	60	دائرة عنابة نشمية
630	11	30	بنترثيافر
10	39 .1	6	دائرة قالمة قلال بوشة
//	//	//	واد التوتة
81	33 .6	13	مجاز أعمر
//	7	160 .2	إنتاج المناطق العسكرية
29065	11 .11	494 .6	إنتاج المناطق المدنية

الأوربية			
إنتاج الأهالي			
756.62	50.9	736.6	إنتاج المناطق المدنية
.514	66.6	520.77	إنتاج المناطق العسكرية
736			
.577	//	250.84	الإنتاج الكلي للأهالي
495			
606560	27.27	90744	الإنتاج الكلي للشرق الجزائري

الملاحظة من الجدول إن إنتاج الشعير شمل كل المناطق الجغرافية للشرق الجزائري، وذلك لملائمة المناخ لإنتاجه، إن ذلك أدي إلى المحافظة على الغذاء في الشرق الجزائري وأصبح من الاستهلاك العام للأهالي، ولقد اهتمت السلطة الاستعمارية على تنميته وتطويره وأصبح يدخل في الصناعة المشروبات الكحولية، فهذا التطور فسح المجال إلى إنتاج مضاعف. لكن حتى سنة 1855 لم يبلغ اشد الإنتاج نظرا لعدم استقرار الأوضاع الأمنية بسبب استمرار المقاومة الوطنية، وإن مواقع إنتاجه تكون في الأرياف التي لا تحتاج إلى كمية كبيرة من الأمطار والتربة اقل خصوبة وهذه المناطق لم تكن قد استقرت بعد في هذه المناطق وان معظم الانتاج ما يزال بالطرق التقليدية التي يمارسها السكان الاهالي، لكن هذه الكمية سوف تتضاعف في السنوات المقبلة بتدخل الكولون في زراعته ودخول الوسائل الحديثة.

إنتاج الذرة: غير مشهور في إنتاج الشرق الجزائري، لكن السلطة الاستعمارية عملت على الاستثمار فيه وهو ذو مردود وفير يتناسب مع المناطق الرطبة وذات الكمية المرتفعة من المياه ولقد انتشرت زراعته في المناطق الشمالية التلية لأنها أكثر تساقط ووفرة للمياه وخاصة في سهول سكيكدة والحروش ونواحي عنابة والقل، وهذا يبين لنا توزيع المحاصيل الزراعية في الشرق الجزائري والعوامل المتحكمة فيه مثل خصوبة التربة، والأمطار ووفرة المياه السطحية.

جدول إنتاج الذرة في الشرق الجزائري الأوربي والأهالي لموسم 1854-1855 م⁽¹⁾

المناطق	المساحة المزروعة/ هـ	مردود المتوسط /هكغ	الإنتاج الكلي
المنطقة المدنية			
ضواحي قسنطينة	//	//	//
سبدو	50 .0	17	50 .8
ضواحي سطيف	//	//	//
العناصر	1	18	18
خلفون	//	//	//
فرماتو	//	//	//
عين-سفية	//	//	//
مسلوق	//	//	//
ضواحي سكيكدة	12	40 .5	162
فالي	8	6	48
دامريمون	5	7	35
سانت انتوان	1	8	8
سانت شارل	3	6	18
كاستونفيل	8	9	72
روبرتفيل	3	9	27
الحروش	8	8	64
المناطق المعزولة	5	8	40
دائرة بجاية	//	//	//

⁽¹⁾-MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 411.

55 .550	50 .14	.38	ضواحي عنابة
		50	
230	10	.23	مقاطعة قالمة
		00	
27	9	.3	مقاطعة القل
308 .1	11		مجموع إنتاج المنطقة المدنية
المناطق العسكرية			
84	12	7	دائرة قسنطينة
			دائرة سكيكدة
30	15	2	جيماب
30	15	2	أحمد بن علي
75 .9	15	25 .0	سيدي ناصر
//	//	//	دائرة باتنة
20	15	50 .2	دائرة سطيف
			دائرة عنابة
//	//	//	نشمية
//	//	//	بنترثيافر
			دائرة قالمة
//	//	//	قلال بوشة
//	//	//	واد التوتة
//	//	//	مجاز أعمر
168	12	10	مجموع إنتاج المناطق العسكرية
476 .1	//		إنتاج المناطق المدنية الأوربية
إنتاج الأهالي			
136	09 .17	8	إنتاج المناطق المدنية

670 .1	54 .4	368	إنتاج المناطق العسكرية
806 .1	//	376	الإنتاج الكلي للأهالي
3282			الإنتاج الكلي للشرق الجزائري

الملاحظ أن زراعة الذرة انتشرت في المناطق الشمالية، في منطقة أكثر خصوبة لتربة ووفرة للمياه وأن الاستثمار يعتبر تطور في الزراعة، وأن إنتاجه يتطور أكثر عند استقرار الأوضاع وبداية الاستثمار الواسع في الشرق الجزائري. والملاحظ أيضا أن المناطق المدنية لم تشهد تطور في إنتاج الذرة، هذا يبين لنا قلة الاهتمام، بسبب قلة الفئة المشرفة على الإنتاج من الأوربيين، وإن الطابع الإستيطاني لم يكن بالشكل الواسع نظرا لقلة الوافدين للشرق الجزائري من الأوربيين، تخوفا من استمرار المقاومة الوطنية، ومن خلال الجدول يظهر لنا المناطق التي استطاعت السلطة العسكرية الفرنسية، عن طريق الاستغلال الزراعي في الشرق الجزائري.

الأشجار المثمرة في الشرق الجزائري 1854-1855م

الشرق الجزائري يحتل المراتب الأولى في إنتاج الزيتون وإنتاج الزيت، وهذا حسب إحصائيات الموسم 1853-1854، وغراسه هذه الأشجار توجد في مناطق عديدة من الشرق الجزائري، وعمليات الغرس نجحت في الكثير من المناطق التي تمت فيها وبكل سهولة، وبالنسبة لإنتاج الزيت أنشئت عدة مصانع رغم المصانع المتواجدة في المناطق المنتجة لهذا المحصول، وهي تعمل بالموازاة مع المعاصر المتواجدة من قبل، ولقد أحصيت عدد المعاصر في سنة 1854 ب 24 معصرة، وزعت في جميع أنحاء المنطقة التي تحتاج هذا النوع من المصانع، والجميع تابعة للمستثمرين الأوربيين، وهذا العدد لإنتاج زيت أكثر جودة والجدول التالي يبين لنا عدد المصانع المنشأة سنة 1854م.

جدول لأهم مصانع عصر الزيتون في الشرق الجزائري لسنة 1854م⁽¹⁾.

العدد	الجهة
02	عناية
02	قالمة

(1)-MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 421.

3	سطيف
1	بسكرة
08	المجموع

ان عدد أشجار التي تم غرسها في سنة 1853 م بلغ 132000 شجرة وفي سنة 1854 ارتفع عدد الأشجار الى 180000 شجرة من طرف الأوربيين وهي موزعة حسب الجدول التالي.

جدول يبين تطور غرس الأشجار في الشرق الجزائري سنة 1854⁽¹⁾

الجهة	عدد الأشجار
دائرة سكيكدة	111000
دائرة عنابة	8000
مقاطعة القل	500
مقاطعة قالمه	18000
مقاطعة بجاية	2000
دائرة قسنطينة	40500
المجموع	180000

أما أشجار الزيتون التابعة للأهالي في المناطق العسكرية حسب إحصائيات الموسم 1854 فبينها في الجدول

التالي:

جدول يبين أشجار الزيتون في المناطق العسكرية التابعة للأهالي لموسم 1854⁽²⁾

الجهة	عدد الأشجار
سطيف	225000
بجاية	100000

⁽¹⁾- MINISTÈRE DE LA GUERRE. OP-CIT. P 358.

⁽²⁾-MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P458.

4000	برج بو عريريج
110000	بسكرة
22000	سكيكدة
461000	المجموع

توجد في نفس المناطق نحو مليون شجرة غابية تستعمل لإنتاج الزيت، ففي برج بو عريريج أحصيت حوالي 145000 شجرة، أن كمية الزيت التي دخلت إلى أسواق الشرق الجزائري بلغت 1127321 لتر، والإنتاج الذي أحصيت به العملية فاق 7000000 لتر، هذا بزيادة 1000000 لتر عن الموسم السابق لسنة 1853م، جزء من هذا الإنتاج تم استهلاكه محليا أما الباقي فتم تصديره إلى الخارج.

النباتات المنتجة للزيت (plante oleagineuses) (1):

إلى جانب إنتاج زيت الزيتون ظهرت نباتات أخرى منتجة للزيت في مناطق عديدة من الشرق الجزائري، مثل الفول السوداني الذي يحتل المرتبة الأولى من المساحة المستغلة من طرف الأوروبيين، وهي تحمل فوائد كبيرة من حيث الإنتاج الكبير أو من حيث نوعية الزيوت المستخلصة منه.

بلغت مساحة الأراضي المزروعة من الفول السوداني سنة 1853م في الجزائري ب 69 هكتار، هذه المساحة ارتفعت سنة 1854 إلى أكثر من 42 هكتار، وهي موزعة في الشرق الجزائري حسب الجدول التالي:

جدول يبين تطور مساحة الفول السوداني في الشرق الجزائري (2)

الإقليم	المساحة هكتار / آر
إقليم الجزائر	27 هكتار و 16 آر
إقليم وهران	12 هكتار و 28 آر
إقليم قسنطينة	43 هكتار و 20 آر
المجموع الكلي للجزائر	82 هكتار و 64 آر

(1)- MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P344.

(2)- MINISTÈRE DE LA GUERRE. OP-CIT. P 347.

من خلال الجدول نلاحظ أن أكبر مساحة مستغلة لإنتاج الفول السوداني يحتلها الشرق الجزائري، وهو نشاط استغلالي حديد بالنسبة لصناعة الزيت في الجزائر.

بالإضافة إلى منتج الفول السوداني اهتم الأوربيون بزراعة الخردل الأبيض الذي انتشرت زراعته عند المزارعون الأوربيون ولقد بلغت مساحته ب 21 هكتار خاصة في مقاطعة وهران⁽¹⁾.

بالإضافة إلى العنب الذي شهد تطور كبير من حيث المساحة المعتبرة من السمسم والحشخاش واللفت وأشجار الفواكه بأنواعها خاصة الحوامض والمشمش والكرام التي انتشرت في المناطق التلية⁽²⁾.

الاهتمام بالثروة الحيوانية في الشرق الجزائري

إن الإنتاج الحيواني رغم الثراء التي كانت تشتهر به منطقة الشرق الجزائري من الثروة الحيوانية، فإنها شهدت ضعف في الإنتاج، نظرا للتطورات غير آمنة في المنطقة وعدم استقرار الرعاة في مضاربهم خاصة السنوات الأولى لاحتلال فرنسا لمدينة قسنطينة، وهو ما أثر سلبا من قوة المصادرة التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي للشرق الجزائري.

الحضيرة الحيوانية للشرق الجزائري لموسم 1843-1844:

اسم القائد	القبائل	أبقار	أغنام	ماعز	خيول	بغال
العرب	9	64,02	33,34	2,03	2829	1,101
الشرق	9	15,3	7,35	4,1	1,7	705
الحنانشة	9	22,84	61,1	22,8	3,555	1,975
تبسة	9	500	4	1	50	200
عناية	20	34,192	61,39	4,266	8,085	1661
قائد ابدوغ	24	24,03	31,6	8,1	1,916	2,205
قائد قوقة	20	17	37,6	6,45	2817	1,853
جيغل	14	10,55	12,7	2,88	1,155	980
بن فوغال	9	6,2	11,515	3,45	525	1,01
تو حسن	18	11,495	20,9	6,58	1,4	1,6

⁽¹⁾-IBIDEM.P 351.

⁽²⁾-IBIDEM.P 363.

1,331	1,268	8,849	26891	16,163	16	سكيدة
26,303	34,179	123,46	1126560	91,984	22	قسنطينة
1,034	5,027	5920	82,941	362	12	بسكرة
7	7000	10	310	10	5	باتنة
12,26	11,036	27,015	149,848	15,4	10	سطيف
14,027	9652	74674	292,39	14,628	31	بجاية
3617,69			1154567,6			
9	22942,321	80824,98	7	1215,802	237	المجموع

النتائج لوضعية الثروة الحيوانية للشرق الجزائري التي أحصيت سنة 1844؛ أعطت 354644 ثورا وبقرة، و2270131 من الغنم و291451 من الماعز و92194 من الأحصنة، و75253 من البغال و270087 من الإبل، تمثل هذه الثروة 3353780 رأس، ان الخسائر التي شهدتها الشرق الجزائري من الثروة الحيوانية، بسبب المقاومة والأعمال الفرنسية جعلها تفقد الكثير من رؤوس الماشية والحيوانات.

الجزائر غنية من ثروتها الحيوانية واكبر نسبة تستأثر منطقة الشرق الجزائري، فالجيش الفرنسي لاحظ ذلك ان تناقص هذه الثروة الحيوانية يضر بتواجدهم في المنطقة، بسبب تزايد نفقاتهم على الجيش الذي يقوم بعملية الاحتلال وأرهقته عن توسعته المقاومة الوطنية المستمرة⁽¹⁾. لكن هذه الثروة الحيوانية واجهت الكثير من الانخفاض، بسبب الحروب التي كانت تقوم بها القوة العسكرية الفرنسية، وكثير من الأحيان كانت تجرد القبائل من مواشيهم وحيواناتهم بسبب المشاركة في المقاومة، ثم تقوم بتوزيعها على الكولون لاستعمالها في عملية الزراعة، وقد مر بنا الجدول الذي يبين لنا توزيع الثروة الحيوانية في الشرق الجزائري حسب كل جهة لسنة 1845م.

ارتبط الإنتاج الزراعي في الشرق الجزائري بالتوسع الفرنسي بالمنطقة، فلم يشهد تطور كبير في الفترة الاولى للاحتلال إلا في المناطق التي تقع في الشمال القسنطيني، نظرا للظروف السياسية التي شهدتها الشرق الجزائري، فالمناطق الساحلية هي الأكثر توسعا خاصة السهول والمناطق التي كانت تحت سلطة البايليك في الفترة العثمانية،

(1) -MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P286.

لان القوانين التي وضعت للتنفيذ مست، أراضي السلطة العثمانية وأراضي الاوقاف والتي كانت تمنح لأهل العقد والربط ووجهاء الاهالي، لذلك نلاحظ في الفترة التي هي الصدد البحث ان تطور الزراعة متباين بين الشمال وجنوب الشرق الجزائري، وان المرحلة الاولى من عملية الاستيطان شملت المناطق الساحلية ثم الداخلية حتى وصلت نحو الهضاب العليا ثم الجنوب القسنطيني.

وهذا ما يلاحظ ان إنتاج القمح كان أكثر وأقوى مردود في المناطق الشمالية وحتى المنتجات الأخرى مثل الشعير والذرة والأشجار المثمرة، ولقد عرفت الزراعة طابع العصرنة بدخول المشاتل كمراكز للتجربة ومحاولة من السلطة الفرنسية تنويع وتطوير الزراعة. وهذا لم يكن طيلة الفترة العثمانية، فلم تدخل أساليب البحث والتطور على وسائل الإنتاج ولا على الهياكل القاعدية لتنمية الإنتاج الزراعي أو غيره، اكتفت السلطة العثمانية بجمع الضرائب وتقسيم الأراضي التي يتم مصادرتها والسيطرة عليها، فالفرق بين النظام العثماني انه جامد في الحركة.

أما في الفترة الفرنسية أخذت المبادرة لتطوير وسائل الإنتاج وأشرفت السلطة العسكرية أو المدنية على تغيير أساليب خدمة الأرض وتطوير أدواتها، واصطبغت الزراعة بصبغة الحداثة والعصرنة، لان طبيعة الاستعمار كان استيطاني، واعتبر الفرنسيون أنفسهم، هم أصحاب الأرض وأملهم البقاء فيها دون ان يفكروا يوما في تركها، وهذا عكس ما كان ينظر إليه العثمانيون في الجزائر.

المبحث الرابع: تطورات جباية الضرائب وتنظيمها في العهد الفرنسي في الشرق الجزائري

تعددت أنواع الضرائب في أواخر الفترة العثمانية في الشرق الجزائري، الشيء الذي أزهق الجزائريون وأدى الى اعلان العصيان والتمرد على السلطة العثمانية وسوء العلاقة بين السلطة والجزائريين، إضافة الى سوء وتدني مردود الإنتاج بسبب سوء الأحوال الطبيعية، التي ضربت الشرق الجزائري لمرات عديدة، لكن الفترة الفرنسية لم تزد الجزائريين إلا تراجعاً وتدهوراً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.⁽¹⁾

أمام هذه الأوضاع نظرت الأسئلة التالية: كيف تعامل الفرنسيون في الشرق الجزائري في استخلاص الضرائب وكيفية فرضها؟ وما هي الأجهزة التي سخرتها السلطة الفرنسية لتحقيق هدفها الاقتصادي المالي عن طريق الضرائب؟ وهل كان هناك استثناء في تطبيق الضرائب بين الجزائريين وفتة الفرنسيين التي أخذت تستوطن الجزائر بالامتيازات غير محدودة لصالحهم؟

نظرا لتعدد وكثرة الضرائب التي كانت مفروضة في الفترة العثمانية ارتأت السلطة الفرنسية الى ابقائها وتثمين القائمين عليها وذلك لعدة اعتبارات في نظر الحكام الفرنسيين.

١ - صالح عباد، مرجع سابق، ص 526.

اعتبرت السلطة الفرنسية ان الضرائب التي كانت تدفعها الفئات الاجتماعية هي من تقاليد المجتمع الجزائري في العهد العثماني، فعملت على بقائها وتدعيمها بالهياكل الفاعلة في المجتمع الجزائري الذين أعلنوا الولاء للسلطة الفرنسية في الجزائر.

ان موضوع الضرائب في الجزائر العثمانية خضع لميزان القوة بين السلطة والجزائريين⁽¹⁾، فعندما تحس القبيلة إنها في منأى من السلطة تعلن العصيان والتمرد، وعندما تحس بالضعف تعلن الطاعة والانصياع، خاصة في أواخر الفترة العثمانية، فكان الحكم قائما على الولاء والالتزام والامتيازات⁽²⁾. فضريبة الدنوش الكبير والصغير كانت توضح مركزية الضرائب التي كان يفرضها البايليك على القبائل⁽³⁾.

الضرائب في عهد الماريشال فالي:

لقد عمد الماريشال فالي على اخضاع القبائل نظرا لأهمية العملية حيث يقول: «ان اشتراط الضريبة هو العلاقة الحقيقية التي تظهر من خلالها السيادة الفرنسية»⁽⁴⁾.

لقد اعتمد الماريشال فالي على النظام الضريبي الذي كان متواجدا في الفترة العثمانية في الشرق الجزائري، لان السلطة الفرنسية في الجزائر مازالت غير مستقرة بسبب استمرار المقاومة الوطنية في الجزائر، ولم تستقر فرنسا بسياسة ضريبية مقننة، بالإضافة لكي تبرز للمجتمع الجزائري ان سياسة فرنسا لم تكن إلا لصالحهم، وكسب عطف الناس إليها وفي هذا الصدد يصرح فالي بقوله: «ان الامر لا يتعلق بنظام مقنن لجباية الضرائب ولا باستيراد نظام المحاسبة الفرنسية، بل يجب استعارة الأشكال البسيطة المعمول بها في جمع الضريبة، والسماح للقادة باستعمال الوسائل المتعارف عليها... ويكفي الإدارة الفرنسية الاعتراف بالشيخ وحده مسئول عن الضريبة ولا تتدخل السلطة الفرنسية إلا حسب القانون. فهذه الأفكار العامة نابعة من سلطة الخبرة، فقد أثبتت عند القوى الأوربية لدى احتلالها البلاد الإسلامية»⁽⁵⁾. ان الماريشال فالي يشير الى ان إبقاء الشيخ المؤهل لجمع الضرائب وحده كاف لتحقيق مصالحها، لكن ان اقتضت الضرورة ان تتدخل السلطة في حل المشاكل التي يفترض ان تعترض ذلك فان السلطة تتدخل، وهي نفس السياسة التي كانت تتبعها السلطة العثمانية في الشرق الجزائري على القبائل المتمردة والرافضة لدفع المستحقات الضريبية.

(1) - فلة موساوي قشاعي، النظام الضريبي في الشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 72.

(2) - André Nouschi: Op. Cit. , p. 174

(3) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 119.

(4) - نفس المرجع السابق، ص 126

(5) - نفس المرجع السابق، ص 128

نستنتج من هذا ان سياسة فالي لم تكن إلا صورة طبق الأصل للسياسة العثمانية في الجزائر، بل زاد ذلك تعميقا في القوة والتسلط الاستعماري، لقد كانت السياسة الفرنسية توهم الناس بخدمتهم وتقديم العون للتوصل من السلطة العثمانية، لكنها اتبعت نفس الأسلوب الاستعماري بل الإستطاني.

ان اعتراف فالي بالمجتمع الجزائري، وانه كانت له تقاليد وعادات ضاربة في جذور التاريخ وصعوبة اجتثاث تلك الأعراف منه يجعله يبقي الأوضاع على حالها ومسايرة العرف الذي كان يعيشه الجزائريون في موضوع دفع المستحقات للسلطة الحاكمة، وفي هذا الصدد يصرح بقوله: «لايمكننا أن نفكر في إعادة بناء مجتمع يعيش على تقاليد ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، فيجب أن نقبلها و الاستفادة منها من أجل قضيتنا». اعترف فالي بأن الشعب الجزائري كانت له ثقة هامة في شيوخه؛ لذلك دعم الوساطة التي كانت موجودة بين السكان وشيوخهم للاستفادة بها في ناحية جباية الضرائب والدخل المالي، لأن الجزائر أصبحت تمثل عبئاً للمصاريف في ميزانية الدولة الفرنسية، لذلك أبقي المارشال فالي على الضرائب على حالتها السابقة وفي هذا السياق يقول: «هكذا فإن اشتراط الضريبة هو العلامة الحقيقية التي تظهر من خلالها السيادة الفرنسية التي تتطلبها السياسة تفيد العمل العسكري بتوفير قوات مساعدة دون كثير مصاريف، كما تفيد الإدارة بالمؤن التي توفرها و تساعد على ازدهار القوة الفرنسية بدون تكاليف تذكر»⁽¹⁾.

عين حمودة الفنون حاكما على مدينة قسنطينة بعد احتلالها سنة 1837م، وكلف باستخلاص الضرائب من أهاليها، مثل ما كان في عهد الحاج احمد باي، وطبق الفنون الإجراءات التي كان معمول بها، في الشرق الجزائري، وكان يلزم السكان بدفع ما كانوا يدفعونه في الفترة العثمانية، حتى الضرائب الاضافية التي كانت مرتبطة بشخصية الباي أحمد⁽²⁾، وفي إطار تنظيم الإدارة الفرنسية في الشرق الجزائري؛ قام المارشال فالي بإصدار مرسوم 30 سبتمبر 1837م يقر فيه بإنشاء مجلس يتألف ممن يلقبون بالخليفة وشيوخ القبائل وعلى رأسهم القائد العسكري الفرنسي لمقاطعة.

وقد قام المارشال فالي خلال تنظيمه للإدارة بمرسوم 30 سبتمبر 1838 بعد عام من احتلال قسنطينة بإنشاء مجلس يتألف من الخلفوات (جمع خليفة) وشيوخ القبائل يرأسه القائد العسكري للمقاطعة، و أما مجلس الإدارة فقد كان مكلف بمراقبة واستخلاص الضرائب، و في هذا الصدد يورد العنتري أن حمودة شرع في تعيين

(1) - Ernest Mercier: Les idées et les actes du Maréchal Valée, Op. Cit. p. p. 33-34.

(2) - محمد الصالح العنتري: فريدة مؤنسة، المصدر السابق، ص 146.

القياد و الشيوخ على قبائل الإقليم لاستخلاص الضرائب، كما كان الشأن في عهد العثمانيين⁽¹⁾. كما يؤكد الماريشال فالي ذلك بقوله: «على رؤساء الأهالي والعشائر الموالين لفرنسا أن يتعهدوا بجمع الضريبة و دفعها للإدارة الفرنسية، أما الرسوم فيجب ألا تتعدى الرسوم التي كان يدفعها الأهالي في عهد الحاج أحمد باي»⁽²⁾. اعتمد الماريشال فالي على اهم الضرائب ذات الطابع الظاهري المتواجد، والذي يمكن من خلاله تحقيق مصادر مالية معتبرة، وتمثل في العشور والزكاة والتي هي من حقوق المسلمين على المسلمين لأنها تدخل في إطار الشريعة الإسلامية، كذلك يعتبرها الجزائريون من الواجبات الدينية، وكانت تدفع للسلطة العثمانية لأنها صاحبة ومثلة السلطة في الجزائر في ذلك الوقت، واعتبرها الماريشال فالي من حق السلطة الفرنسية، لان السلطة الفرنسية هي صاحبة السيادة، واعتمد في الدرجة الثانية على رسوم المكس في الأسواق والرسوم على الأنشطة الحرفية ورسوم الصادرات والواردات.

الضرائب على الأراضي:

ضريبة الحكر:

الحكر كما أسلفنا ذكره في الفصل السابق هو كراء أراضي التي هي ملك للبايليك (أراضي العزل)، وأصبحت تحت سلطة السلطة الاستعمارية بعد المصادرة، ولقد استمرت السلطة الاستعمارية في التنازل عليها للفلاحين، لاستغلالها في الزراعة والفلاحة والرعي، على ان يدفع هؤلاء المستفيدون الحكر (بشمن مالي) والعشور قيمة عينية، وكانت هذه الأراضي تحت تصرف كبار موظفو البايليك، والمخازنية والأعيان من الجزائريون في الفترة العثمانية⁽³⁾. لقد اختلفت قيمة الضريبة نظرا لنوعية الأرض وموقعها ووفرة المياه بها وطبيعة زراعتها. فقبيلة الخراب التي كانت تتكون من 14 عزلا تابعة لأولاد داود المخزنية، فهم مجبرون على الخدمة العسكرية، كانوا يدفعون ضريبة سنوية تقدر ب08 فرنك و95 سنتيم كحكر، وصاع من القمح وصاع من الشعير وشبكة من التبن على كل جابدة 10 هكتارات. وأن هناك ستة (06) أعزال من قيادة أولاد داود كان يطبق عليها ضريبة الجبري (ضريبة تمنح للأعيان) الجوابرية⁽⁴⁾. أما عزل بلاد قشي، وعزل مقصبة، وعزل بوخناسة، وعزل بلاد غضبان، وعزل بلاد

(1) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 120.

(2) - أحمد سيساوي، نفس المرجع، 125

(3) - عبد القادر جعلول: تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسولوجية، ترجمة فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، ط1، الجزائر

1981، ص 44.

(4) - فلة موساوي قشاعي، مرجع سابق، ص 76.

بلجايوي كل منها كان يدفع 25 صاعا من القمح، ومثلها من الشعير كحكر، وعزل بن زموي تدفع ستة (06) صاعا من القمح ومثلها من الشعير.

وكان أعيان الخراب يدفعون 500 فرنك كحكر وصاع من القمح، ومثله من الشعير وشبكة من التبن، على كل جابدة، وأولاد يعقوب وأولاد عجز وأولاد عنان من قبيلة البرانية الذين يكونون قائد الزمالة كانوا معفيين من دفع الضرائب⁽¹⁾.

أما الاعزال التي كانت تمنح لقبائل لرعي قطعان البايليك، ويطلق عليها اسم أعزال البقراج، فكانت تدفع ضريبة العشور والمقدرة ب 10 صاع من القمح وصاع من الشعير على الجابدة الواحدة، أما العشور فتدفعها نقدا بقيمة 10 ريالات⁽²⁾، وكانت قبائل المخزن التي كانت تحت قيادات المخزنية مثل قبيلة أولاد عبد النور والتلاغمة وميلة وعامر شراقة وساحل سكيكدة، فكانت تجي منها الضرائب وحدد في عهد أحمد باي ب 23.85 فرنك للزويجة التي تقدر مساحة حرثها ب 10 هكتارات، وقيمة العشور فقدرت بصاع من القمح وصاع من الشعير وبوجو وربع على ضريبة التبن، وضريبة الجبري ب 12 صاع ونصف من القمح ومثلها من الشعير إضافة الى ضريبة التبن⁽³⁾.

إن مجموع هذه الضرائب لم تكف السلطة الفرنسية في الشرق الجزائري رغم تعددها وقوة دخلها وانتظام جبايتها في عهد الماريشال فالي، لان فرنسا كانت نفقاتها كبيرة نظرا للفراغ الذي تركته السلطة العثمانية في الشرق الجزائري أثناء فترة التحضير لاحتلال قسنطينة، وبعده حتى جاءت إدارة الاحتلال وبداية تنظيم الشرق الجزائري تحت سلطته، وأخذ وقت من الزمن تحت ظروف قاهرة للسكان بين الاختيار، أما الولاء للحاج أحمد باي أو الولاء لسلطة الاحتلال لأن استمرارية المقاومة فرض ذلك.

ضريبة اللزمة:

كانت هذه الضريبة اقل انتشارا في الشرق الجزائري في عهد الماريشال فالي، وذلك للظروف التي كانت تكتنف المناطق التي تفرض عليها، فهي خاصة بسكان المناطق النائية مثل الجبال في الاوراس وجبال البابور والمناطق الصحراوية، كانت تفرض عليهم مقابل التردد على المناطق الشمالية بالنسبة للمناطق الصحراوية للبحث عن الكلاء، وهي القبائل الرحل والسماح لهم التزود من السواق العامرة في الهضاب العليا، وهي معاملة مقايضة

(1) - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي، مرجع سابق، ص 94.

(2) - فلة القشاعي موساوي، مرجع سابق، 86.

(3) - احمد سيساوي، مرجع سابق ص 122.

بين السكان وأصحاب المحلات، أو في الأسواق العامة، وأهم المنتجات التي تدخل في المقايضة هي المنسوجات الصوفية والتمر والخرفان وأعداد من العبيد، وقد حدد أندري نوشي حسب إحصائيات 1840 في بايليك الشرق حسب الجدول التالي:

ضريبة المناطق النائية في الشرق الجزائري حسب إحصائيات أندري نوشي⁽¹⁾

نوع الضريبة	القيمة المالية / فرنك
العشور	400000
الحكور	72000/36000
اللزمة	3000
الغرامة	600000
المجموع	135000 / 1039000

من الجدول نلاحظ ان قيمة الحكور تحتل المرتبة الاولى من ناحية القيمة المالية، ويرجع ذلك لاتساع المجال الجغرافي لهذه القبائل، بالإضافة الى طابع النشاط الاقتصادي الذي تتميز به هذه القبائل، وهو نشاط الرعي وكمية الصوف المنتجة لهذه المناطق، ومن ناحية أخرى ان القيمة المالية للغرامة أكبر من القيمة مالية العشور نظرا لقلّة المحاصيل الزراعية، بالإضافة الى الطابع الانتقامي الذي كانت تمارسه السلطة الفرنسية على هذه المناطق النائية، وأنها مناطق مازالت في مرحلة النفور والمقاومة للسلطة الفرنسية.

لقد حافظت السياسة الاستعمارية على نفس الضرائب التي كانت قائمة في الفترة العثمانية، وذلك للمحافظة على استمرار تدفق الأموال على خزينة البايليك، لكنها وضعت آليات لمراقبتها والتدقيق في جمعها بمساهمة المكاتب العربية التي يشرف عليها ضباط عسكريين بمساعدة فرق من الاهالي وظفوا في المكاتب العربية من جهة كادلاء ومخبرين للسلطة الفرنسية.

ضريبة الغرامة (الغرامة):

تميزت بها القبائل ذات الطابع الرعوي وذات المجال الجغرافي الواسع والتنقل والترحال، وأهم هذه القبائل قبيلة الحراكمة وقبيلة النمامشة، وكانت تدفع في ثلاث مواسم، في فصل الشتاء والربيع والصيف، وكانت لهاتين القبيلتين دور كبير في الفترة العثمانية وفي الفترة الفرنسية، فكانت قبيلة الحراكمة تدفع ما قيمته 15000 فرنك كغرامة

(1) - المرجع نفسه، ص 24.

و1000 رأس من الغنم و900 فرنك كقيمة الحكور (الأراضي المستأجرة من البايليك) و2000 إلى 5000 فرنك كضريبة المشيخة (التعيين)، و800 فرنك في فصل كل الشتاء ومثله فصل كل الربيع. أما قبيلة النمامشة فكانت تقدم 300 رأس من الغنم، ويمكن ان تدفع نقدا في ثلاث دفعات في السنة في موسم الشتاء 26000 فرنك وفصل الربيع 12500 فرنك وفي فصل الصيف 27500 فرنك⁽¹⁾.

ضرائب النشاط الحرفي (ضرائب ورسوم):

شملت النشطة الحرفية جميع الحرف في الفترة العثمانية، وكانت تتركز في المدن، فكان تنظيمها يخضع لقوانين تحدده الهيئة المشرفة على المهنة، وهذه المهنة تنتدب من يمثلها عند السلطة وعلاقة السلطة بالحرفيين، هي علاقة ضرائب لا غير، وكانت ضريبة الحرفة تتراوح بين نصف بوجو إلى بوجو عن كل محل أو ورشة في الشهر يقوم بتحصيلها أمين الحرفة إلى قائد الدار، الذي يقوم بدوره بتقديمها الى البيت المالجي، وقد بلغت المبالغ المالية لكل حرفة سنويا وفق الجدول التالي:

جدول يبين قيمة الضرائب التي يدفعها أمناء الحرف لقائد الدار في الشرق الجزائري⁽²⁾

الحرفة	المدفوعات السنوية	ضريبة إضافية
أمين الحدادين	50 بوجو ⁽³⁾ سنوياً	
أمين الصبّانين	50 بوجو	ضريبة فوق العادة مقدارها 1440
أمين البرادعية	50 بوجو.	اعداد مجاني لاحتياجات البايليك
أمين السراجين	100 بوجو	
أمين العطارين	100 بوجو	
أمين الدباغين	150 بوجو خلال ستة أشهر	يدفع كل جلود الأغنام التي ذبحت

ضرائب الأسواق (المكوس والرسوم):

كان اهتمام الماريشال فالي بتنظيم الأسواق ونشاطها عن طريق فرض رقابة صارمة لذلك أوجد مجلس ادارة الشرق الجزائري هيئة تحت رئاسة القائد الأعلى الفرنسي ومن نائب مقتصد العسكري والحاكم الأهلي (حمودة

(1) - نصرالدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 78.

(2) - جدول من اعداد الباحث بناء على مرجع احمد سيساوي، ص ص 126-127.

(3) - بوجو قسنطينة في ذلك الوقت 90 سنتيماً فرنسياً، وقبل سنة 1830 كان يعادل 1,80 فرنك فرنسي.

الفقون) والخليفات وقائد الدار، مكلفاً إياه باستلام حسابات القياد، وتسجيل العملية الضريبية بكامل معلوماتها المالية على سجل خاص بالضريبة المقبوضة سواءً عيناً أو نقداً. أما أهم القادة المكلفين بالمكوس والرسوم فهم:

- قائد السوق:

يفرض رسماً على كل السلع والبضاعة التي تدخل إلى السوق، ولا تستثنى الماشية والحيوانات، ولقد تعددت الأسواق منها اليومية، وتكون في المدن الكبرى مثل قسنطينة وعنابة وسكيكدة والمدن المستحدثة في الفترة الاستعمارية والأسبوعية وتكون في الأرياف. وهكذا فإن مداخل المكوس تكون دائمة لتغذية خزانة المقاطعة.¹

- قايد الباب:

مكلف بتحصيل رسم على السلع للحرفيين التي تباع في شوارع المدينة، وتكون رسوم نقدية وعينية وقد اعفي من هذا الرسم المواد الغذائية منها القمح والعسل والفحم، لأنها كانت ذات استهلاك واسع وقد وصل إلى 20000 سنوياً⁽²⁾.

- الباش حمار: هو مكلف بوسائل النقل داخل المدن، ورسم هذا محدد على كل حيوان يدخل إلى المدينة محملاً بالبضائع. وكانت المحصلات من المكوس العينية يسلمها القياد إلى الإدارة العسكرية، التي تسلم بدورها لهم إيصالات للمحاسبة أمام المجلس، أما المكوس النقدية فتقدم لمقتصد الخزانة الذي بدوره يمددهم وصل للمحاسبة أمام المجلس البلدي المكون من الحاكم العسكري ومثلي المدينة من الأهالي، ليقدّموا الحصيلة النهائية لحاكم المقاطعة في قسنطينة بالنسبة للشرق الجزائري⁽³⁾.

لما تم احتلال قسنطينة سنة 1837 أسندت مهام تسييرها إلى حمودة بن الفقون ومنحه المارشال فالي صلاحيات واسعة وهامة. فهل كان لهذا التعيين الهام فرنسي هدف من ورائه؟ أو كانت السلطة الفرنسية غير قادرة على تعيين جيوش من الموظفين لتسيير مقاطعة قسنطينة؟ هل وفاء الفقون لأحمد باي هو نفس الوفاء للاستعمار الفرنسي؟

(1) - اعتبرت هذه الهيئة التي نصبت في كل الأسواق المرصمة هو تنظيم المداخل و عملية ضبط الاموال و الضريبة القاضية لتحويل الامكلفين و تحويلهم الى وظائف تحت السلطة الفرنسية و يمكن مراقبة هذه الاسواق و تنظيمها.

(2) - انظر: قشي فاطمة الزهراء، الحرف والحرفيين في قسنطينة.

(3) - انظر: قشي، فاطمة الزهراء، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة من أواخر القرن الثامن عشر إلىمنتصف القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، إشراف محمد الهادي الشريف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى 1998.

لقد أوهمت فرنسا الجزائريون بسياستها، وان فرنسا قامت بمجازفة كبيرة تمثلت في إبقاء قيادة البلاد في يد أهلها، شريطة الاعتراف بسلطة فرنسا في المنطقة. فالماريشال فالي رهن قيادة الشرق الجزائري في يد شيوخها وقيادها وأعيان مدنها، لكن تحت رقابة الضباط الفرنسيين في هذا الصدد يصرح فالي بقوله: « لم أغيّر شيئاً في عادات وعرف البايليك، وظلت مثلما كانت عليه في عهد الحاج أحمد باي»،¹ فكان حمودة بن الفقون يعين القادة والشيوخ والأعيان وحافظ على مراسيم التعيين التقليدية، لأن فيها شأن دفع الضرائب واستقرار الوضع وتحقيق لادعاءات فرنسا إنما لم تأت إلا لرفع الغبن على الجزائريين المسلط من طرف العثمانيين، والظاهر هذا ما ظهر لعامة الناس لكنها مراوغة ومخادعة من طرف استعمار لا يعترف بالصدقة ولا الإنسانية.

فالمادة التاسعة من مرسوم 30 سبتمبر 1838 الذي يحدد ثوب الشرف الذي يحمله القادة والخلايف وشيوخ القبائل والأعيان، لهدف يرمي إليه الماريشال فالي حيث يقول: «يضمن مورد وثروة وقيمة الرجال سلطة غير قابلة للنقاش على إخوانهم في الدين، وهكذا فلا يمكن أن يكون ولائهم و وفائهم لفرنسا محل نقاش»⁽²⁾. وهؤلاء القادة الذين تم تعيينهم من طرف حمودة بن الفقون⁽³⁾ حسب التقاليد هم:

- أحمد بن الشريف شيخ أولاد ريغة.⁽⁴⁾
- الأغا بوزيان بن العلمي
- ابن هني قايد عامر الغرابة
- العربي بن عون قايد التلاغمة
- العربي بن العلي قايد عامر الشرافة.

(1) - تصريح الماريشال فالي انه لم يغير شيئا من النظام انه ابقى على الهيئات و دعمها بمراقبة من الضباط عسكريين و بسجلات تنظيمية

(2) - C. A. O. M. : Valée au ministre de la guerre: Alger, 10 mars 1838.

(3) - حمودة بن الشيخ الفقون عينه ولد السلطان و الماريشال و الحاكم العسكري الفرنسي " برنيل " برتبة جنرال و قبل سفر ابن السلطان و الماريشال طلب حمودة الفقون ان يفوض له ان يعيد تنظيم المدينة فكان له ذلك .

(4) - قيادة ريغة في العهد التركي و بداية الإحتلال الفرنسي هي القيادة الإدارية و السياسية لعرش ريغة المسماة مشيخة، وقيادة قصر الطير معقل قبيلة ريغة بقيادة عائلة أولاد وادفل البوعبدلية، ممثلة في سنة 1838م ب أحمد شريف بن شيخ ساعد بن الحاج قسوم لصف ريغة ظهارة و بصغير بن لعروسي بن شيخ مسعود لصف ريغة لقبالة وهذه القيادة تضم الدواوير التالية و التي تشبه إلى حد بعيد ما يقابل حالياً البلديات وهم ريغة ظهارة : خربة قصر الطير، عين لقصر، شط المالح، قبلة أزديم أولاد محلة، بلاد رأس الماء (المالح و الزمائل)، بلاد محجوبة، عين تيطيست، أولاد أبراهم، أولاد بوطارة، أولاد عبد الواحد، بلاد لارباع، أولاد سي أحمد، قلال، جزء من أولاد تبان.

- ابن العطار قايد ميلة.
- شيوخ الحراكنة
- قايد العزل
- شيخ زواغة
- القايد أحمد بن هني
- قايد أولاد داود.
- قايد سدراتة
- شيخ سدراتة
- قايد العشور.
- شيخ ابن عز الدين.
- محمد الصغير بن فرحات بن مراد في منصب قايد على قبيلة " قرفة "
- أما أولاد عبدالنور التي فقسمت إلى سبع مشيخات في عهد فالي، و وضع " قياد " عليها وهم على التوالي.
- الحاج أحمد بن زكري من أعيان قسنطينة كانت عائلته تتقلد منصب باش سيار وباش سايس
- محمد بوعزيز بن قانة أحد أفراد عائلة شيخ العرب
- صالح بن بابا أحمد من العائلات التي كانت تتقلد المناصب في قبيلة الزمول⁽¹⁾.
- السعودي بن علّال قلده الجنر النيغري برونوس القيادة سنة 1839م.
- الشيخ بو روبي قائدا على قبيلة بني مهنة الجوابلية
- صالح بن علي بن بوزيد أسنده المارشال فالي إدارة شؤون قبيلة الحراكنة.⁽²⁾
- أحمد باي بن شتوف من عائلة بن شتوف قائداً على الاوراس والزاب الشرقي⁽³⁾.

(1) - احمد سيساوي، نفس المرجع ص 158.

(2) - يعرف فيرو Feraud عن قبيلة الحراكنة: قبيلة السكينية، والتي يُطلق عليها اسم: الخراب، ومعناها: الفرق، وهي تنتمي مثلها مثل الحراكنة إلى بني هلال، ولكنها تضم بطون عديدة منحدره من أصول شتى، ومنها: السلاوة: ويقولون أنّ أصلهم من سوريا، أولاد داود، أولاد بوعافية وأولاد سي عمر، أولاد سي موسى المرابطي، سدراتات، أولاد قاسم، بني وجانة، أولاد عياد، وأصلهم من مرابط سيدي مبروك في قسنطينة؛ التوادرية: وأصلهم من مرابط مغربي؛ أولاد ملاّلة: وأصلهم من برير سدويكش.

(3) - مرجع سابق، ص 109

هكذا استطاع فالي ان ينص هيئات محلية تقليدية لتحقيق أهدافه بأقل المصاريف، ودون ان يجعل اضطرابات بينه وبين السلطات المحلية التقليدية، وعن طريقها يبتز ما كان تبتزه السلطة العثمانية قبله، وحقق فالي بهذه الإجراءات ما صرح به، وبذلك تعتبر القيادة من أهم العناصر الأساسية في مفهوم النظام الفرنسي الجديد، وفق منطق فالي المنظر و قائد الجيش الاستعماري على حدّ السواء، يقول فالي: «لقد أعفيت الخلفيات والقياد من دفع كل حق تنصيب (تولية)، و اعتقدت أنه الكرامة فرنسا التخلي عن هذا العرف، و أرغمت فقط الخلفيات كدليل تبعية على من حمل حصان اوسرجا»⁽¹⁾.

تنظيم الضرائب في عهد المارشال فالي لأرياف الشرق الجزائري:

كانت الضريبة هي التي تحدد علاقة السلطة الفرنسية بالقبائل كما كانت العادة حسب التقسيم الجغرافي الجديد، قسمت المنطقة الى منطقة شرقية ومنطقة غربية على كل منها قايد يقومان بتحصيل الضرائب في المنطقة الموكل عليها، ينتقل هذان القائدان إلى مضارب القبائل لمعاينة المحاصيل وتقديرها بالتقريب؛ وهي عملية تفتيشية تبدأ في فصل الحصاد. وكانت عملية نقل الحبوب المحصلة من العشور موكلة إلى مزارعي البايليك. ويأخذ القياد واحد بوجو عن كل ملكية، واثنين (02) بوجو على كل زويجة مزروعة، و يصرف المبلغان المقبوضان لصالح الصبايحية التي تصحب القائدين في مهمتهما المذكورة، كما يستفيد القائدين من الباقي ويسلم القائدان محصولهما إلى الأغا، وعدا الحكر و العشور فإن البايليك يأخذ ضريبة التبن التي كان المزارعون يحملونها إلى مدينة قسنطينة، وهناك قايد ثالث يسمى قايد عزل البايليك مكلف بإدارة ممتلكات البايليك.

يقول فالي: «هذا التنظيم للجباية يتمشى وتقاليد البلاد. فجزء من الجباية يبقى لرئيس العشيرة المسؤول الأول عن الجباية، و جزء مخصص لدفع رواتب الصبايحية المساعدين، ولا يمكننا هدم هذه العادة فهي الرابطة الوحيدة التي تبقي الأعيان مرتبطين بقضيتنا»⁽²⁾. ومن الجباية المذكورة فالقايد المكلف بالجباية يحتفظ:

- 1 - برقع من الحبوب.
- 2- بنصف من الحكر.
- 3- الباقي يدفع إلى خزينة الدولة و ينقل من طرف العشائر إلى قسنطينة.

(1) - مرجع سابق، ص 101.

(2) - منح الأعيان التي عهدت لها جباية الضرائب امتيازات محدودة تحت المراقبة عن طريق التسجيلات و الضباط الساهرين و الادارة من المكاتب العربية .

و بشأن تكليف القياد وشيوخ القبيلة بجمع الضرائب يقول فالي: «أما بالنسبة للسلطة الفرنسية فإن استلام الضرائب تتولاها فرق من الصبايحية النظاميين،⁽¹⁾ و الذين على رؤساء العرب أن يقدموا لهم الحساب الأول لجبايتهم، و عن طريق الصبايحية المنتدبين رسمياً لهذه المهمة يعرف القادة العسكريون ماتمت جبايته و الصعوبات التي واجهتهم، وهذا النظام الذي كان معتمداً في عهد الحاج أحمد باي، يقول فالي، هو نظام بسيط يتناسب مع عادات العرب لذا أمرت بمواصلة أتباعه»⁽²⁾.

أما بالنسبة للمنطقة الثالثة التي استقرت عليها القبائل شبه المستقلة،⁽³⁾ فقد قبل هؤلاء الشيوخ التبعية للبايليك، على أساس جباية الضرائب من القبائل المتواجدة بأقاليمهم المنحصرة في الاستفادة من عشر الضريبة، فقد أبقى فالي على استقلالية أولئك الشيوخ محافظاً على وضعهم السابق، مكلفين قبل كل شيء بجباية الضرائب أما الخلفاء الذين كانوا شيوخاً على هذه القبائل، فالشرط الأكثر أهمية حسب الرسوم هو دفع الضريبة، فالمادة الخامسة من المرسوم تفرض على الخلفيات الإلزامية دفع العشور والحكر لحساب فرنسا، يقول فالي: «يجب عليهم إدخال إجمالي العشور والاشتراك من التبن داخل المخازن المكوّن من ثلثي الحكر الذي يدفع نقداً يجب أن

(1) - ثورة الصبايحية و الكبلوتي في منطقة سوق أهراس و الحدود الشرقية سنة 1871م. ينتسب محمد الكبلوتي بن الطاهر الى عائلة الحنانشة التي تقطن في شرق جبال الأوراس ، تمرد في أواخر الستينات من القرن الثامن عشر على الفرنسيين ، وقام بقيادة مقاومة بالأوراس لم تدم طويلاً نظراً لعدم تناسب قواته مع القوات الإستعمارية ، فلجأ إلى تونس أين اتصل بالعائلات اللاجئة هناك ، وقام بحملة تحريضية في أوساطهم لتجنيدهم في الجهاد ضد الفرنسيين ، وفعلاً استطاع أن يكون قوة لا يستهان بها ، فقام بشن غارات و هجومات على فلول الجيوش الفرنسية و حامياتها بالجزائر من القالة شمالاً إلى تبسة جنوباً حتى مشارف الصحراء. بعد ثورة الصبايحية و مشاركته فيها ، فسافر بصفة سرية بحراً من ميناء حلق الوادي سنة 1872 م ، و بعد وصوله إلى مالطة استقر هناك لفترة قصيرة ، لكنه عاد متخفياً إلى تونس ليواصل مسيرة الجهاد لكن العيون التي كانت تترصده و تبحث عنه أعلمت السلطات التونسية بنشاطه الثوري ، فانطلقت حملات التفتيش عليه من جديد حتى سنة 1875 حيث تم طرده بصفة نهائية من تونس رفقة المجاهد بن ناصر بن شهرة، ليسافر إلى دمشق للالتحاق بالجزائريين المقيمين بها و خاصة أصدقاؤه المقرانيين هناك . وسوف نتعرض إلى مشاركته في ثورة الصبايحية سنة 1871 م، والصبايحية من المتطوعين الجزائريين في زمالات شرق البلاد بالطارف و القالة و بوحجار يعود اندلاع هذه الانتفاضة في بدايتها إلى القرار الذي أصدره وزير الحربية الفرنسي بتاريخ 18 جانفي 1871 القاضي بنقل عدد كبير من قوات الصبايحية إلى أوربا للمشاركة إلى جانب فرنسا في حربها ضد بروسيا مع بداية عام 1871. وهو القرار الذي لم يقبل به الصبايحية فتاروا ضده وكانت البداية من مناطق تواجدهم ابتداءً من منطقة مجر بعمالة التيطري إلى الطارف بالشرق الجزائري لتعم كل مناطق الحدود الشرقية.

(2) - نفس المرجع السابق، ص 112.

(3) - المقصود بهذه القبائل هي التي لم تصل إليها السلطة الاستعمارية من الاحتلال و لم تعلن الولاء لفرنسا و هي التي كانت

متمردة في اغلب الاحيان ضد السلطة العثمانية

يصب في الخزينة، و ثلثى ترك للخليفات. وعن طريق هذا التحلي لا يحصلون على أي حق في أي معاملة بحيث يتدبرون كل نفقات إدارتهم».

و هكذا أصبح القياد و الشيوخ الكبار يتقاضون مرتباتهم من رعاياهم. إن أهم الشروط التي حددها فالي بعد تنصيب القياد لممارسة السلطة على الشيوخ أن يتعهدوا بجمع الضريبة ودفعها للإدارة الفرنسية، ويجب أن لا تتعدى الرسوم المقدار الذي كانت تدفعه القبائل للحاج أحمد باي، و أنّ العرب لا يدفعون سوى الحكر والعشور، وهذه الضريبة حددها فالي كما يلي:

المادة الأولى: من قانون القيادة تنصّ على أنه: «لا يجوز للقايد أن يجبي من السكان إلاّ العشر المتعارف عليه والمتمثل في مقياس عناية على كلّ زوج من الثيران إضافة إلى الحق المسمّى الحكر؛ و هو عبارة عن 26 فرنكا و 40 سنتيما عن كل زوج من الثيران».⁽¹⁾

المادة الثانية: القايد المكلف بجباية الضريبة يحتفظ ب:

1- ربع الحبوب.

2- نصف الحكر.

3- الباقي لفرنسا.

يمكن أن تستخلص الضرائب المحصّلة من الحكر والعشور، فقد كانت أملاك البايليك تتكوّن من 114 عزل على شكل كراء من قبل قايد الدار، و عائداتها 40000 فرنك و 2500 حمولة قمح، و نفس الكمية من الحنطة، وقد خصّص 104 عزل للجباري،⁽²⁾ وكان على عزل جابدة جباري دفع 12 حمولة من القمح و نفس الكمية من الحنطة، فقد وصل عدد الجابدة جباري المستقلة في الإقليم إلى 225 جابدة جباري، وكان على كل جابدة جباري دفع 2 بوجو لقايد الدار.⁽³⁾

(1) - احمد سيساوي ، مرجع سابق ، ص 114.

(2) - عزل الجباري كان بايليك قسنطينة مميز به و هذا يفسر لنا مدى تعامل بايات قسنطينة مع هذا النظام لانه يضمن

امتيازات اطر نظام البايليك و حاشية الباي

(3) - عرفت السلطة الفرنسية اهمية هذا المنصب و دوره في التعامل مع سكان الشرق الجزائري ، لذلك ابقته عليه لتطمئن السكان

على بقاء النظام المعهود و الذي لا يثير بين السلطة الاستعمارية و السكان نوع من التغيير . و كذلك لتضمن استمرار مداخل خزينة الاقليم ، و عملت على ضبطه لكي لا يكون هناك تحويل للاموال او المؤن و بالتدرج حولت هذه المناصب الى وظائف رسمية . و تسجيلات يمكنها من مراقبة المداخل الضريبية .

أما عائدات الجباري في الإجمال فقد كانت 2812 حمولة ونصف من القمح ونفس الكمية من الحنطة في حين وصلت كمية القش (التبن) الإجمالية على كل الإقليم إلى حوالي 10000 (حمولة) والحمولة تزن 50 كلغ تقريباً. أما حقوق التعيين فقد وصلت إلى 20000 فرنكا، و أما كمية الجابدة المستقلة في كل أنحاء الإقليم فقد كان عليها دفع الحكر و العشور المقدّر مابين 10000 و 25 ألف فرنك عن كلّ جابدة تقريباً، ساهمت في هذا الاستغلال 150 قبيلة، وقد بلغت ضرائب الحبوب الصادرة عن العشور المجموع من القبائل و الملكيات الخاصة والجباري 20000 حمولة من القمح و نفس الكمية من الشعير⁽¹⁾.

نلاحظ أن فالي قد ركّز على الضرائب عناصر أساسيا في نظام الحكم الفرنسي، إذ قام بإحصاء وجرّد كل القبائل التابعة لبايليك الشرق، وتحديد القيمة الضرائب لكل واحدة منها، مثلما جاء به تقرير "نيال" عدد القبائل 151 قبيلة، التي كانت تدفع الحكر والعشور ولا تتعدى رسومها تلك التي كانت تدفعها في عهد الحاج أحمد باي⁽²⁾.

احتفظ الماريشال فالي بجباية الضرائب التي كانت في عهد الحاج أحمد باي، بل قلص من ضرائب تنصيب، لكنه عمل على ضبطها ومراقبتها أكثر مما كانت عليه في أواخر الفترة العثمانية في الشرق الجزائري، وما يلاحظ ان تعدد الضرائب وتنوعها يبرز مدى ثراء الشرق الجزائري وحيويته الاقتصادية، وأما بالنسبة للهيئة المكلفة بجباية الضرائب فكانت أكثر جدية ومقننة، هذا يبين لنا قوة النظام العثماني في المسائل التنظيمية⁽³⁾.

الضرائب في عهد الجنرال بيجو:

عمد بيجو في تنظيم الضرائب على تنظيم الأهالي، وعلى أساس تنظيم الاهالي تسهل عملية فرض الضرائب⁽⁴⁾، ففي عهد الماريشال فالي، انتهج سياسة جباية الضرائب على نظام الإبقاء على الضرائب المفروضة في العهد العثماني، وكانت السلطة الاستعمارية تستند على الضرائب التي كانت تستخلصها من الاهالي⁽⁵⁾.

اتخذت السلطة الاستعمارية أساليب مختلفة للتخفيف من النفقاتها في الجزائر بأقل التكاليف، لذلك استندت الى طريقة الاعتماد على الأنظمة الموروثة من السلطة العثمانية، حيث أبقت على نفس الهيئات الممثلة في الاهالي

(1) - أحمد سيساوي، النظام البايلكي، مرجع سابق ص 198.

(2) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 212.

(3) - نفس المرجع، ص 216.

(4) -، مرجع سابق، ص 215.

(5) - نفس المرجع 217

والشخصيات التي تمثلهم، لكي لا تجعل من الهيئات المستحدثة الجديدة نفقات تتحملها،⁽¹⁾ بل جردت الجزائريين من مسؤوليتهم المعهودة لتجعلهم موظفين تحت سلطتها حيث صرح بقوله: «لقد كنت أقول ومازلت إن الشروع في تنظيم الضرائب العربية. حسب الأفكار ومبادئ المحاسبة المطبقة على الجباية الفرنسية غير مناسب»⁽²⁾.

وهنا ان لا يجعل النظام الضريبي في الجزائر كمثل الموجود في فرنسا، وهنا ليرز للرأي الفرنسي الاستعماري وللاوروبيين المتواجدين في الجزائر ان تجسيد الاستعمار، وايجاد فوارق بين الشعب الفرنسي الذي يستثنى من الكثير من الضرائب المفروضة على الجزائريين، ويصرح أيضا ويقول: «والخلاصة التي تفرض نفسها طبيعياً هي من الصعب جدا تشبيه الضريبة العربية بالضريبة الفرنسية»⁽³⁾، لقد اعتمد على الضرائب المعروفة عند الجزائريين، لكي لا يثير مشاعرهم أو يزيد من إثارهم وهي مراوغة الى حين تستقر الامر بفرنسا في الجزائر، وهنا يصرح بقوله: « ويجب الامتثال للعرف فيما يخص الضرائب و تحديدها وتحصيلها، بل الاعتماد على الأشكال المتعارف عليها»⁽⁴⁾.

وصرح بيجو بذلك استمر يرتكز على نفس أسس حكم الموروثة من الفترة العثمانية وهي المركزية والمخزن والأعيان، وبالتالي لم يحدث أي تغيير على أنواع الضريبة التي كان يجربها في العهد العثماني، و لا أي تعديل على الجهاز الذي كان تولى تحديده و تحصيل الضريبة؛ أي الإبقاء على الهيئة التي كانت تتولى جباية الضريبة المقتبسة من نظام البايليك، واختيارهم من الأسر التقليدية مع المحافظة على امتيازاتها و توليتها التقليدية، و إدخال بعض التعديلات على مصادر الدخل و نسبة الضرائب حتى تتماشى مع المشروع الاستعماري. وينطلق التحليل هنا من مؤسسة البايليك المالية قبل الاحتلال؛ أي في العهد العثماني.

أولاً. ماهي أنواع الضرائب؟

ثانياً. ماهو الجهاز الذي يتولى تحديد و تحصيل الضريبة؟

ماهي الاقتباسات و التعديلات التي أدخلها الماريشال بيجو على نظام الضريبي في الجزائر؟

وكيف أدجت هذه المؤسسة في المشروع الاستعماري؟

تطور التنظيمات الضريبية في فترة الجنرال بيجو:

(1) - الألقاب و المناصب و الهيئات و بقت على حالها، في عهد بيجو لان ذلك يوهم السكان بان السلطة الفرنسية جاءت فعلا لتثبيت هؤلاء من حقوقهم و ارزاقهم التي عهدوا عليها و لكي لا تزيد من نفقات الادارة و اضافة الى ذلك لم يتحقق للسلطة الفرنسية العدد الكافي من المهاجرين الى الجزائر لتغطية عجز الادارة التي تسيّر الجزائر.

(2) - نفس المرجع، ص 217

(3) - نفس المرجع سابق، ص 219.

(4) - نفس المرجع السابق، ص 221.

لما تولى بيجو الحكم في الجزائر وجد نظام ضريبي يخضع له سكان الشرق الجزائري للسلطة العثمانية، فما هو النظام الضريبي الذي خضع له السكان في الجزائر في عهد الجنرال بيجو؟ هل هو نظام جديد صرف؟ أم أبقى على نظام السلطة العثمانية في الشرق الجزائري؟

لقد كانت الضرائب في الفترة العثمانية تفرض على الأراضي والمواشي بصفة خاصة وتنقسم إلى أربعة أقسام وهي العشور والحكور والغرامة واللزمة⁽¹⁾، إلا أن هذه الأقسام كانت تفرض على المناطق الموالية والخاضعة فعلا للسلطة العثمانية، لأن الكثير من القبائل كانت معادية أو مستعصية عن طاعة السلطة العثمانية، وهذا ما دفع بالبايات من اتخاذ طرق عقابية على المناطق الراضية لدفع الضرائب وهي شن حملات عسكرية عليها وفي هذه الحالات كانت لا تخضع لقوانين الضريبة المعمول بها بل تجرد القبائل من كل ما تستطيع الحملة العسكرية أن تجردها منه، هذا ما رفع مصداقية النظام الضريبي في الفترة العثمانية، لكن الجنرال بيجو استنبط نظامه الضريبي من التزاوج بين ما كان في الفترة العثمانية وما أقرته السياسة الفرنسية، وهذا ليس رغبة في الجزائريين ولكن لكي لا يغير طبيعة المدفوعات التي توارثها المجتمع الجزائري.

ولكي لا يثير الرأي العام الجزائري بطرق التغيير التي تحصل في الجزائر ويضمن استمرارية تدفق الأموال على خزينة الجزائر التي أصبحت رهينة السياسة الاستعمارية وبذلك ألغى ضريبة الغرامة واللزمة وأبقى على ضريبة العشور وهو دفع عشر المحصول من الحبوب هذا على نشاط فلاحة الأرض، كذلك أبقى على ضريبة الزكاة على الحيوانات (المواشي) وفق الشريعة الإسلامية⁽²⁾. ولما تولى بيجو الحكم أبقى على النظام المالي للأمير، إلا أنه أعاد تنظيم الإدارة وعين موظف فرنسي يتولى شؤون الضرائب ويتولى مراقبة المكلفين بجباية الضرائب من الجزائريين تحت إشراف المكاتب العربية، وقد ظل شيوخ القبائل والبشوات والأغوات هم المكلفون بهذه العملية لكن تحت مراقبة المكاتب العربية التي كان يشرف عليها ضابط عسكري لتكون تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، إن من بين الشروط التولية على المناصب مثل الخليفة والباشا والأغا والقائد وشيوخ القبائل وكل الألقاب يتعهدوا بجمع الضرائب على المناطق التي يتواجدون فيها أو يشرفون عليها، على أساس أن تكون على نفس الضريبة التي حددها الأمير عبد القادر في تنظيم إمارته. فالحبوب هي دفع العشر من المحصول أما الزكاة فالجدول التالي يبين لنا كيفية تحديد الضريبة الزكاة على الماشية.

(1) - للتعريف على هذه المصطلحات ارجع للفصل الثاني من البحث.

(2) - Julien André Ch: Histoire de l'Algérie contemporaine, 1827-1871, 2ème édition, Paris, PUF, 1979, p. 184.

جدول يبين تحديد ضريبة (الزكاة) الماشية⁽¹⁾

نوع الماشية	النصاب	قيمة الضريبة من الزكاة
الأغنام	100	01
الأبقار	40	01
الإبل	40	01

لقد أبقى الماريشال فالي بالنسبة للشرق الجزائري على إبقاء ضريبة الحكور سارية على أساس ضريبة ثابتة قدر ب 20 فرنك على كل المناطق التي كانت تحت السيطرة الفرنسية، وأبقى على ضريبة الزكاة التي كانت مفروضة منذ فترة السلطة العثمانية، وكانت تفرض على المناطق الجبلية النائية والمناطق الصحراوية، فحسب التقليد كانت تدفع 50 فرنك سنويا لكل رأس من الإبل و 25 فرنك لكل خروف، أما قبائل جرجرة فكانت تدفع قبيلة بني عباس 4584 فرنك وقبيلة مجانة 10534 فرنك وبني عيدل 4333 فرنك، وكانت ضريبة العشور والزكاة تدفع عينا لكن ضريبة الحكور كانت تدفع نقدا في عهد بيجو⁽²⁾.

إن بيجو اتخذ نظام ضريبي خاص بسكان مناطق الصحراء، وكان يأخذ ضرائب الزكاة والعشور عينا أما غرامة الحكور فكانت تأخذ نقدا⁽³⁾. ونظرا لقلة العملة جاءت أمرية 17 جانفي 1845 تنظم الضرائب بشكل رسمي⁽⁴⁾ و تنص على ما يلي: « ان الضريبة التي يدفعها العرب رغم تحديدها بالعملة " وهذا ترخيص من الحاكم العام يمكننا تحصيلها عينا» وفي العشور والزكاة تحت حكم نظام بيجو. ويرى البعض ان هذا التقليد يراد المحافظة عليه وفي هذا الصدد يصرح بيجو بقوله: «نحتاج إلى حبوب لمؤسساتنا الداخلية، وبما إننا نقل العشور إلى مخازننا فإن هذا يعطينا من مصاريف نقل معتبرة»⁽⁵⁾.

لقد اهتم بيجو بالزكاة العينية لأن فيه قوة، فرغم ان العملة لها دور اقتصادي في خزينة الدولة الفرنسية، إلا اننا نجد المواد الغذائية هي أهم عند الحاجة خاصة في الأزمات السياسية، وأن الحبوب تبقى تحافظ على رمزيتها الاقتصادية أكبر، لم تكن هذه الضرائب لوحدها بل كانت هناك ضرائب مكملة مثل ضريبة العوائد واللمة التي تفرض على القبائل ومنها ضريبة المعونة.

(1) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، بتصرف، ص 222.

(2) - Circulaire du 6 août 184.

(3) - نصرالدين سعيدوني، النظام المالي، ص 145.

(4) - صالح فركوس، المرجع السابق، ص 238.

(5) - Bugeaud au ministre de la guerre: ACCA 2EE4, 24 août 1843, p. 229.

ضريبة المعونة: يمكننا ان نسميها ضريبة الحرب، كانت القبائل تدفعها حسب الأقاليم. فقبيلة فليته كانت تساهم ب 150000 بوجو وقبيلة هاشم الغرابة تساهم ب 20000 بوجو، وقبيلة هاشم الشراقة تساهم ب 20000 بوجو⁽¹⁾.

ضريبة البرنوس: كانت سنوية ويدفعها كل المعينون المناصب مثل الشيخ والقائد والأغا ورؤساء القبائل مقابل قفطان التولية. أما بيجو فإنه ألغى ضريبة المعونة ويمكن يرجع ذلك إلى جلب القبائل وإبعادهم على المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي⁽²⁾.

ضريبة الحق في الأسواق الأسبوعية وحق السخرة: كانت من مهام القياد جمع مكوس الأسواق الأسبوعية التي تقام خاصة في المدن الكبرى وهي ضرائب كبيرة إذا ما قورنت بالضرائب السالفة الذكر.

- ضريبة التويزة: وهي ضريبة تفرض على العمل الجماعي في عمليات الحرث والحصاد والدرس بالمجان بين الأفراد المتطوعين⁽³⁾.

ضريبة الخطية (الغرامة): وحافظ بيجو على مصدر المعتاد في العهد العثماني؛ كانت ضريبة الغرامة تفرض على الجزائريين منذ الفترة العثمانية على القبائل، واستمرت السلطات الفرنسية على فرضها على القبائل ففي سنة 1843 فرضت السلطات الفرنسية على قبائل إيدوغ وقبيلة الحنانشة قدرت بمليون فرنك⁽⁴⁾، أما بالنسبة للعقوبات (الخطية) التي كان يفرضها المخزن فقد دعمتها السلطة الفرنسية في عهد بيجو وهي ثلاثة أنواع الجلد أو الضرب بالعصا، والغرامة الخطية من المال والإعدام، وهي من صلاحيات القياد، فلهم الحق في تطبيق الغرامات وتصل الى 50 فرنك والخليفة يمكن أن يفرض غرامة تصل إلى 100 فرنك⁽⁵⁾.

ضريبة عزل البايليك: استغل بيجو التقاليد الموروثة من السلطة العثمانية وهي ضريبة الحكور، بعدما أصبحت أراضي البايليك تابعة للسلطة الفرنسية بعد قرار المصادرة لها. لقد سن الماريشال فالي قرار حول بموجبه أراضي البايليك إلى فرع من فروع الموارد العامة، وأبقى على وظيفة قائد العزل الذي كانت من مهامه ادارة ممتلكات الخزينة الفرنسية، وحافظ على ضريبة الحكور التي حددت في عهده ب 20 فرنك⁽⁶⁾، وأبقى بيجو حق السخرة

(1) - أنظر سيدوني: المصدر السابق، ص 5.

(2) - احمد سيساوي، مرجع سابق ص 229

(3) - نفسه ص 233

(4) - نفسه ص 235

(5) - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 132.

(6) - احمد سيساوي، مرجع سابق، 232.

(التوزيع) حيث تقوم القبائل بحرق وزرع وحصاد أراضي البايليك بالمجان التي أصبحت تحت سلطة السلطة الفرنسية.⁽¹⁾

ضريبة المكس ورسوم الأسواق: تأتي في المرتبة الثانية بعد رسوم الأرض وهي من المداخل الهامة معول عليها في خزينة الشرق الجزائري⁽²⁾، ولقد كانت لفرنسا تاريخ في التجارة في منطقة الشرق الجزائري منذ الفترة العثمانية، ويرجع الى الشركة الملكية الإفريقية التي كانت تحض بامتيازات واسعة، وخاصة في تجارة الحبوب والجلود والصوف والشمع والمرجان بإيعاز من بوشناق وبكري اللذان كانت لهم امتيازات وعلاقات تجارية مع الشركة الملكية الإفريقية⁽³⁾، واستغل بيحو نفس الدخل لمختلف الرسوم للأسواق التي كانت في العهد العثماني؛ فأبقى بالنسبة للمدن على قايد الباب الذي كان يتكفل بتحصيل المكوس على مختلف السلع و البضائع التي تدخل المدن⁽⁴⁾، و حددت ب.5% ولقد قدم لنا فيليكس أنطوان سنة 1848م إحصائيات على أهم السلع والبضائع التي تدخل أسواق كل من قسنطينة وعنابة وسطيف، وأهم المناطق التي تتعامل مع هذه الأسواق⁽⁵⁾.

جدول يبين اهم أسواق المدن في الشرق الجزائري واهم المنتجات⁽⁶⁾

المترددون	قماش	جلود بقر	صوف/كغ	أغنام/رأس	شعير/هك	قمح/هك	المدينة
495899	19557	22084	498911	24284	31193	40139	قسنطينة
76575	37701	9662	138000	12181	26069	92754	عنابة
14603	14603	1403	12940	7860	4922	2056	سطيف

من خلال الجدول يظهر لنا أهم المنتجات ذات التعامل الواسع في الشرق الجزائري ومكانة كل مدينة في معاملاتها الاقتصادية وتطور مداخلها من الضرائب المكس، الذي يساهم في تدعيم الخزينة الفرنسية في الشرق الجزائري، فمدينة قسنطينة تستأثر بالمراتب الأولى، ويرجع ذلك لدورها الريادي الاقتصادي المكس من الفترات السابقة، فنعتبره السوق الجهوي للشرق الجزائري، بالإضافة للأسواق المجاورة التي سنأتي على ذكرها.

(1) - نفسه ص 236

(2) - محمد العربي الزيري، مرجع سابق، ص 126.

(3) - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، صص 156 - 255.

(4) - انظر في هذا الفصل عنصر التجارة الخارجية في الشرق الجزائري.

(5) - Felix (A): Constantine centre économique, Marché de grain et tissus camilles et fourrure, Toulouse, France, p55.

(6) - عبدالقادر دحدوح، ص 354-356 بتصرف.

الأسواق الجهوية في الشرق الجزائري: حسب تقرير المجلس العام لمقاطعة قسنطينة لعام 1859م، يعتبر سوق مدينة قسنطينة مهما فيما يتعلق بالحبوب والصوف وأقل أهمية في المواشي، والزيت، والزبدة، والصابون. ويجتمع يومياً⁽¹⁾، كما كانت اجتماعاً أسبوعياً في الشرق الجزائري⁽²⁾، وأهمها:

1- سوق السبت بالخروب: على بعد 16 كم جنوب قسنطينة؛ وهو سوق معتبرٌ جداً. يتمون الجزائريين في مدينة قسنطينة منه، ويرتاده الجزائريين من باتنة وسطيف، ويشترى منه تجار البقر القطعان التي يبيعونها غرب المنطقة وصولاً إلى الجزائر فكان تقييمنا لأعداد المواشي الداخلة إلى السوق فكانت 12000 خروف، و 1500 عجل و 70 حصان و 130 بغل. وتعرض سلع متنوعة على المتسوقين من أهل المدن والأرياف المحاذية لقسنطينة والبعيدة للتموين بما يحتاجونه من مواد غذائية ونسيجية منها و الصوف، و الزبدة، والقطران، والزراي و الأقمشة الآتية من الجنوب والأنسجة الخاصة بالخيام و التليس، والتمور، أما الحبوب فشبهه منعدمة.

2- سوق الاثنين في السمندو: (زيغو ديوسف)، على بعد 28 كم من مدينة قسنطينة، وسوق الثلاثاء في بيزو (ديدوش مراد) على بعد 14 كم شمال المدينة. لا يحتويان تقريباً على المواشي و الحبوب، ولكنهما مهمان على الصعيد الإداري حيث تُتداول فيه الأخبار وتُعقد فيه الصفقات.

3- سوق الأحد في سطيف مهم جداً يرتاده جزءٌ كبيرٌ من سكان منطقة القبائل للتزود باللحوم وتوجد به الماشية، و البهائم الموجهة للعمل وللركوب، والحبوب والزيت، والزبدة والفواكه الجافة والصابون، والأقمشة المحلية.

4- سوق بجاية: و يجتمع يومياً بالقرب من المدينة. و يذهب إليه سكان منطقة القبائل ليعرضوا فيه كميات كبيرة من الزيت، والصابون، والفواكه الجافة، و قليلاً من الصوف، ولا توجد به ماشية تقريباً. كما يجتمع سوق آخر كل يوم خميس على أبواب المدينة يعرض فيه القمح، والشعير، والفول، واللحوم، والدجاج و الجوز. سوق سكيكدة: (فيليب فيل)؛ وهو يومي تُباع فيه المواشي والحبوب الموجهة للاستهلاك.

سوق الجمعة بالحروش؛ و تباع فيه الماشية، والحبوب في فصل الخريف، والزيت، والصابون والصوف. سوق الأربعاء في عزابة: (جيماب) الذي كان مقصوداً جداً قبل إنشاء سوق الأحد في المنطقة العسكرية. ورغم ذلك فقد احتفظ ببعض الأهمية. وتباع فيه نفس السلع الموجودة في الحروش.

(1) - أحمد سيساوي، مرجع سابق 357

(2) - سعيدوني: المصدر السابق، ص 254.

سوق الثلاثاء بقالة: و هو واحدٌ من أهم أسواق المقاطعة، ولقد تناقصت أهميته شيئاً فشيئاً بإنشاء أسواقٍ أخرى، و أيضاً بتزايد عدد مربي الماشية في بعض المناطق. وهو سوق يختص في تجارة المواشي والحبوب. وسوق القالة اليومي لاتباع فيه سوى الحبوب والزيت التي تستقدم بكميات كبيرة من آيالة تونس.

سوق الخميس بسوق أهراس: بونة، سوق المدينة اليومي. يتوجه الجزائريين من عنابة إلى قالة وسوق أهراس للتموين بالجزء الأكبر من الماشية التي يحتاجونها⁽¹⁾.

أما المداخل الإقليمية في عهد المارشال بيجو فقد قدرت حسب "روزي" و"كاريت" ب 6 ملايين فرنك⁽²⁾، وتفصيل هذه المداخل لسنة 1845 هي كالاتي:

جدول يبين اهم مصادر الجباية الضريبة في الشرق الجزائري في عهد بيجو⁽³⁾

نوع المنتج	قيمة المنتج / فرنك
منتجات غاب 20.000	000 .20
منتجات البناء	1. 876. 000
رسوم صيد المرجان	000 .130
قسط تجار المعادن	300 .1
بيع الغنائم المأخوذة من الحروب	000 .50
الزكاة والمستحققات العربية	4. 100. 000
المجموع	300 .077 .16

المكاتب العربية الفرنسية ودورها في تنظيم مصلحة الضرائب:

أعلن بيجو عند تسلمه للسلطة في الجزائر ان الحكومة الفرنسية هدفها رفع الضرائب، لان الضرائب العربية كانت قليلة لا تتعدى 300000 فرنك سنة 1840⁽⁴⁾، وفعلا حقق ان في نهاية حكمه بلغت 16 مرة مما

(1) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 130.

(2) - Conseil général de la province de Constantine, Session ordinaire de 1859, Rapport du préfet, Administration des populations indigènes, Marchés, Op. Cit. , pp. 203-205.

(3) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 136.

(4) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 131.

كانت عليه عند تسلمه السلطة في الجزائر⁽¹⁾، بعدما أسس نظام جبائي تراقب جباية الضرائب وتحديداتها، وتمثل في المكاتب العربية التي قامت بدور هام يتمثل في إحصاء ما يلي:

عدد السكان في كل عشيرة و فرقة و دوار.

منتجات كل عشيرة و عدد فرسانها.

الضرائب التي كانت في عهد السلطة العثمانية⁽²⁾.

وبداية من سنة 1854م شرعت المكاتب العربية في مراقبة عمليات تحديد وتوزيع الضرائب وأوكلت إلى زعماء الأهالي الخليفة والباشا آغا، فقد شرع المكلفون بالعملية فحددوا الضرائب وسجلوا المبالغ وقاموا بتنفيذ الغرامات على القبائل التي ترفض دفع الضريبة وقاموا بتقييم أعمال السخرة داخل القبائل⁽³⁾.

هيئة الضرائب تعتمد على الأهالي في جباية:

بعد تنصيب المكاتب العربية، أبقى بيجو على هرمية سلطة التي كانت توكل جباية الضرائب إلى الخليفة، الآغا،. ففي فترة الزرع كان كلقايد قبيلة، بمساعدة شيوخها، يقوم بتقييم الأراضي المزروعة، ثم يرسل بهذا التقييم إلى رئيسا مكتب العربي. واعتماداً على تلك الإحصائيات التي تقدم للمكاتب العربية تقوم الحكومة بتحديد الضرائب المفروضة على كل عشيرة؛ الزكاة في الربيع والعشور في الصيف. وبتقدير التحديد تقوم السلطة الفرنسية بإخبار قادة الأهالي، خلفاء و باشاوات والأغوات، وتأمريهم بالقيام بالجباية⁽⁴⁾.

إذن فإن فرض الضريبة وجمعها على عكس تحديدها كانت من الأمور المسندة لرؤساء الأهالي؛ أي المكلفون الحقيقيون بجمع الضريبة هم رؤساء الأهالي، أما بالنسبة للسلطة الفرنسية فإن تحديد الضريبة تتولاها المكاتب العربية، وعلى رؤساء الأهالي أن يقدموا الحساب لهذه المكاتب، وللقيام بهذا يقوم الخليفة والباشاغا والآغا بإرسال المخازنية إلى كل دوار لجمع الضريبة لمساعدة القياد والشيوخ، وكان فرسان المخزن الذين يساعدون القياد لهم الحق في "الضيقة" والعلفة لهم ولجنودهم، وكان من مصلحة عدم التماطل في الدفع، إلى إطالة مدة حضور المخازنية، أو أن السلطة ترسل المدد الذي سيرعى في حقوقهم ومراعيهم على حسابهم⁽⁵⁾.

(1) - إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، 1982، ص 219.

(2) - Bugeaud à Carette, d'après M. Emerit: Les Saint-simoniens en Algérie, p. 143.

(3) - فلة قشاعي موساوي، النظام الضريبي، ص 65.

(4) - نصرالدين سعيدوني، النظام المالي، ص 52.

(5) - أحمد سيساوي، مرجع سابق، ص 31.

إلغاء الوسطاء وتثبيت هيئة فرنسية لإدارة الضرائب:

لقد كان الماريشال بيغو يريد الوصول إلى الإدارة المباشرة التي تلغي هؤلاء الوسطاء و تحوّل رؤساء الأهالي إلى مجرد موظفين. تابعين للسلطة الفرنسية ويطبقون قراراتها وقوانينها.

سعت السلطة الاستعمارية الى تكريس سياسة تجعل من القبائل والجزائريون عامة موظفين تحت سلطتها، ففي عهد بيغو شرع في تطبيق نظام ضريبي يستفيد من العشر منه الخليفة والباشا والأغا من العشور والزكاة ثم ضبقت مرتبات هؤلاء لأنهم أصبحوا يعينون من طرف الفرنسيين ويتقاضون خلال السنة 12000 فرنك للخليفة والباشا يتقاضى 5000 فرنك أما الأغوات فهم على ثلاثة أصناف منهم من يتقاضى 1200 فرنك ومنهم من يتقاضى 800 فرنك والصنف الأخير يتقاضى 300 فرنك⁽¹⁾.

أما القياد والشيخو فيتقاضون العشر من العشور والزكاة التي يتحصلون عليها، وأغلب هؤلاء كانوا من قبائل المخزن وهم العائلات المخزنية التقليدية⁽²⁾.

جدول مداخل المالية والعينية لاحدى عشر شهرا الاوولى لسنة 1842 م⁽³⁾

طبيعة المدخول	قسنطينة	عناية	سطيف	سكيكدة	المجموع
المدفوعات المالية					
المدفوعات البلدية	68.227,730	(1)	(2)	(3)	68.227,730
الحكور وغنائم المقاومة	10.392,490	60.117,872	(4)	00.12,929	70.523,201
مداخل الدومين	98.287,873	(5)	(6)	(6)	98.287,873
المجموع	76.908,094	60.117,872	//	00.12,929	36.1,038,896
مدفوعات عينية (عشور)					
القمح	12.12,842	70.4,906	73.4,466	29.672	88.23,887
الشعير	75.9,489	13.3,778	70.3,393	35.436	93.17,097
التبن	73.3,508	07.664	//	50.6	30.4,179
الاحشاب	//	//	82.2,755	//	82.2,755
البرسيم	30.31,032	80.6,815	25.10,562	67.13,875	42.62,2825

الملاحظات حول الجدول:

(1) - Bugeaud au ministre de la guerre: ACCA 2EE2, 10 juillet 1842, p. 217

(2) - احمد سيساوي، مرجع سابق، ص 232.

(3) - COUP D'OEIL SUR L'ADMINISTRATION FRANCAISE DANS LA PROVINCE DE CONSTANTINE. IMPRIMERIE DE H. OURNIER ET G^{LE}. PARIS. 1843. P. 42.

- 1- عائدات عنابة قضت من طرف الإدارة الفرنسية.
- 2- لم تدخل سطيف في إطار الضرائب البلدية، ساهمت بالضرائب العينية.
- 3- مدينة سكيكدة دفعت الضرائب للإدارة العسكرية، والضرائب العينية.
- 4- أموال الحكور لقبائل سطيف دفعت للخزينة العمومية لقسنطينة.
- 5- المواد المدفوعة تدفع إلى الإدارة العسكرية في الجزائر، مع تقرير معاينة.
- 6- سطيف وسكيكدة لا تدفع ضرائب الدومين.
- 7- إضافة إلى هذه الكميات تضاف إليها 1,673 قنطار و 59 كيلوغرام إنتاج بجاية وحيجل تتحصل على 63,959 من التبن. في الشرق الجزائري.

إن الأوضاع في منطقة سطيف لم تستقر لتنصب إدارة قوية لفرض الضرائب، يقول أبو القاسم سعد الله: أدى إلى نشأة البورجوازية صغيرة ريفية مركزة على وسائل موسطة الأهمية، و ذلك ان الملكية الكبيرة قد اخف و حل محلها الملكية الصغيرة و ذلك اثر تطبيق قانون سيناوس كونسلت 1863،⁽¹⁾ وهذا ما تفسره عدم مساهمة سطيف من الضرائب البلدية.⁽²⁾ والضرائب الكولونيالية منحت في سنة 1843 ارتفعت بما يقارب الثلث من سنة 1842، بدون أي إضافة في الرسم، الزيادة بلغت 2200892 فرنك و 32 سنتيم، تمت من خلال مصالح الدومين والجمارك ومصالحة الضرائب حسب الجدول التالي:

جدول يبين الضرائب الكولونيالية لسنة 1843م⁽³⁾.

مصالح الجباية	قيمة الجباية لكل ميدان
جباية مصلحة الدومين	81.679899 فرنك فرنسي
جباية مصلحة الجمارك	02.62471 فرنك فرنسي
جباية مصلحة الضرائب المختلفة	49.1458521 فرنك فرنسي
المجموع	32.2200892 فرنك فرنسي

(1) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الج 1، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009، ص 94.

(2) - جيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية، مرجع ساق، ص 276.

(3) - TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE (1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845, P296.

كذلك أوامر المسالك وجوازات السفر وشهادة حمل السلاح ودفاتر العمال وأقساط مساهمة التلاميذ المتوسطات الخ ارتفعت ب 40%. الأسباب العامة التي أدت إلى الارتفاع في الثراء العقاري هو ارتفاع في ثمن بيع المحلات وكذلك بداية استثمار الأراضي، وكذلك حسن التسيير كذلك تحديث الإدارة للمصالح المعنية التي بموجبها ارتفعت إلى 96000 فرنك فرنسي. وثن الإنتاج الذي حددته الإدارة العسكرية على أراضي الدومين أعطت أرباحا قدرت ب 140250 فرنك فرنسي، وهو إنتاج جديد للسلم والتشغيل لمحلات الأعمال الثقافية. إن بيع أشجار المشاتل لا تدخل في مدا خيل لأنها تقوم بأقل ثمن ولكن يضاف كتطور في التشجير كإنتاج الخاص تضاعف ثلاث مرات من سنة 1842م⁽¹⁾.

ارتفعت الحقوق التسجيل وحقوق الإنتاج إلى 82.159138 فرنك فرنسي وسبب هذا الارتفاع يفسر تقديم 34926 عقد مهياً زيادة عن سنة 1842.

ومن خلال قيمة العدد المكون للعقود لتحويلات العقود العقارية الثابتة والمنقولة الإجبارية وغير إجبارية من خلال القيم المحددة للأقساط حسب الجدول التالي:

جدول يبين حقوق التسجيل لبيع العقارات في الشرق الجزائري لسنة 1843م⁽²⁾

القيمة المالية / فرنك فرنسي	طبيعة عقد البيع
22.1047061	بيع ملكية مدنية
95.427950	بيع ملكية ريفية
79.1918825	بيع عقار
79.3757396	بيع إجباري
70.1113554	بيع وصل
42.8264789	المجموع

⁽¹⁾- COUP D'ŒIL SUR L'ADMINISTRATION FRANCAISE DANS LA PROVINCE DE CONSTANTINE PAR UN CONSTANTINIEN. IMPRIMERIE DE H. FOURNIER ET CLE 1843. P. 43.

⁽²⁾- TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE(1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 369.

الملاحظة على الجدول ان عمليات البيع اصبحت شائعة بين السكان في الشرق الجزائري جراء سياسة المصادرة التي قامت بها السلطة الاستعمارية، وخوفا من ان تنالهم هذه السياسة راح السكان يقومون ببيع أملاكهم وعقاراتهم ومخالاتهم للركود الذي شهدته منطقة الشرق الجزائري، إلا أن الإدارة الاستعمارية شجعت ذلك لدعم الخزينة العمومية من جهة وسياسة التفجير التي أصبح المجتمع في الشرق الجزائري يعيش منها.

جدول يبين أهم الضرائب العينية التي يساهم بها الشرق الجزائري مقارنة ببقية المناطق⁽¹⁾

أنواع الضرائب	الجزائر	قسنطينة	وهران	المجموع
الحكور القبائل	497416	87800864	5000	88303282
العشور	24690852	106031575	19099313	151821740
الغريمة	6931616	22043407	9107463	38082471
غنائم المقاومة	15622530	11037915	7451109	34111554
ثمن الخيول المصادرة	217580	//	41500	259080
المجموع	49959979	226913761	35704385	312578123

يلاحظ من الجدول ان قيمة الضرائب اقليم قسنطينة اقل قيمة من الاقليم الغربي و الاقليم الاوسط و يرجع ذلك لعمليا المقاومة التي كانت مشتعلة و هي من العوامل التي اخرت عمليات الاسيطان في الشرق الجزائري ، وكانت الضرائب فرض اعباطيا مهما كان الظروف و الجاعا و الجوائح دون مراعاة احوال الفلاحين من فقر وغنى.⁽²⁾

جدول للالتزامات الثابتة والمدفوعات العينية لسنة 1843م⁽³⁾

طبيعة الالتزامات	الجزائر	قسنطينة	وهران	المجموع
خيول وبغال	//	201	1	202
جمال	//	63	89	152
ثيران وبقرات	215	1240	391	1846
أغنام وماعز	1801	//	5305	7106

(1) - TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE(1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 369.

(2) - ابو القاسم سعدالله ، تاريخ الحركة الوطنية ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 78.

(3) - ibidem. P70.

82	82	//	//	جرار الزبدة
04	04	//	//	زراي
318024772	8101555	277233211	3260006	قمح
357546258	56849565	209609447	90997246	شعير
502287	5528	496759	496//	التين
480573	//	480573	//	خشب
56558	56558	//	//	الزيت الزيتون
392	392	//	//	التين مجفف

من الجدول يتبين لنا قيمة الالتزامات التي يساهم بها الشرق الجزائري مقارنة بالمقاطعات الأخرى، فيظهر لنا ان مساهمته أكبر من منطقة الغرب والوسط خاصة في عدد الثيران والبقرات والمحاصيل الزراعية الهامة مثل الشعير والقمح والأخشاب، ولم تدخل بعض المنتجات في الجدول لان المناطق المنتجة لها كانت في حالة مقاومة ولم تستقر بعد في سنة 1843م. و لا شك ان هذه الضرائب ارهقت الجزائريون و كان ذلك مقصود من طرف الادارة الاستعمارية و التي قدرت سنويا ب 23.178.847 فرنك و هذه الضرائب دمرت ثروة الجزائريين كما يصرح به وارنييه (1).

مقارنة الحقوق الملاحظة مع التغطية الممنوحة لكل دائرة ومنحت النتائج التالية.

جدول يبين مساهمة الشرق الجزائري في تغطية النفقات من الضرائب لسنة 1843م (2)

المجموع	وهران	قسنطينة	الجزائر	الدوائر الثلاث
15.1860956	23.240018	52.1287741	40.333196	الإنتاج المحقق
68.1357795	20.112070	89.1003630	59.242094	الإنتاج الاحتياج
34.1240454	12.228281	27.774343	95.237829	الباقى عن الحاجة

القيمة المالية 34.1240454 فرنك فرنسي باقى لتلبية الحاجيات تنقسم الى:
 ثمن المدفوعات العينية عوضت من طرف الإدارة العسكرية بقيمة. 42.645.989 فرنك فرنسي.
 القيمة المفروضة على العرب..... 92.818.250 فرنك فرنسي.

(1) - أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص76.

(2) - TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS, op.cit. P. 370.

المجموع.....1 .240 .454 .34 فرنك فرنسي.

جدول مقارنة المدفوعات التي تمت في قسنطينة فقط، نقدا أو عينيا، في خزانة الدولة أو في مخازن الإدارة،
أثناء السنوات 1840 و 1841 و 1842⁽¹⁾.

1842	1841	1840	طبيعة الإنتاج
فرنك فرنسي	فرنك فرنسي	فرنك فرنسي	المبالغ لضريبة البلدية
89,17198	65,12453	//	مداخيل المعاملات العربية
23,29600	4,70168	117,38320	الغرامة المفروضة على القبائل
227,73068	171,68165		المجموع
الضرائب المختلفة			
37117 .344,146	23 .234,445	111,64417	الحكور والضرائب العربية
58048,13	6,46838	11,76150	المصادر
31,82325	47,82158	22,19636	الضرائب الاستثنائية الحربية
392,49010	288,72819	145,00503	المجموع
الدومين			
287,87398	177,36296	98,63347	مداخيل لممتلكات الدومين
908,09176	637,78280	361,62170	المجموع العام
الضرائب العينية (العشور)			
12,81214	8,85868	1,98557	القمح
9,48975	819010	2,92181	الشعير
3,50873	2,24880	1,03160	التبن
31,03230	17,94948	(2)	البرسيم قيم الى قنطار متري

(1)- COUP D'OEIL SUR L'ADMINISTRATION FRANCAISE DANS LA PROVINCE DE CONSTANTINE. op cit. P. 41.

الملاحظ من خلال الجدول أن الضرائب التي يساهم بها الجزائريون في مقاطعة قسنطينة بقسط كبير يتزايد من سنة إلى أخرى، حيث أن بين المدفوعات بين سنة 1840 و 1843 قد تضاعف أربع مرات، ويرجع ذلك إلى الاستقرار النوعي الذي حققه الجيش الفرنسي بوسائله القمعية،⁽¹⁾ بالإضافة إلى السيطرة القوية في دفع الضرائب والأوضاع الاقتصادية المتردية بسبب المقاومة المسلحة. وما يلاحظ أيضا إن الضرائب كانت عينية على أهم المنتجات للمنطقة، وخاصة القمح والشعير والزبدة والتين المجفف وأما العشور فتتمثل في الأغنام والماعز والجمال والأبقار.⁽²⁾

المنتجات العامة في الجمارك في الشرق الجزائري⁽³⁾

المجموع	المبالغ القانونية منذ 1831 – 1843				السنة
	الملاحة	حصيلة المرفقات	الصادرات	الواردات	
32444791	2200000	913814	1159274	28171703	1831
50491913	4387500	//	3733715	44010942	1832
53		216896	9051293	59888842	1833
81803066	6573095	178829	6605380	65847362	1834
71875096	8379131	227882	543317	56539516	1835
79464537	26	137124	354507	65474077	1836
99041999	22069412	127868	636524	76490212	1837
120581989	20081606	93803	1305460	99770056	1838
107747178	19523086	167611	818025	86751021	1839

(1) - في اثناء الحملة على بلاد القبائل سنة 1851 كان سانت ارنو يقر بقوله فيقول: " تركت ورائي حريقا هائلا : احرق نحو مائتين من القرى و اتلفت جميع البساتين و قطعت جميع اشجار الزيتون " .

(2) - اندري برنار، اندري نوشي، ايف لاکوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص 292.

(3) - TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE(1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 355.

111469341	39629655	202532	2093440	70819129	1840
124122901	52593725	71161	986076	70471939	1841
167008187	40813166	339249	20813	123774438	1842
160698213	38089657	196819	606873	121804864	1843

الحقوق القانونية للجمارك منح في سنة 1843 إنتاج قدر ب 1606982. 13 فرنك فرنسي، وفي سنة 1842 المحصلة العامة وصلت إلى 1670081. 87 فرنك فرنسي، بمعدل في الخماسي قدر ب 126185919 فرنك فرنسي ولقد نتج عن ذلك بفرق قدر ب 4% وبمعدل خماسي مرتفع ب 27%، هذا الانخفاض الطفيف في سنة 1843 رغم الارتفاع ب 35% عن سنة 1842م.⁽¹⁾

التجارة الخارجية (الصادرات والواردات)

أصبحت الموانئ في الشرق الجزائري أكثر نشاطا من غيرها خاصة بعد الاحتلال الفرنسي لقسنطينة، ليس لإمداد العسكري وإنما لأهميتها الاقتصادية،⁽²⁾ بحيث كانت الموانئ الشرق هي الممون لفرنسا قبل الاحتلال، واحتلال عنابة وبجاية مباشرة بعد سقوط العاصمة زاد وسهل في عملية احتلال الشرق الجزائري، ونظرا لأهمية الشرق الجزائري نورد جدول يبين نسبة لتدفق السلع من صادرات وواردات على المنطقة. مقارنة ببقية الموانئ الجزائرية.

جدول يبين توزيع الواردات في التجارة بالنسب المئوية على الموانئ الجزائرية.⁽³⁾

موانئ الشرق الجزائري	النسبة المئوية	موانئ الغرب والوسط	النسب المئوية
ميناء بجاية	4.0	ميناء الجزائر	4.37
ميناء عنابة	3.10	ميناء شرشال	3.0
ميناء القل	1.0	ميناء تنس	7.0
ميناء سكيكدة	60	ميناء وهران	3.17
جيجل	3.0	المرسى الكبير وأرزو	2.5

(1) - في سنة 1852 يدفعون الجزية في الشرق الجزائري فقبيلة الحراكمة دفعت 16.000 شاة و 850 بقرة و الزم الحنانشة بدفع 12.00 من الغنم و بني جلاب بدفع 29.000 من الغنم و 3.700 راس من الابل .

(2) - اندري نوشي و اخرون ، مرجع سابق ، ص 292.

(3) - TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE(1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 374.

اعتبر ميناء سكيكدة من أهم الموانئ الشرق الجزائري نظرا لقربه من عاصمة الشرق الجزائري خاصة بعد احتلال فرنسا لقسنطينة واخذ المرتبة الاولى، لانفتاحه على منطقة القبائل وحصانة موقعه ولقد عملت السلطة الاستعمارية على ربطه بطريق مباشر نحو الحروش ومنه نحو جبال الشمالية، حتى ربطته بخط للسكة الحديدية بعد ذلك لأنه الممون الرئيسي لقسنطينة والشرق الجزائري.

دخل الشرق الجزائري في تطورات اقتصادية عميقة، مست البني التحتية برمتها، وانقلبت موازين الإنتاج، فعلى مستوى ملكية الاراضي اصبحت جل الاراضي الخصبة المنتجة تحت تصرف السلطة الفرنسية، عن طريق قوانين تعسفية وحيدة الجانب في وضعها وتحت سلطة عسكرية في تطبيقها، لقد سلطت السلطة الفرنسية مجموعة من القوانين ذات طابع استعماري،⁽¹⁾ في مصادرة الاراضي التابعة لسلطة الباي أو لأتباعه ومساعدته، التي كانت تمثل أعزال البايك، ولم يكفيها ذلك فصادرت املاك الاوقاف والاملاك المحبسة على المؤسسات الدينية والتعليمية، فقطعت كل تمويل وتموين عنها، وبذلك قضت على نشاطها، وقوضت من أعدادها، لتنتشر بذلك الجهل والامية وتقضي على أهم المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري، وتجعل من أصحاب الاملاك موظفين بسطاء.

توقف وسائل الإنتاج على تحقيق أغراضها والمتمثلة في تحقيق حاجات المجتمع في عدة مناطق من الشرق الجزائري، وذلك بسبب عمليات الانتقال من الإنتاج المحلي التقليدي الى مرحلة الاقتصاد الإستطاني الكولونيالي، بالإضافة الى المقاومة المستمرة، والتي عبرت بالفعل رفض الاستعمار بكل أشكاله.

لقد تمكنت السلطة الاستعمارية من بسط نفوذها في مناطق عديدة من الشرق الجزائري في وضعية اقتصادية متنازلة في التدهور لصالح المجتمع، وهي ما كانت تعبر عنه تجدد المقاومة المسلحة، وأمام هذا الوضع شرعت فئة المستوطنين في تنصيب مؤسساتهم ومشاريعهم الاقتصادية، فرغم حداثةا وعصرنتها إلا أنها لم تكن في صالح الجزائريين، فظاهرة التجديد انتشرت بانتشار الاستعمار، فأقامت المشاتل للتجارب وهيكلتها بفئة مختصة لذلك، وشرعت في شق الطرق فأوصلت المناطق والمدن ليسهل تنقلها، و شرعت في تخفيف واستصلاح الاراضي ذات المستنقعات، واهتمت بالمرزوعات الأساسية والهامة مثل الحبوب (القمح - الشعير - الأرز - الذرة). أمام هذه الأوضاع المتردية اقتصاديا ظهرت سنوات من الجفاف وانتشار أسراب الجراد وفأتلف الزرع وجف الضرع وازداد

(1) - اندري برنار و اندري نوشي و ايف لاکوست ، مرجع سابق ، ص 296.

ضعف الإنتاج،⁽¹⁾ ولم تعفي السلطة السكان من الضرائب رغم تنوعها وثقل دفعها، فكان ذلك من أسباب انفجار الوضع في ثورة المقراني أمام انهيار النظام العسكري لبدأ في تطبيق النظام المدني وتهميش القياد والباشاوات والخليفات من رئاسة هيئات كانت متوارثة وانتقلت من ملاكين الى موظفين في كل الأحوال.⁽²⁾ والشيء الذي يمكن استخلاصه ان الفترة العثمانية في الشرق الجزائري وان كانت أكثر تعسفا إلا أن تعسف الإدارة الفرنسية كانت ذات طابع استيطاني بامتياز.

المبحث الخامس: مقارنة تطورات الوضع الاقتصادي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية

الشرق الجزائري بخصوصيته الطبيعية ذو المساحة الواسعة و الاقاليم المتباينة و البنية الاجتماعية المتنوعة ، كل ذلك يجعل البحث فيه شيق و جذاب ، فالمقارنة الاقتصادية بين فترة أواخر الفترة العثمانية و المرحلة الاولى لمرحلة الاحتلال الفرنسي يجعلنا نقف على مجموعة من اوجه التشابه و الاختلاف المتباين و من اهم اوجه التشابه ما يلي :

- ان ملكية الاراض و عي عصب الاقتصاد كانت في الفترة العثمانية موزعة على عدة فئات و هيئات تتجاذبها قوى ذات المصالح منها التي توارثت ذلك عبر المراحل التاريخية و تتمثل في القبائل و الاسر الفاعلة و الاسر ذات الكبيرة ، من جهة و من جهة اخرى السلطة العثمانية المتمثلة في الباي و الموظفين لديوانه ، و التي في اغلب الحيات كانت متوارثة لمناصبها ، و التي تستفيد من مناصبها امتيازات دورية و غير منتهية . في هذا الاطار نرى عمليات المصادرة التي كان يقوم بها البايات على القبائل و الخواص الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب او الذين كانوا يعلنون الثورة او التمرد على السلطة . كل تلك الاراضي كانت من نصيب الكثير من الباي و حاشيته . بالاضافة الى املاك الاوقاف التي كانت تابعة للمؤسسات الدينية من زوايا و مساجد و غيرها من المؤسسات الاخرى .

(1) - ان خسائر المواشي بين 1830-1845 و التي كان سببها القمع كانت تقدر بين 18 مليون من الغنم و 3.5 مليون

راس من الابقار و الابل ... ان سلب المواشي قد استمر بسرعة مماثلة مدة أكثر من اربعين سنة .

(2) - صالح عباد، مرجع سابق ، ص 519.

- اما الجانب الفرنسي فقد اصبحت ملكية الاراضي تابعة للدومين (السلطة) و التي كسبتها من اراضي البايليك (السلطة العثمانية)، و التي اعتبرت السلطة الفرنسية وريثة للسلطة العثمانية، و بالضافة الى تلك الراضي فان السلطة الفرنسية اخذت اسلوب المصادرة لاراضي الخواص من فئة العثمانيين الذين هجروا الجزائر و منطقة الشرق الجزائري ، و اعتبرت هي الوريثة لتلك الاراضي .بالضافة الى المراسيم و القرارات و القوانين التي اصبحت تطل مجموعة من الهيئات مثل هيئة الاوقاف التي عملت فرنسا على مصادرة اراضيها ، اضافة الى مصادرة اراضي القائل التي اعلنت المقاومة على السلطة الدخيلة ،او العائلات التي اعلنت العصيان و عدم اعلان الولاء للسلطة الفرنسية ، و لم تتوقف السلطة الفرنسية الى هذا الحد بل شرعت ترسانة من القوانين للاستحواذ على اكبر المساحات من الاراضي و على الخصوص الاراضي الزراعية الخصب و التي تتوفر على المصادر المائية . و لقد تطورت ملكية الاراضي في الفترة الفرنسية بعد الشروع في تطبيق القانون المشيخي (قانون سيناتوس كونسولت) سنة 1871. و الذي فعلا حمل الملكية للاراضي الى الخواص و منها اصبحت الاراضي الزراعية تابعة للافراد و الدولة التي انتقلت من يد السلطة الاستعمارية الى يد المستوطنون الاوروبيون الذين اصبحو يشترون الاراضي من السلطة او من الخواص الجزائريين ..و بهذه الاجراءات تقلصت اراضي الخواص من الجزائريين اما عن طريق البيع او طريقة الحجز من طرف البنوك التي كانت تقرضهم الاموال بفوائد لا يمكن تسديدها . ان هذا التطور الخطير جعل الاراضي تصبح في يد السلطة الاستعمارية الاستيطانية و تجرد الجزائريون من ممتلكاتهم و اصبحوا اجراء .

- اما فيما يخص الاسواق و النشاط التجاري في الفترة العثمانية فكانت فئة الحرفيين هي التي تقوم بصناعة مجموع الحاجيات التي يتطلبها السوق و كانت في معظم الحالات صاحب الحرفة هو من يقوم بتصريف سلعه و منهم من يقوم بتصريفها الا ان نظام الاسواق فقد كانت تتحكم فيه هيئة خاصة في الرقابة و الرسوم و النظافة و التفتيش و غيرها من اجراءات الاسواق في ضبط الاسعار و منع الغش و مراقبة المكاييل .اما في الفترة الفرنسية فقد قامت بإجراءات اكثر مراقبة و صرامة و ضبط الرسوم و الاشراف و تخصيص ايام فتح الاسواق ،

والهدف من ذلك كله هو زيادة الرسوم و الضرائب من اجل الانتفاع و تدعيم خزينة السلطة الفرنسية .

- فيما يخص الضرائب في الفترة العثمانية ارتقت الى درجة انها لم تترك أي مجال الا و فرضت عليه ضرائب ، فكانت تفرض الضرائب الشرعية كالزكاة و العشور وفقا للشريعة الاسلامية على المسلمين و على اليهود و المسيحيين الجزية ، اضيفت اليها ضرائب الحرف و رسوم الغرامة و العوائد مثل البشارة و الدنوش و الهدايا التي اصبحت من مستلزمات الجزائريين للسلطة و ليس هذا فقط بل كانت السلطة تقوم بحملات عسكرية دورية على القبائل الممتنعة او المتمردة على السلطة فتسلب ما تجده من ماشية و ابقار و جمال و مواد غذائية و تترك في غالب الاحيان تلك القبائل وسط ازمة اقتصادية حادة و هذه الاجراءات زادت من تفاقم الوضع بين السلطة و القبائل و زاد في اتساع دائرة الابتعاد و انتشار السخط و الحقد على السلطة العثمانية ، اما في المدن فكانت النقابات هي التي تقوم بذلك و كان لكل حرفة و كل فئة يمثلها نقيب امام السلطة العثمانية يخضع لها الكل . و اصبحت المناصب تسلم لذوي النفوذ و اصحاب الامتيازات و المقربين للسلطة و الذين يرهنون خدمتهم اكثر للسلطة ، و اصبحت تعسف في فرض الضرائب كلن السلطة العثمانية لم تترك المبادرة للتجديد و الانفتاح في عمليات الصناعة و هو الشيء الذي ترك المنافسة الاوربية تقضي على الصناعات التقليدية . لقد كرسست السلطة العثمانية على النشاط التجاري و الاقتصادي طابع التسلط على الجزائريين و اصبحت الامتيازات لذوي المكانة هو المعيار في الاشراف و التسيير و انتشار الجشع في جمع الاموال و الاستحواذ على المناصب ذات الارباح و الاموال الطائلة . اما في الفترة الفرنسية فأبقت السلطة الفرنسية على الضرائب المعهودة و اضيفت لها ضرائب اضافية منها تغريم القبائل الثائرة و الرسوم على الاسواق اصبحت اكثر تقنين و صرامة و انتزعت شيئا فشيئا الموكلين على الضرائب و جعلتهم اجزاء و موظفين تحت السلطة الحاكمة . و لقد شهدت عمليات الاستيطان التوسع السريع و انتشرت على منوالها المستوطنات الفلاحية و انشئت لذلك مراكز للتجارب الفلاحية في كل المدن لغرض تجسيد الزراعة الحديثة ، و التي اصبحت الشرق الجزائري مسرحا لظهور المدن الحديثة و المزارع الاستطانية للمهاجرين من

الأوربيين و أصبح الانتاج في يد فئة المستوطنون الذين امتلكوا الاراضي و اقاموا فيها زراعات بوسائل حديثة ابهرتهم لقوة المردود الذي اصبحوا يحققونه ، بدعم من السلطة العليا الفرنسية و دعم البنوك التي انشئت لذلك الغرض . ان الزراعة الكولونيالية عملت على القضاء على الزراعة التقليدية التي اصبحت سفوح الجبال و اطراف الغابات و المناطق الجنوبية مناطق لها و اصبحت الفلاح الجزائري يتراجع و اصبحت اراضيه امام مساومات الكلون و البنوك للتنازل عليها او بيعها .

- لقد استندت السلطة الفرنسية على قوة الجيش لتفسيح المجالات الاقتصادية بكل الوسائل القمعية و هذا ما شهدته املاك الاوقاف التي اصبحت من اراضي السلطة فانها اغتصبت اراضي المؤسسات الدينية في الارياف و المدن و جردت هذه المؤسسات من كل تمويل و تمويل ، و في اطار المنفعة العامة اخذت تشق الطرق و تشييد المسارات العامة و الفضاءات و تبني المؤسسات الخاصة بما دون مراعات للجانب الاقتصادي لسكان المدن او للعامل الديني و لا الحضاري التي كانت معظم المدن في الشرق الجزائري تزخر بها و لم تسلم منها الا تلك التي كانت على الهوامش من المدن او تلك التي كانت داخل النسيج العمراني ، و كم من مسجد هدم و لم يبق الا الاسم و المكان و كم من حي انتزع و شيدت في مكانة منشأة عسكرية او ادارية . ان الطابع الاقتصادي تغيرت معاملة و اصبحت في منظورها الا ما يحقق اهدافها و رفاهية ابنائها و كان ذلك سبب في تغير الكثير من الجزائريين .

- ان طابع الحداثة التي ظهرت على المستوى الاقتصادي مثل المشاتل التي ظهرت في المدن الكبرى و هو مظهر لم يتعود عليه الجزائريون ، و اعتبرت فرنسا ان هذه المشاتل هي قاعدة التي على اساسها تبني الزراعة الحديثة ، بالاضافة الى طابع المستوطنات التي اصبحت تظهر على المساحات الواسعة ، بوسائل حديثة في الحرث و البذر و الجمع و غيرها من وسائل الانتاج اضافة الى ذلك ظهور تخصصات زراعية جديدة مبتكرة مثل وسائل الري و عمليات استصلاح الاراضي في سهول سكيكدة و عنابة و قالة و شق الطرقات الجديدة التي تربط بين سكيكدة و قسنطينة و عمليات الاصلاح الذي شهدته مناء عنابة و ميناء سكيكدة و المرافق التي زودت بهما .

- لم تكن التجارة الخارجية في الفترة العثمانية في خدمة المجتمع بل كانت محتكرة من طرف الباي الذي كان له حق التعامل مع المتعاملين التجاريين مع الخارج، فرغم هذا الامتياز فإن اليهود هم الذين لهم الحصة في التعامل التجاري مما أكسبهم مناعة من دفع الرسوم كغيرهم لان لهم امتياز خاص و لهذا نجد ان المؤسسات التجارية لدرجة ان الازمات التي كان يحدثها هؤلاء المتعاملين انهم كانوا يشترطون ظمائر الافراد و شيوخ القبائل لكي يحققوا مأربهم بعيدين عن سلطة البايليك. أما خلال الفترة الاستعمارية فكانت سلطة فرنسا هي من لها حق الاستراد و التوريد ، و تحت رسوم جمركية مقننة ، و هذا ما ادى الى احتكار حقيقي للسلطة الفرنسية للتجارة الخارجية . وغير الكثير من أسس التجارة من حيث الاساليب و الوسائل و الأسس ، لأن الاستيطان لم يكن في الجزائر الا لخدمة فرنسا الام ، و انائها المستوطنون في الجزائر .
- فقدت المدن اسواقها التقليدية و محلاتها العتيقة و ازقتها التي كانت متخصصة في الحرف المتناسقة ، و توسعت الشوارع و هدمت الكثير من البنايات ، و شيدت مكانها اسواق ، على النمط الاوربي ، و اخذت السلطة الفرنسية تتهجم على الاماكن الهامة لتبدع في تحويلها الى منشآت حيوية على حساب النشاط المعهود. و جعلت في كل مدينة سوق ، يتعهده التجار و تبتز منهم الرسوم التي اصبحت موارد لخزينة البايليك . و تجعل من تنظيماتها ما يناسب سياستها ، و حولت الهيئات القائمة الى هيئة من الموظفين تحت رقابة الضابط العسكري و و سعرت المكوس على اساس حمولات و رؤوس الماشية من الاغنام و الابقار و الجمال لتكون اكثر محاسبة مع القائمين على تسيير هذه الاسواق ، عن طريق تذاكر لتسهيل مراقبتها و لا يمكن ان يفلت احد من التهرب من تلك الرسوم .

الفصل الرابع: الوضع الاجتماعي في الفترة العثمانية

1836-1804 م

المبحث الأول: البنية الاجتماعية في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية.

المبحث الثاني: الواقع الاجتماعي في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية

.المبحث الثالث: التفاعل بين الفئات الاجتماعية في الشرق الجزائري

المبحث الأول: البنية الاجتماعية في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية.

إن التشكيلات الاجتماعية للفضاء الجغرافي للشرق الجزائري تكونه عناصر أثنى وطائفية على المستوى الحضري كان مرده إلى الفترات التاريخية البعيدة التي تطورت فيه هذه الفئات الاجتماعية، أما في الفترة الحديثة يرجع إلى نظام السلطة العثمانية التي كرست سياسة توافقها لحماية وبقاء تواجدتها، إلا أننا نلاحظ التباين في التشكيلات الاجتماعية بين منطقة وأخرى وذلك ناتج عن ظروف طبيعية واقتصادية وحتى أمنية، سواء تعلق الأمر بمجتمع الحضري (المدن) أو تعلق الأمر بالريف.⁽¹⁾

لعل النتيجة التي نريد الوصول إليها هي ظاهرة النسق الاجتماعي الذي يتكون منه مجتمع المدينة من جهة؛ ومن جهة أخرى النسق الموجود بين العناصر المكونة لمجتمع الريفي. وتعتبر القبيلة هي محور البحث في الفضاء الريفي، لما لها من دور سياسي واقتصادي واجتماعي. والشرق الجزائري ينفرد عن بقية المناطق في أقاليم الجزائر وهذه الانفرادية تتمثل في كثرة عدد القائل وتباين مواقفها من السلطة العثمانية واختلاف نشاطها الاقتصادي وتباين كتلة بنيتها الاجتماعية.

اعتمد الكتاب الأوربيون على العنصر العرقي في تصنيف القبائل أو تصنيف سكان الحواضر وهم الأتراك والكراغلة والأندلسيون والعرب والبربر واليهود والزنج،⁽²⁾ وهناك من قسم هذه المجموعات إلى مجموعات فرعية فتم تقسيم الأتراك إلى عناصر تركية ودخلاء انضموا إليهم مثل الإغريق والصقليين والألبانيين والكورسيكيين وغيرهم، وهؤلاء يبرزون أن المجتمع الجزائري هو فئات من الأعراق كونت مجتمع من عناصر كثيرة الهدف منه إذابة الوحدة التي تجمعهم والقوة التي توحدهم كما ذهب الباحث شويتام أرزقي في دراسته لتكثيرة المجتمع الجزائري أن الامتزاج الحقيقي الذي عرفه المجتمع الجزائري والذي أدخل عليه بعض الملامح الأوربية؛ كان عن طريق الأندلسيين، الأتراك العثمانيين من الأعلاج،⁽³⁾ هؤلاء الذين اختلطوا بالعنصر المحلي - الأمازيغ والعرب-، وعلى هذا الأساس يرى أن المجتمع الجزائري يمكن تقسيمه في العهد العثماني إلى مجموعتين أساسيتين هما: سكان المدن، وسكان الأرياف،

(1) - هذا التقسيم ليس نظري بل راجع لطبيعة الواقع الموجود على الأرض .

(2) - يمكن ذلك ملاحظة ذلك من خلال الفئات الاجتماعية التي تكون المجتمع الجزائري من خلال مساهمتهم في دخل الخزينة و نوعية الضرائب المفروضة على الطابع الفئوي .

(3) - أرزقي شويتام : المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519-1830)، دكتوراه دولة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،

المجموعتان تمثلان الأغلبية الساحقة وكل منها تتكون من عدة فئات يختلف وضع كل واحدة عن الأخرى من حيث العدد والمكانة الاجتماعية.⁽¹⁾

لدراسة البنية الاجتماعية في الشرق الجزائري، تطرح عدة إشكالات منها كيفية الدراسة في شكلها، أي من حيث التركيبة البشرية من حيث العرق ومن جهة أخرى من حيث التشكيلة البنيوية التي تكون المجتمع وأهم الفئات الاجتماعية المكونة للسكان والفوارق التي توجد بينهم أو التي تميزهم أو من حيث المناطق المنتشرين فيها كل فئة، وهذا ما يجعلنا نحصر ألاً نتعامل على فئة من الفئات أو عنصر من الأعراق، غير أننا نحاول تحديد إطار متوازن لتغطية مناحي هذه الدراسة بما يخدم الحياد الموضوعية، لأن من سبقني اتخذوا مناهج مختلفة لذلك، مثلاً محمد الصالح بن العنتري يقول: «سكان البايليك من العرب والقبائل والشاوية وتربط بينهم العقيدة الدينية الإسلامية واللغة والعادات والتقاليد والمصير المشترك كذلك»⁽²⁾.

أما حمدان بن عثمان خوجة صاحب المرآة، فيقسم سكان الجزائر حسب مواقعهم الجغرافية وفي هذا الصدد يقول: «فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة، أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو القبائل الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب والفرق واضح بين اللغتين»⁽³⁾، أما الكتاب الأوروبيون فقد اختلفت آراؤهم في وصفهم لسكان إيالة الجزائر، والأقاليم المكونة لها، وهنا نورد عدة آراء لبعض الكتاب الذين اهتموا بتاريخ الجزائر ومنطقة الشرق بالخصوص، ومنهم وليم سبنسر الذي قال أن سكان المدن خليط من الأعراق منهم العرب والبربر وفئات من أجناس مختلفة عمرت البلاد عبر العصور ومنهم الأتراك والأندلسيين.⁽⁴⁾

إلا أن البعض من المؤرخين الأوروبيين ومن اهتموا بالدراسة الاجتماعية يؤكدون أن سكان المدن هم خليط من الأجناس والأعراق ومن دعاة هؤلاء وليم شيلر الذي قال: «مدينة الجزائر لا تستثنى من هذه القاعدة، وليس

(1) - جوانب من الحياة الديمغرافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أواخر الفترة العثمانية (دراسة سوسيو - تاريخية للجماعات السكانية الحضرية المكونة للمجتمع الجزائري)، مجلة آفاق للعلوم، العدد السابع، مارس 2017، ص 290.

(2) - محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007، ص 27.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 53.

(4) - وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص 83.

لها أي تاريخ يميزها عن باقي مدن البربر، وبقايا الأجناس التي غزت هذه البلاد عبر العصور، والمهاجرين من الأندلس والترك»⁽¹⁾.

إن هذه النظرات المختلفة للمجتمع الجزائري لم تنقص من ترابطه وتآزره، وبمجيء الأتراك العثمانيين سوى لدرء الغزو الإسباني والبرتغالي للسواحل الجزائرية فالتف السكان بكل أطيافهم في سبيل هذا الترابط، لكن الخصوصية المميزة للشرق الجزائري تظهر في الترابط بين سكان المدن الحضر وغيرهم من الفئات الأخرى المشكلة لهذه المدينة أو تلك بل تبقى الظاهرة واحدة بين المتمدنين أصلا والنازحين إلى المدن لأغراض اقتصادية واجتماعية وحتى أمنية، ويؤكد هذا التعاون القائم بينهم في المعاملات والمبادلات والمصالح المشتركة بينهم. إلا أن ما يلاحظ عن عددهم فيزداد ويتناقص حسب الظروف التي يفرضها الوضع الاقتصادي والأمني والاجتماعي.

إن سكان الشرق الجزائري في أواخر أيام العثمانيين لم يكن أمرا محسوما لدى المؤرخين، والاختلاف في هذا الشأن ظاهر، غير أنه من المؤكد أنه ليس بالعدد الهين، لأن هذا الإقليم كان يستقطب العدد الأكبر من سكان أقاليم الجزائر، وتنفرد عن بقية المقاطعات البايليك بأنها أكبر الأقاليم مساحة وعددا في القبائل التي تخضع لسلطة الباي.

وإذا كانت تقديرات سكان الجزائر بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين. إلا أن تقديرات القادة العسكريين الفرنسيين كانوا ينقصون من تعداد السكان للتقليل من شأنهم وإبراز ضعفهم أمام الفئات المغامرة التي يرتب لها الأمر للهجرة للجزائر، حيث نجد تقرير بوتان لسنة 1808 قدر سكان الجزائر بأنه لا يقل عن 2.800.000 نسمة لا يفوق عن 3.000.000 نسمة أما شارل سنة 1822 فقدر سكان الجزائر بـ 1.870.000 نسمة أما بيرو فقدرهم بـ 2.500.000 نسمة أما اللجنة الإفريقية فقدرتهم أن عددهم يتراوح بين 2.000.000 و4.000.000 نسمة أما حمدان بن عثمان خوجة فقدر عدد سكان الجزائر بـ 10.000.000 نسمة، ويعتبر الوحيد الذي أعطى هذا الرقم الكبير مخالفا للبقية⁽²⁾، وإذا تفحصنا في هذه الإحصائيات نجد أن الاطلاع الكتاب الأوربيين على أقاليم الجزائر كان مختصرا على المدن الكبرى، التي يتوفر فيها الأمن والاستقرار، أما المناطق الريفية فلم تكن زيارتهم لها إلا محدودة وبنيت إحصائياتهم على الاحتمالات والمقاربات للمناطق التي مروا عليها أو نزلوا فيها، وهذا ما أوهم الكثير من المؤرخين والسياسيين أثناء عملية الاحتلال الفرنسي للجزائر، لان تقارير

(1) - وليم شارل، مذكرات، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982، ص79.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت لبنان 2000، ص566.

الجواسيس الفرنسية⁽¹⁾ مثل مشروع ماسي سنة 1782م، ومشروع تيدنا سنة 1802 ومشروع بوتان 1808م قبل وبعد الاحتلال لم تكن مضبوطة الوصف.⁽²⁾

أما بايليك قسنطينة فما هو منحاه من هذه الدراسة ؟

فعلا، بايليك الشرق الجزائري هو أكبر الأقاليم مساحة وسكانا، فكان يستقطب أكبر عدد من السكان وكان يضم 5/2 من سكان البايليك الذي قدر بـ 120000 نسمة حسب ما ذهب إليه ياكونو (Yacono)⁽³⁾، والظاهرة البارزة في هذا الصدد أن القبائل المشكلة لهذا البايليك كثيرة العدد في سكانها،⁽⁴⁾ والظاهر أن سكان بايليك قسنطينة كانوا ريفيين بنسبة 95% من مجموع السكان،⁽⁵⁾ فسكان المدن كانوا لا يمثلون سوى 5% من السكان.

وأهم هذه المدن نذكر قسنطينة عاصمة الشرق ومقر البايليك قدر عدد ساكنها 25000 نسمة، أما مدينة عنابة فقدر عدد سكانها بـ 3000 نسمة أما مدينة جيجل فقدر عددهم بـ 1800 نسمة وبجاية فقدر عدد سكانها بـ 18000 نسمة ومدينة القل بتعداد سكان يقدر بـ 1000 نسمة وتبسة وبسكرة وزمورة وميلة

(1) - بنور فريد، الجواسيس الفرنسيون في الجزائر (1782-1830)، دار الواحة للكتاب، الجزائر، 2009، 354-358.

(2) - بوتان : ولد فانسون إيفيس بوتان، يوم الفاتح من شهر جانفي 1772 في قرية تدعى لورو . بوترو الواقعة بضواحي نونت على الجرى الأدنى نهر الوار و " بوتان" هو الاسم العائلي اشتغل أبوه بتصفيح الخيول، فهو من الطبقة البورجوازية الصغيرة والمتنفذة، انتخب أبوه سنة 1790 رئيس بلدية، (بلدية) لوار دخل لمدرسة برودوم وقد لاحظ الرهبان علامات الورع والنباهة والحماس الديني فيه توطدت العلاقة بينه وبين أستاذه فوشي جوزيف وهو مختص في مادة الكيمياء ودكتوراه في الفنون، منحت لبوتان شهادة الاعتراف بحسن السيرة وبالجدية في العمل من. في 18 أفريل بعث نابليون برسالة الى ديكري، وزير الحربية وأمره بالتفكير الجدي في القيام بحملة ضد الجزائر سواء كانت برية أو بحرية كما طلب منه جمع المعلومات الضرورية عن التموين وطبيعة الأرض ومكان وزمان الحملة ومن بين الأسئلة التي طرحها، هل يوجد بالساحل ميناء حيث يكون الأسطول في معزل عن القوات البحرية، وما هي الموانئ التي يستطيع الجيش أن يتمون منها بعد النزول مباشرة ؟ وكم هو عدد الموانئ التي يستطيع العدو محاصرتها، وما عدد السفن التي بإمكان هذه الموانئ أن تحتوي عليه" و طلب منه أن لا يزيد عدد الجيش عن 20.000 جندي. و طلب أن تأتيه المعلومات خلال شهر وأن يقوم خلال هذه المدة بجمع الوثائق الخاصة بالجزائر.

(3) - Yacono (x) ; " peut-on évaluer la population de l'Algérie en 1830 " in R.A, N° 98.1955 p277.

(4) - قدر وليم شالر سكان مدينة قسنطينة وحدها بـ 25.000 نسمة. أما "نوا" الذي كان قنصل أمريكا في تونس، فقد قدر سكان قسنطينة سنة 1813 بـ 60.000 نسمة وقال أن الحياة فيها آمنة والمعيشة رخيصة وسكانها مهذبون، وقال احمد الانبيري، مؤلف كتاب (علاج السفينة في بحر قسنطينة) أن سكان هذه المدينة قد بلغوا 40.000 نسمة هذا بطبيعة الحال أن بعد الاحتلال الفرنسي لها وفرار بعض العائلات منها ومقتل عدد كبير من سكانها.

(5) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1989.

وسطيف لا يتراوح كل منها 2000 و3000 نسمة،⁽¹⁾ وقد لعبت هذه المدن دورا حضاريا في بايليك قسنطينة⁽²⁾، وقد لعبت هذه المدن دورا حضاريا في بايليك قسنطينة بجميع فئاتها وحسب تواجدها، كانت في الريف أو في المدن.⁽³⁾

البنية البشرية للمدن في الشرق الجزائري:

يتشكل سكان المدن في الشرق الجزائري من عناصر متميزة ومتباينة في نشاطها وحياتها والنظم التي تتحكم فيها فالمدينة كما يقول سعد الله تتكون من فئات اجتماعية متميزة وكل فئة تتميز عن الأخرى من حيث وضعيتها الاجتماعية ونشاطها الاقتصادي وعلاقتها بسلطة الدولة.⁽⁴⁾

ومن هذه الفئات هي:

فئة الأتراك: كان الأتراك يشكلون طائفة مغلقة ومنعزلة عن المجتمع الجزائري متمسكين بلغتهم التركية ومذهبهم الديني الحنفي ولنظام قضائي خاص ولها امتيازات خاصة وارتبط تواجدهم بالمدن في اغلب الأحيان إلا في المهمات الخاصة المسندة إليهم من طرف الباي،⁽⁵⁾ وقد تشكلت النواة الأولى لهذه الفئة منذ استقرار العثمانيين مناطق البايليك، وبلغ تعدادهم حوالي 5.025 عائلة أي 39.100 عنصر⁽⁶⁾ وتتكون أساسا من جند الانكشارية ومن المتطوعين الذين كان الداى يعززهم إقليم البايليك.

وللتنويه إن هؤلاء العثمانيين لم يكونوا كلهم من بلاد الأناضول، بل كانوا يأتون من الدول الأوروبية التي احتلتها الدولة العثمانية من اليونان وبلاد البغدان ومنطقة البلقان ويدعون الأعلاج، واتخذوا الجزائر وطنا لهم ليحققوا أغراضهم المادية وطموحاتهم⁽⁷⁾، ومعظمهم كان يمارس التجارة والحرف والعمل في البحر، واستقر هؤلاء

(1) - ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع، ص 568.

(2) - أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح، منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984، ص 202.

(3) - أندري برنيان، وآخرون، مرجع سابق، ص 202.

(4) - فلة القشاعي الموساوي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة 1990. ص 24.

(5) - صالح عباد : الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، دار هومة، الجزائر، 2005، ص 257.

(6) - Isabelle Grangaud, la ville imprenable une histoire sociale de Constantine au 18^è siècle, Blida, Alger 2010, p183.

(7) - أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر جامعة الجزائر، 2006، ص 55.

في المدن الساحلية مثل عنابة وبجاية والقل من بايليك الشرق،⁽¹⁾ واندجوا في حكم البلاد وعددهم قليل في بايليك قسنطينة، وقد كانوا يؤلفون فرق الجيش ويقدمون خدمات مفيدة لهم ويدعمون الفرق المرابطة في المراكز المتقدمة ولهذا تميزت علاقتهم بالسكان بالعداء مثلما أكده هايدو (Haedo)،⁽²⁾ وازداد عددهم بعدما استقرت الأوضاع في الإقليم. وهو ما دفعنا للسؤال: هل كانت هذه الفئة من الأتراك ذات تأثير في المجتمع؟ وما هي أشكال التأثيرات التي بلغتها فئة الأتراك في الشرق الجزائري؟ بالرغم من بقاء هذه الفئة لما يربو عن ثلاثة قرون؛ إلا أن تعدادهم بقي قليلا، نظرا لنشاطهم المحدود ومهامهم المحدودة من طرف السلطة المحلية المتمثلة في سلطة الباي أو من طرف السلطة المركزية في دار السلطان.

إن فئة الأتراك ارتبطت بالسلطة والجيش فلم تتعداها إلا قليلا، وأن النظام المتبع للمجندين يخضع لقوانين داخلية المتمثلة في عدم زواج المجدد الانكشاري الذي يزاول نشاطه في الخدمة، وهذا ما حد من تزايد عددهم وأبقاهم مقتصرًا فقط في الأعداد التي تأتي من الخارج. هذا الشأن قلص من تعدادهم وأوجد نوعا من الانغلاق على المجتمع في الشرق الجزائري.

ومن الملاحظ أن عدد المصاهرات بين السكان والأتراك ظل قليلا، لأن من حقهم الزواج ولكن بعد فوات الأوان لإنجاب الأولاد، لهذا بقيت الفئة المنبثقة عن هذه المصاهرات قليلة، هذه الفئة التي ستعرف بالكراغلة. فهل يعتبر هذا أمرا إيجابيا في تفاعل هذه الفئة بالمجتمع الجزائري؟ وإن قوة التفاعل بين فئة الأتراك وفئات المجتمع بقيت هي الأخرى محدودة، وأدى هذا إلى تواجد مرهون بأهداف آنية، لم تبلغ درجة الفعالية، الي من شأنها أن تتحكم في التغييرات الهامة في البلاد، وإحداث التوازن بين الفئة الحاكمة والفئة المحكومة.

إن طابع الاستعلاء جعل من هذه الفئة تبني بينها وبين المجتمع سدا للتمازج والتفاعل مما تكون نظرة غير حسنة بين فئة الأتراك والسكان، لأن سكان الشرق الجزائري ينظرون إلى أن هذه الفئة نظرة خاصة، لا يتسنى لها المعيشة مادامت مرتبطة بمصالح مادية وسياسية مرتبطة بالحلقة، إما في الظروف الطارئة في حالة الحرب أو المحلات العقابية أو المحلات لجباية الضرائب وكل هذه الأعمال أنتجت في ذهنية الفرد ان الانكشارية أو السلطة التي تنبثق منها ما هي إلا فئة عقابية⁽³⁾.

⁽¹⁾ Moulay Belhamissi. Marine et marins d'Alger 1518_ 1830, bib. nationale d'Algérie 1986,3t. p116.

⁽²⁾ Haedo (Fraye Diego), Histoire des Rois d'Alger, A. Jourdan, Alger 1881. p219.

⁽³⁾ - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الأملية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر 2012، ص 479

يقول صالح عباد: «... لقد اتضح انعزال الأتراك عن المجتمع الجزائري حين سقطت مدينة الجزائر بيد الفرنسيين، ففي الوقت الذي تصالح فيه هؤلاء وأبناءؤهم الكراغلة مع الفرنسيين قام الجزائريون يدافعون عن أنفسهم وعن البلاد دون فادتهم القدامى، باستثناء بعضهم الشيء الذي أدى إلى بروز قيادات جديدة جزائرية»⁽¹⁾. وهنا يمكن القول أن التواجد العثماني في الجزائر كان مرهونا بالمصلحة الخاصة بهم، حتى لم يهضموا ما كان أن يكون لاستمرارهم في الجزائر، فكانوا ينظرون لهم على أنهم غرباء على الشرق الجزائري وان تواجدهم مرتبط بظروف أملتها عليهم الأيام، وهذا ما أبقاهم منعزلين، وقلل من تفاعلهم مع المجتمع الجزائري، وان كان ذلك التفاعل فقد كان يتم بنوع من الريب، ولكن؛ إذا كانت هذه الوضعية لم تكسبهم إلا سعادة أيام فهل أسعدت من كان من أصلابهم من الكراغلة؟

فئة الكراغلة (Kolugli):

وهي الفئة الناتجة عن تزاوج الأتراك بالجزائريات⁽²⁾، فما هي أوضاعهم وقوة تفاعلهم في الشرق الجزائري؟ تعتبر الفئة الأكثر تقاربا من بقية الفئات المشكلة للمجتمع الجزائري في الفترة العثمانية، فما هي قوتها في الحياة الاجتماعية في الشرق الجزائري؟ إن المميزات التي صنفت هذه الفئة جعلتهم تحت مجهر المراقبة والملاحظة من طرف السلطة الحاكمة. فرغم احتلالهم لمناص هامة في المجتمع والعمل الجاد الذي تميزوا به والانضباط الذي أهلهم لاحتلال مناصب هامة مثل الحاج أحمد باي، الذي أمضى وقتا طويلا حاكما في بايلك على قسنطينة.⁽³⁾ إن فئة الكراغلة كانت تشكل من الناحية العددية أكبر من فئة الأتراك وكانت لهم الخطوة في الامتيازات نظرا لنسبهم للأتراك من ناحية الأب والأسر المرموقة من ناحية الأم الشيء الذي أهلهم ان تكون لهم مكانة اجتماعية ورفاهية خاصة يقول صالح عباد: «كانت طائفة الكراغلة أكثر عددا من طائفة الأتراك، كما أنها أكثر انتشارا، عناصرها موجودة في كل المدن التي كان بها الأتراك وخاصة انكشارية الحاميات⁴. الكراغلة موجودون في قسنطينة وعنابة وجيجل وبسكرة والمسيلة ويشكلون العدد المهيمن في تبسة فهم الذين يملكون كل الاراضي المحيطة في المدينة وكانوا يقطنون أحسن وأجمل الأحياء في هذه المدينة»⁽⁵⁾ وكان الكراغلة متواجدين في الأرياف عكس

(1) - صالح عباد، مرجع سابق، ص 548.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، ورفات جزائرية، المرجع السابق، ص 43.

(3) - Emérite M ;les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du 19^{ème} siecle annales économies s.c. n°1 ;1966.p.44.

(4) - Boyer. P ; l'évolution de l Algérie médiane de 1830 a 1956 ; paris 1960 ;p. 31

(5) - صالح عباد، مرجع سابق، ص 548.

الأتراك، إلا أنها قليلة العدد إذا ما قورنت بدار السلطان، يقول حمدان خوجة في المرأة: «لم يعد يطلب من أعين البلاد آراؤهم، كما أن أهم المناصب في الدولة والوزارات ووظيفة خوجة الخيل لم تعد تعطى -أي للأتراك- لأن الكراغلة طردوا من الحكم على الرغم من أنهم كانوا فروعاً لهؤلاء الأتراك أنفسهم»⁽¹⁾ ويروي بعد ذلك قصة وسبب هذا التصرف، إلا أننا نلاحظ أن عصمان باي⁽²⁾ وحسين باي ولد صالح باي⁽³⁾ واحمد باي⁽⁴⁾ كانوا كراغلة⁽⁵⁾. إلا ان هذه الفئة كانت مراقبة ومحاصرة من طرف فئة الأتراك وذلك منذ سنة 1630م ومحاولتهم الاستيلاء على الحكم⁽⁶⁾. لم يستفد الأتراك من تعداد أبنائهم الكراغلة، بل تركوهم مهمشين رغم الخصوصيات التي كانوا يتمتعون بها من نفوذ، فأصبحت هذه الفئة متهمه من الأتراك من جهة لأنها أرادت الاستئثار بالحكم، ومحاصرة من طرف الجزائريون لأنهم ينتسبون الى الأتراك وهم مراقبون من طرف الأتراك، لذلك بقت هذه الفئة معلقة بين فئتين وهي قمة التفرقة العنصرية فهم متهمون مهما كانت اجتهاداتهم⁽⁷⁾.

فئة الكراغلة لم تستطع ان تحقق توافق مع فئة الأتراك ولا مع فئة الأعيان ولا مع فئة اليهود ولا مع فئات المجتمع الشرق الجزائري الأخرى، ونستطيع أن نقول أنها فئة لم يكن لها تفاعل حر مع البقية، وأما ما يخص البعض من وصلوا إلى رتبة منصب الباي يكمن في أن الفئة الأتراك ساعدتها قوة جشعها وكذا تسبب امر تسيير الإدارة، ومن جهة أخرى نجد السلطة العثمانية في دار السلطان اضطرت إلى تعيينهم لأنها لمتجد بديلا عنهم، ولأن هذه

(1) - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، مصدر سابق، ص 152.

(2) - عصمان باي: كراغلي من أولاد قارة محمد بن عثمان الكبير باي وهران، خلف أباه علي بايليك وهران، خمس سنوات وفي عام 1799 عزل ونفي إلى البليدة لمدة عامين ثم اعفي عنه وعين علي بايليك قسنطينة وعين الملياني خليفة له وبن كوجك علي باش كاتب وحاج احمد الأبيض قائد الدار وبن شندري إبراهيم أغا الدائرة وأبناء بن زكري باش سيار وباش شاوش.

(3) - حسين باي ولد صالح باي: شهدت منطقة قسنطينة اضطرابات حين دخلت جيوش تونس واحتلتها لمدة ثلاثين يوما وفي حينها تدعمت القوة العسكرية بدعم من باشا الجزائر فدحرت جيوش تونس ورجعت خائبة وعندها تقرر متابعة الجيوش التونسية في أراضيها بدعم من باشا الجزائر لكن الخيبة طالتهم وعادوا خائبين إلى قسنطينة وعندها كثرت الوشائيات علي حسين بن صالح باي فقتل شنقا في الجزائر سنة 1223هـ الموافق ل1807م.

(4) - تولى منصبه سنة 1241هـ الموافق ل1826م فساد الفساد في قسنطينة واشتهر الأتراك بالظلم فقام الباي بدراسة أحوال البايليك وعمل على تضييد الجراح وتحديث الأوضاع وشهدت له الأيام بمقاومته الجيش الفرنسي منذ 1246هـ الموافق ل1930م.

(5) - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، مصدر سابق، ص 154.

(6) - المصدر نفسه، ص 154.

(7) - المصدر نفسه، ص 157.

الشخصيات منهم الحاج احمد باي، وفي بعض الأحيان كان البعض يتهمهم لدى السلطة التركية لتقوم هذه الاخيرة بنفيهم او تسليط عليهم عقوبات مثل النفي وقضت على بذور الكفاءة التي يتمتع بها الكراغلة⁽¹⁾.

فئة الحضرة:

تظم الأشراف والأندلسيين والأعيان من الذين ولدوا في المدينة وترعرعوا فيها عبر المراحل التاريخية لكل مدينة من مدن الشرق الجزائري، ولكل مدينة حضرها وهم من الأمازيغ والعرب وحتى من الأعراق الأوربية⁽²⁾ وانضم إليهم الأندلسيين خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر للميلاد نتيجة سياسة الاضطهاد الأيبيري للمسلمين⁽³⁾ ومن أهم حضر مدينة قسنطينة عائلة الفقون وعائلة عبد المؤمن وعائلة ابن باديس وابن الجاوي وابن وابن جلول وباش تارزي وابن حسن وابن نعمون وغيرهم هذا في قسنطينة وعائلة مرداس في عنابه⁽⁴⁾.

كانت لهذه الفئة الخطوة والامتيازات والاملاك، وحظيت بالعلم والمكانة عند أفراد مجتمع المدينة لأنها كانت صاحبة الاملاك والمحلات وكسبت ثقة السكان والسلطة في الشرق الجزائري، واستغلت السلطة العثمانية هذه الفئة من أول يوم دخلت الى قسنطينة عندما تحالفت عائلة الفقون مع الأتراك لدخول قسنطينة ضد عائلة عد المؤمن، ومنها اكتسبت عائلة الفقون ود السلطة وأسدت عليها الامتيازات والمكانة السياسية⁽⁵⁾ وكل ما يتعلق بالتفاعل المجتمع بين سكان المدينة، وإذا ركزنا على قسنطينة فإنها أ نموذجاً لبقية المدن في الشرق الجزائري لأنها تحظى بالمواصفات المدينة ذات السلطة الكاملة.

فئة الحضرة استحوذت على كل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الجزائري، نظراً لاتساع نفوذها الاجتماعي، فكانت لكل عائلة قوة اقتصادية وزاوية يجتمع فيها المنتسبين والمتعاطفين لهذه العائلة من فئة المدينة مثل مسجد بني فرقان ومسجد ابن باديس، كما كانت كل عائلة من الحضرة تستقطب فئات اجتماعية عن طريق بناء زوايا ومدارس خاصة بهم وللمتعاطفين معهم كما يتبين ذلك فيما يلي بالمؤسسات الدينية والاجتماعية.

و يمكن ان نقول ان هذه الفئة التي حظيت بالمكانة والكسب والعلم والإدارة سيطرت على الوضع الاقتصادي وتقاسمت مع السلطة العثمانية المنافع والمناصب والتأثير في المجتمع في الشرق الجزائري، مما أهلها أن

(1) - ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 97.

(2) - أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 55.

(3) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 79.

(4) - ناصر الدين سعيدوني، ورفات جزائرية، ص 507.

(5) - Emérite M ;les tribus privilégiées en Algérie. OP CIT. p.44.

تكون لها مكانة والرأي عند أعلى سلطة في دار السلطان في الجزائر، وهي عائلات غنية (غنى الأرض والتجارة)، يشتغلون في الصناعة والتجارة والتعليم، ويشرفون على تنظيم شؤون المدينة واحتلوا أهم المناصب الثانوية في أجهزة الحكم في البايليك، ونفس الملاحظة والكلام ينطبق على مدينة عنابة وبجاية فالمدن الساحلية استقطبت الأندلسيين والمسيحيين واليهود لقربها من التفاعلات الاقتصادية والحركة الاجتماعية كما أتيحت لهم منصب الباي مثل الباي رمضان بوشلاق⁽¹⁾ وفرحات باي⁽²⁾ ومحمد بن فرحات وأحمد بن خوجة باي ابن محمد بن فرحات حمودة باي، وأحمد باي المملوك 1818⁽³⁾، وعلي باي بن حمودة وغيرهم ويحتلون مناصب في ديوان الاوجاق⁽⁴⁾.

وركب الحج والمجلس الشرعي والديني لبالك قسنطينة الذي استحوذت عليه عائلة ابن الفقون والتي لعبت أكبر دور في الحرب والسلم في بايليك قسنطينة مثل ما قام به حسين باي بن حسن بوحناك استمال إليه خصوم صالح باي⁽⁵⁾، وقربهم منه، وهذا ما يجعلنا نقر بان أعيان البايليك كانوا يشاركون في مقاليد السلطة المحلية في بايليك قسنطينة⁽⁶⁾، بقى حق الكراغلة محتفظين ببعض حقوقهم، مثل حق الانخراط في صفوف الجيش الانكشاري الانكشاري وأهليتهم في شغل المناصب العليا، ومثال ذلك: باي الغرب مصطفى باي وباي التيطري محمد الذباح وباي قسنطينة الحاج أحمد باي⁽⁷⁾.

(1) - محمد صالح العنتري، تاريخ قسنطينة، ص 43.

(2) - كان ذا عقل ودار كبيرة، فاتفقوا عليه، وخبروا حضرة الباشا به فكتب له الأمر، وأرسل له القفطان، وفوض له الأمر، وأعانه بما يحتاج إليه فدخلوا الناس تحت طاعته، وأذعنوا لحكمه، وأذهب الله الفتن، والغلاء وكثر الرزق ونزلت العافية ولم يبق واحد من الرعية إلا ودخل تحت طاعته وعظم عائلة ابن الفقون التي وقفت إلى جانبه منذ البداية وحثت الناس على طاعته.

(3) - اسمه احمد باي، ولم يكن واحدا من المماليك تولى باي في زمن الترك إلا هذا لان حسن باشا قصد من ولايته نعمة في الترك لكونه من غير جنسيتهم، انظر محمد صالح العنتري، ص 109.

(4) - لفظ تركي معناه الأصلي: المكان المعد من الطين أو القرميد، الذي تنفخ وتشعل فيه النار. وتطور مدلوله ليطلق على الجماعة التي يتواجد أفرادها في مكان واحد، ثم على مجتمع أرباب الحرف، ليصبح في العصر العثماني لقباً لأصناف جند السلطة الذين تشكلت منهم القوات "البرية والبحرية". ومن هنا، فإن كلمة: أوجاقات، أو أوردي همايوني، اصطلاحاً يقصد بها الجيش العثماني، وبحسب التشكيلات العسكرية العثمانية المذكورة في قانون نامة.

(5) - عين محمد الشريف والد احمد باي خليفة، ورضوان قائد الدار وابن جلول بن سالم، باش كاتب، بن زكري باش سيار، وعين في منصب باش سايس أعوان آخرين من العائلة نفسها كذلك فعل مصطفى الخليل باي وكذلك ما قام به عصمان باي والملاحظ أن بايات قسنطينة كانوا يولون المناصب الديوان للعائلات الفاعلة وللمزيد ارجع لمحمد صالح العنتري تاريخ قسنطينة صص 85-86-87.

(6) - عبدالرزاق قشوان، السلطة المحلية في بايليك قسنطينة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر 2، 2010-2011، ص 68.

(7) - صالح عباد، مرجع سابق، ص 549.

ويمكن اعتبار فئة الكراغلة فئة لم تستغل كقوة بشرية فعالة لتنمية الترابط الاجتماعي الجزائري العثماني بل همشت وتركت منعزلة عن المجتمع ولم تحقق المصاهرة الفعلية، وقوضت إمكانياتها الفكرية والسياسية رغم الرفاهية التي كانت تتمتع بها، فالسلطة العثمانية نظرا للإحترازات التي كانت تضربها على هذه الفئة جعلتها تعيش بلا أمل في الحياة السياسية.

فئة اليهود:

بلغ عددهم يهود بايليك قسنطينة حسب بعض التقديرات 5000 يهودي⁽¹⁾، من بين 30000 يهودي على مستوى الأيالة⁽²⁾، كانوا يشكلون ملة غير الإسلام ولكنها ملة معترف بها، واليهود في الجزائر العثمانية لم يكونوا حديثي العهد بل قدماء عند التحاقهم بشمال إفريقيا في القرن الثامن قبل الميلاد، بعد أن تشتت صفوفهم في المشرق. ولقد ظهرت فئة جديدة نزحت من أوروبا الجنوبية بداية من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وركزت فئة اليهود في المدن الكبرى على الخصوص الساحلية والداخلية وبقت لهم ارتباطات مع يهود أصولهم، وقد بلغ عدد اليهود في بايليك قسنطينة ما يربو عن 5000 يهودي ولقد قدرت الباحثة إزابال قران قو (Isabelle Grangaud) ب1000 عائلة يهودية في بايليك قسنطينة⁽³⁾، وكانت لهم أنشطتهم وحرية مشاعرهم الدينية والمساهمة في الضرائب المفروضة عليهم من طرف السلطة، لكن السلطة تركت لهم مجال حياتهم إلا ما يرتبط بالسياسة فهم غير معنيين ومكتثرين بذلك مادام نشاطهم في إطار القانون المخول لهم محترم، لكن ارتباطهم بالتجارة جعلهم يكونون ثروة كبيرة هو ما أهلهم ان تكون لهم مكانة لائقة عند الحكام وخاصة عند شخصية الباي نفسه. فاحتكار التجارة أصبحت في أيديهم والارتباط مع الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية جعلهم يجرزون على قوة اقتصادية كبيرة في المضاربة والاحتكار.

لقد كان اليهود نادرا ما يلاحقون وكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم. فملبسهم جلباب ذو أكمام عريضة وحزام عريض وخناجر كبيرة جميلة، وفي الشتاء يلبسون سراويل تضيق عند ادني الركبة وأحذية توضع دون لمسها باليد ويلبسون دائما غطاء على الرأس ويبد وأن المرأة اليهودية يسمح لها بحرية بين العامة⁽⁴⁾، ويعينون من يمثلهم عند الباي ويعرف ذلك بالمقدم، يكلف بجمع الضرائب والرسوم والمطالبين بها وينال مقدم اليهود منصبه هذا مقابل تقديمه رسما للتولية يقدر ب 1000 فيساهم فيه جميع أفراد الجماعة اليهودية، وغالبا ما تتضاعف رسوم

(1)- اندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 203.

(2)- مرجع نفسه، ص 211.

(3)- Isabelle Grangaud, OP.CIT, p 183.

(4)- وليم سبنسر، مرجع سابق، ص 84.

التولية التي يحصل عليها البايليك، والخاصة من مقدم اليهود بعد أن أصبح هذا المنصب يتداول عليه شخصان في العام الواحد وبالإضافة إلى ذلك كان يحصل من اليهود على 500 فرنك إذا وافق موسم عيد الفطر يوم السبت.

فئة الدخلاء:

وبلغت تقديراتهم بـ 6000 عائلة⁽¹⁾ والتي تمثل الأقلية المسيحية والعبيد والأسرى وكانت المدن الساحلية أكثر عددا من هذه الفئة مثل بجاية وعنابة وجيجل، وازداد عددهم في أواخر العهد العثماني⁽²⁾ بسبب قلة الغزوات البحرية وتقلص عدد الأسرى ورواج التجارة الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط والانقلاب الاقتصادي الذي شهدته السواحل الجزائرية وبخاصة المدن مثل عنابة وبجاية وسكيكدة وازدهار تجارة المرجان في سواحل القل والشرقية منها⁽³⁾. و معظم هؤلاء الدخلاء إلى المدن هم من الأرياف المحيطة بالمدن التي يتواجدون فيها ويزداد عددهم كلما اشتدت الأزمات في الأرياف أو نقص مردود فلاحتهم. وكان لهم دور في تنشيط الحياة الاقتصادية مثل الخدمات التي يقومون بها من تنظيف الأحياء ونقل البضائع والاشتغال كمساعدين عند أصاب الحرف.

فئة البرانية:

وتشمل الجزائريين الذين هاجروا إلى المدن الكبرى واشتغلوا بالحرف كسكان بسكرة والاغواطيين وبني ميزاب والشعانية والزواوة وبني مرداس في عنابة⁽⁴⁾، في كثير من الأحيان يهجر سكان المدن والأرياف عن مواقعهم بسبب الاضطهاد من السلطة أثناء الحملات العسكرية لجباية الضرائب أو لعملية تأديبية من طرف الحكام أو لجائحة أو جفاف وغيرها من النوازل الطبيعية، يقول شارل: «...وبهذه الطريقة خلعت من سكانها كلية تقريبا، سهول عنابة بولاية قسنطينة، بسبب نزوح القبائل العربية عنها نتيجة لما تعرضوا له من الاستبداد الذي لم يكونوا يطيقونه، وفي الحالة الأخيرة، التجأ العرب إلى مملكة تونس...»⁽⁵⁾ يقول نصر الدين سعيدوني: «أما الجانب السلبي لتغيير البناء السكاني ل عنابة، فهو ناتج عن قدوم الجماعات السكانية التي كانت تعيش بضواحيها، ومع مرور الوقت بدأ

(1) - Isabelle Grangaud, OP.CIT, p183.

(2) - نصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 123.

(3) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في فترة 1792-1830، ط2، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص276.

(4) - سعيدوني (ناصر الدين) والبوعبدلي (المهدي)، الجزائر في العهد العثماني، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص-ص99-104.

(5) - شارل (وليم)، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824 متعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، 1982، ص109.

عدد كثير من أفراد هذه الجماعات يستقر داخل المدينة، وكانت هذه الجماعات في أغلبها تنتمي إلى قبيلة مرداس العربية التي قدمت مع الهجرة الهلالية إلى سهول عنابة منذ القرن الخامس الهجري، وكانت آنذاك ما تزال على حالة البداوة والخشونة، مما ترك أثرا سيئا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية لعنابه لكن ممارستهم للزراعة جعلهم يندمجون ويستقرون بفحوصها ويعمرون المناطق الفارغة لكنها بقت ضعيفة العمارة»⁽¹⁾ ومن هؤلاء من كانوا موسمين ومنهم من كان مستقرا في سكنه وعمله، كانت مدن بايليك قسنطينة مراكز مشاعة للحياة الاقتصادية والاجتماعية، فمنهم من أتقن الصناعة والتجارة واستقر في المدينة ونستشف ذلك من الأسماء والألقاب التي عرفوا بها فالتجار والصناع كانوا يعملون جنبا إلى جنب مع الطبقة الحضرية السائدة وبالخصوص في المدن الكبرى حيث كانت تلك الطبقة قوية التأثير من حيث العدد وهي تراقب أحواز المدن الكبرى مثل قسنطينة، وعنابة وبسكرة وبجاية حيث كان الباي والأعيان والتابعون للمخزن يملكون حسب إبراهيم باي⁽²⁾ أكثر من 83 منزلا فيقسنطينة. ففي مدينة قسنطينة صناعة الجلد لوحدها تتوفر على 33 معملا للصبغة و75 معملا للسراجين و167 للاسكافيين حيث يستغل حوالي 310 إلى 480 عاملا (أكثر من 10 من المائة من اليد العاملة الفعلية)⁽³⁾، وهؤلاء معظمهم من الوافدين من حواشي المدن والأرياف للمدن الكبرى وتعتبر قسنطينة نموذجا لهذه الظاهرة الاجتماعية.

وكان "ريض الكدية" خارج سور المدينة يقيم به الصناع بجانب الفنادق واصطبلات الباي، وهناك 18 مخزن لتوزيع الخبز على الجيش وبجانب الطواحين الهوائية هنالك 22 طاحونة مائية توفر الدقيق للفلاحين ويضاف إلى ذلك معمل الأسلحة التابع للباي الذي يشغل العشرات من العمال ومعامل الصوف والمعادن⁽⁴⁾، كانت فئة البرانية تغذي المدن الكبرى باليد العاملة، لكن مساكنهم هي ورشات عملهم أو أكواخ تنصب على أطراف المدن

(1) - نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 508.

(2) - نصب إبراهيم بوضبع بايا على قسنطينة يوم 28 من ذي الحجة 1206هـ الموافق ليوم 21 أوت 1792م وفي ليلة محرم 1207هـ الموافق ليوم 23 أوت 1792م، هجم عليه صالح باي ورفاقه وقتل هو الرجال الذين جاء بهم من الجزائر، وعاد صالح باي إلى السلطة مرة ثانية ولكن لمدة عشرة أيام فقط.

(3) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 204.

(4) - المرجع نفسه، ص 205.

وهذه الظاهرة كانت تعرف بما حل المدن ليس في الجزائر وإنما قديمة الوجود نظرا لارتفاع الحياة المعيشية في المدن.¹

سكان الريف في الشرق الجزائري:

المقصود بالريف خارج فحوص المدينة، أين تتبعثر السكنات ويصبح النسيج العمراني غير متصل، لكن الريف المقصود هنا أين تبدأ سلطة القبائل في المجال الواسع، ويصبح انتماء الفرد الى هذه القبيلة او العصابة التي ينتمي إليها وتوفر له أمنه وفيها يكون انتسابه ونشاطه ويقتضي الامر أن يدافع عليها باستماتة لأنه جبل على ذلك، فهل الحياة الاجتماعية في ريف الشرق الجزائري لها طبيعتها وميزتها، هل يمكن أن نقول في الشرق الجزائري مجموعة من الأرياف نظرا لخصائص المناطق الجغرافية المتميزة في الشرق الجزائري؟ وما هي قوة التفاعل بين الريف والمدينة وما أثر ذلك على الحياة الاجتماعية؟

أما الريف فكان يضم أغلب سكان الأيالة كما أشرت سابقا، والإشكال الذي يطرح بحدّة يتمثل ما هي المنهجية الأكثر توافقا لدراسة المجتمع الريفي، نظرا لتعدد أقاليمه واختلاف أنشطته وتباين مستوى معيشته، وهل مزاج سكان الأرياف واحدة أم تتحكم فيهم البيئة الطبيعية التي تنتمي إليها كل قبيلة؟ وبشكل آخر هل قبائل أرياف السواحل وقبائل الأطلس التلي وقبائل السهول العليا وقبائل الصحراء واحدة؟

إذا أردنا إسقاط نظرية "الإنسان ابن بيئته" فهذا يفسر لنا إن الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف جوهري، نظرا للبنية البشرية للسكان بين الشمال الشرق الجزائري وبين الجنوب وما بين السهول وبين الجبال.

ليس من المبالغة أن الريف في الشرق الجزائري هو صانع الأحداث، وعليه يكون الاعتماد الاقتصادي نظرا لقوة سكانه وقوة مصاهرته وتضافره وتماسك سكانه، لقد لعبت العصبية القبلية دور في الحياة السياسية والاقتصادية في الشرق الجزائر لقوة الترابط الاجتماعي الذي يجمعها، فإنها حافظت على كيانها وبقائها ولم تخضع للدوبان في الفترات المختلفة لتاريخ المنطقة⁽²⁾، ويمكن القول أن القبائل في الشرق الجزائري انقسمت في الفترة العثمانية إلى مجموعات، وهذه المجموعات حاولت المحافظة على حياتها من الدوبان في سلطة العثمانية وبذلك حافظت على موروثها الثقافي والديني والعادات والتقاليد التي أيامها وتحفل بطريقتها وتتآزر في محنها.

(1) - ازدادت هذه الظاهرة انتشارا بسبب التطورات التي شهدتها منطقة الشرق الجزائري أواخر الحكم العثماني و ظاهرة السلب و النهب التي كان يقوم بها الحكام و جور من كان له السلطة في التحكم في دواليب الاقتصاد .

(2) - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 278.

لكننا نلاحظ عدة مواقف مختلفة من التواجد العثماني في المنطقة، فمنها من قاطعت السلطة ولم تعترف بها واعتبرتها سلطة دخيلة ومستغلة وهذه المجموعة بقت بعيدة على يد السلطة العثمانية وأصبحت ممتنعة⁽¹⁾ عن دفع الضرائب وكان رد فعل السلطة تسيير نحوها المحلات العسكرية التأديبية وهنا زاد الانفصال والتباعد بين السلطة وهذه القبائل وهي القبائل التي تكون بعيدة عن مركز القرار في قسنطينة وتظهر في قبائل الاوراس و قبائل الحدود الجزائرية التونسية و قبائل الجبال الشمالية من البايليك⁽²⁾، يقول نصر الدين سعيدوني: «وقد عمد احمد باي المملوك أثناء هذه الحملة التي وقعت سنة 1815 إلى تخريب منطقة تقرت فبادر إلى قطع نخيلها وطمس مياهها، مما جعل محمد بن جلاب يسارع الى إرضائه وتقديم ضريبة سنوية له تقدر ب 100 ألف ريال بسيطة، وهو ضعف المبلغ الذي كان فرحات بن سعيد يعد الباي بتقديمه له مقابل حكم المنطقة، وذلك بعد أن تمكن الباي بالفعل من قطع حوالي 200 نخلة في فترة وجيزة».⁽³⁾ أما شاكر باي الذي شن حملة عسكرية على مناطق النمامشة سنة 1817 م اضطرت العديد من عشائرها مغادرة مواطنها قبل وصول الجند المهاجم. كذلك حملة الباي إبراهيم بن علي عام 1822م على قبائل النمامشة في الاوراس وقد استحوذ هذا الباي على 40000 راس من الغنم،⁽⁴⁾ وحملة الباي مصطفى الوزناجي عام 1797 على قبيلة الحراكنة وانتهت الى إخضاعهم والحصول على غنائم كبيرة.⁽⁵⁾ ان أصل السلطة العثمانية في هذه المناطق فرضت بالقوة وكانت مؤقتة في كثير من الاحيان ريثما تزول من هذه المناطق يكون استقلالها. فوضعها الاجتماعي كانت منغلقة على نفسها وتتاجر مع غيرها وتفرض سلطتها في رحاب تواجدها لها ثقافتها ولغة خطابها وزاويتها تعقد فيها مجالس الحرب والسلم وتتمتع بثقافتها وعاداتها

(1) - يقول صالح عباد لم كن علاقة النمامشة الرحل بالبايات في قسنطينة مختلفة عن علاقة الحنانشة بهم فقد كانوا دائمي العصيان نظم الباي شاكر باي عدة حملات ضدهم في حوالي سنة 1815 كما قام الحاج احمد باي بعدة غارات ضدهم حين كان قائدا على العواسي... فقد كان النمامشة مستقلين على الدوام تقريبا يجذبون اضطرابا على الحدود الجزائرية التونسية حتى الغزو الفرنسي الي اسدعي للمشاركة مع احمد باي فرفض ان تقف مع احمد باي (الحنانشة و النمامشة و الحراكنة) ص 355.

(2) - سعيدوني (ناصر الدين) والبوعبدلي (المهدي)، الجزائر في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 106.
(2) - شالر (وليم)، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824 متعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، 1982، ص 109.

(2) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 508.

(3) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 528.

(4) - Vayssettes (E). Histoire des derniers Beys de constantine. in Revue africaine. 1863. p 115.

(5) - نصرالدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 182.

وتقاليدها والمصاهرة فيما بينها، وإنها رعوية وذات زراعة معاشية الا في بعض المواد مثل التمور والصوف والجلود والصناعة النسيجية مثل الزرابي والبرنوس والقشابة وما احتاجت من الطلب.

تعتبر القبيلة البنية الاجتماعية ومصدر الاقتصاد في الريف في الشرق الجزائري، وبما أن معظم السكان في الفترة العثمانية في الشرق الجزائري سكان ريفيون (بنسبة 95%) فإن نشاطهم انصب على الإنتاج الزراعي والإنتاج الحيواني⁽¹⁾، وبعض الحرف التقليدية العتيقة بين القبائل، وذلك حسب موقعهم وجغرافية تواجدهم، وفيأواخر الفترة العثمانية؛ ساءت علاقتهم بالسلطة العثمانية، في معظم الأحيان نظرا لسياسة القمع التي مارسها بايات قسنطينة على هذه القبائل، لقد بقي نشاطهم التقليدي رهين العادات والتقاليد في الممارسة ولم يشهد تطورا في الأنشطة ولا في الصناعة ولا في الحياة المعيشية، ولم يشهد الريف أي نهضة اقتصادية تغير من أفكار المنتجين وهذا أصبح لا يتماشى ومتطلبات الحياة.

إن سياسة فرض الضرائب لم تعط بديلا، ولا تقنيا لتطورات الأحداث، بل تتزايد دون دراسة ميدانية، لمناطق جبايتها، لأن الطابع الإقطاعي سيطر على معظم المناطق الزراعية، التي منحت كامتيازات وأعطيات لموظفي النظام وللشخصيات النافذة ولشيوخ الزوايا والقبائل التي لها علاقة حسنة مع السلطة. ومن هنا نلاحظ تطور بعض القبائل والاملاك التي أصبحت في سلطتها بإيعاز من السلطة المركزية (سلطة الباي) ومنها قبائل المخزن.

قبائل المخزن وتطورها الإقطاعي في الشرق الجزائري نهاية الفترة العثمانية:

لقد كانت قبائل المخزن حلقة وصل بين الأهالي والحكام، ورابطة متينة شددت المحكوم بالحاكم وكانت قبائل المخزن تمثل ما بين 10 إلى 20% من سكان الريف الجزائري وكان الفلاح في عيش قاسي لكنه مرتبط بالاتفاقيات التي تحد من تصرفاته وكانت الحياة الريفية تتكيف أحيانا بالصفة المشتركة بحكم الملكية "العرش"⁽²⁾، أبتت تماسك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وذلك لمهامها الإدارية والعسكرية المنوطة بها⁽³⁾، وهي قبائل متعاونة مع السلطة وتكلف باستخلاص الضرائب وإيقاع العقاب على الممتنعين والمعادين لسلطة البايليك⁽⁴⁾، مقابل امتيازات مادية ومعنوية⁽⁵⁾، واختلفت تسميتهما من مكان لآخر، ومنها قبائل المخزن، وقبائل

(1) - محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية، مرجع سابق، ص 279.

(2) - اندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 210.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، الجزائر، م. و. ك، 1984، ص - ص 109-111.

(4) - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص 106.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، ص - ص 21-24.

العبيد وقبائل الزمول والدواوير⁽¹⁾، الشيء المشترك بين هذه القبائل هو الطابع الفلاحي الذي تنشط فيه والدور العسكري للسلطة العثمانية في البايليك⁽²⁾.

وهذا ما جعل الريف في الشرق الجزائري يساهم في السلطة المحلية،⁽³⁾ الذي تشكله القبائل، إلا أننا نلاحظ كثرة في عدد القبائل في الشرق الجزائري وهنا ليس جديد في الفترة العثمانية ولكنه موجود قبل دخول العثمانيين للشرق الجزائري، لكن السلطة العثمانية أوجدت نوعا من التفكيك في الوحدات القبلية التي كانت غير بارزة للعيان عن طريق سياسة فرق تسد، حتى وصلت إلى اصطناع قبائل جديدة من شتات من القبائل الأخرى كالفارين والباحثين للمغامرة والباحثين عن وظائف عن طريق تجنيدهم عند سوء الأوضاع الأمنية وهذا النوع من الاصطناع لقبائل مستحدثة في الفترة العثمانية لها ميزات وتباين في حياتها الاجتماعية نشاطها الاقتصادي ودورها السياسي والعسكريون المتمثلة في قبائل المخزن، يقول نصر الدين سعيدوني: «على أن قبائل المخزن على اختلاف مواطنها وألقابها لم يكتمل تبلور كيانها الاصطناعي واكتسابه مقومات القبيلة المتلاحمة، إلا بفضل سياسة مرسومة دأب الحكام الأتراك على إتباعها والأخذ بها»⁽⁴⁾، وحظيت هذه القبائل بعدة امتيازات مثل الضرائب الإضافية والاكتفاء بدفع الزكاة والعشور، وكانت أفراد العائلة التي تنتمي لقبائل المخزن تتمتع بالأمن والحماية عكس القبائل الأخرى التي كانت تعيش في خوف دائم من جراء الحملات العسكرية العثمانية خاصة في مواسم جمع الضرائب، وكانت تحتل المناطق والمراكز الاستراتيجية لضمان الأمن في الشرق الجزائري مثل قبيلة الزمول في الهضاب العليا وسفوح منطقة الأوراس الشمالية، إذ يقضي أحمد باي على ثورة الأوراس باستعماله هذه القبيلة (الزمول) ليطردهم قبيلة أولاد عبد النور ويشتتهم⁽⁵⁾.

لقد أصبحت قبائل المخزن تتمتع بمميزات خاصة نهاية الفترة العثمانية في الجزائر وفي بايليك قسنطينة على الخصوص، فنظرا لقلّة العنصر التركي في الجزائر، دفعت السلطة إلى استخدام قبائل المخزن كدعم لقوتهم التي عجزوا

(1) - ارزقي شويتام، مرجع سابق، ص 163.

(2) - Vayssettes E, histoire des derniers Beys de Constantine. OP CIT ,p24.

(3) - عبدالرزاق قشوان، السلطة المحلية في الشرق الجزائري، 1565 - 1837م، رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2011، ص 74.

(4) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 258.

(5) - المرجع نفسه، ص 270.

عن تقويتها من العنصر التركي والكراغلة خاصة أثناء الحرب، حيث أنخفض عدد الجنود الانكشارية الى حوالي 3661 جندي انكشاري سنة 1829 م⁽¹⁾.

لكن الظروف العسكرية والأحوال السياسية التي عاشتها الجزائر في أواخر الفترة العثمانية في الجزائر، والتي تميزت بكثرة الثورات والانتفاضات وانعدام الأمن واختلال التوازن بين الحاكم والمحكوم في البايليك وانحراف الموظفين والحكام الى الاستبداد وسوء الأحوال الاقتصادية وتردي القدرة المالية، ظهر تغيير في تملك أراضي البايليك، وإصدار عقود تصبح بمقتضاها الأراضي بأفراد المخزن ملكا شخصيا، وهو إجراء إداري وقانوني يسمح للحكام بتسليم مبالغ مالية ضخمة يزودون بها خزينة البايليك في وقت أصبح فيه المردود قليل واحتياجات السلطة كبيرة. لقد تحولت ملكية أراضي البايليك في معظمها الى أراضي خاصة، الشيء الذي زاد في نفوذ بعض العائلات المنتمية لقبائل المخزن تستأثر بالأراضي الواسعة وتصبح لها حق البيع والشراء وبها كونت أقطاعات من الأراضي⁽²⁾. السؤال الذي يطرح هو ما هي أصناف الإقطاع في الشرق الجزائري العثمانية؟ وما هي الفئات التي استأثرت بالأراضي الإقطاعية؟

إن السادة والإشراف وأصحاب المراكز الدينية والمشايخات الوراثية الموالية⁽³⁾ للعثمانيين والقادة العسكريون هي التي حظيت بهذه الملكيات. ومنه نجد ثلاث أصناف متباينة من هذه القبائل.

القبائل المتحالفة:

وهي القبائل التي تتعامل مع البايليك فتسقط عليهم الضرائب الإضافية⁽⁴⁾ كما تميز لإخلاصها وتعاونها مع السلطة، وتقدم مقابل كراء متعارف عليه عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين أصبحوا يحكم العادة يتوارثون حكمها⁽⁵⁾، فقد كانت العائلات التي تنتمي إلى قبائل المتحالفة تتمتع بالأمن والحرية والحماية من الغارات والتعديات التي تكاثرت في أواخر العهد العثماني وتنعم بحياة كريمة بما تدره من إنتاج أراضيها الخصبة وبما تتسلمه من أموال من قبائل الرعية المجاورة⁽⁶⁾، وكانت تقيم لكي تتولى مراقبة الطريق السلطاني الرابط بين دار السلطان وقسنطينة كما كانت تقوم بمراقبة طرق البايليك مثل طريق قسنطينة جيغل وبجاية وبسكرة وتبسة وباتنة وتحت

(1)- المرجع نفسه، ص 210-211.

(2)- ROZET (M). voyage dans la régence d'Alger. paris 1833. T3. P.198.

(3)- قبائل ال مقران و اولاد عزالدين و بن قانة .

(4)- الرسوم الإضافية تتمثل في الحكور والغرامة واللازمة وغيرها من الضرائب المختلفة.

(5)- صالح عباد، الجزائر في الحكم التركي، ص 109.

(6)- ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 266.

حراسة فرقة الزمالة والدواوير التي تعد من أهم الفرق⁽¹⁾ المرابطة بسهل عين مليلة⁽²⁾، تعد فرقة الزمالة والدواوير في المناطق، وكانت هذه القبائل بإمكانها تجنيد ستة آلاف فارس ومثلهم من المشاة⁽³⁾.

قبائل الرعية:

وهي بقية قبائل التي عانت كثيرا من تسلط الأتراك وحلفائهم الشيء الذي يدفعهم إلى الثورة في الكثير من الأحيان⁽⁴⁾، وكانت المناطق الجبلية أهلا لهذه القبائل وهي لا تعرف الضرائب وهي مناطق تلجأ إليها الفرق بقطع النظر عن لغتها وهي جبال القبائل حسنة الفلاحة، ويذكر "روزيت" أن المناطق الجبلية غنية بفلاحتها وإنتاجها المتنوع فيقول: «الأراضي الصالحة للاستغلال في ايدوغ وجبال القل وجيجل وعند القبائل بجرجرة وجبال البابور تكثر الأشجار المثمرة والزيتون»⁽⁵⁾، تجدر الإشارة إلى أن قبائل الرعية وإن كانت بعيدة ونائية عن البايليك إلا إن الظروف الاجتماعية جعلتها تقف ضد سلطة البايليك وهذا ما يفنده روزيت بقوله: «فالمجموعة القبائلية كانت ذات نظام بعيد عن نظام القبلي، وإنما هم جماعات من القوى لهم جماعة لها نفوذ إداري وسياسي مستقل، يسمح بتسيير الأراضي الشاسعة والفلاحة في انسجام وتناسق»⁽⁶⁾.

القبائل الممتنعة (البدو):

وهم الراضون الاعتراف بسلطة العثمانيين، فقد صنف فايسات (Vayssettes) سكان بايليك قسنطينة حسب العرق حيث قسمهم إلى ثلاثة أعراق متميزة في لغتهم والسلوك وثقافتهم وهذه الأصناف⁽⁷⁾ هي:

- 1- العرب وينتشرون في المنطقة الجنوبية للبايليك.
- 2- الشاوية ويتمركزون في المناطق الوسطى للبايليك.
- 3- القبائل يتمركزون في المناطق الساحلية الشمالية.

⁽¹⁾- Vayssettes E, OP.CIT ,p38.

⁽²⁾- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، مرجع سابق، ص167.

⁽³⁾-Vayssettes(E).OP.CIT, p39.

⁽⁴⁾-عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى غاية 1962، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2005، ص49.

⁽⁵⁾- ROZET(m).voyage dans la régence d'Alger. OP CIT.P.202.

⁽⁶⁾-أندري برنيان، مرجع سابق، ص191.

⁽⁷⁾- محمد صالح العنترى، مصدر سابق، ص28.

هؤلاء السكان ينقسمون إلى أعراش أو قبائل يشرف عليهم قائد أو شيخ كبير يتم تعيينه من طرف الباي⁽¹⁾ والقبيلة تنقسم إلى فرقة، بدورها تنقسم إلى دواوير (تجمع لعدة خيام)، وينقسم الدوار إلى عائلات والتي يتولاها رئيس البيت⁽²⁾، أما عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بهم فكانت لها الطابع التي ميز المجتمع الجزائري وصقلته الظروف التي كان يعيش فيها بحسب الموقع الجغرافي لكل إقليم من أقاليم البايليك، وكأنا نرى عدة الفئات لهذا نرى عدة مظاهر اجتماعية متدرجة اجتماعيا واقتصاديا.

عادة ما تكون القبائل المتاخمة للحدود الشرقية مع أيلة تونس وأطراف الصحراء منطقة الاوراس متفرقة نظرا لاتساع مجالها الجغرافي وانفتاحه، والدليل على ذلك بقت قبائل برمتها لا تعترف بالسلطة العثمانية طيلة تواجدها وخاصة تلك التي تقع في وسط الاوراس أو تقع في وسط جبال الأطلس التلي، في جبال القبائل أو جبال بجاية والقبائل، لأنها في مناطق منيعة بعيدة عن السلطة العثمانية ولم يكن للسلطة قوة تتمكنها من إلحاقها بها، وتركت على ما هي عليه في حرية من أمرها في اقتصادها وحياتها الاجتماعية التي وجدت فيها، وفي هذا الشأن يقول ناصر الدين سعيدوني في كتاب ورقات جزائرية: «كان بعض البايات يقومون بحملات واسعة النطاق يتعقبون أثناءها العشائر الممتنعة عن الجباية، وغالبا ما تنتهي هذه الحملات بالحصول على الغنائم الوفيرة والثروات الكبيرة»⁽³⁾. إذا كانت هذه القبائل بعيدة عن منأي السلطة العثمانية في بايليك الشرق فكيف يمكن إحصاء سكانها ومعرفة مداخلها. ومثل هذه القبائل كثر خاصة في المناطق الجبلية البعيدة عن يد السلطة ومعاونيه من القبائل الموالية أو قبائل المخزن.⁽⁴⁾

إن السكان في الشرق الجزائر لا يختلف عن بقية المناطق في الباياليك الأخرى في الجزائر وإنما الخاصية المتواجد فيه هو كثرة القبائل المكونة لهذه التجمعات السكانية المكونة بدورها لسكان الشرق الجزائري، فتحت عنوان تلاشي السلطة الإدارية وغياب الحكم المركزي بمنطقة الاوراس يقول ناصر الدين سعيدوني: «وهكذا تعزز استقلال المنطقة الأوراسية، بحيث أن الحفصيين رغم مد نفوذهم الى كل من بجاية ودلس وبسكرة، إلا أنهم لم

(1) - المقصود بالقبائل المخزنية والقبائل التي تتعاون مع السلطة العثمانية.

(2) - Vayssettes(E), OP.CIT, p26.

(3) - كانت تساهم قبيلة النمامشة ب 3.000 راس من الغنم كلما توجهت لها الحملات الفصلية هذا فضلا عن رسم التولية " الفرح" الذي يقدمه القائد مقابل علعة التولية و الذي يتجاوز 3.000 بوجو فضة .

(4) - قبيلة بن قانة التي استأثرت بحكم المنطقة الجنوبية الشرقية (سكرة) و نواحيها .

يتمكنوا من بسط نفوذهم على الأوراس، وذلك رغم المحاولات التي انتهى أغلبها بالفشل الذريع،⁽¹⁾ وبهذه المقاومة بقيت المنطقة الأوراسية ممتنعة حتى أثناء العهد العثماني الذي شهد هو الآخر شن حملات على الأوراس سواء من بايليك قسنطينة أو من الأيالة التونسية، وذلك للحد من الغارات التي كان يتعرض لها العديد من المسافرين والحجاج في طريقهم من المغربين الأقصى والأوسط نحو بلاد الجريد ومنها نحو الأقطار المشرق العربي... كل هذه العوامل عملت على إبقاء الأوراس محتفظا بوضعه الخاص المتميز باستقلال داخلي مما جعل الإدارة التركية لبابليك الشرق تلجأ لإقرار هيبتها وتأكيد سيطرتها على المناطق الجبلية من الأوراس إلى انتهاج عدة أساليب إدارية وإجراءات حربي...»⁽²⁾. هذا في المنطقة الجنوبية الشرقية لبابليك الشرق.

أما في الجنوب فنجد عدة حملات تآديبية يقوم بها الحكام العثمانيون على مدينة تقرت التي ضلت بعيدة عن الحكم العثماني، فحملة صالح رايس⁽³⁾ سنة 1552م تمكن من محاصرة المدينة وإرغامها على دفع غرامة لحكام الجزائر، والحملة الثانية في عهد يوسف باشا عام 1649م وفرض عليهم ضريبة سنوية في خمسة وأربعون فردا من الرقيق يتوزعون كالتالي خمسة وعشرون من ورقلة وستة عشر عبدا من تقرت وأربعة أفراد من العبيد من تماسين.⁽⁴⁾

ومجتمع الريف في الشرق الجزائري متميز في تركيبته البشرية، فالشاوية لهم طباعهم وتقاليدهم ونشاطهم بما جادت به الطبعة ورعي من خصائصهم والنسيج من مواد الصوف التي تجمع من جز الأغنام والوبر من تربية الإبل والحياة اليومية مظهر لهم وبيوتهم من طين ولبن وخيامهم من جلود ذبائحهم، تميز هؤلاء بالبساطة في العيش والقناعة بالقليل ويمكن ان نجمل القبائل الريفية على هذا النموذج،⁽⁵⁾ فشيخ القبيلة ومجلسه والزاوية والمسجد مقره

(1) - يقول صالح عباد: جمع احمد باي كل فرسان البابليك و تمكن من الحاق الهزيمة بهم، استول على اكثر من 21.000 راس من اغنامهم و خمسمائة جمل من جملهم.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص 428-429.

(3) - أسندت الدولة العثمانية بيلريكية الجزائر إلى صالح رايس في صفر 960هـ/يناير 1552م، بدلاً من حسن بن خير الدين بربوس فبعث السلطان العثماني مرسومه إلى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يُعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء في ذلك المرسوم حُرر في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق ليناير 1552م.

(4) - منطقة الجنوب الاوسط كانت متحاذبة بين بايليك الشرق و بابليك الغرب و في كثير كانت متمردة عن النظام التركي في الجزائر و ذلك وفق ميزان القوة التي يفرضها البايات على المنطقة.

(5) - لكل قبيلة خصوصياته و مميزاتها و يتبن ذلك حسب موقعها الجغرافي و نشاطها الاقتصادي الذي يتحكم في حياتها، و لكل قبيلة زاويتها و مسجدتها الذي يكون عادة مقر مجلسها .

والبقية إتباع يذودون لأوامر شيخهم ويتعلمون فإساسة التعامل والسياسة حسب قدراتهم والتلاحم والترابط والعصبية للقبلة من خدمتهم.

المبحث الثاني: الواقع الاجتماعي في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية.

الشأن الاجتماعي في الشرق الجزائري لم يكن من اختصاص السلطة المحلية، فلم يكن للسلطة الاهتمام الكبير لشؤون الفئات الاجتماعية كما أولت ذلك في الشأن الاقتصادي، لقد انصب اهتمام السلطة العثمانية بجانب الأمن والاستقرار وفضاء الشرق الجزائري وكل الإيالة الجزائرية، لم تدخر جهدا ليكون الأمن والاستقرار من مميزات المنطقة، فاهتمت بتقسيم المناطق وتهيئة الفرق العسكرية وأوجدت أجهزة تخدم بقائها وتحقيق أهدافها. فالجانب الاقتصادي وما يدر من أموال فهو في قمة اهتماماتها ومبلغ أهدافها⁽¹⁾، استولت على الأراضي الخصبة وجعلتها من أملاك البايليك وصادرت الأراضي للقبائل الممتنعة أو الراضة، وسيرت الحملات العسكرية وصادرت أمتعة وماشية القبائل بدعوى أنها لا تدفع مستحقات البايليك، وفرضت الضرائب واستحوذت على زكاة الفلاحين وعشورهم، واعتبرت ذلك من حقوق السلطة لأنها هي التي تفرض سلطانها على المنطقة.

واهتمت بالقضاء وتنظيم الأسواق والحرف وكل ما من شأنه يدر أموالا فجعلت له رقابة وعينت له موظفين، استغلت الطرق الصوفية وقربت مشايخها وأغدقت عليهم امتيازات إضافية مقابل ولاءهم ومنحتهم ترخيصات⁽²⁾، ونفس الأجراء كان في المدن مع العائلات ذات النفوذ والمكانة والعلماء والفقهاء ومن يعلن الولاء والخدمة للسلطة الباي حفته بالعناية والرعاية لأنه مبرحة للأموال. فهل كان كذلك للشأن الاجتماعي الذي يرفع من حياة الفرد في الشرق الجزائري، حين اطلعنا على ما كتبه المؤرخون لتلك الفترة من الجزائريين أو من الأجانب⁽³⁾.

السكن والعمران في الشرق الجزائري في الفترة العثمانية

إن السكن كمرفق اجتماعي يبرز درجة التطور في الحياة الاجتماعية وهو معيار لتصنيف قوة الرفاهية أو درجة الفقر في المجتمعات المتقدمة أو المجتمعات الريفية، إلا أن سكان المدن في أواخر الفترة العثمانية لا يعبر عن حقيقة الوضع لعدة اعتبارات منها تردي الأوضاع الاجتماعية وظهور الطابع الإقطاعي في ملكية الأراضي الزراعية

(1) - نصر الدين سعيدوني، وركات جزائرية، مرجع سابق، 346.

(2) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 196.

(3) - إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة 1830-1880، ترجمة، محمد عبد الكريم أوزغلة، المراجعة والإشراف مصطفى ماضي، دار القصبه للنشر، الجزائر 2007، ص 219.

والاحتكار الفاحش للتجارة الداخلية والخارجية وكثرة الأزمات الاقتصادية وفتور الفعل الإنتاجي وتغلب الطابع التقليدي في خدمة الأرض ونشاط الحرف وقلة تداول الأموال وارتفاع الضرائب وكساد السلع المحلية أمام تدفق السلع الأوروبية ذات الطابع الاستهلاكي⁽¹⁾.

إن المرافق العامة للسلطة العثمانية ارتبطت بقصر الداي الذي ما يزال ماثلا ليوما الحاضر وبالثكنات العسكرية التي كانت تأوي قوة الأفراد العاملين بها لكن المرافق الأخرى الاجتماعية الأخرى لا نجد منها إلا المرافق ذات الطابع الديني وهي نفسها لها الطابع التربوي والتعليمي المتمثلة في المساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب كانت بالقوة الكافية الفترة الأخيرة للتواجد العثماني في الشرق الجزائري⁽²⁾.

لقد كانت مدينة قسنطينة تشمل على 45 حي حسب دفتر الأحباس وتضم 50 بين شارع وزنقة وأربعة أحياء رئيسية تشمل في مجملها 17 حومة وتخللها المحلات وورشات،⁽³⁾ الحرف والمؤسسات التعليمية وعادة ما تكون لصيقة بالمساجد إن كانت منفصلة عنها والجدول التالي يبين لنا أهم الأحياء لمدينة قسنطينة بأعبارها عاصمة البايليك⁽⁴⁾.

جدول لقائمة أحياء مدينة قسنطينة⁽⁵⁾

الرقم	الحي الثانوي	الحي الرئيسي
01	حي ميللة الصغيرة	حي باب القنطر
02	حومة سيدي أبي معزة	
03	الحارة الحمراء	
04	حومة سيدي الجليس	
05	حومة الشارع	
06	حومة سيدي راشد	حي باب الجابية
07	حومة بير المناحل	

(1) - ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة 1830-1880، ترجمة، محمد عبد الكريم أوزغلة، المراجعة والإشراف، مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر 2007، ص 231.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 154.

(3) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، ص 346.

(4) - Isabelle Grangaud ; Laville Imprenable ; Une Histoire Sociale de Constantine au 18ème siecle ; Media-plus 2010 ; p 294.

(5) - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 350.

	حومة الطبالة	08
	حومة الشط	09
	حومة البطحا	10
حي الطابية	الطابية الكبيرة	11
	الطابية البرانية	12
	حومة الصواري	13
	حومة الموقف	14
	حومة المصاصة	15
حي القصبة	محلة العمامرة	16
	حومة قديدة	17

أما الأزقة والشوارع المكونة لهذه الأحياء فقد بلغت نحو 50 بين شارع ورتقة لكن ما يلاحظ ان هذه الاخيرة كانت ضيقة غير متسعة إلا التي كانت تفتح على الساحات العامة التي تمثل في غالب الأحيان الأسواق اليومية للمدينة والتي تعرض فيها السلع المنتجة من طرف الحرفيين او السلع التي تدخل المدينة من الفحوص والمناطق المجاورة والجدول التالي يبين لنا هذه الشوارع الرئيسية والأزقة في مدينة قسنطينة.¹

جدول لأهم الشوارع والأزقة في قسنطينة⁽²⁾

قائمة الشوارع والأزقة		قائمة الشوارع والأزقة	
رايعة البغلة	26	درج باب الجابية	01
رايعة البوي	27	رايعة ابن أبي الخير	02
رايعة الحجامين	28	رايعة ابن أبي القاسم الزلايق	03
رايعة الحدادين	29	رايعة ابن افوناس	04
رايعة الخراطين	30	رايعة ابن بلال	05
رايعة الدرداف	31	رايعة ابن تامر المزايي	06
رايعة الزقاق الضيق	32	رايعة ابن جلال	07
رايعة المايجوني	33	رايعة ابن داود	08
رايعة الملاح	34	رايعة ابن الدريجة	09

(1) - انظر مخطط مدينة قسنطينة (ملحق)

(2) - عبد القادر دحدوح، تاريخ وأثار مدينة قسنطينة، نو ميديا للطباعة والنشر والتوزيع، 2015، ص 341-344.

10	رايعة ابن كماد	35	رايعة عشابة
11	رايعة ابن مفتاح	36	رايعة الغالة
12	رايعة ابن مشعل	37	رايعة القايد ميمون
13	رايعة ابن عبد الجليل	38	رايعة قدا باباري
14	رايعة ابن عبد الواحد	39	رايعة السلاوي
15	رايعة ابن عبود	40	رايعة السواري
16	رايعة ابن عماد	41	رايعة الشواشين
17	رايعة ابن عناب	42	رايعة الواورتي
18	رايعة ابن القاضي	43	زققة البواهي
19	رايعة ابن الشهيد بمحلة المصاصة	44	زققة الحراني
20	رايعة ابن حيدر	45	زققة القرامدي
21	رايعة ابن هارون	46	زلاقة ابن زيان
22	رايعة أبي الحسن البوعكاكي	47	زلاقة الوشتاتي
23	رايعة أبي عبد الله محمد بن جلول	48	زقاق البلاط
24	رايعة أولاد ابن باديس	49	زقاق الطبل
25	رايعة أولاد عبد الصمد	50	شارع الزلاقة

من خلال الجدول يتبين لنا أهمية مدينة قسنطينة عاصمة بايليك الشرق الجزائري، فالإدارات والمؤسسات الحكومية لا تظهر إلا في قصر الداوي والشكنات العسكرية، والمرافق الاجتماعية التي كان يشرف عليها سكان المدينة في إطار العبادات أو تلقين الأولاد مبادئ الدين الإسلامي الأساسية،⁽¹⁾ ان الحرف رغم كثرة عددها وتنوع فروعها إلا إنها كانت عبارة عن محلات صغيرة لا تحتوي إلا بعض الأدوات اليدوية والأفران الصغيرة والمواد الأولية القليلة، وعدد عمالها لا يتجاوز عدد أصابع اليد، في المقابل نلاحظ قوة الأسواق، وهي عبارة عن عرض للمنتجات التي تصنع على أبواب المحلات فهي في نفس الوقت محل وعرض للبيع في معظمها، يتفق هذا التقسيم بما جاء في سجلات المحكمة الشرعية⁽²⁾، حيث يتبين من خلالها ان المدينة لم تكن مقسمة الى أحياء كبيرة تنضوي تحتها أحياء ثانوية فقط، إنما كانت هذه الأحياء الثانوية هي الأخرى مقسمة الى أحياء صغيرة ومثالنا على ذلك ما ورد في المجلد الأول من السجلات المذكورة أسماء لثلاثة أحياء متدرجة كما يلي:

(1) - عبدالقادر دحدوح، مرجع سابق، ص 372.

(2) - أيفون تيران، مرجع سابق، ص 178.

- 1- " حومة باب الجابية "
- 2- " حومة المزابل بباب الجابية "
- 3- " أقواس بن نجدة من حومة المزابل "
- 4- " محلة أقواس بن نجدة بالمزابل "
- 5- " حومة أقواس بن نجدة " (1).

إن المدينة وإن تزاومت بالأسواق والكوشات والحمامات والمساجد والزوايا والكتاتي على كثرتها إلا أنها تبقى بعيدة عن ما كانت الإمبراطورية العثمانية تشيده من شدة السيولة المالية التي كانت تتدفق من الأيالات والأقاليم العثمانية عن طريق الاستغلال الغير محدود وان سكان عاصمة الشرق الجزائري ليس بالعدد الكبير الذي تكون في المدن (2)، العثمانية في الحياة الحضرية كانت غير مزاحمة ذات علامات الثراء والتأثيث، فقد كان في بجاية مثلا 265 منزلا بمعدل منزل لكل 14 إلى 12 شخصا، وكانت المنازل ضخمة البناء ويتكون المنزل الواحد من عدة أقسام منها فناء في وسط المربع الشكل تحيط به الغرف، وبه قسم أرضي وطابق واحد وكانت الأروقة الدائرة بالفناء مقامة على الأعمدة (3).

أما منازل الطبقة الحاكمة تتميز بكثرة الترميق والتزييق من مواد باهظة وأعمدة الرخام والفسيفساء والخزف والاتساع في الغرف بالإضافة إلى الحنفيات والأحواض، وهناك عدد من الصناديق واللحاف والزربية والمساند البديع والمناضد وهي تميز البيت الذي يحوي دائما الشاي وآلة الطبخ برونزية ومحفظة نقود لربة البيت يغذيها الزوج بالمال (4).

لأن جل السكان كانوا يسكنون الأرياف. يقول نصر الدين سعيدوني: « حتى نبرز الأثر السليبي للنشاط العسكري للمخزن...، ففي بايليك الشرق مثلا، أدت حملة احمد المملوك باي قسنطينة عام 1816 على سلاطين بني جلاب بتقرت الى حصول على 10000 ريال بسيطة، كما نتج عنها قطع 200 نخلة » (5). و يقول أيضا « كما ان التصنيف يعطي لنا فكرة محددة عن مدى توغل نفوذ الحكم العثماني في الجزائر لا سيما وان هذا

(1) - عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 345.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 391.

(3) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 206.

(4) - المرجع نفسه، ص 207.

(5) - نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 554.

النفوذ لم يكن في يوم من الأيام ثابتا أو دائما على حال واحد وإنما كان يتوسع كلما قويت شوكة الحكومة وزاد نفوذها وأذعن الاهالي للرضوخ والطاعة ويتقلص كلما كثرت الثورات وشاعت الفوضى وضعف الحكام (1).

إن الوضع الذي انتهت إليه السلطة العثمانية ما وصفه الأستاذ، وهذا ما قوض وجودها في الكثير من المناطق في الشرق الجزائري إلا بحضور عسكري قوي لفترة آنية فقط. و ما يكن أن نستنتج أن هشاشة الحياة الاجتماعية في الريف، جعل السكان مهديين في كل أوقاتهم ما دامت الحملات لجباية الضرائب تزورهم مرتين في السنة إضافة الى الهجمات الخاصة والطارئة باسم تأديب القبائل، جعل مساكنهم عرضة للهدم والحرق والتدمير لذلك نجد معظم المنازل الريفية هشة فقيرة التأثيث بسيطة البناء.

أما سكان الأرياف فرغم غناهم من الثروة الإنتاجية الزراعية والحيوانية إلا أن السواد الأعظم كان يعيش على قوت يومه وهذا ما شجع البعض للانتماء لقبائل المخزن ليضمن بقاءه وبقاء حياة أولاده ولقد نجحت السلطة العثمانية في هذا الدور.

أما السكن في الأرياف فكانت متميزة فكان المخازنية والبدو بالجنوب يسكنون الخيام المترتبة من "الفليج" (2) وهي قطع صوف تقوم النسوة بنسجها من إنتاج الحيوانات وتغطي بها مساحات كبيرة وهي غالية السعر (عدة مئات الآلاف من الفرنكات) وكان المشتى يتركب من الخيام الأقل ثمنا وهي مساك الخماسية والعمال في "أحواش"، وأحيانا يتركب من الأكواخ من الخشب أو القصب وكان تأثيث المنازل رفيعا في الديار والخيام لدى الأغنياء الذين نعموا من عمل النسوة والعبيد ومن الأموال الخارجة من عوائد الأرض أو إعمالهم (3).

أما أكواخ الفلاحين فقد كانت لا تتوفر على أثاث وهم إذا وفروا لباسهم فهم يتدائنون لدى الإقطاعيين ويخضعون إليهم. وكان معاشهم من الكسكسي والكسرة ومن الموالح في الزيت والدلاع والقصوة والتبغ وشيء من اللحم، وفي الجنوب كانت قبائل البدو تضم أهل الواحات الذين دخلوا نظام الخماسة (4). ان البيت مظهر الرفاهة الاجتماعي، فالبادية رغم غناها الاقتصادي إلا أننا نلاحظ البؤس والفاقة على معظم الفئات الاجتماعية، ففئة الإقطاعية والحكام والذين يحتلون المراتب الاولى في السلطة هم أكثر امتلاك للثروة والثراء، لكن السواد الأعظم يعيش قوت يومه وان حصل. ان الملاحظ على الحياة الاجتماعية كانت عسيرة مما يضطر بالكثيرين إلى النزوح نحو

(1)- نفس المرجع، ص 556.

(2)- العمود الحشن الذي ترفع عليه الخيمة.

(3)- المرجع نفسه، ص 209.

(4)- أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 210.

المدن ليجد حرفة أو عملا يشفي رمق جوعه، والكثير منهم يخضع للمتطلبات الطارئة كعمليات الصخرة (التويضة) أو الأعمال الحربية كالتجنيد في صفوف الفرق العسكرية والانضمام إلى قبائل المخزن.

الكوارث الطبيعية في الفترة العثمانية وأثرها على المجتمع في الشرق الجزائري: أما الكوارث الطبيعية فتتمثل في المجاعة والجراد. وقد أصابا مقاطعة قسنطينة في الفترة التي ندرسها فالحقا أضرارا كبيرة بسكانها، وعني ابن العنزي بالكتابة عنهما فقال: «وقعت مجاعة شديدة وقحط مهول سنة 1219 هـ، أضرأ بأهل بلد قسنطينة ووطنها (كذا)، ودام الحال كذلك ثلاث سنوات متوالية»⁽¹⁾.

سبب هذه المجاعة مرض أصاب الزرع فأفسده، ثم جاء الجراد فأتم ما بقي، بالإضافة إلى الاضطرابات الناتجة عن الحروب المتتالية وانعدام الأمن الذي لم يشجع الناس على الحراثة (كذا) ولا على الاهتمام بالأرض. يقول ابن العنزي: "إن سبب القحط مركب من أمرين: أحدهما نزول الجائحة (كذا) في السنة الأولى وبقيت مستمرة في السنين بعدها والثاني وهو أعظمها، ترادف الإفتان⁽²⁾ (كذا) والأهوال التي لا تطمئن نفوس الناس للحراثة (كذا) معها"⁽³⁾.

إن الأوضاع التي مرت بها منطقة الشرق الجزائري من جراء الأوبئة، والمخاطر الطبيعية زاد في تدهور الأوضاع الاجتماعية، سوءا، وعدم اهتمام السلطة بالشؤون الاجتماعية زاد في مشقة المجتمع، لكن السلطة لم تكثر بذلك، بل اهتمامها الخاص هو جباية الضرائب، فالزكاة والعشور وان كانت من حقوق السلطة لتحقيق بهم الشأن الاجتماعي ومتطلبات المجتمع، وتقديم خدمات اجتماعية دائمة أو طارئة، ان الثورات التي ظهرت من حين لآخر دلالة على الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي أصبح المجتمع يعيشه، إن سياسة البايات لم تشفق على القبائل الراضة واعتبرتها متمردة وخارجة على سلطتها في تسيير عليها محلات عسكرية عقابية، تسلب منها ما استطاعت حملة وتشريد جموع القبائل وتركهم في أمر عسير.

الطبقات الاجتماعية في مدن الشرق الجزائري :

من خلال دراسة الحياة الاجتماعية ومستوى الدخل نستنتج مما سبق ان المجتمع المدن في الشرق الجزائري ينقسم الى ثلاث طبقات متميزة وذلك من خلال النشاط ومركز الوظائف والامتيازات التي كانت تميز دورهم ومكانتهم وهذه الطبقات هي:

(1) - محمد الصالح العنزي، القحط، ص 2.

(2) - الإفتان : المقصود بها الفتنة.

(3) - محمد الصالح العنزي، نفس المصدر، ص 15.

طبقة الحكام وكبار الموظفين: ويتمثلون في فئة الأتراك والكراغلة وضباط الجيش فكانت لهم الحظوة من الامتيازات وملكية الاراضي وتسخير البأساء من الناس في عمل السخرة ومعفيين من الضرائب بسبب الامتيازات المخول لهم وتضاف لهذه الفئة الأسر ذات النفوذ والتي تتوارث المناصب الإدارية وتسيير شؤون المدن.⁽¹⁾

الطبقة الوسطى: وهي أكثر اتساعا من الطبقة الاولى وتضم العلماء ورجال الدين في المساجد والزوايا وشيوخ الطرق الصوفية وجزء من الانكشارية والتجار وعدد من اليهود والمسيحيين الذين يزاولون التجارة.⁽²⁾

الطبقة الفقيرة: وهي أوسع وأكثر عددا وفيها عدة فئات مثل العبيد وأسرى الحرب والخدم وفئة الحرف الحقيمة والرعاة وفئة البطالين والصعاليك والذين لا يملكون قوت يومهم بسبب كسلهم أو فقرهم أو عاهات.⁽³⁾

إن الظروف الحياة أصبحت في أقصى درجاتها وأن المجتمع أضحي يعيش كل ألوان الضعف والجهل والاضطهاد وهذا ما شجعهم على التمرد واعلان الثورة بسبب جشع المسئولين والطموحين للمكاسب، وأن السلطة أصبحت في درجة الاتكال على الربيع الضريبي.

التركيبة الاجتماعية لقبائل الشرق الجزائري.

بناء سكان القبائل في الشرق الجزائري يتكون من أمازيغ وعناصر عربية تلاحقت عبر الفترات التاريخية المتتالية مع فئات قليلة من السود والأوربيين من مختلف الجنسيات الأوربية لكنها تبقى نسبتها قليلة،⁴ لكن هذه الفئات والأجناس تفاعلت واندجت اجتماعيا وأنجزت مظاهر حضارية مختلفة نمت وترعرعت، وتتألق التركيبة البشرية لعناصر السكان في الشرق الجزائري.⁽⁵⁾

1- الأسرة: وتتألف من الأب والأم والأبناء والأب هو الرئيس والموجه والمسير والممون والمخطط في كل الأشياء اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا في القضايا الخاصة والعامة. إن الأسرة هي الخلية الحية التي تساهم في تكوين الجماعات وتفاعلها في النشاط الاقتصادي، وتكون هذه الأسرة تحت إشراف الوالد أو الأخ الأكبر فيما يخص علاقاتها اليومية مع المحيط الخارجي. أما في داخل الديار، فإن الأم أو الأخت الكبرى هي صاحبة الأمر والنهي. وإذا كان الأمر يتعلق بشؤون بالغة الأهمية مثل الزواج والطلاق أو البيع والشراء، إنه المسئول الأول يعقد مجلسا

(1) - صالح عباد، مرجع سابق ص 459.

(2) - نفس المرجع، ص 461.

(3) - الشيخ احمد الشريف الأطرش السنوسي، مرجع سابق، ص 368-369.

(4) - ارزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته، مرجع سابق، ص 76.

(5) - نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 342.

عائليا يستمع لآراء جميع الأفراد الراشدين. ولذلك كان نظام الأسرة تشاوري على الرغم من مظهره الديكتاتوري أو الأبوي.

2- القبيلة: وتأتي بعد الأسرة كمجموعة أوسع وتتألف من مجموعة أسر تنحدر من نسب واحد ويختلف حجمها حسب عدد الأسر وتفرعاتها التي تنشأ عنها وتشارك في عاداتها وتقاليدها وأعرافها الاجتماعية والتي تشمل على عدد من "الكوانين" يتراوح ما بين العشرة والثلاثين، ويتميز بكثرة المال وكبر السن والاطلاع على شؤون القبيلة ويتميز بالحكمة وسداد الرأي، وكثيرا ما لا تتوفر هذه الصفات إلا في أكبرهم سنا وهو الممثل لها مع القبائل الأخرى ويدافع عن مصالحها⁽¹⁾.

3- العشيرة: وتأتي بعد القبيلة في الكبر والحجم وتتألف من مجموعة من القبائل متعددة تنحدر من أصل واحد بعيد، والعشيرة منطقة جغرافية أوسع من القبيلة وتتألف منها عدة قرى ومداشر وربما دوائر بحالها⁽²⁾.

4- العرش: يتألف العرش من مجموعة من القبائل وعشائر مختلفة ولكل زعيمها، ويمثلها مجلس العرش ويدافع عن مصالحها، ويطلق عليه عدة ألقاب مثل الأمين وأحيانا الكبير وأحيانا الوكيل وبعضها الرئيس وتنتخب هذه الشخصية من بين الأكبر سنا والتجربة والثقافة والوعي والشرف والشجاعة والغنى ومن مجموعة الأعراش⁽³⁾.

5- القرية: وتتألف من مجموعة أعراش تكون القرية ومنها عرش الماين، وعرش أولاد سيدي إيدير وعرش الجعافرة وعرش تفوق وعرش أولاد حالة وعرش بوندة وعرش أوشانن (الذئاب) وعرش القلة وعرش أولاد زايد وعرش أولاد خليفة⁽⁴⁾.

إن البنيات الاجتماعية في الشرق الجزائري تختلف اختلافا كبيرا من منطقة لأخرى نظرا لتباين الظروف الطبيعية والاقتصادية المتحركة في الحياة اليومية للسكان بل إنها تكاد تكون واحدة بالنسبة لجميع السكان بحسب موقعها الجغرافي. وكانت الأعراش تجتمع فيما بينها فتكون القبيلة التي تعتبر وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، تسير تسييرا جماعيا، لأن الأعيان هم الذين يختارون القائد ويقررون معه في جميع المسائل الخطيرة.

و في بعض الأحيان تتحالف القبائل فيما بينها، وتكون ما يسمى بالصف (الكنفدراليات القبلية) وهي قوة عسكرية ضاربة تقف في وجه كل من اعتدى على أي واحد من الأطراف المشاركة في الحلف. وإن هذه الصفوف

(1) يحي بوعزيز، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، مجلة الثقافة،

تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، العدد 80 سنة 1984، ص 161.

(2) المرجع نفسه، ص 162.

(3) - المرجع نفسه، ص 163.

(4) - المرجع السابق، ص 164.

هي التي يطلق عليها بعض المؤرخين الفرنسيين تسمية "الكنفدراليات" ويعتبرونها دويلات مستقلة في الجزائر، وهو خطأ لأن هذه الصنوف تابعة للنظام المركزي، تلجأ إليه في جميع القضايا التي تترتب عليها يصعب عليها تسويتها، كما أنها تدفع ما يترتب عليها من رسوم قانونية، وإن كانت تتمرد من حين لآخر شأنها ذلك طبيعي.

كان المجتمع القبلي في الشرق الجزائري مجتمعاً غير طبقي على غرار ما كان شائعاً في أوروبا ذلك الحين. وغاية ما هناك، أن بعض القبائل تحظى بأنواع من الامتيازات الإدارية كالإعفاء من الضرائب بالنسبة لقبائل المخزن،¹ وغيرها من القبائل الموالية أو المتحالفة مع السلطة العثمانية فكانت علاقاتها مرتبطة بمصالح متبادلة اجتماعية واقتصادية وأمنية. فالاحترام المتبادل في كثير من الأوقات بالنسبة للقبائل التي تشمل على أسر الكبيرة والتي لها نفوذ مثل قبيلة الحنانشة وقبيلة الذواودة وقبيلة الحراكنة وقبيلة بني جلاب وقبيلة أولاد عبدانور وقبيلة بن قانة. ولكن هذه الامتيازات لم تكن أبدية، كما أن القبائل التي تتمتع بها قبائل منتجة كغيرها تعيش من كدها ونشاطها.⁽²⁾

إن الوضع الاجتماعي لم يكن في مستوى الرفاهية في الريف، بل كانت ظروفه صعبة نظراً لعدم توفر المرافق الاجتماعية التي تحمل عناء الأفراد وشقائهم فالحروب الدائمة والمستمرة والحملات العسكرية المتتالية وانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية، والجفاف والقحط كانت هي سمة الأوضاع العامة في الشرق الجزائري نهاية الفترة العثمانية. والأكثر من ذلك أن السلطة العثمانية لم ترقى إلى درجة الاهتمام بالشؤون الاجتماعية بل تركت ذلك في أيدي رؤساء القبائل كممثلين لهم لكن هؤلاء اتبعوا سياسية من سبقوهم عن طريق الملاينة والمداهنة وشراء المناصب والولاء للسلطة لكي يحققوا امتيازاتهم المادية وهذا ما جعل المجتمع الريفي متحد في إطار القبيلة لا يتعداه إلى مستوى أوسع ليحقق نهضة علمية واقتصادية وثقافية تسير الركب الحضاري الذي كانت تعيشه أوروبا في تلك الفترة.⁽³⁾

المرأة ومكانتها في المجتمع في الشرق الجزائري في الفترة العثمانية

إن منزلة المرأة فهي سيدة بيت لكنها محجوبة عن الشارع ومحرومة من الشغل في المدن⁽⁴⁾، فالمسلمات في المدن لا يجدن حرجاً في تكليف الرجل بالمهام خارج البيت، يقول أبو القاسم سعد الله "ولعل من سيئات

(1) - قبائل المخزن قبائل مصطنعة من طرف النظام العثماني موالية له و تدعمه و لها امتيازات تحقق من ورائها متطلبات عيشها و تستدعى من طرف السلطة عند التمرد او الثوران الداخلي .

(2) - وليم شالر، مراجع سابق، ص 76.

(3) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 48.

(4) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 211.

العهد العثماني أيضا عدم إعطاء المرأة نصيبها من التعليم، رغم أن هذه المسألة ليست خاصة بالجزائر فالظاهرة إنَّها كانت فيها أكثر حدة. ذلك إنَّ المرأة الجزائرية المسلمة كأنَّها كانت غائبة طيلة هذا العهد على الساحة السياسية⁽¹⁾، أما وليم شالر فنصّل أمريكا فلم يذكر عن المرأة سوى اللباس والجمال وطريقة الزواج والتخطيط والتحضير حيث يقول: "والمرأة الجزائرية تعتنى خاصة بشعرها... والمرأة الجزائر تلبس الحلي الثقيلة، بما في ذلك خواتم وأقراط الذهب وأساور وخلاص من الذهب والفضة"⁽²⁾.

لكن هذا الحكم غير نهائي بل يسرد علينا أبو القاسم سعد الله جملة من العلماء والنصوص على تعلم المرأة⁽³⁾ فيقول: "تحتل المرأة في الأيالة مرتبة ثانوية في كثير من الأحيان"⁽⁴⁾. فهي لا تستطيع الحصول على قوتها إلا بمساعدة الرجل. ومهمتها الأساسية في البيت إنجاب الأطفال وحلب الأبقار والأغنام والماعز والاشتغال بصناعة الطرز على الحرير والجلد، وفي البادية جلب الحطب وتتبع الحصادين لجمع السنابل، ونسج الأصواف. ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى المدارس على الرغم من انتشارها في كامل أنحاء البلاد، لأنَّ عامة الأهالي يرون من العيب أن تتعلم البنت القراءة والكتابة حتى لا يكون لها اتصال بالخارج. وقد شذت عن هذا الوضع بعض بنات الأغنياء الذين كانوا يحضرون المعلم إلى بيوتهم أو بنات المعلمين أنفسهم. ولذلك نجد، من حين لآخر فتاة متعلمة، سواء كانوا يسكنون المدن أو الأرياف. بالإضافة إلى هذا نجد زواج المرأة المبكر أحجم عليها طلب العلم وهذا ما يجعلها لا تظهر بقوة في المجالس أو في النوادي لطابع المجتمع المحافظ، وكثيرا ما لعبت المرأة دور اجتماعي وسياسي مثل ارتباط القبيلة بسلطة البايليك ومثال ذلك المصاهرة التي تمت بين أحمد القلي وصالح باي⁽⁵⁾.

(1) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 336.

(2) - وليم شالر، مراجع سابق، ص 85.

(3) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 337.

(4) - حمدان بن عثمان خوجة، ص 33.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، ص 305.

المبحث الثالث: التفاعل بين الفئات الاجتماعية في الشرق الجزائري.

اعتبرت السلطة نفسها غائبة عن توفير الأسس والمرافق الاجتماعية وتركت ذلك بين فئات المجتمع يتفاعل فيما بينهم لتحقيق الظروف التي تخصهم والتي اعتبروها من إرثهم التاريخي والحضاري إلا ان ذلك لا يمنعها من المراقبة والتدخل حين تلاحظ ان أمنها في خطر، أو أن هناك مصدر ما يمكنه أن ينفعها ماليا، فلا تدخر جهدا إلا ووصلت إليه وهذا ما سوف نريد توضيحه في هذا المبحث والذي يشمل مجال التعليم والقضاء والصحة.

التفاعل الديني والتعليمي في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية:

اجتمع في الشرق الجزائري كبقية المجتمع الجزائري مسلم العقيدة وعربي اللسان عريق في الحضارة العربية الإسلامية، وأن تأصيل الدين الإسلامي فيه كانت قناعة، لذلك كانت من اهتماماته حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية بقواعدها وآدابها، لذلك بقيت هذه المقومات محفوظة لدى السكان والأسر، وتمسك السكان بالدين والعمل على تطبيق أركانه وتبني مبادئه وتطبيقها في العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات بين الأفراد مثل الإرث والزواج والطلاق والشفعة والرهن تلك هي مواصفات المجتمع في الشرق الجزائري. وهي الأسباب التي تركت للقائمين بهذا الشأن مكانة عالية ومركز محترم بين الوظائف، مثل القاضي، والمفتي، ومعلم القرآن الكريم⁽¹⁾.

كان التعليم نهاية الفترة العثمانية في الشرق الجزائري مقسما إلى ثلاث مراحل مترابطة متدرجة، كانت المناطق لا تخلو من زاوية أو مسجد أو مصلى،⁽²⁾ ولا تجد بيتا إلا وكان في القرآن الكريم في كتاب أو يقرأ في كل مناسبة، حتى أن تعدادها لم يكن بالشيء الهين لكنها حسب المنطقة وتعداد سكانها وقوة المرادين لهذه البيوت، فالمدن ليست كالريف، ومكانة المدن تختلف بدرجة سكانها وفئات القاطنين فيها. وهذا ما يميز أهمية الحياة الاجتماعية من منطقة لأخرى ومستوى الثقافة والعلوم التي تؤهل هذه الزاوية عن الأخرى. فمدينة قسنطينة استقطبت جميع الفئات الاجتماعية والعرقية لأنها عاصمة البايليك،⁽³⁾ لذلك تحتل المرتبة الأولى في المؤسسات التعليمية، عددا ومستوى تعليمي، لكن الشيء الملاحظ أن التعليم لم يكن منظما تنظيما مركزيا من طرف السلطة، فلم تمنعه ولكن لم تساهم فيه إلا المساهمات الشخصية،⁽⁴⁾ أي لا تتدخل الدولة في تمويل أو تمويل

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 204 .

(2) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 263.

(3) - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 361.

(4) - وليم شالر، مصدر سابق، ص 46 .

المؤسسات التعليمية، وفي المقابل تراقب كل التحركات للشأن التعليمي، لضرورة أمنية، لذلك نلاحظ ثلاث مستويات هامة أو مراحل تعليمية هي:

المرحلة الأولى: وهي للعامية للبنات والبنين والكبار والصغار وهي منتشرة في ربوع الشرق الجزائري برمته، يتم فيها حفظ القرآن الكريم وتعلم الحروف الهجائية والقراءة والكتابة، ويجرى تحفيظ القرآن، على الألواح الخشبية مستعملين أقلام من القصب وحرير من بقايا الصوف المحروقة تضاف لها قليل من الماء، وتكون القراءة جهوية جماعية في قاعة مفروشة بالحصير، تتناقص أعداد البنات كلما زاد سنهن بسبب قبولهن على سن الزواج وكان في سن مبكر، وكانت لا تخلو منطقة أو حي من هذا النشاط الاجتماعي، وهو ضروري لاستكمال الفرد دينه لان الصلاة تتطلب آيات وسور من القرآن الكريم لأدائها.

المرحلة الثانية: يتم فيها حفظ العلوم عن طريق ألفية ابن مالك والأجرومية وابن عاشر والشاطبية، ثم تشرح للطلبة من طرف العلماء والمعلمين وتدرس علوم اللغة والصرف والنحو واختصت هذه المرحلة الزوايا والمساجد الكبيرة والمعمرات وتكون مقرا لإقامتهم ومزاوتهم لتلقي العلم، وتختص بالبنين دون البنات وتشد لها الرحال خاصة في المدن الكبرى.

المرحلة الثالثة: ت يتم فيها التعمق في الفقه والفتوى والتشريع الذي يلعب دورا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع.

عموما فالتعليم كان يتمحور حول القرآن الكريم ودراسته وحديث ولغة القرآن وبعض العلوم الدينية والحساب الأخرى، واعتمد على اللغة العربية وحدها.

وما نلخصه أن التعليم حتى 1830 كان متروكا للوالدين أو للمؤسسات الدينية، أما تمويله فقد كانت تتكفل به الأوقاف الإسلامية وكان مجانيا، ورغم تدعيم الحكام الأتراك للتعليم أحيانا بالتبرعات والأوقاف وبناء المساجد أحيانا إلا أنها كانت مبادرات شخصية⁽¹⁾، فالعثمانيون لم تكن لهم في الجزائر سياسة للتعليم ولا خطة رسمية لتشجيعه وتطويره وتوجيهه إلا أن ذلك لم يمنع من طلب العلم بل تركوا الحبل في يد السكان حسب تعبير أبو القاسم سعد الله⁽²⁾.

⁽¹⁾ - أنشأه صالح باي بن مصطفى الداوي تولى حكم قسنطينة من عام 1185 إلى عام 1207هـ/ 1771-1792م كما أنشأ بجانبه المدرسة الموجودة إلى اليوم في عام 1202هـ. وجامع الباي حسين أيضا من أهم مساجد المدينة وهذه المساجد كانت مراكز للتعليم والعبادة.

⁽²⁾ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص321.

فإن أغلبية الجزائريين مسلمون على المذهب المالكي. والإسلام بالنسبة إليهم أهم مصدر يأخذون منه تشريعاتهم ويننون عليه علاقاتهم الاجتماعية. غير أن كثيرا منهم في الفترة الأخيرة؛ قد انقاد للشعوذة وصار يؤمن بالخرافات التي ينشرها بعض رجال الطرق باسم الدين. ولم تحارب السلطات هذه الأوضاع فاستفحل أمرها وصارت مبعثا للقلاقل والفوضى التي ساهمت في عرقلة نمو البلاد نموا طبيعيا⁽¹⁾.

المعالم الدينية والتعليمية في مدينة قسنطينة:

لقد اختلفت الدراسات في تقدير عدد المساجد بمدينة قسنطينة خلال الفترة العثمانية، حيث كان عددها حسب وثيقة عثر عليها الأستاذ أبو القاسم سعد الله ترجع لسنة 1006 هـ / 1598 م ، ب 71 مسجدا⁽²⁾. و في عهد الصالح باي (1185-1207 هـ / 1771-1792م)، وحسب ما جاء في مقدمة دفتر أوقافه قدرها شارل فيرو (Féraud) بخمسة وسبعين مسجدا داخل مدينة قسنطينة وخمسة مساجد خارج المدينة⁽³⁾ أما اميرت (Emérite) فإنه أحصى عددها يصل إلى 35 مسجدا فقط⁽⁴⁾. وفي وثيقة أخرى. يبدو إنها ترجع إلى فترة متأخرة بعد الدخول الفرنسي. نشرها الدكتور عميرايو أحميدة تضم 63 مسجدا⁽⁵⁾. في حين حدد مرسبي (Mercier) أن عدد المساجد في قسنطينة ب 69 مسجدا داخل أسوار المدينة⁽⁶⁾. ولم تكن أسس المجتمع دينية فحسب بل هي معطيات تعليمية وتنظيمية وتشريعية وعلاقات اجتماعية موضوعية⁽⁷⁾، وكانت فلاحية الحبوب وتربية المواشي تمكن أصحابها من استغلال العروش التي ترجع إليهم المخزن أو بعض قبائل الرعية أو إلى المخزن وكانوا منتمين إلى المخزن وكانوا يضعون المعاهدات بينهم وبين كبار الفلاحين في موضوع المراعي (العشابة)

(1) - محمد الصالح بن العنتري، "القحط والمسبغة في بلد قسنطينة"، مخطوط وضعه صاحبه يوم 17 مارس سنة 1870 صفحة 3

(2) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 - 20 م)، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 246.48

(3) - Féraud. ch. « Les Anciens Etablissements Religieux musulmans De Constantine » in Revue Africaine ; 1968 ; p 123.

(4) - Emerit. M. L'Algérie à l'Époque d'Abdelkader ; Paris ; S. D ; p 235.

(5) - أحميدة العمراوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر 2004، ص 150-153.

(6) - Mercier. E. Constantine Avant La Conquête op.cit ; p 66-67-76- ; 81-86.

(7) - فلة موساوي القشاعي، الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا، أواخر العهد العثماني 1771 - 1837م، دبلوم الدراسات

المعمقة، ص 206.

وهو ما يسمح لهم بجلب قطعان الماشية للرعي في الأراضي مقابل عملهم⁽¹⁾، وتتميز به منطقة الهضاب العليا حيث الأراضي الواسعة لزراعة الحبوب، وهي أوفر ربحاً وأكثر اتساعاً⁽²⁾.

وكانت الحياة الثقافية الإسلامية هي الرابط بين هذا المجتمع، تجمع تحت لوائها 99% من السكان لأن الأقليات اليهودية والمسيحية كانت تمثل نسبة قليلة من مجموع سكان البايليك الريفي، وجلهم استقروا في الحواضر الكبرى للبايليك.

يرى روزيت (Rosette)⁽³⁾ في كتابه رحلة في البلاد الجزائرية سنة 1833م أن هذا الشعب له من التربية التربية ما قديفوق الشعب الفرنسي، فكانت أغلبية الناس تعرف القراءة والكتابة والحساب وهو كذلك رأي "فلسين استرهازي" عندما يذكر أن نسبة غير متعلمين كانت اقل مما كانت عليه في فرنسا تتجاوز نسبة 40% والشاهد على ذلك توقيع الناس إمضاءاتهم في دفاتر الحالة المدنية باللغة العربية في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، ففي المدن كان الأطفال يتعلمون في المدارس والمساجد والكتاب⁽⁴⁾، حيث كانوا يتلقون علوم القرآن واللغة العربية وكانوا وكانوا يتخرجون من تلك المدارس ثم يتولون تعليمهم بأنفسهم، وكانت الميزانية هذه المؤسسات هي منعواد الحبوس والوقف التي تشرف عليها الفرق الدينية.

وكانت المدن الكبرى مراكز دينية وثقافية وبالخصوص قسنطينة⁽⁵⁾، ومن أهم المنشآت الدينية في البايليك نذكر مدينة قسنطينة التي ذكرها الرحالة الورتلاني في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي أنها تضم خمسة مساجد جمعة متقنة البناء⁽⁶⁾، وبلغ عدد الزوايا في مدينة قسنطينة لوحدها 16 زاوية وبلغت زوايا بجاية وزواوة وزواوة 50 زاوية⁽⁷⁾، وبلغ عدد المدارس في مدينة قسنطينة حوالي تسعون مدرسة عند الاحتلال الفرنسي لها⁽¹⁾،

(1) - نفسه ص 209.

(2) - نفسه، ص 209.

(3) - كتب عن التعليم في الجزائر في الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر وخاصة في مدينة ندرومة التابعة لولاية تلمسان اليوم سنة 1833.

(4) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 210.

(5) - المرجع نفسه، ص 213.

(6) - أشهر هذه المساجد الجامع الكبير فقد بناه الباي أحسن بو حنك كانت منارته تبلغ خمسة وعشرون مترا وعند بابه لوحة منقوشة وجامع السوق الغزل فقد بناه الباي حسين ب وكمية وهو جامع للمذهب الحنفي جميل الشكل والهندسة وجامع سيدي الكتاني فقد بناه صالح باي وبني جامع آخر في عنابة وجامع القصبية وجامع سيدي علي بن خلوف.

(7) - Féraud, (ch.). « Tournée dans la Province de Constantine ». R.A; Année; 1868. 1868. Volume 12, p47.

وكانت عمليات الإشراف والتعاون والإدارة التشريعية تتلقى المدد المالي من عوائد الحبوس وهناك العديد من الزوايا التي أخذت عن عائقها مهمة جمع الزكاة وإعانة المساكين وإعانة المرضى والعجزة، وكان الحبوس عمدة في إنقاذ من كانوا لا يجدون قوتهم وبدونها يهلكون، وكان العديد من شيوخ الزوايا يداوون المرضى بالطرق التقليدية البدائية باسم البركة، مثل الأدعية والأحجبة وبصاق الأولياء وتمايم والسحرة والمشعوذين⁽²⁾، كان المظهر الإسلامي للمجتمع بارز الوجود في خاصية المساواة والتسامح وهو ما يعود إلى المفهوم الديني للتنظيم الاجتماعي.

فقد جاء في مخطوط دفتر الأحباس ذكر 78 مسجدا منها مسجدان جامعان، وهما الجامع الكبير بالبطحاء وجامع القصبه وكلاهما يرجع إلى فترات سابقة للعهد العثمانيو فيما يلي قائمة المساجد المستخرجة من دفتر الأحباس.

الجدول لقائمة مساجد مدينة قسنطينة المذكورة في دفتر الأحباس⁽³⁾:

قائمة المساجد		قائمة المساجد		قائمة المساجد	
مسجد الراشدي	53	مسجد ابن حيدان	27	الجامع الأعظم	01
مسجد المتوسين	54	مسجد ابن الريم	28	الجامع الأعظم بالقصبه	02
مسجد الزكيكي	55	مسجد ابن الطنجية	29	مسجد ابن أبي رعدة	03
مسجد زقاق البلاط	56	مسجد ابن منديل	30	مسجد ابن أبي العباس	04
مسجد الطبالة	57	مسجد ابن علناس	31	مسجد ابن باديس	05
مسجد الكتاني	58	مسجد ابن عنابة	32	مسجد ابن تترارة	06
مسجد كرامة	59	مسجد الخرازين	34	مسجد ابن حسون	07
مسجد زاوية سابط الهراصي	60	مسجد الخضار ين	35	مسجد ابن قومة	08
مسجد المناققي	61	مسجد الفصيلي	36	مسجد ابن قموش	09
مسجد مقصد صنهاجة	62	مسجد القروي	37	مسجد ابن هجام	10

(1) - وقد ذكر فايسات أن مساجد قسنطينة قد بلغت حوالي مائة مسجد وزاوية، أما "إمرت" فقد اخبر أن عدد مساجد قسنطينة قد بلغ 35 مسجدا. وجاء في تقرير الذي أعده روس والفرنسي غداة الاحتلال الفرنسي لقسنطينة سنة 1837 أنه كان بها حوالي مائة مسجد.

(2) - سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج 1، بيروت، ص 167.

(3) - عبدالقادر دحدوح، تاريخ آثار قسنطينة خلال الفترة الإسلامية، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة الجزائر، ص 355-356.

11	مسجد ابي زاكي	38	مسجد القلايين	63	مسجد المهدي
12	مسجد ابن قنيف	39	مسجد قيس	64	مسجد النقاش
13	مسجد الأربعين شريف	40	مسجد سيدي أبي معزة	65	مسجد الصفار
14	مسجد الأندلسي	41	مسجد سيدي بلال	66	مسجد العاجي
15	مسجد باب الوادي	42	مسجد خزر	67	مسجد سيدي عمر الوزان
16	مسجد البلاط	43	مسجد سيدي راشد	68	مسجد سيدي ياسمين
17	مسجد البيارزي	44	مسجد سيدي منجل	69	مسجد شداد
18	مسجد بني فرغان	45	مسجد سيدي معرف	70	مسجد الشريف المشرف
19	مسجد رحبة الصوف	46	مسجد سيدي مفرج	71	مسجد الشرفا
20	مسجد الجليس	47	مسجد سيدي مسلم	72	مسجد شقفة
21	مسجد الجواز	48	مسجد حفصة	73	مسجد الشواشين
22	مسجد حبيب	49	مسجد الحلفاويين	74	مسجد الورغاطي
23	مسجد الجدادين	50	مسجد فليو	75	مسجد سيدي عبد الهادي
24	مسجد عفان	51	مسجد فليو الشرقي	76	مسجد سيدي ميمون
25	مسجد سيدي علي بن مخلوف	52	مسجد سيدي عبد الملك	77	مسجد أبي عبد الله محمد النجار
26	مسجد الفوالين				

المدارس :

جاء في تقرير حول التعليم العمومي الأهليفي قسنطينة في سنة 1848 إن قسنطينة عند احتلالها كانت تضم 07 مدارس ثانوية و90 مدرسة ابتدائية⁽¹⁾. أما دفتر أوقاف صالح باي فقد ذكر فيه خمس مدارس، وهي مدرسة سيدي الكتاني⁽²⁾ ومدرسة جامع سوق الغزل، ومدرسة سيدي أبي قصيعة، وفي خارج أسوار المدينة كانت

(1) - عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900 م) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 209.

(2) - دفتر أوقاف صالح باي، مصدر سابق ص 68-70.

مدرسة سيدي بومصيبة ومدرسة سيدي هيلوف⁽¹⁾ وتضيف النصوص التاريخية والكتابات الأثرية مدرسة الجامع الأخضر داخل أسوار المدينة⁽²⁾.

يبدو أن المدارس الثانوية هي ما كانت تطلق عليه النصوص التاريخية اسم "المدرسة" بينما المدارس الابتدائية كانت تعرف بالكتاتيب وقد ورد المصطلحان معا في نفس المصدر، حيث يذكر عبد الكريم الفقون (1073هـ/ 1662م) مدرسة آل الفقون ومدرسة أفونس، ومكتب ابن الفقون ومكتب سيدي علي بن مخلوف⁽³⁾. كما يذكر احمد النقاد المدرسة التي بناها صالح باي بجوار جامع سيدي الكتاني، بناها القائد رضوان بجوار زاويته⁽⁴⁾. أما دفتر الأحياس فقد وردت فيه أسماء بعض المدارس، وهي إما مدرسة مستقلة بذاتها مثل مدرسة بن مناد ومدرسة الحتاشين ومدرسة الصباغين، وأما ملحقة بمسجد أو زاوية كما هو الحال في غالبية المدارس والكتاتيب وفيما يلي القائمة المستخرجة من دفتر الأحياس.

جدول لقائمة المدارس المستخرجة من دفتر الأحياس⁽⁵⁾.

اسم المدرسة		اسم المدرسة	
08	مدرسة الصباغين	01	مدرسة ابن الدب
09	مدرسة سيدي مسلم الحواري	02	مدرسة بن مناد
10	مدرسة سيدي عبد الهادي	03	مدرسة بني الفقون
11	مدرسة الشرقية	04	مدرسة ابن واعر
12	مكتب ملاصق لمسجد بن قومة	05	مدرسة الحتاشين
13	حجرة للقراء بمسجد يمن	06	مدرسة الرقاقين
14	مكتب بمسجد السويقة	07	مدرسة برايعة النجارين

الزوايا:

⁽¹⁾-Féraud.(ch.).op- Cit ; 130-131.

⁽²⁾- رشيد بو روية، المرجع السابق، ص 128.

⁽³⁾- عبد الكريم الفقون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1، 1987، ص 37-38.

⁽⁴⁾- محمد الطاهر بن احمد النقاد، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أميرا ببلد قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 263، ص 10، 20.

⁽⁵⁾-Féraud. L ; op Cit ; p 130.

قدر دفتر صالح باي عدد زوايا قسنطينة ب 13 زاوية⁽¹⁾. بينما مرسسي (Mercier) فقد عدد الزوايا في قائمة أعدها لذلك ب 11 زاوية سنة 1837⁽²⁾. أما أبو القاسم سعد الله فجعل عددها ب 08 زوايا حسب الوثيقة التي عثر عليها والمؤرخة ب سنة 1006 هـ / 1598م⁽³⁾. أما الدكتور أمحمد عمير أوفقد أورد قائمة ب 12 زاوية في بداية الاحتلال الفرنسي لقسنطينة⁽⁴⁾. أما دفتر احباس فقد جاء بذكر 19 زاوية. جدول لقائمة زوايا قسنطينة حسب دفتر الأحباس⁽⁵⁾.

اسم الزاوية		اسم الزاوية	
زاوية الرماح	11	زاوية ابن الدب	01
زاوية الرقاين	12	زاوية ابن باديس	02
زاوية مواجهة للجامع الأعظم	13	زاوية ابن القاضي	03
زاوية النجارين	14	زاوية ابن واعر	04
زاوية ألقفصي	15	زاوية ابن عبد المنعم	05
زاوية سيدي أعمر الوزان	16	زاوية ابن شقشوق	06
زاوية سيدي مسلم	17	زاوية التمان	07
زاوية سيدي الهادي	18	زاوية الحلفاويين	08
الزاوية الشرقية	19	زاوية الجوارى	09
		زاوية بدرج باب الجابية	10

من خلال الجدول يتبين لنا أثر الطابع الصوفي الذي يطبع المدينة، لان الطرق الصوفية انتشرت في الفترة العثمانية لدره انما اصبحت كظاهرة منتشرة في الجزائر، وهو ما كان يشجعه الحكام العثمانيون وازدهرت في أواخر

⁽¹⁾- Féraud. L; op Cit ; p 131.

⁽²⁾-Mercier. E; Constantine avant la Conquête; op Cit; p 91.

⁽³⁾- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى 47 القرن الرابع عشر الهجري (16 - 20 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 263.

⁽⁴⁾- أمحمد العمراوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر 2004، ص 142-143.

⁽⁵⁾- عبدالقادر دحدوح، تاريخ آثار قسنطينة خلال الفترة الإسلامية، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة الجزائر، ص

الفترة لأنها أصبحت لها من الازدهار والمداحيل للزوايا ما يحقق لهم مآربهم ويضمن لهم عيشهم فالسلطة العثمانية فتحت لهم الأبواب للتصوف لكن هذه الزوايا لم تحافظ على أهدافها الشرعية بل نشرت البدع والخرافات والشعوذة وملكت قلوب الناس وخذرتهم ولم تجدد في آلياتها العلمية بل بقت تقليدية محافظة على شعار "اعتقد ولا تنتقد".

القضاء والسلطة في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية:

في مجال التقاضي ميدان كان لكل فئة مجلسها العدلي تعقد فيها الجلسات وتفصل فيها القضايا والسلطة لا تتكفل بالأمر المدنية فالأتراك يمثلون أمام القضاة من الحنفية وأما عامة الناس فيرجعون إلى القاضي المالكي والمزابيون يعودون إلى القاضي الأباضي⁽¹⁾ ويعود اليهود⁽²⁾ إلى الرباني، وفي حالة النزاعات بين مجموعات مختلفة يختار المسلمون القاضي الذي يرونها صالح لقضيتهم، والحالة الوحيدة التي يمثل فيها المتهم أمام القاضي المسلم هي حالة قتل مسلم أو يهودي⁽³⁾. ولم يكن هناك حائل يحول دون اليهود⁽⁴⁾ أن يشرفوا على مدارسهم الدينية حيث يتعلمون الكتابة العبرية وبعض الحساب والتوراة فالتصرف في هذه المجموعات كان حرا بالنسبة للسودان الذين كان يمثلهم قائد الوصفان وله الحق في الدفاع عن العبيد، ولم يكن هناك خرق لحرمة أهل الكتاب⁽⁵⁾، فللأتراك قضائهم وقضاةهم ومجلسهم ويتأهه أمام حنفي وللعرب قضائهم ويتأهه أمام مالكي فإذا اقتضت الضرورة يجتمع المجلس ويجمع بين القاضي الحنفي والقاضي المالكي ويسيرون الجلسة بمعية مفتي لكل جناح مع كتاب (موثقان) يدونون مداورات الجلسة وفي نسخ لتوضع في أرشيف المسجد الذي كان مقر المحكمة. ولكل فئة مجلسها القضائي يتأهه أمام ومفتي، هذا في المدن والحواضر.

أما في الأرياف فكان مجلس القبيلة هو الذي يناط له هذه المهمة، وشيخ القبيلة هو القاضي لها. في مجموعة محاكمها الخاصة تتعدها وتدير شؤونها.

(1) - تجدر الإشارة أن أهل ميزاب ظلوا محافظين على مذهبهم ومدنيتهم رغم وجود بني جلاب بتقوت العثمانيين وإذا كان عمالهم وتجارهم قد وجدوا طريق العيش في قسنطينة وغيرها من المدن فان إنتاج علمائها ظلوا ينتجون في بني يزقن وغيرها من قصور غرداية والعطف وبنورة وبني يزقن ومليكة وسيدي سعيد.

(2) - كان يهود قسنطينة البن، يصدرون تجارة الصوف والقمح والشعير والوبر وريش النعام والشمع والجلود والغنم والخيول والبقر والبالغ والدجاج والخشب، انظر نوا (رحلات).

(3) - أندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 213.

(4) - بلغ عدد يهود قسنطينة خمسة آلاف يهودي أواخر العهد العثماني في البايليك، ويقدر وليم شالر مذكرات، عددهم ب3000 في حين يقدر عدد سكان المملكة اقل، وليس من مليون نسمة مملكة الجزائر حسب تعبيره ص38.

(5) - المقصود بهم اليهود دون المسيحيين.

المحاكم الشرعية في الشرق الجزائري:

كان النظام القضائي في الجزائر خلال الحكم العثماني متصلا بالحاكم ، إذ يعد مصدر السلطة السياسية والقضائية ، ويمكن تفويض السلطات إلى البايات والقضاة ، لكن إذا كانت الاحكام التي يصدرها القضاة لا تحظى بالموافقة من قبل الحاكم فيإمكانه أن يسحب التفويض من القاضي أو الباي ، وبما إن الحاكم العثماني كان من المعتنقين للمذهب الحنفي ، وسكان الجزائر يتبعون المذهب المالكي فقد جرت العادة على تعيين المفتي الحنفي من قبل السلطان العثماني ، ويقوم حاكم الجزائر بتعيين المفتي المالكي ، لذلك كانت هناك محكمة لكل مذهب ومن لا يقبل بحكم المفتي فيإمكانه مراجعة المجلس الكبير الذي يضم علماء المذهبين والمنسوبين إليهما وهم يجتمعون كل يوم خميس في الجامع الكبير لتدقيق كل الاحكام الصادرة قبيل تلاوتها، وأعضاء المجلس يستمعون إلى حكم الحاكم فإذا كان القرار غير مطابق للشريعة ينقض ولا يعمل به ، أما إذا كان المتخاصمون من غير المسلمين فان القضاة يخرجون إلى ساحة الجامع لكي يستمعوا للمخصومة ، ولم يكن القضاة يحصلون على المرتبات ، إنما كانوا يستحصلون من الرسوم والمبالغ المالية عن كل عقد يسجلونه ويضعون عليه ختماً ، كما إن هناك محاكم خاصة بالاسرى النصرارى كما ان هناك محاكم خاصة ومحاكم خاصة باليهود و في حالة حدوث خصومة بين النصرارى و المسلمين فان الحاكم هو الذي يفصل فيها توخيا لعدم الحصول مشاكل اجتماعية داخل المجتمع الجزائري.

الصلح بين المتخاصمين : كان الصلح سائدا بدرجة كبيرة في المجتمع الجزائري الا في القضايا الكبرى ، اما النزاعا البسيطة فقد كان الجزائري يحقر نفسه ان يذهب من اجل الى القضاء و يورد لنا شلوصر العادة السائدة بين الجزائريين و هو يكلم عن اهل قسنطينة فيقول : " فاذا وقع معركة كلامية او وقع عراك و خصام فان اول. قادمين يحاول الفصل في قضية المنازعين و اعادة الامور الى انصافها، و يخاطبهم عادة بقوله : هل انتم يهود او مسيحييون حتى يعذر عليكم ان صالحوا فيما بينكم؟ و يكون جوابكم في العادة : لعنة الله على الكفار ،نحن مسلمون و اخوة "،⁽¹⁾ و بذلك ينهي النزاع ، و اذا رفع القضية الى مجلس الجماعة فانه كثير ما يحكم بالصلح الا في حالات اين يفرض غرامة على المخالفين .

أولا : الهيئات القضائية

أما بشأن الجرائم الجنائية مثل (القتل والسرقة والخيانة والتآمر) فقد كانت من اختصاص الحاكم في دار السلطان أو العاصمة الجزائر داي . ويقوم رجال الامن المتكونون من شاوش بتنفيذ أحكام الاعدام في المسلمين

(1) - مصطفى عبيد ، القضاء خلال العهد العثماني ، مجلة عصور الجديدة ع 11 - 12 مخبر تاريخ الجزائر ، جامعة وهران 01 .

غير الاتراك ، وكذلك العبيد والنصارى الموقفين في السجن ، أما إذا ما ارتكبت جريمة قتل أحد الاتراك فان إعدام اليهود فكان يتم حرقاً ، و اذا ما ارتكبت جريمة قتل لاحد الاتراك فان عقوبة القاتل تكون برمييه من مرتفعات الى البحر، و اذا لم يتم التعرف على القاتل فان سكان الحي يتعرضون إلى العقوبة الجماعية ، أما إذا ارتكب أحد الاتراك جرماً فيعاقب ويعاقبون سرا في دار آغا الانكشارية حتى لا تهان كرامتهم ، أما عن ارتكاب جريمة قطع الطرق أو السطو المسلح ، فقد كان الحكم على الفاعل بالصلب على الكلاب من حديد ، وفي حالة الزنا يصار إلى رجم المرأة الزانية بالحجارة حتى الموت حسب حسب الشريعة الاسلامية و اذا كانت الزانية مسلمة والزاني نصراني او يهودي ، فتوضع الزانية في كيس يخاط عليها ثم ترمى في البحر.

يمثل القضاء إحدى الأجهزة الأساسية في النظام الحكم العثماني والفصل في النزاعات المختلفة يتم في المدن عن طريق هيئات رسمية الموكل لها هذه المهمة ويتم التقاضي في درجتين في الشرق الجزائري، وهيئات التقاضي هي المحكمة الشرعية المالكية والمحكمة الشرعية الحنفية، والدرجة الثانية هي هيئة المجلس العلمي.

الهيئة الابتدائية: (المحكمة الشرعية)

وتنقسم الى محكمة شرعية مالكية ويرأسها قاضي مالكي، ومحكمة شرعية حنفية ويرأسها قاضي حنفي ويساعد كل منهما مجموعة من العدول ذكر فتور دو برادي اثني عشرة (12) فرداً⁽¹⁾ الذين يتولون تحرير العقود ومحاضر الجلسة والإشهاد فيها وبناء الفرائض والتحقيق من المسائل القضائية وعلى ان المحكمة المالكية منفصلة عن المحكمة الحنفية وعادة ما تكون في أكبر مسجد في المدينة وتعقد الجلسة في سقيفة المسجد، لكل منهما، ولكل منها مذهب فقهي مستقل وعادة كان الأتراك والكراغلة يتوجهون للقاضي الحنفي، أما الجزائريون يتوجهون الى القاضي الملكي، ولا يمنع ان يتوجه كل حسب اختياره، فقد وجد من المالكية من كانوا يترافعون في نزاعاتهم إلى المحكمة الحنفية⁽²⁾، ويتم حساب رسوم التقاضي عن طريق عدد أوراق المحضر وتحسب الفريضة على حساب الأقساط. وكانت هناك محاكم لليهود وتسمى (محاكم الأبحار) وأخرى للأسرى المسيحيين (محاكم القنصليات الأجنبية)⁽³⁾.

الهيئة الثانية (المجلس العلمي)

(1) - خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث تحت إشراف، فاطمة الزهراء قشي 2006، جامعة منتوري قسنطينة، ص 656.

(2) - المرجع نفسه، ص 668.

(3) - الشيخ احمد الشريف السنوسي، تاريخ الجزائر في خمسة قرون، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 362.

يطلق على هذه الهيئة المجلس العلمي او مجلس الشرعي العزيز او كما سماه فتور دو برداي المجلس الشريف⁽¹⁾، ويتكون من علماء المدينة، ويتكون من قاضي حنفي وقاضي مالكي ومفتي حنفي ومفتي مالكي بالإضافة الى ضابط برتبة ياياباشي، وكان هذا الأخير يحضر باعتباره ممثلاً للمؤسسة العسكرية التي يقوم عليها نظام الحكم. وجميع هؤلاء الأعضاء الخمسة كانت الإشارة إليهم تأتي في محاضر النزاعات، فيذكر في أولهم المفتي الحنفي وبعده المفتي المالكي، ثم القاضي الحنفي وبعده القاضي المالكي، ويأتي ذكرهم جميعاً وبأسمائهم في صلب المحضر، أما العضو الخامس وهو الضابط العسكري، فإن الإشارة إليه تأتي في نهاية المحضر. وهذه الوثائق كانت تحفظ وتصان، وهي ما تعرف بالسجلات المحاكم الشرعية. إلا ان مهام القاضي لم تختصر على الفصل في القضايا المدنية بل تعداه الى مجال أوسع، ومن مهامه تدوين العقود. سجلات البايليك وبيت المال نشأت أصلاً كدواوين تسجل فيها المسائل الإدارية والمالية المتعلقة بالأموال العامة ويبدو أن الإدارة العثمانية سواء في مقرها الرئيسي أو في الأقاليم التابعة لها كانت تخصص سجلات لكل سنة تدون فيها المداخل والمصاريف وغلات الأحباس والاقواف في سجلات البايليك التي يبلغ عددها 386 سجلاً، أما التجارة الداخلية والخارجية وأموال المفقودين والتركات التي ليس لها وريث وغير ذلك من مصادر الأموال فقد كانت تسجل في سجلات بيت المال التي يبلغ عددها إحدى عشرة (11) علبة تضم أربعة وستون دفترًا.

و تتوزع مجموع هذه الوثائق من حيث التأريخ على الحقبة العثمانية في الجزائر التي بدأت بتعيين الباشا خير الدين من قبل السلطات العثمانية في الباب العالي سنة 1530 وتستمر بعضها خاصة التي تتعلق بالأحوال الشخصية الى ما بعد دخول القوات الفرنسية الى الجزائر يوم 05 جويلية 1830 م وذلك لكون المحاكم الشرعية قد استمرت في عملها خلال السنوات الأولى من الاحتلال.⁽²⁾

في يوم 5 ماي 1849 م بعث الحاكم العام للجنرالانو الولاية مذكرة يطالبهم فيها بمزيد من المعلومات ما كان بحوزته يطلبهم باحصائيات كامل قدر من الامكانيات للأوقاف الدينية الموجهة للتعليم العمومي قبل الغزو.³ عقود المحاكم الشرعية وهي الوثائق المستخرجة من المحاكم الشرعية إقليم وتتضمن في الغالب مسائل قضائية تم البت فيها وتتعلق بشؤون الأفراد من ملكيات وتصرفات وهبات وأحباس ومنازعات وصلاح. كما تشمل كذلك

(1) - خليفة حماش، مرجع سابق، ص 671.

(2) - وجد الأستاذ سعيدوني ان وثائق المحاكم توزع على الفترة الزمنية ما بين (1001/1592م و1272/1856م) انظر وثائق الاوقاف بالأرشيف الجزائري وإمكانية استغلاله في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر. ناصر الدين سعيدوني المحلة التاريخية المغربية، العدد 93-94 ماي 1999 زغوان -تونس(258)

(3) - ايفون تيران، مرجع سابق، ص 175.

بعض المسائل المتعلقة بشؤون الدولة من مشاريع عامة واستملاك وتعويزات وصرف غلات الأحباس الخيرية وغيرها.

وإذا كانت وظيفة العلماء هي الاستماع إلى دعاوى المتنازعين والتحقيق فيها و المداولة بشأنها وإصدار الحكم الشرعي بخصوصها، فإن الضابط العسكري كانت وظيفته الحضور باعتباره ملاحظ أو ممثلاً للسلطة كما يستخلص من المحاضر. و كان اجتماع المجلس يتم في أقدم مسجد جامع في المدينة و هو الجامع الأعظم، الذي يأتي ذكره في محاضر النزاع بذلك الاسم، وكان خاص بالمالكية). وشاع اسمه في عصرنا الحديث بالجامع الكبير وكان الاجتماع يعقد كما ذكر فونتور دو بارادي، مرة واحدة في الأسبوع، وهو يوم الخميس⁽¹⁾.

وكان المجلس العلمي يعتبر في غالب الأحيان محكمة ابتدائية يرفع إليها المتنازعون نزااتهم دون المرور بإحدى المحكمتين، ولدنيا حول ذلك نماذج كثيرة، بعضها نزاعات داخلية، أي بين أفراد الأسرة بعضهم بين بعض، وبعضها نزاعات خارجية، أي بين أفراد الأسرة وبين الأقارب والجيران وناظر بيت المال و وكلاء الأوقاف.⁽²⁾ وكانت تلك النزاعات حول موضوعات مختلفة مثلها مثل النزاعات التي تُرفع إلى المحكمة الشرعية، من معاملات و وقف وهبة وقسمة أملاك وميراث وغير ذلك. ولكن المجلس العلمي⁽³⁾ كان في بعض الحالات يعتبر محكمة

(1) - خليفة حماش، مرجع سابق، ص 654.

(2) - عرفت المذاهب الفقهية الوقف بتعريفات متقاربة من حيث المقصد من إنشاء الوقف ودوره التكافلي، إلا أنهم اختلفوا في الأحكام المتعلقة به، نحو حق التصرف فيه، واسترجاعه، ومدة الوقف، وغير ذلك من الأحكام الفقهية الفرعية. و من جملة تلك التعريفات نختار ما يلي: عرفه ابن عرفة المالكي بقوله: " هو إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازماً بقاؤه في ملك معطيه و لو تقديراً". و يتضح من هذا التعريف لزوم الوقف، و هو على ملك معطيه أي الواقف. وعرفه أبو حنيفة بقوله: "حبس العين على ملك الواقف و التصديق بالمنافع على الفقراء مع بقاء العين". أما ابن قدامة فيعرفه في المغني بقوله: "تجسس الأصل و تسبيل المنفعة"، و يلاحظ من هذا التعريف أنه لم يجمع شروط الوقف. ولخص محمد أبو زهرة مختلف هذه المعاني التي جاءت بها التعاريف السابقة في تعريف جامع للوقف بقوله: "الوقف هو منع التصرف في ربة العين التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها و جعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداء و انتهاء". ويرى أن هذا التعريف هو أصدق تعريف مصور جامع لصور الوقف عند الفقهاء الذين أقروه.

(3) - المجلس العلمي: هيئة الإفتاء بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني أو "المجلس العلمي"، بالعودة إلى الجذور التاريخية لنشأتها بمدينة الجزائر راشرين بذلك تشكيلة أعضائها الفاعلين اعتماداً على معطيات مستقاة من الوثائق. نتعرض إلى نوعية القضايا المعروضة ونسبها المتفاوتة والفئات الاجتماعية التي لجأت إلى هذه الهيئة لتطرح انشغالاتها. كما نعمل على رصد قوائم مفتيها وقضااتها. ثم نتطرق إلى شخصية الأياباشي الموفد العسكري ومهمته في حفظ النظام العام داخل المجلس وتوقف عند دور أهل الخبرة في تحديد المعطيات التي تؤسس للحكم الذي تصدره هيئة الإفتاء. وتفيد عقود المحاكم الشرعية في تحديد معرفتنا بمختلف المظاهر الاجتماعية بالمدينة. و على مستوى كل بايليك يوجد مجلس علمي خاص بالبايليك.

استئناف من الدرجة الثانية بعد المحكمة الشرعية، و يحدث ذلك عند الاقتناع صاحب الدعوى بالحكم الذي صدر له أو عليه في المحكمة الشرعية التي رفع إليها أمره. وكان المجلس العلمي من حيث تركيبته مؤهلا فعلا ليكون محكمة استئناف بعد المحكمة الشرعية نظرا إلى حضور الهيئة القضائية كاملة به، وهي ممثلة في المفتين والقاضين من كلا المذهبين، مما يساعد على دراسة دعاوى المتنازعين بشكل أعمق و من زوايا مختلفة أيضا، و قد يؤدي ذلك إلى تغيير مسار الحكم في النزاع، خصوصا بفضل ما قد يبيده المفتيان من آراء فقهية قد يكون القاضي لم يلتفت إليها في محكمته.

و أما الهيئة القضائية الثالثة التي كانت ترفع إليها النزاعات في المدينة فهي مجلس دار الإمارة الذي يرأسه الباشا أو الداي في فترة من الفترات. وهو في حقيقته مجلس علمي يجتمع بحضور الباشا بدار الإمارة عوض الجامع الأعظم، كان هذا المجلس محكمة ابتدائية مثل المحكمتين الحنفية و المالكية و المجلس العلمي، فترفع إليه النزاعات مباشرة دون المرور لا بإحدى المحكمتين، و لكن قد يتخذ محكمة استئنافية أيضا مثل المجلس العلمي في بعض الحالات، ولدين احوال ذلك نموذج واحد من النزاعات كان الاستئناف فيه من المجلس العلمي إلى هذه الهيئة القضائية العليا.

" و كان يتكون "المجلس العلمي" من المفتين و القاضيان من كلا المذهبين (الحنفي و المالكي) ، و هم أنفسهم الذين يشكلون المجلس العلمي بالجامع الأعظم،¹ فإنه كان في حالات أخرى لا يستدعي أي واحد منهم ولا يعقد مجلسه القضائي للنظر في الشكاوى التي ترفع إليه، و إنما يقوم بتوجيه أصحابها إلى المجلس العلمي في الجامع الأعظم. (2)

الوضع الصحي في الشرق الجزائري:

الظاهرة الصحية تتم على قوة المجتمع ورفاهيته، والاهتمام بها كمرفق اجتماعي عمومي ضروري في حياة الشعوب والأمم، فالسلطة العثمانية في الشرق الجزائري لم بذل جهدا في المجال الصحي، بل لم تهيب ما يمكن ان يحقق العناية الصحية، فاتصالات الجزائر عن طريق البحر أهل الوافدين إليها الذين يحملون أمراض وبائية ان يؤثروا سلبا في انتشار الأوبئة في الشرق الجزائري،⁽³⁾ فهل كانت السلطة غير مكترثة بذلك ان لم تدخل هذه التقاليد في

(1) – الجامع الاعظم المقصود به أكبر المساجد في المدينة التي جرى فيها المرافعة ،

(2) – خليفة حماش، مرجع سابق، ص 672.

(3) – mostéfa khiati ;medecine en algerie au cours de la periode ottomane (xvi –xix siecle)
Edition houma ; 2013 ;p 20.

حياتهم ومشاريعهم؟ بل اعتبروا ذلك أمرا طبيعيا ان لم يكن غضبا إلهيا. ⁽¹⁾ وأمام الأوبئة المتكررة لم يفرض أي باي الحجز الصحي على السفن او الأشخاص في الشرق الجزائري ما عدى تلك العملية التي قام بها صالح باي سنة 1787 حيث فرض حزام صحي حول عنابة لمنع انتقال العدوى الى عاصمة البابليك والمناطق المجاورة لها. في المقابل نلاحظ ان الدول الأوربية كانت لها من المؤسسات الوقائية والاحترازية والعلاجية لأقلياتها في الجزائر، ⁽²⁾ فالأقليات الأوربية تحظ بنوع من العناية الصحية في أيالة الجزائر حيث اعد للأسرى المسيحيين الإسبان مركز صحي (ماريستان) الذي أقامه الأب الاسباني دويون (de youn) 1551 م في الجزائر العاصمة، والمستشفى الذي أقامه الراهب قراريدو (GRARIDOU) عام 1612م قرب باب عزون في عاصمة الأيالة، والمستشفى للأسرى الفرنسيين لازاريس (LAZARESTE) والذي خصص له الملك الفرنسي لويس الثالث عشر بعض الإعانات المالية، والمستشفى الفرنسي بخصن القالة الذي تشرف عليه الوكالة التجارية الفرنسية ⁽³⁾.

كان اثر الأوبئة كبير على المجتمع، فيتراجع عدد السكان، ويتوقف الإنتاج وتساء الحياة المعيشية وتزداد سطوة السلطة على الاهالي بالضرائب 1817-1818 أدى الى هلاك ثلث سكان عنابة ولم يعد سكانها سوى 5000 نسمة. لم تكن الأوبئة لوحدها عن سوء الأحوال الاجتماعية بل الظروف الطبيعية مثل الزلازل والقحط والجراد والفيضانات والحرائق. وأمام هذه الكوارث تزداد الأوبئة انتشارا وفتكا للبشر. ولقد كانت هذه الكوارث والأوبئة دورية والجدول التالي يبين لنا ذلك.

جدول لأهم الأوبئة والكوارث التي وقعت في الجزائر بين 1804-1837. ⁽⁴⁾

السنوات	الأوبئة	الجراد	الزلازل	الفيضانات	المجاعات
1804	X	X			
1805	X				
1806	X	X			X
1807	X	X			X
1808	X				
1810			X		

⁽¹⁾ - ناصر الدين سعيدوني، ورفقات جزائرية، مرجع سابق، ص 560.

⁽²⁾ - ابو القاسم سعد الله، اريخ الجزائر الثقافي، 1500-1830، ط 1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998، ج 2، ص 416.

⁽³⁾ - نصر الدين سعيدوني، أبحاث في تاريخ الجزائر الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص 124.

⁽⁴⁾ - نصر الدين سعيدوني، محمد العربي الزبيري، صالح عباد بتصرف من الباحث .

	X				1812
X	X		X	X	1816
				X	1817
		X		X	1818
X			X	X	1819
				X	1820
				X	1821
			X	X	1822
			X		1824
		X			1825
		X			1830
		X			1837

من خلال الجدول نستنتج :

- 1- من بين 33 سنة 18 سنة شهدت وباء او كارثة في الجزائر أي حوالي ثلثين من بين السنوات التي وقعت فيها وباء او كارثة طبيعية
 - 2- إن الوباء هي الظاهرة أكثر انتشارا 12 سنة أي ما يمثل ثلث من الفترة الزمنية المدروسة
 - 3- إن الوباء أثر سلبا في تعداد السكان خاصة المدن الساحلية والتي تقع على مرافئ أو ميناء مثل عنابة والقل وبجاية والجزائر ووهران ومستغانم.
 - 4- عدم وجود مؤسسات صحية في الشرق الجزائري ولم تظهر مظاهر الصيدلة.
- إن الوضع الصحي وعدم اهتمام السلطة به وتردي الأحوال المعيشية والاقتصادية تأثيرا كبيرا على عدد السكان، حيث ظل عددهم في تناقص مستمر وقل النمو السكاني⁽¹⁾. وما نستنتجه أن تناقص عدد السكان بتلك الصورة كان ناتجا عن إهمال السلطة للجانب الصحي وكثرة الثورات والكوارث والهجرة والأوبئة⁽²⁾.

(1)- Fella (Moussau El Kechai): situation démographique et sanitaire du Beylik de Constantine 1771-1837 in Arabe historical review for othman studies n° 17-18, fondation temimi pour la recherche scientifique et l'information, zaghouan, Tunis sep 1998, pp 64, 65, 66.

(2)- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق ص-ص 111-124.

المظهر الصحي من المظاهر الاجتماعية وهي من معايير التي يقاس بها رفاهية المجتمع وسعادته ومستوى معيشتة وحسن تدبير أموره ولياقة تسييره، والمظهر الصحي له دور اقتصادي وتأثير مباشر على تحسن المردود وزيادة الإنتاج، وأن المجتمع الذي يسلم من الأوبئة والأمراض والعاهات، يستطيع أن يأمن الجوع ويترد أشباح الفقر والفاقة على مدى الأيام. وكما هو الشأن بالنسبة لجميع أنواع الأنشطة، ولذلك نجد أن المهتمين بالدراسة الاجتماعية لا يهتمون، في دراساتهم عن حالة الصحة في المنطقة التي تكون محل أو السؤال الذي يمكن طرحه في هذا الصدد يتمثل في: ما هو الوضع الصحي في الشرق الجزائري نهاية الفترة العثمانية في الجزائر؟ ما هي مؤسساته والأوبئة التي كانت منتشرة، وكيف كانت مواجهة هذه الأخطار الوبائية؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة يمكننا القول أن منطقة الشرق الجزائري تعرضت إلى عدة هزات من الأمراض والأوبئة، أحدثت خسائر بشرية كبيرة في الأرواح وانعكس ذلك على الجانب الاقتصادي، والتعداد البشري، حيث كانت الوفيات التي أصابت السكان بأعداد خيالية⁽¹⁾. لكن العلوم في المجال الصحي والطبي لم تكن في تطور الأمراض والأوبئة التي كانت تنتشر من حين لآخر، فالسكان كانوا يربطون ذلك إلى الابتعاد عن طاعة الله والأوبئة ما هي إلا عقاب من الله يسلبها على عباده الضالين، والأطباء كانوا ينسبون كل هذه الظواهر المريضة إلى مرض الطاعون الذي كثيرا ما وقفت السلطات المحلية عاجزة أمامه، لا تقوى على اتخاذ أية تدابير وقائية لما كان من اختلاف بين رجال الدين فيما يتعلق بمعاملة المصابين ومعالجتهم ولقد أجاد حمدان بن عثمان خوجة⁽²⁾ في كتابه

(1)-Guyon (M), "La peste en Algérie", le moniteur Algérien, n° 106-116, 1834 "Les principales pestes qui ont régné dans le nord de l'Afrique", Gazette médicale de PARIS, 1838.PP 8-14.

(2)- حمدان بن عثمان خوجة: حمدان بن عثمان خوجة كاتب سياسي، من رواد الحركة الوطنية الجزائرية. ولد بمدينة الجزائر. وبها نشأ وتعلم. درس القانون على أبيه، ثم قام مقامه، بعد وفاته، وأصبح أستاذا في الحقوق المدنية والقوانين الإسلامية. وفي سنة 1784م صحب خاله في زيارة لأهم مدن البلقان والقسطنطينية وغيرها. وفي سنة 1820م زار فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية. وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعدم وفاء الفرنسيين بالشروط التي اشترطتها الحكومة التركية عليهم قبل أن تسلم لهم البلاد، نظم الجزائريون بزعامة حمدان أول حزب وطني سياسي عرف بلجنة المغاربة أو حزب المقاومة، فقارع حمدان الاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه، فنفاه الفرنسيون من الجزائر، فكان أول عربي مسلم يطرد من وطنه من قبل دولة أجنبية من أجل قضية وطنية. وبعد أن أقام مدة قصيرة في فرنسا (1833-1836م) (سافر إلى القسطنطينية حيث اشتغل بالتأليف والترجمة، والتحرير لجريدة «تقويم وقائع» إلى حين وفاته، من آثاره «المرآة» فرغ من تأليفه سنة 1833م، و«إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء». و«حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع» رسالة، شرح فيها قول الإمام الغزالي «ليس في الإمكان أبدع مما كان» فرغ منها سنة 1252هـ (1837م). و«ستار الاتحاف» وهي ترجمة تركية لرسالة «الإتحاف» السابقة، وغير ذلك.

الموسوم " إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء ⁽¹⁾، فمنهم من يدعو إلى الاحتراز معتمدا على قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين﴾ ⁽²⁾، وعلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب، عذب بها قوم فبلكم، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا، فرارا، وإذا سمعتم به بأرض قوم، فلا تدخلوا عليه﴾ ⁽³⁾. ومنهم من يدعو إلى التوكل على الله وعدم الاحتراز معتمدين في رأيهم على قوله تعالى: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ⁽⁴⁾ وقوله: ﴿لكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ⁽⁵⁾، وعلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿لا يغني حذر من قدر﴾ ⁽⁶⁾.

لقد ظلت الأوبئة تحتاح البلاد طيلة العقد الأخير من القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر، وأن آخر مرة تعرضت فيها الجزائر للطاعون، قبل الاحتلال، هي سنة 1816، ولم يختف إلا سنة 1822م ⁽⁷⁾.

وإذا أردنا أن نعدد المرات التي ظهر فيها الطاعون، في الفترة التي ندرسها وجدنا أنها لا تزيد عن ثلاث: اثنان في العقد الأخير من القرن الثامن عشر وواحدة أشرنا إليها في الفقرة السابقة. وسنحاول فيما يلي أن نذكر شيئا عن كل واحدة مركزين على الشرق الجزائري الذي يهمننا بالدرجة الأولى.

وباء عام 1793، وهو طاعون أصاب مدينة الجزائر سنة 1793، نقله إليها بحارة قادمون من القسطنطينية، وظل محصورا فيها إلى منتصف جولية من نفس السنة، حيث امتدت برائته إلى جهات أخرى من

وللدكتور محمد بن عبد الكريم كتاب «حمدان بن عثمان خوجه الجزائري ومدكراته» كما قام الدكتور بن عبد الكريم بنقل كتاب المرأة إلى العربية، وبتحقيق رسالة إتحاف المنصفين. حمدان خوجه إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء.

⁽¹⁾ - حمدان بن عثمان خوجه، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقدم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 59 وانظر كذلك: فالانسي، صفحة 23.

⁽²⁾ - الآية 195 من سورة البقرة.

⁽³⁾ - محمد أحمد جاد المولى بك، المثل الكامل، القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة 1380، هـ ص 255.

⁽⁴⁾ - الآية 51 من سورة التوبة.

⁽⁵⁾ - الآية 34 من سورة الأعراف.

⁽⁶⁾ - رواه الحاكم في مستدرکه عن عائشة رضي الله عنها.

⁽⁷⁾ - Marchika (J) La peste en afrique Septentrionale, Alger 1927, P 151

و تدعم هذا الرأي رسالة أوردها السيد كيون في العدد 111 من جريدة المونيتور الصادر يوم 9 مارس سنة 1834، تؤكد بأن الطاعون ظل يحصد الأرواح إلى سنة 1822، غير أن السيدة فالانسي تذكر في كتابها المشار إليه من ص 22: "أن آخر مرة تعرضت فيها الجزائر للطاعون هي سنة 1817، ولقد دام أربع سنوات"

جملتها مقاطعة قسنطينة⁽¹⁾. وقد كتب السيد كيبار، مندوب الشركة الملكية الإفريقية في عنابة في ذلك الحين أن حوالي مائة شخص كانت تموت في عاصمة الشرق الجزائري، بينما سلم الساحل بفضل التدابير الوقائية التي اتخذها حاكم القالة الفرنسي بإذن من الباي. وتتلخص هذه التدابير في إغلاق الموانئ ومنع القادمين إليها من الدخول، وعدم الاتصال بالبواخر الأجنبية المجهولة الأصل⁽²⁾. وهو بالضبط ما أوصى به رسول الله عندما قال: ﴿إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه﴾⁽³⁾.

يقول حمدان خوجة في المقالة التاسعة⁽⁴⁾ اشتهر في بلاد الفرنج الإجماع عن الوباء، وأعدوا لذلك موضعا وسموه كرنطينه، وحقيقتها إنما هي الاحتماء والاحتياط وجعلوا ذلك في محل دخول الداخلين إليهم والزموهم بأن يمشوا بتلك الأماكن إذا توهوا أنهم أتوا من بلاد بها الوباء إلى أن يتحققوا انقطاع أثرها عنهم ولما كانت (كذا) الوباء بحسب التجربة والاستقراء تنشأ عن العفونات النسيجية وتثبت غالبا بمثل الصوف والأقمشة بإذن الله فالتزموا أن يفتحوا كلما (كذا) مع القادمين عليهم من الثياب والأقمشة ونحوها إلى أن يقذفوا زوال تلك السميمة (كذا) عنها وتوصلوا إلى علم ذلك بالتجربة والاستقراء وتشددوا في الاحتياط زيادة لا تصادم أصلا من أصول الدين من غير أضرار بالقادمين وذلك مغتفر لعظم المضرة التي هم بصدد دفعها ويعم الضرر عند وقوعها وقد جرب نفع هذا النوع من الاحتياط منذ مئات من السنين حتى تحققوا به الاستكفاء (كذا) عن هذه المضرة بإذن الله وصار عندهم وعند كل من اطلع على أحوالهم صحيحا مجربا⁽⁵⁾.

بالرغم من جميع الجهود التي بذلتها السلطات المحلية، فإن الوباء لم ينقطع، وبقي في تصاعد إلى أن بلغ أوجه سنة 1794، وفي هذا الصدد توجد، في محفوظات الوكالة الإفريقية، رسالة موجهة إلى القنصل الفرنسي قاليار (Vallière) يقول فيها صاحبها: "إن الطاعون مازال يقتل ما بين خمسين ومائة وخمسين شخصا يوميا في قسنطينة، ولا نعرف مدى الخسائر التي يحدثها في النواحي الأخرى من المقاطعة"⁽⁶⁾ على الرغم من كثرة الأرواح المحصودة، فإن الطاعون لم يؤثر تأثيرا كبيرا في حياة البلاد الاقتصادية، ولم تنقطع موانئ الشرق الجزائري عن تصدير

(1)- مارشيك، ص 141.

(2)- نفس المصدر، ص 142.

(3)- وراود هذا الحديث في سنن أبي داود، ج 4، ص 108 وعن عبد الله بن عباس قال: "عبد الرحمن بن عوف، سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا... الحديث"

(4)- حمدان بن عثمان خوجة، إتخاف المنصفين.

(5)- حمدان بن عثمان خوجة، إتخاف المنصفين، مصدر سابق، ص 12-13.

(6)- AOMA, SS 3B, Agence de Bône, Journal de Bône, lettre de M. GUIBERT à VALLIERE, en date du 19 Aout 1794.

الحبوب بكميات وفيرة إلى فرنسا. وقد بلغت في سنة 1794، وهي السنة التي بلغ فيها الطاعون أقصاه وزنا يتراوح ما بين مائة وعشرين ومائة وثلاثين ألف قنطار من المؤسسات وحدها، وذلك بقطع النظر عما كان يصدره اليهود وغيرهم من التجار الأجانب إلى نفس البلاد⁽¹⁾. كما أن الوكالة قد صدرت، في تلك السنة (1794) إلى مدينة مرسيليا خمسمائة بقرة اشتريتها دفعة واحدة من إسطنبول الباي ذاته. وكانت تلك هي أول مرة تخرج فيها أبقار الجزائر إلى أوروبا.⁽²⁾ فوباء الطاعون كان مشهور الانتشار في العالم ولم يعرف أسبابه ولا عوامل التحكم فيه، وان عدواه تنتشر بسرعة.

وباء سنة تسع وتسعين وسبعمائة وألف (1799):

لقد وردت الإشارة إلى هذا الطاعون بكيفية عابرة في جريدة المونيتور (Moniteur)، فيذكر صاحب المقال: «أنه حل بمقاطعة قسنطينة وانتشر حتى وصل إلى الجنوب حيث صار الموت يحصد، يوميا، ما بين مائة ومائة وعشرين شخصا»⁽³⁾، وكانت الجزائر في تلك الفترة في علاقات متوترة مع فرنسا بسبب حملة بونابرت بونابرت على مصر، ونتيجة إلى ذلك ان أغلقت المؤسسات الفرنسية في الجزائر او أنشطتها والقي القبض على جميع الفرنسيين وحتى ممثل فرنسا في الجزائر لذلك لا نجد من دون على ذلك وهنا نتساءل عن العلماء في الشرق الجزائري كانوا لا يهتمون بالحدوث التي تجري في البلاد وتقاعسهم على الكتابات النقلية ومن كتب على تلك الأوضاع هم الأجانب الذين كانت لهم اهتمامات كبيرة بالشرق الجزائري، فالعرب كانوا لا يدونون وعلومهم كانت مرهونة بأحوال دينهم ولم تكن أجهزة مركزية لا على المستوي البايليك ولا على مستوى الأيالة لان الأمور الاجتماعية تركتها السلطة في يد الاهالي من الجزائريين.

وباء ست عشرة وثمانمائة وألف (1816):

مصدر هذا الوباء، ان سفينة جاءت من أزميز كهدية من الصدر الأعظم ورسست في ميناء عنابة يوم 07 حويلية 1816م وكان على متنها أفراد مصابين بمرض الطاعون هذا حسب تقرير مارشيك (MARCHIKA)⁽⁴⁾ وان السفينة انطلقت من أزميز يوم 08 ماي 1816 م⁽⁵⁾. أما فالانسي وكيون يتفقان ان الوباء جاء من

⁽¹⁾-Masson (Paul), MARSEILLE depuis 1789 PARIS 1903. P 513.

⁽²⁾-ANP, AE B3 287, lettre l'agent principale à l'agence de MARSEILLE; La calle de 20 fructidor An II de la République.

⁽³⁾- كيون، نفس المصدر، ص 26.

⁽⁴⁾- حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، مصدر سابق، ص 23.

⁽⁵⁾- فلانسي، مصدر السابق، ص 56.

الإسكندرية عن طريق سفينة حاملة الحجيج ورسّت في مدينة عنابة في صيف (شهر جوان) 1817 م وعلى متنها أفراد مصابين بوباء الطاعون هو أخطر وباء أصاب منطقة الشرق الجزائري. وقد اختلف المؤرخون حول مدّة بقاءه، فهناك من يقول أنه دام أربع سنوات⁽¹⁾، وهناك من يجعلها ستاً⁽²⁾. كما أن الاختلاف كان واضحاً فيما يخص ظهور المرض وأسبابه. في حين أن دوكرامون يشير إلى أن "الطاعون حل بالبلاد سنة 1818"⁽³⁾، ونحن نعتقد أن مارشيكاً على صواب، لأن الآراء الخاصة بأسباب العدوى وانتشارها سنة 1817 كثيرة ومتناقضة. فيقول البعض بأن المرض جاء به سفينة سويدية قدمت من أزميز - في الأناضول - يوم 13 جانفي سنة 1817، بينما نذكر جماعة أخرى أن إحدى السفن الجزائرية هي التي نقلت الوباء من المكان المذكور يوم 14 من نفس الشهر، وهناك، أخيراً، من يتهم "إفريقيا"، البارجة اليونانية التي خرجت من بيروت يوم 22 جانفي سنة 1817⁽⁴⁾.

مهما يكن من أمر، فإن الطاعون قد أصاب الشرق الجزائري في هذه الفترة وانتشر في كامل أنحاءه بسبب تنقلات الأفراد دون أن تضع السلطة إجراءات وقائية لتقليص انتشار الوباء، لأن من العادة أن الحجر الصحي الذي هو من الإجراءات الاحترازية التي يمكن التقليل من انتشار الوباء وهذا ما لم تتمكن السلطة من القيام به⁽⁵⁾. يقول حمدان بن عثمان خوجة في إتخاف المنصفين، المقالة السابعة: "لا مجال لانكار كون الفرنج في زماننا وقبله قد تمهروا في العلوم الطبية والصناعية والرياضية مع عدم تقديمهم بما يتعلق أمر آخرهم (كذا) حتى صار الطب والنجوم وكثير من العمليات كالمختص بهم مع أقرارهم بأن مأخذهم لها إنما كان من الكتب الإسلامية وزادوا عليها ما صح عندهم بالتجربة والمشاهدة، انظر خطبة التذكرة لدلود الأنطاكي وانظر لطائف المنن عطاء الله حيث ذكر قصد الشيخ أبي الحسن الشاذلي الطبيب النصراني الى غير ذلك مما هو صريح في إهمال المسلمين أمر الطب مع انه فرض كفاية وصرّفوا همهم الى العلوم الشرعية والأدبية لمقاصد متنوعة فأمتاز الكفار بالطب وما في معناه من الصنائع المهمة بل يجزم كل من له اطلاع على تصرفاتهم في هذه العلوم وتعلمها وتعليمها بأنهم قد تمهروا

(1) - فالانس، مصدر سابق، ص 23.

(2) - مارشيكاً، نفس المصدر. ص 142.

(3) - باكرامون، مصدر سابق، ص 252.

(4) - ماريشكا، مصدر سابق، ص 152.

(5) - يذكر ماريشكا أن بجاية أصيبت بسبب التنقلات، عن طريق تجار الزيت الذين رجعوا من مدينة الجزائر بعد بيع محصولهم، وأن العدوى تسربت إلى جيجل من بجاية، كما أن البساكرة الذين أرادوا الرجوع إلى مسقط رأسهم قد نقلوا الطاعون إلى بلدتهم وإلى المدن والقرى التي مروا بها.

فيها وزادوا على من تقدمهم زيادة لا تنكر ولكن الناس أعداء ما جهلوا ولا غرابة في ذلك فإنها من توابع الحياة (كذا) الدنيا⁽¹⁾.

لكن كان الاختلاف واضحا حول بداية الوباء ونهايته، وحول أسباب ظهوره، فإن الجميع متفقون على أن المرض ألحق أضرارا كبيرة بالمنطقة، حتى أنه "منع الناس، في نواحي عنابة من العمل وزهدهم في الحياة"⁽²⁾. وكان في مدينة قسنطينة، يحصد يوميا أرواح حوالي ثلاثين شخصا. كما أنه جعل سكان بجاية وجيجل "يهربون إلى قمم الجبال"⁽³⁾، وفيما يلي نورد بعض الإحصائيات التي جمعناها من مقالات كيون الأنفة الذكر⁽⁴⁾، وهي أرقام تقريبية فقط لأن من الصعب جدا أن يقوم الإنسان بإحصاء مضبوط نتيجة الفوضى والخوف اللذين يظهران عادة في هذه الأوضاع. ان السلطة لم تتخذ الإجراءات الاحترازية من الأوبئة رغم ان الوباء أصبح معروف لدى الخاص والعام، إلا ان البعض اتخذ من الأسباب لمقاومة الأوبئة طرق لا صلة لها بالأمر وفي هذا الصدد يقول حمدان خوجة: «ولعل الشيخ الباديسيرحمه الله في ذلك القصد آخر غير أنني رأيت رسالته من جملة ما يتحصن به من الطاعونذكر صورة قربان يقرأ في أذنه دعاء طويل جدا وينفث ثم يقرأ في إذنه الأخرى كذلك ثم ينفث ثم يفتح فم تلك الشاة فيقرأ ذلك الدعاء وينفث ثم يذبح فكل من أكل من لحمه آمن من الطاعون وهذا أشبه شيء بالنوع الذي يقال له بالتركي سنحته صايقلمه سي بعنوان هديان الطلبة إذا لم يعهد في السنة الدعاء في آذان البهائم وأفواهاها وذكر أسماء الله والتضرع إليه والدعاء والتلاوة الآيات تنزه عن مثل ذلك وهو مخالف غاية المخالفة لآداب الدعاء من الخشوع والخضوع وأرى أنه نوع من الرقى»⁽⁵⁾.

لقد كانت الفئة الفرنسية شديدة الاحتراز والاحتياط من الأوبئة التي تقع في الجزائر وفي هذا الصدد يقول حمدان بن عثمان خوجة: «تثبت التجربة وقد تقدم احترازي في الجزائر عند وقوع الوباء وسلمنا الله وأما النصارى الساكنون في الجزائر ونحوها حينئذ فلهم احتماء واحتياط تام بحيث لا يخرجون هم ولا خدامهم ولو الى زقاق ليس فيه أحد لاحتمال ان يطاء قطعة جلد او صوف أو خرقة أو بمسهم هر او كلب ومع ذلك فيحتزون خدامهم أيضا إذ ربما يتساهلون وأما مار رأيت من احتراز أهل أسلامبول (كذا) فليس من قواعد الكرننتنة في شيء»⁽⁶⁾.

(1) - حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين، مصدر سابق، ص 24-25.

(2) - نفس المصدر، ص 161.

(3) - نفس المصدر، ص 177.

(4) - Guyon, "la peste en Algérie", Le Moniteur Algérie N° 106 - 11.

(5) - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 55.

(6) - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 45.

يقول حمدان بن عثمان خوجة: « ولم أر أحدا من هؤلاء المتصوفة ينكر ذلك ولا يشنع على فاعله بل يبالغون في التشنيع على أمور مباحة ويدعون تحريمها ليستميلوا بذلك عوام الخلق ويستجروهم (كذا) إلى التوبة بقدرهم نسال الله ان يتدارك جميعنا بلطفه وعفوه»⁽¹⁾.

جدول لبعض الإحصائيات التي أوردها السيد كونفي الميدان الصحي في إقليم الشرق الجزائري⁽²⁾.

اسم البلدة	عدد السكان	عدد الموتى	النسبة المئوية
جيجل	6000	2000	30%
بسكرة	3000	450	15%
سيدي خالد	35	28	80%
أولاد جلال	1500	180	12%
طولقة	700	150	21,4%
فرفار	500	60	12%
ليشانة	600	130	21,4%
بوشقرون	200	30	15%
الزعاطشة	200	25	12,5%

من خلال الجدول يتبين لنا ان المناطق الأكثر تأثرا هي المناطق الداخلية مثل أولاد جلال وبسكرة وطولقة وسيدي خالد وهذه المناطق رعوية كثيرة الماشية وان أهلها يمتنون الرعي بالدرجة الاولى فهذه الأوبئة كانت فتاكة للبشر وقد تناقص عدد السكان في الشرق الجزائري لان الأوبئة كانت بشل دوري، ولم تتخذ السلطة إحترازا لذلك، وكأن ذلك لا يعينها ولا يعير له اهتمام، هذه الظروف الاجتماعية هي التي زادت في تباعد المحكوم عن الحاكم، لان من مستلزمات الأمانة هي اتخاذ الاحتياطات، وهذا الشأن لا يكون إلا من طرف سلطة قوية تلتزم تعهداتها كما يلتزم الاهالي بحقوق السلطة عليهم. ففي نفس السنة التي وقع فيها الوباء قام احمد المملوك باي قسنطينة بحملة لمنطقة الصحراء على سلاطين أولاد جلاب بتقرت، فسلب منهم 10000 بسيطة صغيرة وقطع لهم 200 نخلة،⁽³⁾ أما مدينة عنابة فإنها لم تسلم من الأوبئة والحروب فكان تأثير الوباء سنة 1817 م وأخفظ عدد سكانها إلى 5000 ساكن⁽⁴⁾.

(1) - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 54.

(2) - Guyon, "la peste en Algérie", Le Moniteur Algérie N° 106 .

(3) - نصر الدين سعيدوني، ورفات جزائرية، مرجع سابق، ص 512.

(4) - المرجع نفسه، ص 554.

و لقد ظهر مجموعة من امتهنوا مهنة الطب و من اهمهم نهاية الفترة العثمانية هم:

1- أحمد بن قاسم ساسي الميمي البوني (ابو العباس) ولد عنابة سنة 1063 و توفي بها سنة 1139 و له عدة آليف ذكرها في اجازته و يعبر في الجزائر من اهل الرأي و الصلاح و العلم و هو من ابرز مرابطين و فقهاء القرن الحادي عشر الهجري في عنابة و كان من اولوا من كتبوا في الطبو قد خلف اكثر من خمسة و اربعون مؤلفا في مجالا مختلفة و كان يجمع بين الطب و الروحانيات في اعماله الطبية كتابه " إعلام أهل القرية بالادوية الصحيحة" كما له مؤلف آخر " مبين المسارب في الاكل و الطب مع المشارب" في شكل نظم في آخر حياه و هو موسوعة صغيرة حول الادوية و طرق العلاج و مختلف المأكولا و المشروبا قسمها الى فصول و وضع نظمها في آخر حياه.

الظاهرة الصوفية ودورها الاجتماعي:

الحياة الصوفية من بين المظاهر الاجتماعية التي انتشرت في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية وأصبحت من المظاهر الأكثر انتشارا وتأثيرا في الحياة الاجتماعية، لقد تركت السلطة الشأن الاجتماعي في يد الأهالي واعتبرت ذلك شان يخصهم في إطار ثقافي في وسط المجتمع الحضري والريفي، رغم أنها استندت السلطة العثمانية على علماء ورجال الدين لدرء الغزو الخارجي باسم الجهاد، كما استندت عليهم في تقويض الثورات والاضطرابات الداخلية، كما أمدتهم بنوع من الثقة في تسيير شؤون البلاد من الناحية الدينية والفقهية والتعليمية، لكن تحت مراقبة كبيرة ورفعت عنهم الضرائب ومنحتهم تسيير شؤون المؤسسات التي يشرفون عليها، ولم تمنع أي نشاط يقومون به إلا ما يتعلق بأمن البلاد والعباد، وكان بايات الشرق الجزائري يقربون إليهم العلماء وشيوخ الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية، لشراء ثقتهم وأمنهمولائهم للسلطة.

و من المؤكد أن السلطة السياسية العثمانية في الجزائر كما في الشرق الجزائري عملت على احتواء المؤسسة الدينية ممثلة في سلطة الفقهاء والقضاة والعلماء الذين عملوا على تبرير مسلكية الخليفة وتسخير النص الديني لإضفاء الشرعية على النظام السياسي وأحكامه التشريعية والقضائية. وبالتواؤ مع المؤسسة الفقهية وبشتى الأساليب والوسائل. والهدف من ذلك هو إخضاع النص الديني والمعرفة الدينية، للأيدولوجية الرسمية لمؤسسة السلطة. حيث كانت السلطة تخشى أن يتأثر عامة الشعب بكتب وأفكار المعارضة التي كان الفقهاء عموما يكفرونها ويصنفونها في خانة "الإلحاد والزندقة"⁽¹⁾.

(1) سمير قسيمي، اجات في التصوف والطرق الصوفية الزوايا والمرجعية الدينية في الجزائر، مقال نشر في الموقع الالكتروني يوم 04 ماي 2014. ص 08.

كانت المرجعية الدينية الصوفية على طول التاريخ، تتحرك بأشكال وأساليب مختلفة حسب اختلاف البيئات والظروف، لكن دائما بوصفها سلطة موازية للسلطة الرسمية، وقوة معارضة ومهيكلية للمجتمع في مواجهة السلطة، وحليفها الطبيعي والتاريخي المتمثل في الفقيه⁽¹⁾.

المرجعية الصوفية والتواجد العثماني في الشرق الجزائري :

لعبت الزوايا والطرق الصوفية في أقاليم الجزائر، وبخاصة الطريقة الرحمانية، في الشرق الجزائري دورا محوريا بوصفها مرجعية دينية، في هيكلية المجتمع الجزائري، والاستجابة لحاجاته الدينية، الروحية والزمنية⁽²⁾. وإذا أخذنا المجتمع القبائلي كنموذج، نجد أن شيخ الطريقة يعتبر شخصية محورية في جميع الشؤون الدينية والزمنية المرتبطة بهذا المجتمع. وبإمكاننا أن نوجز الوظائف التي اضطلعت بها المرجعية الصوفية في ما يلي :

1- الوظيفة الدينية للمرجعية الصوفية: وتتمثل في التعليم والفتوى، حيث كانت الزوايا تقوم بتعليم القرآن الكريم ومختلف العلوم الشرعية والروحانية والرياضية والفلكية وغيرها. كما كانت تضطلع بمهمة الفتوى والقضاء، من خلال الإجابة عن التساؤلات الشرعية للناس والفصل في النزاعات التي يمكن أن تنشأ بينهم حول مختلف القضايا المرتبطة بالملكية والأحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية وغير ذلك.

2- الوظيفة الروحية للمرجعية الصوفية : وتتمثل في تلقين الذكر والتربية الصوفية.

3- الوظيفة السياسية والعسكرية للمرجعية الصوفية : وتتمثل في مقاومة المرجعية الدينية الصوفية ممثلة في زوايا الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل بخاصة، للسلطة العثمانية.

4- الوظيفة الاقتصادية للمرجعية الصوفية : وتتمثل في تنظيم النشاط الاقتصادي من خلال رعاية وتسيير الأوقاف الخاصة بالزوايا (أراضي، مواشي، عقارات مختلفة).

5- الوظيفة الاجتماعية للمرجعية الصوفية: وتتمثل في رعاية الفقراء والأيتام والأرامل، رعاية عابري السبيل وتقديم العون اللازم لهم حتى يرجعوا إلى أوطانهم أو قراهم أو مدتهم، وكذا الفصل في النزاعات القبلية والعروضية والعائلية، وتنظيم المواسم والاحتفالات الدينية ذات الطابع الاجتماعي (المولد النبوي الشريف، عاشوراء...)، إضافة إلى التأسيس الحضاري والعمري.

ولقد تمثلت هذه الميزة في قبائل المخزن التي أوجدت قبائل لا ترتبط بوحدة الدم والنسب بل ارتباطها بالسلطة والأمن والمصلحة المشتركة بين عناصر القبيلة والتي لا تذود إلا بولائها للسلطة العثمانية في الشرق

¹ - نفس المرجع السابق، ص 12.

² - نفس المرجع السابق، ص 16.

الجزائري⁽¹⁾، ذلك أن العامل الروحي الديني وحده، صار هو الأقدر على تقوية التلاحم بين هذه العناصر وتمتين صلابتها، ويلاحظ في هذا الصدد، أن بعض الجماعات البشرية، يرجع نسبها بكامل أفرادها إلى الولي المؤسس لها، أي إن الجد المؤسس في هذه الحالة، يجد المنطقة خالية تماما من السكان، كما حدث مع مدينة الهامل ببوسعادة، التي تعرف بأنها "مدينة الأشراف"، حيث لم يتمكن جميع من دخلوا هذه المدينة لاحقا، من الاختلاط بسكانها الأصليين الذين يعتبرون كلهم من الأشراف المرابطين، فحيازة الأولياء للشرف من خلال امتلاكهم لشجرة النسب التي تربطهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم تكسب القبيلة قوة وتماسكا داخليا، وسمعة وشهرة لدى القبائل الأخرى.

وقداسة الأولياء ليست مسألة طارئة عليهم، والمقدس في العرف الصوفي هو المطهر والمنزه والمبارك، أي هو مصدر الطهارة والتنزيه والبركة وهو ما ينطبق على آل البيت المطهرين بصريح النص الديني الذي يؤكد ذلك ويشتهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾⁽²⁾.

ارتباط الطرق الصوفية بالظاهرة العمرانية.

لقد ارتبطت الطرق الصوفية عبر التأسيس أو إعادة التأسيس في المدن أو في المدن الريفية والأرياف إلى تأسيس القبائل البدوية المعروفة بالمنطقة (شمال شرق الصحراء) مثل سيدي أحمد السايح الجد المؤسس لقبيلة أولاد السايح، وسيدي نايل الجد المؤسس لقبيلة أولاد نايل، عبر فرعها بالمنطقة عرش أولاد زكري⁽³⁾.

أما في ما يتعلق بالعمران الحضري، فقد كان للولي الصالح الدور المحوري في عملية التأسيس كما هو الشأن مع الولي سيدي أمطير مؤسس بلدة أولاد جلال القديمة التي كان موقعها على الضفة الجنوبية لوادي جدي بجوار زاويته التي تضم الآن ضريحه والمقبرة المحيطة بها. أو عملية إعادة التأسيس التي قام بها تلميذه سيدي أحمد بن سالم، والتي بدأت ببناء دار للضيوف في الضفة الشمالية المقابلة، بناء على طلب من سيدي أمطير وبرغبة من الولي سيدي عيسى بن أحمد⁽⁴⁾، بعد أن منعه فيضان الوادي من العبور إليه لدى زيارته له، وانتهت بخراب الأولى، وعمران الثانية التي أصبحت نواة البلدة الحالية.

وأخيرا يمكننا القول أن ضمان الحماية والاستمرارية بإضفاء البركة على العمران كان راسخا في الذهنية الجزائرية، كما هو الشأن مع مؤسسة مدينة توقرت الأميرة الأرملة تقرت، بعد نفيها من طرف أهالي غمرة رعايا

(1)- نصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 564.

(2)- سورة الأحزاب الآية 33.

(3)- عبد الرحمان بوزيدة، الجزائري وأسطورته المخيال الاجتماعي وآليات التماهي، م.و.ب-أ.ت، الجزائر، 2003، ص 76.

(4)- نفس المرجع السابق، ص 77.

زوجها سلطان غمرة بعد وفاته، وطردها من طرف سكان بلدة الشماس الواقعة إلى الجنوب بجوار توقرت الحالية، بالدعاء لها بالخير والبركة من الولي الصالح بالمسيلة (الحضنة) سيدي بوجملين، نتيجة إساءة سكان الشماس معاملته عندما أتى لأخذ القفارة منهم، والكرم والحفاوة اللذين حظي بهما من طرف الأميرة.

ثم الدور الذي قام به سيدي أحمد بن يحيى سلطان وادي ريغ الذي تولى الحكم لفترة انتقالية، في تأمين انتقال السلطة من الأميرة توقرت التي لم تخلف من يرثها في الحكم بعد وفاتها، إلى الشيخ سليمان بن جلاب الذي أسس حكم أسرة بني جلاب بالمنطقة بعد اتفاق بينه وبين السكان، يتنازل بموجبه الشيخ بن جلاب عن الديون التي كانت له في ذمتهم مقابل اعترافهم بسلطته عليهم⁽¹⁾.

6- الوظيفة الأمنية للمرجعية الصوفية : وتتمثل في توفير الأمن لجميع سكان المناطق التي تقع تحت حماية الطريقة الرحمانية، وذلك من خلال مبدأ "العناية" الشهير في منطقة القبائل وحتى على مستوى التعبير الشعبي في جميع المناطق الأخرى. بل إن هذا المصطلح/المفهوم (أقصد العناية) دخل حتى في نصوص المديح الصوفي للطريقة الرحمانية، حيث نجد في مدائح الباشتارزية وحنصالية وحتى في مدائح الطريقة العيساوية في مدينة قسنطينة وضواحيها⁽²⁾.

تلك الوظيفة الأمنية التي نتحدث عنها. وبموجبها كان الناس ينتقلون في طول البلاد وعرضها، لا يخافون على أنفسهم وأموالهم بمجرد أن يقول أحدهم : إنني في عناية سيدي أحمد بن عبد الرحمن، فلا يتعرض له أحد. بل إن قطاع الطرق الذين من عادتهم ممارسة الاعتداء والسلب والنهب، يتراجعون فوراً إذا سمعوا عبارة "العناية" لأنهم في القرارة أنفسهم، حتى وهم قطاع طرق، يعتقدون أن من يعتدي على من دخل في "عناية" أو حماية الولي، تلحقه كارثة في الحال أو في القريب العاجل، سواء في نفسه أو ماله أو أهله. هذه الوظيفة الأمنية التي لم يستطع حتى البايليك العثماني توفيرها، استطاع الأولياء حتى وهم في قبورهم، أن يوفرها للناس⁽³⁾.

ويلاحظ في هذا السياق، أن السلم هو ميزة مؤسسي العمران الريفي والحضري، بل هم ضحايا العنف كما هي الحال مع الأميرة توقرت المنفية، أو الولي سيدي أحمد بن يحيى الذي توصل إلى حل سلمي لمعضلة الديون بين سكان توقرت والشيخ سليمان بن جلاب⁽⁴⁾، وهي الوضعية نفسها بالنسبة لمؤسس بلدة أولاد جلال القديمة حول

(1) - عبد الرحمان بوزيدة، الجزائري وأسطورته، مرجع سابق ص 79.

(2) - نفس المرجع ص 80.

(3) - نفس المرجع، ص 81.

(4) - و لتثبيت نفسه على عرش توقرت حاول عبدالرحمان بن عامر كسب ود الفرنسيين الذين حطوا الرحال بمنطقة الزاب واحتلوا بسكرة سنة 1844 حيث اتصل بهم و عرض عليهم الاعتراف بسلطة على وادي ريغ و التحالف معهم ضد ابن عمهم و في

زاوية سيدي أمطير على الضفة الجنوبية لوادي جدي، الذي حاول في البداية الإقامة في بلدة سيدي خالد، ولكنه رُفض من طرف السكان ومُنع من الإقامة معهم، فعاد بعد طرده إلى الإقامة بجوار زاوية سيدي أمطير التي صارت نواة للبلدة. أما التحاق السكان للإقامة بالبلدة فقد كان يغلب عليه الطابع السلمي، حيث يتم قدوم بعضهم بصفة لاجئين فارين من بطش أعدائهم، أو كنجدة بطلب من السكان الأصليين لمواجهة أعداء متربصين بهم، وأخيرا كمساعدين بصفقتهم حرفيين، أو ناشري علم ومعرفة.

أما في العصر الحديث، فنلاحظ وجود مجموعة من الصراعات الناتجة عن التحولات الاجتماعية، أو بسبب محاولات السلطة المركزية العثمانية ممثلة في بايليك الشرق، بسط نفوذها والتحكم مباشرة في المنطقة (شمال شرق الصحراء) منذ منتصف القرن 18 الميلادي، من خلال نزع منصب "شيخ العرب" من أسرة بوعكاز الدواودة (الذين كانوا يتوارثون هذا المنصب من العهد الحفصي، وتم إقراره في العهد العثماني) وزرع عائلة غريبة عن المنطقة، من خلال تنصيب الشيخ الحاج بن قانة في منصب "شيخ العرب"⁽¹⁾ ومحاولة توسيع نفوذ هذه الأسرة بنزع مشيخة توقرت من أسرة بني جلاب الذين كانوا يتوارثون الحكم فيها منذ القرن 15 الميلادي، وتنصيب أحد أفراد أسرة بن قانة فيه. فجميع الصراعات الناتجة عن هذه السياسة العثمانية، أدت إلى تحطم البنى الاجتماعية القديمة ذات النمط الإدماجي وكل أشكال السلطة المحلية بالمنطقة في الثلث الأول من القرن 19 الميلادي، مما أدى بالنتيجة إلى توسيع مجال ومكانة الولي الصالح، حيث تجاوز مرحلة تأسيس القبيلة أو القرية، إلى تأسيس ما يشابه الاتحادية القبلية التي تضم مجموعات مختلفة من القبائل البدوية والريفية الحضرية، وتشمل مناطق شاسعة من بوادي

هذه الاثناء ظهرت على مسرح الاحداث عائلتان بالنسب و المصاهرة كانتا تتنافسان لاحواء مشيخة بن جلاب انهما عائلة بوعكاز و بن قانة لا سيما بعد ان اسند احمد باي منصب شيخ العرب لخاله الحاج بن قانة حيث اشتد الصراع بين العائلتين اللتين لم تكن تتحتمان سوى بمصالحهما و امتيازاتهما الخاصة اذ وقفت عائلة بن قانة الى جانب الفرنسيين ضد احمد باي الذي انهزم رغم المقاومة العنيفة التي بذلها منتظرا مساعدة اخواله دون جدوى كما مالت عائلة بوعكاز لمقاومة الامير عبدالقادر و لما ادركت التوغل الفرنسي سارعت لاستدراك الوضع و ايدت الاستعمار انقادا لنفوذها و مكانتها".

(1) - يقول محمد الصالح العنترى: " و اما محمد بن الحاج شيخ العرب المذكور فتراه وسوسة الشياطين من المخازنية قائلين له انت شيخ العرب و كنت تلبس القفطان و يضربون الطبول عليك مثل البايات و الان نقص من حظك و صاروا الطبول يضربون على راس بن عيسى و ليس من شائهم حينئذ استعاض ووقع الغيار في قلبه و صار الضرب بينه و بين حاج احمد باي و تعاطم الامر بينهما الى رفع قباطنه و زمالته من طرف محلة الباي و فروا معه المخازنية منهم بن البشير السراج و سي احمد بن الغضبان كبير اولاد سي داود و المكلي بن الجيجلي قائد النمامشة و سي الحفصي بن عون و ابن الاشر قائد العشور ".

وأرياف وحضر في شكل طرق صوفية، حيث أصبح للصراع مع أو بين الأولياء مؤسسي الطرق الصوفية أو فروعها بمنطقة شمال الصحراء، حضوراً قوياً، وذلك بسبب السياسة التي انتهجها البايليك العثماني في الجزائر⁽¹⁾.
 ففي منطقة الزاب، وبسبب مضاعفات ومخلفات السياسة العثمانية المذكورة، كان الصراع بين تلاميذ الشيخ سيدي محمد بن عزوز ناقل الطريقة الرحمانية إلى المنطقة⁽²⁾ ومن بعده الشيخ سيدي علي بن عمر مؤسس فرعها بطولقة، ممثلاً في كل من الشيخ المختار، والشيخ علي الجزولي، وهو الصراع الذي انتهى بخروج الشيخ المختار من بلدة سيدي خالد إلى أولاد جلال حيث أسس الزاوية المختارية، أو طرده من أفراد عشيرته حسب رواية أخرى، حيث تحول هذا الصراع إلى صراع بين البلديتين. أما في منطقة وادي ريع، فتمثلت هذه المضاعفات في الصراع بين الشيخ بن جلاب سلطان توقرت وبين سيدي الحاج علي التماسيني مؤسس الزاوية التجانية بتماسين⁽³⁾ بسبب تدخل سيدي الحاج علي في الصراع بين فرع أسرة بن جلاب الحكام في تماسين، مع سلطان توقرت ودخول قبائل المنطقة في الصراع، وبالأخص قبائل منطقة وادي سوف كحلفاء للمحورين المتصارعين⁽⁴⁾.

(1) - عبد الرحمان بوزيدة، مرجع سابق، ص 84.

(2) - هو الشيخ محمد بن عزوز، ولد رضي الله عنه بالبرج (برج بن عزوز حالياً) من واحات بسكرة في حدود سنة 1170 هـ، تربى في حجر والده الشيخ أحمد بن يوسف، وحفظ القرآن العظيم، واشتغل بتحصيل العلم، فأخذ منه بغية حتى تحصل في المعقول، وألف تأليف مفيدة، منها رسالة عالية في (قواطع المرید) و (شرح على التلخيص) وغيرهما، وقد تخرج على يده فحول منهم الشيخ سيدي علي بن عمر الطولقي، مؤسس زاوية طولقة، وسيدي عبد الحفيظ الخنقي صاحب زاوية خنقة سيدي ناجي، والشيخ سيدي المدني التواتي، وسيدي مبارك بن خويدم وغيرهم، وهؤلاء أتباع ومريدون لا يحصون، حتى إنه قلما يوجد في القطر الجزائري الشرقي والتونسي وطرابلس الغرب، وبنغازي، من ليس منتسباً لطريقته بواسطة، أو وسائط، بل كادت أن تسمى الطريقة الرحمانية بالعزوزية

(3) - سيدي الحاج علي التماسيني الخليفة الأعظم لمؤسس الزاوية (1844/1815) هو (علي بن الحاج عيسى (شريف حسني) وابن السيدة فاطمة بنت الزين. ولد سنة 1766 م بقرية تماسين (ولاية ورقلة) و500 كم من مقر زاوية عين ماضي. واشتهر بحبه للعلم وقوة عزمته في الكد والعمل من أجل الكسب الحلال. وشعاره الذي اشتهر به هو: " اللويحة والمسيحة والسبيحة حتى تخرج التويحة". وهي رموز طلب العلم والعمل والعبادة طيلة الحياة. وقد حذق القرآن صغيراً ودرس الفقه والنحو والصرف بمسقط رأسه. وإن كان مستوى التعليم الذي حصل عليه متواضعاً، إلا أنه كان كافياً لأداء واجباته الدينية، فاختار موقع تملّاح لبناء زاويته الجديدة التي دشنتها سنة 1805 م. وإثر وفاة مؤسس الطريقة ووراثته له سنة 1815 كما ذكرنا سابقاً، وفدت على زاوية تملّاح الآلاف من المقدمين والمريدين لمبايعته والتماس الدعاء الصالح والتوجيه والنصيحة.

(4) - عبدالرحمان بوزيدة، مرجع سابق، ص 84.

لقد اختلط التصوف بالبدعة والشعوذة والخرافة والتوسل بالأضرحة والقبور زهد وعبادة والانقطاع لله ليتحول إلى دروشة ودجل، خاصة بعدما مجل الحكام أهل التصوف الحقيقي، والكاذب والركون إلى الخرافات، حتى وصل الحد "ببوايي (boyer) أن قال: «أن المرابطين كانت ديانتهم أقرب منهم، فانقاد الكثير من السكان إلى الوثنية واغلبهم مصابون بالصرع وتقريبا هم جهال»،⁽¹⁾ خاصة في الفترة الأخيرة من التواجد العثماني للشعوذة والإيمان بالخرافات التي نشرها رجال الطرق الصوفية باسم الدين وتواطؤ مع السلطة فاستفحل أمرها وصارت مبعثا، فتحول الكثيرون من العلم إلى الخرافة ومن الولاية إلى الشعوذة⁽²⁾، للفوضى في البلاد وحل السحر محل العلم. فإذا كان علماء الجزائر كابن الفنون وابن العنابي يرون في هذا زندقة ودجلا؛ فإن كثيرا ممن كانوا محسوبين على العلم اتهموا بأعمال لها علاقة بالسحر والشعوذة، لهذا لا يدهشنا قول الأوربيين أن هذه الخرافات تخلف عقلي واجتماعي مثل "شو" (Shaw) حين قال: «إن علوم أهل الجزائر لا تتعدى السحر، لأنه في المقابل حين كان علماء أوروبا يناشدون بالحرية المرابطون والدرأويش سحرة العقلية ويبدعون في العلوم والفنون لفائدة الإنسانية، كان مرابطي الجزائر ينشرون البدع، والخرافات⁽³⁾، لقد استأثر المتصوفة باهتمام الناس لسداجتهم التي أدت حتى إلى دخول النساء في بعض الطقوس⁽⁴⁾ فكان الناس قبل ذهابهم إلى الحج يطوفون على كل مرابطي المنطقة ويقومون بالوعدة، إلى درجة وصل بهم الاعتقاد إلى أن⁽⁵⁾ كما يزورون زوايا المرابطين والطرق للتبرك، بماء بئر الزاوية من يداوي العقم ويحفظ الأولاد من الحمى⁽⁶⁾.

كما نجد من إضافة إلى الاعتقاد في بركة لعاب الصوفي للذي لا يعيش له أولاد النساء من يقدمن القرابين ويوقدن المصابيح ويضعن الزهور عند الأضرحة بنية إبعاد، حتى وصل الحد أن سئل أحدهم عنم هو أعظم الله أم المرابط سيدي محمد المصائب أمقران؟ فأجاب بدون تردد بأنهما الاثنان عظيمان، لكن سيدي أمقران⁽⁷⁾ نجد

(1) - أيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 126.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 482.

(3) - LAYER, Op.cit, pp19-20

(4) - FERAUD (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnault, Paris, 1869, p16.

(5) - BOYER (P.) La vie quotidienne à Alger a la veille de l'Intervention française, Imp. nationale monaco, 1964, p80.

(6) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 270.

(7) - واستنادا لبعض المؤرخين فإن التوجه الروحاني للشيخ (سيدي أحمد أمقران) قوى تحالف قبائل المنطقة ضد الحملة العسكرية لدوق بوفور (من جويلية إلى أكتوبر 1664) برعاية لويس الرابع العاشر والتي منيت بالهزيمة بفضل مقاومة الجزائريين. ويذكر أنه عن

عنده الخبز والمأوى. في الواقع العامة كانت تخاف الولي أكثر مما تحبه أو بالأحرى تحبه وهي مجبرة على ذلك، هذا بالإضافة إلى أن الاعتقاد بحماية المرباط والمتصوفة كانت مدركة لدى حائفة منه الجميع⁽¹⁾.

وكان لكل مدينة مرباط يحميها كان حيا أو ميتا ومن هنا تبرز لنا الأبعاد غيرالمتناهية لتكريم أضرحة المرباطين المتصوفة، وكان جلالاً وأوساط الاجتماعية المنخرطين في التصوف من حفظة القرآن وذوي اطلاع على بعض المبادئالفقهية والعقائدية، وكان الفقهاء في الطليعة. فالمتقفون يتمتعون بالقيادة الروحية في المجتمع رفقة شيوخالطرق مقدميها، وبهذا اعتبر التصوف جزءا من ممارسة العلم، لذا كان علماء الجزائر يأخذون العهد عن شيوخالطرق عندما يقصدون المغرب أو المشرق لطلب العلم، كما كانت زيارة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني⁽²⁾.

وتقدم الهدايا الثمينة لحراسه تعد جزءا مكملا لحجهم⁽³⁾، إلى درجة أنهم كانوا يتباهون بأخذ الطرق والأذكار ورحلاتهم بين الفقيه والصوفي حيث تقمص الفقهاء شخصية الصلحاء وانتظموا في الطرق، وهي ظاهرة الصوفية، كما أن الصوفي درس الفقه والفقيه درس التصوف العصر آنذاك. لذا اعتني كثيرا بدراسة التصوف من مناقب وأذكار وعلوم أهل الباطن⁽⁴⁾، فنجد الكثير من المدرسين يدرسون التصوف في مجالسهم العلمية، فمثلا الورتيلاني كان يجتهد في دراسة التصوف. لذا نجد في رحلته زنديقا وأن عالم أصول الدين الذي لا يدرس التصوف يعد فاسقا⁽⁵⁾، فلا غرو أن نجده يفخر بزيارته عدة أولياء، وخص جزءا من رحلته لذكر الأولياء الذين زارهم في المغرب أو المشرق، وقد نعتهم بالعلم والمعرفة مصدقا ومسلما بكرامتهم مثل غيره من العلماء ممن كان يؤمن ببركة الأولياء الصالحين في رد الهجمات الخارجية أمثال الوليسيدي عبد الرحمان الثعالبي⁽⁶⁾.

طريق الجهاد ضد المحتل جاء الرجل المؤمن ليلتحق بعمه الشيخ فاضل أمقران مؤسس إحدى الزوايا بمدخل المدينة العتيقة (تهدمت تماما في 1859) وابن السلطان الذي يحمل نفس الاسم والذي قتل من طرف الأتراك في 1550، حيث سكن هذا الرجل المؤمن قلوب اهل جيغل وهذه المنطقة التي خصصت له بأعالي قمة الجبل. وكانت تقام صلوات وتؤدى أناشيد دينية في مدح النبي من طرف الجميع.

(1) - حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1985 ج3، ص545

(2) - حركات إبراهيم، نفس المرجع، ص547.

(3) - نصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، ص12.

(4) - سبنسر وليام، مصدر سابق، ص105.

(5) - نصر الدين سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص137.

(6) - كوثراني وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولايات العثمانية ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

1988، ص44.

ومن هذا المنطلق نجد تأليف عدة خلال العهد العثماني لمؤلفين كابن الفقون والورتلاني وقد سبقهما الصباغ وابن مريم وغيرهما من الذين أرحوا للمرابطين والأولياء الصالحين⁽¹⁾، وتناولوهم بالدرس والتعريف لتراجم الأولياء خاصة الذين عاصروهم من هنا نستنتج أن التصوف شمل كل الفئات الاجتماعية طيلة العهد العثماني لأنه شاع بين الفقهاء والعامّة وحتى الحكام، فالدارس للحالة الاجتماعية لهذه الفترة يدرك مدى تعمق وتجدد هذه الظاهرة في المجتمع، حتى أننا نجد من المؤلفين من كانت البدع والجهل وركود العلم والخرافة والتصوف سببا لتأليف مؤلفات مثلما كان الحال للحال لدى الفقون الذي ألف "منشور الهداية" في القرن 17م منتقدا فيه انحراف المتصوفة عن التصوف الحقيقي وتحالفهم مع الولاة الفاسدين فاعتبرهم "حزب الشيطان" رغم كونه متصوفا⁽²⁾.

يرجع انتشار التصوف خلال العهد العثماني إلى بساطة الناس وتصديقهم لخرافة المرابطين، لهذا كثر المرابطين والزوايا خاصة بعد اختيار الريف كمركز للنشاط وهذا لبساطة عقلية السكان، إضافة إلى تسابق القبائل على اتخاذ مرابط لتدعيم مركزها، وجلب المنفعة لها ببركتها التي جعلت وراثية في العائلة المرابطية، فأدى هذا إلى، الذين يعتبرون من الأشراف أو من الذين ادعوا الشرف، وهو ما جعل الناس⁽³⁾، كثرة المرابطين يتسابقون الانتماء إليهم، خاصة بعد اضطهاد العثمانيين لهم وإرهاقهم بالضرائب، فوجدوا، كما أن تبجيل الحكام⁽⁴⁾، نتيجة للفراغ السياسي وقلة الأمن في الطرق الصوفية البديل للمتصوفة الحقيقي منهم والكاذب⁽⁵⁾ وعدم اهتمامهم بالتعليم سمح بانتشار التصوف والخرافات⁽⁶⁾، التي أدت إلى انحدار المجتمع في هوة الشعوذة وبالتالي ونتيجة للأسباب السابقة انتشرت الطرق الصوفية في الجزائر شرقا وغربا والتيجانية⁽⁷⁾ والتي كان منشأها المغرب الأقصى، ما عدا القادرية التي جاءت من المشرق، حيث وجدت بالجزائر ما لا يقل عن 23 طريقة لها 349 زاوية ومهددا عين ماضي، أي أن ربع، مرديرها 57 شيخا وستة آلاف مقدم⁽⁸⁾ ينطوي تحتها 189. 295 مرید⁽⁹⁾ السكان

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 388

(2) - عبد الكريم ابن الفقون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق ابو القاسم سعد الله،

ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987. ص34.

(3) - الفيلاي، المرجع السابق، ص25-24

(4) - عبد الكريم الفقون، مصدر سابق، ص37

(5) - نفسه، ص59

(6) - حليمي عبد القادر، مرجع سابق، ص271

(7) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص-467.

(8) - DEPPONT COPOLANI, Op-Cit, p210.

(9) - SIMIAN (M) :Opcit ,p15.

منطوي تحت لواء الطرق،⁽¹⁾ وكان أكثرها انتشارا الرحمانية التي تضم 156000 فرد منهم ثلاثة عشر ألف (13.000) امرأة لكن "شارل أندري جوليان" (André.G) قدرهم بـ 236000 فرد، والقادرية كان لها 87000 تابع، أما، هذا بالإضافة إلى الدرقاوية، الشاذلية، الطيبة، الحنصالية والتيجانية فلها 60000 تابع للشايبية، وأغلبها ظهر خلال فترة الدايات⁽²⁾.

لم تكن فئة العلماء ظاهرة وليدة العهد العثماني، ولا هي ميزة خاصة بالجزائر، رغم أنها شكلت بالجزائر طبقة مميزة، محترمة، موفورة الكرامة، لهذا تقرب منهم رجال السلطة وحشوا بأسهم لقوة تأثيرهم على الأهالي وبما أن الطابع الغالب في ذلك العصر هو الطابع الديني العلمي، فلم يفصل بين العلم والدين لأن كلاهما يكمل الآخر، فحسب معيار العصر فالعالم الحق كان عليه أن، لذا فكلمة علماء تعني رجال الدين⁽³⁾ يكون عالما وفقهيا في دينه قبل دراسة أمور دنياه، (لأن الحياة الفكرية كانت دينية صوفية في آن واحد بالمعنى الأدق)⁽⁴⁾.

والعلماء نعني بهم رجال الدين أو رجال الشريعة لأنها فئة تمثل أعضاء مجالس القضاء⁽⁵⁾ والمراكز الدينية والتعليمية ورؤساء الطرق الصوفية ونقابة الأشراف الذين هم العلماء بحق، فكل محدث أو فقيه أو مفسر يعد في نظر الناس "عالما" ويلقب "بسيدي فلان"⁽⁶⁾، وإن من جمع بين عدة علوم فهو عالم نحرير وبحر غزير وقد قسم أبو القاسم سعد الله العلماء خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أصناف: العلماء الموظفون والفقهاء المستقلون اللذين لا صلة لهم بالتصوف، ثم العلماء المتصوفة ثم⁽⁷⁾، هذا من الناحية العلمية؛ أما من الناحية المتصوفة دعاة العلم، والولاية (المرابطين) الوظيفية فهم طبقتين: الطبقة الرسمية التي تشمل القضاة والمفاتي والمدرسين ثم الطبقة المنحدرة من سلالة الملحقمة بها من رجال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف الرسول صلى الله عليه وسلم" وهم على شكل مجموعات في كل الأحياء تحت رئاسة "نقيب الأشراف"⁽⁸⁾.

(1) - العربي الغالي، الثورات الشعبية في الجزائر، ص 151.

(2) - G.ANDRE, Op.cit p210.

(3) - التوفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 37.

(4) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 388.

(5) - RAYMOND (A.), Grandes villes arabes à l'époque Ottomane, Sindbad, Paris 1985, p78.

(6) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 481.

(7) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص - 48.

(8) - والتعريف بكتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية".

وغالبا ما يكون تابعا لنقيب إسطنبول وقد تولت هذه الأخيرة وظائف دينية هامة، وحسب حمدان خوجة فقد وجد في كل مدينة نقيب للأشراف بمثابة الحاكم الثاني للمدينة، ويختار من الأسر الشريفية، وقد اشتهرت هذه العائلة ان تجتمع مع كامل أمناء البلد⁽¹⁾، التابعين له من أجل اتخاذ التدابير اللازمة الفئمة بالورع والتقوى وهذا الأمر أكسبهم احترام وتقدير الحكام الذين سعوا إلى التقرب منهم، ومن هؤلاء الداوي بكداش الذي سعى إلى كسبهم، فبني لهم زاوية خاصة بهم عام 1709م⁽²⁾، كما أوقف لها أوقافا يندرج ضمن فئة العلماء. كما أشرنا إليه سابقا شيوخ الإفتاء والأئمة والخطباء والوعاظ، إضافة إلى الخوجات⁽³⁾، وخدام الأضرحة⁽⁴⁾ و المؤدبون والقائمون بشؤون المساجد والمثقفون الأحرار والمرابطون، الذين سيكون لهم دور بارز في ربط السكان بالسلطة العثمانية.⁽⁵⁾ فالجلس العلمي الذي ينعقد في الجامع الكبير بقسنطينة كل يوم جمعة بحضور الباي فيتكون فيشمل العلماء من الحضر وهم لا يطمحون للمناصب السياسية، ولتولي هذه المناصب التي دفعت بالسلطة إلى جعلهم في موقف الوسيطية بينها وبين الأهالي، هذا الدور كان يخضع للظروف الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع التي وضعت العلماء في مستويات مختلفة حسب دورهم في الوساطة للشؤون العالقة بين السلطة والاهالي او رؤساء القبائل ومرابطين كانت لهم وضعية مريحة مقابل حيادهم عن السياسة، وهم يترفعون عن علماء الريف ويعارضون توليهم الوظائف⁽⁶⁾.

ويكون في دائرة ضيقة عن رعاية التعليم والقيام بدور المؤذن والإمام عالم الريف الفصل في الخصومات والإصلاح بين القبائل أما بالريف فكان المرابط ينتمي إلى عائلة دينية⁽⁷⁾، وكانت فئة العلماء في الجزائر عربية باستثناء القضاة وشيوخ الإفتاء الأحناف ويعرفها "أندرى ريمون" على أنها "تجمع بشري واسع وغامض وغير متحد في نشاطاته"، والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية لتكون أقل انفتاحا على المجتمع رغم النزعة الاحتكارية، فهي لم تشكل تلاحما اجتماعيا⁽⁸⁾.

(1) - الأصلة، عدد، 13، 1973، ص 18.

(2) - RAYMOND, Op.cit , p85.

(3) - حمدان خوجة، المصدر السابق ص 125.

(4) - سعيدوني، دراسات في الملكية، ص 209.

(5) - نصر الدين سعيدوني سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني، ص 155.

(6) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 398.

(7) - TRUMELET, Les saints de l'islam, p49.

(8) - Chailon Lucien, L'Algérie en 1781 mémoire de consul. Imp nouvelle, toulon ; 1974, p58.

اكتسبت فئة العلماء امتيازات، بفضل توليها للتدريس والمهام القانونية والشرعية، فكانوا مجرد وسطاء بين الحكام والرعية، حيث احتكرت عائلات وظيفية ما لسنوات عدة اعتمادا على علاقة البنوة⁽¹⁾، كما أننا نجد أفراد هذه الفئة في مستويات معيشية متنوعة لهذا الأخوة أو المصاهرة كانت عنصر أقل ثباتا في المجتمع حيث أن ثروة فرد عادي قد تصل حتريال في. حين كانت ثروة عالم لا تتعدى 63 ريال وقد أعتبر أفراد فئة العلماء كمرشدين دينيين واجتماعيين يرتبطون بالمجتمع عن طريق التوعية الفكرية والدينية⁽²⁾، وأحيانا يكونوا في وجه الانحراف السياسي والتقاعس، لذا مثلوا الرأي عن الجهاد⁽³⁾، والتعسف الضريبي وهذا ما زاد من قوتهم ومكانتهم العام بالجزائر رغم ترفعهم الطبقي، فصلتهم بالأهالي كانت عن طريق الدروس ومنهم من كان يجلس في المقاهي، ويختلط بالناس، فيكثر عليه الدرس والخطب فيلفت نظر السلطة فتحشاه⁽⁴⁾.

حظيت هذه الفئة بالاحترام والتقدير من طرف المجتمع، خاصة مع طلبتهم⁽⁵⁾، لذا حيث كان أساس علاقتهم الاحترام المتبادل بينهم، لتفانيهم في خدمة العلم والثقافة كانوا محل إجلال وتقدير ونلمس هذا من خلال كتب التراجم ومذكرات العلماء حول مشايخهم، ونستشهد بما كتبه محمد بن علي السنوسي في قوله عن أحد أساتذة " ومنهم⁽⁶⁾.

كما أن شيخنا وشيخ مشايخنا المهام الحافظ الإمام سيدي محمد أبو رأس الناصري "...الطبقة الثرية الميسورة كانت تقلد أنماط سلوك هذه الفئة، وكل فرد منهم إذا استقبل عالما، وهذا بحكم تواجدهم في مجتمع يغلب عليه الفراغ الثقافي⁽⁷⁾ عد شرفا له المصادر أنه أثناء حملات البايليك كان الأهالي يقدمون العلماء أمام المحلة حاملين صحيح البخاري طلبا للأمن لهم وللسكان⁽⁸⁾، وكدليل على الطاعة ودفع الضريبة⁽⁹⁾، فهو

(1)- LIOREL (J.), Kabylie du Djurjura, Leroux , Paris, 1892, p451.

(2) -Trumelet, Les saints de l'islam, p49.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 139.

(4) - سليمان، المرجع السابق، ص71.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص234.

(6) - ابن هطال التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص53.

(7)-TRUMELET, op Cit, p49.

(8) - سعيدوني، ورقات جزائرية، ص283.

(9)- BROSSELDARD, Les khouans constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, H. Bourget, Alger, 1859, p22.

شخصية أما بالريف فكان المرابط لا يتقاسم الظروف الصعبة مع القبيلة رئيسية يستمد نفوذه من نفوذ زاويته، ونظرا لهذا النفوذ الروحي بين الأهالي حرس أغا العرب والقادة على ربط علاقات تعاون معه آخذين بعين الاعتبار واقع الزاوية، لذا نلمس تأثير المرابط جليا في الأحداث التي الاجتماعية والاقتصادي وتلبية حاجياتها، وقد فاق ما منحه احترام كبير بين الحكام، والأهالي تمس القاعدة الشعبية⁽¹⁾.

وما يمكن قوله عن هذه الفئة هو أنها كانت نافذة السلطة الحاكمة على المجتمع وهذا من خلال الوظائف التي تقلدتها من خلال مراتب الإفتاء القضاء، الإمامة وغيرها. من الوظائف الدينية التي تعد أحد مجالات التعبير عن السلطة المحلية.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن بناء المساجد كان نتيجة للمبادرات الفردية، لأن الدولة لم تكن تولي الاهتمام لبناء المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية، وما كان يقوم به الحكام من تشييد المساجد وحبس الأوقاف من مالههم وأموالهم الخاصة، خاصة عندما كانت الغنائم البحرية كبيرة التي أدت إلى كثرة المساجد تعبيرا عن واجبهم الديني⁽²⁾. الذي يمثل معهدا للتعليم قسنطينة وجامع بجاية الذي كان خلال العهد العثماني مركزا للنشاط الديني والقضائي إذ فاق نشاطه المساجد الحنفية كجامع، وكان مقرا للمفتي المالكي والمجلس العلمي أما قسنطينة فحسب الورثيلاي الذي زارها في القرن 18م، يوجد بها خمسة، في حين أحصى بها "فيرو 75 مسجدا وجامعا إضافة إلى السجوامع خطبة⁽³⁾، أما "قايد " GAID فيذكر أنه توجد سبعة مساجد خارج المدينة وهذا الإحصاء كان كان عهد صالح باي⁽⁴⁾.

وبلغت مساجد عنابة بما قرابة مائة مركز ديني بين مسجد وزاوية وجامع ومدرسة 37 مسجدا أشهرها مسجد "سيدي مروان"⁽⁵⁾، أما أشهر مساجد بجاية هو ذلك الذي بناه مصطفى باشا، إضافة إلى المسجد الذي الذي بناه أحمد القلي بالقل سنة 1170هـ/1754م اعترافا منه بمساعدة أهلها عندما كان أغا ومنها من لم تكن

⁽¹⁾- LE TOURNEAU (R.), Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord. M. de livres, Alger, 1957, p100.

⁽²⁾ - VENTURE, Op.cit, p180.

⁽³⁾ - الورثيلاي، المصدر السابق، ص 685.

⁽⁴⁾ - Féraud (Ch.), " Les anciens établissement religieux Musulmans de Constantine", Constantine", in R.A N°10, 1868, p130.

⁽⁵⁾- GAID (M.), Chronique des Beys de Constantine, O. P.U, Alger, S.D, p131

له أوقاف لصيانته⁽¹⁾، فنجد مثلا أن أحمد ساسي البوني يشتكي خراب مساجد عنابة، كما يقدم الورثيلاني⁽²⁾ للداي محمد بكداش، فقال: «خربت المساجد وقل فيها الساجد»، وصفا لبعض المساجد في القرن 18م بهذه العبارات «فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا»،⁽³⁾.

وقد قسمت الزوايا إلى نوعين: زوايا حرة لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفية. يدير شؤونها مجلس يتكون من الطلبة، أما النوع الثاني فهو عكس النوع الأول يخضع في تسييره للشيخ المؤسس أو خلفه، كما نجد فيها النوع الخلواتي والغير خلواتي، فالأول يدعي شيوخها المعرفة بالأسرار الغيبية لهم مردين وورد خاص بهم، ويسمون بالطرقين ويقومون "بالحضرة" لهم فروع في كامل أنحاء البلاد، أما النوع الغير⁽⁴⁾ الخواتي لا يدعي شيوخه معرفة الغيب، وهم أيضا لهم ورد خاص تتلمذ بهذه الزوايا بها غالبية علماء الجزائر في العهد العثماني أمثال عبدالكريم الفقون، حيث كانت تجلب أبوراس الناصري محمد بن علي السنوسي إليها العديد من الطلبة فزاوية سيدي تواتي يدرس بها نحو مائتي (200) طالب، وهي مركز، في حين كان يدرس بزاوية جماعة الصهاريج لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد خمسمائة (500) طالب وتقوم بالإنفاق عليهم كلهم⁽⁵⁾، أما زاوية نقاوس فهي تنفق تنفق على مائتي (200) طالب، أما زاوية سيدي منصور كان يقصدها من مائة (100) طالبا إلى مائة وخمسون (150) طالب وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي، التي تميزت بمستوى تعليمي عالي يدرس بها مائة وخمسة وعشرين طالب (125) ويدرس بها خمسة وعشرون (25) مدرسا⁽⁶⁾ كانت الزاوية غالبا ما تضم غرف لإيواء الطلبة وأخرى للدراسة، وتكون تحت، وأما بعض الزوايا فكان الإشراف عليها متوارثا في العائلة⁽⁷⁾، إشراف المقدم أو الوكيل ويساعد خليفة المرابط الذي يتولى التعليم أو الإشراف على مدرسيها الوكيل ووجدت بها مخازن للمؤن من أجل تمويل الطلبة والفقراء الخدم كان من مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الزوايا في كامل أنحاء

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص250

(2) -EMERIT (M.), l'Algérie à l'époque d'Abdel Kader, la Rose, Paris, 1951, p82.

(3) -CONAL J.), " Monographie de L'Arrondissement de Tlemcen" in B.S.G.A.O N°17- 1887, p107.

(4) - يحيى بو بوعزيز، أوضاع المؤسسات، المرجع السابق، ص16.

(5) -FERAUD (ch.), Histoire des villes. Bougie, p217.

(6) -Dr, SHAW, Op.cit, p142.

(7) -SALHI (M. B.), "Confréries religieuses et champs religieux en grande Kabyle au milieu du 20^{eme} Siècle, La Rahmaniya ", in ann.af. N°33 ,1994 ,p258.

البلاد، خاصة بالأرياف ويعود هذا إلى افتقارها للمؤسسات التعليمية الأخرى⁽¹⁾، إضافة إلى انتشار الطرق الصوفية التي كان مركزها الزوايا، 17م وهما تابعتان للطريقة الرحمانية.⁽²⁾

أما مدينة قسنطينة فقد وجد بها ست عشر زاوية، منها ما كان تابعا للعائلات⁽³⁾، كما الكبرى بالمدينة، مثل زاوية أولاد الفقون وزاوية ابن نعمون وزاوية أولاد جلول من العلماء والفقهاء وتعد منطقة القبائل أغنى المناطق بالزوايا⁽⁴⁾، حيث تصل حتى الخمسين زاوية أشهرها زاوية "تيزي راشد" المعروفة بزاوية "ابن أعراب"، وهي الزاوية التي درس بها الباي، هذا دون أن نغفل الدور الذي قامت به محمد الدباح، وزاوية الأزهرية بيت إسماعيل زوايا الصحراء كزاوية عين ماضي التي وصل تأثيرها حتى الحدود الجزائرية المغربية كما كانت هناك زوايا أخرى لها تأثير بارز على الحياة الثقافية والاجتماعية كزاوية، وغيرها من الزوايا زاوية قرومة بمنطقة القبائل وزاوية طولقة الأخرى التي هدفنا ليس ذكرها وتعدادها بقدر إبراز دورها في ميدان التعليم، ونشر الدين والتوسط لحل القضايا المدنية أو الدينية ومساهمتها في توطيد العلاقات والروابط الاجتماعية.

(1) الفيلاي، المرجع السابق، ص 27.

(2) - التعريف بالطريقة الرحمانية، الطريقة الرحمانية (بالقبائلية: ترخمنت) هي طريقة صوفية، تأسست في 1774 ميلادي، من قبل سيدي أحمد بوقيرين، بن سيدي عبد الرحمن الجرجري، في الجزائر. الطريقة الرحمانية، الحفناوي، الخلوئية، عرفت جمهور كبير حتى القرن التاسع عشر، وتمكنت من ترسيخ نفسها بقوة وانتشرت في شمال أفريقيا وذلك لأنها طريقة مقاومة وقفت بوجه الإستعمار (الإستعمار) الفرنسي سيدي أحمد بوقيرين (رضي الله عنه) هو مؤسس الطريقة الرحمانية، ولد حوالي عام 1774 ميلادي، في قرية آيت إسماعيل، قرب بوغني، في منطقة القبائل وشيد هذه الزاوية العلمية، بمكان بالجزائر العاصمة، أصبح يسمى فيما بعد بمنطقة الحامة. شاعت زاوية الحامة، العلمية، في جميع أنحاء الجزائر، إذ كانت ترحب بالفقراء والأيتام والأجانب، وعابري السبيل، وتقبل كل من ينتسب إليها لطلب العلم، وهي أيضا جامعة كبيرة، حيث يتم بها تدريس العديد من العلوم العقلية منها والنقلية. الطريقة الرحمانية أصلها هي الطريقة الخلوئية أصبحت تسمى بالرحمانية، نسبة إلى سيدي عبد الرحمن الجرجري، والد مؤسس الطريقة الرحمانية، سيدي أحمد بن عبد الرحمان بوقيرين (رضي الله عنهما). كان العصر الذهبي للطريقة الرحمانية: من 1774 م، إلى 1871 م، ثم انتقل إلى منطقة طولقة التابعة إدارية إلى ولاية بسكرة، وحاليا أكبر مركز للطريقة الرحمانية، هو الزاوية القاسمية العلمية، الموجودة بمنطقة الهامل التابعة إدارياً إلى دائرة بوسعادة، بولاية المسيلة الجزائرية. الجزائر، في الشرق، الوسط، والجنوب الجزائري، خاصة في الجزائر العاصمة، مسيلة الجلفة، قسنطينة، عنابة، ميلة، أم البواقي، سطيف، بسكرة، باتنة، وبلاد القبائل، وفي مناطق عديدة منها، مصر، في القاهرة ومناطق أخرى، وفلسطين، وموريتانيا، في شنقيط، و نواكشوط ومناطق أخرى، كما يتواجدون في عدد كبير من الدول الإفريقية، منها، مالي خاصة في تمبكتو، والنيجر، و تشاد، وسنغال، وهم يتواجدون بكثرة في سنغال، وساحل العاج، وغانا، وغينيا، وغيرها من المناطق).

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 268.

(4) - الناصري، عجائب الأسفار، مصدر سابق، ص 150.

وعلى هذا الأساس عملت الزوايا على تحفيظ القرآن الكريم ونشر التعليم، والإسلام في المناطق النائية كما كانت ولا زالت مخازن للكتب والمخطوطات، كما ساهمت في إزالة الفوارق الاجتماعية وتوطيد العلاقات بين فئات المجتمع وحرارت السلطة المستبدة، فالزاوية الواحدة تضم الفقير والغني، العالم والأمي لكن اعتمادها للمنهج التقليدي في التعليم أدى إلى الركود والجمود الفكري وشيوع الدروشة⁽¹⁾ والانحرافات تعتمد هذه الزوايا في الإنفاق على المتمدرسين وعلى العلماء المدرسين بها⁽²⁾، والهدايا التي يقدمها أفراد القبيلة إضافة إلى ما يجمعه الطلبة من أموال والهبات والزكاة من المناطق التي تخضع لنفوذها، دون أن ننسى تبرعات المسافرين والزوار⁽³⁾، كما كانت تخصص لها أراضي يعود مردودها للزاوية، يقصدونها للتبرك بضريح مؤسسها، وغالبا ما تكون هذه الأراضي محيطة بها يشتغل فيها رجال لصالح المدرسين والطلبة، كما تجدر الإشارة إلى أن حبوس الزوايا أماكن لا يجرؤ أحد على التعدي عليها (الزاوية)⁽⁴⁾.

لقد عرفت المدارس انتشارا واسعا خلال العهد العثماني حيث لا يكاد يخلو حي من أحياء المدن من هذه المدارس⁽⁵⁾، أما أبوراس الناصري واعتبرها مركز للتعليم العالي أما مدارس قسنطينة فلم تكن تقل أهمية عن مدارس مدينة الجزائر، فقد عرفت هي الأخرى إشعاعا ثقافيا خاصة عهد صالح باي الذي أسس المدرسة الكتانية عام، كما 1190هـ / 1776م لتعليم مختلف العلوم، وقد جعل لها نظاما خاصا⁽⁶⁾، وقد قدر أنه أسس عدة مدارس في "عناية وجيجل" وكان يلحق بكل مدرسة مسجدا وكتابا ومكتبة، لكن "إميريت (Émélite)" عدد مدارس قسنطينة عند دخول الفرنسيين ب90 مدرسة⁽⁷⁾. يذكر أن عددها كان 86 مدرسة⁽⁸⁾، يدرس بها 1350 تلميذا تلميذا⁽⁹⁾.

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص274.

(2) - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الثقافية، مرجع سابق، ص19.

(3) - EMERIT, L'état Intellectuel..., p06

(4) - MERCIER (E.), Etude sur la confrérie des khouans de sidi Abd- El Kader El Djellani, Arnolet, Paris, 1869, p17

(5) - TURIN, Op.cit, p126.

(6) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص276.

(7) - نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، مطبعة - البعث، - قسنطينة قسنطينة 1965، ص132.

(8) - EMERIT, l'état Intellectuel -; op Cit , p4.

(9) - TURIN, Op.cit, p131. 60.

لكنها لم تكن خاضعة لأي طريقة صوفية، بل كانت متفتحة على كل⁽¹⁾ نفس الوقت. وجل مؤسسها أو المشرفين عليها كانوا علماء التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية، كما أنها كانت مقصدا لبعض العلماء بغرض التعلم وتعليم الدين، فالورثيلايني يقول: "كنت أصوم فيها رمضان (بجاية) ناويا للرباط، مع تعليمي الطلبة راجيا أن يكون. فكانت المعمرة تسيير من القائمين فيها والمتخرجين منها ومهمتها الإصلاح وإرجاع الأمور إلى ما يتطلبه الوضع الذي أنشئت من اجله وينقسمون طلبتها الى طبقات وهي :

1-القداش :هم التلاميذ الصغار المبتدئين من حفاظ القرآن وتعلم الكتابة.

2-الطلبة: وهم فوق القداش سنا وثقافة وهم المرحلة الثانية من التلقين في الفقه وعلم اللغة والحديث.

3-المقدمون والوكلاء والشيوخالكبار، وهي أعلى طبقة مهمتها تسيير المؤسسة التي يرأسها الشيخ مسن

يساعده عدد من كبار الطلبة والمقدمين والوكلاء، وبالإضافة إلى مهمة التعليم للصغار المبتدئين.

يقال عن مدينة قسنطينة التي كانت زواياها وبيوت أسرها تعج بالمكتبات التي حوت كتب المشاركة والأندلسيين، إضافة إلى المؤلفات المحلية خاص عهد صالح باي الذي وفر الاستقرار وشجع العلماء وجلب الكتب وحبس الأوقاف عليها، وحسب ما أورده "قفاريل" (Gaffarel) أن أهلها كانوا مولعين باقتناء الكتب⁽¹⁾² الطلبة. والبحث عن نفائس المخطوطات إن وجدت فغنى مكتبات الجزائر كان نتيجة انتشار حركة التأليف والنسخ، وبالإضافة إلى الكتب التي كانت تصل إليها عن طريق الحجاج والعلماء الرحالة، فالجبرتي ذكر أن حاجا جزائريا حاول إغواؤه حسب قوله لبيعه كتاب في الفلك للسمرقندي، وبعد رفضه اشترى هذا الحاج نسخة منه لإبراهيم الزمردى ب 20 ريال، كما يذكر ابن حمادوش في رحلته عددا من الكتب التي⁽³⁾، إضافة إلى عدد كبير من الكتب اشتراها، بل كان عند البعض للتفاخر بها خاصة بين بعض العائلات شيوخ القبائل كانوا يقلدون الملوك والسلاطين في إنشاء خزائن الكتب مثلما فعل أبو عبد الله محمد الصخري بن أحمد الشريف، شيخ قبيلة الذواودة المعادية للأتراك.

وهناك كتب وصلت الجزائر عن طريق العثمانيين أنفسهم فalcضاة وشيوخ الإنشاء والدررايش الذين يرافقون الجند من اسطنبول، غالبا ما كانوا يحملون مكتباتهم الخاصة، كما استفادت مكتبات الشرق الجزائري من تراث الأندلسيين الذين هاجروا إلى الجزائر وجملوا معهم كتب كثيرة وهذا ما أشار إليه التمرغوطي بقوله "وتوجد فيها

(1) - نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، ص 215.

(2) - مزيان عبد الحميد، "طريق الذهب وطريق الثقافة" الأصاله، عدد3، 1971، ص19.

(3) - أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني (1807-1877)، (ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص16.

(مدينة الجزائر) كتب الأندلس كثيرا⁽¹⁾. وتجدر الإشارة في هذا الإطار أنه كان في الجزائر نوعان من المكتبات منها العامة والخاصة، وغالبا ما كانت هذه المكتبات بجوار المسجد أو المدرسة، فالمكتبات العامة كانت ملحقة بالمساجد والمدارس والزوايا، حيث كانت مساجد الخطبة تحتوي على خزائن الكتب التي أوقفت على العلماء والطلبة، مثل مكتبة المدرسة الكتانية في قسنطينة⁽²⁾. على عهده وجد بها حوالي ثلاثمائة مجلد، وهذا بالرغم من الإهمال والتلف والنهب الذي تعرضت له، أما المكتبات الخاصة فعددها كبير جدا، وتعود خاصة إلى العائلات التي نالت شهرة علمية⁽³⁾، كعائلة الفقون التي تملك أضخم مكتبة في مدينة قسنطينة التي يوجد بها 2500 مجلد⁽⁴⁾.

وفي الأخير يمكننا القول أن الأوضاع الاجتماعية في الشرق الجزائري خلال الفترة الأخيرة من تواجد السلطة العثمانية قد تطورت بشكل رهيب، وذلك ناتج عن تردي الأوضاع الى هذه الدرجة عدة أسباب تضافرت وتداخلت فأنتجت لنا مجتمع غير منسجم، لتحدي الأخطار المحدقة به. فالسلطة استأثرت بجمع أموال على شكل ضرائب وغرامات وحقوق شرعية الى غير ذلك من الأنواع ولم تترك نشاط من الأنشطة إلا وفرضت عليه نوع من أنواع الغرامات واستخدمت في ذلك القوة العسكرية المتمثلة في الحملات فكانت عمليات السلب والمصادرة غير مقننة لدرجة ان هذه العملي كثير ما كانت تصطدم بالموالفة وتقع فيها ضحايا وجرحي وتشريد. فالسلطة لم تقدم للأهالي من الخدمات ما يقابله من جباية الضرائب، لقد أوكلت العملية لزيانية النظام وأصحاب الامتيازات وأصبحت العملية يشوبها اللانظام رغم أنها منظمة من الناحية النظرية.

فالبنية الاجتماعية في الحواضر او الأرياف تفككت قواها بسبب انهيار اقتصادها وكساد منتجها الذي سيطرت عليه فئة من المتعاملين وكانت هذه الفئة ذات مكانة عند السلطة وهي التي تمثل السلطة الفعلية عند الاهالي، فكثير من الحرف توقف الممتنون بها، وأغلقت الورشات في كثير من الأحيان لأن السلطة لم تعذر على عدم دفع الضرائب، وعمليات مصادرة الاملاك والحملات كانت قائمة من طرق أمناء الحرف.

لم تكن الطبيعة في كثير من السنوات معطاءة فكان شح السماء من الأمطار بشك دوري أدى الى انتشار الجوع والفقر وشحت الأرض عن النبات فخسر أهل الريف من ماشيتهم الكثير.

(1) - التمرغوطي أبو الحسن علي، النفحة المسكية في السفارة التركية، ص 139.

(2) - مزيان عبد الحميد، "طريق الذهب وطريق الثقافة" الأصالة، عدد 3، 1971، ص 19.

(3) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 296..

(4) - مزيان عبد الحميد، "طريق الذهب وطريق الثقافة" الأصالة، عدد 3، 1971، ص 23.

على اثر ذلك انتشرت المجاعة ومنها ظهرت الأوبئة الفتاكة أمام سلطة جامدة عن تقديم شيء للسكان، بل لم تحاول تجديد في هياكلها ولا أدوات عيشها ولم تكثر بما يجري من حولها في الدول الأوربية التي كانت قرية منها، لأن تعاملها الاقتصادي كان قائما وقوي.

لم تهتم السلطة العثمانية بالشأن الاجتماعي بل تركته لأهل البلد، فكثر المساجد والزوايا والمدارس وتعددت الطرق الصوفية، لدرجة ان أصحت لكل قرية وحي مسجده ومدرسته وحي طريقته الصوفية، فالمصادر المالية كانت كبيرة لهذه المؤسسات الدينية، لأن أوقافها ازدادت عن ما كانت من قبل بسبب التهرب الجبائي من السلطة، إلا أن هذه المؤسسات وان كانت سلطوية إلا، أنها كانت في خدمة السلطة عن طريق تنفيذ سياسة السلطة في حكامها وتسيير شؤونها وشراء ذمم الأئمة وشيوخ الزوايا ومن طرف السلطة المحلية ليكون لها اعتراف ضمني ومباشر بها.

تلك هي الظروف الاجتماعية زادت في اتساع الهوة بين الحاكم والمحكوم، ونشأت من شأن ذلك نع من الرفض للتواجد العثماني في الشرق الجزائري وهيأت لذلك الثورات المتتالية ضد السلطة العثمانية.

الفصل الخامس: التطورات الاجتماعية خلال فترة الاحتلال الفرنسي

1871-1837 م

المبحث الأول: تغيير البنية الاجتماعية للسن في الشرق الجزائري.

المبحث الثاني: تراجع الحياة الاجتماعية في الريف وانقسام بنية القبيلة.

المبحث الثالث: المبحث الثالث: الأقلية الأوربية وأثرها على الحياة الاجتماعية .

المبحث الرابع : ذروة الانفجار الاجتماعي في الشرق الجزائري.

المبحث الأول: تغير البنية الاجتماعية للمدن في الشرق الجزائري.

قررت فرنسا رسميا ان توطن نفسها في الجزائر بالوسائل العسكرية مستعملة في ذلك كل الوسائل المتاحة في المرحلة الاولى اما المرحلة الثانية فانها الحقت فرنسا الجزائر بما دستوريا و سياسيا اما المرحلة الثالثة و هو فترة الحكم الامبراطوري فاراد نابليون ان يمنح الجزائر الحكم الذاتي فيما عرف باسم " المملكة العربية " المحمية من قبل فرنسا و هذه المراحل الثلاثة تستمر من 1830 الى 1871 اين تبدا التزامات فرنسا امام المانيا.⁽¹⁾

إن وصف التطورات الاجتماعية في الشرق الجزائري يقتضي إعادة الأذهان إلى الوضع الذي كانت تشتهر به المنطقة، وأسس الوضع الاجتماعي الذي يبنى أساسا على المراكز الأساسية التي تربط الفرد بمجتمعه، وأولى تلك المراكز هي المساجد والزوايا والمكتبات والمدارس، ولعل الاتفاق العام بين المؤرخين أن عددها كان كبيرا، إذ لا يفتقر حي أو تجمع سكاني خالي من واحدة من هذه المؤسسات، لكنها تعبر في حجمها على أهميتها في الجانب العددي والجانب العلمي، وقد بلغ عدد سكان عنابة سنة 1842م حوالي 8.799 نسمة، يمثل الأوروبيون منهم 4.799 والعرب 4.000 نسمة، وقبل ذلك أضحت خالية من السكان بسبب الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830 والحصار الذي ضربه احمد باي على يد القائد بن عيسى⁽²⁾ حتى 05 من شهر مارس 1832.

و حين رجوع القوات الفرنسية لها واحتلالها من جديد تحت الجنرال منك ديزر⁽³⁾؛ فقدت عنابة مكانتها الحيوية الاقتصادية والاستراتيجية التي كانت تحتلها في الفترة العثمانية، وخسر باي قسنطينة أهم شريان للمبادلات التجارية والمواد الأولية، وهي من الاستراتيجيات الفرنسية لمحاصرة باي الشرق الجزائري، لكن

(1) - ابو القاسم سعد الله، ابحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 89.

(2) - كتب محمد الصالح العنتري في التاريخ قسنطينة " فلما وصل ابن العنتري المذكور (اب الكاتب) الى قسنطينة و اجتمع من المذكورين و حدثهم بما سمعه وما راه. اما الشيخ بن الفقون، قائد الدار صدقوا و اذعنوا و صاروا يدبروا في عاقبة الامور ، و اما بن عيسى اصابته حماقة و انوفة (كذا) و زعم ابن العنتري اخذ الدراهم من عند المريشال وولد السلطان فرانصة لاجل ان يشيع قوة الفرائصيص فيحصل بذلك الخوف الى الناس البلاد، و لم يقيم العنتري الا يوم واحد في قسنطينة و رجع الى الباي " ارجع الى ص 130 من كتاب محمد الصالح العنتري تاريخ قسنطينة .

(3) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1842-1843.p181.

الوضع الاجتماعي لهذه المدينة تغير بسبب تدفق الهجرة الأوربية لهذه المدينة وأصبح عدد الأوربيين يفوق عدد الجزائريين فيها نظرا للخوف والسياسة الاستعمارية.⁽¹⁾

لقد شرعت السلطة الاستعمارية في إنشاء عدة مصالح لخدماتها وهذا لتجسيد الفعل الاستيطاني وإضفاء الطابع الأوربي على المدن⁽²⁾، وكان ذلك كضرورة لتحقيق الفعل الاستيطاني والاستغلالي لمنطقة الشرق الجزائري، فأجهزة الاستعمار تطلبت أن تنشأ عدة مؤسسات إدارية وخدمانية واقتصادية، يقول اندري برنار " لم يكن المعمرون في الواقع إلا عدد قليل من المحتكرين اكتسبوا الأراضي بثمن بخس و بصفة خيالية على ان يبيعوها مغاليين في ثمنها بعد سقيها بدماء جنودها و ما افضحها مهمة ".⁽³⁾ ومن أهمها شق الطرق وبناء الجسور وفتح المعابر الجبلية، وتجفيف المياه الضحلة من المستنقعات وبناء المستشفيات وبناء المؤسسات الدينية المسيحية والمؤسسات التعليمية، وكذا المراكز العسكرية ومنشآت الأمنية ومقرات الدرك والمستشفيات، وتخطيط المدن الجديدة وإعادة تأهيل المدن القديمة بما يستجيب لمتطلباتها الاجتماعية والأمنية والاقتصادية⁽⁴⁾، والغرض من كل ذلك هو تحقيق الرفاهية للفئة الوافدة من القوة الأمنية العسكرية والاستغلال الاقتصادي لفئة المعمرين ونشر ما يحقق للثقافة الأوربية من دين ولغة وثقافة لفئة الأوربيين وإضفاء الطابع الأوربي في الشرق الجزائري وفي الجزائر بأسرها⁽⁵⁾.

ومن بين المشاريع الكبرى التي قامت بها السلطة الاستعمارية في الشرق الجزائري شق الطرق وبناء الجسور وربط المناطق ببعضها البعض. و الهدف من وراء ذلك تقريب هذه المناطق وتسهيل عمليات الوصول والاتصال بها ففي سنة 1854-1855 بلغ عدد القوة الدفاعية الفرنسية في الجزائر ما يزيد عن 14.230 فرد من القوة الفرنسية ومن الجنديين من الاهالي حسب ما يبينه الجدول التالي.

(1) - تناقص عدد سكان عنابة بشكل ملاحظ فكان عدد سكانها اوائل القرن التاسع عشر ما يربو عن 5.000 نسمة و لتأثير الوباء عليها ثم استمر في التناقص حتى بلغ 1600 نسمة عشية الاحتلال الفرنسي للمدينة سنة 1830 عد تكاثر الفتن عليها من طرف الجيش الفرنسي و لم يبق فيها سوى 1500 ساكن ثلثاهما من اليهود المتعاونين مع فرنسا . راجع كتاب ورقات جزائرية، نصر الدين سعيدوني، ص 512-513.

(2) - سعيد بو خاوش، مرجع سابق، ص 41.

(3) - اندري برنار و اخرون ، مرجع سابق ، ص 245.

(4) - يحيى بوعزيز، مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، السنة العاشرة، العدد 59، 1989، ص 28.

(5) - الشيخ أحمد الشريف الأطرش السنوسي، تاريخ الجزائر في خمسة قرون، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص 312.

القوة العسكرية الفرنسية في الجزائر سنة 1854-1855⁽¹⁾

الفرسان			الجنود			الصفة
المجموع	الزمر	الضباط	المجموع	شبه ضباط و جنود	الضباط	الرتب
547	//	547	431	187	244	القيادة
335	304	31	583	562	21	أفراد الدرك
9.948	8.447	1.501	59.880	57.686	2.194	فرق عسكرية مختلفة
99	59	40	4.825	4.653	172	العناصر الخارجية
3.301	2.866	435	7.231	6.908	323	المجندين من الاهالي
14.230	11.676	2.554	72.950	69.996	2.954	المجموع العام

سعت فرنسا لتقوية تواجدها في الشرق الجزائري ببناء مشاريع ضخمة خاصة في تهيئة المدن القديمة بما يتناسب ومشاريعها الاقتصادية والاجتماعية وعلى حساب الممتلكات الخاصة بالجزائريين،⁽²⁾ فبفضل المصلحة العامة قامت بهدم الكثير من المحلات والمنشآت الاقتصادية والاجتماعية وهذا ما حدث في عنابة وسكيكدة وقسنطينة وكل المدن الشرق الجزائري وإضفاء الطابع الأوربي على المدن القديمة وإيجاد ساحات عمومية تتوسط الهياكل القاعدية للإدارة الفرنسية في الجزائر،⁽³⁾ ولقد تطورت مجموعة كبيرة من المراكز العسكرية الى مدن حديثة وعصرية رعيت فيها النمط المعماري الأوربي وشيدت فيها المقرات الإدارية، والمقرات العسكرية وبنيات خاصة للمستوطنين المدنيين والعسكريين والسلطات التي ترعى شؤون السلطة الاستعمارية، وربطت بشبكة من الطرق حيث اصبحت فيما بعدة مدن زراعية ولها دور اقتصادي واجتماعي وتغيرت أسماء العديد من المدن، وارتبطت أسماء المدن المستحدثة بأسماء القادة العسكريين الفرنسيين.⁽⁴⁾

⁽¹⁾-TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844.p125.

⁽²⁾ - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر، مرجع سابق، ص 127.

⁽³⁾ - يقول ايفون تيران "ليس هناك طالبيا لجزائر لا يعد احا في طريقة دينية و لديهم نظرائهم في مجموعة زوايا ذات علاقة " مرجع سابق ص 130.

⁽⁴⁾ - جمال قنان، نفس المرجع، ص 131.

وبانتشار اللغة الفرنسية التي أصبحت لغة التخاطب والإدارة، وانتشار الكنائس والمؤسسات الدينية المسيحية، وفي معظم الأحيان كانت على حساب المؤسسات التعليمية⁽¹⁾ والدينية التقليدية للجزائريين، تنازلت مكانة اللغة العربية وهمشت وضيق الخناق المادي والمالي على المؤسسات الدينية بمصادرة الاوقاف، كل ذلك أدى الى انتشار الأمية والجهل والفقر، وهو الثالوث القاتل للشعوب والأمم⁽²⁾.

كانت سياسة الإستيطان التي انتهجتها فرنسا قد أثرت على الحياة الاجتماعية سلبا وإيجابا، فالإيجابيات لم تكن لصالح الجزائريين ولم لغرض يرضيهم او يخدمهم، ولكن كانت على حسابهم وعلى مجهودهم وأموالهم وعرق جبينهم، فشتت الحرفيين وخربت مؤسساتها وصادرت ما يمكن ان يصادر وتركت المجتمع في وضعية سوء. ومن هذه المنشآت التي أقامتها في مدينة سكيكدة وعنابة وغيرها غيرت من وضعها الاجتماعي بعدما هجرها أهلها إلا القليل ومن هذه المنشآت التي اقيمت في مدينة عنابة هي كما يلي :

الإدارة العامة : إصلاح المنشآت للإدارات الفرعية البحرية..... 8.0000 فرنك⁽³⁾

الصحة العمومية : إقامة أماكن الحجز، ومؤسسات الحفظ الصحي..... 7.000

أشغال العمومية : الطرق والجسور، بناء حظيرة ومكاتب وسكنات..... 25.000

الشؤون الدينية : إنشاء كنيسة والمساجد والقليس (مكان العبادة لليهود..... 4.000

القضاء: إنشاء محكمة وثكنة الدرك وسجن..... 16.000

إدارة المراكز المالية : بناء مركز للحمارك ومراب للمعالجة..... 91.000

المصالح الأخرى : بناء مدرسة اجتماعية وبناء مكتب للموازين والمقاييس وبناء مسلخ..... 16.000

هذه الإجراءات التي تمت في عنابة من طرف السلطة الفرنسية، غيرت البنية الفئوية المكونة للمجتمع العنابي، ففئة الأوربيين فاقت فئة الجزائريين، وفئة اليهود استأثرت بالمراكز الأساسية الاقتصادية، والطابع العمراني تغير من حيث النشاط والأهمية، والمظهر الاجتماعي سادته الطابع العسكري والأوربي⁽⁴⁾.

(1) - كان مرسوم 30 سبتمبر 1851 عين ثلاث مدارس عليا في تلمسان و المدينة و قسنطينة ،

(2) - أحمد الشريف الأطرش السنوسي، مرجع سابق، ص 392.

(3) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844.p ;116.

(4) - يبلغ دوسال في 1851 ، بان سيدي الكتاني تعد 73 من الطلبة المسجلين في الدروس التقليدية الثلاثة للنحو والقانون الاسلامي و علم اللاهوت ، لكن سرعان ما انزل هذا النجاح الى حجمه الحقيقي ، فكان تلاميذ سيد الكستاني ينتمون الى قسم قسنطينة و الذين ليسوا من الزوايا و هو ما يعني انه في اي مكان اخر كانت منافسة المراكز التقليدية غالبية (ايغون تيران ص 248).

لم تبق لفئة الأتراك قوتهم ولا سلطتهم ولم تبقى لفئة الكراغلة مكانتهم وعزتهم وامتيازاتهم،⁽¹⁾ ولا مؤسساتهم الدينية والتعليمية نشاط يجمع فئات الأطفال للتعليم وحفظ القرآن وتعاليم الشرع، وعوضت الإدارة التركية بإدارة فرنسية استعمارية عسكرية ومدنية في جو مفعم بالمتغيرات والمتناقضات، والقبائل التي كانت متجمعة في أسواق المدينة قد تفرقت والكثير منهم دخل في المليشيات التي كونتها فرنسا لمقاومة إخوان جلدتهم، فأنتشر الفقر والجوع وأهملت المزارع والبساتين بعدما صادرتها فرنسا، وتوقفت المؤسسات الدينية على العطاء.⁽²⁾

خراب المدن في الشرق الجزائري وأثره الاجتماعي:

لقد كان للاحتلال الفرنسي للمدن في الشرق الجزائري أثره البارز، وهذا منذ أن احتلت المدن الساحلية من القالة إلى عنابة⁽³⁾ وسكيكدة وبجاية وجيجل، وهنا نلاحظ همجية الاستعمار الفرنسي التي مارسها على المناطق التي وصل إلى احتلالها وغزوها، لم يبقى في عاصمة الأيالة سوى 18.000 نسمة ولم يبقى في قسنطينة سوى 22.000 نسمة⁽⁴⁾ علما أن كلتا المدينتين كانتا تأويان قبل الغزو الفرنسي لهما 100.000 نسمة⁽⁵⁾، وتناقص عدد سكان المدن مؤثر على اضطراب الوضع الاجتماعي والاقتصادي، أن سكان الجزائر تناقص باستمرار، يمكن إرجاع تناقص عدد سكان المدن إلى عدة أسباب منها :

1- المقاومة المسلحة التي شهدتها معظم المناطق وعلى رأسها المدن التي أدت إلى فقدان العديد من المقاومين والأهالي والأطفال، لأن عمليات الغزو الفرنسي لم تراعي أخلاقيات الحرب ولا التمييز بين المحارب الحامل للسلاح والمدني، وهذه الظاهرة وجدت في كل المناطق التي كانت تدخل إليها عنوة، فمدينة قسنطينة دكت أسوارها بالمدفعية وهذا هو الذي أهلها على الدخول واحتلال قسنطينة سنة 1837، بعد انهزام أحمد باي في الدفاع على قسنطينة اتجه ومن معه نحو الجنوب القسنطيني لإعادة ترتيب شؤون الدفاع على قسنطينة من جديد أحمد باي يقول: «لذلك استدعيت سادة القوم فاجتمعوا حولي وبعد أن استعرضت الموقف،

(1) - الاعزال التي كانت بيد الطبقة الحاكمة أصبحت تابعة للسلطة الفرنسية بالإضافة إلى أملاك البايليك و الأملاك الوقفية وكل ذلك عن طريق قوانين متلاحقة .

(2) - ناصر الدين سعيدوني ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ص 219.

(3) - احتل الفرنسيون مدينة عنابة سنة 1830 وخرجوا منها في نفس السنة تم أعيد احتلالها سنة 1832 في هذه الفترة شهدت المدينة خرابا واسعا وهجرة كبيرة طلبا للأمن وتناقص عدد سكانها إلى 1500 شخص، ثلثهم من اليهود الذين كانوا متعاونين مع السلطة العسكرية الفرنسية.

(4) - نصر الدين سعيدوني، وراق جزائرية، مرجع سابق، ص 514.

(5) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول 1860-1900، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 80.

اقترحت عليهم تشكيل زمالة¹ بجميع الذين خرجوا من المدينة ثم نقودها الى مكان آمن في الجنوب وبنقيها فيها تحت حماية مشاتنا، أما نحن فنرجع فورا الى المدينة ونتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع حركة المرور»⁽²⁾.

2- يتبين لنا أن أعداد كبيرة من سكان قسنطينة خرجوا منها، وذلك بدون عودة لأنهم كانوا يمثلون حلفاء للحاج أحمد باي، فقد كان عدد سكان مدينة المسيلة يبلغ عند الاحتلال 1841 حوالي 1200 نسمة فلم يبقى منهم سوى 400 نسمة وكان سكان بوسعادة يبلغ حوالي 2000 ساكن وبسكرة التي كانت تضم 4.000 ساكن، سنة 1844م أما سنة 1859 فتنازل عدد سكانها إلى 3.000 ساكن⁽³⁾، و تنازل عدد سكان المدن كان يحدث مباشرة بعد الدخول الفرنسي لكل مدينة.

3- ظهور الأوبئة والأمراض : لقد ترتب عن الاحتلال الفرنسي لمدينة الشرق الجزائري انتشار الأمراض والأوبئة⁽⁴⁾ وكانت من جراء تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وفقدان العديد من الأفراد لأموالهم وحرفهم والبعض منهم أصبح من المقاومين وملاحق من طرف السلطة الاستعمارية، لقد أودت الكوليرا التي ظهرت بظهور الجيش الفرنسي إلى تناقصهم ووصل عدد الوفيات من الأهالي سنة 1845 إلى نسبة 4.05% وقد ارتفعت نسبة الوفيات سنة 1848 إلى 8.55% وقيل إن نسبة سكان المدن انخفض إلى 60.928 نسمة عندما كان عددهم يبلغ 85.131 نسمة بين سنة 1846 و 1848 نتيجة انتشار وباء الكوليرا⁽⁵⁾.

4- الهجرة الداخلية : شهدت المناطق الحدودية هجرة كبيرة للسكان نظرا لسياسة فرنسا، خاصة إلى تونس ومنها نحو المشرق العربي، لان سكان تلك المناطق كانت لهم علاقات تجارية مع تونس، فالضغوطات الاستعمارية تشجعت بهذه السياسة لإفراغ الأرض من سكانها وتخفيض قوة المقاومة التي كانت مستمرة كلما تقدم الجنود الفرنسيين إلى مدينة داخلية لأن ذلك كان يثير الخوف والرعب في أوساط المجتمع الجزائري من جهة ومن جهة أخرى لان الجيش الفرنسي كان لا يحترم شؤون الحرب وأخلاقيات الحربية، فشاعت عنهم

(1) - الزمالة المدينة المتنقلة التي أنشأها الامير عبد القادر بعدما غزت القوات الفرنسية عاصمته القارة في معسكر ثم مازونة .

(2) - صالح فركوس، الحاج احمد باي قسنطينة(1826-1850)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 71. انظر

محمد العربي الزبيري " مذكرات الحاج احمد باي، ونقلا من المجلة الأفريقية سنة 1837 شهر نوفمبر، ص 21.

(3) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، صص 84-86.

(4) - ناصر الدين سعيدوني ، اجاث و اراء ، مرجع سابق ، ص 218.

(5) - جيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية 1867-1868 بالجزائر، مضم للنشر، الجزائر 2013، ص 130.

ذلك ما اقترفوه في الجهات التي سبق احتلالها من قتل وتشريد وتخريب، مثل قبيلة العوفية في نواحي الحراش بالقرب من الجزائر العاصمة.

فئة المستوطنين تستأثر بمناصب السلطة واختفاء فئة العثمانيين والكراغلة.

لقد نتج عن تطور الأوضاع الاجتماعية في المدن من جراء عمليات الاحتلال تغير في البنية الاجتماعية المكون لسكان المدن ففئة الأتراك ذابت وأصبحت غير ممثلة للسلطة بسبب زوال السلطة العثمانية بسقوط عاصمة البايليك،⁽¹⁾ فمنهم من انسحب مع أحمد باي إلى الناحية الجنوبية نحو بسكرة والمناطق المجاورة لها، ومنهم من ترك البلاد نحو تونس أو بلاد المشرق، وهو نفس الأمر بالنسبة لفئة الكراغلة التي كانت تحتل المرتبة الثانية في هرم الفئات المكونة لسكان المدن، أما شيوخ الخيام الكبيرة اقترت السلطة الفرنسية اصحاب الاقطاعات الكبيرة الوراثية مثل الال مقران و ال بن حبيلس و ال بن عاشور و ال بن قانة كان هؤلاء مسميين من طرف السلطة الفرنسية و ان سلطتهم بقي ثابتا في اسرهم .² ويقول في هذا الصدد أبو القاسم سعد الله: «فقد غزاها أهل الجبال، و اعتبر بعض الفرنسيين ذلك نوعا من إعادة احتلال المدن من قبل الجبليين إذ أخذوا مكان الحضر والعناصر الأندلسية والكراغلة. وأخذهم فيها بالحرف والصنائع و الوظائف».⁽³⁾

لقد فقدت السلطة من أهاليها، وحلت محلها سلطة فرنسية عسكرية ذات مشاريع استيطانية، وأهداف سياسية لم تكن واضحة المعالم في بداية الأمر، لان عملية المقاومة مازالت مستمرة في الشرق الجزائري أن القبائل الواقعة في سفوح بين عنابة وبجاية تقوم بعمليات هجومية ضد المقرات العسكرية الفرنسية أو ضد القوافل العربية التي تقطع الطريق الذي يصل بين سكيكدة وقسنطينة وهذه الهجومات تمثل حرب حقيقية⁽⁴⁾، والأوضاع لم تهدأ بعد استمرار جهود احمد باي للمقاومة في الشرق الجزائري وبسبب تجاذب بين المدنيين والعسكريين.

لكن فئة المستوطنين أخذت بالظهور وتأخذ ريادة الفئات التي كانت تمثل السلطة في العهد العثماني، وهي أكثر تسلطا وأكثر اندفاعا لاستئثارها بالمناصب والكسب والتسيير لشؤون المنطقة، لقد ظهرت فئة من

(1) - صالح فركوس، الحاج احمد باي قسنطينة(1826-1850)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 26.

(2) - اندري بزناو و آخرون ، مرجع سابق ، ص 301.

(3) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 94.

(4) - par un constantinien ; coup d'œil sur l'Administration Française dans la province de Constantine ; imprimerie de h fournier ; Paris 1843. p 22.

البورجوازية تقاسمت شكليا السلطة مع بعض القيادات التي كانت لها ارث تاريخي في وسط المجتمع، على أساس أنها تبقى تحت مراقبة القادة العسكريين، وهو نوع من التمويه الظرفي، فتنصيب حمودة ابن الفقون على رأس هيئة قسنطينة بعد احتلالها لم يكن إلا لغرض طمأنة سكان المدينة، ابن شيخ الإسلام الذي نشأ في المسجد، والذي لم يمارس أي نشاط وظيفي عمومي قبل الدخول العسكري الفرنسي إلى قسنطينة، كان شاب صغير في هذا العهد، لكن لاعتبارات عائلية اختير لنبله من طرف المارشال فالي كحاكم على قسنطينة.⁽¹⁾ ونظرا لأهمية المنصب الذي يشغله استغله لتحويل كل الحاجيات التي وقعت في أيدي جنودنا بعد سقوط قسنطينة تلك الأشياء التي وضعناها في بيت أبيه، وكلف كذلك بتقسيم نفقات الحرب على سكان المدينة والتي تقدر ب 200.000 بوجو فرض كل أنواع السلب على السكان هذه الضرائب كانت صفة عليه حيث استغلها لصالحه، المجلس البلدي لقسنطينة لاحظ عملية السطو التي جرت من العملية لبعض الجوهرات التي تدخل في عمليات الضرائب، المجتمع العربي القسنطيني أدان بشدة حمودة الفقون سنة 1841 بعد عزله من منصبه وأحيل على المحكمة العربية وأدين بغرامة مالية قدرت ب 15.000 فرنك.⁽²⁾ وخضع في نفس الفترة إلى تحقيق لجنة أدهوك (ad hoc) الذي أقرت بأن حمودة ارتكب جريمة في عملية التسيير التي أسندت له واستولى على عدة أملاك تابعة للدولة.

وفي شهر جويلية 1842 حمودة ينظم ثورة في قبيلة من القبائل التي يشرف عليها أخوه أين كان أخوه شيخا عليها في بلاد القبائل والذي كان يمد أفراد هذه القبيلة بالسلح لكي توجه ضدنا، لذلك أصبح حمودة تحت يد وزير الحرب الذي حكم عليه بالنفي إلى الجزائر العاصمة ومن هناك يمكنه التوجه نحو الإسكندرية أين تقيم عائلته، وفي طريقه إلى الإسكندرية يتحصل على جواز سفر ليعود به إلى فرنسا أين استقر هناك⁽³⁾، وتحقيق مقولة فرنسا أنها جاءت إلى الجزائر لتخلصنا من فئة الأتراك المغامرين، فقد ورد في التعليمات التي زود بها قائد الحملة دوبرومونجاء فيها ما يلي: «فهؤلاء السكان الذينهم من المور والعرب لا يتحملون إلا على

(1) - يقول العنتري: "كان سي حمودة ابن الشيخ واقف مع الفرنسيين بخالص نيته. و لم يقصر في خدمته و كان يكتب الى شيوخ الوطن و يجلبهم، فاول من انقاد من الشيوخ و دخل في خدمة الفرنسيين الشيخ بو عكاز بن عاشور فرحيوة ثم بن عز الدين شيخ زواغة، و ثم اولاد بن مذكور و مشايخ الحراكنة و ثم شيخ امية ولا زالوا الشيوخ يعطفون و يكونوا في طاعة الفرنسيين واحد بعدواحد. ص138.

(2) - محمد الصالح العنتري، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص 137.

(3) - par un constantinien ; coup d'œil sur l'Administration Française dans la province de Constantine ; imprimerie de h fournier ; Paris 1843. pp 54-55.

مضض السيطرة العنيفة والمتعسفة لبضعة آلاف من الأتراك، فهذا الموضوع يجب أن يشكل المحور الرئيسي في هذه الإعلانات إلى جانب وعد السكان بتخليصهم من القهر الذي يعانون منه والمسلط عليهم من طرف الميليشيا التركية، لكن يجب تجنب وعدهم بالاستقلال...»⁽¹⁾.

حلت فئة الأوربيون الذين استوطنوا المدن في بداية الامر ثم أصبحوا يزحفون على المناطق الريفية التي صادرتها السلطة الاستعمارية بقوانين أحادية الطرح، وصبح الجزائريون عرضة للفقر والتهميش والإقصاء من الوظائف إلا على الذي اثبت ولاءه وخدمته لفرنسا وسلطتها العسكرية⁽²⁾، وانتقلت مقاليد السلطة الى الفرنسيين وللبعض من الجزائريين التي كانت السلطة الفرنسية تختارهم عن رضا من أمرها لتجعلهم واجهة أمام الرأي العام الجزائري والأجنبي وإبراز أنها لم تستأثر بالسلطة بل تجعل من الجزائريين من يتقاسمها، وفي ذلك يقول أبو القاسم سعد الله: «مهما كانت الأسباب، فنحن أمام فراغ للمدن أحدثه الاحتلال، وأمام اختفاء الفئة الحضارية (البورجوازية) الوطنية وثروتها، وأصبحنا أمام ظاهرة جديدة وهي "تريف" المدينة الجزائرية لهروب أهل المدن الى الريف بل تمدين الريف، كما ان انطلاق المقاومة من الريف جعل كل الأنظار ترتكز وطنيا على العمق الريفي ودور المرابطين والاحواد لتحرير البلاد بعد ان عجزت المدن عن أداء المهمة، وجهة أخرى حلت الجالية الأوربية محل الفئة الحضارية وتصرفت في أملاكها تحت حماية السلطات العسكرية والإدارية... و من ثمة حدث ذلك الفراغ الهائل في دور المدن خلال هذه الفترة»⁽³⁾.

ان إفراغ المدن من أهلها من جراء هول الحرب والغزو الفرنسي، أفسح المجال لفئة الأوربيين على الاستقرار والتحكم في الاملاك والعقارات فامتلكوها وخربوا محلاتها، بالإضافة الى عمليات التحديث التي شرعت فرنسا في استحداثها في المدن، مثل شق الطرقات وتحويل المراكز العمرانية الى مراتب واستحداث مؤسساتها المدنية والعسكرية⁽⁴⁾، وأخذت موجة من سكان الأرياف تدخل هذه المدن للعمل عند الأوربيين

(1) - جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1987، ص 25.

(2) - صالح فركوس، مرجع سابق، ص 74.

(3) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 100.

(4) - يقول شارل روبر اجرون: " فأرادت (فرنسا تحضير المزارعين الرعاة و تكوين طبقة فلاحية ثابتة من صغار الملاكين الذين تتعهد فرصة بسلامة مستندا تم و لذلك فقد احبطت هذه المكاتب سياسة التحديد و باشرت استيطاننا حقيقيا ببناء قري للسكان الاصليين و ببناء مساكن و ابنية متنوعة (خانات للقوافل و الفنادق) و سعت كذلك الى مكافحة الملايا و الى تحسين الاقتصاد الاهلي و ادخلت الادوات الزراعية الاوربية و زراعات جديدة (كالقطن و البطاطا و التبغ) ووسعت زراعة الكرومة و زراعة التين و الزيتون و اوصت بحماية الغابات انظر تاريخ الجزائر المعاصرة، ص 109-110.

كأجراء وموظفين في المؤسسات الفرنسية المستحدثة، ومنها الفرق العسكرية مثل فرقة الصبايحية وفرقة الزواف⁽¹⁾.

المستوطنون والمظاهر الاجتماعية الجديدة في الشرق الجزائري :

كانت فئة الفرنسيين في الشرق الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر من أكبر الفئات الأوربية، وحضي الشرق الجزائري أكثر من غيره من المناطق الأخرى، نظرا للعلاقات الاقتصادية والامتيازات الفرنسية في الجزائر، وتسارعت منطقة الشرق في استقطاب فئة الأوربيين لمميزاتها الاقتصادية والسياسية، وتعامل بايات قسنطينة بشكل كبير في عمليات المبادلات التجارية⁽²⁾، ففي المادة الثانية عشر التي تقرر حق الفرنسيين في صيد المرجان والسماك في خليج شتورة التابع للجزائر وتونس فان السلطان العثماني يرخص للفرنسيين ذلك وهي الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون لمملكة فرنسا خلال القرن السادس عشر أي منذ سنة 1529م وقد توسعت هذه الامتيازات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر⁽³⁾.

فالفرنسيون كانت لهم إطلالة واسعة على منطقة الشرق الجزائري من خلال العمق الاقتصادي الذي مارسوه مع المدن الساحلية والقبائل المتواجدة فيها عن طريق الامتيازات التي حققوها في فترة متقدمة خاصة عنابة ومينائها الذي اعتبر أهم مركز تجاري يربط الشرق الجزائري بالعواصم الأوربية. لقد بلغ عدد سكان عنابة أوج الارتفاع في القرن الثامن عشر حيث وصل إلى 12.000 نسمة، وهذا النمو يرتبط بتوفر الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تشتهر ها مدينة عنابة بالإضافة إلى توفر إقليم المدينة على مؤهلات النشاط الاقتصادي الزراعي وتربية الحيوانات والتجاري. هذه الأنشطة نمت بسبب توفر شروط الأمنية والاجتماعية⁽⁴⁾.

لم تكن عمليات الغزو الفرنسي هينة على المجتمع في الشرق الجزائري بل كانت في درجة خلو المدن وتشتيت القبائل للسياسة الاستيطانية التي طبقتها السلطة الفرنسية، فوضعية عدد المستوطنين تزايدت ومعها حلت حياة اجتماعية جديدة على المجتمع الجزائري، بحيث أصبح يعيش ازدواجية في المظهر الحضاري، الحضارة

(1) - سعيد بو خاوش الاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، مرجع سابق، ص 29.

(2) - نص المادة 12: "إن أسلافنا الأجلاء ذوي الذكر المجيد قد منحوا للفرنسيين حق صيد المرجان والسماك في خليج شتورة التابع للجزائر وتونس، فإننا نرخص لهم نحن أيضا بصيد المرجان والسماك في هذه الجهات حسب العادة القديمة ولن نسمح بمضايقتهم من طرف أي احد حول هذا الموضوع " انظر جمال قنان، نفس المرجع السابق، ص 54.

(3) - جمال قنان، مرجع سابق، ص 53.

(4) - نصرالدين سعيدوني، ورفات جزائرية، مرجع سابق، ص 512.

التي تربي وترعرع فيها وهي المظاهر العربية الإسلامية ومظهر جديد غريب أصبح يفرض عليه ويخضع لقوته وعوامله المادية والسياسية، فمعظم المحلات التجارية والحرفية هدمت وغير نشاطها من طرف السلطة الاستعمارية، لتنشأ في مكانها مؤسساتها الرسمية، الإدارية والاقتصادية والعسكرية.

ونفس المدن شهدت تلك التغيرات في البنية الاجتماعية التي وقعت تدريجيا تحت السلطة الاستعمارية الفرنسية، و انتهجت ادارة الاحتلال طرقا متعددة من اجل تثبيت الهيمنة الفرنسية ، لقد جاء القانون المنظم لاختيار ممثل الطائفة اليهودية لدى السلطة الفرنسية بالجزائر كثمرة لتلك الاهداف المتوخاة،⁽¹⁾ فرغم الأعداد القليلة من فئة السكان الأوروبيون التي تواجدت في هذه المدن خاصة الساحلية في بدايات الاحتلال الفرنسي ثم المدن الداخلية إلا أنها شهدت نفس التغيرات مثل مدينة قسنطينة وسطيف⁽²⁾ وقالة وغيرها من المدن في الشرق الجزائري. والجدول التالي يبين لنا عدد السكان الأوروبيون المستوطنون في في هذا المجال " بعض المدن في الشرق الجزائري.

جدول يبين لفئة الأوروبيين والديانات المنتشرة في مدن الشرق الجزائري سنة 1843-1844⁽³⁾.

المدن	الكاثوليك	البروتستانت	المسلمون	اليهود	المجموع
قسنطينة	70.8	27	15.683	3.103	10.583
عنابة	3.911	66	2.402	483	6.864
سكيكدة	3.085	148	252	98	3.583
القل	215	13	27	03	258
المجموع	7.979	254	18.364	3.691	30.288

إن الفئات الاجتماعية التي أصبحت تكون مجتمع المدن تغيرت، ففئة المسيحيين أصبحت تحتل مرتبة عالية ما يربو على نصف السكان في المجموع العام وهذه ظاهرة جديدة في الاحتلال الفرنسي للشرق الجزائري

(1) - محمد امين، مرجع سابق، ص 214.

(2) - أعتبر السيد انفونتان (Enfantin) و أن أقر بان الحاكم العام كلوزيل قد قام بالاستيطان . لكنه استيطان عشوائي لقد - حسب تعبير الكاتب الاستيطان الحر و الفردي (la colonisation libre et individuelle). انظر صالح فركوس ، التشريعات المنظمة للاستيطان و الاستعمار في الجزائر، و اثارها على المجتمع الجزائري .

(3) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 18/43-1844.p365.

وهو ما يؤهلها بأن تأخذ الريادة في السلطة والتسيير وما يلاحظ إن عدد الأوربيون من النساء هو اقل عدد من الرجال ففي مدينة عنابة عدد النساء الأوربيات. 49% من بين 86 % أوربي وفي الجزائر 54 % من بين 67 % أوربي، وهنا نشأت ظاهرة الفساد في المجتمع الجزائري وانتشارها في أوساط المناطق الفقيرة والمعوزين رغ أن عدد سكان المدن أصبح قليل جدا مما نتوقع والجدول التالي يبين ذلك في بعض المدن في الشرق الجزائري.⁽¹⁾

. والتوجيه وبناء حياة اجتماعية مغايرة لما كانت في الفترة العثمانية. وفتة الرجال أكثر من فتة النساء في الأوساط الأوربية وهذا ما أدى إلى انتشار مظاهر جديدة أكثر حدة، في تراجع المكانة الاجتماعية في المستوى المعيشي والمستوى السلوكي في المجتمع الجزائري بالإضافة الى الفئات المخذنين التي كانت فرنسا تجلبهم للجزائر لكي تكون منهم المستعمرة الجديدة ومعظمهم من المغامرين وذوي الاصول المختلفة لان صيت المقاومة كانت تخيفهم من الالتحاق بالجزائر وسعت جاهدة لاقتناعهم وتشجيعهم بعدة مغريات ومنح خاصة بعد استسلام الامير عبد القادر وهدوء المقاومة في الشمال الجزائري بعد احتلال المدن الساحلية وعدد من مناطق الهضا العليا وتتمثل في ظاهرة دور الدعارة وانتشار الفقر والاعتصاب.⁽²⁾

(1) - Claude Collot, les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1962), OPU, Alger :1987, p.45.

(2) - أشارت أن الباحثة الفرنسية Christelle Taraud قد أصدرت دراسة مفصلة عن الدعارة في بلاد المغرب العربي ما بين سنة 1830 و 1960 ، معتمدا على الأرشيف العسكري و المدني و معتمدا أيضا على المقالات الصحفية و المراسلات البريدية لتلك الفترة ، و قد أوضح هذا الباحث الفرنسي أن الإدارة الإستعمارية الفرنسية قامت منذ السنوات الأولى للإحتلال بإنشاء بيوت دعارة و إصدار قوانين و لوائح إدارية تنظم مهنة الدعارة في الجزائر ، فقد تم إنشاء أول بيت دعارة بالجزائر العاصمة في 11 أوت 1830 مخصص للجنود الفرنسيين كما أصدرت الإدارة الفرنسية في سنة 1931 قانون يلزم بتسجيل النساء الممارسات لمهنة الدعارة على مستوى مصالح الشرطة. و أوضح أيضا الباحثة الفرنسية Christelle Taraud أن الدعارة كانت موجودة في السنوات الأولى للإستعمار الفرنسي لتلبية رغبات الجنود الفرنسيين ثم تطورت مع مرور الوقت لتوفير الخدمات الجنسية لمختلف شرائح المجتمع ، كما تزايد عدد بيوت الدعارة مع مرور الوقت بشكل ملحوظ ، فقد بلغت عدد بيوت الدعارة في سنة 1930 ما يقارب 68 بيت دعارة 22 بمدينة الجزائر 28 بمدينة قسنطينة و 18 بمدينة وهران ، و إستمر هذا العدد في الإرتفاع بحيث تم إنشاء بيوت دعارة في كل من بلاد القبائل و حتى في المناطق الجنوبية . و ربما أهم نقطة أشار لها الباحث الفرنسي في دراسته هي وجود تمييز عنصري في هذا المجال فقد كانت هناك بيوت دعارة خاصة بالأوربيين و أخرى خاصة بالسكان الأصليين أو كما كانت تسميهم الإدارة الفرنسية الإستعمارية ” الأهالي indigènes ” ، و لكن في كلا الحالتين أغلب الفتيات العاملات في بيوت الدعارة في تلك الفترة كن من الأهالي أي السكان الأصليين.

جدول بين المستوطنين في مدن الشرق الجزائري خلال سنة 1844-1855⁽¹⁾

المجموع	المنطقة العسكرية	المنطقة المدنية
840		قسنطينة
199	قلمة	
199	سطيف	
4.800		عنابة
3.410		سكيكدة
228		القل
251	جيجل	
9135		المجموع

من خلال الجدول يتضح لنا أن بعد إثني عشرة سنة من احتلال عنابة وسبع سنوات من احتلال قسنطينة وصل تعداد المستوطنون 9135 أوربي وهذا العدد ليس بالعدد الكبير.⁽²⁾ من تعداد المستوطنين الذي بلغ 13418 نسمة.⁽³⁾

إذا ما قورن بالأعداد الهائلة من السكان الجزائريين في هذه المدن أو في الأرياف، حيث يصرح بيجو فيقول: "العالم يعرف ان الاستيطان في الجزائر لا يعني فرنسا وحدها فقط انه ينظر اليه كخزو حضاري للبربرية و انه حقل جديد فتح لنشاط كل الامم لفائدة الفنون و العلوم و الزراعة و الصناعة و التجارة التي تحكّم السلام".⁽¹⁾ لكن المؤسسات والمنشآت التي إقامتها لم تستطع تسييرها إلا من خلال الفئات الجزائرية وهذا ما استدعى السلطات الفرنسية إلى إنشاء تنظيمات تساعدها على تجسيد سياستها، منها المكاتب العربية⁴ في الأرياف و المحافظة على النقابات التي كانت في الفترة العثمانية، على أساس انها تشرف عليها

⁽¹⁾ - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844,p18.

⁽²⁾ - صالح فركوس ، التشريعات المنظمة للاستيطان و الاستعمار فيالجزائر، و اثارها على المجتمع الجزائري . ص 40.

⁽³⁾ - نفس المصدر السابق، ص 41.

⁽⁴⁾ - ينص المنشور الصادر سنة 1867 م على ان تشمل القيادة الاقليمية للمكاتب العربية على اثني عشرة شخصا في المقاطعات و ثمانية أشخاص في الدوائر و سبعة اشخاص أما المكتب السياسي المركزي يكونه ستة اشخاص. و المشتغلين في

بتعيين ضباط عسكريين على رأس هذه التنظيمات ليسهل عليها مراقبة الجزائريين وتحصيل الضرائب على الأنشطة التي تقوم بها، وقد جمعت كل المعلومات على المجتمع الجزائري من اجل التعرف أكثر على المجتمع الجزائري ومحاولة منها لكي تصنع منه أداة لتحقيق مشروعها الإستطاني⁽¹⁾.

فهذه الأعداد من المهنيين والحرفيين ساءت أحوالها وضيقت عليها السياسة الفرنسية على نشاطها وأصبحت تحت الرقابة العسكرية نظرا لأهميتها وقوة تعداد المشتغلين فيها، فزاد فقرها وتقلص نشاطها وبعدها كانت هذه الفئة من الفئات المتوسطة تنازلت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، ونفس القول ينطبق على النقابات الأخرى ذات الأهمية الاقتصادية والاجتماعية، وأمام الغزو الاقتصادي الأوربي للأسواق أخذت هذه المصنوعات تنكمش وتقلص، بالإضافة إلى المشاريع الفرنسية التي طالت المدن المتمثلة في شق الطرق وبناء المنشآت الإدارية والعسكرية والاجتماعية، إلى هدم الكثير منها، ففي سنة 1840 م كان تعداد المسلمين يبلغ 1.260 فرد و198 من اليهود و160 من الأوربيين⁽²⁾.

جدول لعدد المستشفيات الفرنسية في المدن التي احتلتها سنة 1843-1844⁽³⁾

عدد الأسرة 1844	عدد الأسرة 1843	المدن
060	060	قسنطينة
100	100	سطيف
050	800	القل
800	50	قالمة
150	150	سكيكدة
210	210	جيجل
050	50	الحروش
1420	1420	المجموع

مكاتب الشؤون العربية ضباط مرسمين و متربصين و متخصصين في الارشيف المدني العسكري و مترجمين عسكريين و أطباء و اعوان تابعون خرجات و و كتاب و شواش و خيالة و عساكر من الصبايحية .

⁽¹⁾ -Locus Philippe, L'Algérie de anthropologues, Editeur Françoise Maspero , paris 1979, p 29.

⁽²⁾ -TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE,1840, p366.

⁽³⁾-TABLEAU De la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE.1844,p 46.

إن المنشآت الصحية التي أنشئت لم تكن إلا مظهر للنقص الذي كانت فرنسا تريد الوصول إليه في مرحلتها الأولى لأن العمليات العسكرية للمقاومة كانت مستمرة في أرياف هذه المناطق لكنه شيء جديد للحياة الاجتماعية التي كان يفتقدها الجزائريون في الفترة العثمانية. يقول ايفون تيران : لم يحاول اي تقرير تقريبا في سنة 1851 و لا بعدها اجراء تقييم بالارقام و اكتفى طبيب باتنة بالاشارة في سنة 1853 لتركز على الوقاية من اسباب الوفيات التي تجعل الشعب الاهلي - معذرة على هذا التعبير - في وضع مكتوف الايدي ".⁽¹⁾ لقد تكاثرت الاوبئة في الفترات الاولى للاحتلال الفرنسي للجزائر نظرا لعدة عوامل منها سوء الاحوال المعيشية و انتشار فاقة الفقر الذي عم البلاد و مثلما ما قال رئيس مكتب سطيف " فان تقارير 1867 تمثل نعيما فاما باتنة التي مات فيها 2324 شخص فانها تعتبر نفسها قد سلمت من الشر و في بسكرة سجل 4348 شخص"⁽²⁾

جدول يبين الحركة في المستشفيات العسكرية في الجزائر خلال سنة 1843-1844⁽³⁾

شهور السنة	الباقون في بداية الشهر	عدد الدخول برخصة	عدد الدخول بتحويل	عدد الخروج برخصة	عدد الخروج بتحويل	الوفيات
جانفي	4.850	5.673	653	5.238	724	506
فيفري	4.688	4.423	440	4.691	263	411
مارس	4.186	5.448	1.283	5.737	812	340
افريل	4.019	4.201	050	4.749	576	238
ماي	3.607	4.702	2.436	4.381	2928	311
جوان	4.049	4.016	1.703	4.362	1.558	238
جويلية	4.300	8.414	2.100	5.995	////	413

(1) - تيرانا يفون ، مصدر سابق ، ص 317.

(2) - نفس المصدر ، ص 320.

(3) - TABLEAU De la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE.1844.p 48.

463463	2.928	7.006	2.514	9.929	6.563	أوت
457	3.230	7.000	3.122	9.952	7.709	سبتمبر
488	2.458	8.968	2.398	8273	7.997	أكتوبر
474	706	7.661	774	6.616	6.759	نوفمبر
470	316	6.212	296	5.054	5.303	ديسمبر
4.809	17.436	75.013	18.759	77.306	4.850	المجموع

إن المنشآت الاجتماعية مثل المصحات والمستشفيات أخذت تنتشر في المدن التي تتوفر فيها أعداد مقبولة من السكان الأوربيين، وهذه المؤسسات لم تكن موجودة من قبل، والجدول التالي يبين لنا عدد المستشفيات التي أنشئت حتى سنة 1844م في المدن التي كان الاستيطان قد وصل إليها. 4.809 مصحة و مستشفى⁽¹⁾. لكنها كانت مسايرة لتطورات الجيش الفرنسي في عملية الاحتلال و مراكز الاستيطان الفرنسي في الشرق الجزائري .

لقد سعت فرنسا على إغراق الجزائر بالمستوطنين ليتسنى لها تحقيق مشاريعها الاقتصادية والسياسية، إلا أن هذه العملية لم تكن في المستوى الذي كانت تنتظره، بسبب استمرار عمليات المقاومة، وقلة الفئة المغامرة للهجرة للجزائر. فحسب السيد وارنبيه فان المستوطنين الذين كان عددهم عام 1865 م بلغ 225.000 مستوطن فرنسي او اوري كانوا يملكون 700.000 هكتار⁽²⁾. هذا رغم استمرار المقاومة في عدة جيوب من المناطق المحتلة و التي تمت اضافتها الى المناطق التي يمكن ان تسمح للاستيطان.

شلل الحرف وتشتت الحرفيين في مدن الشرق الجزائري:

لقد كانت المدن تنتعش بالأنشطة الحرفية التي كانت في المدن، وذلك حسب ما تقتضيه كل مدينة، واستمرت هذه الحرف في النشاط واستمرت تنظيماً اجتماعياً في التسيير والأمثل في النقابات إلى سنة 1868 م رغم تدخلها في سنة 1838 وسنة 1851 في محاولة منها في تنظيمها والإشراف عليها، لكنها لم تفلح في ذلك، وكما ذكرنا سالفاً، إن النقابات في الفترة العثمانية كانت تحت إشراف قائد الدار وهو شخصية

(1) - إيران تيفور، مصدر سابق، 101.

(2) - صالح فركوس، التشريعات المنظمة للاستيطان والاستعمار في الجزائر، واثارها على المجتمع الجزائري، ص 42.

فاعلة في النظام البايليك،⁽¹⁾ فكان يشرف على أكثر من عشرون أمينا حرفيا في قسنطينة، وكل أمين حرفة مسؤول على حرفته والحرفيين الذين يمارسون هذه الحرفة من المادة الأولية إلى الإنتاج إلى البيع وكل مراحل التي تمر عليها الحرفة، فيجمع الضرائب عنهم ويمنحهم التراخيص لممارسة النشاط وكل شهر يدفع صاحب الحرفة ضريبة نشاطه لأمين الحرفة والذي بدوره يدفعها إلى قائد الدار الذي يدفعها إلى خزينة البايليك، والأمانات حافظت على تواجدتها في المدينة وعلى مداخل اقتصادية كبيرة للسلطة الفرنسية وهذا ما أوعز للسلطة الفرنسية على إبقائها إلى حين إصدار أمر بإلغائها نهائيا سنة 1868م.⁽²⁾

لقد عانت المدن في الشرق الجزائري الخراب جراء عمليات الاحتلال، فقد كانت مدينة قسنطينة تعج بالحرف والحرفيين، فصناعة الجلود التي كانت تشمل ثلاث نقابات وهي الصباغون وتضم 150 فردا موزعين على 33 مؤسسة، والسراجون وتضم 210 فردا موزعين على 75 دكانا، والبالاغجية وتضم 480 فردا موزعين على 167 دكانا.⁽³⁾

ومن الحرف الرائجة في قسنطينة حرفة الدباغة وحرفة صناعة الجلود، و كانت منتشرة في معظم المدن الكبرى، حيث كانت تستقطب ثلثي السكان، أما الثلث الآخر فكان يمارس حرفة الحدادة والنجارة والنسيج، وكانت تدر عليهم أموال كبيرة ويمكن تصنيفهم في الطبقة الوسطى من الفئات الاجتماعية هذا قبل سنة 1850م. لقد غادروا هذه المهن بسبب الاعمال التي شرعت فرنسا في استحداثها مثل شق الطرق و انشاء الساحات العامة والمؤسسات الحكومية الاستعمارية⁽⁴⁾ ومنهم من غير إقليم حياته ومنهم من بقى يصارع الفاقة والتنازل الاجتماعي، وهنا تأتي السياسة الفرنسية لتستقطبهم في مصالحها الاقتصادية والخدمات أو تكوين بهم مليشيات لمقاومة الثورات الشعبية.

جندت فرنسا ما يربو عن 380 فرد و380 فارس في إقليم عنابة أدمجهم ضمن القوة العسكرية التي كانت تشن بها عمليات الغزو للمناطق المجاورة ولإقرار السلم والأمن وكونت فرق الصبايحية في كل الجهات التي وصلت إليها، هذه المليشيات من الصبايحية⁽⁵⁾ كانت تؤلف بها قوة عسكرية، لكن السؤال المطروح هو :

(1) - ناصر الدين سعيدوني، وريقات جزائرية، مرجع سابق، ص 245.

(2) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، مرجع سابق ص 102.

(3) - المرجع نفسه، ص 104.

(4) - اندري برنار و آخرون، مرجع سابق، ص 295.

(5) - الصبايحية فرق عسكرية من الجزائريين أنشأهم فرنسا للاستعانة بها في تجسيد سياستها في الجزائر، و استغلت الظروف المتردية لمعيشتهم في الجزائر و اضطرارهم من اجل البقاء على قيد الحياة و اصبحو العين الساهرة على المصالح الجزائرية و هم

كيف استجاب هؤلاء لهذه الوظيفة؟ يمكن إرجاع ذلك للفقر والخوف وإلا أمن الذي أصبح يعيشه هؤلاء، وهي نفس الطريقة التي اعتمدها العثمانيون في تكوين قبائل المخزن ليضمن ولاء هؤلاء للنظام العسكري الفرنسي، ويضمن الأفراد قوت يومهم،⁽¹⁾ وأمنهم ويمكن الاستعانة بالجدول التالي لإبراز القوة العسكرية التي كونتها فرنسا من هؤلاء الأفراد وفعلا أصبحت قوة ضاربة في وجه المقاومة الوطنية المسلحة واستغلت فرنسا فقرهم وجهلهم وعوزهم لتجنيدهم ضد اخواتهم وبذلك أصبحت تضرب عصفرين بحجر في الجزائر والكثير منهم ذهب ضحية لخدمة فرنسا الاستعمارية الاستيطانية في الجزائر والجدول التالي يبين عدد المجندين ضمن القوة الفرنسية.

جدول يبين عدد الأفراد المجندين (الصبايحية) في القوات الفرنسية سنة 1843⁽²⁾

الإقليم	عدد الأفراد	عدد الفرسان
عنابة	380	380
القل	190	190
سطيف	190	190
سكيكدة	475	479
قلمة	190	190

إن هذه الفئة من الجزائريين الذين أصبحوا كقوة ضاربة في الجيش الفرنسي لمقاومة الردود الفعل للثورات التي كانت جارية لعمليات الاحتلال، كانت تستعملهم كذلك كمتخبرين وأدلاء للجيش الفرنسي، فكانت تقحمهم في الصفوف الأولى في عملياتها العسكرية، وهذه الفئة كانت معظمها في المدن وتقوم بخدمات، أو

بمشاركة قبائل المخزن في الفترة العثمانية لكن الفرق بينهم كانوا موظفين عند السلطة الفرنسية وتحت حماية السلطة العسكرية الفرنسية .

(1) - كان سكان قسنطينة بذلوا أكثر من 29 مليون فرنك ذهبوا هجروا 568817 هكتار أغلبها من الأراضي الخصبة و في المستوى الاقتصادي و انقرضت عدة مجموعات سكنية اذ اجتمعت عليها المصادرة و نفقات الحرب مع ازمة 1866-1870 و انتقل البعض من السواحل الى الجنوب و نشأ لذلك تحويل عميق مس نمط الحياة و مادتها فلم يكن من السهل الانتقال من فلاح الى قائم على الحيوانات بين عشية و ضحاها و كان راسمالها ضعيفا.. انظر اندري نوشي ، مرجع سابق ، ص 346

(2)- TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844.pp 32-36.

حرفيين أو مزارعين في أملاك البايليك، وعندما قامت السلطة الفرنسية بمصادرة الأراضي والمؤسسات الدينية وأوقافها أصبحوا فارغي الشغل فانخرطوا كرها في هذه المليشيات، ولقد تضاعف أعدادهم وأصبحت لهم مكانة عند السلطة العسكرية ومنها كانت تنتقي منهم الأفراد لتكوين المكاتب العربية⁽¹⁾. يقول اندري نوشي: "فالصناعة التقليدية التي كانت مخصصة لتسديد حاجة الطبقات الغنية في المدن كسدت سوقها بالاضافة الى ان التجارة ساهمت في نقصان عدد المشتغلين بالصناعات بحكم تدهورها المتزايد في اطار امتيازات المعامل التي كانت حسب المحتلين الفرنسيين الاوائل ملك الاندلسيين هنالك نسبة 3 او 5 عملة في المعمل الواحد جلهم من الرقيق السوداني يتقاضون اجرا زهيدا و هم حسب "روزيت" يقومون بجميع ما عرف باوريا من الصناعات".⁽²⁾

لقد فقدت المدن هيئاتها ورونقها وتنظيمها الاجتماعي، وتفرقت شيعا وانكمش اقتصادها وتغير شكلها وتغير وجهها لتحل محلها أشكال هندسية وبنيات ومؤسسات ذات طابع معماري متباين عن الذي ألفه الناس، وانتشرت مظاهر اجتماعية، و تبعا للقرار الصادر في 1845 القاضي بتسديد الضرائب نقدا، وجد الفلاحون انفسهم مضطرين لبيع قسم هام من مصالحهم في فترات صعبة و علاوة على ذلك اللجوء لقروض تؤدي للافلاس...⁽³⁾ بالاضافة الى الاعمال العسكرية والمدنية التي ألفها المجتمع فشقت الطرق على حساب المحلات والدكاكين وحولت المؤسسات الدينية والتعليمية لتحل محلها ساحات وطرق واسعة تتماشى مع العريات والآليات العسكرية، هذا في مجتمع المدينة، فما هو حال الأرياف في وجه هذه المتغيرات الاجتماعية؟

(1) - راضية بن حبرو، المكاتب العربية ودورها في انجاح السياسة الفرنسية بالجزائر (1844-1900)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2012-2013، ص 56.

(2) - اندري نوشي و اخرون، تاريخ الجزائر في الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص 197.

(3) - جيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية، مرجع سابق، ص 267.

المبحث الثاني: تراجع الحياة الاجتماعية في الريف وانقسام بنية القبيلة.

لم يكن حال الريف في حالة يحسد عليها من الناحية الاجتماعية، فقوانين نزع الملكية والمصادرة الأراضي التي طالت أراضي البايليك وأراضي الأوقاف ومؤسساتها، لقد كانت نتائج وخيمة على الجانب الاجتماعي والاقتصادي اندلعت سلسلة من ردود افعال، يعد تشريع مرسوم نوفمبر 1849 صارالربا قاعدة قانونية بالجزائر لم تعد تباشر متابعات و لم يكن العرابون يتعرضون للمضايقة نتيجة للفقر الذي انتشر في ظل القوانين الجديدة صارت القروض عينية كانت او نقدية امرا محتوما و تعممت في كل مكان⁽¹⁾ اجتذب الموارد الحيوية للفلاحين تترجم بسرعة باخفاء عدد كبير من المطامير و الاحتياجات الموثوقة خلال سنوات الجفاف،⁽²⁾ والتي أعقبتها بعد ذلك قانون سيناتوس كونسلت الذي جاء لتفكيك القبائل قبل أن يفكك الأرض و اوجد قبائل وزعامات فرعية عن تلك التي كانت قائمة في الفترة العثمانية، يقول لويس رين : "في السادس من فيفري 1858 ألزمتنا الباشا أغا على دفع حصيلة الغرامات التي كان يفرضها رؤساء الاهالي تحت إمرته و كان أل مقراني حتى ذلك الحين يقبضونها لحسابهم بمقتضى امتياز خاص بهم ".⁽³⁾ لأن نظرة فرنسا دائما كانت تفكك الكثير خوفا من اتحادهم وتحالفهم ضد سياستها التي كانت غير مرغوب فيها عند الجزائريين، ان اقليم قسنطينة كان فيه اكبر عدد من القبائل حيث جدد لويس رين 224 قبيلة، بينما اقليم وهران كان يشمل 157 قبيلة و اقليم التيطري يضم 62 قبيلة و دار السلطان كان يضم 73 قبيلة.⁽⁴⁾ لقد استقطب الشرق الجزائري اكبر عدد من القبائل، فهل حافظت السلطة الاستعمارية على هذا العدد أو هناك تغيرات جذرية عديدة واقتصادية واجتماعية تغيرتفي الشرق الجزائري جراء السياسة الاستيطانية الاستعمارية وكانت على حساب المجتمع الجزائري .

إن ملكية الأرض لهذه القبائل كانت تختلف من منطقة لأخرى، فهناك 126 قبيلة من قبائل المخزن كانت تملك 3.400.000 هكتار أما قبائل الرعية التي يبلغ عدد ها 104 فكانت تملك 4.415.000 هكتار والقبائل المتحالفة وكان عددها 86 قبيلة يملكون 7.540.000 هكتار. هذا التقسيم لملكية الأراضي في الفترة العثمانية، إذ أن السلطة العثمانية لم تكن تملك من هذه الأراضي إلا أملاك القبائل

(1) - جيلالي صاري مرجع سابق، ص 275.

(2) - نفس مرجع، ص 269.

(3) - لويس رين، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2013، ص

63.

(4) - لويس رين، مصدر سابق، ص 216.

المخزنية والقبائل الرعية وهو ما يساوي 7.825.000 هكتار، هذا سنة 1830 أما عند الاحتلال الفرنسي وبعده بفترة أصبحت السلطة الفرنسية تملك 48.000.000 هكتار⁽¹⁾، أي أن السلطة الفرنسية جردت القبائل ومعظم الخواص من أملاكهم، بالإضافة إلى الأملاك الوقفية التي كانت تابعة للمؤسسات الدينية والتعليمية وهذا سوف يغير من الحياة الاجتماعية في الريف القسنطيني، وعليه سوف ينعكس ذلك على الحياة الاجتماعية للسكان، ولم يبق للقبائل سلطتها إلا تحت السلطة الفرنسية والضباط الفرنسيين.

تهميش فئة الأجداد واستبعادهم من مناصبهم الموروثة في الشرق الجزائري :

لقد اطلع الفرنسيون على أسرار الجزائريين الاجتماعية والنفسية وخاصة أولئك الذين كانت لهم مكانة اجتماعية وسلطوية على القبائل في الشرق الجزائري، السؤال المطروح هو : كيف تعامل القادة الفرنسيون مع رؤساء القبائل، وشيوخ الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا؟ لقد عرفت فرنسا سلوك ونوايا هذه الفئة الاجتماعية التي كان لها دور في الفترة العثمانية وحتى في المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽²⁾.

استطاع الماريشال بيجو أن يكسب هذه القيادات والزعامات عن طريق الترضيات التي تتماشى وطموحاتها وأذواقها وعاداتها وتقاليدها، واستعمل عدة وسائل لترضيتها إلى حين تحقق فرنسا قوتها بين الجزائريين وتسحب من تحتهم بساط السلطة التي كانوا يتمتعون به، وقد ينسب إلى بوجو قوله، إن النبلاء العرب لهم اعتزاز كبير وغرور، فإذا أبعدهناهم عن الوظيفة فإنهم سيجعلون ذلك شرفا لهم أمام المتعصبين للدين والوطنية، لذلك كان من الأفضل ترك هؤلاء النبلاء يعيشون اعتزازهم ومكانتهم وجعلهم يخدمون المخططات الفرنسية عن طريق منحهم وظائف إدارية⁽³⁾.

فالأجداد هم الذين كانوا أعيان قومهم وشيوخ حواضرهم وأئمة زواياهم وتوارثوا هذه المناصب وأصبحت حكرا في سلالاتهم وأعراقهم وأطلق عليهم القوم الذين ينتسبون إليه "بناس البارود" و"أهل السيف"، و هؤلاء كانوا في الفترة العثمانية لا يخضعون لأي رقابة مباشرة مادام يدفعون الضرائب للسلطة التي تبادلهم المصالح والامتيازات، وحذا حذوهم الفرنسيون في المرحلة الأولى، فهم يؤمنون الطرق الرئيسية بين الجزائر وقسنطينة وبين قسنطينة وسطيف وبين سطيف وسكيكدة وبين قسنطينة وبسكرة وبوسعادة والمسيلة، وهو نفس الدور الذي

(1) - لويس رين تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، مصدر سابق، ص 63.

(2) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 114.

(3) - نفس المرجع السابق، ص 115-116.

كانت تلعبه قبائل المخزن في الفترة العثمانية، وكان حري بالفرنسيين إن يتعاملوا مع هؤلاء لان حاجتهم في ذلك ومصالحهم اقتضت أن يتعاملوا بنوع من الاعتراف الضمني بسلطتهم⁽¹⁾. يقول لويس رين: "لم يكن ال بن قانا من شيوخ العرب، بل اضحى مجرد قايد، و مثله كان شيخ فرجية بوعكاز بن عاشور، صديق الم قراني شخصا مشبوها،... كما كسرنا شوكة بن عزالدين، اسياذ زواغة، و صرنا ال بن مراد الغربي موظفين و اصبح خالد بن علي الوريث الشرعي لمنطقة نفوذ الحنانشة مجرد قائد لفرقة القوم في بسكرة.⁽²⁾

لكن هذا الأمر لم يستمر طويلا، فبعد القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر واستسلام الحاج احمد باي، اطمأنت فرنسا بقوتها أنها هي الغالبة وأن اخبيار تلك القيادات الشكلية حان أوان تفتيتها وإزاحتها من مسؤولياتها، ومن وظائفها التي كانت تتمتع بها والتي هيأت لفرنسا الطريق لاحتلال الجزائر وليس الشرق الجزائري فقط⁽³⁾.

إن ظهور الجمهورية الثانية في فرنسا كان له تأثير على الشرق الجزائري حيث تزامن مع تملل المقاومة الوطنية المسلحة، وخففت من وطأة الحياة العسكرية المشتد بين الأمير عبد القادر وتقلص قادته من الشرق الجزائري في المناطق الجنوبية، وأدى ذلك إلى الموالاة عدة قادة من القبائل للسلطة الفرنسية، وسعت فرنسا إلى تنظيمات جديدة تقلص بها الامتيازات التي كانت تتمتع بها فئة الأجواد، ومنها تجريدهم من عمل السخرة التي كان يستعملها هؤلاء في موسم الحرث والحصاد والدرس لغلاتهم، وتجريدهم من حقوق السوق حيث عينت موظفين يقومون بها تحت حماية ومراقبة ضابط عسكري والتي كان يجمعها القيادة فأصبحت خاضعة لخزينة الدولة، بالإضافة إلى إدخال عناصر أقل مكانة اجتماعية في إدارتها لتحقيق نوع من الانسجام بين فئات المجتمع وفي نفس الأمر لترفع من شأن هؤلاء الموظفين وتجعل هؤلاء الاجواد في مرتبة أقل شأنًا.

وأهم خطوة قامت بها لنزع المكانة الارستقراطية⁽⁴⁾ من هذه الفئة هو صدور قانون سيناتوس كونسلت سنة 1863م الذي بموجبه تفتيت القبيلة والكنفدراليات القبلية الى وحدات اقل عدد وظهور فئات جديدة من القيادات تعينها السلطة العسكرية، وظهور الملكية الفردية التي تعمل على تفتيت ملكية الشيوخ وبها تظهر

(1) - نفس المرجع، ص 117.

(2) - لويس رين، مصدر سابق، ص 71.

(3) - المرجع نفسه، 121.

(4) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 119. نقلا عن أغسطين بيرك، "خلاصة تاريخ الإقطاعية" مجلة البحر الأبيض المتوسط، 1949، ص 25.

قيادات أقل شأن من تلك التي كان يمثلها الاجواد وبهذا يمكن أن تصبح القوة التي كانت تحابها وتتحوف منها فرنسا قد أذيت بطريقة إستراتيجية عبر فترة من الزمن وهكذا حققت فرنسا سيادتها على الشرق الجزائري.

وما سياسة فرق تسد إلا عنوان للسياسة الفرنسية لفئة الاجواد بظهور فئة جديدة اقل استئثار من الفئة الأولى، لكنها لا تدوم طويلا وذلك بظهور النظام المدني في مطلع السبعينات الذي شهد انقلاب كبير على المستوى المحلي (الجزائري) والفرنسي بانحزام فرنسا أمام قوة ألمانيا سنة 1871م، حيث فقدت فرنسا مقاطعتي الألزاس واللورين، وما زاد في سوء الأحوال الاجتماعية سوء مجاعة 1867 وعام 1868م وهي المجاعة التي تركت المجتمع في الشرق الجزائري في مستوى لا يحسد عليه من انتشار الجوع والمرض وتردي الأوضاع العامة، لأن من أسبابها استحواذ السلطة الفرنسية على الممتلكات الفلاحية وتركتهم يلهثون وراء لقمة العيش بعدما كانوا ملاك لهذه الأرض بطريقة او بأخرى أصبحت الملكية في معظمها تحت السلطة الفرنسية.

يجري محمد الصالح العنتري مقارنة بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية فيما يخص ارتفاع الأسعار، ومدى القوة الشرائية للنقود فذكر أن الإنسان الذي لم يدرك العصر التركي، ولم يشاهد نشاطه الاقتصادي وما يتصل به من أمور المعاش والكسوة والكسب ورخاء الأسعار، وسمع ما روى عنها في ذلك، ويتسرب إليه الشك ويسارع إلى الطلب مع إن ذلك حقيقة واقعة يشهد لها بالصحة رواها الكثيرون⁽¹⁾.

وقد استشهد على ذلك براتب الرجل العسكري في تلك الفترة، وقارنه بما كان عليه الأمر في الفترة الفرنسية فقال: إن الرجل العسكري في الفترة التركية كان له راتب سنوي يأخذه من باشا الجزائر، وقدره مائة ريال جزائري وكان يكفيه لشراء ما يلزمه من قمح وسمن وخليع وزيت وكسوة وكراء مسكن وغير ذلك، وربما ادخر من ذلك شيئا ان كان يحسن الاقتصاد. وكان الرجل الموظف في الفترة التركية يقضي حاجات كثيرة بعدد قليل من النقود كمائة ريال مثلا. أما في الفترة الفرنسية فقد ارتفعت الأسعار كثيرا، وصارت القوة الشرائية لمائة ريال تركية لا تعادلها مائة فرنك فرنسية وإنما يعادلها ألف فرنك، وفي هذا دليل على ارتفاع الأسعار وغلائها في زماننا هذا يعني سنة 1870 وبصورة مفرطة في سائر الأشياء.⁽²⁾

ويذكر محمد صالح العنتري أيضا أن الناس المتضررين من أزمة القحط والمجاعة وخصوصا رجال البادية، كانوا يغادرون منازلهم وقراهم ويزحفون إلى المدينة "قسنطينة" في حالة تعسة يستنجدون برجال المخزن وبيع بعض الأعيان الميسورين، وقد وجدوا مساعدة من الأعيان وبعض إسعاف من رجال المخزن، وكان باي عبد الله

(1) - محمد الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، مصدر سابق، ص 13.

(2) - نفس المصدر السابق، ص 14.

يكتب رجال الأعراس، ويحثهم على حمل الحبوب إلى المدينة وإشراف الحكومة على عملية التوزيع الحبوب على المحتاجين.. يقول العنتري : " و منذ ان استولت الدولة الفرنسية على وطن قسنطينة تضاعفت الحراثة فيه و نمت بزيادة كثيرة على زمان المتقدم خصوصا زمان ولاية الجنرال قابلوه' تولى سنة 1838م) .⁽¹⁾

(1) - محمد الصالح العنتري ، مجاعات قسنطينة ، مصدر سابق ، ص 68.

المبحث الثالث: الأقلية الأوربية وأثرها على الحياة الاجتماعية في الشرق الجزائري.

إن عملية الإحصاء التي تمت في الجزائر و التي هي عملية نوعية⁽¹⁾ لم يشهدها الجزائريون قبل ذلك والتي تمت نهاية سنة 1856 انتهت الى إحصاء 167135 فرد أوربي يسكن الجزائر ومقيم فيها، منهم 100407 فرنسي الأصل و 66728 فرد من جنسيات أوربية مختلفة نبرز ذلك في الجدول التالي.

جدول يبين التركيبة البشرية للسكان الأوربيين في الجزائر سنة 1856م⁽²⁾

المجموع العام	اقل من 15 سنة		أكثر من 15 سنة		فئات السن
	إناث	أولاد	نساء	رجال	
عدد الجنسين					الجنس
167135	20303	21140	53869	71824	العدد

ضمن عدد الأوربيين الإجمالي الذي بلغ 167135 فرد سنة 1856 سكان المدن يمثل 99534 فرد أما سكان الأرياف فعددهم قدر ب 59222 فرد والتجمعات لسكانية تمثل 8379 فرد أما عدد الذين ولدوا في الجزائر فقد بلغ عددهم الى 31 ديسمبر 1856 حوالي 33563 وهذا العدد يمثل خمس فئة الأوربيين في الجزائر.

ومن الجنسيات الأوربية التي أصبحت فئة مميزة بثقافتها وعاداتها وتقاليدها وامتيازاتها وخصوصيات معيشتها ونوعية نشاطها فهي تمثل 66723 فرد من الجنسيات الأوربية وهي تتوزع حسب الجدول التالي:

جدول يبين أهم الجنسيات لفئة الأوربيين في الجزائر في 31 ديسمبر 1856م⁽³⁾

المجموع العام	العدد	الجنسية
	41441	الإسبان
	9117	الايطاليون
	6818	المالطيون

(1) - أول عملية احصاء في الجزائر بشكل رسمي كان سنة 1856 و مست المناطق التي شهدتها عملية الاحتلال ، و كان الهدف منها التعرف على اهم المراكز السكانية و الثروة الحيوانية و المساحات الزراعية المستغلة و غير مستغلة و منها استطاعت السلطة الفرنسية ان تقبض يدها على عملية جباية الضرائب.

(2) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p201

(3) - TABLEAU.OP CT. p229.

64981	5565	_السويسريون
	2040	_ جنسيات مختلفة أخرى

لم تكن هذه الفئات الاجتماعية متناسقة فيما بينها إلا ان العامل المشترك الذي يجمعها هو المغامرة والإستيضان والدين المسيحي ومحاولة تجسيد السياسة الاستعمارية في الجزائر والريح والاستغلال، أما الأشياء الأخرى فهي غير مكترثة بها، وهذا ما اطمأنت إليه فرنسا في سياستها، ان المستوطنون هم الآلية التي تتمكن من البقاء في الجزائر، ومن هنا راحت تبني فكرة الجزائر الفرنسية التي تدمج الفئات المهاجرة من أوروبا لتجعلهم الفئة المدافعة عليها والمكون لكيانها في الجزائر، لكن سياسة القمع التي طبقتها أمثال كلوزيل ودو روفيقو وبوجو واللقيط يوسف ونيقريه وغيرهم كبتت الآراء وأجبرت الناس على السكوت على مضض او اللجوء الى الثورات او الهجرة من البلاد وقد انتهى المحتجون الأوائل الى القتل والنفي والسجن حمدان بن عثمان خوجة وبوضرية وابن العنابي ومصطفى الكبابطي وحمودة الفقون وإبراهيم باشا⁽¹⁾.

إن التطور العددي للسكان ظهر بعد سنة 1848 لان الكثير من هجروا فرنسا بعد اعلان الجمهورية برغم من أن الثورة الفرنسية حققت هدفها بالقضاء على النظام الملكي واعلان الجمهورية، فذلك منحهم القوة الثقة الى الهجرة الجزائر التي كانت وسائل العلام تبينها وكأنها جنة للاستثمار والرخاء والاستقرار وبعد استسلام الأمير عبد القادر واستسلام الحاج احمد باي وكان المقاومة انتهت في نظرهم اما المستوطنون المنحدرون من اصول فرنسية فقد كانوا في البداية اقلية ولكن تعدادهم ارتفع بشكل كبير خلال الفترة (1841-1846) و هي فترة الازدهار الرسمي على يد الجنرال بيجو ، و لكن نسبة النمو بدأت في تراجع بعد ذلك (8 % في السنة 1846-1856 و 6 % بين 1856 و 1872 ، و مع ذلك أصبح المستوطنون من أصول فرنسية أكثر ابتداء من عام 1851م.⁽²⁾ والجدول التالي يبين لنا التطور العددي للأوربيين الوافدين للجزائر لبناء المشروع الإستطاني الفرنسي.

جدول يبين تطور السكان الأوربيين في الجزائر من 1831 إلى 1856⁽³⁾

75420	31ديسمبر 1844	328	31ديسمبر 1831
-------	---------------	-----	---------------

(1) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 474.

(2) - صالح فركوس ، مرجع سابق، ص 72.

(3-) TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p216.

95321	31 ديسمبر 1845	4856	31 ديسمبر 1832
109400	31 ديسمبر 1846	7812	31 ديسمبر 1833
103863	31 ديسمبر 1847	9750	31 ديسمبر 1834
115101	31 ديسمبر 1848	11221	31 ديسمبر 1835
125963	31 ديسمبر 1849	14561	31 ديسمبر 1836
131283	31 ديسمبر 1850	16770	31 ديسمبر 1837
132708	31 ديسمبر 1851	20078	31 ديسمبر 1838
134387	31 ديسمبر 1852	25000	31 ديسمبر 1839
134075	31 ديسمبر 1853	27865	31 ديسمبر 1840
143387	31 ديسمبر 1854	37374	31 ديسمبر 1841
155607	31 ديسمبر 1855	44531	31 ديسمبر 1842
167135	31 ديسمبر 1856	59186	31 ديسمبر 1843

لقد شهدت السنوات الاخيرة قفزة نوعية في تطور عدد السكان ونعلل ذلك في الاستقرار النوعي الذي شهدته الجزائر بعد الاستقرار في فرنسا بعد اعلان الجمهورية سنة 1848¹، وبعد الاحتلال الفرنسي لعاصمة الشرق الجزائر وانحصار المقاومة في الناحية الجنوبية في الصحراء في منطقة الزاب والاوراس، وهذه الارقام لا تعبر على عدد الجيش الفرنسي في الجزائر، ولقد سعت السلطة الفرنسية الى بعث عدة أنشطة اجتماعية لتشجيع عمليات الاستيطان، وتوفير ما يمكنهم من الاستقرار وممارسة أنشطتهم، ومن اهم هذه المؤسسات نجد المؤسسات التربوية والتعليمية بكل أنواعها، وهذا لكي يتسنى لها من تحقيق مجتمع فرنسي يمثل سياستها ويحمي وجودها في الجزائر. إلا ان هذه الهجرة كانت تزداد والمجتمع الجزائري يزداد فاقة وتشتت وعزلة لان مقوماته التي يرتكز عليها عملت فرنسا على القضاء عليها وتمثل في مقوماته والمتمثلة في المؤسسات الدينية والتعليمية وملكية الأرض.

(1) - تنازل لويس فيليب عن الحكم في 1848 وغادر الى إنجلترا و توفي في المنفى عام 1850 وكانت بين عامي 1848 حتى 1851 و تم تأسيس الجمعية التأسيسية و أصبح ألفونسو ماري لويس و لا مارتين رئيسا للحكومة ثم انتخاب لويس نابليون 10 ديسمبر 1848 و أصبح آخر رؤساء الجمهورية الثانية عندما اعلن نفسه امبراطورا على فرنسا عام 1851.

إن عملية الإحصاء التي تمت في الجزائر وتعتبر عملية نوعية لم يشهدها الجزائريون قبل ذلك والتي تمت نهاية سنة 1856 انتهت الى إحصاء 167135 فرد أوروبي يسكن الجزائر ومقيم فيها، منهم 100407 فرنسي الأصل و66728 فرد من جنسيات أوروبية مختلفة نبرز ذلك في الجدول التالي.

جدول يبين التركيبة البشرية للسكان الأوربيون في الجزائر سنة 1856م⁽¹⁾

الجنس	أقل من 15 سنة		أكثر من 15 سنة		المجموع العام
	رجال	نساء	أولاد	إناث	
العدد	71824	53869	21140	20303	167135

ضمن عدد الأوربيين الإجمالي الذي بلغ 167135 فرد سنة 1856، سكان المدن منهم 99534 فردا، أما سكان الأرياف فعددهم بلغ 59222 فردا، بينما التجمعات لسكانية تمثل 8379 فردا، أما عدد الذين ولدوا في الجزائر فقد بلغ عددهم الى 31 ديسمبر 1856 حوالي 33563 وهذا العدد يمثل خمس فئة الأوربيين في الجزائر.

المدرسة الفرنسية لا تتجاوب مع مقومات المجتمع:

لم تكن أسس المجتمع دينية فحسب بل هي معطيات تعليمية وتنظيمية وتشريعية وعلاقات اجتماعية موضوعية⁽²⁾، وكانت الحياة الثقافية الإسلامية هي الرابط بين هذا المجتمع، تجمع تحت لوائها 99% من السكان لان الأقليات اليهودية والمسيحية كانت تمثل نسبة قليلة من مجموع سكان البايليك الريفي، وجلهم استقروا في الحواضر الكبرى للبايليك.

يرى روزيت (Rosette)⁽³⁾ في كتابه رحلة في البلاد الجزائرية سنة 1833م أن هذا الشعب له من التربية ما قد يفوق الشعب الفرنسي، فكانت أغلبية الناس تعرف القراءة والكتابة والحساب وهو كذلك رأي "فلسين استرهازي" عندما يذكر أن نسبة غير متعلمين كانت اقل مما كانت عليه في فرنسا التي كانت تتجاوز نسبة 40% والشاهد على ذلك توقيع الناس إمضاءاتهم في دفاتر الحالة المدنية باللغة العربية في السنوات الأولى

(1) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p316.

(2) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص206.

(3) - كتب عن التعليم في الجزائر في الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر وخاصة في مدينة ندرومة التابعة لولاية تلمسان اليوم سنة 1833.

للاحتلال الفرنسي، ففي المدن كان الأطفال يتعلمون في المدارس والمساجد والكتاب⁽¹⁾، حيث كانوا يتلقون علوم القرآن واللغة العربية وكانوا يتخرجون من تلك المدارس ثم يتولون تعليمهم بأنفسهم، وكانت الميزانية هذه المؤسسات هي من عوائد الحبوس والوقف التي تشرف عليها الفرق الدينية.

وكانت المدن الكبرى مراكز دينية وثقافية وبالخصوص قسنطينة⁽²⁾، ومن أهم المنشآت الدينية في البايليك نذكر مدينة قسنطينة التي ذكرها الرحالة الورتلاني في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي أنها تظم خمسة مساجد جمعة متقنة البناء⁽³⁾، وبلغ عدد الزوايا في مدينة قسنطينة لوحدها ستة عشر زاوية وبلغت زوايا بجاية وزاوية خمسون زاوية⁽⁴⁾، وبلغ عدد المدارس في مدينة قسنطينة حوالي تسعون مدرسة عند الاحتلال الفرنسي لها⁽⁵⁾.

وكانت عمليات الإشراف والتعاون والإدارة التشريعية تتلقى المدد المالي من عوائد الحبوس وهناك العديد من الزوايا التي أخذت عن عاتقها مهمة جمع الزكاة وإعانة المساكين وإعانة المرضى والعجزة، وكان الحبوس عمدة في إنقاذ من كانوا لا يجدون قوتهم وبدونها يهلكون، وكان العديد من شيوخ الزوايا يداوون المرضى بالطرق التقليدية البدائية باسم البركة. مثل الأدعية والأحجية وبصاق الأولياء وتمايم والسحرة والمشعوذين⁽⁶⁾، كان المظهر الإسلامي للمجتمع بارز الوجود في خاصية المساواة والتسامح وهو ما يعود إلى المفهوم الديني للتنظيم الاجتماعي.

سعت فرنسا الى إقامة نظام تربوي جديد من حيث الوسائل والأساليب، وذلك لتحقيق أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية، وتكون بديلة عن تلك التي وجدت في الجزائر فالمدرسة في نظرها تكوين أفراد من

(1) - اندري برنيان وآخرون، مرجع سابق، ص 210.

(2) - المرجع نفسه، ص 213.

(3) - أشهر هذه المساجد الجامع الكبير فقد بناه الباي احسن بو حنك كانت منارته تبلغ خمسة وعشرون مترا وعند بابه لوحة منقوشة وجامع السوق الغزل فقد بناه الباي حسين ب وكمية وهو جامع للمذهب الحنفي جميل الشكل والهندسة وجامع سيدي الكتاني فقد بناه صالح باي وبني جامع آخر في عنابة وجامع القصبية وجامع سيدي علي بن خلوف.

(4) - Feraud, (ch). « Tournée dans la Province de Constantine ». R.A; Année; 1868. Volume 12, p47.

(5) - وقد ذكر فايسات أن مساجد قسنطينة قد بلغت حوالي مائة مسجد وزاوية، أما "إمريت" فقد اخبر أن عدد مساجد قسنطينة قد بلغ 35 مسجدا. وجاء في تقرير الذي أعده روس والفرنسي غداة الاحتلال الفرنسي لقسنطينة سنة 1837 أنه كان بما حوالي مائة مسجد.

(6) - سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج 1، بيروت، ص 167.

الجزائريين تحتاج إليهم السلطة الفرنسية، في شؤونها العامة لذلك امتازت بخصوصيات عن التعليم و التكوين الخاص بفتة أبناء المستوطنين الأوربيين، فالمدرسة الخاصة بأبناء المستوطنون نسخة مطابقة للنموذج الأصلي في فرنسا⁽¹⁾. وعلى ذكر عبارة " أهلي " Indigene " لا بأس أن بين بعضا من المعاني والدلالات، التي تحملها هذه الكلمة و انعكاساتها السلبية على شخصية الجزائريين. فعبارة أهلي، تعني أنهم ستعمر، فخلال 1830، انطبقت التسمية على المجتمع المحتل، حين دعا البرلمانيون الفرنسيين إلى استعمار الجزائر. يطلق على بقية الجزائريين اسم خاضعين أو أوفياء، وأهالي متمردين أو عصيان أهلي أيضا⁽²⁾.

فالمستعمر الفرنسي هو من أطلق تسمية الأهالي على الجزائريين، فليس هناك إذن من يؤكد بأن هذه التسمية كانت لصيقة بالجزائريين من قبل (أي قبل الحقبة الاستعمارية) إن الأهلي البدائي هو " همجي"، لكنه ضروري للاستعمار على اعتبار أنه يمثل اليد العاملة فلقد شدد مارسيي. (Mercier.E) على أنه كان يوجد بالجزائر صنفين من المواطنين: مواطنين فرنسيين و أفراد فرنسيين، فأما المواطنين الفرنسيين أو المستوطنين فهم يتمتعون بكل الحقوق، و أما الأفراد الفرنسيين أو المستعمرين؛ فعليهم أن يتوافقوا مع كل الواجبات، لأن قانون الأهالي سلبهم - بلا قيد و لا شرط - كل ما ينتفعون به ، ولكن سلبهم أيضا حقوقهم وحرثهم⁽³⁾.

إن كلمة أهلي، تحمل قيمة سلبية نادرا ما يتمتناولها في القواميس، فأهليه و بكل بساطة الشخص الذي ينتمي إلى مجموعة من السكان كانت تقيم في بلد قبل أن يتم احتلاله. يتعلق الأمر في هذا السياق ب: "العربي"، "القبائلي" وغيره و يتضمن كل الأنماط الرتيبة المرتبطة بهذه الجماعات العرقية، فكلمة أهلي أصبحت تحمل صورة سلبية من خلال ما تم إسناده لمختلف الأعراق التي ظهرت في الجزائر من سمات سلبية و التي يبدو و كأنه اصيغت من الكتابات الاستعمارية⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ - وزارة التربية الوطنية ، مديريةية التكوين، تكوين المعلمين، الديوان الوطني للتعليم والتكوين عن بعد ،الجزائر، 2006، ص .

⁽²⁾-Gallissot. R, « Les effets paradoxaux de la catégorie d'origine indigène », in
⁽³⁾-kouadria.A, « Le rapport à l'autre et représentations sociales dans l'idéologie coloniale: cas de l'Algérie », in évolution historique de l'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009, P.P101.105.

⁽⁴⁾ -Guidoum. L, Construction de stéréotypes liés à l'indigène dans les écrits coloniaux Constantine et sa région, in évolution historique de l'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de

التشريعات الفرنسية الخاصة بالمؤسسات التعليمية في الجزائر وانعكاساتها على المجتمع

الجزائري:

يعتبر قرار 03 اكتوبر 1848 قرارا نهائيا وشاملا وعليه عينت الإدارة "ديفوكس" مسؤولا على إحصاء المساجد ونحوها وهكذا صارت العربية غريبة في ديارها⁽¹⁾.

أما قرار سبتمبر 1830؛ فقد أصدر في عهد كلوزيل والذي ينص على مصادرة الاملاك الدينية مهما كان نوعها (عامة وخاصة) ووضعها في مصلحة املاك الدولة الفرنسية ومما جاء في نص القرار مايلي «كل المنازل والمتاجر والدكاكين والبساتين والأراضي والمخلات واية مؤسسة مهما كانت لها ريع مهما كان عنوانه موجهة الى مكة والمدينة أو مسجد أو اية جهات محددة ستكون مستقبلا تحت ادارة الدومين وهي التي تؤجرها»⁽²⁾، وهذا يعتبر أول إجراء ضرب اهم مقوم من مقومات الشخصية الجزائرية تقطع منه أهم مصدر لتمويل ونشاط في مجال التعليم والمحافظة على المؤسسات الدينية التي كانت هي المؤسسات التي يتم التعلم فيها.

- مرسوم 1838: اصدره الحاكم العام يلزم جميع الموظفين الفرنسيين تعلم اللغة العربية المستعملة الدارجة وهذا ليتسنى لهم فهم عقلية الجزائريين والتحقيق معهم بشكل جيد وكذلك لغرض ايجاد اداريين وعسكريين يستعملونهم في تحقيق اهدافهم الاستيطانية وقد استعان هؤلاء بالمكاتب العربية التي أنشئت منذ 1844 بالإضافة الى المليشيات التي جندت في الجيش الفرنسي من الزواف والصبايحية وحتى البعض من المثقفين التي استعانت بهم فرنسا في تسيير شؤونها في الشرق الجزائري⁽³⁾.

- قرار 23 مارس 1843 : اصدره وزير الحربية الدوق دالماسي من ثمانية مواد جاء في مادته الاولى منه ما يلي: "ان كل الوصلات والمصاريف الناتجة عن المؤسسات الدينية والاقواف مهما كان نوعها قد اصبحت ملحقة بالميزانية الاستعمارية الكولونيالية"⁽⁴⁾.

la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009, P.63.

⁽¹⁾-IBIDEM, p43.

⁽²⁾- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2007، ج 5، ص 161.

⁽³⁾- MONITEUR ALGERIEN, n°404 DE26 octobre. 1940.

⁽⁴⁾- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2007، ص 167.

- قرار 1847: أمر ملكي يقضي بإيجاد تعلم جميع الموظفين اللغة العربية ويرجع الى تراجع عدد المتدربين في اللغة العربية (1).
- قرار 01 أكتوبر 1844: ينص اخضاع الاوقاف للمعاملات المتعلقة الاملاك العقارية لتسهيل عملية الاستحواذ على أراضي الجزائريين وتحويلها الى ملكية أوربية (2).
- المرسوم المؤرخ في 14 جويلية 1850 : القاضي بإنشاء 40 مدرسة (3) المرسوم المؤرخ في 30 ستمبر 1850 القاضي بإنشاء المدارس الحكومية الثلاثة في كل من الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبها حاول الاستعمار ان يجمد اللغة العربية ويقضي على المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري ويقضي على أسس الوحدة والتضامن بين أفراد المجتمع الجزائري (4).
- قرار صادر 16 أوت 1848 : ينص هذا القرار في المادة الاولى: المدرسة الفرنسية واليهودية تحت إمرة وزارة التعليم دون سواها، في حين ألحقت المدرسة الإسلامية بوزارة الحرب (5). ومن هنا يظهر اهتمام فرنسا بالمستوطنين وفتح المدارس للتعليم في حين ينبغي مصادرة كل ما هو عربي وإسلامي وإحصاؤه وتوقيف المعلمين.
- قرار 20 جانفي 1849 : يقضي تعيين لجنة من قبل وزارة التعليم العمومي والعبادات وتعنى باقتراح الوسائل اللازمة لنشر الفرنسية بين الاهالي (الجزائريين) والعربية بين الأوربيين وتتكون اللجنة من الجنرال بودو الشعب رئيسا وفرديناند ارو ممثل للشعب ودوسولسي العضو في المعهد والسيد كوسان دو بيرسوفال الأستاذ بمعهد فرنسا وجرمان مدير الشؤون الجزائرية بوزارة الحرب وآرتو المفتي العام للجامعة وبيرون المدير السابق لمدرسة الطب بالقاهرة ولوسيو قائد الفيلق الأول بوزارة التعليم العمومي وعن بارو بالإجماع مقررًا .
- هذه القوة من القوانين الاستعمارية لم تكن إلا ذات طابع استعماري فالقانون يوضع لحماية الأفراد وتوحيد حقوقهم وواجباتهم وهي تمثل الرأي العام لأنها تراعي مدى استجابة علي من تفرض عليها، فبشهادة الفرنسيين أنفسهم تظهر جليا سياسة التمييز العنصري التي كانت تنتهجها فرنسا للتفريق بين المستوطنين و

(1) - أوجست كور، ملاحظات حول تدريس اللغة العربية في كل من الجزائر وقسنطينة ووهران (1830-1879) ترجمة محمد يحياتن، ص 46.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، عالم المعرفة، ط 2، الجزائر 2009، ص 123.

(3) - سعيد بوخاوش، لاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، دار تفتيلت للنشر، الجزائر، 2013، ص 48.

(4) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، ص 49.

(5) - نفس المرجع، ص 42.

الجزائريين الذين يتم استغلالهم لخدمة مصالحها، على الرغم من أنهم كانوا يعتقدون بعدة صفات سلبية كالهمجية و التي ترمز إلى الوحشية و العنف و غيرها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الاستعمار الفكري الفرنسي و الذي يعد أصعب حتى من الاستعمار العسكري.

و من أجل التقليل من العداوة التي يكنه الجزائريون اتجاه الغزو الاستعماري، قام الجنود الفرنسيون بتهدم المؤسسات الموجودة في الجزائر، ذات طابع تربوي أو مدرسي وذلك بصفة جزئية أو كلية، حيث كتب فوفل (Fauvelle) يقول: «أقل ما يتعلم العرب، أقل ما يكونوا متعصبين، ويسهل توجيههم»⁽¹⁾.

فالتعليم الذي كان موجه الأهالي هو أساسا كان بسيطا، حيث يقتصر على المبادئ الأولية للغة الفرنسية، فالهدف من تعلي هؤلاء - حسب فوفل - ليس التعليم بمعناه الحقيقي و الكامل، بل من أجل التقليل من تعصبهم لدينهم و لغتهم و لثقافتهم. " لقد كانت للمحتلين قناعة بأن المدرسة هي المنفذ الذي عن طريقه يتسللون إلى عقول الجزائريين وقلوبهم. و يتجلى ذلك في العديد من تصريحات وتقارير العسكريين الذين تداولوا على السلطة في بداية الاحتلال و منهم الدوق (دو روفيقو)⁽²⁾ و هذا أيضا رأي الدوق (دومال) الذي أو لعناية خاصة لهذا الموضوع وجاء في تقريره الشامل الذي رفعه إلى الحكومة الفرنسية، عن وضعية التعليم، ما خلاصته بالنسبة لمستقبل المستعمرة: « إننا في هذه المؤسسة (المدرسة) سنكون فرنسي المستقبل (يقصد الجزائريين)»، من هنا تتضح السياسة الفرنسية الحقيقية و هي محاربة اللغة العربية و إحلال اللغة الفرنسية محلها ، فعبارة "فرنسي المستقبل"⁽³⁾ تخفي ورائها دلالات كبيرة ، فالجزائري الأصلي حمل أفكارا فرنسية، يحرص على المصالح الفرنسية، و قبل كل شيء تسهل السيطرة عليه، لكن في المقابل، لا يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها

⁽¹⁾-kouadria.A, « Manuels Scolaires et représentation del'algérien », in évolution historique de l'image de l'algérien dans lediscours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de larévolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009, P.5

⁽²⁾ - الدوق دو روفيقو: يصرح سنة 1832 قائلا: « أرى أن نشر لغتنا هي الوسيلة الأكثر فعالية لفرض هيمنتنا في هذا البلد»

و قال في مناسبة أخرى: « إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نضعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث تتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا».

⁽³⁾ - أحمد منور ، "معالم السياسة التعليمية الاستعمارية في الستين سنة الأولى من الاحتلال "، من مجلة الشهاب الجديد، المجلد الثالث، العدد الثالث، مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004، ص 330 .

الفرنسي. لكن المستعمرين بالرغم من اقتناعهم بأن التعليمه وطريقهم إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، إلا أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام جادين في نشر التعليم على نطاق واسع يسمح للجزائريين بالتخلص حقا من الجهل، و التفتح على الحضارة الأوروبية الحديثة ، لأن ذلك سيكون - لو نفذوه فعلا- من اقضا لمصالحهم . لقد كانت السياسة التعليمية الاستعمارية في جميع مراحل احتلال محكومة بأهدافم حددة حتى و إن لم تكن دائما معلنة⁽¹⁾. ولم يكن تعليم الاهالي واردا في البرنامج الاستعماري، بل العكس من ذلك، كان هناك برنامج لتهديم كل المؤسسات ذات الطابع الاجتماعي والتربوي⁽²⁾.

لقد شرعت فرنسا في تطبيق مبدأ الفرنسية على الأهالي و السكان الجزائريين، فتصدت للغة العربية و عملت على محاربتها باعتبارها منافس اللغة الفرنسية. فكانت الإدارة الفرنسية تمنعها عن الأهالي من جهة و تقدم اللغة الفرنسية كبديل لها من جهة أخرى حتى تضع الجزائريين في موقف الاختيار، بين الفرنسية أو الجهل و قد فضل العديد منهم أن يبقى أبناءهم أميين على أن يرسلوهم إلى المدارس الفرنسية.⁽³⁾

وكان رد فعل الإدارة الفرنسية هو القضاء على المراكز الثقافية و على اللغة العربية عن طريق غلق المدارس الرسمية و المعاهد و الزوايا،⁽⁴⁾ إن العقبة التي كانت تقف وراء تنفيذ السياسة التعليمية الاستعمارية هي وجود المعاهد و الزوايا في المدن و الريف، و لذلك أو لما بدأت به فرنسا هو القضاء على هذه المؤسسات ذات الطابع الديني و التي كان لها الدور الكبير ليس في التعليم فقط، بل في الحفاظ على الهوية العربية و الإسلامية و الثقافة الوطنية. إن الذي جعل التعليم الخاص بالجزائريين فرنسيا % 100 في المرحلة الابتدائية و فرنسيا %99 في المرحلتين الثانوية و العالية لم يكن يهدف من وراء ذلك إلى تثقيف الجزائريين ورفع مستواهم العلمي والحضاري أبدا، بل كان همهم الأكبر هو صهرهم في البوتقة الفرنسية و فرض الفرنسية و الاندماج والتجنيس عليهم . و قد جعل من المدرسة وسيلة مثالية لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية

(1) - أحمد منور ، مرجع سابق، ص334 .

(2) - kouadria,A « Manuels Scolaires et représentation del'algérien », in évolution historique de l'image de l'algérien dans lediscours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de larévolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre2009, P.6.

(3) - شارل روبير اجرون، المجتمع الجزائري، في مخبر الايديولوجية الكولونيالية، ترجمة وتقديم وتعليق، محمد العربي ولد خليفة، تالة، د ت ط.، الجزائر، ص 56.

(4) - وزارة التربية الوطنية، مرجع سابق، ص 115 .

الإسلامية، تدريجياً أفضل مما لو استعمل معه القوة و الضغط⁽¹⁾. حتى وإن كانت هناك شعارات تنادي بما يسمى بالإدماج، فهذا يتناقى مع المعنى الحقيقي الذي تحمله العبارة من حيث حصول الجزائريين على نفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون و هذا الأمر غير موجود أساساً، لاني القوانين ولا في أرض الواقع، بالسياسة المستعمر الحقيقية تكمن في استغلال الشعب الجزائري و السيطرة عليه.

لقد عرف الفرنسيون أن تعليم لغتهم لأبناء الجزائريين هو السبيل السهل للسيطرة عليهم، لهذا دعا الكثير من عسكريهم ومدنيهم إلى الاهتمام بتعليم الأهالي اللغة الفرنسية، و من أشهر هؤلاء نجد الجنرال "بيجو" الذي كان يرفع شعاراً: "السيف و المحراث و القلم، وكان الدوق دومال هو أيضاً من المطالبين بهذا، حيث يقول: « إن فتح مدرسة في وسط الأهالي يعد أفضل من فيلق عسكري لتهدئة البلاد »، لهذا قاموا بفتح مدارس لتعليم اللغة الفرنسية بهدف القضاء على ما يسمونه بالتعصب الديني، و غرس الوطنية في أذهان الناشئة⁽²⁾، فالهدف من تعليم اللغة الفرنسية هو أن يتشبع أبناء الأهالي بالثقافة الفرنسية، و تصبح هذه الأخيرة كمرجعية أساسية يقتدون بها بدل الثقافة و اللغة العربية.

لقد ظهرت أنواع عديدة من المدارس، لكنها فشلت في أداء المهام التي كانت تطمح إليها و التي تعكس غياب سياسة حقيقية في تعليم الجزائريين، و على هذا الأساس فقد أنشئت السلطات الاستعمارية في الأول ما أطلق عليه اسم المدارس الموسيكية الفرنسية، ثم المدارس العربية الفرنسية، والمدارس البلدية المختلطة و كذلك مدارس المعلمين وغيرها، وكانت دائماً تستجيب لحاجات محددة ومحدودة، فقد كان الغرض في النوع الأول هو إدخال اللغة الفرنسية إلى المدارس القرآنية، و كان الغرض في النوع الثاني هو تكوين نخبة من المتعلمين يحتاج إليها الفرنسي و نفي تعاملهم مع الجزائريين، كموظفين في القضاء الإسلامي، و في الترجمة العسكرية و في مجال العدالة، و حتى في التدريس باللغة العربية، و في جميع الأحوال، فقد كان الغرض هو تكوين نخبة تكون واسطة بين الإدارة و بين الأهالي وبناء عليه لم تكن هناك أهدانية- في يوم من الأيام - لتعميم التعليم حتى و لو كان بلغة المعمرين، لأن ذلك سيجعل الجزائريين يتخلصون من شبح الجهل و يدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم و ان ذلك لا يكفل للفرنسيين الصبغة الاستعمارية على المجتمع الجزائري من طرف الاستعمار الفرنسي.

(1) عبد القادر خليلي، "السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر"، من مجلة الشهاب الجديد، الثالث، العدد الثالث، مؤسسة

الشيخ عبد الحميد بن باديس، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، 2004، ص 316.

(2) - أحمد منور، مرجع سابق، ص 336.

ولقد وقع جدل كبير بين العسكريين وبين المدنيين عن طبيعة التعليم في الجزائر والأهداف منه على المستوى العام في الجزائر⁽¹⁾، وعلى ذكر المدارس العربية الفرنسية؛ فقد تم تفويض تسييرها إلى ضباط المكاتب العربية بالجزائر، في حين أن المدارس المخصصة لتعليم أبناء المستوطنين فقد كانت تابعة لوزارة التربية بباريس من هنا تظهر جليا السياسة التي كانت تنتهجها السلطات الاستعمارية في تعليم أطفال الأهالي مقارنة مع أطفال المستوطنين وهي مبنية على مبدأ التمييز بين الطرفين⁽²⁾.

إن تعليم أبناء الجزائر ذكور أو إناثا طول فترة الاحتلال ظل يتأرجح بين القبول والرفض و هذا يعود إلى عاملين أساسيين ويتمثل العامل الأول في عدد مرضى الجزائريين عن التعليم الذي كانت فرنسا توفره لأبنائهم في المدارس الفرنسية القليلة التي أنشأت لتعليمهم لأنه تعليم خال من اللغة العربية والدين الإسلامي و التاريخ العربي الإسلامي للجزائر، و إلى كل ما يربط الجزائر بالعالمين العربي و الإسلامي بصفة، و بذلك فهو أجنبي في فلسفته و أهدافه و مناهجه ولغته، و هذه الأمور كلها تتعارض مع مقومات الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري ولذلك وقف الجزائريون موقف احذرا منذ البداية.

إما العامل الثاني فهو خاص بطبيعة الاستعمار وأهدافه من التعليم في الجزائر وهي النظرة المختلفة لنظرهم في التعليم في فرنسا، لان الاستعمار كان لا يرغب في تكوين رجل صالح في المستقبل وفرد مثالي، وهذه هي النظرة الحقيقية من الوظيفة التربوية التعليمية أي تحقيق المثالية في الأفراد، بل ان الاستعمار يريد تكوين أفراد ليكونوا خاضعين خادمين ومحافظين عن الفكرة الاستعمارية الاستيطانية في الجزائر، ومن خلال الجدول التالي يتضح لنا الوضعية في التعليم في الجزائر للموسم 1854-1855 والمؤسسات التي أنشأتها السلطة الاستعمارية، فالشرق الجزائري استقطب نصف العدد الكلي للمقاطعة الجزائر ومقاطعة وهران، فعدد 26 من بين 51 في التعليم العالي، أما في التعليم الثانوي فكان نصيب الشرق الجزائري بعدد 334 تلميذ من بين 894 على مستوى الجزائر، أي أكبر من الثلث من العدد الإجمالي، والملاحظ ان نصيب الإناث كان معدوما في كل الأطوار التعليمية، ويمكن إرجاع ذلك لطبيعة المجتمع الجزائري الذي كان متحفظا على تدريس

(1) - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، د. س ط. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص 76.

(2) - وزارة التربية الوطنية، مرجع، ص 133.

البنات في المدارس الفرنسية، أما الملاحظة الثانية التي يمكن تفسير بها ان الشرق الجزائري استقطب أكبر عدد من المتدربين فيعود الى بداية الاستيطان المبكر للفرنسيين في عنابة وسكيكدة⁽¹⁾.

جدول لوضعية التعليم في الجزائر لموسم 1854-1855⁽²⁾

الدوائر	الموقع	طبيعة المؤسسة	عدد	الذكور	الاناث	المجموع
التعليم العالي						
مقاطعة	الجزائر	دروس بالعربية العامية	1	15	//	15
مقاطعة	وهران		1	10	//	10
مقاطعة	قسنطينة		1	26	//	26
المجموع			03	51	//	51
التعليم الثانوي - المؤسسات العامة-						
الجزائر	الجزائر	ثانوية امبريال	1	333	//	333
وهران	وهران	المؤسسة البلدية	1	102	//	102
	مستغانم		1	125	//	125
قسنطينة	عنابة	للابتدائيوالتانوي	1	186	//	186
	سكيكدة		1	148	//	148
المجموع			5	894		894

ان النظرة الاستعمارية الاستيطانية لم يستطع تحقيقها في المجتمع الجزائري، لأن هناك صراع قائم بين الفرنسيين أنفسهم والصراع بين المؤهلات التي كانت في المجتمع الجزائري ومحاولة فرنسا في القضاء عليها التي كانت قائمة في الجزائر، حيث يمكن السيطرة على الشعب الجاهل بسهولة و يسر، و تسخيرها في خدمة

⁽¹⁾ - شارل رويبر اجرون، المجتمع الجزائري، في مخبر الايديولوجية الكولونيالية، ترجمة وتقديم وتعليق، محمد العربي ولد خليفة، تالة، د ت ط، الجزائر، ص 64.

⁽²⁾ - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p198.

الاستعمار و أهدافه بخلاف الشعب المتعلم فمن بين أهم و وظائف المدرسة الفرنسية تلك التي تركز على انشاء مجموعة من الوسطاء بين المجتمع المستعمر والمجتمع الجزائري⁽¹⁾.

حيث أن الوقائع التاريخية تشير إلى أن المدرسة ظهرت في الجزائر أثناء تلك الحقبة الزمنية لتكوين المعلمين تمت بمقتضى المرسوم الإمبراطوري المنشور في 04 مارس 1865 تم إنشاء دار المعلمين و التي تعرف الآن بمدرسة بوزريعة⁽²⁾، لقد كان التكوين في هذه المدرسة لصالح أبناء الأوروبيين و لم يتسنى لأبناء الأهالي الاستفادة من هذا التكوين حتى سنة 1883 بعد أن تم فتح فرع خاص بتكوين المعلمين الجزائريين بدار مدرسة بوزريعة، أو ما يطلق عليه باللغة الأجنبية (Le cours normal del'enseignement des indigènes). إلا ان ما يلاحظ من مسار هذه المدرسة إنها أنشئت لغرض تكوين فئة من المعلمين الفرنسيين تكون لهم الكفاءة العالية في تلقين الفنون البيداغوجية في وسط مغاير للنمط الذي كان موجود في فرنسا، أما منحى الجزائريون من هذه المدرسة فهو تقريب معدوم بحيث من بين ثلاثون فرنسي المسجلون فيها سنة 1865 ليس من حظ الجزائريين سوى ثلاث مناصب، ونحفظ هذا العدد إلى منصب واحد سنة 1866-1867 وفي سنة 1868 تم تسجيل جزائريين اثنين. إن طريقة انتقاء العناصر الجزائرية كانت تتم عن طريق مسابقة يراعى فيها حظوظ الفرنسيين لاعتبارات معروفة، تتمثل في عدم تحقيق المساواة بين الجزائريين والفرنسيين وليس على أساس تكافؤ الفرص، وهي السياسة التي خضع لها الجزائريون في ميدان التعليم او غيرها من المجالات الأخرى⁽³⁾ إلى طبيعة المسابقة المتبعة لانتقاء الناجحين من المترشحين و التي كانت في صالح الفرنسيين لاعتبارات عديدة إن المسابقة المتبعة لانتقاء الناجحين من المترشحين قد تكون السبب المباشر في انخفاض عدد الطلبة، و إنما هناك أسباب أخرى غير مباشرة، منها الثورات التي اندلعت في العديد من المناطق، و انتقام السكان هذه المناطق، قامت فرنسا بجرمان أبناءها من الاستفادة

(1)- Collonna. F, Les instituteurs algériens (1883-1939), presses de la fondation nationale des sciences politiques, paris, 1975, P.10.

(2)- مضمودي زين الدين، عوامل التكوين وعلاقته اب اتجاه اتطلبة المدرسة العليا للأساتذة نحو مهنة التدريس من خلال دراسة متبعية، مذكرة دكتوراه دولة في علم النفس التربوي، قسنطينة، 1998-1999. ص 45.

(3)- عبد القادر حلوش، السياسة الفرنسية في الجزائر، ط 11، دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر 1990، ص 132.

الكلية من التعليم، حتى في مدارس تكوين المعلمين⁽¹⁾. و المظهر الذي أضفت الإدارة الاستعمارية على المنظومة التعليمية هو الطابع المسيحي، بحيث زاوجت التعليم بين الفرنسية والمسيحية وهذا يتضح من خلال الجدول للمؤسسات التعليمية في الشرق الجزائري لموسم 1854-1855.

جدول لوضعية التعليم العام ذكور في الشرق الجزائري لموسم 1854-1855⁽²⁾

عدد المؤسسات 1854-1855			طبيعة المؤسسة	التعيينات	
المجموع	ذكور	عدد المدارس		الموقع	الدوائر
262	262	2	مدرسة كاثوليك	قسنطينة	قسنطينة
76	76	1	مدرسة اسرائيلية	قسنطينة	
28	28	1	مدرسة كاثوليك	سطيف	
65	65	1	مدرسة اسرائيلية	عناية	عناية
25	25	1	مدرسة كاثوليك	كال	
22	22	1	مدرسة كاثوليك	مندوفي	
18	18	1	مدرسة كاثوليك	برال	
61	61	1	مدرسة كاثوليك	قلمة	
23	23	1	مدرسة كاثوليك	هيلوبوليس	
22	22	1	مدرسة كاثوليك	مليسيمو	
20	20	1	مدرسة كاثوليك	بيتيت	
205	205	1	مدرسة كاثوليك	سكيكدة	سكيكدة
48	48	1	مدرسة كاثوليك	بجاية	
31	31	1	مدرسة كاثوليك	كاستونفيل	
31	31	1	مدرسة كاثوليك	روبيرفيل	

(1) - مضمودي زين الدين، مرجع سابق، ص 46 .

(2) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p244.

31	31	1	مدرسة كاثوليك	جيجل	المناطق
23	23	1	مدرسة كاثوليك	الحروش	العسكرية
19	19	1	مدرسة كاثوليك	جيماب	
43	43	1	مدرسة كاثوليك	باتنة	
1053	1053	20		20	المجموع

من خلال الجدول نلاحظ ان عدد المؤسسات التعليمية وان بلغ عشرون (20) مدرسة في الشرق الجزائري والتي شملت كل الفضاء في الشرق الجزائري دون الصحراء، فهذا العدد يمثل نسبة قليلة بالنسبة للإقليم فلا يمثل سوى خمس (5/1) المؤسسات التي كانت متواجدة في مدينة قسنطينة حيث كان أحوال 95 مؤسسة دينية وتعليمية،⁽¹⁾ أما عدد المتعلمين فلم تستقطب المؤسسات التربوية سوى 1053 تلميذ بمعدل متوسط 52 تلميذ في المدرسة، وهذا عدد قليل إذا قسمنا ذلك على المستويات في المؤسسة الواحدة⁽²⁾.

وما يلاحظ ان في السنوات الاولى كان عزوف الجزائريين في الاتصال في المؤسسات التربوية الفرنسية وأما الفئة الأوربية فأعدادها كان ضعيف وان معظم المستوطنون ليس لهم أبناء او غير متزوجون لان الأوضاع كانت غير مستقرة بسبب استمرار المقاومة في منطقة القبائل والمناطق الجنوبية للشرق الجزائري. إغمتنا على تقليص وحدتنا في سطيف ورفع مخيم عين الترك⁽³⁾ يقول لويس رين: "غير أن فترة الهدوء لم تستمر طويلا، لقد أرغمتنا المناورات العسكرية في نواحي فيليب فيل (سكيكدة) وفي مناطق أخرى مهددة⁽⁴⁾.

اتخذت فرنسا التعليم في الجزائر كمظهر حضاري مكمل للحضارة الأوربية وللسياسة العامة الفرنسية في الجزائر، على أساس المنفعة والمصلحة التي تؤهلها لتجسيد السياسة الاستعمارية الاستيطانية وفي نفس الوقت سد قنوات ووسائل التعليم القائمة في الجزائر، ولو اهتمتها بالطابع التقليدي وانه لا يساير التطورات العصر، وان مشاريعها كانت غير ثابتة على طريقة محدودة، لأنها في الأصل كانت ترغب في تغريب المجتمع الجزائري عن أصوله والقضاء على مقوماته، وإبعاده عن تاريخه⁽⁵⁾.

(1) - تيفون تيران ، مصدر سابق ، ص 139.

(2) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p44.175

(3) - لويس رين، انتفاضة 1871 في الجزائر، ترجمة مسعود الحاج مسعود، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2013، ص 47.

(4) - نفس المصدر، ص 48.

(5) - عبد القادر حلوش، مرجع سابق، ص 132.

لم تكن المؤسسات العمومية لوحدها في السياسة الاستيطانية بل ظهرت مؤسسات خاصة، تحمل نفس المهوم السياسية الفرنسية ولكن لها طابع اجتماعي أوروبي مسيحي ومن اهم المؤسسات الخاصة في قسنطينة مؤسسة الزيتون وكانت تضم 83 تلميذ في التعليم الابتدائي والثانوي، بالإضافة الى مؤسستين في وهران، وهي مؤسسة الرأي وتضم 72 تلميذ ومؤسسة الأباء 125 تلميذ⁽¹⁾.

جدول المؤسسات الخاصة التعليمية في قسنطينة ووهران لموسم 1854-1855⁽²⁾

المقاطعة	طبيعة المؤسسة	العدد	عدد التلاميذ
وهران	مدرسة الأباء الابتدائي والثانوي	01	125
	مؤسسة رأي الابتدائي والثانوي	01	72
قسنطينة	مؤسسة الزيتون الابتدائي والثانوي	01	83

سعت السلطة الاستيطانية الفرنسية الى بناء مدارس مختلطة في الشرق الجزائري، ذات طابع ديني ومنها يمكن تكوين فئة من الجزائريين المواليين دينيا ولغة الى السلطة الاستعمارية، وعليه يمكن تجميد استعمال اللغة العربية ولتحل محلها اللغة الفرنسية ما دامت هي لغة الإدارة ولغة التعامل واهم المؤسسات المختلطة ما يظهر في الجدول في الشرق الجزائري.

جدول للمدارس المختلطة للشرق الجزائري لموسم 1854-1855⁽³⁾

التعيينات	الموقع	طبيعة المؤسسة	عدد المؤسسات	عدد التلاميذ		
				ذكور	إناث	المجموع
قسنطينة	سطورة	مدرسة كاثوليك	1	10	8	18
	فالي	مدرسة إسرائيلية	1	7	9	16
المناطق العسكرية	عين أرناث	مدرسة بروتستانتية	1	21	16	37

(1) - لويس رين، مصدر سابق، 48

(2) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855, p182 .

(3) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p196.

71	33	38	03	المجموع
----	----	----	----	---------

ما يلاحظ ان عدد المؤسسات المختلطة رغم قلة عددها إلا ان تعداد التلاميذ قليل جدا، وهذا يبين عدم اهتمام الجزائريون بالتعليم في المؤسسات الفرنسية، ونظرا لقلّة التلاميذ أصبحت المشاريع الفرنسية في المجال التربوي غير جاد ولم يحقق أهدافه نظرا لتوجه العامة من الجزائريين الى مؤسساتهم التقليدية⁽¹⁾.

عملت السلطة الاستعمارية على ايجاد نوع من التوازن الجهوي في إنشاء قاعات للتعليم على النمط الذي كان سائدا في الفترة العثمانية وذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الجزائريين ومحاولة منها كسبهم، لاستغلالهم في شؤونها الاستيطانية، لذلك لجأت الى إنشاء قاعات منعزلة، لكن على النمط الأوربي الحديث⁽²⁾، وكان هدفها الثاني هو عدم ترك فراغ للمؤسسات الدينية التقليدية لاستغلال هؤلاء الأفراد لكي يصبحوا في صف فرنسا وليس في صف الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية لان نظرة فرنسا تريد القضاء على هذه المؤسسات لان لها القوة في تجنيد المجاهدين للمقاومة وكانت قبل ذلك قطعت على هذه المؤسسات التقليدية مصادر التمويل والتمويل عنها أصدرت عدة تشريعات تقضي بجماد المؤسسات الدينية على التصرف في الاوقاف التابعة لها، والى جانب ذلك أصبحت تقوم بتعيين أئمة المساجد وتمنح الحقوق لمن اتبع سياستها وسعى في خدمتها، والجدول التالي يبين لنا أهم القاعات المعزولة التي أنشئت في فضاء الشرق الجزائري حتى سنة 1854-1855م.

جدول للقاعات المنعزلة للشرق الجزائري لموسم 1854-1855⁽³⁾

التعيينات		طبيعة المؤسسة	العدد		عدد التلاميذ
الدوائر	الموقع		ذكور	اناث	
قسنطينة	قسنطينة	عزل كاثوليكي	130	100	230
	سطيف	عزل كاثوليكي	40	51	
عناينة	عناينة	عزل كاثوليكي	103	191	294
	كال	عزل كاثوليكي	29	25	

(1) - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر، مرجع سابق، ص 21.

(2) - ايفون تيران، مصدر سابق، ص 141.

(3) - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p.242.

10	10	9	1	عزل كاثوليكي	مندوفي	عناية
18	9	9	1	عزل كاثوليكي	برال	
136	57	79	1	عزل كاثوليكي	قالمة	
26	14	12	1	عزل كاثوليكي	هيلوبوليس	
22	12	10	1	عزل كاثوليكي	مليسيمو	
8	4	4	1	عزل كاثوليكي	بيتيت	
217	117	100	1	عزل كاثوليكي	سكيكدة	سكيكدة
85	43	40	1	عزل كاثوليكي	بجاية	
46	23	23	1	عزل كاثوليكي	كاستونفيل	
34	20	14	1	عزل كاثوليكي	روبيرفيل	
37	22	15	1	عزل كاثوليكي	الحروش	
65	33	32	1	عزل كاثوليكي	باتنة	
62	28	38	1	عزل كاثوليكي	جيماب	
1435	759	687	17		17	المجموع

من الجدول يتبين لنا ان اهم المناطق التي استفادت من هذه الإجراءات هي التي تمت فيها عملية الاحتلال والمناطق الأكثر عدد من السكان الواقعة خصوصا في المدن الساحلية والمناطق الحضرية، وهذا دليل ان السلطة الفرنسية لم تبسط سلطتها على الشرق الجزائري، ل بقت المناطق الجبلية والشبه صحراوية غير قابلة لإنشاء هذه المؤسسات رغم الولاءات بعض الزعماء للسلطة الفرنسية. فمن بين سبعة عشر (17) مؤسسة كان يؤمها 1435 فرد أي بمعدل متوسط يبلغ 84 فرد، وتعتبر عناية اهم المدن التي استقطبت العدد الأكبر ب 294 فرد، ثم تأتي في المرتبة الثانية قسنطينة ب 230 فرد ثم مدينة سكيكدة ب 217 فرد. فالمدن الكبرى هي التي استقطبت أكبر عدد، لان هذه المدن كانت هي اهم المراكز الحيوية للاستيطان وكانت تضم أكبر عدد من المؤسسات الدينية، واعتبرت فرنسا ذلك تعويض للمؤسسات التي قامت بدمها او تحويلها عن نشاطها

الأساسي الديني التعليمي⁽¹⁾. لقد لاحظ دوستان (Toustein) المدير العام للشؤون المدنية في سنة 1874 ان الارقام المثيرة للسخرية بالنسبة للسكان المسلمين المسجلين⁽²⁾.
لقد قامت السلطة الاستيطانية الفرنسية بإنشاء أقسام للكبار والملاحظ في هذا المجال ان السلطة الاستيطانية في مظهرها كان لها اهتمام كبير في ميدان التعليم، نظرا للمؤسسات التي أنشأتها في تنوعها وعددها، لكن السؤال المطروح ما هو العدد الذي استقطبته هذه المؤسسات؟ وهل يتماشى مع تعداد السكان الجزائريون في تلك المناطق التي أنشأتها؟ ان مجموع المؤسسات قد بلغ سبعة عشر (17) ذات طابع مسيحي كاثوليكي⁽³⁾، فكانت اقل استقطاب من مؤسسات العزل لان البعض منها لم تسجل أي فرد والبقية تراوحت بين ثلاث أفراد والأكثر عدد هو 25 فرد في بجاية، وهنا ليس معناه ان الجزائريون غير مكترئين بالعلم والتعلم ولكنهم أكثر وعيا عما يجري والسياسة الفرنسية، فمن 17 قسم للكبار خمسة بقت فارغة من النشاط بسبب عدم قبول الأفراد للتعلم. فلماذا كان هذا العزوف؟ والجدول التالي يبين لنا توزيع الأقسام على المناطق وعدد الأفراد التي استقطبتهم هذه المؤسسات⁽⁴⁾.

جدول أقسام الكبار للشرق الجزائري لموسم 1854-1855⁽⁵⁾

عدد التلاميذ			العدد	طبيعة المؤسسة	التعيينات	
المجموع	اناث	ذكور			الموقع	الدوائر
8	//	08	1	عزل كاثوليكي	قسنطينة	قسنطينة
6	//	06	1	عزل كاثوليكي	سطيف	
3	//	03	1	عزل كاثوليكي	كال	
//	//	//	1	عزل كاثوليكي	برال	
//	//	//	1	عزل كاثوليكي	قلمة	

⁽¹⁾ - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار دراسات في التاريخ المعاصر، المجلد السادس، منشورات وزارة المجاهدين 2009، ص 18

⁽²⁾ - ايفون تيران، مصدر سابق، ص 293.

⁽³⁾ - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p.255

⁽⁴⁾ - ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 2، مرجع سابق، ص 2016.

⁽⁵⁾ - TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1854-1855.p154.

//	//	//	1	عزل كاثوليكي	هيليوبوليس	
12	//	12	1	عزل كاثوليكي	مليسيمو	
15	//	15	1	عزل كاثوليكي	بيتيت	
//	//	//	1	عزل كاثوليكي	سطورة	سكيدة
10	//	10	1	عزل كاثوليكي	فالي	
25	//	25	1	عزل كاثوليكي	بجاية	
17	//	17	1	عزل كاثوليكي	كاستونفيل	
//	//	//	1	عزل كاثوليكي	روبيرفيل	
04	//	04	1	عزل كاثوليكي	جيجل	المناطق
10	//	10	1	عزل كاثوليكي	باتنة	العسكرية
05	//	05	1	عزل كاثوليكي	الحروش	
45	//	45	1	عزل كاثوليكي	حيماب	
160	//	160	17		17	المجموع

يلاحظ عزوف الأفراد عن الالتحاق بالمؤسسات التعليمية الفرنسية للكبار. ان وعي الجزائريون كان في غير المستوى الذي كانت تسير فيه السياسة الفرنسية، فمن جهة صادرت أوقاف مؤسساته الدينية التي تعود على اعتيادها وهددت من يقيم فيها وحذرت من يرشد ويسدد رأياها، بالإضافة الى فراغ الروح التربوية التي كانت في تلك المؤسسات، لأنها خالية من التعاليم الدينية الإسلامية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي وجوفاء من فلسفة الحياة التي يريد بلوغها الفرد الجزائري.

لم تستقر السياسة الفرنسية على رأي واضح عن الأهداف التعليمية التي يراد الوصول إليها لان الصراع الموجود بين القادة العسكريين والمستوطنون على ملكية الأرض او على طبيعة النظام الاستيطاني المراد إقامته في الجزائر، كذلك الوضع التعليمي، فالبعض يراد تعليم الجزائريين لاستغلاله للأغراض الاستيطانية وهذا متفق عليه مع كل الجهات، لكن التخوف من انتشار الوعي لدى الجزائريين كان يخيفهم، وكانت نظرة المستوطنون ترمي إلى مسخ الهوية الجزائرية وتشتيت شملهم ورأيهم ووحدهم لإبعادهم عن كل ما من شأنه ينغص الوجود الفرنسي في الجزائر، فالتعصب الديني الذي يلصقونه بالجزائريين ، يقول ايفون تيران : "فيالقطاع القسنطيني و

خاصة ما بين 1855 و 1860 و هو ما لا يعني ان عدد المعلمين قد ازداد فيها بعد، لكن بالاحرى اننا اذعنا لنقصهم و احيانا كنا نبتهج لذلك . و لم تستطع دائرة بونة ان تحصي الا اثني عشرة مدرسة في 1865 اي 135 تلميذ متعلم و قد بعثت بجاية ، على سبيل ليس هناك مستخدمين للتعليم او للعشائر في الدائرة و تعلن سطيف في 1857 قائلة ينقصنا الطلبة ،⁽¹⁾ يعني في محتواه عندهم الرضوخ والاستسلام لأمة أجنبية غازية ليس هدفها احتلال الأرض فقط وإنما إعادة تشكيل المجتمع المهزوم العقيدة وذهنا ليصبح منسجما مع مجتمع الدولة الغازية ليصبح وجودها في البلاد وجودا "أبديا"⁽²⁾. كما لم يتم الحسم في صيغة الدمج بين الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية والذهنية الأوروبية لخدمة الوجود الفرنسي في الجزائر⁽³⁾.

لقد جاء في تقرير أعدته الولاية العامة حول التعليم، "فما دامت فرنسا قررت الاستقرار في البلاد يتحتم عليها مرحلة التسيير اليومي للأمور وفق المستجدات والقيام منذ الآن "بغرس أشجار والتي تستوجب انتظار عدة سنوات قبل ان تعطي ثمارها، فمن يريد محصولا وافرا عليه ان ينتقي بذورا جيدة ويحسن رعايتها.⁽⁴⁾ يجب القيام بإنشاء مدارس خاصة بالأهالي تكون مخزونا تغرف منها الإدارة الأعوان الجزائريين حسب احتياجاتها. كان والي قسنطينة يعتقد انه نجح في 1858 بما أنه كما يقول: "تقلص عدد المدارس الحرة العربية من 32 الى 10 و ان عدد تلاميذ المدرسة العربية - الفرنسية قد تضاعف ثلاث مرات"⁽⁵⁾.

لقد تبلورت فكرة تعليم الأطفال الجزائريين في عاصمة الدولة الفرنسية باريس وإقامة معهد خاص بهم، ففي إطار هذا الانشغال أرسل وزير الحرية الفرنسي تعليمات الى الوالي العام بالجزائر بيجو يطلب منه بمساعي لدى الأسر الجزائرية النافذة لإقناعهم بإرسال أبنائهم للتعليم في فرنسا⁽⁶⁾، لكن وزير الحرية بناء على تقرير ليوروش إنشاء معهد في فرنسا لتعليم الأطفال الجزائريين ليس له تأثير على القبائل الجزائرية، وربط روش أن يكون المعهد في الجزائر يظم الفئة الأوربية والفئة الجزائرية، ويدرس في المعهد العربي اللغة العربية والدين والفقهاء الى جانب المعارف الأخرى، فطلبة المعهدين يلتقيان في الفناء الاستراحة المشترك وهو ما يتيح لهم إمكانية

(1) - ايغون تيران المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة المدارس و الممارسات الطبية و الدين (1830 - 1880) ،

ترجمة محمد عبدالكريم اوزغلة ، دار القصة للنشر ، 2007 ص 231.

(2) - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، ورجع سابق، ص 20.

(3) - جمال قنان، المرجع السابق، ص 21.

(4) - المرجع نفسه، ص 21.

(5) - ايغون تيران، المصدر السابق، ص 302.

(6) - جمال قنان، المرجع نفسه، ص 22.

التعارف فيما بينهم والانسجام مع بعضهم البعض، ذلك ان التلاحم الثقافي بين العنصرين له فائدة كبيرة بالنسبة للمستقبل، ويرى ليونروش ان المؤطرين لهذا المعهد يمكن الاستعانة بالأساتذة المصريين الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا، ودعم الوالي العام هذه الفكرة، واقترح روش إسناد ادارة هذا المعهد الى محمد بلخروي الذي يتمتع بمكانة وسمعة طيبة واسعة لدى العرب⁽¹⁾، ولقد تحفظت جهات عدة في الحكومة الفرنسية على هذا المشروع وبقي حبرا على ورق.

لقد تدهورت وضعية التعليم في الشرق الجزائري، وشعر الفرنسيين بالخز والعار لما آلت إليه الوضعية الاجتماعية، فراح المسؤولون الفرنسيون يقررون ويقترحون المشاريع المتعددة لكن ما يصطدمون به أن الفرنسيون لا يرغبون في صرف أموال في الجزائر لمصلحة الجزائريون رغم الأموال الكبيرة التي كانت تجنيها من الجزائر كضرائب وغيرها من الغرامات المالية التي كانت تفرض على المجتمع الجزائري، وأول إجراء فعلي تم بعد سنة 1850 بناء على المرسوم الصادر في 14 جويلية 1850 والذي ينص على إنشاء ست مدارس ابتدائية أطلق عليها المدارس العربية الفرنسية في كل من قسنطينة وعنابة والجزائر ووهران ومستغانم والبليدة على نفقة الحكومة الفرنسية ويكون فيها التعليم مجاني⁽²⁾. وحظيت اللغة العربية عناية في هذه المدارس، وحضي الشرق الجزائري بمدرستين من بين ستة مدارس، ويحتوي برنامج التعليم في المدارس العربية الفرنسية على اللغة العربية والفرنسية والحساب ونظام الموازين والقياسات والمكاييل الى جانب معلومات عامة في التاريخ والجغرافيا.⁽³⁾ يقول ايفون تيران: "كان هناك نوع من حرب المدارس التي كانت على لسان حال افكار البعض و معتقدات البعض الاخر و تقوى هذه الحرب حرب الهيمنة التي كانت ربما الجانب الاعمق فيها"⁽⁴⁾.

إلا ان ما يشوب النظام التعليمي في الفترة 1830 - 1871 هو طابع التردد والتشكف والشكلية، ويرجع ذلك لعدة اعتبارات موضوعية في نظرة السلطة الاستعمارية نجلها في النقاط التالية :

- 1- عدم استقرار الوضع الأمني في الشرق الجزائري باستمرار المقاومة المسلحة.
- 2- قلة عدد المستوطنون الذين توافدوا على منطقة الشرق الجزائري، مقارنة مع عدد الجزائريين والمساحة الهائلة للشرق الجزائري، ظهوروا كقلة لتسيير شؤون البلاد، واضطربهم الامر ان يتواجدا في المدن الكبرى وبالقرب من المراكز العسكرية للحماية.

(1) - جمال قنان، المرجع السابق، ص 23.

(2) - نفس المرجع السابق، ص 30.

(3) - سعيد بوخاوش، مرجع سابق، انظر الهامش ص 116.

(4) - ايفون تيران، مصدر سابق، ص 243.

- 3- الصراع القائم بين السلطين المدنية (المستوطنون) والسلطة العسكرية عن طبيعة الحكم والسيير وطبيعة النظام الذي يثبت في الجزائر.
- 4- المصاريف الضخمة التي كانت تنفقها السلطة الاستعمارية الإستطانية في عمليات الاستثمار التي كانت تقوم بها في المجال الاقتصادي وبناء المنشآت الإدارية والعسكرية والأشغال العمومية مثل شق الطرقات وبناء الجسور، رغبة منها السيطرة واخضاع الشرق الجزائري لسلطتها.
- 5- ازدواجية النظرة بين المنضرين الفرنسيين عن طبيعة النظام التعليمي الذي يقام في الجزائر، فمنهم المعارض لرفع مستوى التعليمي، وإبقاء الجزائريين جهلة أميين تسهل عملية استغلالهم والاستعانة بهم عند الحاجة.
- 6- الصراع القائم بين النظرة الفرنسية والبذور التعليمية التقليدية المتمثلة في دور المساجد والزوايا في استقطاب الأطفال وتوجيههم وفق مبادئ مختلفة الهدف بين السلطة الفرنسية والسلطة الدينية التي ورثت السلطة السياسية العثمانية التي غابت.
- 7- مستوى فئة المستوطنون الوافدون إلى الجزائر كان يعوزهم الإستطان وتسخير القوة الاجتماعية لأقصى حد في الاستغلال في نفس الوقت لا يمكن الاستغناء على الفرد البشري في كل المستويات وفي كل الأنشطة لان ذلك يتطلب مهارات معرفية لتسيير شؤونهم
- 8- الطابع العصري التي حلت به فرنسا في الجزائر ألزمها أن تستنجد بقوة الجزائريين واستغلال خبرتهم وتواجدهم وتعرفهم على أسرار المجتمع الجزائري وتزويد الفرنسيين بما يحتاجونه في حياتهم ونشاطهم.

المبحث الرابع : ذروة الانفجار الاجتماعي في الشرق الجزائري.

لم تكن الأوضاع السياسية في الشرق الجزائري السبب الوحيد الذي أصبح ينذر بالانفجار، وإنما تلاحقت جملة من الأسباب وعلى رأسها التطورات الاجتماعية والحالة الخائفة التي انجرت من الأزمة الاقتصادية التي مست المنطقة بسبب الجفاف واجتياح أسراب الجراد بداية من سنة 1867م.⁽¹⁾ فهل كانت هذه الأزمة الطبيعية هي السبب في تفجير الأوضاع سنة 1871؟

لقد كانت لزيارة نابليون الثالث للجزائر الأثر البارز في تحول النظرة الفرنسية الاستيطانية في الجزائر، رغم إننا لا ننكر الوضع المتردي التي كانت تعيشه الجزائر قبل هذه الفترة، وإنما ازدادت الأوضاع سوءا . فوزارة الجزائر التي أنشئت سنة 1858 مكنت الكولون من الاستئثار بمقاليد السلطة في الجزائر، وخلال هذه الفترة أصبح للكولون اليد الطولى لاغتصاب الاراضي من الجزائريين وتحويل المكاتب العربية من تحت السلطة العسكرية الى السلطة المدنية، حيث أنشئت المكاتب العربية المدنية على أنقاض المكاتب العربية العسكرية، وأصبح للكولون منبر في مقاطعة الشرق الجزائري يدافعون عن حقوقهم السياسية والمدنية بعدما قسمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات وتعيين والي مدني بدل من حاكم عسكري، يستعين في تسيير شؤون ولايته بمجلس⁽²⁾. لقد صرح وزير الجزائر في إطار السياسة التي يراد تطبيقها في الجزائر وهي سياسة الإدماج. فما هي سياسة الإدماج وما هي آليات تطبيقها في الجزائر؟

لقد أدت هذه الإجراءات قاسية على المجتمع الجزائري من تدمير الاقتصاد المحلي الذي كان يركز عليه الاهالي، وازدادت السلطة الاستعمارية تعنتا وقوة في فرض الإجراءات التعسفية ضد الجزائريين ولم يبق لهم سوى التعبير عن رفضهم لهذه السياسة المقبحة، ويظهر ذلك في اعلان الثورة لأن أسباب التحالف والتضامن أصبحت متوفرة لدي المجتمع في الشرق الجزائر ومن تلك الثورات، ثورة الاوراس سنة 1859 و ثورة الحضنة والباور سنة 1860م.و المحجرة الى بلاد المشرق العربي.

لقد كانت تلك الأحداث مظهرها سياسيا لوضع اجتماعي متردي، حاول الجزائريون من خلاله تبليغ رسالة للسلطات الفرنسية عن تعسف سياسة الكولون واستئثارهم بمقاليد الحكم في الجزائر، و عليه قام نابليون

(1) - يقول جيلالي صاري : " فيما يخص فترة الذروة الثانية ،فإنها تعتبر الاهم وتصادفت مع فصل الشتاء و بداية ربيع

1868 في كل مكان سجلت نسب مذهلة خلال اشهر فيفري و مارس و افريل و ان من المؤكد ان الفروقات كبيرة بين التسجيلات و الاعداد الحقيقية تعمم فرط الوفيات و تكثف . و صارت الجثث تملأ الدروب و الطرقات في المدن اصبحت بعض الاماكن و الشوارع تتحول ليلا الى اماكن التهيو للموت "

(2) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 41.

بزيارة للجزائر سنة 1860م ووقف عن كذب للإطلاع على الوضع في الجزائر، واستمع للكثير من الجهات الوصية عن حكومة الجزائر. (1)

ومن أهم الإجراءات التي اتخذها نابليون بعد زيارته للجزائر وبعد عودته لفرنسا غير نظام الحكم في الجزائر بإلغاء الوزارة وتم تعيين حاكم عسكري عام على الجزائر يتمثل في شخصية الماريشال بيليسيه الذي يشتهر بالعنف والسخط لدى الجزائريين.

إن سياسة نابليون لم تنجح في تقويض سياسة الكولون في الجزائر ولا الحالم العام العسكري الذي عينه لإدارة شؤون الجزائر، بل تغول الكولون على السلطة السياسية الفرنسية وهنا يظهر الصراع الحاد بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية في الجزائر الذي يمثلها الكولون (2).

تلك السياسة لم تكن إلا على حساب الجزائريين، الذي ازدادت أوضاعهم تهميشا وإبعادا عن حرفهم وفلاحتهم ونشاطهم وكسب عيشهم لان الكولون اخذوا يستولون على الاراضي بكل بساطة لان القوانين المطاطية أصبحت لصالحهم وأن السلطة في أيديهم. لكن هل مشروع نابليون وفكرته كانت محترمة من طرف السياسيين والكولون في الجزائر؟

إن الجدل القائم بين الطرفين لم يكن في الاستعمار ولا الاستيطان بل كان على كيفية تطبيقه والعمل على تحقيق الاستقرار وعدم إعطاء فرصة للجزائريين من التضامن والوحدة وإعلان الثورة لأنه بعد زيارة نابليون الثانية إلى الجزائر في ربيع 1865 وتعيين مكماهون كحاكم عام وذلك بعد وفاة بيليسيه، وإيفاد نابليون ببرنامج عمل لمكماهون في الجزائر نلاحظ مجموعة من النتائج المتضمنة في الرسالة والتي تتكون من 88 صفحة، والمراد من هذه الرسالة هي خطة عمل وسياسة التي يمكن أتباعها في الجزائر لتحقيق الاندماج الذي كان يعوز الفرنسيين تطبيقه في الجزائر، ولقد أجمل أبو القاسم سعد الله ذلك في مجموعة من النقاط وهي:

استمالة العرب وتربيتهم على مكارم الأخلاق وسلوك معهم سبيل العدل والإنصاف ولو ذلك السلوك كانت بطابع من التهذئة وعدم إثارتهم، والتخوف من الثورة ضد التواجد الفرنسي في الجزائر.
الاتفاق بتجريد الجزائريين وبخاصة العائلات ذات النفوذ وتفكيك البنية الاجتماعية للقبيلة وملكيتها الترابية، والعمل على إفلاس الجزائريين.

(1) - المرجع نفسه، ص 89.

(2) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 90.

القضاء على المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري وتعطيل القضاء على كل ما من شأنه توحيدهم وتقويتهم.

إبعاد الاهالي إلى المناطق المعزولة وحرمانهم حتى من المناطق الغابية التي اعتبرتها فرنسا من املاك الغابات وهي تابعة لسلطتها.

5- وضع آليات لإثقال الجزائريين من اكتراء الاراضي والانتفاع منها لكي لا يبق لهم مصدر لقوة تمكنهم من الارتقاء.

6- الزيادة في الضرائب التي توسعت من الضريبة العقارية الى الضرائب على الماشية والأشجار المثمرة والضرائب على الخيام التي تأوي الجزائريين.

7- ارتفاع في نسبة الفوائد على الرهن، وإغراق الجزائريين في الديون حتى يتسنى للاستعمار من تحويل ملكياتهم لصالحها ومضاعفة إفلاس الاهالي.

إن التواجد الفرنسي في الجزائر كان هدفة اقتصادي بالدرجة الاولى، وذلك بالقضاء على نظام اقتصادي بالي تقليدي محلي وإقامة نظام اقتصادي معاصر لما يجزي في فرنسا والعالم الرأسمالي، لكن آلياته هو ملكية الأرض لأنها هي أساس تجسيد مشاريعها وإبعاد كل ما من شأنه توقيف هذه الأهداف وهذه الأفكار، ويظهر ذلك في القوانين الصادرة في ذلك الشأن، منذ 1830 م. الى قانون 1863 م الذي يعتبر أقصى قانون تضرب به فرنسا البنية الاجتماعية بعد قانون سبتمبر 1830 و قانون 1844 الخاص بالأوقاف.

مرسوم 1863 وأثره الاجتماعي:

جاء هذا المرسوم 1863 لوضع الحدود أي رسم الحدود لأراضي العرش ومنها تتم عمليات التقسيم إلى حدود ثانوية حدود الدوار ومنها إلى حدود الملكية الخاصة. ويتم وضع حدود العرش بعدما تستثنى من أراضي العرش الفعلية، المناطق الغابية والمناطق الرعوية التي تعتبر ملك للدولة.

ولقد أنشأت هيئات على مستوي المركزي وهيئات فرعية حسب ما تقتضيه العملية وتسمى " لجان التحديد" وكانت تضم ضباط واداريين مدنيين من الفرنسيين يساعدهم بعض الخبراء الجزائريين، وشرعت هذه اللجان في العمل لمدة سبع سنوات أي من 1863 الى 1870 توصلت إلى تحديد مساحة قدرت ب 6.886.811 هكتار من أراضي العرش وشملت 373 عرشا و 667 دوار بمعدل دواوين لكل عرش ومنه استفادت البلدية من الاراضي الرعوية ومصلحة الغابات بمساحات هائلة، ويمكن إبراز نتائج هذه العملية في الجدول التالي.

جدول يبين نتائج اللجان التحديد لمرسوم 1863م⁽¹⁾

نوعية الملكية	المساحة /هكتار	الاراضي التي تخضع للتقسيم
أراضي ملك	2.840.591	املاك خاصة
أراضي العرش	1.523.013	دواوير /بلديات ستوزع على أصحابها
أراضي البلدية	1.336.492	أراضي رعوية بقيت للبلديات
أراضي للدولة	1.186.715	أراضي استولى عليها الدومين والإدارة المالية
أراضي عمومية	180.643	المنفعة العامة
مجموع المساحة	7.067.454 هكتار.	

يتبين لنا من خلال الجدول ان السلطة الفرنسية استغلت هذا المرسوم لتوسع ملكيتها، وذلك بضم أراضي الغابات والاراضي الرعوية وأراضي البلديات وأراضي الدومين والإدارة المالية وأراضي للمنفعة العامة ولم يبق للجزائريين سوى أراضي الخاصة وأراض الدواوير أي مساحة تقدر ب 4.363.604 هكتار وتكون قد استفادت من 4.703.850 هكتارا وليس هذا فقط وأما ما كان في الشق الاجتماعي، حيث تحول الدوار إلى بلدية أهلية يشرف عليها ضابط عسكري مستقلة عن العرش وظهرت الوحدات ذات الملكيات الصغيرة التي نشأت عن طريق تقسيم أراضي الدواوير على العائلات ثم على الأسر التي تنتمي إليها وتراوحت المساحات بين 5 و 6 هكتارات وأصبحت العائلة لا تستطيع خدمة الأرض واستعانت بالقروض ذات الفوائد المرتفعة واخضع الفلاح الجزائري إلى رهن أراضيه لتعود بطريقة قانونية للمعمرين ويزداد الفرد والعائلة الجزائرية فقرا وعليه يصبح أجيرا إذا وجد من يوظفه، وبهذا يزداد الفقر والتعاسة في فترة ظهر الجفاف وانتشرت أسراب الجراد وأتلفت المحاصيل وانتشرت الأزمة المعاشية بين سنة 1867 و 1869.

المجاعات التي وقعت في الفترة الفرنسية:

وقعت في الفترة الفرنسية عدة مجاعات حادة تركت أثارها السيئة على سكان قسنطينة وأعمالها ومن أهم هذه الآثار التي خلفتها انتشار الأوبئة الفتاكة مثل الكوليرا والتيفيس وغيرها وضياع الثروات المدخرة

(1) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 38.

وبيعت العقارات والأراضي تحت ضغوط مختلفة التي أحاطت بهم، ومنها الديون التي تراكمت عليهم من الضرائب العقارية غير مدفوعة، وفوائد القروض الربوية التي كانوا يلجأون إلى أخذها من البنوك. ومن هذه الأزمات:

أزمة 1838م: وفيها وقع قحط شديد أضر بسكان قسنطينة، وبأهل أعمالها خاصة الجهة الجنوبية وقد ذكر أن سبب هذه الأزمة تنحصر فيما يلي:

- 4- حدوث جائحة في سنة 1838 م أصابت الزرع وأتلفتها.
- 5- عزوف الفلاحين عن حرث الأرض بسبب الفتن والأهوال باعتداء بعض الأعراس على بعضهم البعض نتيجة البلبلية التي تركها الاحتلال الفرنسي لعاصمة الشرق قسنطينة.
- 6- كثرة الأمطار التي نزلت في هذه السنة، وكثرة الثلوج التي تساقطت على المنطقة طيلة فصل الشتاء، مما حال دون القيام بالفلاحة.

و قد نتج عن ذلك ارتفاع في أسعار الحبوب (القمح والشعير) وغلاء في المواد الاستهلاكية العامة مثل اللحم والسمن والتمر حتى بلغ سعر الصاع من البر برجة البلد ما بين 80 و 90 فرنك فرنسي. وضيع السكان أملاكهم وعقاراتهم تحت تأثير الحاجة إلى النقود بما كانوا يقدمون عليه من إبرام عقود ريبوية تحت أسماء مختلفة.

-أزمة 1847 م : في هذه السنة أجذبت قسنطينة ونواحيها بقحط شديد استمر ثلاث سنوات متتالية من سنة 1847 إلى سنة 1850 م بسبب اجتياح أسراب الجراد الذي أتى على الأخضر واليابس فأتلف المزارع والأشجار المثمرة. ويعلق صالح العنترى على إن السلطات الفرنسية جلبت الحبوب من كل الجهات وكانت توزعها على السكان المحتاجين عن طريق المكاتب العربية، وشكر السلطة الفرنسية على هذا العمل وقد ذكر بأن ذلك كان سبب في تحسين أحوال الناس ونزلت أسعار السلع.

- أزمة 1866-1868 م : وكان سبب هذه الأزمة هو حدوث جوائح التي نزلت بالزرع والنباتات وأتلفتها. وانتشار مرض "الرهمة"¹ سنة 1867 م الذي أهلك المواشي بسبب قلة علفها في فصل الشتاء. والسبب الثالث اجتياح الجراد سنة 1868 م وإتلاف الزرع والأشجار المثمرة ومن نتائج ذلك :

- انعدام الحبوب في الأسواق
- موت المواشي

(1)- مرض الرهمة : الهزال والضعف وتصبح الشاه تتمايل في السير من شدة الضعف (المعجم الوسيط) والرهمان في سير الإبل : تحامل وتمايل من ضعف أو هزال.

- ارتفاع أسعار الحبوب ارتفاع فاحش في الأسواق طيلة ثلاث سنوات.
- انتشار وباء الكوليرا والتيفيس وغيرها من الأمراض الفتاكة
- ضياع الأملاك من أصحابها والثروات وتركتهم فقراء.

الأزمة الغذائية الكبرى:

لقد توالى الصعاب على الشرق الجزائري في فترة الستينات، فمنذ زيارة نابليون الثالث للجزائر في سبتمبر 1860 م، فكانت عشرية صعبة اجتمعت فيها جملة من الهزات، ضربت المجتمع بقوة وتركته يضعف سياسيا واقتصاديا واجتماعيا⁽¹⁾.

فمرسوم 1863 الخاص بتحديد الملكية قسم الأعراش الى دوائر، وانتزع من الأعراش الاراضي الغابية والمساحات الرعوية، وأضعف بنية القبائل وأزاح شيوخها وقيادها بإنشاء البلديات الأهلية التي أصبحت تحت سلطة الضابط العسكري في معظم المناطق الريفية في الشرق الجزائري، فالجفاف الذي ضرب الشرق الجزائري سنة 1847 و 1878 ترك آثاره بارزة على تناقص عدد المواشي وقلة المنتجات الزراعية وفي نفس الوقت أتت أسراب الجراد على الأخضر واليابس، فأتلقت الانتاج والثمار وحتى الأعشاب، ومنعت السلطات الاستعمارية من نقل الأعراش إلى المناطق التلية بحثا عن الكلاء⁽²⁾، فارتفعت أسعار الحبوب حيث وصل الصاع من القمح الى 70 فرنك في قسنطينة وصاع الشعير الى 30 فرنك، علما ان صاع القمح كان سعره في الجزائر التي لم يصبها الجفاف 20 فرنكا و 13 فرنك لصاع الشعير⁽³⁾، وفتحت السلطات الفرنسية مناصب العمل، لتجفيف المستنقعات في نواحي عنابة وسكيكدة والحروش وشق الطرق لربط المدن والمناطق ببعضها البعض، وترك الكثير من الخماسين عملهم واتجهوا للعمل في مزارع الكولون، وشملت الأزمة وإن كانت اقتصادية في قلة إنتاجها إلا أنها كانت اجتماعية لازداد الحاجة عند الجزائريين وانقلبت الأوضاع فتوجه الكثير من الأفراد لأنشطة جديدة فتحها الكولون طلبا لكسب المال لضمان حياتهم⁽⁴⁾.

لقد ازدادت الأزمة ضغطا فشرع الكثير من الملاك في بيع أراضيهم وأملاكهم للكولون، وأخذت الهجرة في الداخل والى خارج الجزائر تزداد فتفرق شمل العرش والقبيلة والعشيرة والعائلة، وأمام هذه الأوضاع

(1) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، 146.

(2) - نفس المرجع، 147.

(3) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 150.

(4) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، مرجع سابق، ص 150.

الاجتماعية والاقتصادية لسنة 1864 م ضربت أسراب الجراد من جديد، وفرضت السلطات الاستعمارية ضرائب مرتفعة على السكان والتجّ الكثير من الفلاحين للاقتراض من البنوك بفوائد مرتفعة وبما أن السنة الموالية كان الجفاف وشحت السماء وجفت ينابيع المياه فازدادت الأوضاع حدة وقد جاء في كتاب لويس رين قوله: «وفي سنتي 1865/1866، تسبب الجراد في تقليص كمية المحاصيل بصورة محسوسة، كما عرف البلد غزوا مهولا لموجات من الجراد الذي دمر التل»⁽¹⁾، ولإبراز أثر ذلك على الناحية الاقتصادية والاجتماعية الجدول التالي يبين كمية المحاصيل الزراعية التي تطورت سلبا بين 1863 و1867⁽²⁾.

جدول يبين تنازل انتاج الحبوب في الجزائر بين سنتي 1863-1867⁽³⁾

السنة	كمية النتاج / هكتولتر	الظاهرة الطبيعية
1863	25.508.735	الجفاف وأسراب الجراد مرسوم تحديد الاراضي
1864	18.218.680	انطلاق مقاومة أولاد سيدي الشيخ
1865	11.411.927	زيارة نابليون الى الجزائر،
1866	8.188.243	انتشار وباء الكوليرا في الجنوب الشرقي للجزائر
1867	4.851.490	الجفاف يضرب الشرق الجزائري

لقد تناقص أنتاج الحبوب بشكل ملحوظ وعليه يزداد الوضع الاجتماعي أكثر سواد وعلى هذه الأوضاع تزداد السياسة الاستيطانية أكثر وحشية وتزداد المقاومة شدة بين جيوب القبائل الثائرة في الشرق الجزائري. أصبح الصاع من القمح يباع ب 100 فرنك في قسنطينة وصاع الشعير وصل الى 45 فرنك⁽⁴⁾. ولم تعفي السلطة الاستعمارية الجزائريون من الضرائب المستحقة رغم الأزمة التي يعيشونها وكأنها تشجع ذلك لتحقيق مآربها وأهدافها الاستيطانية.

إن سنة 1867 أصبح معلم تاريخي في أيام الجزائريين تحت تسمية تعسة⁽⁵⁾ (عام الميزيرية أو عام الشر). ضرب الجفاف منطقة الشرق الجزائري بمحده مدمرة في التربة والأعلاف والحبوب وانتشر وباء الكوليرا فأباد خلق كثير. يقول شارل روبير اجرون: "و حلت سلسلة من الكوارث الطبيعية فأوجبت إعادة النظر في

(1) - لويس رين، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، مرجع سابق، ص 95.

(2) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 151.

(3) - لويس رين، مصدر سابق، ص 96.

(4) - أبو القاسم سعد الله؛ الحركة الوطنية، ص 151.

(5) - لويس رين، مصدر سابق، ص 97.

جميع الجهود التي بذلت منذ عشرين عاما . فقد اجتمعت اثار غزوات الجراد 1866 و هلاك الحيوانات و سنوات الجفاف فأحدثت في الجزائر الداخلية مجاعة رهيبه (نوفمبر 1867 الى سبتمبر 1868 . فمنذ ان اصبحت الحبوب خاضعة للتسويق تركت الاهواء التقليدية و أمست الجزائر محرومة من الاحتياطي و لم يستطع استقدام معونات ضخمة في الوقت المناسب فمات نحو 300.000 من الاهالي جوعا او بتأثير التيفوس و الكوليرا .⁽¹⁾

لكن ما موقف الأجواد والشخصيات ذات النفوذ او ما يسمونه الكتاب الأوربيون الطبقة الأريستوقراطية من هذه النكبة ؟ يقول لويس رين في هذا الصدد :«حينئذ هب الأغنياء الموسورون لنجدة المساكين ومساعدة المعوزين على تحمل ويلات المجاعة والمرض، ولقد خطت الطبقة الارستقراطية صفحات بيضاء مشرفة بفضل ما أظهرته من سخاء وتفان في فعل الخير، وبالفعل عرف هؤلاء السادة كيف يتولون في أوقات العسر إغاثة رعاياهم فأمدوا لهم في زمن الفاقة يد المساعدة، ولقد قاموا بذلك دون رياء او تفاخر فتسابقوا لتفريغ مطاميرهم وتوزيع جوبهم وأموالهم، وعندما نفذ الزاد وشحت الخزائن من المال لم يتوانوا عن الاقتراض من اليهود الجشعين لكي يعطوا المزيد للبؤساء الملتفين حولهم»⁽²⁾. ولكي نبين الوضع التي آلت اليه حالة الشرق الجزائري من مضاعفات الأزمة التي كانت آثارها وخيمة، نعرض جدولا يبين عدد الوفيات المسجلة بين شهر جويلية 1867 وغرة ماي 1868م⁽³⁾.

جدول يبين كشف الوفيات بين شهر جويلية 1867 والأول من ماي 1868م⁽⁴⁾

المقاطعات	الجزائر	وهران	قسنطينة	المجموع
المعالجون في الملاجئ اللائكية	25.1780	40.005	36.292	101.475
المعالجون في ملاجئ المسلمين	1.447	150	75	1.672
المعالجون في الملاجئ اللائكية	2378	7165	5213	15756
المتوفون في الملاجئ المسلمين	700	801	724	2225

(1) - شارل رويبر اجرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة مرجع سابق ، ص 68.

(2) - لويس رين، مصدر سابق، 97-98.

(3) - المصدر نفسه، ص 96.

(4) - المصدر نفسه، ص 97.

11.183	39.919	53.748	20.164	المتوفون في مضارب القبيلة
--------	--------	--------	--------	---------------------------

ففي مدينة بسكرة التي كانت تحتضن 3.800 ساكن، سنة 1867 شهدت في 34 يوم وفاة 1.128 حالة بالكوليرا من السكان الجزائريين و 16 موظف من المستوطنين و 10 ضباط و 91 جنديوخسرت منطقة بسكرة ثلث عدد رؤوس البعير والأبقار والماعز ونصف عدد الأغنام⁽¹⁾.

لقد اضطرت السلطات الاستعمارية في مقاطعة قسنطينة للاستعانة بكبار التجار الذين وافقوا على تقديم قروض لرؤساء القبائل والأعيانالذين يمكنهم تقديم ضمانات جدية للتسديد فيما بعد. فقدم التاجر مسرين صاحب أكبر المطاحن قرض بقيمة 350.000 لصالح الباشا أغا المقراني ليتولى مقاضاتها لدى البنك الجزائري، والتزم المقراني مع الحاكم العام الماريشال مكماهون، وأن المقترضون يسددون تلك الأموال الإضافية إضافة إلى الرسوم الضريبية المستحقة للسلطة الفرنسية⁽²⁾.

لقد كانت للآزمة وضعها وللسلطة سياستها، لقد تورط الأغا المقراني، في مضاعفة الرسوم على الاهالي بالقروض التي منحت لهم والآزمة استمرت ولم يكن باستطاعة الجزائريون تسديد ما عليهم، وعمليات تحديد الأرض شرع فيها بعدما قررتها السلطة الاستعمارية سنة 1863 وبعد انتهاء العملية في سنة 1870 جاءت مرحلة تجسيدها في ارض الواقع، فقسمت الأعراش الى دواوير وتفتت رابطة القبيلة وأنشئت البلديات الأهلية، في المناطق الريفية تحت رئاسة الضباط العسكريين وانتهت عهد المشيخة والقياد، وفتت الأرض التي كانت تجمع الأفراد ووضعت الحدود، ووجد الفلاح نفسه أمام واقع ليس له قوة التفكير على الإنتاج لضعف ماله وضعف وضعه الاجتماعي، أمام قوة الكولون وتحدياتهم الاستعمارية الاستيطانية وحدائث وسائل إنتاجهم. وجاء في رسالة السيد العام الى السيد محافظة قسنطينة في 24 اوت 1888 يقول: " السيد المحافظ وجه لي تقرير عن استعداد الاهالي المقيمين بالبلدية المختلطة ثنية الحد لمساعدة اخوانهم في الدين ضحايا اجتياح الجراد في مقاطعتكم عن طريق تقديم عطايا عينية ، بسبب عدم توفر الاموال نقدا في هذا الصدد يعرض السكان كميات معينة من الحبوب اما للزرع او للتغذية ."⁽³⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، 152

(2) - لويس رين، مصدر سابق، ص، 73.

(3) - جيلالي صاري ، الكارثة الديمغرافية ، مرجع سابق ، ص 371.

وفي الختام يمكننا القول أن الأوضاع الاجتماعية في الشرق الجزائري قد تضررت وجاز لنا أن نسميها حالة التدهور والتراجع التامين، هذا ليس في الفترة الفرنسية بل قبل ذلك بفترة، ويمكن تحديدها بظهور الانتفاضات والتمردات التي كانت تظهر من حين لآخر في الفترة العثمانية، لكن الفترة الفرنسية زادت درجة التراجع قوة، واعتقد الكثير من أفراد المجتمع ان فرنسا محقة في وعودها، إنها جاءت لتنشر الحضارة وتخلصنا من السلطة العثمانية التي رهنت الجزائريين تحت وطأة القوة العسكرية المتسلطة.

لقد كانت الحياة الاجتماعية في الفترة العثمانية متروكة لفةة المجتمع، فهو حر في تنشيطها وتنميتها وبناء مؤسساتها، وتشجيع علمائها وتدعيمهم ماديا ومعنويا، بالامتيازات والاحترام والمشاركة في تسيير شؤون الرعية، رغم المراقبة المستمرة لهم، ولكن لها مآرب في ذلك. وتركت لهم أوقاف وأحباس المؤسسات الدينية لتمويلها وتمويلها وحرصت على الاعتناء بها من الجانب المعنوي والملي في كثير من الأحيان.

أما فيالفترة الفرنسية فالعكس كل العكس من ذلك، وكأنها جاءت متحرشة ونقول ذلك لأنها أغلقت كل أبواب التمويل والتمويل لهذه المؤسسات بل صادرت كل ما يدخل في ذلك وهو أولعمل يبرز نوايا فرنسا ويتمثل في القضاء على ما يجمع وما يجتمع حوله المجتمع، والمتمثل في الدين الإسلامي واللغة العربية، وسعت بسياستها في تحويل المؤسسات الدينية التي كانت نفسها المؤسسات التعليمية، الى مؤسسات خارج عن نشاطها، وشهد الكثير منها الى تدمير وتخريب، باسم المصلحة العامة.

ومن نتائج ذلك أصاب الجمود والنشطاء والعلماء وكل من له علاقة بذلك إلا القليل من وقف في وجهها التغريبي.

لقد ظهرت فئة الأوربيين بجياهم الاجتماعية الخاصة بهم وتحت حماية ورعاية القوة العسكرية الفرنسية التي دعمت بأعداد كبيرة من الجزائريين كفرق الصبايحية وفرق الزواف فأصبح هؤلاء مدعمين لسياستها والعاملين كموظفين في صفوف جندها، على غرار قبائل المخزن في الفترة العثمانية. فأوجدت بذلك فئة جديدة في المجتمع لم تكن موجودة على هذا النمط.

عملت فرنسا على استقطاب الفئات ذات النفوذ في المجتمع فقربتهم ومنحتهم الامتيازات والمناصب لتشتري بهم عامة الناس، وهي سياسة التهدئة وشراء الذمم، تمكنت الى حين ان يكون هؤلاء من المساعدين والمؤيدين ولو ضمينا لسياستها.

لقد شرعت السلطة الفرنسية في بناء العديد من المدارس وفي كل المناطق الشرق الجزائري التي تصل إليها عملية الاحتلال، فهل كانت تلك رغبة منها في تعليم الجزائريين ؟ لقد بقت هذه المؤسسات قليلة العدد في

التأطير ومن المتعلمين، نظرا لقلّة الإمكانات التي كانت تخصصها للقائمين عليها وإضافة الى عزوف الجزائريين اعتماد هذه المؤسسات لان برامجها كانت غير واضحة الأهداف، ولان سياستها لم تستقيم بعد على سياسة تعليمية واضحة لأنها كانت تتخوف من تعليم الجزائريين وان هؤلاء لا يمكن استغلالهم ان تعلموا وتحضروا، فرغبة منها تركهم جهلاء، وبهذه الصفة يمكن انقيادهم واستغلالهم، وهذه آراء الكثيرين منهم خاصة الكولون. أما عن الحرفيين فجعلتهم يتركون محلاتهم شيئا فشيئا، بزيادة الضرائب المفروضة عليهم وكساد سلعهم وتهدم محلاتهم في كثير من الأحيان نظرا لتهيئة المدن كما جرى لمدينة قسنطينة او عنابة وغيرها، وانتقلت هذه الفئة الى عمال أجراء رغم ان الاجتماع لم يكن يعرف الأجرة اليومية او الشهرية في ذلك الوقت.

لقد تطورت القوانين الفرنسية، وفق تطور قوة فرنسا وهيمنتها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي، والسياسي. فيعتبر قانون سيناتوس كونسلت الضربة القاضية لمجتمع الشرق الجزائري، حيث استطاع هذا القانون ان يغري المجتمع بصفة الملكية الفردية للأرض، وتزامن ذلك مع مجمعة من الأحداث المتتالية هي:

1- الأزمة الغذائية لسنة 1867- 1868 والتي طالت الإنسان الحيوان النبات (الجفاف، الجراد، انعدام الغذاء) انتهاء الإدارة الفرنسية من عملية تقسيم أراضي الشيوخ وبداية تنفيذها على أرض الواقع سنة 1870م.

2- انتهاء من الحكم العسكري بنهاية نابليون الثالث وقيام النظام الجمهوري في فرنسا والجزائر.

3- انتصار الكولون في سعيهم لتثبيت النظام المدني في الجزائر، أمام العسكريين، وهو صراع كبير محتم بينهم.

4- انهزام فرنسا في حربها مع بروسيا وتدفق أعداد كبيرة من الفارين من الحرب وأصبحت الجزائر كملجأ لهم، وازدادت قوة الكولون في الجزائر.

5- شروع فرنسا في تهميش الاجواد من مناصبهم بعد تقسيم أراضي العروش وإنشاء البلديات الأهلية في الجزائر وجعل الاجواد موظفين بسطاء وتفكيك القبائل والكونفدرليات القبلية إلى قبائل وأسر وعائلات ضعيفة الاتحاد والتضامن فيما بينها.

6- عجز الطرق الصوفية على تكوين تحالف وطني ضد السلطة الفرنسية رغم جيوب المقاومة المستمرة في كل أنحاء الجزائر.

7- رجوع أعداد من الجندين في الحرب الفرنسية البروسية وملاحظتهم الضعف التي منيت به فرنسا أمام القوات البرسية، دفعهم الى الانتقام من فرنسا وساستها.

تلك الأوضاع الاجتماعية التي وصل إليها الشرق الجزائري كانت دافع مهم في الالتفاف حول ثورة المقراني الذي كان من ضحاياها فهل كان العامل الاجتماعي فعلا كعامل لانفجار الأوضاع؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الخامس : مقارنة تطورات الوضع الاجتماعي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية.

شهد الوضع الاجتماعي عدة تطورات بين نهاية الفترة الحكم العثماني و المرحلة الاولى للاحتلال الفرنسي

للشرق الجزائري و من اهم هذه التطورات ما يلي :

- اذا كانت فئة الاتراك هي التي كانت تسأثر بالمناصب السيادية في الحكم فإن هذه الفئة اختفت بظهور الفرنسيين اما عن طريق الهجرة الى الخارج او اندست في اوساط المجتمع الجزائري و لم يصبح لها ظهور لا على المستوى السلطوي و لا على مستوى الفاعلية في المجتمع ، لان التهديد الفرنسي اصبح يخصها . و كذلك ما جرى لفئة الكراغلة الذين كانوا في اغلبهم مهمشين فزادهم ظهور الفرنسيين في المنطقة تهميشا ، و بهذا اصبحت فئة الفرنسيين هي سيدة السلطة و انتقلت وراثة المناصب و الاوامر من العثمانيين الى الفرنسيين . و بذلك لم تطالب هذه الفئة بموروثها المادي و المعنوي ، و لم تصبح صاحبة السيادة في الاوامر و في امتلاك الاراضي و المحلات و الامتيازات التي كانت تحضى به بسبب مصادرة السلطة الفرنسية لاراضي البايليك و كل ما كان يحوزه هؤلاء . و عليه اصبحت فرنسا وريثة السلطة و المال و الاملاك عن السلطة العثمانية .

- حافظ الكثير من الاجواد لمناصبهم و مراتبهم مباشرة بعد الاعتراف بسلطة فرنسا على المنطقة و استمر هؤلاء يدفعون المستلزمات من الضرائب و الرسوم التي كانت في الفترة العثمانية الى السلطة الفرنسية . و هنا تجدر الاشارة الى ان السلطة الفرنسية اشترت ضمائر هؤلاء و ثبتتهم في مناصبهم لتنشئ نوع من الثقة بينها و بين هؤلاء و لتثبت لهم فعلا انها جاءت للقضاء على السلطة العثمانية الخصيمة معها . و في هذا الاطار راحت السلطة الفرنسية تبني هيئات مرافقة للسلطة المحلية من الضباط العسكريين و المهاجرين المستوطنين الجدد في الجزائر و الاستعانة بالمكاتب العربية الفرنسية التي اصبحت العيون الساهرة للمراقبة و لتنفيذ مشاريعها الاستيطانية شيئا فشيئا . و بذلك ادخلت فئة من الجزائريين الذين كانوا في اشد الحاجة الى من يأخذ بيدهم بسبب الفقر و الجوع الذي شهدته المنطقة و هول المقاومة المسلحة التي استمرت في الشرق الجزائري .

- اما على مستوى الارياف و القبائل العتيبة مثل الذواودة و اللمامشة و النمامشة و الحراكتة و اولاد مقران و حتى اولاد بن قانة فانهم اعلنوا الولاء للسلطة الفرنسية و كأن فرنسا ابعدت عليهم العدو الذين كانوا في صراع معه لدرج من الزمن . و بذلك استطاعت فرنسا ان تتوغل و تتغول على المناطق

التي وصلت عليها و اخذت تجند من المليشيات من الجزائريين و تنشأ المكاتب العربية لهيكله سلطتها تحت رقابة الضباط الفرنسيين و المتعاونين معها.

- ان فئة الفرنسيين و الاوربيين الوافدين الى الجزائر و المستقرين في الشرق الجزائري ، اول استقرارهم كانت المدن الكبرى و السكنات التي كانت في يد السلطة العثمانية ، و كانها حقا الوريثة الشرعية للسلطة العثمانية ، ثم بدأت تنتشر اين تتواجد المراكز العسكرية لتكون في مأمن من اي هجوم او مباغته من طرف السكان ، و هذا ما استدعى بعد فترة من امتلاك الاراضي التي وزعتها عليهم السلطة بطريقة و اخرى و اصبحوا يشيدون القرى الاستيطانية التي تحولت بعد ذلك الى مدن ذات الطابع الكولونيالي الاستيطاني .
- ان المدن الكبرى شهدت توسعات مباشرة بعدما وطعت اقدام الفرنسيين ارض الجزائر ففي الشرق شهدت عناية توسعات على مستوى الميناء و المدينة ، فعلى مستوى الميناء كانت توسعات و انشاء مرافق جديدة و احيطت بمراكز عسكرية للحماية ، و هو الشيء الذي شهدته مدينة سكيكدة التي اعتبرت الميناء الخاص بالشرق الجزائري . كما شهدت مدينة قسنطينة توسيعات و منها ما تركز على شق الطرق ، و انشاء الساحات العمومية و الحدائق العامة و المنشآت الادارية ، كل ذلك على حساب المحلات و البنايات المتواجدة في كثير من الاحيان تحت طائلة المنفعة العامة .
- بالنسبة للفئات الاجتماعية شهدت تطور تغير بشكل كبير ، ففئة الاتراك عوضت بفئة الفرنسيين المتوافدين باستمرار ، اما فئة الجزائريين فزادت اوضاعهم سوء و تنازل في مستوى المعيشة بسبب ما طرأ على الشرق الجزائري من تضيق و ضياع معظم املاكهم و مناصبهم و انتشار المجاعات و البطالة و هي سياسة مدروسة و هادفة لتحقيق الفعل الاستيطاني ، و دفعت الكثير من السكان الى العمل او الانخراط في المليشيات التي انشأها السلطة الفرنسية و اصبحت الوظيفة قائمة في المجتمع الجزائري.
- اما على مستوى القبائل فقد بقيت على حالها نوعا ما ، لان معظم القبائل ابقته السلطة الفرنسية على حالها ما دامت اعلنت الولاء لها ، و استمرت في دفع الضرائب التي كانت تدفعها لكن السلطة اخذت تتوغل داخل هذه القبائل لتحقيق اهدافها عن طريق سياسة فرق تسد و الاعتراف بهم كورثاء و زعماء لقبائلهم . لكن ما ان حلت سنة 1863 حتى اخذت تهيئ الظروف لتقسيم هذه القبائل و التي استمرت في ذلك حتى سنة 1871 حين شرع في تطبيق قانون سيناتوس كونسلت و هنا

تفككت القبائل الى قبائل اقل عدد و اضيق مساحة لتصبح القبيلة اقل قوة و فككت العلاقة الاجتماعية التي كانت تكونها .

- كانت السلطة العثمانية مشجعة للنشاط الصوفي و تركت الزوايا في راحة من نشاطها ، بل شجعت ذلك الامر بحيث اعفت المؤسسات الدينية من دفع الضرائب على الاوقاف التي كانت بحوزة كل زاوية او مؤسسة دينية و اعتبرت ذلك دعما لهذه المؤسسات ، لكن السلطة الفرنسية عملت فرنسا على مصادرة اراضي الاوقاف ، و ذلك كأول اجراء ، و اعتبرت ذلك دعما للمقاومة المسلحة التي كانت كرد فعل للتواجد الفرنسي في الجزائر و اعتبرت ان سلطة الزاوية هي التي كانت من وراء كل المقاومات المسلحة ، و الغرض من مصادرة الاوقاف هو قطع كل التموينات و التمويلات التي كانت تلجأ اليها المؤسسات الدينية لتعبئة السكان و تجهيزهم بما يتناسب للقيام بالمقاومة ، و بهذه الاجراءات فعلا قلصت من نشاط هذه المؤسسات و تركتها فقيرة المداخيل و هو ما اثر في عدم وجود اموال لتمويل هذه المؤسسات و تقلص النشاط التربوي و التعليمي الذي كان يحافظ على مقومات الشعب الجزائري .

- لقد سعت فرنسا على انشاء مؤسسات دينية مسيحية و اوجدت هيئات تبشيرية كان هدفها الاول تحقيق الحياة الدينية لفئة المسيحيين من الاورين الذين توافدوا الى الجزائر ، و في مرحلة ثانية كان عملها عملية التبشير المسيحي للجزائريين ، في هذه المرحلة اخذت تشيد الكنائس و تنشط الحياة التبشيرية و تستميل الفئات المعوزة و الفقيرة و البائسة و تغريهم لكي يعتنقون الدين المسيحي . و هنا اظهرت وسائل تبشيرها و اصبحت الكنائس من المعالم الحضارية للاستيطان الفرنسي في الجزائر .

- اما في مجال التعليم فقد كانت الزاوية و المسجد هي المؤسسات التعليمية و و الثقافية و العلمية و رغم كثرة عددها و قوة انتشارها الا انها لا ترقى الى المراكز العلمية التي كانت في اوربا حيث بقت حبيسة التقليد منطوية على نفسها لا يتسع افقها الى العلوم الحديثة . و بظهور الاستيطان الفرنسي في الشرق الجزائري شهدت ظهور المدرسة الحديثة على النمط الاوربي و الاساليب التعليمية الاوربية ، غير ان ذلك لم يكن فعلا لان اهداف التعليم الفرنسي في الجزائر لم يكن واضح الاهداف بل تضاربت على منهجيته الراء . و ان عدد الفرنسيين الذين كانوا يتمدرسون بقي ضعيفا بسبب قلة التلاميذ ، اما ابناء الجزائر فالكثير قاطعوا المدرسة الفرنسية لان معظمهم كان يرى انه استلاب لشخصية ابنائهم، و تشجيعا للسياسة الفرنسية ، اما من ناحية المناهج فانت غير واضحة حيث اعتماد تدريس

الدارجة (اللغة المحلية) عوض تدريس اللغة العربية لانهم كانوا يرون ذلك تدعيما لمقومات الشباب الجزائري . و منهم من ذهب الى محاولة تدريس الابناء لكي يتسنى لهم الاستغلال في مشاريعهم و اهدافهم دون استفادة هؤلاء بما يدرسون و يتعلمون . لذلك بقى التعليم متذبذب في المرحلة الاولى . و من جانب آخر اهتمت السلطة الاستعمارية بأبناء الحكام و المواليون للسلطة الفرنسية لانهم اعتبروهم سوف يرثون مواقف ابنائهم . و هذا يعتبر امتياز للموالاة للسلطة الفرنسية .

- لقد تأثرت الفئات الاجتماعية في مستوى معيشتها في الفترة العثمانية ، باجتماع جملة من العوامالطبيعية (الجفاف و انتشار اسراب الجراد و انتشار الاوبئة الفتاكة) و البشرية (التمرد القبائل و ارتفاع الضرائب و الحملات العسكرية التاديبية) و زادت الفاقة و انتشرت البطالة و عزف الناس عن ممارسة مهنتهم . ذلك كله استمر بأكثر حدة في الفترة الفرنسية فهجرت قبائل مضاربها و ابتعدت عن هول الاستعمار و اعماله التعسفية و اصبح الفرد الجزائري لقمة سائغة امام استعمار لا يرحم و لا يهمله سوى مصالحة الاستغلاية لتجسيد الاستيطان و الاستغلال العنصر الطبيعي و البشري . حت جاءت سنة 1867 - 1868 سنة المجاعة التي اهلكت الكثير من الافراد و خلقت المدن و الريف من ساكنها امام سياسة استعمارية استغلاية لا ترحم .

خاتمة

جامعة الأمير
عبد القادر للعلوم الإسلامية

- شهدت منطقة الشرق الجزائري في الفترة الممتدة من ثورة محمد بن الاحرش سنة 1804م الى ثورة محمد المقراني 1871 تطورات تاريخية عميقة في الناحية الاقتصادية والاجتماعية و اهم ما نستنتجه هو:
- اتساع الهوة بين السلطة الحاكمة المتمثلة في سلطة البايت مع افراد المجتمع و نعتبر ثورة محمد بن الاحرش مؤشر لذلك ، بسبب تحالف القبائل مع هذه الثورة دون التحالف مع سلطة البايت . و هنا يتضح لنا ضعف شخصية الحكام المنتدبين على رأس السلطة في قسنطينة ، و هي فترة كانت تحتاج الى حكام اقوياء لهم دراية في التسيير و الحكمة في المسؤولية ، لان الظرف كان جد خطير على الجزائر بسبب التكالب الاوربي على الدولة العثمانية برمتها و الجزائر على الخصوص لانها تحتل الركن الجنوبي الغربي للامبراطورية العثمانية ، و الدول الاوربية تتطلع باطماعها على تمزيقها.
 - لم تستقر الاوضاع الداخلية في الشرق الجزائري بسبب التوترات الداخلية التي كانت متتالية ومتلاحقة مما جعل القبائل الكبرى الممتدة على الحدود الشرقية تعلن العصيان على السلطة البايات ، و وجدت ايالة تونس تشجعها على ذلك من جهة و من جهة اخرى عدم وجود حكام سياسيين يستميلون هذه القبائل بالطرق السلمية الى جانبهم ، و الكثير من الحكام كانوا لم يستقروا في مناصبهم لمدة تكفي لتوطيد سلطتهم ، فمن 1804 الى 1826 تداول على حكم قسنطينة ستة عشر (16) حاكما و هذا دلالة افلاس النظام العثماني من حكام اقوياء لهم القوة في تهدئة الاوضاع السياسية في الشرق الجزائري .
 - ان ديوان البايت و الهيئات المحلية في البايليك اصبحت متوارثة للمناصب و هذه المناصب اكتسبتها امتيازات واسعة تتسع كلما تغير البايت و تزداد نفوذا و قوة بفعل الاملاك و الاموال التي اصبحت تمتلكها و الولاءات التي تخدمها و من بين الامتيازات انها لا تدفع الضرائب بسبب المناصب التي توكل اليها .
 - رغم الحرف المتعددة و المتنوعة في المدن و الهيئات التي تشرف عليها و هي النقابات و هو تنظيم اقتصادي جد محكم اصبحت هذه الاجهزة محتكرة في يد اشخاص شديدي المراقبة و التسلط و غير متهاونين في فرض الضرائب التي اصبحت تفرض على اهوائهم ، لم يفسحوا المجال للتجديد و التحديث في وسائل انتاجهم و لا طبيعة صناعاتهم ، بل كرسوا سياسة التضييق و التقليد و اصبحت انتاج الحرفيين حبيس الاستهلاك المحلي لا يقوى على منافسة الانتاج الاوربي الذي تدفق علما لشرق الجزائر عن طريق المقايضة و المبادلات التجارية التي احتكرت في هذه الفترة من طرف اليهود.

- ان معظم الاراضي الخصبة اصبحت ملك لاصحاب النفوذ من الباي و حاشيته من اعضاء الديوان و العائلات ذات للمناصب المتوارثة و اصبحت الخماسة و تاجير الاراضي من المميزات الفترة حتي اصبح الشرق الجزائري مميز بأراضي العزل و ليس لصاحب الارض سوى الانتفاع بتلك الاراضي دون ان يجهد نفسه بل يترك القائمين على رعاية شؤنه من الوكلاء و الوسطاء و كلهم في خدمة صاحب الارض ، فأصبحت الظاهرة الاقطاعية سمة الشرق الجزائري.
- ان ادق تنظيم في الفترة العثمانية هو نظام الضرائب ، بحيث لم تسلم فئة او نشاط من التهرب الجبائي مهما كان نوعه ، ما عدا الاوقاف التي استثنت منها و التي تمتعت بأموال طائلة نظرا لقوتها و تنوعها و نموها ، بفعل التهرب الجبائي للكثير من الافراد الذين كانوا يقفون املاكهم للمؤسسات الدينية لكي لا تستفيد منها السلطة و هذا مظهر من مظاهر اتساع الهوة بين الحاكم و المحكوم .
- ان تنوع الضرائب و ارتفاعها باستمرار كان لا يراعي توازنها مع الانتاج و الازمات التي كانت دورية مثل الجفاف و الجراد و الاوبئة التي كانت تتلف الماشية و الفراد .فلذلك هجر الكثير من الافراد لانشطتهم و نزحوا نحو المدن للعمل في الوظائف او الاسواق فارتفع عدد سكان المدن و اصبحوا في بطالة و انتشرت الافات الاجتماعية .
- ان احتكار الباي للتجارة الخارجية جعله يتحكم في الاسعار كما يشاء و هو امتياز خاص لا ينافس احد و هو الشيء الذي جعل بعض المواد الهامة تحت تصرفه و يهيمن على الاسواق . و من هذا ارتبطت التجارة الخارجية بفرنسا التي اصبحت يهود مرسيليا و ليفرون يتحكمون فيها و يفرضون شروطهم على الحكام.
- ان ظهور فرنسا في الشرق الجزائري كان في وقت مبكر في الفترة العثمانية ، و يرجع الى امتياز صيد المرحان منذ عام 1529 مو قد توسعت خلال القرنين السابع و الثامن عشر و هذا ما منحها اطلاق واسع على الامكانيات الطبيعية و البشرية في الشرق الجزائري ، فعند احتلال عنابة و بجاية و سكيكدة شرعت مباشرة في استغلال امكانيات هذه المناطق لانها لم تجد مقاومة طويلة النفس لتعطيل مشاريعها الاستيطانية ، الشيء الذي جعلها تستقر في نوع من الثقة من السكان الذين كانوا متمردين في فترات متلاحقة في الفترة العثمانية ، و لقد ظهرت اعمال فرنسا في السنوات الاولى لاحتلال هذه المناطق قبل سقوط قسنطينة .

- ان الحداثة التي غمرت الشرق الجزائري بظهور الاستثمارات الفرنسية لم تكن في جوهرها سوى مظاهر لاستعمار مباشر و استيطان له دوافع عميقة تتمثل في محو النهائي للاقتصاد لوسائل الكسب للسكان و تحويل كل ما من شأنه تجريد الجزائريين من الممتلكات و تحويلهم الى موظفين و عمال تحت سلطة فرنسا . و هو ما أوجد صراع بين القيادة العسكرية و المستوطنون الذين ارادوا ان يستأثروا بالوضع الاقتصادي و السياسي في الجزائر.
- ان ظاهرة المدن الجديدة و تطورها و طبيعة عمرانها و عمارتها اوجد مجتمع مميز ذو طابع استعلائي مسيطر على الاقتصاد و السلطة و توجيه المجتمع نحو محو مقومات الشعب الجزائري الدينية و التعليمية و الثقافية حتى اصبح الفرد الجزائري مميز بالتخلف و الفقر و الجهل و لا يناسب مسايرة التطورات الدخيلة للسلطة الفرنسية .
- ادخلت فرنسا اليات اقتصادية حديثة غزت بها اراضي الشرق الجزائري ، و سيطرت بقوة السلاح و سياسة المرحلية و شراء الذمم عن طريق اهام الجزائريين بالوعود الكاذبة و التي استمرت في سياسة فرق تسد بين القادة و شيوخ القبائل و المواليون لسياستها تطمئنهم و تغريهم بالامتيازات و تثبيتهم في مراتب حتى يزعمون ان هذه السلطة الفعلية التي جاءت لتمكنهم من امرهم و بقائهم بعيدين عن كل اذية تلحق بهم بل اصبحوا لا يذودون عن الدفاع عنها و يبجلون سياستها و يرفعون من مكانة رجالها حتى اصبحت فرنسا تعلق لهم الميداليات و النياشين عندما يحققون لها انتصارات .
- الوضع الاجتماعي ازداد سوء و الجهل انتشر و الامية عمت و الدروشة انتشرت و اصبحت السياسة الفرنسية تتحكم بقوة في اوضاع الجزائريين و ازداد افراد المجتمع تفرقا و ابتعادا عن ما يجمعهم الا في بعض المقاومات التي استمرت غير قوية لاحداث الانتصار و استمرت فرنسا في تمزيق القبائل و تقسيمها و اصبحت تعين من له ميل و موالاة كرؤساء قبائل بفعل التقسيم الذي اوجدته في قانون سيناتوس كونسولت .
- تعتبر ثورة المقراني هو اللثام الذي انيط عن السياسة الفرنسية في الجزائر و المتمثلة في زحزحة الاجواد عن مناصبهم التقليدية المتوارثة و الامتيازات اللامتناهية في الفترة العثمانية و استمر في الفترة الفرنسية و هي الفترة التي تعتبر السياسة الفرنسية وصلت الى اوجها في السيطرة و الاحتواء للمجتمع الجزائري ، لكن الشخصية الجزائرية لم ترضى بالهوان بل الروح الوطنية اشعلت لهيب الثورة التي شهدتها منطقة الشرق الجزائري و اتسعت نحو وسط البلاد و غربها و هو شعور وطني عميق في المجتمع الجزائري .

- لقد سعت فرنسا الى إنشاء مؤسسات تعليمية متعددة وشملت ربوع الشرق الجزائري لامتناس مطالب الفئة الإستطانية ومحاولة دمج فئة من المجتمع ليكون له عون ودعم في العملية الإستطانية، لكن ذلك لم يكن مشروع واضح في طبيعة الإدماج التي كانت تراهن عليه، فكثير ما سبب خلاف بين فئة المستوطنين والعسكريين وهذا ما أوعز نابليون الثالث لزيارة الجزائر وتمكين من تقسيم القبائل عن طريق القانون المشيخي الذي أضفى على السياسة الإستطانية طابع القضاء على المجتمع الجزائري، وتكريس سياسة الإبعاد والتغريب للسكان عن أراضيهم وبنيتهم القبلية التي تكونت عبر الفترات التاريخية.
- ان الكارثة الديمغرافية لسنتي 1867 و1868م عمقت في درجة الفقر والهجرة والحاجة لدى الجزائريين وهي الفترة التي ظهرت فيها ترسانة من القوانين تزيد في ترسيخ الفعل الاستيطاني في الشرق الجزائري، إضافة للمقاومة المسلحة المستمرة ضد سياسة الاحتلال عمقت عوامل الضعف الاقتصادي والاجتماعي في وسط المجتمع .
- لم يستمر الاجواد في التمتع بالامتيازات التي كانوا يحضون بها منذ الفترة العثمانية وفترة الاحتلال بل تمرت السياسة الفرنسية عليهم وأخذت تقلص من نفوذهم على المناطق التي كانت تحت سلطتهم رغم ولائهم والخدمات التي كانوا يؤدوها للسلطة الفرنسية وهذا ما إثارة حفيظة محمد المقراني في ثورته ضد السياسة الفرنسية .
- ان شروع فرنسا في تطبيق النظام المدني، بداية من سنة 1871 م والانتكاسة التي شهدتها في حربها مع ألمانيا وتدفع فئة المستوطنين على الشرق الجزائري، ونهاية الحكم العسكري في فرنسا وبداية تجسيد وتطبيق قانون سيناتوس كونسلت فعليا، منح للجزائريين فرصة لتجسيد طموحاتهم الجهادية ضد السياسة الإستطانية .
- ان المظهر المدنية التي طبعت الشرق الجزائري في مرحلة 1832-1871 م، من مدن جديدة وتهيئة المدن الكبيرة بما يتناسب مع سياسة الاستيطان كان على حساب المنشآت والبيوت القائمة، فكثير من الطرقات والساحات والمرافق التي أنشئت كانت في إطار ما يسمى المنفعة العامة لذلك نجد الكثير من المرافق أزيلت ولم يبقى منها إلا الاسم في أذهان أهلها او في مؤلفات أصحابها، وهي سياسة ممنهجة للقضاء على مقومات المجتمع الجزائري .

- ان النظام البايليكى أواخر الفترة العثمانية عمق في تراجع الوضع الاقتصادي وضعضع الوضع الاجتماعي لدرجة ان سوء التصرف والتسيير وطابع الاستغلال لإمكانيات الشرق الجزائري من طرف فئة من المستغلين تمثلهم السلطة البايليكية والاجواد من العائلات المتنفذة وشيوخ الزوايا وقادة القبائل. وسياسة التفرقة التي كانت السلطة تمارسها على الفئات الاجتماعية وبين القبائل، سهل للسياسة الإستطانية الفرنسية على الاستمرار في نفس الاتجاه وعمقت ذلك حتى تحقق أهدافها الاستغلالية لمقدرات الشرق الجزائري، فرغم مظاهر التطور لم يكن لصالح المجتمع الجزائري رغم ان على كاهل هذا المجتمع هو الذي حقق ذلك . ولم تكن له استفادة منها سوى الإبعاد والتنكر له .
- ان المظهر الحضاري الأوربي الذي جاءت به سياسة الاستيطان لم يكن في خدمة المجتمع الجزائري بل كان في خدمة فئة المستوطنين وعل حساب الفئة الواسعة من الجزائريين التي ازدادت تدهورا وتراجعا في مستوى معيشتهم وفيحياتهم العلمية وحياتهم الاجتماعية بظهور فئة المستوطنين الغربية في دينها وعاداتها وتقاليدها وطبيعة حياتها اليومية هو الذي زاد في ارتباط المجتمع الجزائري بمقوماته العربية الإسلامية العريقة .
- أدت عملية الاستيطان الى هجرة أوربية واسعة من كل الجنسيات ونجم عن ذلك نشأة مجتمع أوربي طفيلي قائم على أراضي الجزائريين وعلى مساهمتهم الضريبية في إطار الضريبة العربية. والقضاء على البورجوازية المحلية بنزع الملكية والتهميش من المناصب والنفي والعقوبات الزجرية .
- لم يتحقق للأجواد وشيوخ الزوايا والذين أعلنوا الولاء للسلطة الفرنسية الاستمرار في امتيازاتهم التي توارثوها منذ الفترة العثمانية بل عملت فرنسا على الاستغناء عنهم في كثير من الأنشطة التي كانت مسندة إليهم بل اعتبرتهم وسائل آنية تستغني عنهم كلما سمحت لهم الفرصة لذلك .
- لم يتحقق للجزائريين وحدة روحية ولا سياسية فعالة تستطيع بموجبها الثورة على الأوضاع القائمة، بل عملية التفرقة والتقسيم التي مارستها السلطتين العثمانية والفرنسية تركت المجتمع يعيش الانقسامات والتنافر عوض التضامن والتحالف ضد العدو المشترك والمتمثل في الاستعمار الاستيطاني الفرنسي.

ملاحق البحث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق (01)

جاء في وثيقة ص 385 ج 12 المجلة الافريقية شارل فيرو

ان الفقيه السيد عبد القادر ابن المرحوم الوالي الصالح الناسخ الشيخ البركة سيدي محمد امقران نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا انعمنا عليه بكافة عرش برياشة الذي هما على ثلاثة فرقات فرقة يقال لها اولاد عبدالله والفرقة الثانية يسمى بيري والفرقة الثالثة التي تجمع الجميع يقال لها برياشة يكون الجميع كلهم زاوية له من جميع الزوايا ه ويكون كلهم جيسا عليه وعلى اعقاب اعقابه ويتنفع بمفردهم وزكاتهم ورفعنا عليهم يد باي الر المحال هذا الناحية الشرقية وعما لهم . عن اذن المعظم الارفع مولانا الدولاتلي الحاج محمد باشا ايده الله بمنه امين اواسط شهر جماد الثاني سنة 1093هـ.

المصدر: نص المجلة الافريقية العدد 12 ص 123-124-125

المؤسسات الدينية في الشرق الجزائري شارل فيرو

الملحق (02): فيما يخص تولية الشيخ سيدي عبدالقادر بن سيدي محمد امقران بشأن الزوايا .

جاء في وثيقة ص 387 ج 12 المجلة الافريقية شارل فيرو

ليعلم من يقف على هذا الامر الكريم والخطاب الواضع الجسيم العلي شأنه وقدره من باي لار الناحية الشرقية وكافة القواد والعمال والخاص والعام وجميع المتصرفين في الاحوال ببلدنا الجزائر المحمية بالله تعالى وبلد بجاية سدد الله الجميع ووفق الكل الى الصالح القول وحسن الصنيع اما بعد فان حامله المكرم الوجيه البركة السيد الشريف ابن المرجوم بكرم الحي القيوم المقدس المنغمس الشيخ سيدي عبدالقادر بن سيدي محمد امقران انعمنا عليه وقدمناه على كافة زواياه واقمناه في مقام والده المذكور وانزلناه بمنزلته ينظر في امور الزوايا المذكورين ويكونوا كلهم عند نظره وسمعه وطاعته واطلقنا يده فيهن بحيث يتنفع بخراجهم جريا في ذلك على سبيل عادته المعلومة وعادة السادات المرابطين اسلافه المتقدمين قبله السابقة المفهومة كما انعمنا عليه بزواية بني بومسعود وحسبناها عليه وعلى عاقبه وعاقب اعقابه ذلك صدقا منا عليه لوجه الله العظيم ورجاء توبه الجسيم ولا طعامه للفقراء والمساكين وعلى كافة اهلالزوايا المذكورين خصوصا زاوية بني بومسعود ان يكون كلهم عند نظرة وسمعه وطاهه كما اننا اقمناه في مقام والده المذكور على شغل البايلك الكاين بالبل المذكورة يجري عليه مثل الكراسته وغيرها من غير ممانع له في ذلك مع حرمه واحترامه ورعيه وحفظ جنابه بحيث لا نمتلك له حرمه ولا من يتعدى عليه وعلى كافة زاويت ولا يكلفهم احد بشيء من التكاليف المخزنية . عن اذن المعظم الارفع الدول تلي السيد مصطفى داي الجزائر اواخر حجة الحرام 1113هـ.

الملحق (03): فيما يخص تنظيم المساجد في عهد صالح باي

شارل فيرو

المجلة الافريقية الجزء 12 ص 123-124

عبد صالح باي بن مصطفى 1185

الواثق برب الناس عبده بالعباس 1188 قاضي

سي شعبان بن جلول 1179

الحمد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتناء بشأن الاوقاف وفرطوا في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها بقبليتهم عنها وعدم اعتنائهم بشأنها ولم يبحثوا على ذلك ووتعتطل البعض من المساجد بضياح اوقافها التي مبنى عمارة الوقف عليها وصار لبعض منها بسبب ذلك مربطاً للدواب والبعض غلقت عليه الابواب وال امره الى الخراب وبلغ امر ذلك لحضرة المعظم الاسعد المنصور المويرذي الراء السديدو حسن الرأي سيدنا صالح باي ايده الله تعالى وأبقى وجوده وأدام خيراته وجوده فألهمه الله تعالى الى الكشف عن ذلك واراد ان يثبت ذلك بأربع سجلات متماثلة تحفظها ويؤمن بذلك من التبديل والتغيير عليها امر حينئذ قضاته والمفتيين ان يبحثوا على اوقاف المساجد التي ادثرت ويثبتوا ذلك بأربع سجلات مماثلة فامتثلوا مره وبلغوا جهدهم في البحث عن اوقاف المساجد وعلى المساجد التي دثرت واطلعوا على سجلات المساجد وثبتوا بعد الكشف عن ذلك اوقاف مساجد قسنطينة بهذا السجل وبثلاث سجلات آخرين مماثلين له لفظاً ومعني احد السجلات عند صاحب بيت المال والثاني عند شيخ البلد والثالث عند قاضي الحنفية والرابع عند قاضي المالكية فمن علم ذلك وتحققه وعلم ان الطابع المرتمس بطرفه اعلاه هو طابع المعظم الارفع سيدنا صالح باي ادام الله اوقاته وبركاته فيه فير به وبمضمونه شهادته منا وذلك اواسط شهر ربيع الاول المنور بمولده صلى الله عليه وسلم عام تسعين ومائة والف

الملحق (04): مقطع من قصيدة شعبية تصف بعض أحوال الشرق الجزائري

كيف أركب على الزرزوة ونبس قمحة المحصورة -8
يالبعثي خيالو ما عاد إيمان براح إينادي على ربع أرقاب
تا عرفش قلبي وش إلي صاير دنقت لذراير -9
باي براهم جاء يا حضارة بيات تتغاير

رؤحوا يا سيارة يا وعدي

واحتوا سابعة بالنيلة أمه هملة وهميلة -10
يالبعثي خيالو ما عاد إيمان عن حال المختتر سيدي القومان
أه يالدينا ما فيك أمان

لمع يكسب و القلب خزين هيا يا سراجين -11
و النقلة عادت بريلين البيان مغلقين

رؤحوا لداروا سيارة يا وعدي

بين القبور ماذا نذبت ونكات أم الحنينة ماذا عملت -12
بذموغها تشالي مثل الموحات خيرتني من نومي و الحاشيات
أه يالدينا ما فيك أمان

ونغلقوا البيان كبي حصروا المدينة -13
و ذمغو عربان وفرب صالح من الجراخ
دارولو زوج خديبات كبي حكمو الشاوش -14
واخرج للميدان وقالو اتوض يا صالح

لا نسكن البلدان كون عرفت هكذا يخرالي -15
ونعاشر العربان نبي حيمة على أولادي

ما نشي هربان خليونني نشف أولادي -16
وذموغو ويدان مخنوق بمحرمة شعالة
وريولي قبرو نرتاح قالوا صالح راح -17

ونقيل الخند ليميننا ويهبوا للرياح
في قسنطينة وش من حي عوض صالح -18
و يا عرب الخومة خزنوا عليه أن يا ولادي

الملحق (05): مقتطف من نصوص قانون سيناتوس كونسلت

جاء قانون السناتوس كونسولت في 22 أبريل 1863 في سبع مواد على النحو التالي:

المادة الأولى: إن الأرض المشاعة التي تستغلها القبائل المختلفة في الجزائرية بصفة مستمرة منذ زمن طويل إنما هي ملك رسمي للقبائل.

المادة الثانية: سيتم إداريا في أقرب الآجال:

- تحديد مناطق القبائل وتوزيعها على مختلف الدواوير، فكل قبيلة بالتل و البلاد الأخرى الخاصة الزراعية، مع الاحتفاظ برصيد من الأراضي تكون ملكا للبلديات.

- تأسيس الملكية الفردية على أفراد تلك الدواوير؛ حيث يتم الاعتراف بهذا الاجراء و بفائدته، و ستصدر مراسيم إمبرطورية تحدد الوضعيات و الآجال التي تتأسس عليها الملكية الفردية لكل دوار.

المادة الثالثة: وسيتم تنظيم إداري عمومي أشكال تحديد أاضي القبائل، وأشكال و شروط توزيعها بين الدواوير، وتبعية الأملاك التابعة للدواوير، والأشكال والشروط التي تتأسس عليها الملكية الفردية.

المادة الرابعة: يستمر تحصيل الربوع والمستحقات والرسوم المستحقة للدولة على القائمين على مناطق القبائل، كما كانت عليه في السابق، و ستصدر أوامر من خلال مراسيم إمبراطورية مختلفة في شكل تنظيمات إدارية عمومية.

المادة الخامسة: تحتفظ الدولة بحقوقها على ملكية ممتلكات البايك و حقوقها على الممتلكات كما حددته " (domaine) الملك"، كما تحتفظ بحقوقها في المجال العمومي

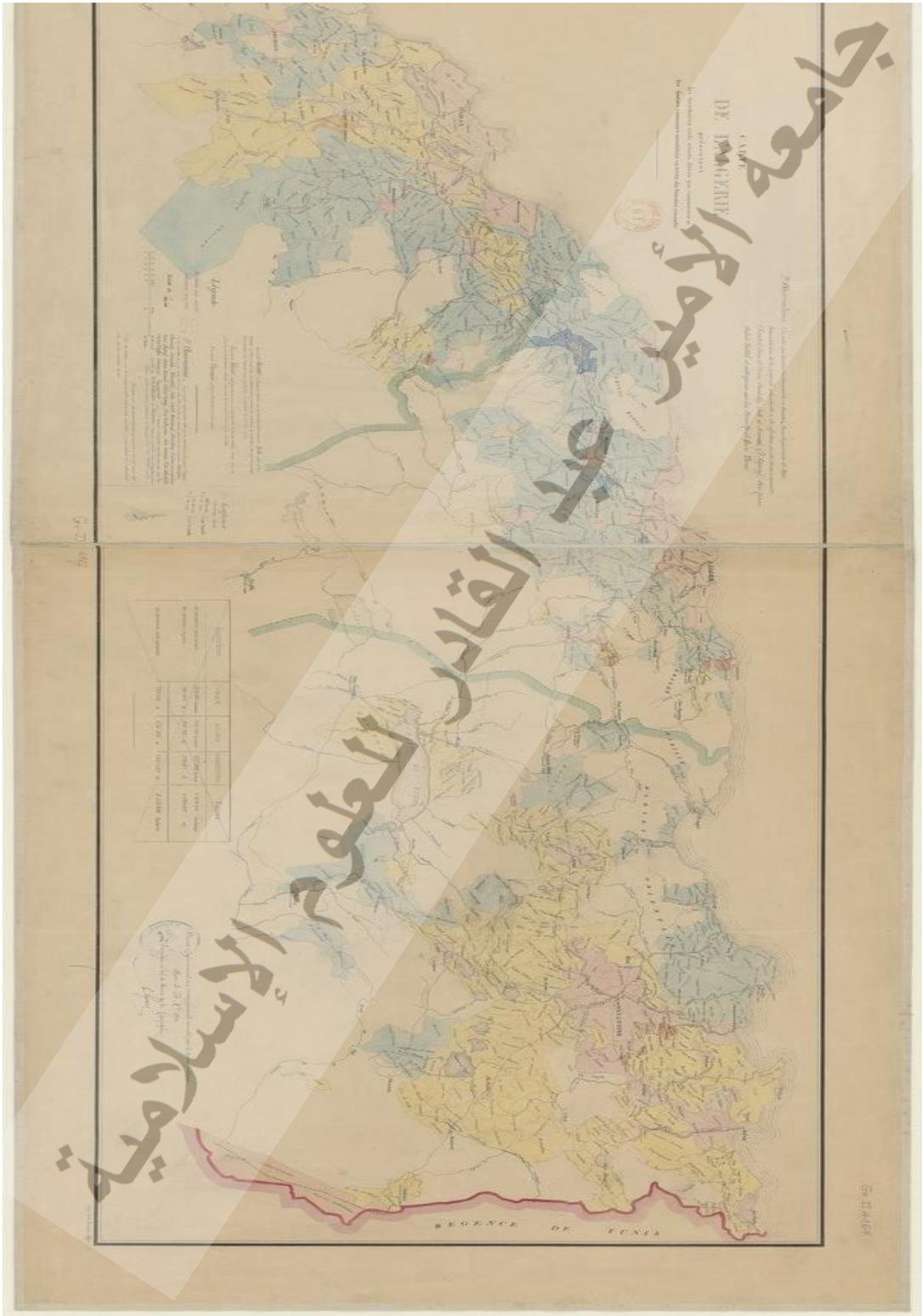
المادة الثانية من قانون 16 جوان 1851 بما في ذلك مجال الدولة؛ خصوصاً فيما يتعلق بالأحشاب والغابات طبقاً للبند الرابع من المادة الرابعة من القانون المذكور أعلاه.

المادة السابعة: لاتلغى أحكام قانون 16 جوان 1851 خصوصاً التي تتعلق باقتراح الملكية. بسبب المنفعة العامة و أعمال الدولة.

المصدر:

Rodolphe Dareste de la Chavanne : De la Propriété en Algérie, loi du 16 juin 1851, sénatus-consulte du 22 avril 1863, 2e édition 1864, p.240-244

الملحق (05): خريطة الجزائر موزع عليها أهم المناطق الاستثمار الأوروبي



الملحق (06): قرار من إحدى الأراضي في منطقة قسنطينة

الجزائر - منطقة قسنطينة

الأمبراطورية الفرنسية

قرار منح الأرض (*)

نحن، مشير فرنسا، والي الجزائر العام.
نظرا إلى الأوامر المؤرخة بـ 21 جويلية 1845، و 5 جوان وأول سبتمبر سنة 1847، و
إلى المرسوم الرئاسي بتاريخ 26 أبريل 1851.

وبناء على رأي مجلس الحكومة بتاريخ 2 ماي 1865

نقرر

المادة 1- منح السيد سيستي ؟ Cesti طبيب عسكري من الدرجة الأولى بفيلق اللغيف
الأجنبي الثاني، الحامل لوسام الشرف والقاطن بباتنة، قطعة أرض حكومية، سعتها تسعة
وسبعون هكتار، اثتان وثمانون آر، وخمسون سنتيارا، تقع بأرض المعذر (دائرة باتنة
العسكرية)، كما هو مبين في التصميم المرفق...

المادة 2- سيقدم المستفيد إلى الدولة إيراد، سنويا ودائما، مقداره تسعة وتسعون فرنكا،
 وخمسة وتسعون سنتيما، يدفع مسبقا كل ثلاثة أشهر إلى قابض صندوق الأملاك العقارية
التابعة لباتنة، وذلك بدءا من جويلية 1859.

وقد يتحصل على الإيراد بطريقة الجبر، أما في حالة عدم التسديد فيعلن إداريا عن سقوط
الحق، وهذا طبقا لإجراءات الأمر المؤرخ بـ 11 جوان 1847، كما يمكن شراء الإيراد
المنكور طبقا للإجراءات المتعلقة بالفصل الثاني من الأمر المؤرخ بأول أكتوبر 1844.
كما ترتبط بالمستفيد كل الأعباء والضرائب التي قد تفرض في وقت لاحق على الملكية
العقارية بالجزائر.

المادة 3- على المستفيد من جهة أخرى تشييد منزل من مواد بنائية بالأرض المعنية بغرض
استعماله ضيقة، وما إلى ذلك من أبنية أخرى لإيواء العمال وحفظ المعدات الزراعية
اللازمة لاستثمار الأرض الممنوحة، ومن الواجب إنهاء الأشغال في مدة سنتين، واستثمار

جميع الأراضي الممنوحة في أجل أقصاه ثلاث سنوات، بدءاً من تاريخ هذا القرار، هذا وتعتبر الأرض المتروكة براري طبيعية كأنها أرض مزروعة، على أن تنقى، وعلى أن لا تزيد مساحتها عن نصف القطعة الكنية.

المادة 4- وعلى المستفيد، في نفس الأجل غرس 25 شجرة غابية أو مثمرة ذات الساق العالي بالنسبة للهكتار الواحد، على أن تبقى حرة توزيعها على مجموع الأراضي الممنوحة خاضعة لرغبته.

المادة 5- ويستخلص المستفيد من التزامات المادتين الثالثة والرابعة، إذا قام في غضون السنة الأولى ببناء منزل استثماري وصرف ما معدله مائة فرنك للهكتار الواحد.

المادة 6- يجب على المستفيد صيانة قنوات الري والتصرف التي تمر بملكيته صيانة جيدة، وغرس أطرافها بأشجار باسقة أو غيرها، ومن واجبه أيضاً تطهير وتنظيف المجاري المائية - غير الصالحة للملاحة أو الطفو - التي تشق أو تحد الملكية الممنوحة، وفقاً للقوانين والتنظيمات المعمول بها في فرنسا، والخاصة بهذا الموضوع.

المادة 7- والمستفيد لا يتمتع بالمنابع والمجاري المائية الموجودة في الملكية المذكورة إلا بصفته منتقياً، وطبقاً للتنظيمات المتوفرة أو التي ستدخل على نظام المياه بالجزائر.

المادة 8- وسيختلج للدولة، لمدة عشر سنوات، وبغير تعويض عن الأراضي اللازمة لشق السبل والطرق، وإقامة القنوات أو غيرها من المشاريع ذات النفع العام وستحتفظ الدولة لنفسها بملكية التحف الفنية، والقطع الفسيفسائية، ونقوش البارزة، وكذا التماثيل وبقاياها والأوسمة، التي توجد بالقطعة الأرضية الممنوحة.

المادة 9- وستحصل المستفيد على ملكية العقار الممنوح عند استكمال الشروط المحددة وسيكون في إمكانه بعد ذلك رهن أو تحويل جزء من العقار أو كله بالبيع أو التبرع، لكن طالما أنه لم يتخلص من الشرط المبطل فإن المحتفظين بالعقار سيخضعون مهما تعاقبوا للالتزامات التي تفرض عليهم، أما الاختصاصات الرهنية فستسري عليها إجراءات المادة 2، 2.5 من القانون المدني.

المادة 10- في حالة الاختصاصات الرهنية أو التحويل العقاري الجزئي أو الكلي وبأي شكل كان، يكون من واجب المقرضين والملاكين مهما تتباعدوا اختيار الموطن من وضع الأملاك في وضع في نطاق دائرة اختصاص المحكمة، زيادة على إبلاغ الوالي بالاتفاق الحاصل بين

الطرفين ، بواسطة عقد خارج المحكمة في أجل مدته خمسة عشر يوما .
المادة 11- وفي غضون الشهر اللاحق لنهاية الأجل، لتطبق الشروط وبالأحرى إذا ورد
طلب من المستفيدين أو من ذوي الحقوق، سيعمد إلى التحقيق في الحالة المالية للعقار وإلى
تقسيم المصاريف الحاصلة حسب الأشكال القانونية التي سنها مرسوم 26 أفريل 1851 .
المادة 12- في حالة إستيفاء جميع الشروط أو وجود المستفيد في حالة التي تنص عليها
المادة 5، يعلن عن تخلص العقار من الشرط الناسخ.
المادة 13- أما إذا لم تنفذ كل الشروط فإن الأمر سيبت فيه إما بتمديد الأجل أو إسقاط الحق
كاملا أو جزئيا، طبقا للأوامر المؤرخة بواحد وعشرين جويلية 1845، و كجوان وأول
سبتمبر 1849.

المادة 14- في حالة سقوط الحق ، سيعود العقار الممنوح إلى الدولة حرا خالصا من كل
الأعباء ، لكن إذا أدخل المستفيد تحسينات مفيدة ، منصوص عليها في محضر التحقيق
«سيعمد عن طريق الإدارة إلى طرح العقار في مزايده عمومية ، ويطلب من المتنافسين
استظهار الإمكانيات الكافية التي ستساعدهم على الاستجابة. للشروط المفروضة.
وسيعود ثمن المزايدة، بعد طرح المصاريف، إلى المستفيد أو إلى من انتقل إليه الحق،
وسيتحمل الثمن المذكور كافة الحقوق الناتجة عن عمل المستفيد، ويصبح العقار بعدها، بدون
مجال للمنازعة، حرا من كل القيود بفعل المزايدة .

المادة 15- وفي حالة عدم تقدم أي مزايده، سيعود العقار إلى الدولة حرا، معفى من كل
الأعباء الصادرة عن المستفيد المجرد من الحق .
المادة 16- وإذا لم يتول المستفيد تملك القطعة الممنوحة في مدة ثلاثة أشهر، بدءا من تاريخ
تبليغه بهذا القرار ، فإن حقه في الاستفاد سيضيع بدون مجال للنزاع .

كتب في الجزائر يوم 29 ماي 1856

مشير فرنسا، حاكم الجزائر العام

التوقيع راندون

للمصادقة الأمين العام للحكومة (التوقيع غير مقروء)

البيبيو غرافيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأرشيف:

● العهد والأمان المعطى لرحلة الشرق، وثيقة رقم 43، ملف رقم 01، مجموعة 3206، المكتبة الوطنية الجزائرية.

- A. O. M. Ministre de la guerre à Valée: le 10 octobre 1838 E145.
- A. O. M. Ministre de la guerre à Valée: Paris, le 27 Décembre 1837.
- A. O. M. Valée au ministre de la guerre: 27 décembre 1838.
- A. O. M. Valée au ministre de la guerre: 4 octobre 1838.
- A. O. M. Valée au ministre de la guerre: Alger, 10 mars 1838.
- ACHM . F IX, Dossier Algérie avant 1830, "lettre de Vallière à la chambre de commerce" en date du 19 juillet 1796.
- ANP . F 80 1670 "renseignements généraux réunis en vue de l'expédition" rapport sur les concessions d'Afrique.
- ANP . F 80 1670, renseignements généraux réunis en vue de l'expédition.
- ANP, AE B3 287, lettre l'agent principale à l'agence de MARSEILLE; La calle de 20 fructidor An II de la République.
- ANP, Ae B3 301, "mémoire et documents sur les concession françaises en Afrique du nord, 1793-1830.
- ANP, Ae B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817.

- ANP, Ae B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817.
- ANP, AE B3 304 "compagnie et agence d'Afrique" rapport de M thédénat. P 5 et ANP F 80 mesures adoptées pour la colonisation, rapport politique, militaire et ADMINISTRATIF SUR LA REGENCE d'Alger, 3 et 5 juin 1831.
- ANP, AE. B3 301, "mémoire sur l'organisation et l'exploitation générales des concession d'Afrique" écrit par Mr Fourrat le 28/8/1817.
- ANP. AE B3 301, lettre N° 17 écrite par Mr Piéron, agent principal des concession à l'agence de Marseille, le 18 fructidor An 5.
- ANP. AE B3 301, Mémoire sur la cie royale d'Afrique, copie n° 4 Marseille le 7 juillet 1792.
- ANP. AE B3 301, Mémoire sur la cie royale d'Afrique, lettre de Mr Duval consul général de France à Alger, le 29. 08. 1815.
- ANP. AE B3 301, Mémoire sur la compagnie royale d'Afrique, copie N° 4, MARSEILLE, LE 7 JUILLET 1792.
- ANP. AE B3 301, Mémoire sur les concession d'Afrique , lettre N° 17 écrite par Mr Piéron, agent principal des concession à l'agence de Marseille, le 18 février 1796 de la république.
- ANP. AE B3 301, Rapport de l'agent principal à Mr Dubois than ville le 30 fructidor An 8 de la République.

- Bugeaud au général de Rué: – ACCA 2EE12: 4 mars 1846–
Circulaire du 19 février 1845 Bugeaud: ACCA 2EE9, 17
avril1843.
- Bugeaud au ministère de la guerre: ACCA 2EE6, 3 Septembre
1846.
- Bugeaud au ministre de la guerre: ACCA 2EE2, 10 juillet 1842.
- Bugeaud au ministre de la guerre: ACCA 2EE4, 24 août 1843.
- M. G. H227. Notice sur La province de Constantine:
postérieur à1836.

قائمة المصادر باللغة العربية:

- أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق، أحمد التوفيق المدني، ط02، ش. و. ن. ت.، الجزائر
1980.
- أحمد باي، مذكرات أحمد باي، المجلة الإفريقية، 1949.
- أوجست كور، ملاحظات حول تدريس اللغة العربية في كل من الجزائر وقسنطينة ووهران (1830-
1879) ترجمة محمد يحياتن.
- يفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة 1830-1880، ترجمة، محمد عبد
الكريم أوزغلة، المراجعة والإشراف مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر 2007
- الحاج أحمد المبارك، تاريخ حاضرة قسنطينة، اعنتى بتصحيحه والتعليق عليه نور الدين عبد القادر،
الجزائر سنة 1952.
- الحسن ابن محمد الوزان الزياني، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مطابع الهيئة المصرية
العامة للكتاب، القاهرة، 2005.
- حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق،
محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978.

- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة ، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- صولسي دو فيليسيان، ذكريات رحلة من مدينة الجزائر الى قسنطينة عبر المناطق الجبلية، تقديم وترجمة، علي تابلت، منشورات تالة، الجزائر، 2015.
- عبد الكريم الفقون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1، 1987.
- لويس رين، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2013.
- محمد الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1984.
- محمد صالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2005.
- مؤلف مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الاخيرة، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر د. ت.
- وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816 – 1824)،، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

قائمة المصادر باللغة الفرنسية:

- BERBRUGGER (A): Epoque de l'établissement des Turcs à Constantine, in R.A, N°1, 1856-1857.
- BROSSELDARD, Les khouans constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, H. Bourget, Alger, 1859.

- Bugeaud à Carette, d'après M. Emerit: Les Saint-simoniens en Algérie.
- Bugeaud ; Quelques considérations de notre l'établissement sur trois questions fondamentales en Algérie.
- Carotte (E), exploration scientifique de l'Algérie pendant les année 1840-41-42 PARIS, imprimerie royale, 1842.
- Coup D'œil sur L'Administration Francaise Dans La Province de constantine par un constantinien .Imprimerie de H Fournier et Cle 1843 .
- Devoulx.(Alert): Tachrifat. Recueil de notes historique de l'ancienne régence d'Alger, Alger, Imp du Gouvernement 1852.
- EMERIT (Marcel), "Essai d'une marine, marchande ", cahier de Tunisie, N° 11, 1955.
- Féraud (Ch.): Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, Alger, Association Borneurs, 1877.
- Féraud (L. ch.) ; Le Sahara de Constantine ; Note et Souvenir. Adolph Jordan, Editeur, Alger, 1887.
- Féraud, histoire de Jijel, ALGER 1873.
- Haedo (Fraye Diego).Histoire des Rois d'Alger (A. Jourdan , Alger 1881.
- Marchika (J) La peste en Afrique Septentrionale, Alger 1927.
- Masson (P), histoire des établissement et du commerce français en Afrique du nord.
- Masson (Paul), histoire des EST et du commerce français, Paris 1909.

- Mercier (E): Histoire de Constantine.
- Mercier, Histoire de l'Afrique, Sentimentale. Tom III,
- coup d'œil sur l'Administration Française dans la province de Constantine par un constantinien ; imprimerie de h fournier ; Paris 1843.
- Rinn (A.): « Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey ». in R. A n° 41. Année1897.
- ROZET (M). voyage dans la régence d'Alger. paris 1833.T3 .
- Vayssettes: Histoire de Constantine sous les Bey depuis l'invasion turque jusqu' à-l'occupation 1535–1837, Larnolet libraire, pp. 374–375, Paris, 1869.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

- Abdeljalil Temimi: Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830–1837) ,Publication de la revue d'histoire maghrébine, vol 8, Tunis, 1978, p. 50 vol. 8, Tunis, 1978.
- Abdelkrim Badjadja: Cartographie agraire de l'est algérien à la fin du XIXe siècle, DEA, Constantine, 1974.
- Charles André Julien: Histoire de l'Algérie contemporaine, 1827–1871, 2ème édition, Paris, PUF, 1979.
- Colonna. F, Les instituteurs algériens (1883–1939, presses de la fondation nationale des sciences politiques, paris, 1975.
- Djilali sari, La déposition Des Fellah 1830–1962 » ; Enag Editions ; Alger ; 2010.

- EMERIT (Marcel), "Essai d'une marine, marchande ", cahier de Tunisie, N° 11, 1955.
- EMERIT (Marcel), "Essai d'une marine, marchande barbaresque", cahier de Tunisie, N° 11, 1955.
- EMERIT (Marcel), "la situation Economique de la régence d'Alger en 1830", information historique N° 5.
- EMERIT (Marcel), "la situation Economique de la régence d'Alger en 1830", information historique N° 5.
- Emérite M ;les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du 19^{ème} siècle annales économies s.c. n°1 ;1966.
- Félix (A): Constantine centre économique, Marché de grain et tissus Camille et fourrure, Toulouse, France.
- Gaid (M.) ; chronique des beys de Constantine ; O. P. U. Alger.
- Gui doum. L, Construction de stéréotypes liés à l'indigène dans les écrits coloniaux Constantine et sa région, in évolution historique del'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009.
- Isabelle Grangaud, la ville imprenable une histoire sociale de Constantine au 18^{ème} siècle, Blida, Alger 2010.
- Kamel Fillali. Le don: «épine dorsale de système ottoman, le cas de l'Algérie», Constantine, annales LERMM, Université Mentouri, Volume V, année 2002.

- Mahfoud Kaddaache, Djilali sari, l'Algérie Permute et résistance (19830-1962) offre des publications universitaires, Algérie, 2002.
- Mahfoud Kaddaache, l'Algérie des algériens de la prehistoric à 1945, Alger, 2000.
- Masson (Paul), histoire des EST et du commerce français, Paris 1909.
- Mercier (E): Histoire de Constantine.
- MERCIER (E.) , Etude sur la confrérie des khouans de sidi Abd- El Kader El Djellani , Arnolet, Paris, 1869.
- Mercier, Histoire de l'Afrique, Sentimentale. Tom III.
- NOUSCHI. A, CONSTANTINE A LA VEILLE DE LA CONQETEFrancaise, IN: LES CAHIER DE TUNISIE, TUNIS, 1955.
- RAYMOND (A.), Grandes villes arabes à l'époque Ottomane, Sindbad, Paris 1985.
- SALHI (M. B.), "Confréries religieuses et champs religieux en grande Kabyle au milieu du 20eme Siècle, La Rahmaniya ", in ann.af. N°33 ,1994.
- Temimi Abdeljalil ;Le Beylik de Constantine et hadj Ahmed Bey ; (1830-1837); Publication de la Revue d'histoire Maghrébine ; vol 1 ; Tunis 1978.
- Temimi Abdeljalil, Le Beylik de Constantine et hadj Ahmed Bey, (1830-1837), Publication de la Revue d'histoire Maghrébine, vol 1, Tunis, 1978.

- Valensi lucette; le Maghreb avant la pries d'Alger. Flammarion. Paris1969 .

قائمة الرسائل والجامعية باللغة العربية:

- أحمد سيساوي، البعد البايلكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث 1838 – 1871 م، أطروحة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة 2، 2014.
- ارزقي شويثام : المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519- 1830)، دكتوراه دولة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006.
- بن موسى حمادي، جوانب من السياسة الفرنسية في الجزائر واهتمامات الأعيان المسلمين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1850-1900م)، مذكرة ماجستير في التاريخ حديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003-2004.
- جميلة معاش، الانكشارية والمجتمع ببالك قسنطينة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة 2007-2008.
- جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايليك الشرق الجزائري من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري (16-19م)، دراسة اجتماعية سياسية، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة قسنطينة، 1992.
- جوانب من الحياة الديمغرافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أواخر الفترة العثمانية (دراسة سوسيو – تاريخية للجماعات السكانية الحضرية المكونة للمجتمع الجزائري)، مجلة آفاق للعلوم، العدد السابع، مارس 2017.
- خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث تحت إشراف، فاطمة الزهراء قشي 2006، جامعة منتوري قسنطينة
- شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007-2008.

- فلة القشاعي الموساوي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة 1990.
- القشاعي فلة: الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا في أواخر العهد العثماني، دبلوم الدراسات المعمقة، الجزائر، 1983.
- مصمودي زين الدين، عوامل التكوين وعلاقتها باتجاهات طلبة المدرسة العليا للأساتذة نحو مهنة التدريس من خلال دراسة متبعة، مذكرة دكتوراه دولة في علم النفس التربوي، قسنطينة، 1998-1999.

قائمة الرسائل والأطروحات باللغة الفرنسية:

- Abdelkrim Bedjadja: Cartographie agraire de l'est algérien à la fin du XIXe siècle, DEA, Constantine, 1974.
- Elisabeth(Gargot), "les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque 1516 1830" R. A. T 96.
- Féraud (ch.). Les corporations de Métier à Constantine avant la Conquête Française. traduit d'un Manuscrit Arabe. in R. A t. 16. 1872.
- Féraud (Ch.): Document pour servir à l'histoire de Bône, R. A. , 1873.
- Féraud (Ch.): Documents pour servir à l'histoire de Philippeville, R. A. , 1875.
- Féraud (Ch.): Histoire de Bône, R. A. , 1873.
- Féraud (Charles) "destructions des établissements français de la calle en 1827 d'après des documents indigènes" revue Africaine, Tome XVII, 1873.

- Féraud (L. ch.) . LES Ancien Etablissements Religieux Musulmans de Constantine. in Revue Africaine n° 12 année 1868.
- Féraud (L. ch.) ; notes relatives a la révolte de Ben – sakhri ;in R. A. n° 57 1913.
- Féraud (L. ch.) ; notes relatives a la révolte de Ben –sakhri ;in R. A. n° 57 1913.
- Féraud, "les corporations des métiers à CONSTANTINE avant la conquête française" R. A Tom XVI. 1872.
- Féraud. ch. » Les Anciens Etablissements Religieux musulmans De Constantine » in Revue Africaine ; 1968 .
- kouadria.A, « Le rapport à l'autre et représentations sociales dans l'idéologie coloniale :cas de l'Algérie », in évolution historique de l'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009.

قائمة المجلات والدوريات العلمية باللغة الفرنسية:

- BERBUGGER (A): Epoque de l'établissement des Turcs à Constantine, in R. A, N°1, 1856–1857.
- Elisabeth, "les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque 1516 1830" R. A. T 96.
- Fella (Moussau El Kechai): situation démographique et sanitaire du Beylik de Constantine 1771–1837 in Arabe historicalreview

for othmanstudies n° 17-18, fondation temimi pour la recherche scientifique et l'information, zaghouan, Tunis sep 1998.

- Féraud (ch.). Les corporation de Métier à Constantine avant la Conquête Française. traduit d'un Manuscrit Arabe. in R. A t. 16. 1872
- Féraud (Ch.): Document pour servir à l'histoire de Bône, R. A. , 1873.
- Féraud (Ch.): Documents pour servir à l'histoire de Philippeville, R. A. , 1875.
- Féraud (L. ch.) ; notes relatives a la revolte de Ben – sakhri ;in R. A. n° 57 1913.
- Féraud(L.ch) les corporations des métiers à CONSTANTINE avant la conquête française" R. A Tom XVI. 1872.
- Féraud.L.ch. » Les Anciens Etablissements Religieux musulmans De Constantine » in Revue Africaine ; 1968 .
- Guidoum. L, Construction de stéréotypes liés à l'indigène dans les écrits coloniaux Constantine et sa région, in évolution historique de l'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009.
- GUYON (M). « La peste en Algérie ; « Le Moniteur Algérien » ; n° 106-116 ; 1834. « Les principale pestes ont règne dans le nord de l'Afrique » ; Gazette médicales de PARIS ; 1838.

- Guyon. LA peste en Algérie Le Moniteur Algérienne ; n ° 106-116.
- kouadria.A, « Le rapport à l'autre et représentations sociales dans l'idéologie coloniale :cas de l'Algérie », in évolution historique de l'image de l'algérien dans le discours colonial, 4ème colloque international sur l'histoire de la révolution algérienne, université 20 aout 1955 Skikda, 25 et 26 octobre 2009.
- LE TOURNEAU (R.), Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord. M. de livres, Alger, 1957.
- TABLEAU DE LA SITUATION DES ETABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGERIE(1843-1844). PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845.
- TABLEAU de la SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1842-1843.
- Temimi (Abd) ;le Beylik de Constantine et hadj Ahmed Bey ; (1830-1837) ; Publication de la Revue d'histoire; vol 1 ; Tunis 1978.

قائمة المجالات والدوريات العلمية باللغة العربية:

- أحمد حسن سليمان، "نزاع الملكية العقارية في الجزائر 1830-1871"، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، العدد 6، مارس 2002.
- أحمد منور، "معالم السياسة التعليمية الاستعمارية في الستين سنة الأولى من الاحتلال"، من مجلة الشهاب الجديد، المجلد الثالث، العدد الثالث، مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، شركة دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، عين مليلة، 2004 .

- جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايليك الشرق الجزائري من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري (16-19م)، دراسة اجتماعية سياسية، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة قسنطينة، 1992.
- جوانب من الحياة الديمغرافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أواخر الفترة العثمانية (دراسة سوسيو - تاريخية للجماعات السكانية الحضرية المكونة للمجتمع الجزائري)، مجلة آفاق للعلوم، العدد السابع، مارس 2017.
- حنيفي هلايلي، منطقة سيدي بلعباس ومكانتها في سياسة فرنسا الاستعمارية 1842-1954 م، المصادر، مجلة سداسية تصدر عن المراكز الوطني للدراسات والبحث عن الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954، العدد 8.
- رحيم محياوي، دراسة مستقبلية الاستيطان والتوطين الاستعمار الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، 2006.
- عبد القادر خليفي، "السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر"، من مجلة الشهاب الجديد، الثالث، العدد الثالث، مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004.
- محمد عيساوي، نبيل شريخي، الجرائم الفرنسية يف الجزائر أثناء الحكم العسكري 1830-1871، كنوز الحكمة، الجزائر، 2011.
- ناصر الدين سعيدوني، الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة، مجلة الأصالة، ع 60-61، الجزائر، 1978.
- ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، عالم المعرفة، ط 2، الجزائر.

جامعة الأمير عبد القادر العظم الإسلامي

الفهرس

244, 246, 247.....	Vayssettes
61, 68.....	إبراهيم الغربي
28.....	إبراهيم الكريتلي
241.....	إبراهيم باي
9, 34, 42, 44, 81.....	ابن الأعرش
237.....	ابن البحاوي
155.....	ابن العنابي
237, 253, 268.....	ابن باديس
69, 237.....	ابن جلول
237.....	ابن حسن
39.....	ابن قانة
69.....	ابن كوجك
237, 298.....	ابن نعمون
147, 148, 155, 210, 232, 259, 260, 262, 263, 267, 268, 290, 292, 293, 294, 299, 300, 301, 308, 309, 310, ..	أبو القاسم سعد الله
312, 320, 324, 325, 329, 331, 334, 353, 355, 357, 358, 360	
300.....	أبو عبد الله محمد الصخري
50, 277, 278, 279, 280, 281, 282.....	إتحاف المنصفين
129.....	أحمد الشريف الزهار
60, 67.....	أحمد الشريف الزهار
260.....	أحمد القلي
40, 60, 260, 296.....	أحمد القلي
10, 27, 38, 40, 53, 60, 66, 67, 68, 78, 125, 196, 201, 204, 308, 309, 310.....	أحمد باي
286.....	أحمد بن سالم
297.....	أحمد ساسي البوني
41, 243.....	الباي إبراهيم بن علي
67.....	الباي أحمد القلي
41, 136, 243.....	الباي مصطفى الوزناحي
27.....	الباي مصطفى قارة
45.....	الباي نعمان
8, 27, 28, 40, 60, 67, 195, 200, 203, 205, 235, 238.....	الحاج أحمد باي
28.....	الحاج عبد الرحمان بن نعمون
275.....	الراهب قراريدو
43.....	الريس حميدو
41.....	الشريف بن الأعرش
287.....	الشيخ سليمان بن جلاب
279.....	القنصل الفرنسي قاليار
353.....	المارشال بيليسيه
176, 193, 194, 195, 196, 198, 199, 200, 202, 205, 208, 209, 311.....	المارشال فالي
155.....	المارشال فيان
264, 332.....	الورتلاني

287	أحمد بن عبد الرحمن
233, 241, 247, 250, 254, 255, 259, 264, 269	أندري برنيان
294	أندري ريمون
41	انكيز باي

ب

20	بابوس
113, 129	باري
98, 100, 253	بن جلول
65	بن دايدة
65	بن سديرة
64, 201, 259, 288	بن فانة
232	بنور فريد
231, 232	بوتان
41, 136	بوجناح
30, 63, 80, 108, 160, 176, 198, 202, 204, 209, 311, 324	بوجو
145	بوربون
52, 283	بوشقرون
147	بوضرية
40, 288	بوعكاز
288	بوعكاز الداودة
43	بوغدار
	بيرو 53, 231

ح

26	حساني مختار
17, 26	حسن بن خير الدين
39, 236, 238	حسين باي
238	حسين باي بن حسن بوحنك
50, 230, 231, 236, 260, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 329	حمدان بن عثمان خوجة
236, 278, 279, 282, 294	حمدان خوجة
311	حمودة ابن الفقون
194, 199	حمودة الفقون
238	حمودة باي

د

336	دو روفيقو
311	دوبرمون
336, 338	دومال
274, 275	دوبون
158	دي لاموريسيار

س

138	سامصون
232, 233, 259, 260, 262, 265, 290, 292, 295, 297, 298, 332, 347, 357, 358	سعد الله
49	سليمان كاهية
64	سي بلقاسم
43, 358	سيدي الشيخ
286, 288	سيدي أمطير
287	سيدي بوجملين
16, 52, 283, 288, 289	سيدي خالد
291	سيدي عبد الرحمان الثعالبي
286	سيدي عيسى بن أمحمد

ش

293	شارل أندري جوليان
263	شارل فيرو
41, 46, 90, 107, 243	شاكر باي
229	شويتام أرزقي

ص

10, 16, 26, 27, 34, 38, 39, 41, 62, 70, 71, 72, 79, 81, 99, 104, 107, 236, 238, 241, 260, 262, 264, 266, 267, 268,	صالح باي
275, 296, 299, 300, 332	
249	صالح رايس
90, 91	صولسي دو فيليسيان

ع

291	عبد القادر الجيلاني
42	عبد الله الزبوشي
237	عبد المؤمن
60	عبدالكريم الفقون
11, 18, 38, 41, 43, 44, 54, 236, 277, 283	عثمان
18, 38, 41, 44	عثمان باي
65	عزل الزوايا
42, 236, 238	عصمان باي
44	علي باي
28	علي بن الحاج رايح
64	علي بن عيسى
263	عميراوي أحميدة

ف

138	فرانسوا الأول
28	فرحات بن سحنون
243	فرحات بن سعيد

فلة القشاعي الموسوي 233, 394
فتور دو برادي 271

ق

ك

كلوزيل 146, 156, 173, 329, 334
كوسان دو بيرسوفال 335
كيار 50, 141, 279

ل

لازاريست 275
لويس الثالث عشر 275
لويس رين 116, 151, 152, 323, 343, 344, 358, 359, 360

م

ماسي 232
ماصون 136, 142
محمد أبو رأس الناصري 295
محمد الذباح 16, 238
محمد الصالح العنتري 7, 27, 28, 34, 43, 52, 110, 111, 127, 128, 194, 256, 326
محمد الصالح بن العنتري 27, 38, 49, 230, 263
محمد العربي بن عيسى 64
محمد بكداش 297
محمد بلخروبي 350
محمد بن أبي عبد الله بن نعمون 86
محمد بن جلاب 243
محمد بن عزوز 289
محمد بن علي السنوسي 295, 297
محمد بن فرحات 18, 238

ن

ناصر الدين سعيدوني ... 22, 60, 67, 68, 70, 71, 75, 76, 77, 79, 105, 106, 152, 154, 196, 231, 233, 235, 237, 244, 246, 248, 249, ...
251, 254, 260, 272, 275, 276, 335, 398

هـ

هاشم 209
هايدو 234

و

ولد صالح باي 236
وليم سينسر 230, 239

232	ياكونو
249	يوسف باشا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن والمدن والقبائل والهيئات:

أ

39	ابن قانة
50, 277, 278, 279, 280, 281, 282	إتحاف المنصفين
22	آذرار آمال
61, 62, 64, 65, 66, 105, 110, 168, 173, 181, 195	أراضي العزل
71, 104, 109	أراضي الملك
65	أراضي بلزمة
21	أريس
239	إزابال قران قو
280	أزمير
	أفيو 16
11, 28, 30, 39, 44, 45, 60, 65, 68, 81, 157, 229, 230, 231, 233, 234, 235, 236, 237, 245, 247, 256, 262, 271, 308, 310	الأثرآ
	311
324, 325, 359	الأجواد
265, 332	الأدعية
252	الأزقة
231, 275	الاسباني
69, 100, 144, 146, 150, 151, 152, 153, 155, 158, 160, 161, 163, 164, 165, 166, 179, 192, 206, 207, 222, 277, 305,	الاستعمار
	308, 313, 335, 336, 338, 339, 341, 347, 349, 353, 398
150, 155, 169, 305, 348	الاستيطاني
42, 51, 176, 281, 311	الإسكندرية
17, 18, 24, 242, 248	الأطلس التلي
20, 21	الأطلس الصحراوي
229, 233	الأعلاج
229	الإغريق
59	الاقتصادي المهيكل
240	الأقلية المسيحية
326	الألراس
262	الألواح الخشبية
229	الأماريع
68, 233, 281	الأناضول
237	الأندلسيين
29, 86, 233, 234, 245, 257, 393	الانكشارية
19, 20, 21, 22, 24, 40, 87, 97, 102, 106, 110, 196, 201, 243, 245, 248, 352	الأوراس
190, 229, 230, 304, 312, 314, 328, 331, 359	الأوربيون
18, 237	الأييري
138, 272	الباب العالي
247	البايور
199	الباش حمار
64	الباش حمبة
18, 26, 43, 238, 272, 274, 360	الباشا
287	الباشارزية

8, 17, 18, 26, 27, 28, 29, 30, 34, 36, 37, 39, 40, 41, 43, 44, 45, 46, 47, 49, 51, 53, 54, 60, 61, 65, 67, 75, 76, 80, 86, 89,	الباي
101, 102, 103, 104, 106, 111, 114, 117, 119, 120, 121, 124, 125, 131, 134, 136, 167, 168, 176, 194, 222, 231, 233,	
234, 236, 238, 239, 241, 243, 244, 247, 250, 262, 264, 279, 280, 294, 295, 298, 332	
9, 16, 17, 19, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 36, 37, 38, 41, 48, 54, 55, 57, 60, 61, 62, 64, 65, 67, 71, 72, 74, 76, 77, .	البايليك .
79, 82, 86, 97, 98, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 108, 109, 113, 117, 130, 131, 133, 136, 139, 146, 154, 156, 157,	
167, 170, 172, 191, 193, 195, 196, 197, 198, 209, 222, 230, 231, 232, 233, 236, 238, 240, 243, 244, 245, 246, 247,	
248, 250, 251, 260, 261, 264, 269, 272, 275, 280, 287, 289, 295, 310, 320, 322, 323, 331, 332	
15, 18, 68, 137, 240, 325	البحر الأبيض المتوسط
116, 137	البحور
230, 231	البربر
97, 265, 286, 332.....	البركة
233	البيضان
233	البلقان
70.....	البنية الروحية
	التبر 116, 137
136, 324	الترضيات
16, 238	الترك
139	التشريع
266, 335	التعليم العمومي
80, 84, 102, 133, 196, 200.....	التلاغمة
300, 301	التمغروطي
115, 116	التوابل
345	التوازن الجهوي
264, 265, 294, 332.....	الجامع الكبير
256	الجائحة
7, 9, 11, 15, 16, 17, 22, 23, 25, 26, 27, 29, 30, 31, 32, 34, 37, 38, 39, 42, 43, 44, 45, 49, 50, 51, 52, 53, 56, 59, 60, 65,	الجزائر .
66, 67, 69, 70, 71, 72, 73, 75, 76, 77, 78, 79, 81, 83, 86, 87, 90, 91, 101, 103, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 113,	
114, 115, 117, 119, 122, 123, 125, 126, 128, 129, 131, 132, 133, 135, 136, 138, 139, 142, 144, 145, 146, 147, 148,	
150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 157, 158, 159, 160, 161, 162, 164, 168, 169, 170, 173, 176, 189, 190, 191, 192,	
193, 194, 195, 205, 206, 207, 210, 211, 212, 215, 217, 218, 221, 222, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237,	
238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 248, 249, 250, 251, 254, 258, 260, 262, 263, 264, 265, 266, 268, 269,	
271, 272, 274, 275, 276, 277, 278, 280, 281, 282, 284, 286, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295, 297, 298, 299, 300,	
301, 305, 306, 308, 309, 310, 311, 312, 313, 315, 318, 319, 321, 323, 324, 325, 326, 328, 329, 330, 331, 332, 333,	
334, 335, 336, 337, 338, 339, 340, 341, 343, 345, 347, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 357, 358, 359, 362, 385,	
393, 394, 397, 398	
69, 77, 79, 86.....	الحامة
33, 65, 235	الحاميات
155, 157, 158, 264, 265, 332	الحبوس
20, 21, 84, 102, 106, 133, 197, 201, 259	الحراكنة
59	الحركية الاقتصادية
102	الحشم
231, 237, 294, 310.....	الحضر
16, 20, 24, 61, 287, 352	الحضنة
248	الحكم المركزي
20, 35, 40, 54, 102, 106, 190, 209.....	الحنانشة
293	الحنصالية
70, 233, 264, 271, 272, 332	الحنفي
94, 98, 99, 265	الخرازين

94, 98, 252	الخراطين
255	الخماسة
8, 26, 29, 30, 31, 34, 38, 39, 41, 43, 45, 49, 101, 105, 114, 128, 129, 135, 136, 144, 145, 233, 250, 253, 262, 274, 294	الداي
293	الدرقاوية
147	الدومين الكولونيالي
147	الدومين الوطني
16	الذواودة
285, 287, 289, 293, 298	الرحمانية
94, 98, 267, 268	الرقاقين
354	الرهن
289	الزاوية المختارية
16, 52, 283	الزعاطشة
71, 104, 207, 208, 212, 213, 245, 265, 332	الزكاة
28, 196, 246	الزماله
244	الزمول
36	الزنوج
36	الزواتنة
157, 313, 334, 361	الزواف
93, 98, 132, 198	السراجين
21, 23	السعدة
98	السكاجين
15, 17, 26, 36, 37, 38, 62, 64, 72, 96, 101, 103, 108, 149, 176, 192, 193, 194, 196, 202, 205, 207, 208, 209, ...	السلطة العثمانية ...
213, 229, 236, 237, 242, 245, 247, 248, 249, 254, 255, 259, 284, 301, 302, 310, 323, 361	
26, 32, 33, 47, 53, 65, 100, 234, 238, 245, 249, 288, 296, 302	السلطة المحلية
10, 29, 162, 164, 197, 207, 329, 343, 393	السياسة الاستعمارية
293	الشاذلية
44, 45	الشاوش
247	الشاوية
7, 8, 9, 10, 11, 12, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 23, 25, 26, 27, 28, 31, 32, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 41, 42, 45, 47, 48, 49, ...	الشرق ..
50, 51, 55, 56, 58, 59, 61, 63, 66, 67, 68, 69, 70, 72, 73, 74, 75, 77, 79, 80, 82, 83, 84, 87, 89, 90, 96, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 121, 123, 125, 126, 128, 129, 130, 131, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 138, 140, 142, 143, 144, 145, 146, 154, 161, 162, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 174, 175, 177, 179, 180, 182, 184, 185, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 196, 197, 198, 200, 202, 205, 207, 210, 211, 212, 215, 216, 217, 218, 220, 221, 222, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 242, 243, 244, 245, 246, 248, 249, 250, 251, 253, 254, 255, 256, 257, 258, 259, 261, 262, 269, 270, 271, 274, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 283, 284, 285, 288, 300, 301, 302, 304, 305, 306, 308, 309, 310, 313, 314, 316, 319, 320, 323, 324, 325, 326, 330, 334, 339, 342, 343, 344, 345, 346, 350, 351, 352, 356, 357, 358, 359, 361, 362, 363, 385, 393, 398, 425	
7, 8, 9, 10, 11, 12, 15, 16, 17, 20, 21, 23, 26, 27, 28, 31, 32, 34, 36, 37, 38, 39, 42, 47, 48, 49, 50, 51, 55, 56, 58, ...	الشرق الجزائري
59, 61, 63, 66, 67, 68, 69, 70, 72, 73, 74, 75, 77, 79, 80, 82, 83, 84, 87, 89, 90, 96, 101, 102, 103, 104, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 121, 123, 125, 126, 128, 129, 130, 131, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 138, 140, 142, 143, 144, 146, 154, 161, 162, 167, 168, 169, 170, 172, 174, 175, 177, 179, 180, 182, 184, 185, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 196, 197, 198, 200, 202, 205, 207, 210, 211, 212, 215, 216, 217, 218, 220, 221, 222, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 242, 243, 244, 245, 246, 248, 249, 250, 251, 253, 254, 255, 256, 257, 258, 259, 261, 262, 269, 270, 271, 274, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 283, 284, 285, 286, 300, 302, 304, 305, 306, 308, 309, 310, 313, 314, 316, 319, 320, 323, 324, 325, 326, 334, 339, 342, 343, 344, 345, 346, 350, 351, 352, 357, 358, 359, 361, 362, 363, 393, 398, 425	
170	الشركة العامة الجزائرية
170	الشركة الفلاحية والصناعية
38, 50, 113, 119, 120, 123, 126, 134, 139, 141, 142, 210, 239, 279	الشركة الملكية الإفريقية

117	الشعانية
162	الشفعة
86, 98, 252, 266	الشواشين
98, 267	الصباعين
16, 17, 20, 21, 35, 36, 68, 97, 102, 103, 113, 151, 208, 242, 248, 283, 286, 288, 298, 343	الصحراء
93, 98	الصفارين
63, 81, 94, 115, 116, 117, 197, 284, 285, 287, 291, 292, 300, 302	الصوفية
98	الصياغين
50, 122, 277, 278, 279, 280, 281, 282	الطاعون
281, 293	الطبية
10, 29, 55, 72, 155, 250, 257, 268, 284, 286, 289, 290, 292, 293, 298, 302, 324, 345, 362	الطرق الصوفية
287	الطريقة العيساوية
241	الطواحين الهوائية
116	العاج
15	العالم العربي
53, 116, 117, 197, 240, 244, 249, 257, 269	العبيد
17, 26, 60, 192, 249, 268, 313, 321	العثمانيون
36, 64, 69, 70, 72, 83, 157, 158, 195, 200, 229, 231, 233, 245, 247, 269, 292, 300, 310	العثمانيين
20, 27, 35, 39, 53, 60, 68, 134, 163, 164, 165, 166, 167, 201, 203, 204, 208, 218, 230, 240, 247, 288, 296, 324, 336, 350, 353	العرب
106, 109, 153, 162, 163, 164, 166, 244, 258, 354, 355, 357	العرش
76, 80, 102, 104, 108, 196, 197, 201, 202, 203, 205, 207, 208, 214, 217, 219, 220	العشور
258	العشيرة
242	العصية القبلية
66, 80, 169	العلمة
262	العلوم الدنيوية
285	الفتوى
86	الفخارية
262, 291	الفقه
262	ألفية ابن مالك
234	الجنة الحاكمة
269, 272	القاضي الحنفي
269, 272	القاضي المالكي
51, 113, 168, 212, 275, 279, 308	القالا
151	القانون جودان
246	القبائل المتحالفة
300	القداش
75	القرصنة البحرية
17, 64, 87, 94, 102, 122, 123, 129, 142, 171, 178, 181, 183, 186, 188, 221, 232, 247, 296, 314, 316, 317, 321	القل
94, 98, 266	القلالين
279	القنصل الفرنسي قاليار
325	القيادات الشكلية
280	الكتابات النقلية
154, 235, 236, 238, 239, 308, 310	الكراغلة

130, 307	الكنائس
163, 258	الكفدراليات
163, 258	الكفدراليات القبلية
124	اللانكدوك
231	اللجنة الإفريقية
114	الليفوريين
7, 18, 32, 37, 48, 57, 59, 70, 72, 74, 75, 90, 96, 144, 146, 149, 151, 155, 156, 162, 166, 176, 193, 207, 217, 222, 229, 230, 233, 234, 235, 236, 237, 239, 242, 246, 247, 255, 256, 257, 259, 260, 261, 263, 264, 274, 275, 277, 284, 285, 291, 292, 294, 295, 296, 299, 307, 309, 311, 313, 315, 317, 322, 325, 326, 331, 333, 334, 335, 337, 338, 339, 340, 343, 349, 350, 351, 352, 357, 361, 362, 393	المجتمع
259	المجتمع القلي
271	المحكمة الشرعية الحنفية
271	المحكمة الشرعية المالكية
234	المحلات العقابية
234	المحلات لجباية
21, 23, 24	المحمل
263	المخزن
338, 339, 350	المدارس العربية الفرنسية
299, 301	المدرسة الكتانية
263	المذهب المالكي
230, 236, 277	المرأة
269	المسيحيين
16, 20, 54, 61, 309	المسيلة
153, 159, 160, 305, 338	المعمرين
292	المغرب الأقصى
121, 145, 149, 150, 153, 155, 158, 159, 161, 175, 176, 181, 184, 187, 191, 193, 196, 209, 213, 214, 217, 220, 222, 248, 277, 308, 309, 310, 312, 319, 321, 325, 329, 330, 343, 350, 358, 362	المقاومة
153, 163, 172, 197, 207, 212, 213, 316, 322, 339, 352, 356	المكاتب العربية
26, 69	المنصورة
19, 51, 107, 114, 119, 123, 125, 129, 134, 139, 140, 221, 222, 232, 279	الموانئ
20, 38, 41, 54, 83, 84, 107, 197, 198, 243	النمامشة
240	النوازل الطبيعية
241	الهجرة الهلالية
19, 264	الهضاب العليا
272	الهيئة المجلس العلمي
21, 22	الواد الأبيض
16, 100, 101, 115, 116, 133, 266, 286	الوادي
41, 106	الوزناني
275	الوكالة التجارية الفرنسية
71, 147, 148, 154	الوكلاء
21, 22, 23	الولجة
27, 75, 91, 94, 96, 114, 121, 122, 134, 135, 136, 137, 141, 142, 152, 236, 239, 257, 269, 280, 307, 308, 314, 317, 359	اليهود
233	اليونان
21	أم البواقي
15, 87, 89, 93, 113, 114, 116, 130, 133, 163, 239, 259, 290, 329	أوريا

أوروبا الجنوبية	239
أوروبا.....	119, 130, 131, 132, 136, 137, 162, 259, 280
أولاد السايح	286
أولاد بوعون	19
أولاد جبارة	63, 66, 169
أولاد جلاب	283
أولاد جلال	52, 283, 286, 287, 289
أولاد داود	195, 201
أولاد زكري	40, 286
أولاد سلام	19
أولاد سيدي عبيد	41
أولاد عبد النور	19, 60, 67, 82, 84, 102, 133, 201
أولاد عبدي	21, 23
أولاد مقران	18, 39
إيالة الجزائر	128
إيالة الجزائر	9, 230
أيالة الجزائر	27, 44, 75, 114, 229, 231, 275, 285
أيالة تونس	15, 16, 21, 49, 97, 113, 116, 117, 248
ايمريت	263
ابنوغيمسن	22
بابوس	20
بارو 335	
باري	113, 129
باش تارزي	237
باش سراج	28, 30
بالظاهرة العمرانية	286
باي قسنطينة	16, 75, 120, 138, 168, 238, 254, 283, 304, 309, 310
بايلك الشرق	11, 17, 232
بني ولبان	63
بجاية 342, 346, 347, 348	15, 33, 44, 69, 113, 125, 128, 178, 181, 183, 185, 188, 191, 215, 221, 240, 248, 254, 264, 281, 282, 296, 300, 332
بحيرة عين زادة	19
برج بوعبريق	19, 189
برج حمزة	16
برج زمورة	19
بريطانيا	42
بسكرة	15, 21, 22, 33, 40, 52, 61, 102, 116, 170, 188, 189, 191, 240, 283, 310, 322, 360
بكري	113, 114, 121, 122, 136, 140, 145
بلاد الفرنج	279
بن قانة	64, 201, 259, 288
بنك الجزائر	170
بني جلاب	269

16	بني عباس
16	بني منصور
118	بني ميزاب
16	بني وغليس
64	بو حجر
170	بورصة الجزائر
309	بوسعادة
288	بوعكاز الداودة
43	بوغدار
		بيرو 53, 231

ت

132	تافيالات
21, 22, 33, 87, 190, 235	تبسة
240	تجارة المرجان
42, 362	تحالف
16, 20, 106, 115, 116, 133, 243, 249, 269, 286, 287	تقرت
280	تقرير مارشيك
264, 331	تلمسان
249, 289	تماسين
39, 116, 286, 287, 288, 289	توقرت
16, 22, 41, 44, 49, 115, 116, 117, 118, 124, 129, 131, 132, 133, 135, 199, 212, 232, 236, 240, 272, 309, 310	تونس
21, 22	تيمقاد

ث

21, 23	ثنية العابد
--------	-------	-------------

ج

264, 332	جامع القصبة
22, 23	جبال الأوراس
16	جبال البيان
22	جبال النمامشة
42	جبل البايور
22	جبل الرفاعة
21, 22	جبل المحمل
22	جبل تاغدا
20	جبل شيليا
22	جبل عمالي الناس
22	جبل قابل بوجلال
22	جبل قنتيس
16, 18, 23, 49, 208	جرجرة
22	جرمة
51, 278, 280	جريدة المونيتور

11, 17, 18, 33, 42, 43, 44, 52, 95, 190, 221, 232, 246, 281, 283, 316, 317, 343, 348 حيجل

ح

241 حالة البداوة ..
86 حرفة أمين ..
237 حضر مدينة ..
22, 23 حمام الصالحين ..
280 حملة بونايرت بونايرت ..

خ

313 خليج شتورة ..
20, 21, 22, 23 خنشلة ..
23 خنقة سيدي ناجي ..
236 خووجة الخيل ..
23 خيران ..

د

8, 17, 26, 29, 30, 31, 33, 56, 66, 73, 97, 234, 236, 238, 246 دار السلطان ..
100, 251, 265, 267, 268 دفتر الأحباس ..
238 ديوان الاوجاق ..

ر

241 رياض الكدية ..
240 رسوم التولية ..
42, 71, 115 ركب الحج ..
238 رمضان بوشلاق ..
247, 264, 331 روزيت ..
349 روش ..
116 ريش النعام ..
127 ريمورة ..

ز

20, 24 زاغر ..
76 زويجة ..

س

138 سامصون ..
88, 98, 100, 253 سجلات المحكمة الشرعية ..
118 سجلماسة ..
21, 22 سد قم الغرزة ..
21, 22 سد كدية المدور ..

19, 28, 66, 169, 175, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 185, 186, 188, 191, 210, 214, 215, 316, 317, 321, 324, 342, 343, 345, 347	سطف
232, 233, 259, 260, 262, 265, 290, 292, 295, 297, 298, 332, 347, 357, 358	سعد الله
271	سقيفة المسجد
10, 15, 17, 79, 113, 159, 171, 172, 173, 175, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184, 185, 186, 188, 189, 191, 196, 211, 214, 215, 221, 222, 310, 314, 316, 317, 321, 340, 342, 343, 344, 346, 348	سككدة
49	سليمان كاهية
63	سمندو
22	سهل الشريعة
21, 22	سهول بوزينة
240	سواحل القل
20	سوق أهراس
64	سي بلقاسم
166	سياسة التضييق
43, 358	سيدي الشيخ
286, 288	سيدي أمطير
287	سيدي بوجملين
16, 52, 283, 288, 289	سيدي خالد
291	سيدي عبد الرحمان الثعالبي
286	سيدي عيسى بن أمحمد

ش

293	شارل أندري جوليان
263	شارل فيرو
41, 46, 90, 107, 243	شاكر باي
21, 22, 23	شيلة
21, 22	شرفات الغوي
169	شركة جنيفواز
20, 21, 23	شط ملغغ
229	شويتام أرزقي
71, 176, 311	شيخ الإسلام
66, 70, 168	شيخ البلد
103, 133, 288	شيخ العرب
21, 23	شير

ص

10, 16, 26, 27, 34, 38, 39, 41, 62, 70, 71, 72, 79, 81, 99, 104, 107, 236, 238, 241, 260, 262, 264, 266, 267, 268, 275, 296, 299, 300, 332	صالح باي
249	صالح رايس
90, 91	صولسي دو فيليسيان

ض

209	ضريبة البرنوس
209	ضريبة التوزة

195, 209	ضريبة الحكر
209	ضريبة الخطية
197	ضريبة الغريمة
196, 208	ضريبة اللزمة
208, 209	ضريبة المعونة
210	ضريبة المكس
209	ضريبة عزل

ط

241	طاحونة مائية
235	طائفة الأتراك
235	طائفة الكراغلة
68	طريق الحرير
68, 300, 301	طريق الذهب
86	طوائف حرفية
16, 52, 283, 298	طولقة

ع

60, 67, 237	عائلة ابن باديس
63, 66, 71, 72, 237	عائلة الفقون
61, 68	عائلة بن جلول
237	عائلة عبد المؤمن
65	عزل الزوايا
255	عسيرة
15, 17, 28, 33, 42, 50, 51, 61, 65, 66, 69, 77, 90, 102, 113, 119, 122, 124, 125, 128, 131, 136, 139, 141, 142, 158, 168, 169, 173, 174, 176, 178, 181, 183, 184, 186, 187, 188, 190, 204, 210, 212, 214, 215, 221, 232, 234, 240, 264, 265, 275, 276, 279, 280, 282, 283, 296, 299, 304, 306, 307, 308, 309, 310, 313, 314, 315, 316, 320, 321, 332, 340, 342, 345, 346, 357, 362, 398	عناية
240	عيد الفطر
21	عين البيضاء
21, 22	عين التوتة
246, 336, 338, 397, 398	عين مليلة

غ

21, 23	غابات منطقة بلزمة
118	غاط
116	غدامس

ف

118	فأس
27, 110, 247, 265, 332	فايسات
138	فرانسوا الأول
52, 283	فرفار

313	فرقة الصباحية
264, 331	فرنسا
49	فليسة
336	فورة 125
336	فوفل
236	فئة الأعيان
240, 241	فئة البرانية
240	فئة الدخلاء
222, 310	فئة المستوطنين

ق

22, 23, 54, 66, 90, 104, 168, 172, 175, 178, 181, 183, 186, 187, 188, 212, 316, 317, 321, 342, 346, 347	قائمة
162	قانون الشيوخ
152	قانون سلطاني
66, 67, 323, 325, 362	قانون سيناتوس كونسلت
199	قائد السوق
269	قائد الوصفان
199, 210	قايدالباب
201	قايدالعزل
243	قبائل الأوراس
21	قبائل الحراكمة
20	قبائل الحنانشة
36, 246, 247, 263, 323	قبائل الرعية
64	قبائل الزمول
34, 35, 36, 37, 196, 214, 244, 245, 248, 255, 285, 321, 323, 325, 361	قبائل المخزن
244	قبائل متعاونة
21, 197, 243	قبيلة الحراكمة
20, 54, 259	قبيلة الحنانشة
300	قبيلة الذواودة
19	قبيلة أولاد المقراني
19, 80, 196, 245	قبيلة أولاد عبد النور
62	قبيلة عامر الشرقية
62	قبيلة مخزنيه
40	قرية بني زياد
9, 10, 11, 12, 15, 16, 17, 19, 20, 23, 26, 27, 28, 29, 30, 33, 35, 39, 41, 42, 43, 44, 45, 49, 50, 51, 52, 53, 58, 60, 61, 63, 64, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 76, 77, 78, 79, 81, 84, 86, 87, 88, 90, 91, 93, 95, 96, 97, 98, 99, 100, 102, 103, 105, 109, 110, 111, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 122, 123, 124, 131, 132, 137, 138, 141, 146, 157, 159, 160, 161, 162, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 185, 186, 188, 189, 190, 191, 194, 196, 199, 210, 211, 214, 217, 218, 219, 220, 230, 232, 234, 235, 236, 237, 238, 239, 240, 241, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 251, 252, 253, 255, 261, 262, 263, 264, 265, 266, 267, 268, 269, 271, 279, 280, 282, 287, 296, 298, 299, 300, 301, 308, 309, 311, 313, 314, 316, 317, 320, 323, 324, 326, 332, 340, 341, 342, 343, 344, 345, 346, 347, 350, 355, 356, 357, 358, 359, 360, 362, 393, 394, 398, 425	قسنطينة ..
300	قفاريل
21, 22	قمة شيليا
21, 22	قسم أشمول

ك

118	كانو
279	كرنتينه
146, 156, 173, 329, 334	كلوزيل
335	كوسان دو بيرسوفال
50, 141, 279	كيبار

ل

275	لازاريست
311	لجنة أدهوك
286	لقبيلة أولاد نايل
62	لقبيلة بني مهنة
293	للشايبة
52, 283	ليشانة
124	ليفرونا
128, 158, 350	ليون

م

136, 142	ماصون
	مجانة 18
269	مجلس القبيلة
267	مدرسة الجامع الأخضر
266	مدرسة سيدي الكتاني
267	مدرسة سيدي بومصيبة
115	مدينة الكاف
286	مدينة الهامل
116	مدينة ريغ
43	مرج السكر
237, 241	مرداس
114, 120, 121, 122, 123, 125, 126, 127, 128, 129, 132, 135, 136, 138, 142, 280	مرسليا
11, 98, 99, 100, 263, 268	مرسي
265	مسجد ابن باديس
237	مسجد بني فرقان
174, 175	مشئلة
232	مشروع ماسي
353	مشروع نابليون
42, 51, 113, 115, 121, 122, 128, 151, 280	مصر
21, 22	معافة
239	مقدم اليهود
325	ملكية الشيوخ
240	مملكة تونس

21, 22	مناطق القصور
233	منطقة البلقان
116	منطقة الجريد
118, 134	موروا
	ميلة 42, 168, 251

ن

71, 154	ناظر الأوقاف
70	ناظر بيت المال
72, 153, 157, 160, 161, 323, 397	نزع الملكية
105, 110, 167, 255	نظام الحماسة
293	نقيب الأشراف

و

15, 16	واد الصومام
21	واد الطاقة
21	واد الناقص
22	واد بني فضالة
21	واد بوايغسان
21, 22	واد تيجردة
21	واد منتانا
15, 69, 71	وادي الرمال
66, 168, 169	وادي الزناتي
22	وادي الصومام
21, 22	وادي العرب
69	وادي بومرزوق
16	وادي جدي
53, 287, 289	وادي ريغ
22	وادي مية
102, 196, 247	وجبال البابور
16, 53, 115, 116, 118, 133, 249	ورقلة
236	وهران

ي

232	ياكونو
-----	--------

06.....	مقدمة :
14.....	الفصل الأول: لمحة عامة عن الشرق الجزائري بين 1804 – 1871.....
15.....	المبحث الأول: موقع والجغرافية الشرق الجزائري
25.....	المبحث الثاني: النظام الإداري في الفترة العثمانية
37.....	المبحث الثالث: الثورات والانتفاضات والمقاومات الشعبية 1804- 1871 م
58.....	الفصل الثاني : الوضع الاقتصادي في الشرق الجزائري(الفترة العثمانية) 1804-1830 م.....
59.....	المبحث الأول: المقومات الاقتصادية للشرق الجزائري في الفترة العثمانية
86.....	المبحث الثاني: الأسواق والمرافق التجارية في مدينة قسنطينة.....
101.....	المبحث الثالث: السياسة الضريبية مظهر للتسلط نهاية الفترة العثمانية في الشرق الجزائري.....
113.....	المبحث الرابع: التجارة الخارجية في الشرق الجزائري (الصادرات والواردات)
143.....	الفصل الثالث: التطورات الاقتصادية في الشرق الجزائري1837-1871م.....
144.....	المبحث الأول: التشريعات الفرنسية للملكية العقارية في الشرق الجزائري.....
161.....	المبحث الثاني: أساليب اغتصاب الأراضي لبناء الاقتصاد الكولونيالي في الشرق الجزائري.....
174.....	المبحث الثالث: تطور الزراعة الكولونيالية على حساب الزراعة التقليدية.....
192.....	المبحث الرابع: تطورات جباية الضرائب وتنظيمها في العهد الفرنسي في الشرق الجزائري.....
223.....	المبحث الخامس: مقارنة تطورات الوضع الاقتصادي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية.....
228.....	الفصل الرابع : الوضع الاجتماعي في الفترة العثمانية1804- 1836 م
229.....	المبحث الأول: البنية الاجتماعية في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية.....
250.....	المبحث الثاني: الواقع الاجتماعي في الشرق الجزائري أواخر الفترة العثمانية.
261.....	المبحث الثالث : التفاعل بين الفئات الاجتماعية في الشرق الجزائري.....

303.....	الفصل الخامس: التطورات الاجتماعية خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1837-1871 م.....
304.....	المبحث الأول: تغير البنية الاجتماعية للمدن في الشرق الجزائري.....
323.....	المبحث الثاني: تراجع الحياة الاجتماعية في الريف وانقسام بنية القبيلة.....
328.....	المبحث الثالث: الأقلية الأوربية وأثرها على الحياة الاجتماعية.....
351.....	المبحث الرابع: ذروة الانفجار الاجتماعي في الشرق الجزائري.....
364.....	المبحث الخامس: مقارنة تطورات الوضع الاجتماعي بين الفترة العثمانية والفترة الفرنسية.....
368.....	لخاتمة.....
374.....	ملاحق البحث.....
384.....	البليوغرافيا.....
399.....	الفهارس.....
417.....	فهرس المحتوى.....

تمت بحمد الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية